

المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم السيرة والتاريخ

١٤١٥ / ١ / ١٨ هـ
د/ محمد عيسى

د/ محمد عبدالمجيد

المترجم
د/ محمد عبدالمجيد

١٤١٤ / ١ / ١٨ هـ

د/ محمد عبدالمجيد

الخلافة العباسية في مصر

في عصر المماليك

(٦٥٩-٩٢٣ هـ)

٩٦٤
٢٤٤

رسالة مقدمة للحصول على
درجة العالمية العالية «الدكتوراة»

إعداد

الطالب / عبد العزيز بن صالح الغامدي

إشراف

فضيلة الدكتور / عبد الله بن علي المسند

١٤١٤ / ٥ / ١٤١٥ هـ



المقدمة

وفيها :

موضوع البحث

سبب اختيار الموضوع

خطة البحث

منهج كتابة البحث

مصادر البحث

اهم الصعوبات

شكر وتقدير

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد
أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله .

✽ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ✽ .

• (آل عمران : ١٠٢) .

✽ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما
رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم
رقيبا ✽ .

• (النساء : ١) .

✽ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ✽ يملح لكم أعمالكم ويغفر لكم
ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ✽ (الأحزاب : ٧٠ ، ٧١) .

أما بعد :

فقد حث الله عز وجل عباده المؤمنين بتدبر آياته ، والتفكر في مخلوقاته ، والنظر
في أحوال الأمم السابقة لأخذ العبرة والعظة مما أصابها ، وقصّ عز وجل علينا في كتابه
الكريم الكثير من أخبار تلك الأمم وأحوالها ، ومواقفها من أنبيائه ورسله عليهم أفضل الصلاة
وأزكى التسليم ، فمنها من أطاع فغَنِمَ وسَلِمَ ، ومنها من عصى فغرِمَ وندم .

وحذر الله عز وجل الأمة الاسلامية وهي خير أمة أخرجت للناس ، من أن يحل
بها ما نزل بالأمم السابقة بسبب اعراضها عن دينها وعن طاعة ربها ، واتباع سنة نبيها
صلى الله عليه وسلم ، فقال عز من قائل - مبينا الحكمة من ذلك القصة الذي ورد في
القرآن الكريم - : ✽ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثا يفترى

ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ✽ .

• (يوسف : ١١١) .

(ب)

وقال تبارك وتعالى : * أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * .
(الروم : ٩) .

وقال سبحانه : * أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور * .
(الحج : ٤٦) .

وقال تقدست أسماؤه : * تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين * . (هود : ٤٩) .

ومن الوسائل التي تساعد على ادراك تلك الحقائق ، وتدبر هذه الآيات الكريمة وغيرها مما اشتمل على قصص الأمم السابقة ، وأخذ الدروس والعبر ، دراسة التاريخ ، وعلى وجه الخصوص التاريخ الذي دونت فيه أحداث الدعوة الإسلامية ، وأخبار خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام ، وجهوده العظيمة في تبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، والنصح لهذه الأمة .

والتاريخ الإسلامي ليس مقصوراً على الحوادث والمعارك ، بل هو تاريخ دين وعقيدة ، التي – بفضل الله تعالى – كانت هي الأساس الذي قامت عليه الدولة الإسلامية بنظرتها المتميزة عن الدين والحياة ، والكون وعجائبه ، وعن الإنسان ورسالته في الحياة ، وعن الحكمة من الوجود في هذه الدنيا ، والغاية من ذلك .

وعُرف التاريخ في اللغة : بالاعلام بالوقت ، يقال : أرخت الكتاب ، وورخته أي بينت وقت كتابته ، وتاريخ المسلمين أرخ من سنة الهجرة النبوية بأمر من عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – في خلافته ، فمار تاريخاً الى اليوم .

(ت)

وفي الاصطلاح هو : التعريف بالوقت الذي تنضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة ، وصحة ، وعقل ، وبدن ، ورحلة ، وحج ، وحفظ ، وضبط ، وتوثيق ، وتجريح ، وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم ، وحالهم ، واستقبالهم ، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملة ، وتجديد فرض ، وخليفة ووزير ، وغزوة ، وملحمة ، وحرب ، وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه ، وانتقال دولة ، وربما يتوسع فيه لبدء الخلق ، وقصص الأنبياء ، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية ، وأحوال القيامة ومقدماتها مما سيأتي ، أودونها ، كبناء جامع أو مدرسة أو قنطرة أو رصيف ، أو نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد ، أو خفي سماوي كجراد ، وكسوف ، وخسوف ، أو أرضي كزلزلة ، وحريق ، وسيل ، وطوفان ، وقحط ، وطاعون ، وموتان ، وغيرها من الآيات العظام والعجائب الجسام .

ثم يضيف السخاوي رحمه الله ، مبينا موضوع هذا العلم وفائدته ، فيقول :

" وأما موضوعه ، فالإنسان والزمان ، ومسائله أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان .

وفائدة التاريخ معرفة الأمور على وجهها " . ثم يضيف أجل تلك الفوائد وهي : أنه أحد الطرق التي يعلم بها النسخ في أحد الخبرين المتعارضين المتعذر الجمع بينهما ، وللمعرفة صدق الرواة من كذبهم فيما يروونه ، واستشهد على ذلك بمقولة سفيان الثوري رحمه الله : " لما استعمل الرواة الكذب ، استعملنا لهم التاريخ " ، وقول حسان ابن زيد : " لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ ، يقال للشيخ : سنة كم ولدت ؟ فإذا أقر بمولده مع معرفتنا بوفاة الذي انتمى إليه ^(١) ، عرفنا صدقه من كذبه " . (٢)

(١) انتمى إليه : أي نقل عنه ذلك الحديث أو ذلك الخبر .

(٢) السخاوي : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١٧ - ١٩ ، ٢٣ - ٢٤ .

(ث)

واهتم علماء المسلمين بعلم التاريخ ، وأفردوا له المؤلفات التي اشتملت على الحوادث التاريخية في عصرهم ، وأضافوا إليها ما وصل إليهم من أخبار السابقين لهم ، وبذلك تكاملت الكتابة التاريخية لتشمل الفترات التاريخية المختلفة .

(ج)

سبب اختيار الموضوع :

~~~~~

بعد أن منّ الله تعالى - بفضلِه وتوفيقه - عليّ بالانتهاء من مرحلة الماجستير في هذه الجامعة المباركة ، تطلعتُ الى اكمال مرحلة العالمية العالية ( الدكتوراه ) في التاريخ الاسلامي ، وبدأ التفكير في اختيار موضوع البحث لهذه المرحلة وكان هناك عدد من المواضيع ، ثم تحدد العزم على أحدها وهو بعنوان :

( الخلافة العباسية في مصر في عصر المعاليك ٦٥٩ - ٩٢٣ هـ )

ومن أسباب التركيز على هذا الموضوع ، هو محاولة اكمال الحديث عن الخلافة العباسية في بغداد ، الذي بدأته في مرحلة الماجستير ، فقد مرت بلاد الاسلام بظروف عصيبة بعد اجتياح المغول لعاصمة الخلافة العباسية ( بغداد سنة ٦٥٦ هـ ) ، ورافق ذلك تزايد أطماع القوى الصليبية ببلاد الشام في احتلال مواقع جديدة من البلاد الاسلامية بالشام ، فكان اعلان قيام الخلافة العباسية الثانية بالديار المصرية حدثا هاما في تاريخ العالم الاسلامي ، يستحق الوقوف عنده ودراسة النتائج التي ترتبت عليه .

وقد أدت المسارعة لاتخاذ تلك الخطوة الموفقة الى اعادة ترتيب أوضاع

الدولة الاسلامية ، حيث توجهت الأنظار نحو عاصمة الخلافة الجديدة ( القاهرة ) التي أصبحت مقر الخلافة ، ومركز القوة الضاربة للدولة الاسلامية ، بعد التفاق القادة والرعية حول الخلافة ، مما قوى الجبهة الداخلية لدولة الخلافة ، وزاد من تماسكها لمواجهة أعدائها على الجبهة الخارجية ، وتم بفضل الله مدّ أطماع أعداء الاسلام والمسلمين ، فتمّ دحر المغول ، ورجعوا خائبين يجرون أذيال الهزيمة ، وحررت بلاد الشام من الوجود الصليبي ، وانطلقت جيوش الحق حتى دخلت جزيرة قبرص ، وأخضعتها للسلطان المملوكي تحت ظل الخلافة العباسية بالديار المصرية ، وبقيت الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية تزدان عن حمى الاسلام ، حتى

أذن الله بزوال ذلك المنصب ، وانتهاء نفوذ تلك السلطنة ، قال تعالى : \* وتلك الأيام  
نداولها بين الناس ..... \* ( آل عمران : ١٤٠ )

#### خطة البحث :

مممممممممممممممممم

نظرا لطول المدة الزمنية لهذا البحث ، فقد حرصت على وضع الخطة العلمية  
المناسبة التي يتم من خلالها تغطية تلك الفترة من جهة ، والتطرق لكافة جوانبه من جهة  
أخرى - بقدر الاستطاعة والامكان - ، فترتبت خطة البحث في : مقدمة ، وثلاثة  
أبواب على النحو التالي :

الباب الأول : ( قيام الخلافة العباسية في مصر ) ، ويشتمل على الفصول التالية :

الفصل الأول : أسباب سقوط الخلافة في بغداد وحال العالم الاسلامي بعد سقوطها .

الفصل الثاني : قيام الخلافة العباسية بمصر .

الفصل الثالث : السلاطين المماليك في مصر .

الباب الثاني : ( الأوضاع الداخلية في ظل الخلافة العباسية بمصر ) ، وفيه الفصول التالية :

الفصل الأول : العلاقة بين الخلفاء العباسيين والسلاطين المماليك .

الفصل الثاني : مظاهر الحياة العامة في عصر الخلافة العباسية .

الفصل الثالث : الاملاحات الداخلية في ظل الخلافة .

الباب الثالث : ( العلاقات الخارجية في ظل الخلافة العباسية بمصر ) ، وفيه الفصول

التالية :

الفصل الأول : حركة الجهاد ضد المغول .

الفصل الثاني : حركة الجهاد ضد الملبيين .

الفصل الثالث : العلاقات مع الدول الاسلامية .

ويليها الخاتمة ، وفيها ملخص يبيّن أهم النتائج التي تطرق اليها البحث من خلال



( خ )

اعداد هذه الدراسة .

ثم الفهارس التفصيلية للآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ،  
والأعلام ، والأماكن والبلدان ، والأشعار ، والمراجع والمصادر ، وموضوعات  
البحث .

رفع مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك

## مراحل كتابة البحث :

مــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

أما مراحل كتابة هذا البحث ، فقد بدأت أولى المراحل بحصر - شبه شامل - للمصادر والمراجع التي تناولت هذه الفترة من التاريخ الاسلامي ، ثم قمت بوضع قائمة بأسماء تلك المصادر والمراجع ، وبقية المعلومات عنها ، والمكتبة العلمية الموجودة فيها من خلال المكتبات الجامعية المتوفرة ، ثم بدأت بعد ذلك في المرحلة الثانية ، وهي الوقوف على تلك المصادر التاريخية أولا ، ثم المراجع العلمية الحديثة التي تناولت جوانب مختلفة من هذه الدراسة ، ثم قمت بالبحث عن المعلومات الخاصة بهذه الفترة في المجلات العلمية المتخصصة بالتاريخ ، وغيرها من الدوريات العلمية ، وذلك للاطلاع عما كتبه الباحثون عن هذه الفترة التاريخية التي هي موضوع البحث ، وبعد أن أتممت تلك المراحل بدأت - مستعينا بالله عزّ وجلّ - في كتابة المادة العلمية لهذه الدراسة حسب خطة البحث ، وكانت الكتابة حسب تسلسل أبواب وفصول الدراسة حرصا على تنظيم العمل والاستفادة من الوقت المحدد لانجاز هذه الدراسة .

**ولا يفوتني هنا أن أشير الى بعض الجوانب المتعلقة بهذه الفترة التاريخية ،**  
فقد تكونت لدى بطاقات متعددة عن القضاة ، ونظام القضاء ، حال القبائل العربية بمصر والشام والجزيرة العربية ، والنواحي العسكرية للدولة ، وأوضاع أقاليم الدولة وأحوالها ، والنواحي الأمنية ، بالإضافة الى جوانب اقتصادية ، واجتماعية ، تتمثل بهذه الفترة ، وهي في بطاقات خاصة بكل جانب منها ، وسوف تضاف الى البحث لاحقا ان شاء الله تعالى ، ليكون بمثابة دراسة شاملة عن هذه الفترة الزمنية من تاريخ الأمة الاسلامية في العصور الوسطى .



## مصادر البحث :

ممنمممممممممممممممممم

نظرا لتنوع المادة العلمية لهذه الدراسة ، فقد تعددت المصادر والمراجع التي جُمعت منها ، وفيما يلي الإشارة الى أهم تلك المصادر والمراجع العلمية التي اعتمدت عليها في كتابة هذا البحث :

كتاب ( بدائع الزهور في وقائع الدهور ) : لابن اياس ، ت . ٩٣٠ هـ .

وحرصا مني على الاستفادة التامة من هذا المصدر ، فقد قمت بقراءته قراءة كاملة ، وذلك رغبة مني في جمع الأخبار والحواث المتعلقة بالخلافة العباسية بالديار المصرية .

وتظهر أهمية هذا الكتاب من خلال مؤلفه الذي عمل بوظائف متعددة بالقاهرة ، فكان بمثابة شاهد عيان للحوادث التي أوردها في كتابه ذلك لصلته بالسلطان المملوكي وكثرة مجالسته له ، أما الحوادث السابقة له فقد نقلها ابن اياس عن والده الذي تولى وظائف هامة بالدولة ، وكان أحد الأمراء البارزين في جيش الخلافة العباسية ، والسلطنة المملوكية بالديار المصرية .

ومما يتميز به ابن اياس رحمه الله في ذلك الكتاب ، أنه لم يقتصر على الأوضاع الداخلية للخلافة بمصر ، وإنما كان يشير الى النواحي الخارجية والعلاقات مع الدول الأخرى ، ويضاف الى ذلك اعطاؤه صورة واضحة عن النواحي الأمنية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية التي تمر بها الدولة الإسلامية في عصره ، وذكره لوظائف الدولة والتنقولات المتكررة لمن يتولاها بناء على الأوامر السلطانية المادية بذلك .

يضاف الى ذلك تفسيره لبعض الحوادث والمواقف ومحاولة نقد بعض التصرفات التي تصدر من الخاصة والعامة ، وبيان بعض الحلول التي يمكن من خلالها ايجاد مخرج للأزمات التي كانت تعاني منها الخلافة والسلطنة بمصر ، سواء أكانت تلك الأزمات

اقتصادية ، أو سياسية ، أو صراعات بين القوى المتنافسة من الأمراء المماليك بالديار المصرية والبلاد الشامية .

**وبما أن مسـجـال البحث يدور حول الخلافة العباسية بمصر ، فلا غرابة أن يكون ابن اياس وكتابه بدائع الزهور المصدر الأول للمعلومات التي تناولت تاريخ الخلافة العباسية والأحداث التي وقعت في تلك الفترة الزمنية ، خاصة بعد استفادته ممن جاء قبله من مؤرخي الديار المصرية ، من أمثال : ابن تغرى بردى ، والمقريـزى وغيرهما .**

**ومن مصادر هذا البحث كتاب ( النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ) لابن تغرى بردى رحمه الله ، ت ٨٧٤ هـ .**

وقد تناول مؤلفه الحوادث التاريخية في عاصمة الخلافة العباسية بالقاهرة والبلاد الشامية ، وسار في ترتيب تلك الحوادث على السنين ، فيذكر في كل سنة الحوادث التي وقعت فيها حسب الشهور مع تحديد اليوم في أغلب الأحيان .

وكان تقسيم المدة الزمنية لتلك الحوادث حسب عهود الملوك والسلاطين فإذا انتهت تلك المدة بوفاة ذلك السلطان عاد من جديد ليسرد الوفيات وأخبار متفرقة أخرى حسب وقوعها في تلك المدة ، كل سنة بما وقع فيها من حوادث .

وتشمل هذه الأخبار تراجم للعلماء والأعلام حسب وفياتهم ، ومما يمتاز به ابن تغرى بردى من خلال هذا الكتاب – فضلا عن كونه عاصر تلك الحوادث بنفسه – النقد والتعليق والتحليل للمواقف وابداء وجهة نظره فيها ، وذكره للأسباب التي تخفى على غيره ممن سمع بذلك الخبر . وينتقد ابن تغرى بردى في كثير من الأحيان بعض التصرفات التي تصدر من السلاطين والأمراء المماليك مع بيـسان الأسلوب الأمثل لمعالجة الأزمات التي كانت تمر بها الدولة الإسلامية في عصره ،

وبيان أسباب نجاح أو فشل رجال الدولة فيما وكل اليهم من مهام ، أو تقلدوه من مناصب ، وذلك في معرض تعقيبه على تلك الحوادث .

ومن المصادر التي استفدت منها في هذا البحث : مؤلفات الامام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي<sup>٧٤٨هـ</sup>، ومنها كتاب : ( العبر في خبر من غير ) ، وكتاب ( سير أعلام النبلاء ) :

وقد عايش المؤرخ الذهبي فترة من نفوذ السلاطين المماليك وعلان قيام الخلافة والسيطرة على الديار المصرية ، ثم البلاد الشامية ، وأشار الى الحوادث الهامة التي عايشها في كتابه ( العبر في خبر من غير ) الذي رتبته على السنين التي مرت بها البلاد الشامية في ظل الصراع بين المماليك وبمصر ، والأيوبيين بالشام ، حتى خضعت مصر ، ثم تبعتها الشام للنفوذ المملوكي بعد أن عجز الأيوبيون عن استرداد نفوذهم على تلك البلاد في ظل قوة حكم السلاطين المماليك التي بدأت تتنامى مع مرور الوقت .

ومن المصادر التاريخية التي اعتمدت عليها في اعداد هذه الرسالة كتاب ( البداية والنهاية ) لابن كثير دمشقي ، ت ٧٧٤ هـ .

وقد اشتمل هذا الكتاب على حوادث تاريخية هامة مرت بها الدولة الاسلامية ، وتظهر أهمية هذا المصدر التاريخي من خلال المادة التاريخية التي جمعها ابن كثير ودونها في كتابه ، فقد أشار الى بدء الخلق ، وأخبار الأمم السابقة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم النبوة ، والسيرة النبوية ، والأحداث التي رافقت البعثة ، ثم الهجرة الى المدينة ، والمغازي ، ثم الخلافة الراشدة ، وأخبار خلفاء بني أمية ، ثم بني العباس ، ثم قيام الخلافة ثانية في الديار المصرية .

ومما يؤكد أهمية هذا المصدر ، معاصرة الحافظ ابن كثير رحمه الله لفترة تاريخية من أهم فترات البحث ، فكانت معلوماته عن معاينة لتلك المواقف ، واطلاع عليها

( س )

عن قرب ، فنجد ه رحمه الله يروى ملاحم البطولة والجهاد في سبيل الله التي أيداهما  
المجاهدون المسلمون في تصديهم لزحف المغول على ديار الإسلام ، وخاصة البلاد  
الشامية ، وكان رحمه الله يظهر حزنه وتألمه على ما نزل بالأمة الإسلامية من نوازل ،  
ويكثر من قول : **انا لله وانا اليه راجعون** ، ويظهر رحمه الله فرحه وسروره بانتصار  
الإسلام وأهله على أعدائهم بكثرة حمد الله عزّ وجلّ ، والاعتراف بفضلهم ومنه  
على المسلمين .

ومن المصادر التي اعتمدت عليها في إعداد هذه الدراسة : مؤلفات مؤرخ الديار المصرية  
ن ٥٨٥٢  
أحمد المقرئ ، وفي مقدمتها كتاب ( السلوك في دول الملوك ) :

حيث فصل فيه مؤلفه الحديث عن أحوال الديار المصرية والبلاد الشامية خاصة  
في ظل النزاع بين السلاطين المماليك وكبار الأمراء والنواب بنواحي الشام ، مع إشارة  
المقرئ في أثناء حديثه عن حوادث كل سنة إلى الوفود القادمة إلى عاصمة الخلافة  
العباسية ، والأماكن التي قدمت منها ، ورسائل الخلافة والسلطنة إلى خارج مصر ،  
والإشارة إلى النواحي الأمنية وأحوال الثغور والسواحل البحرية ، بالإضافة إلى اهتمام  
المقرئ رحمه الله بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية للدولة الإسلامية ، وبيان أسباب  
الأزمات الاقتصادية التي كانت تعمق بالمجتمع الإسلامي ، والأمراض الاجتماعية وملاحم  
الطبقة بين فئات المجتمع المسلم التي كادت تغلب على الناحية الاجتماعية من  
خلال بعض تصرفات الخاصة ورجال الدولة .

والمؤلف الثاني للمقرئ في هذه الفترة هو ( المواعظ والاعتبار بذكر الخطط

والآثار ) :

وفيه فصل تخطيط القاهرة ، فذكر مساجدها ، وآثارها ، ومدنها ، واستعرض تاريخ  
تلك المدن قبل الإسلام وبعد فتح المسلمين لها ، مع الإشارة إلى كثير من الحوادث  
التاريخية أثناء حديثه المسهب عن تلك المواضع بالديار المصرية .



( ش )

والمؤلف الثالث للمقريزي كتاب ( اغاثة الأمة بكشف الغمة ) :

وفيه برزت آراؤه في محاولة اصلاح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها البلاد المصرية في عصره ، وحاول تعيين الدواء المناسب بعد أن عرف الداء الذي انتشر في أنحاء الدولة مع اشتداد الأزمات الاقتصادية وغلاء الأسعار في ظل سيطرة الاحتكار ونظام الاقطاع ، وتعاقب القحط ، وقلة الأمطار ، وعدم الأقوات ، وفشور الأمراض والأوبئة ، مع رسده لسعر الدينار والدرهم بين الحين والآخر بعد أن انتشر الغش في أوزانهما .

ومن المصادر التاريخية التي استفدت منها كتاب ( عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ) لبدر الدين محمود بن العيني ، ت ٨٥٥ هـ .

وقد سار في كتابه هذا في سرد الحوادث على السنين ، فيذكر أهم الحوادث ، ثم يتبع ذلك بعنوان ذكر بقية الحوادث ، ثم قبل نهاية السنة يشير الى وفيات تلك السنة مبتدءاً بالعلماء ، والأمراء ، والأعلام ، مع ذكر تراجم مختصرة لكل منهم . وقد استفاد ابن العيني في كتابه هذا من المادة التاريخية التي اشتمل عليها كتاب ( البدايات والنهاية ) لابن كثير ، و ( الروضتين في أخبار الدولتين ) لأبي شامة ، حيث أكثر من النقل عنهما .

ومن المصادر التي استفدت منها كتاب ( تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ) للحسن ابن عمر بن حبيب ، ت ٧٧٩ هـ .

وقد جمع في كتابه هذا الحوادث الواقعة في سلطنة المنصور قلاوون وأبنائه من بعده ، وتعد هذه الفترة من أصعب الفترات التي مرت بها الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية بالديار المصرية ، وسار ابن حبيب في كتابه هذا على ذكر الحوادث والأخبار مرتبة على السنين ، فيذكر الحوادث حسب ترتيب الشهور في السنة الواحدة ، مع ذكر الوفيات للأعلام من العلماء والأمراء وغيرهم .

ومن المصادر التي استفدت منها كتاب ( صبح الأعشى في صناعة الانشا ) للقلقشندي ،  
ت ٨٢١ هـ وخاصة فيما يتعلق بوصف أقاليم مصر ، ونيابات السلطنة في الديار المصرية  
والبلاد الشامية .

ونظرا لعمل القلقشندي في دواوين الدولة ، فقد جمع في كتابه ذلك الكثير من المراسيم  
والمراسلات التي صدرت في تلك الفترة التي عاصر أحد اثها بنفسه .

ومن المصادر التي استفدت منها : كتاب ( نهاية الأرب في فنون الأدب ) للنويري ،  
ت ٧٣٣ هـ وهو من الموسوعات العلمية التي ظهرت في هذا العصر ، وبرزت في أكثر من علم ،  
ويؤكد هذا ما احتواه هذا الكتاب من أخبار وحوادث عاصرها النويري بنفسه ، وكان شاهد  
عيان على وقوعها .

ومن المصادر التاريخية التي استفدت منها ، كتاب ( التحفة الملوكية في أخبار  
الدولة التركية ) ، وهو لأحد المؤرخين الذين عاصروا قيام الخلافة العباسية الثانية  
في مصر ، وممن عمل في الوظائف الهامة في السلطنة المملوكية ، ويعرف ببيبرس المنصوري ،  
ت ٧٢٥ هـ وقد حاولت قدر الاستطاعة الاستفادة من هذا الكتاب ، خاصة فيما يتعلق بجهود  
السلطين في جهاد المغول ، واخراج الحلبيين من البلاد الشامية ، وذلك لصعوبة  
عبارات مؤلف الكتاب التي تحتاج الى جهد مضاعف لفهمها ثم الاستشهاد بها .

ومن المصادر التاريخية التي استفدت منها ، كتاب ( الجواهر الثمين في سير الملوك  
والسلطين ) : لابن دقماق ، ت ٨٠٩ هـ .

وقد تناول المؤلف في كتابه هذا ذكر فترات تاريخية ابتدأها بذكر خلافة  
الصديق رضي الله عنه ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، رضي الله تعالى عنهم ،  
ثم الخلافة الأموية ، ثم الخلافة العباسية ، ثم تناول مصر وملوكها ، فذكر الأيوبيين ،  
ثم تسلم المماليك ملك مصر حتى اعلان قيام الخلافة العباسية بالديار المصرية .

( ض )

وقد سار في ذكر الأخبار والحوادث على السنين ، فيذكر السنة وما حصل فيها من مبايعة خليفة أو سلطان ، مع الإشارة الى الأوضاع الداخلية من فتن بين الأمراء ، وغلاء الأسعار ، وقلّة مؤن ، بالإضافة الى ذكر الوفود القادمة الى عاصمة الخلافة ، أو المغادرة لها ، وجهاد الأعداء من مغول و صليبيين .

ومن المصادر التي استفدت منها ، كتاب ( تاريخ الخلفاء ) ، وكتاب ( حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ) ، وهما للسيوطي ، ت ٩١١ هـ .  
ومنها كتاب ( الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ) للسخاوي ، ت ٩٠٢ هـ .

هذا بالإضافة الى قائمة المصادر التي تفاوتت الاستفادة منها في اعداد هذا البحث .

أما المراجع التي استفدت منها في كتابة هذا البحث ، فهي عديدة ، يأتي فسي المقدمة من حيث الأهمية وقد ر الاستفادة منها كتاب ( العصر المالكي في مصر والشام ) ، وكتاب ( الأيوبيون والمالكي ) ، وكتاب ( مصر في عصر المالكي البحرية ) وهي للأستاذ الدكتور سعيد عاشور ، ومنها كتاب ( تاريخ دولة المالكي البحرية ) لعلي ابراهيم حسن ، وكتاب ( المغول ) ، وكتاب ( المالكي ) وهما للدكتور السيد الباز العريني ، وكتاب ( المغول والمالكي ) لأحمد عبد الكريم سليمان .

هذا بالإضافة الى قائمة متنوعة من المراجع العلمية التي استفدت منها فسي

كتابة فصول هذا البحث .

وعن المجالات العلمية والدوريات التي رجعت اليها ، فقد حرصت على الاستفادة من المجالات والدوريات التاريخية بالدرجة الأولى ، وذلك للوقوف على ما يتصل بمادة البحث ومدته الزمنية ، ثم تأتي بعد ذلك الدوريات العلمية المختلفة حسب ورودها في الفهرس الخاص بها ضمن الفهارس الخاصة بالبحث .

بعض الصعوبات التي واجهتني :

~~~~~

أما الصعوبات التي واجهتني أثناء اعداد هذا البحث فهي متعددة ، ولكن
يسر الله عزّ وجلّ بفضلله وتوفيقه التغلب عليها ، حتى تم اخراج هذه الدراسة على
النحو الذي هي عليه ، ويأتي في مقدمة هذه الصعوبات :

— صعوبة موضوع الدراسة نفسه ، حيث أنه يستلزم جهدا مضاعفا من الاطلاع ،
ليخرج بالصورة المرجوة ، لأن عنوان الدراسة يتناول فترات ذات أحداث عصيبة
من تاريخ الدولة الاسلامية .

— ومنها طول الفترة الزمنية المحددة ، وهي تزيد على مائتين وستين عاما ،
وكانت هذه المدة مليئة بالحوادث والوقائع الداخلية والخارجية في ظل الخلافة
العباسية التي امتد نفوذها حتى شمل جميع البلاد الشامية ، وجزيرة قبرص ،
والأقطار الحجازية التي تضم الأماكن المقدسة بمكة والمدينة ، ثم الموانئ الهامة
جده وينبع ، بالإضافة الى السواحل الغربية للبحر الأحمر ، حتى جنوب السودان ،
والأطراف الشمالية الغربية لبلاد العراق حتى نهر الفرات ، والسواحل البحرية
على البحر الأبيض المتوسط .

— ومنها كثرة المصادر والمراجع التاريخية لهذه الفترة الزمنية ، التي تحتاج
الى قراءتها قراءة كاملة للحصول على خبر يتناول الخليفة والخلافة العباسية
بالديار المصرية ، وذلك لقلّة تلك الأخبار التي تعرضت للخليفة نفسه ، وأحوال
الخلافة ، بينما نجد أنها أسهبت في الحديث عن أحوال السلطنة المختلفــة
وفصلت في الحوادث والوقائع والفتن الداخلية التي مرّت بها السلطنة في ظل
الخلافة العباسية ، ومحاولة مني للحصول على أكبر قدر من المعلومات عن الخليفة
العباسي ، وأحوال الخلافة ، قرأت أهم المؤلفات التاريخية التي تناولت هذه الفترة

(ظ)

موضوع الدراسة من الغلاف الى الغلاف ، وفي مقدمة هذه الكتب التي قمت
بقراءتها : النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، السلوك للمقريزى ، بدائع
الزهور في وقائع الدهور لابن اياس ، وذلك حرصا مني على عدم فوات خبر
أحداثه تتناول الخلافة العباسية بالديار المصرية ، وعملا بأراء الأساتذة
الأفاضل الذين استشرتهم في جوانب من هذا البحث ، مثل : الأستاذ الدكتور
سعيد عبد الفتاح عاشور ، والأستاذ الدكتور حامد غنيم ، والأستاذ الدكتور
سامي الصقار ، مع توجيهات أساتذتي الكرام الذين أشرفوا على اعداد هذه
الدراسة .

- ومن هذه الصعوبات - وهي أهمها - : تغيير المشرف على هذا البحث
أكثر من مرة في فترات متقاربة ، مما كان له أثر على انجاز البحث والعمل
فيه ،

(شکر و تقدیر)

الحمد لله الذي خلقنا من العدم ، والحمد لله الذي علّمنا ما لم نعلم ،

والحمد لله الذي وفقني لطلب العلم في رحاب هذه الجامعة المباركة بطيبة الطيبة .

والحمد لله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى * وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها

ان الله لغفور رحيم * (النحل : ١٨) .

وأخيرا ، ومن باب الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم ، أتقدم بجزيل الشكر ، ووافر

التقدير الى والديّ الكريمين اللذين كان لهما الأثر الكبير - بعد الله عزّ وجلّ -

في التربية والتعليم والتوجيه والحث على مواصلة طلب العلم ، واتمام مراحل الدراسة

العليا ، فجزاهما الله تعالى عني خيرا ما يجزي والدا عن ولده ، وأدعو لهما بما

أمرنا الله تعالى به : * وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا * (الاسراء : ٢٤)

ثم أتوجه بالشكر لأساتذتي الذين تولّوا الاشراف على هذا البحث ، وهم

الأستاذ الدكتور مصطفى محمد رمضان ، ثم الأستاذ الدكتور محمد ضيف الله بطاينة ،

الذان لم يدخرنا وسعا في التوجيه والمتابعة مدة اشرافهما على اعداد هذا البحث .

ثم أتوجه بالشكر والتقدير لأستاذي الدكتور عبد الله بن علي المسند ، الذي

قبّل الاشراف على هذا البحث في وقت حرج بالنسبة لي ، ولمدة اعداد البحث من

جهة أخرى ، وكان لاشرافه عليه ، وتوجيهاته الأثر الطيب ، فقد قبل الاشراف على هذه

الرسالة بصد رحب ونفس طيبة ، وخلق كريم في التوجيه والارشاد والمتابعة ، فجزي

الله الجميع خيرا الجزاء ، وأسأله تبارك وتعالى أن يبارك في أعمارهم وعلمهم .

وأشكر زملائي أعضاء قسم السيرة النبوية والتاريخ بكلية الدعوة وأصول الدين

الذين أعاروني كتباً ، أو أشاروا عليّ برأى ومشورة .

(غ)

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل ، والعرفان الجميل ، لهذه الجامعة المباركة والقائمين عليها ، وفي مقدمتهم معالي رئيس الجامعة الدكتور عبد الله الصالح العبيد ، الذين لا يألون جهدا في خدمة العلم وطلابهم الذين وفدوا إليها من مشارق الأرض ومغاربها ، وأسأل الله جلّت قدرته أن يوفقهم لبذل المزيد من الجهد لما فيه رفعة الاسلام وخير المسلمين ، وأسأله جل شأنه أن يوفقني لخدمتها والمشاركة في أداء رسالتها، وخدمة الاسلام الحنيف وأبناء المسلمين .

وفي الختام : فهذا البحث جهد المقل وما وسعه الجهد ، وحسبي أنني قد بذلت الجهد في جمع مادته العلمية وتنظيمه بما رأيت مناسباً ، ولا أدعي الكمال فيما قمت به ، فالكمال لله تعالى وحده ، وكل يؤخذ من قوله ويردّ عليه ، **آل رسول الله صلى الله عليه وسلم . . * وما أبرئ نفسي ان النفس لأماراة بالسوء الآما رحم ربي ان ربي غفور رحيم * .**

(يوسف : ٥٣) .

فمن طبع البشر الخطأ والتقصير ، فمن وجد في عملي هذا شيئاً من زلة قلم أو سبقة لسان ، أو قصور في الفهم والمعنى ، فأرجو أن ينبهني عليه مشكوراً مأجوراً .

وأسأل الله العظيم ، رب العرش الكريم أن يجعل هذا العمل خالماً لوجهه الكريم ، نافعا لي وللمن رجع اليه ، وأسأله سبحانه العفو والغفران عن كل زلل أو تقصير ، انه ولي ذلك والقادر عليه ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

عبد العزيز بن صالح الغامدي

٢٣ / ٧ / ١٤١٤ هـ .

الباب الاول

قيام الخلافة العباسية في مصر

وفيه الفصول التالية

الفصل الاول : سقوط الخلافة العباسية في بغداد

وحال العالم الاسلامي بعد سقوطها

الفصل الثاني: قيام الخلافة العباسية بمصر

الفصل الثالث: السلاطين المماليك في مصر

الفصل الأول

سقوط الخلافة العباسية في بغداد

وحال العالم الإسلامي بعد سقوطها

تسلم العباسيون الخلافة بعد أن تمت مبايعة أبي العباس السفاح عبد الله (١) بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بالخلافة سنة ١٣٢ هـ ، وأصبح أبو العباس أول خلفاء دولة بني العباس ، ثم توالى أفراد البيت العباسي في تسليم منصب الخلافة ، وكان النظام المتبع هو توارث الخلافة ، حيث كان الخليفة العباسي يعهد بالخلافة لابنه من بعده ، وأول من اتبع هذا من الخلفاء العباسيين أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد (٢) الذي عهد لابنه محمد المهدي (٣) بالخلافة ، وسار على هذا النهج الخلفاء العباسيون من بعده ، عدا فترات تسلط فيها المستبدون بالخلافة من القادة الأتراك ، وآل بويه ، وآل سلجوق ، حيث شهدت الخلافة العباسية تدخلاً هؤلاء - المستبدين المتسلطين - في اختيار الخليفة الذي يتحقق مع خلافته بقاء نفوذهم ، واستبدادهم بالخلافة العباسية .

وقد تباينت أحوال الخلافة العباسية في عهد هؤلاء الخلفاء حيث بدأت قويمة عزيزة الجانب ، ثم مرت بفترات من الضعف الذي أدى بها في النهاية إلى السقوط والضياع ، ويمكن تقسيم فترة الخلافة العباسية إلى عصرين هما :

الأول : عصر القوة (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) .

الثاني : عصر السيطرة على الخلافة العباسية (٢٣٢ - ٦٥٦ هـ) .

وفيما يلي بيان لأهم سمات هذين العصرين :

-
- (١) عبد الله بن محمد بن علي ، أول خلفاء الدولة العباسية ، استخلف وهو ابن سبع وعشرين سنة . (البغدادى : تاريخ بغداد ٥٣/١٠) .
 - (٢) عبد الله بن محمد بن علي ، ثاني خلفاء الدولة العباسية ، وصف بأنه المؤسس للدولة لجهوده في تنظيم أمورها . (ابن كثير : البداية والنهاية ١٠/١٢١) .
 - (٣) محمد بن أبي جعفر المنصور ، بويح بعد وفاة والده ، وصف بالتقوى والورع والخوف من الله عز وجل . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ٧/٤٠٠) .

أولا : عصر القوة (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) :

بدأ هذا العصر بخلافة أبي العباس السفاح ، أول الخلفاء العباسيين ، وقد تميز هذا العصر بقوة شخصية الخلفاء الذين أحسنوا إدارة أمور الدولة من خلال حرصهم على أداء الأمانة التي تحملوها ، فنجدهم يحرصون على متابعة أحوال الدولة ، وتفقد رعايتهم ، وبذل طاقتهم لتثبيت أركان الدولة ، مما جعل الهيبة لهم في نفوس أعدائهم قبل رعايتهم .

وقد اتصف عصر القوة من تاريخ الخلافة العباسية بسمات أهمها :

١ - التمسك بالدين الاسلامي الحنيف ، والاهتمام بحمايته ، والحرص على السير وفق أمر الله عز وجل ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلان ذلك للرعية ، واخبارهم بأن الحكم انما هو وفق كتاب الله ، وسنة رسوله ، وتعهد الخلفاء بالالتزام بهذين المصدرين في سياسة البلاد والعباد ، وحرصا منهم على تأكيد ذلك النهج ضربوا بشدة على يد من يحاول الخروج عن هدى الكتاب والسنة ، وبذلوا وسعهم وطاقاتهم في حماية الدين الحنيف بحد السيف ، لضرب أعناق الزنادقة (١) ، والملاحدة .

وكان الخلفاء في هذا العصر يتوقفون عند حدود الدين الاسلامي ، ويتمثلون بالعلماء لطلب الفتوى الشرعية فيما يستجد من أمور تهم الدولة الاسلامية ، وسماع نصائح العلماء ، بل أن بعضهم كان يذهب بنفسه الى دور العلماء لمشاورتهم ، فنجد أبا جعفر المنصور يقدر العلماء ويجلهم ويأخذ برأيهم ويعمل بفتاواهم

(١) جمع زنديق ، وهي كلمة فارسية معربة ، تطلق على الذين لا يتمسكون بالدين ومن يقول بدوأم الدهر . والملاحدة : جمع ملحد ، وهو الذي يطعن في الدين . (المصباح المنير ٢٧٥/١ ، مختار الصحاح ص ٢٩٧) .

ويقدمها على ما تميل اليه نفسه ، وذلك طاعة لله عز وجل ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، واحسانا للرعية . (١)

وكان محمد المهدي يلازم العلماء ويحرص على اصطحابهم في أسفاره ، وكان يقول للعالم الجليل أليث بن سعد (٢) : " تكون بحضرتنا فتفقه من حولنا . . " . (٣)

وقد اجتهد الخليفة المهدي في القضاء على الزنادقة والملحدين ، وأنشأ ديوانا خاصا بهم ، يتولى تتبع هؤلاء الزنادقة والقضاء عليهم (٤) ، وهو أول من أمر بتصنيف الكتب في الرد على الزنادقة والملحدين " (٥) ، ولجهد في محاربتهم والقضاء عليهم ، ووصف بأنه " كان قصابا للزنادقة " (٦) ، وبأنه " شديد على أهل الزندقة لا تأخذه في اهلاكهم لومة لائم . . " (٧) ، وبلغ به حرصه في القضاء عليهم أن أنشأ شرطة خاصة بهم ، عرف القائم عليها بماحب الزنادقة . (٨)

ولم يتردد الخليفة المهدي في التخلص من هؤلاء الزنادقة ، قريبتهم من دار الخلافة وبعيدهم ، فقد أرسل جيشه لقتال عطاء الخراساني الذي ظهر بخراسان ، وكان يقول بالتناسخ ، وتبعه على فلالته سفهاء العوام . (٩)

-
- (١) عوامل الوحدة والفرقة في الدولة العباسية : ١٢٣ .
 - (٢) أليث بن سعد بن عبد الرحمن ، الامام الحافظ ، عالم الديار المصرية ، كان فقيسه معروفا ومحدثها . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٣٦/٨) .
 - (٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ ٢٣٥/١ .
 - (٤) الذهبي : العبر ١٩٠/١ .
 - (٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧١ .
 - (٦) الذهبي : العبر ١٩٧/١ .
 - (٧) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص ١٧٩ .
 - (٨) المعيني : القضايا الكبرى في الاسلام ص ٣٨ ، فاروق عمر العباسيون الاوائل ١٤٣/٢ .
 - (٩) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤٩ / ١٠ .

ولما علم بزندقه ابن كاتبه أمر بضرب عنقه بالسيف (١) ، ومثله صالح بسن عبد القدوس البصرى ، وبشار بن برد ، وحامد بن عجرد (٢) ، وغيرهم من كتّاب وشعراء ، عمد الخليفة المهدي الى تطهير البلاد الاسلامية منهم ، حماية للدين الاسلامي الحنيف .

وسار هارون الرشيد على خطا والده في التمسك بالدين الحنيف والعمل به ، فكان يعرف للعلماء قدرهم وفضلهم ، وينكر على الزنادقة ومن يستهزى بالدين وينزل أشد العقوبة بمن ظفر به منهم . (٣)

وتابعهم الخليفة المعتمد بالله في القضاء على الزندقه ، وجهاز جيشا لمحاربة بابك الخرمي (٤) ، الذي حُمِلَ الى عاصمة الخلافة بغداد ، فضربت عنقه لزندقته ، وانتهاكه حدود الله . (٥)

ولم يتهاون المعتمد بالله مع أكبر قاداته العسكريين ، ويدعى الأفشين ، الذي وجد فاسد العقيدة والدين . (٦)

والأمثلة على حرص الخلفاء في هذا العصر من تاريخ الدولة العباسية على التمسك بالدين الاسلامي والدفاع عنه كثيرة ، يظهر فيها اهتمام الخلفاء بالالتزام بالكتاب والسنة ، والوقوف عند أحكام الدين واحترام العلماء ، ومعرفة فضلهم ومكانتهم ومشاورتهم لما فيه صلاح أمر الدولة والرعية .

-
- (١) اليعقوبي : التاريخ ص ٤٠٠ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٩٢/٢ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٥/٧ ، ١٥٦
(٣) موقف الخليفة هارون الرشيد من هؤلاء الزنادقة وقصمه معهم . الذهبي : السير ٢٨٨/٩ ، السيوطي : التاريخ ص ٢٩٣ .
(٤) بابك الخرمي من أهل فارس ، يطلق على أتباعه الخرمية ، حدثه نفسه باسترجاع ملك فارس وديانتها . (البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦) .
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٩٥/١٠ .
(٦) الطبرى : التاريخ ١٠٦/٩ .

٢ - قهر أعداء الاسلام وحماية الدولة الاسلامية :

حرص الخلفاء العباسيون في هذا العصر (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) على حماية الدولة الاسلامية ، وقهر الأعداء ، وشارك الخلفاء أنفسهم في قتال أعداء الدولة ، واهتموا بتحسين الثغور ، وبناء الحصون ، وتجهيزها بالرجال والعتاد ، حماية لحوزة الدين ، ومن الأمثلة على ذلك :

الخليفة العباسي محمد المهدي : يأمر بجمع العساكر ويتجهز لغزو بلاد الروم ، وسار في بلادهم ، وفتح فتوحات كثيرة ، وعاد سالما منصورا . (١)

وكان ذلك العمل العسكري ردا على الحملات العسكرية التي يشنها الروم على الثغور الاسلامية ، مستغلين بُعد عاصمة الخلافة العباسية عن أراضيهم ، ولكن ذلك البعد لم يمنع الخليفة العباسي من قيادة جيش الخلافة والتوجه الى الثغور لاستعادة ما احتله الروم من أراضي الدولة الاسلامية . (٢)

أما الخليفة هارون الرشيد : فقد تكررت حملاته العسكرية لقتال الروم (٣) ، فقد كان محبا للجهاد في سبيل الله ، حريصا على نيل الشهادة ، ومما يؤكد ذلك أن وفاته كانت بعيديا عن عاصمة الخلافة بغداد ، فكان ينتقل من ثغر الى آخر لقتال أعداء الاسلام ، فمدح على جهوده تلك بقول الشاعر عنه :

فَمَنْ يَطْلُبُ لِقَاءَكَ أَوْ يُرِدُهُ فَبِالْحَرَمَيْنِ أَوْ أَقْصَى الثُّغُورِ (٤)

-
- (١) عماد الدين أبي الفداء : المختصر في أخبار البشر ٩/٢ .
(٢) جمال الدين الشيال : تاريخ الدولة العباسية ص ٥٢ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ٢٣٠/٣ .
(٣) اليعقوبي : التاريخ ص ٣٩٦ ، الذهبي : دول الاسلام ١٠٨/١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٥٠/١٠ .
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٣/١٠ ، ابن الجوزي : المنهاج المضيء في خلافة المستنفي ، ٤٤٦/١ ، الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٩٠ ، الأزدي : أخبار الدول المنقطعة ص ١٣٠ .

واتبع المعتصم سياسة والده العسكرية في حماية الدولة الإسلامية وثورها ، ومما وصف به : " ٠٠٠ كانت له همة عالية في الحرب ، وكانت نهيمته في الانفاق في الحرب ، لا في البناء ولا في غيره " ، وكانت في خلافته فتوح لم تكن لأحد من الخلفاء ، وفي مقدمتها فتح مدينة عمورية في سنة ٢٢٣ هـ ، وهي من أمنع بلاد الروم ، فيسر الله على يده فتحها ، ودخلها الجنود المسلمون وهم يكبرون . (١)

ويظهر مما تقدم أن خلفاء عصر القوة كانوا يخرجون بأنفسهم لقيادة الجيوش ، ويشاركون في توجيه العساكر أثناء تلك الحملات العسكرية ، بخلاف حال من تأخر من خلفاء الدولة العباسية ، فان بعضهم كان لا يخرج الا بعد أن يعييث المعتدون في أراضي الخلافة قتلا ونهباً ، ويستنجد الشعراء طلباً لخروجهم بعساكرهم :

أُتْرَضَى بِأَنْ تُوطَأَ حَرِيمَكَ عُنُوَّةً وَأَنْ يُسْتَبَاحَ الْمُسْلِمُونَ وَيُخْرَبُوا (٢)

٣ - حرص الخلفاء على أموال الدولة والمحافظة عليها ، وعدم تبذيرها ، وصرفها إلا في وجوه المصلحة العامة للدولة ، " فكان عطاؤهم في موضع العطاء ، ومنعهم في موضع المنع " . (٣)

ولذلك حرص هؤلاء الخلفاء على موارد الدولة المالية من خلال اتباعهم لسياسة الحزم والشدة وضبط أمور الدولة ، والسهر على مصالح الأمة الإسلامية ، ويظهر هذا جلياً من الجهد الذي بذله أول الخلفاء العباسيين عندما اجتهد في توطيد ملكه وتثبيت أركان الدولة الجديدة التي قامت على أنقاض الدولة الأموية ، فقد كانت خزانة الدولة في هذه المرحلة تعتمد على ما غنمته الجيوش في قتالها لمروان بن محمد - آخر الخلفاء الأمويين -

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٠/١٠ ، ابن الجوزي : المصباح المضيء ، في خلافة المستضيء ، ٥٠٥/١ .

(٢) الكندي : كتاب الولاة ص ٢٠١ ، فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ص ٤٢٠ - ٤٢٢ .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٦٠ .

حيث وجد في بعض الخزائن مبالغ مالية هي : ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٤٧ درهم في بيت المال بدمشق ، ومبلغ ٠٠٠ ر ٥٠٠ ر ٣ درهما في بيت المال بواسط ، يضاف الى ذلك ما يكفي عشرين ألف رجل لسنة واحدة من الطعام . (١)

واتبع الخليفة أبو العباس ومن جاء بعده في هذه الفترة الزمنية سياسة مالية ، كان هدفاً رعاية مصالح الدولة الاسلامية ، من خلال المحافظة على أموال الدولة ، وبذلها في تسيير أمورها ، ونجد الخليفة أبا جعفر المنصور يشرف بنفسه على متابعة النواحي الاقتصادية للدولة ، " فكان يحاسب الكتاب ويطالبهم برفع الحساب أولاً بأول ، ولم يترك أمور دولته مهمة ، وإنما كانت عينه على كل صغيرة وكبيرة " . (٢)

وقبل وفاة المنصور يوصي ابنه المهدي بقوله : " فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً " (٣) ، ومما يؤكد حسن سياسة المنصور المالية أنه بعد وفاته ترك خزائن الدولة وفيها من المال ما يصلح شؤونها ، ويؤكد على ابنه المهدي في وصيته له بقوله : " أعد الأموال وأخزنها ، واياك والتبذير ، فان النواشب غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ... " . (٤)

ولما صارت الخلافة للمهدي ، استعان بما تركه والده من أموال في عمارة الحرمين الشريفين وتوسعتهما ، واصلاح طرق الحج ، وحفر البرك ، وبناء القصور بها ، حتى صارت الطريق بين العراق والحجاز من أرفق الطرق وآمنها ، بعد عشر سنين من العمل المستمر . (٥)

-
- (١) ضيف الله الزهراني : النفقات وادارتها في الدولة العباسية ص ٥٧ .
(٢) الجهشيارى : الوزراء ص ٩١ ، ابن الجوزى : المصباح الحفي ، في خلافة المستضيء ، ٤٠٤/١ .
(٣) اليعقوبي : التاريخ ص ٣٩٢ .
(٤) الطبري : التاريخ ١٠٨/٨ ، رشاد عباس معتوق : نظام الحسبة في العراق ص ٦٨ .
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٣/١٠ .

واستفاد الخليفة المهدي من السياسة الاقتصادية التي سار عليها والده في انفاق تلك الأموال على مصالح الدولة ، من اهتمام بالعلم والعلماء ، وتسيير حملات الجهاد الى الثغور ، وقمع الحركات الخارجة عن سلطان الخلافة العباسية . (١)

واتبع هارون الرشيد بعد توليه الخلافة سياسة مالية مركزية ، تمثلت في اشرافه المباشر على زمام الأمور المالية ، حتى تحقق للدولة العباسية في عهده ما لم يتحقق في عهود من سبقه من الخلفاء ، فقد شملت سياسته المالية العناية بكل مرفق من مرفق الدولة ، سواء في مجال الدفاع والجهاد ، أو الأمن والصحة ، أو التعليم ، أو العمارة ، مما يدل دلالة واضحة على بعد نظر الخليفة الرشيد الذي استغل الاستقرار السياسي والأمني في دولته ، وما جلبته أقاليمها من أموال ، في الانفاق على مصالح الدولة . (٢)

ولما تولى عبد الله المأمون (٣) الخلافة ، أخذ في اصلاح أوضاع الدولة بعد ما أصابها من خراب في فترة الخلاف مع أخيه محمد الأمين (٤) ، فحرص على إعادة بناء العاصمة بغداد ، وما جاورها من المدن والقرى ، وكان يشرف بنفسه على مراحل الإصلاح

(١) الجهشيارى : الوزراء ص ١٥٨

(٢) ضيف الله الزهراني : النفقات وادارتها في الدولة العباسية ص ٦٤

(٣) عبد الله بن هارون الرشيد ، ولي الخلافة سنة ١٩٨ هـ بعد مقتل أخيه الأمين ، عرف عنه العلم وتقريب العلماء والفقهاء ، وقع في خلافته فتنة القسول بخلق القرآن .

(الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٠/٢٧٢) .

(٤) محمد بن هارون الرشيد ، عقد له أبوه بولاية العهد من بعده في سنة ١٧٥ هـ ، بسعي من خاله عيسى بن جعفر ، ويحيى بن خالد بن برمك ، انتهت خلافته بمقتله على اثر الخلاف مع المأمون .

(ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦/١٢٢) .

واعادة بناء الدولة ، ونمت ثروة البلاد في عهده بعد الأزمة الاقتصادية التي أصابتها في فترة النزاع مع أخيه الأمين ، وتوفرت الأموال في بيت المال لزيادة الموارد عن النفقات . (١)

أما الخليفة المعتمد بالله ، فقد حاول التشبه بالمأمون في إدارة أموال الدولة ، فسار على أحكامه ونظامه ، ولكنه لم يبلغ ما بلغه عمر الخليفة المأمون من القوة المالية ووفرة الموارد المالية لأسباب منها :

١ - الانتقال بعاصمة الخلافة العباسية من بغداد الى سرمن رأى .

٢ - إعادة تنظيم جيش الخلافة العباسية في عهد المعتمد بالله وازدياد عدد الجند .

٣ - كثرة الحملات العسكرية في خلافته .

٤ - زيادة النفقات والأعطيات في عهده . (٢)

ولكن الحال أخذ يتغير في عهد الواثق بالله ، ومن جاء بعده من الخلفاء ، وبدأت تظهر سيطرة الطبقة العسكرية ، وتحتل الإدارة المالية ، وتقل الموارد المالية للدولة ، فدخلت الخلافة العباسية في مرحلة من الضعف .

ثانيا : عصر السيطرة على الخلافة العباسية (٢٢٢ - ٦٥٦ هـ) :

اعتري الخلافة العباسية بعد العصر الأول الضعف والفرقة والاختلاف وعدم الاستقرار ، وذلك بسبب مجموعة من العوامل التي أخذت تنخر في جسد الخلافة العباسية حتى سقطت ، وشملت هذه العوامل الخليفة العباسي ورجال دولته ، ورعيته ، وكان بعض هذه العوامل منطلقا من داخل حدود الخلافة العباسية ، وبعضها من خارج حدودها ، ويمكن اجمال هذه العوامل التي أدت الى سقوط الخلافة العباسية فيما يلي :

(١) نيف الله الزهراني : النفقات وادارتها في الدولة العباسية ص ٦٥ .

(٢) محمد كرد علي : الحضارة الاسلامية ٢٣٧/٢ .

١ - ضعف بعض الخلفاء العباسيين :

ضعف بعض الخلفاء العباسيين الذين تولوا الخلافة في هذه الفترة ، وعدم أهليتهم للخلافة ، وعدم تقديرهم للمسئولية ، وتفريطهم في الأمانة التي تحملوها ، فعاشت الدولة في ظل خلافة هؤلاء الضعفاء فترات عصيبة من فقدان الأمن ، وانعدام الاستقرار ، فإنه عندما يتولى خليفة ضعيف يستبد به من حوله مدة من الزمن ، ثم تنتهي خلافته ، ويحيى من بعده خليفة قوى الشخصية ، يبذل جهده في اصلاح ما انهدم من بناء الخلافة في مدة خلافة من سبقه ، ثم اذا رحل هذا الخليفة القوى اذا بالخلافة تُبتلى مرة أخرى بخليفة من الضعفاء ، فكان لضعف هؤلاء الخلفاء الأثر السيء على قوة وحدة الخلافة ، مما ساعد على سقوطها بعد فترات من الضعف الذي غلب على الخلافة العباسية في بغداد .

ومن تولى الخلافة من ضعاف الخلفاء :

- أ - **المقتدر بالله جعفر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)** ، الذي ما ولي الخلافة أحد قبله أصغر منه ، وقد وصف المقتدر بالله في مدة خلافته بأنه كان مهملًا لأمر الدولة لانشغاله عنها ، يقول الذهبي في ذلك : " كان منهوما باللعب والجواري ، لا يلتفت الى أعباء الأمور ، وكان متلفًا للأموال ، محق ما لا يعد ولا يحصى " . (١)
- ب - **القاهر بالله محمد (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ)** الذي غلب عليه وزيره علي بن بليق الرافضي ، حتى أنه عزم على خلع الخليفة القاهر بالله (٢) ، وما ذلك الا لضعف الخليفة العباسي .

- ج - **المستكفي بالله عبد الله (٣٢٢ - ٣٣٨ هـ)** الذي وصف بأنه : " لم يكن له من أمر الخلافة شيء " (٣) .

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٦/١٥ .

(٢) المصدر السابق ٩٩/١٥ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٤/١١ .

د - المطيع لله الفضل (٣٢٤ - ٣٦٣ هـ) : الذي في خلافته " ٠٠٠ ازدا د أمر الخلافة

اد بارا ، ولم يبق للخليفة من أمر شيء البتة ٠٠٠ " . (١)

ه - الطائع لله عبد الكريم (٣٦٣ - ٣٨١ هـ) : هذا الخليفة الذي يقول عنه

السيوطي : " ٠٠٠ انظر الى هذا الخليفة المستضعف الذي لم تضعف الخلافة في

زمن أحد ما ضعفت في زمنه ٠٠٠ " . (٢)

ومما تقدم يظهر ضعف شخصية هؤلاء الخلفاء ، فلم يكن لهم من الخلافة الا الاسم ، واستبد

غيرهم بادارة الدولة من دنهم ، مما كان له الأثر السيء على قوة الخلافة العباسية ، لانشغال

هؤلاء الخلفاء وغيرهم باللهو ، ومجالسة الندماء عن مهام الخلافة وتفقد أحوالها ، فضيعوا

بذلك الأمانة التي تحملوها ، والتي حذر الله عز وجل من اضاعتها بقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) - الآية ٢٧ : الأنفال -

وحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك أيضا بقوله : (كلكم راع وكلكم مسئول عن

رعيته ، الامام راع ومسئول عن رعيته ٠٠٠) الحديث (٣) . وقوله صلى الله عليه وسلم :

(ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم ، الا حرم الله عليه الجنة) . (٤)

وبمقارنة حال هؤلاء الخلفاء الضعفاء مع حال خلفاء العصر الأول يظهر الفرق ، فنجد

الأوائل حرصوا على المحافظة على الدين و حمايته والتمسك به ، وكانوا ساسة مهرة ، احتفظت

الدولة في عهدهم بوحدتها وقوتها ، وكانت تحكم العالم الاسلامي كله من المحيط الأطلسي

غربا الى أواسط آسيا شرقا .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤٥٢/٨ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٤٠٨ .

(٣) ابن حجر : فتح الباري ١٣/١٢٧ .

(٤) المصدر السابق ١٣/١٢٧ .

ومن مظاهر ضعف بعض الخلفاء العباسيين ، تسلط النساء ، والخدم على أولئك الخلفاء ، ومن ثم تسلطهم على الخلافة العباسية ، وقد غلب أولئك النسوة على الخلفاء من أزواجهن أو أبنائهن ، وكانت لهن السطوة على أولئك الخلفاء من بني العباس ، حتى انهن كن يشرفن على شئون الخلافة ، ويشتركن في تدبير أمور الحكم . (١)

وقد أدى تدخل أولئك النسوة في أمور الدولة الى ضعفها ، وحرمانها من وزرائها الأكفاء ، واستهتار العامة بالخلافة بعد ضياع هيبتها .

ومن الأمثلة على ذلك التسلط :

والدة الخليفة العباسي المعتز بالله (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) التي تسلطت على الدولة في خلافة ابنها ، وقد رت الأموال التي تركتها بعد موتها بمليون دينار .

ووالدة الخليفة المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) التي لم يستطع ابنها من منعها من أي شيء تريده ، وكانت أكثر أموال الخلافة العباسية التي تحمل من الممالك العباسية تصير الى والدة المستعين بالله ، وكانت تنفق من تلك الأموال ببذخ .

ووالدة الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) التي أصبح لها الأمر والنهي في الدولة ، فخافها رجال الدولة ، لأن مخالفة أحد هم لها تعني عزله من منصبه لا محالة . (٢)

أما الجوارى والحظايا فقد كان لهن نصيب في التسلط على الخلافة ، فكانت جارية الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) تأمر وتنهاي كيفما تشاء في الدولة ، وبلغ الأمر في خلافة المقتدر بالله أيضا أن جلست القهرمانه (مثل للمظالم ، ويحضر مجلسها لفصلها بين الخصوم الأعيان من القضاة والفقهاء والوزراء) (٣) .

(١) علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ٩٣ - ٩٤ ، مصطفى جواد : سيدات البلاط العباسي ص ٧٣ - ٩١ .

(٢) علي ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامي العام ص ٣٦٤ - ٤١٧ ، تقي الدين الدوري : عصر امرة الأمراء ص ٢٥ .

(٣) الأزدي : أخبار الدولة المنقطعة ص ٢١٣ ، ابن العمراني الانباء في تاريخ الخلفاء ص ١٥٨ ، ابن الخازن : نساء الخلفاء ص ١٠٦ - ١٣٥ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٣٢٨ .

أما القهرمانه شمس النهار ، فانها بعد وفاة الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله
(٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) تكتم موته حتى بايع أعيان الدولة لابنه المستظهر بأمر الله
(٤٨٧ - ٥١٢ هـ) ، فلما بايعوه أظهرت وفاة والده (١) .

وقهرمانه الخليفة العباسي المستنجد بالله (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) وتدعى قبـول
كانت لها حرمة وافرة في الدولة . (٢)

٢ - طليبات حركة الترجمة وآثارها السيئة :

والمراد بعلوم الأوائل هي الكتب التي صنف في المنطق ، والفلسفة ، والفلك ،
والكون ، وأسرار الطبيعة ، والنفس ، والعقل ، وغيرها من تراث الأمم السابقة . (٣)
وقد تسربت تلك العلوم الى الثقافة الاسلامية من خلال عملية النقل والترجمة الى اللغة
العربية (٤) ، وعن طريق الاختلاط ومجاورة تلك الأمم للبلاد الاسلامية ، فضلا عن وجود
طائفة من العلماء بها ، يعيشون داخل المجتمع الاسلامي ، يتحدثون عنها ، ويفتخرون
بمعرفتها .

-
- (١) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ١٣ ، الأربلي : خلاصة الذهب
المسبوك ص ٢٤٠ ، ابن مسكويه : تجارب الأمم ١/٢٤١ ، العمري : مذهب الروضة
الفيحاء في تواريخ النساء ص ٢٢٦ ، سعيد الديوه جي : تاريخ الموصل ص ٩٣ - ٩٧ ،
محمد حمادة : الوثائق السياسية والادارية للعمور العباسية ص ٣٣٠ .
- (٢) ابن الخازن : الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ص ١٢٧ ، تقي الدين
الدوري : عصر امرة الأمراء في العراق ص ١٥٧ - ١٦٤ ، حمدان الكبيسي : عصر
الخليفة المقتدر بالله ص ١٠٥ - ١١٢ .
- (٣) محمد بن اسحاق الوراق : الفهرست ص ٣٠٧ ، أحمد الرفاعي : عصر المأمون ١/١٦١ .
- (٤) عبد العزيز سالم : العصر العباسي الأول ص ٩٠ ، جميل المصري : حاضر العالم
الاسلامي وقضايا المعاصرة ١/٤٣ .

وتوسعت عملية النقل والترجمة لتلك الكتب في العصر العباسي ، وبخاصة في خلافة عبد الله المأمون ، الذي شجعها أيما تشجيع ، وأنفق عليها الأموال بسخاء ، واهتم باحضار تلك الكتب من بلاد الروم والفرس والهند ، حيث كاتب ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلد الروم ، فأجاب ملك الروم الى ذلك بعد امتناع . (١)

وبعد وصول تلك الكتب الى دار الخلافة ببغداد ، أمر الخليفة المأمون بتخصيص جماعة من العلماء للعمل في ترجمة تلك الكتب ونقلها الى العربية ، وتعهدهم بتفقد عملهم ، والجلوس معهم كل يوم ثلاثاء للمناظرة في تلك المقالات . (٢)

وقد فتحت تلك العلوم بابا واسعا من الجدل والمناظرات بين المسلمين في المسائل التي تتعلق بأصول الاسلام والعقيدة الاسلامية ، مما كان له الأثر السيء على أبناء الأمة الاسلامية ، وبالتالي على الخلافة العباسية التي شجع بعض خلفائها ترجمة تلك الكتب التي احتوت على آراء فاسدة اعتنقها فلاسفة اليونان والفرس وغيرهم .

(١) محمد بن اسحاق الوراق : الفهرست ص ٣٠٤ ، علي القفطي : تاريخ الحكماء ص ٢٨٦ .

(٢) علي القفطي : تاريخ الحكماء ص ٣٧٩ ، الوراق : الفهرست ص ٣٠٨ ، حيث يذكر الكتابان من تولى عملية الترجمة حسب نوعية تلك العلوم ، أو حسب اللغة التي كتبت بها . راجع : محمد القلعي : تهذيب الرياسة وترتيب السياسة ص ٢٦١ ، وموسوعة العلوم الاسلامية والعلماء المسلمين ص ٤٢ ، جمال الدين الشيال : تاريخ الدولة العباسية ص ٤١ ، حسن الباشا : دراسات في الحضارة الاسلامية ص ٨٩ ، نبيلة حسن : تاريخ الدولة العباسية ص ٢٥٣ ، أحمد الزيات : تاريخ الأدب العربي ص ٢٥٨ . حيث تشير تلك المراجع الى المبالغ التي دفعها المأمون للمترجمين تشجيعا لهم .

ثم ظهرت الآثار السيئة لهذه العلوم بعد مدة وجيزة من ازدهارها ، ففي عهد الخليفة المأمون ظهر القول بخلق القرآن ، وهي من المسائل التي نتجت عن الاشتغال بعلم المنطق ، وبعد اقتناع الخليفة المأمون بذلك القول أخذ يبذل جهده في اجبار الناس عليه ، فمن وافق الخليفة قُرَّبَ ، ومن خالفه قُيِّدَ وَعُدِّبَ ، واشتد البلاء على الأمة الاسلامية في خلافة المأمون ، وخلافة المعتصم بالله ، وخلافة الواثق بالله . " ونكلوا بخصومهم ، وأذاقوا الناس العذاب ، لأنهم لم يقولوا بخلق القرآن " . (١)

ووصفهم بأنهم : " ... شر الأمة ورؤوس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد حظا ، وأوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ، ولسان ابليس الناطق في أوليائه ، وأحق ممن يتهم في صدق ، وأن تطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله وعلمه " على حد زعمهم المأمون . (٢)

وهكذا امتد الجدل الى المسلمات المعلومة في الدين بالضرورة ، مثل : الايمان ، صفات الله عز وجل ، القضاء والقدر ، الجبر والاختيار ، حيث أعمل هؤلاء المجادلون عقولهم فيها ، ولم يقفوا عند نصوص القرآن الكريم والسنة المشرفة ، التي لا مجال للاجتهاد ، واعمال العقول ، والاستدلال مع وجودها ، وأصبح هناك طائفة من علماء الجدل وعلم الكلام ينافحون عن تلك الآراء الباطلة المخالفة لأهل السنة والجماعة .

ومما خفف من أثر هذه المحيية أن الله عز وجل هيا من العلماء من يبين الحق ويدحر الباطل منذ أول يوم ظهرت فيه مقولة خلق القرآن ، ومن أولئك العلماء الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، الذي دافع عن مذهب أهل السنة والجماعة (٣) ، وصبر على الأذى

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام ٧/٤ ، رمزية الأطرقي : الحياة الاجتماعية في بغداد ص ٨٠ .

(٢) الطبري : التاريخ ٦٣٣/٨ .

(٣) ومن تعرض للأذى بسبب تلك الفتنة : بشر الكندي ، قتيبة الواسطي ، محمد بن نوح ، سجادة ، القواريري .

عوامل الوحدة والفرقة في الدولة العباسية ص ١٢٥ .

وثبت في مواجهة الخليفة المأمون وأصحابه . (١)

وبظهور تلك المقالات المنحرفة وقيام بعض الفرق عليها ، فُتِحَ على الأمة الاسلامية " باب من أبواب الفتن ، فقد ساهمت في تمزيق كيان المجتمع الاسلامي ، كما أنها ضخمت الجانب النظري على حساب الجانب العملي الذي أكد عليه المحابة رضي الله عنهم ، بوقوفهم عند النصوص المتشابهة ، وآيات وأحاديث الصفات ، دون تأويل ، فحافظوا بذلك على صفاء العقيدة ، في حين أضع أرباب الكلام - بمجادلاتهم التي ترمي الى الايضاح والتعليل - وضوح العقيدة ، ولم تثمر جهودهم غير الانقسام وتمزق الكيان الاسلامي " (٢) ، وكانت حركة الترجمة سلاحاً ذو حدين أفاد بعض الشيء في الناحية العلمية ، وضرّ بالعقيدة الاسلامية نتيجة لتداول الكتب المترجمة ، فكثرت الزنادقة ، وظهرت آراؤهم في الناس . (٣) وقد استمر ضرر تلك الفرق الكلامية منذ ظهورها حتى العصر الحاضر ، وساهمت بظهورها وبقائها في ضعف الدولة الاسلامية من خلال مخالفة أتباع تلك الفرق لمذهب أهل السنة والجماعة .

٣ - ضعف الأوضاع الاقتصادية وتدهورها :

ساعات الأوضاع الاقتصادية للخلافة العباسية في عهود الخلفاء الضعفاء ، ومن الأمثلة على ذلك :

- (١) ومن نافع عن تلك المقولة من علماء المعتزلة : أبو الهذيل العلاف ، ابراهيم النظام ، عبد الرحيم الخياط ، محمد بن عبد الوهاب الجبائي .
- وقد أصبح لكل واحد ممن تقدم من علماء المعتزلة فرقة تردد أقواله الباطلة وتعرف باسمه ، مما زاد في تمزيق كلمة الأمة الاسلامية واضعافها .
- راجع : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ٣/٣٥٣ .
- (٢) أكرم ضياء العمري : بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص ٣١ .
- (٣) عماد عبد الرؤوف : الحواضر الاسلامية الكبرى ص ٣٧٧ .

في خلافة المنتصر بالله (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) ، والمستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) كانت الأوضاع الاقتصادية للخلافة العباسية غير مطمئنة ، فقد كان المستعين بالله " ... مستضعفا في رأيه وتدبيره ، وكانت أيامه كثيرة الفترن ، شديدة الاضطراب " (١) وأصبحت أموال الخلافة العباسية التي تصل من أقاليم الدولة يتصرف فيها المستبدون بالخلافة العباسية ، فكان الواحد منهم يأخذ ما يوجد من الأموال في بيت مال الدولة ، وتسبب فراغ بيت المال في عزل الخليفة المعز بالله (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) لعجزه عن صرف نفقات الجند . (٢)

ولم يصل ليد الخليفة العباسي في عصور الاستبداد والتسلط من أموال الدولة سوى ما يقرر له ولأهل بيته سد حاجته الضرورية ، بينما أموال الدولة تنفق بغير حساب ، وبلغ الأمر بالسلطان معز الدولة البويهبي بأن أقطع جند الخلافة عوضا عن أرزاقهم ورواتبهم البلا دونواحي . (٣)

وإذا توفرت - في بعض الأحيان - الأموال في خزينة الدولة ، فإن بعض الخلفاء بسوء تدبيرهم ، ينفق تلك الأموال في فترة وجيزة ، ومن الأمثلة على هذا النوع من الخلفاء المقتدر بالله الذي اتسم عهده بزيادة النفقات المالية ، والتبذير والاسراف (٤) ، فضلا عن اسراف رجال دولته من وزراء وغيرهم الذين لم يتورعوا عن نهب أموال الدولة لأنفسهم ،

(١) ابن طباطبا : الفخرى في الأحكام السلطانية ص ٢١٩ ، وعبد الكريم حناملة : البنية الادارية للدولة العباسية ص ١١٢ .

(٢) ابن مكويه : تجارب الأمم ص ٥٦٦ ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٨٦/١١ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٥٧/١١ .

(٤) صفاء حافظ : نظم الحكم في الدولة العباسية ص ١٦١ ، تقي الدين عارف السدوري : عصر امرة الأمراء في العراق ص ٢٩ ، يعقوب ليسنر : خطط بغداد في العصور الأولى ص ١٠٠ .

ومن هؤلاء : الوزير عبد الله بن خاقان ، الذي كان يوقع على أوراق وهي بيضاء ليتولى حاملها بعد ذلك كتابة المبلغ الذي يريد فيها . (١)

والوزير حامد بن العباس ، الذي تولى الوزارة للمقتدر بالله ، فاستغل ذلك المنصب واستبد بأموال الدولة ، فلما عزل من وظيفته وجد عنده من أموال الدولة مبلغ أربعمئة ألف دينار . (٢)

وعلى هذا النهج سار أغلب من تولى الوزارة في عصر الخليفة المقتدر بالله ، وكان لفساد الإدارة المالية للدولة أثر كبير في سوء أحوالها الاقتصادية ، ولما ضاق الخليفة بتلك الحال ، أنشأ (ديوان المصدرات) ، كانت مهمة صاحب هذا الديوان تقديم السجلات الخاصة بأموال الدولة المفقودة ، ومطالبة المصادرين بما عليهم من أموال للدولة العباسية . (٣)

ونتيجة عن سوء إدارة أموال الدولة عجز الخليفة عن تأمين الأموال اللازمة لتدبير أمور الدولة واحتياجاتها ، فقد كانت النفقات أكثر من الإيرادات ، وحاول بعض الخلفاء سد ذلك العجز من خلال فرض الضرائب ، ولايجاد مصدر دخل جديد يؤمن حاجة الدولة للمال ، ولكن تلك الضرائب زادت من تدهور الأحوال الاقتصادية للدولة بسبب ما رافقها من ظلم للرعية (٤) ، وكان الأجدر بالخليفة الحد من النفقات المالية وحصرها في نطاق ضيق ، ولما فيه المصلحة العامة من جهة ، ومن جهة أخرى تقليد وظائف الدولة للمشهود لهم بالأمانة والحرص على أموال الدولة ، لا الطامعين في الدولة وأموالها .

(١) الصابي : الوزراء ص ٣٠٠ ، والصولي : الأوراق ص ١٦٣ ، والصابي : رسوم دار الخلافة ١١ ، ٢١ - ٢٢ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٥٧/١٤ ، عبد الكريم حتاملة : البنية الإدارية للدولة العباسية ص ١٠٣ ، علي إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامي العمام ص ٨٥٢ ، عبد العزيز السلومي : ديوان الجند ص ١٨٤ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ١٢٠/١ .

(٣) صفاء حافظ : نظم الحكم في الدولة العباسية ص ١٢٣ .

(٤) ضيف الله الزهراني : النفقات وأدائها في الدولة العباسية ص ٧٨ .

ومما زاد في سوء الأوضاع الاقتصادية للدولة ، الحروب التي خاضها الخلفاء للقضاء على حركات الخارجيين عن طاعتهم و سلطانهم الذين كانوا يهددون وحدة الدولة وقوتها ، وبعده أن كانت جهود الخلفاء موجهة لحماية الدولة من أعدائها خارج حدودها (١) ، نجد لها في عصر الضعف تنتقل جيوش الخلافة لقمع الحركات التي ظهرت في أطراف عاصمة الخلافة العباسية ، مثل حركة الزط في واسط ، وحركة القرامطة في سواد العراق ، وبلغ الأمر في بعض الأحيان عجز الخليفة العباسي عن تأمين الأموال اللازمة لتجهيز جيش الخلافة ، وما ذلك الا لسوء استغلال أموال الدولة ، وسوء الإدارة المالية ، والأثر السيء الذي تركته تلك الحروب الداخلية بتدميرها اقتصاد الدولة العباسية .

ويمكن اجمال القول فيما يخص الناحية الاقتصادية أنه ظهر التباين الشديد بين الخلفاء العباسيين في محافظتهم على أموال الدولة ، فنجد منهم من بذل جهده في انفاق الأموال لمصالح الرعية وعمارة بيوت الله ، وعطايا للعلماء والفقهاء ، واعداد الجيوش ، وتحسين الثغور ، ونجد طائفة أخرى كان انفاقها لأموال الدولة في مصالح شخصية ، وملذات وقتية من سماع غناء و لهو ، ومكافأة مغنين (٢) ، فأضاعت هذه الطائفة من الخلفاء العباسيين الرعية ، وأضاعت الدولة .

(١) الذهبي : دول الاسلام ١٠٨/١ حيث يذكر عن الخليفة المهدي أنه أنفق قناطر الذهب لتجهيز الجيوش لقتال الروم .

(٢) ضيف الله الزهراني : النفقات وادارتها في الدولة العباسية ص ٨٥ ، وابن الساعي : نساء الخلفاء ص ١٠٦ ، الأصفهاني : الأغاني ٢٣٣/٢ وما بعدها ، الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٢٧ ، ٥٦ ، ١٣٧ ، ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٦٤/١٣ - ٦٥ ، ٧١ ، الأربلي : خلاصة الذهب المسبوك ص ٢٤٠ ، يعقوب ليسنر : خطط بغداد في العهود العباسية الأولى ص ٣٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ابن مسكويه : تجارب الأمم ٢٤١/١ ، ابن فضلان : الرسالة ص ١٨ ، ناجي معروف : فصول من حضارة بغداد المورد ع ٣ ص ٣٨ .

٤ - تسلط القادة العسكريين على الخلافة العباسية :

أ - تسلط القادة الأتراك :

استعان الخليفة العباسي المعتمد بالله بالجند الترك في جيش الخلافة العباسية ، وأصبحت أعدادهم في ازدياد ، ووصلوا الى مناصب رفيعة عالية في مجالهم العسكري ، وكان منهم كبار القادة الذين تسلطوا على الخلافة العباسية ، وعاش الخلفاء في فترة تسلطهم في ظلم وقهر ، فقد استبد هؤلاء القادة بأمور الخلافة ، وتضايق من كثرة أعدادهم أهل بغداد ، فعند ذلك أمر المعتمد بالله ببناء مدينة سامراء ، فلما انتهى البناء انتقل اليها الخليفة مع جنده . (١)

وقد تم تخطيط هذه المدينة العسكرية بما يناسب وجود الخليفة العباسي مع هؤلاء العسكر ، فكانت على شكل قصر ، وجامع ، وسوق ، ومعسكر . (٢)

" وهؤلاء القادة الذين جعل الخليفة المعتمد بالله منهم حرسه الخاص ، واستقروا قريبين من الخليفة ، فزاد بقربهم نفوذهم واستبدادهم ، وبعد أن طمع الخليفة العباسي في جعل هؤلاء القادة آلة لخلافته وملكه ، صار باستبدادهم أول ضحية لهم ، خاضعا لنفوذهم " (٣)

" ولم يكتف هؤلاء القادة بأن يعملوا الى جانب الخلافة العباسية لمساعدتها ، بل تطاول نفوذهم فأرادوا الانفراد بالسلطة الفعلية دون الخلفاء العباسيين ، فأصبحوا أصحاب السلطان المطلق المستبد بالخلافة والخليفة ، فترة امتدت نحو قرن من الزمان " . (٤)

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦ - ٣٣٧ ، وابن قتيبة : المعرف ص ١٧١ ، وابن العمراني ص ١٠٩

(٢) القزويني : آثار البلاد ص ٣٨٥ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ١٣/٥ ، الاصطخري : المسالك والممالك ص ٦٠ ، عجائب الأقاليم السبعة ص ١٢٧ ، البغدادي مراميد الاطلاع ٦٨٤/٢ ، ٦٨٥ .

(٣) ل . أسيديو : تاريخ العرب العام ص ١٩٩ .

(٤) نادية مقر : مطلع القرن العباسي الثاني ص ٥٩ .

ومع احسان الخليفة العباسي الى هؤلاء القادة و جنودهم ، الا أنه قوبل بنكران ذلك الجميل ، خاصة من عارض نفوذهم ، ووقف في وجه محاولاتهم للسيطرة على الخلافة العباسية مثل : المتوكل على الله (٢٢٢ - ٢٤٧ هـ) ، والمهتدي بالله (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) ، فقد كان مصيرهما الخلع من الخلافة مع القتل أو السمل ، وأما من رضي من الخلفاء بتسلطهم فانه أيضا لم يسلم من شرهم عند ظهور بادرة منه تدل على سخطه عليهم ، مثل الخليفة الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) .

وقد كانت فترة تسلط هؤلاء القادة من أصعب الفترات التي مرت بها الخلافة العباسية فقد أصبح الخليفة في حالة يرثى لها معهم ، لقلّة المعين والناصر ، وأوجد تسلطهم نوعا من الخوف والرعب لدى الخاصة والعامة في بغداد ، بعدما بلغت أسماعهم ما انتهت اليه حال الخلفاء في تلك الفترة ، فهم ما بين مخلوع ، أو مسمول ، أو مقتول . (١)

ب - تسلط آل بويه على الخلافة العباسية :

ثم وقع الخلفاء العباسيون من بعد تسلط طبقة العسكريين تحت سيطرة الأسرة البويهية في الفترة الممتدة من (٣٢٤ - ٤٤٧ هـ) ، وتتكون الأسرة البويهية من ثلاثة اخوة ، هم : أحمد ، علي ، الحسن ، وبدأت سيطرة هؤلاء البويهيين عندما توجه أحمد بن بويه بجيش عظيم قاصدا بغداد في شهر جمادى الأولى من سنة ٣٢٤ هـ ، ولما دخل على الخليفة بايعه ، ولقبه المستكفي بمعز الدولة ، ولقب أخاه الحسن بركن الدولة ، وأخاه علي بعماد الدولة ، وكتب ألقابهم على الراهم والد نانير . (٢)

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٣٠٩ - ٣١٦ ، وابن الجوزي : المنتظم ٥٠/١١ ، تيسير موسى : غزوات الفرنج ص ٣٥ ، ابن العمراني : ١١٩ ، عبد الرؤوف : بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي ص ٤٩ - ٥١ ، زكريا كتابجي : الترك في مؤلفات الجاحظ ص ١٤٠ ، أحمد عمر زيلعي : مكة وعلاقتها الخارجية ص ٢٠ ، سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٣٠٩ ، علي ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامي العام ص ٤١٦ ، كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٧٧ ، صالح أحمد العلي : بغداد مدينة السلام ص ١١٩ ، أحمد أمين : ظهر الاسلام ٤/٢ ، عبد العزيز السلومي : ديوان الجند ص ١٩٤ ، عبد الكريم حتاملة : البنية الادارية للدولة العباسية ص ١١٢ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٥/١١ ، وابن مسكويه : تجارب الأمم ص ٨٧ .

وقد ظن الخليفة العباسي أن بني بويه سينقذونه من تسلط القادة العسكريين ، ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقبل أن يتم معز الدولة شهرا من وصوله بغداد ، حتى خُلعَ المستكفي بالله من الخلافة ، وسُمِّلت عيناه ، وبقي في سجنه حتى مات في سنة ٣٣٨ هـ . (١)

وامتد تسلط معز الدولة البويهية حتى حاول نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي ، فقد استشار أصحابه فأيدوه في فكرته تلك ، ما عدا واحدا كان سديد الرأي فقال لمعز الدولة :

" لا أرى لك ذلك فقال : ولمَ ذلك ؟ قال : لأن هذا خليفة ترى أنت وأصحابك أنه غير صحيح الامارة ، حتى لو أمرت بقتله لقتله أصحابك ، ولو وليت رجلا من العلويين اعتقدت أنت وأصحابك ولايته صحيحة ، فلو أمرت بقتله لم تُطع في ذلك ، ولو أمر بقتلك لقتلك أصحابك ، فلما فهم ذلك صرفه عن رأيه الأول ، وترك ما كان عزم عليه للدينا لاله عز وجل " . (٢)

ويظهر أن معز الدولة البويهية كان عازما على تنفيذ تلك الرغبة ، ولكنه غلبت مكاسبه الشخصية التي سوف يجنيها من بقاء الخليفة العباسي تحت نفوذه وسيطرته ، ويؤكد هذا ما يد بين به هؤلاء البويهيون من التشيع ، يقول عنهم ابن الأثير :

" ان الذين كانوا يتشيعون ويفالون في التشيع ، ويعتقدون أن العباسيين غضبوا الخلافة ، وأخذوها من مستحقيها ، فلم يكن عندهم باعث على الطاعة " . (٣)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٦/١١ ، الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان ص ٨٨ ، ١٨٢ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٦/١١ ، ولبيان خطورة ذلك التصرف راجع : حسن أحمد محمود : العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ٥٢٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٤٩/٧ ، ابن خلدون : التاريخ ٥٧١/٤ .

ولعدم ثقة معز الدولة البويهى في الخلفاء - حتى بعد تسلطه على الخلافة - أصبح يأخذ على الخليفة العهد والمواثيق ، ومن ذلك : " أنه زاد في التوثق من أمير المؤمنين المطيع لله ، فاستحلفه بيمين عظيم ألا يتغيب عن معز الدولة ولا يبغيه سوء ولا يمالىء له عدوا " . (١)

وبعد سيطرة الأسرة البويهية على مقاليد الأمور في الخلافة العباسية ، أسوا امارة وراثية ، دامت في الفترة الزمنية (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) ، استبد فيها البويهيون بأمر الدولة من دون الخلفاء ، (٢) ، " وحصروا صلاحياتهم في نطاق ضيق ، بل شاركوهم حتى في بعض مظاهر الخلافة ، فكان الأمير البويهى هو الذى يصدر الأوامر ، وعلى الخليفة العباسى توقيعها لتكسب الشرعية أمام رأى العام ، ولولا عمق جذور الخلافة العباسية ، وولاء الناس لها ، لما أبقى البويهيون على وجودها حتى بالصورة الرمزية التى كانت عليها " . (٣)

- ظهور النزاع بين الأتراك والبويهيين :

وفي فترة التسلط البويهى على الخلافة العباسية ، ظهر نزاع جديد بين البويهيين والقادة الأتراك مممما زاد من حدة الاضطراب في أقاليم الدولة العباسية (٤) ، وظهر نزاع آخر بين أفراد الأسرة البويهية لرغبة كل منهم زيادة نفوذه ، ورفع سلطانه ، فظهر النزاع بين أبى كاليبجار ، وعمه قوام الدولة ، وبين جلال الدولة وأبى كاليبجار بين سلطان الدولة ، وفي عهد آخر الأمراء البويهيين الملقب بالملك الرحيم عصى الجند الأتراك بحجة تأخير اعطاءهم أرزاقهم ، وأخذوا يهاجمون دور الناس بحجة البحث عن الوزير البويهى ،

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ص ١٠٥ - ١٠٦ ، ابن خلدون : التاريخ ٥٧١/٤ .

(٢) حسن محمود : العالم الاسلامى في العصر العباسى ص ٥٢١ ، حسن الباشا : دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص ٩٣ ، محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٨٥ ، أحمد عمر زيلعي : مكة وعلاقتها الخارجية ص ٧٠ .

(٣) أكرم ضياء العمرى : موارد الخطيب البغدادى في تاريخ بغداد ص ١٥ .

(٤) محمد مسفر الزهرانى : نفوذ السلاجقة السياسى ص ٦٠ ، محمود شاکر : التاريخ الاسلامى ١٥٣/٦ .

ولم يهدأ هؤلاء الجنود إلا بعد عزل ذلك الوزير ، وأخذهم ما طلبوه من المال . (١)
وبهذا رجع نفوذ القادة العسكريين الى سابق عهده في ظل النزاعات المتواصلة
بين الأمراء البويهيين ، ونتج عن ذلك : " انعدام الأمن والاستقرار في بغداد عاصمة
الخلافة العباسية ، وتدهور الأحوال الاقتصادية ، لعجز الأمير البويهي عن كبح جماح
هؤلاء القادة ، وعجزه عن تحسين الأوضاع الاقتصادية للدولة العباسية " . (٢)

أما الخليفة العباسي في فترة التسلط البويهي ، فكان في موقف لا يحسد عليه ،
والأمثلة على ذلك كثيرة من أحداث هذا العصر ، ولكن أشير الى موقف الخليفة المطيع لله
عندما جاءه الأمير بختيار البويهي يطلبه تقديم ما لديه من أموال بحجة الجهاد ، فقال
الـخليفة :

" ... الغزوي لزمني اذا كانت الدنيا في يدي ، والي تدبير الأموال والرجال ،
وأما الآن ليس لي فيها الا القوت القاصر عن كفاي ، وهي في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف ،
فما يلزمي غزو ولا شيء ، مما تنظر الأئمة فيه ، وانما لكم مني هذا الاسم الذي يخطب به على
منابرهم ، تُكِنون به رعاياكم ، فان أحببتم أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضا ،
وتركتكم والأمر كله " . (٣)

ومن هذا النص تظهر الحالة النفسية التي دفعت الخليفة للزهد في منصبه ، فلم يبق له
الا الاسم فقط ، حتى أنه لا يحصل من القوت والمال ما يكفي حاجته .

-
- (١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤٢٣/٩ ، ابن الجوزي : المنتظم ١٦٠/٨ .
(٢) محمد مسفر الزهراني : نفوذ السلاجقة السياسي ص ٦٢ ، على ابراهيم حسن :
التاريخ الاسلامي العام ص ٤٥٠ ، أحمد أمين : ظهر الاسلام ١٢٢/١ .
(٣) ابن مسكويه : تجارب الأمم ص ٣٠٧ .

– حال الخلافة العباسية في عهد البويهيين :

يمكن اجمال حال الخلافة العباسية في عصر السيطرة البويهية في السمات التالية التي توضح ملامح النفوذ البويهي على الخلافة العباسية :

١ – في دولة بني بويه ظهر منهم طوائف من المذاهب المذمومة ، فمنهم زنادقة ، ومنهم قرامطة ، ومعتزلة ، ومتفلسفة ، ورافضة ، فحصل في أهل الاسلام والسنة في أيامهم من الوهن ما لم يعرف ، حتى استولى النصارى على ثغور الاسلام ، وانتشرت القرامطة في أرض مصر والمغرب والمشرق ، وغير ذلك . (١)

٢ – اعلان عقائد الشيعة على يد الأمير معز الدولة البويهي ، فقد أمر بسب بعض الصحابة (رضي الله عنهم) ، وأمر باظهار النواح في يوم عاشوراء ، واغلاق الأسواق والدكاكين ، وأصبحت تلك المظاهر بدعة سنوية تفعل في العاشر من محرم ، ولم يستطع الخليفة العباسي منع حد وثها . (٢)

٣ – سمح البويهيون في عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله لأحد دعاة الاسماعيلية وهو : هبة الله المؤيد في الدين الشيرازي بالدعوة للفاطميين بالعراق جهارا ، وقد امتنع الخليفة من وجود هذا الداعية وكتب الى الأمير أبي كالجار البويهي يهدده بطلب العون من السلاجقة ان بقي الشيرازي ودعوته في أراضي الدولة العباسية . (٣)

٤ – أما من ناحية الخليفة العباسي ، فنجد أن الخلفاء العباسيين تعرضوا في هذه الفترة لأقل تغيير وتبديل ، فلم يستبدل الخلفاء بسرعة مثلما كانت الحال عليه في عصر تسلط القادة ، فعزل من الخلفاء المستكفي بالله (٣٣٣ – ٣٣٨ هـ) ، والمطيع لله (٣٣٤ – ٣٦٤ هـ) ، وطالت مدة خلافة المطيع لله فبلغت (٢٩ سنة) ، والطائع لله (٣٦٣ –

(١) ابن تيمية : نقض المنطق ص ٢١ .

(٢) فاروق عمر : الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ص ١١٣ ، خالد المعادي : جهود العلماء في الحفاظ على كيان أهل السنة ص ٨٥ .

(٣) فاروق عمر : الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ص ١١٢ ، علي بيومي : قيام الدولة الأيوبية ص ١٨ .

٣٨١ هـ) حكم (١٨ سنة) ، والقادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) (٤١ سنة) ، ومع بقاء هؤلاء الخلفاء هذه المدد الطويلة في الخلافة ، إلا أنه لم يكن لهم من الخلافة إلا الاسم فقط . (١)

٥ - حرص الأمراء البويهيون على اظهار احترام الخليفة العباسي في المناسبات العامة ، لما لذلك من أثر في تهدئة العامة وارضائهم ، ويؤكد ذلك أن كل الأوامر كانت تصدر باسم الخليفة وتوقيع عليها (٢) ، على أنه قد ساءت العلاقة بين الخلفاء وبعض الأمراء البويهيين ، فمنعوا ذكر اسم الخليفة والدعاء له في خطبة الجمعة في عاصمة الخلافة بغداد لمدة شهرين (٣) ، وأصبح الخليفة العباسي لعبسة بيد البويهيين ينصبونه ويعزلونه ، وأصبح الخليفة أشبه ما يكون بالموظف يخصص له الأمير البويهي راتباً يومياً يزيد وينقص حسب رغبة البويهيين . (٤)

٦ - نازع الأمراء البويهيون الخليفة العباسي في بعض مظاهر الخلافة ، فمن ذلك :

أ - كان اسم الخليفة العباسي ينقش على العملة النقدية للدولة فقط ، فلما قسوى نفوذ آل بويه أصبحوا يصرون على نقش أسمائهم مع اسم الخليفة ، مضافاً إليها ألقابهم ، فنافسوا الخلفاء على مظاهر سيادة دينية والسياسية . (٥)

-
- (١) حسن أحمد محمود : العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ٥١٩ ، عبد الكريم حتاملة : البنية الادارية للدولة العباسية ص ١٠٣ ، يوسف العشي تاريخ عصر الخلافة العباسية ص ١٨٧ .
- (٢) فاروق عمر : الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ص ١١٣ ، سعيد عاشور : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ٣٤ .
- (٣) الصابي ، : رسوم دار الخلافة ص ١٣٧ ، عصام عبد الرؤوف : الدولة الاسلامية المستقلة ص ٣٢ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٤٠٦ ، حسن الباشا : دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص ٩٥ .
- (٤) حسين أمين : تاريخ العراق في العصر البويهي - مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - المجلد ١٧ سنة ١٩٦٤ م ص ٥٠ - ٥١ .
- (٥) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ص ٥٧ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ٤٣/٣ .

٧ - في مدة التسلط البويهى فقد منصب الوزارة أهميته ، واستأثر أمراء بني بويه بأموال الدولة (١) ، وعاشت بغداد في عصر الاستبداد والتسلط البويهى ظروفًا قاسية اقتصادية ، واجتماعية ، بسبب اضطراب الأمن ، واستغلال البعض ضعف سلطة الدولة في القيام بأعمال السلب والنهب ، وقد ساعد البويهيون على زيادة أحوال البلاد سوءًا بتشجيعهم للخلاف بين أهل السنة ، والشيعية في بغداد ، وقيامهم بضرب عناصر الجيش من الترك والديلم بعضهم ببعض . (٢)

٨ - سيطر الروم على الثغور الاسلامية في بلاد الشام ، ووقع ثمانية عشر بلدا من البلاد الاسلامية على سواحل الشام بأيدي الروم ، وأخذ من المسلمين عند عودة الروم إلى بلادهم مائة ألف من الأسرى . (٣)

ج - تسلط آل سلجوق على الخلافة العباسية :

بدأت العلاقة بين الخلافة العباسية والسلاجقة عندما أدرك الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، المخاطر التي تهدد دولته ، التي تمثل أهل السنة والجماعة ، وفي مقدمة هذه المخاطر :

- أ - انتشار المذهب الشيعي بالعراق بتأييد من الأمراء البويهيين .
- ب - ازدياد نشاط دعاة الدولة العبيدية بالعراق ، حيث استطاع المؤيد في الدين الشيرازي " استمالة العامة لدعوته في مناطق الديلم ، واقليم فارس ، وتمكن من إقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله العبيدي على منابر مدينة واسط ، وفي مدينة الأهواز " . (٤)

(١) حسن الباشا : دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص ٩٦ ، يوسف العشي تاريخ عصر الخلافة العباسية ص ١٨٨ .

(٢) أكرم ضياء العمري : موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ص ١٦ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٥٨/١١ ، ابن خلدون : التاريخ ٣١٢/٤ - ٣١٥ .

(٤) محمد كامل حسين : سيرة المؤيد في الدين ص ٥٦ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٤ .

ج - حركة القائد أرسلان البساسيري ، الذي أعلن أنه يريد القبض على الخليفة . (١)

د - تسلط آل بويه على الخلافة العباسية ، فلم يبق للخليفة العباسي من أمر

الخلافة الا الاسم فقط .

وأمام هذه التحديات الخطيرة " . . . كتب الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، كتابه السي

محمد بن ميكائيل بن سلجوق (٢) ، الملقب بطغرل بك ، يستنهضه على المسير

الى العراق " . (٣)

وبوصول السلطان طغرل بك الى بغداد ، وقعت الخلافة العباسية تحت سيطرة

مستبد جديد بها ، وهم السلاجقة ، وبدأت أول مراحل هذه السيطرة بتقدم طغرل بك بطلب

الزواج من ابنة الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وذلك في سنة ٤٥٣ هـ ، وقد أبدى الخليفة

عدم موافقته على هذا الطلب في بداية الأمر ، ثم اضطر الى القبول . (٤)

وبعد ذلك الزواج عبر طغرل بك عن طاعته للخليفة القائم بأمر الله ، فقال

(٥)

أمام الملأ : " أنا عبد للخليفة ما بقيت ، لا أملك شيئاً سوى ما علي من الثياب . . . " .

(١) ابن الجوزي : المنتظم ٢٤٨/١٥ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٨٩ ،

سعيد عاشور : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ٣٦ ، طه ندا : فصول

من تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٢٨ .

(٢) أول ملوك السلاجقة ، ملك بغداد والعراق سنة ٤٤٧ هـ ، عُرِفَ عنه الحِلْم والكرم

وكثرة الصيام والصدقة . واهتم ببناء المساجد .

(ابن خلكان : وفيات الأعيان ٦٣/٥) .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٧١/١٢ ، ابن الجوزي : المنتظم ٢٤٨/١٥ .

(٤) ، ، : ، ، عباس اقبال : الوزارة في عهد السلاجقة

ص ٣٣ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ٩٣/١٢ ، وفاضل مهدي : السياسة السلجوقية في

العراق ص ٩٧ .

لم تدم مدة السلطان طغرل بك بعد زواجه من ابنة الخليفة القائم بأمر الله ، حيث توفى في رمضان من سنة ٤٥٥ هـ ، وأوصى قبل وفاته أن تكون البيعة من بعده لابن أخيه سليمان ابن داود ، ولكن الأمر لم يتم على ما أراد ، فقد غلب محمد بن داود على أخيه سليمان ، واجتمعت كلمة السلاجقة عليه . (١)

بدأ محمد بن داود سلطنته " بالقبض على وزير عمه طغرل بك ، ويدعى الكندري ، وعزله من وزارته ، واعتمد في الوزارة على نظام الملك الطوسي ، الذي كان وزير صدق ، يكرم العلماء والفقهاء " (٢) ، ونظرا لصداقة نظام الملك لوالد محمد بن داود ، فقد جعل في يده زمام جميع الأمور من حلّ وعقد ، وقبض وبسط ، وتفويض وعزل " . (٣)

ثم لم يلبث محمد بن داود أن مات على يد جندي يدعى يوسف الخوارزمي ، وبموته انقضى عصر يعد من أهم عصور السلاطين السلاجقة ، فقد استطاع أن يرفع البناء الذي أرسى قواعده السلطان طغرل بك ، وأصبح السلاجقة قوة مرهوبة الجانب يحسب حسابها ، لما حققت من انتصارات عسكرية باهرة على دولة الروم " . (٥)

ثم تولى السلطنة ملكشاه بن محمد داود ، وقام بأعباء المملكة الوزير نظام الملك ، وقد اجتهد ملكشاه في توطيد ملكه ، ومحاولة بسط نفوذ دولة السلاجقة على أنحاء العالم الاسلامي للقضاء على دولة العبيديين في مصر واجتثاث جذورها . (٦)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٩٦/١٢ .
 (٢) المصدر السابق ٩٦/١٢ .
 (٣) ابن النظام : العراضة في الحكاية السلجوقية ص ٩٤ .
 (٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١١٣/١٢ .
 (٥) الحسيني : سلاجقة ايران والعراق ص ٦١ ، علي الغامدي : بلاد الشام قبائل الغزوالصليبي ص ١٣٢ .
 (٦) ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ٨٢ ، رشيد الجميلي : امارة الموصل في العصر السلجوقي ص ٧٢ .

وحرص ملكشاه على استعادة ما فقدته الخلافة العباسية من بلاد في نواحي الشام بسبب الحملات العسكرية التي أرسلتها الدولة العبيدية ، طمعا في احتلال العراق ، مرورا ببلاد الشام ، فبدأت أولى خطوات ملكشاه بالتوجه نحو دمشق في سنة ٤٦٧ هـ ، فتمت هزيمة أميرها المعلى بن حيدر ، نائب المستنصر العبيدي ، وخطب للخليفة العباسي المقتدى بأمر الله ، وقطعت خطبة العبيديين فيها ^(١) ، ثم بعد ذلك قطعت الخطبة لهم بمكة والمدينية . ^(٢)

– بداية الخلاف في الأسرة السلجوقية :

ثم لم يلبث أن توفي السلطان ملكشاه ، فانتقلت الأسرة السلجوقية من مرحلة القوة الى مرحلة الضعف والفرقة ، حيث بدأت الخلافات بين أبنائه الأربعة : بركيارق ، ومحمد ، ومحمود ، وسنجر ، فانهى بموته عصر القوة السلجوقية ، وفقد السلاجقة ركناهما من أركان دولتهم ، واشتغل من جاء بعده من السلاطين السلاجقة " في اخماد الفتن ، ولم تعد الأسرة السلجوقية تخضع لسلطان واحد ، بل يتنازعها أكثر من سلطان " ^(٣) ، وانقسم السلاجقة الى حزبين يناصر أحدهما أحد الأخوين : بركيارق ، أو محمود ، في سبيل الاستيلاء على السلطنة السلجوقية " . ^(٤)

وهكذا أصبحت الخلافة العباسية مطمعا لهؤلاء السلاجقة الذين أخذوا يتوافدون على بغداد لطلب مبايعتهم بالسلطنة ، وأخذ تفويض من الخليفة العباسي يعطيهم الحق في تمرير أمور الخلافة ، فبعد موت محمد ملكشاه ، ثم أخيه الأصغر محمود ، الذي ولي السلطنة

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٩٩/١٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤٠/١٢ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١١٥/١٠ .

(٣) رشيد الجميلي : امارة الموصل في العصر السلجوقي ص ٨٠ ، حسين أمين : تاريخ

العراق في العصر السلجوقي ص ٨٩ .

(٤) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو الحليبي ص ٢٠٠ .

بتدبير من أمه والقادة السلاجقة^(١) ، طمع في السلطنة بركيارق بن ملكشاه ، وتتسش ابن ألب أرسلان ، ومحمد بن ملكشاه ، وسنجر بن ملكشاه ، فعهد الخليفة العباسي المستظهر بأمر الله^(٢) بالسلطنة الى محمد بن ملكشاه ، " واستنابه في جميع ما يتعلق بأمر الخلافة ، دون ما أغلق عليه الخليفة بابه " . (٣)

وقد ساعد الخليفة العباسي بذلك التفويض على زيادة حدة الخلاف بين السلاجقة ، فقد جاءه أتاكك^(٤) ملكشاه بن بركيارق ويدعى اياز ، يطلب من الخليفة الموافقة على سلطنة ملكشاه ، فوافق الخليفة المستظهر بأمر الله على طلبه ، وخطب له بالسلطنة على منابر بغداد ، وهو ابن خمس سنين في مستهل جمادى الأولى سنة ٤٩٨ هـ . (٥)

وبعد وفاة السلطان محمد بن ملكشاه جلس ابنه محمود على سرير السلطنة وهو في الرابعة عشر من عمره ، وخطب له ببغداد وغيرها من البلاد ، ووافق الخليفة المستظهر بأمر الله على سلطنته . (٦)

-
- (١) عماد الدين الأصفهاني : دولة آل سلجوق ص ٧٦ - ٧٧ ، ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ٨٤ ، الحسيني : زبدة التواريخ ص ١٥٥ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ١١ .
- (٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٤٣٠ .
- (٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/١٧٣ .
- (٤) الأتابك : يطلق على الأمير الكبير . والمراد به هنا المربي والمشرف على أموره ، والمساعد له .
- (٥) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/١٨٠ ، ابن الجوزي : المنتظم ٩/١٤٢ ، ابن خلدون : التاريخ ٥/١٩ .
- (٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠/٥٢٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/١٩٢ ، الكتبي : عيون التواريخ ص ٨٢ ، الحسيني : زبدة التواريخ ص ١٥٧ .
- وراجع أحداث النزاع بين السلطان محمود وعمه سنجر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠/٥٤٨ - ٥٥٣ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١٢/١٩٧ .
- وأحداث النزاع بين السلطان محمود ومسعود : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠/٥٦٢ ، ومحمود وأخيه طغرل بك : ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/٢٠٣ .

— عودة الحياة الى الخلافة العباسية :

مما تقدم يتضح ما أصاب الخلافة العباسية نتيجة لاستبداد السلاطين السلاجقة ، فبعد أن كانت الأسرة السلجوقية عاملاً قوياً تعتمد عليه الخلافة العباسية في توطيئها وحكمها وبسط نفوذها ، وتستعين بها في مدافعة أطماع العبيد بين الذين يحاولون مد حكمهم الى بلاد الشام ، والعراق ، وتغيرت الحال فمما وجدته الخلافة العباسية من تأييد ومناصرة على يد السلطان طغرل بك للخليفة القائم بأمر الله ، افتقدته الخلافة في العصور التالية ، " ووقع الخليفة العباسي تحت سيطرة السلاطين السلاجقة ، واستبدادهم " (١) ، وعندما أدرك الخلفاء خطورة ذلك الاستبداد السلجوقي سعوا في التخلص منه واستعادة نفوذهم ، وأن يعيدوا للخلافة سالف عزها الذي فقدته بتسلط السلاطين السلاجقة عليها ومن هؤلاء الخلفاء :

(٥٢٩ - ٥٣٤) هـ الخليفة العباسي المسترشد بالله الفضل بن المستظهر ، فمن خلافته بدأت محاولات الخلفاء العباسيين في استعادة نفوذهم على الدولة الذي فقدوه نتيجة لضعف من سبقهم من خلفاء ، وبدأ خطواته باعادة تنظيم جيش الخلافة العباسية ، فتم له ذلك ، وكان ممن ثمار تلك الخطوة الهامة تمكنه من هزيمة ديبس بن صدقة ، الذي توجه قاصداً ببغداد ، فنهب دار الخلافة ونهب دار الخليفة وأمواله ، فنودي في بغداد للخروج لقتاله ، وبرز الخليفة في الجيش ، وفي هذه الموقعة انهزم ديبس وعسكره وفرّ هارباً ، وعاد الخليفة الى بغداد بعد غيبة دامت ستة عشر يوماً . (٢)

ومن خلال هذه الحادثة نجد الخليفة العباسي يخرج بنفسه لقيادة جيش الخلافة حرماً منه على وضع حد لما أصاب الخلافة من ضعف ، ولاستعادة هيبتها ، فلن يتسنى له

(١) محمد مفيد الياسين : الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع ص ١٩ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٤/١٢ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق

تحقيق تلك الغاية وهو جالس في قصره ، وتكرر خروج الخليفة في جيش الخلافة لملا قـاة
د بيس بن صدقة الذي أراد أخذ بغداد من يد الخليفة ، وذلك في سنة ٥١٩ هـ . (١)
وقد وجد الخليفة المسترشد بالله الدعم والمناصرة من رعيته ، خاصة أهل بغداد ،
فقد مشوا بين يديه لمساعدته في جهوده الرامية لاستعادة سلطانه ، فكانت مشاركتهم
في القتال انما هي حماية للخلافة ودفاعا عن الخليفة ، وللتخلص مما أصاب الدولة من
جاء التسلط السلجوقي .

ولم يكتف المسترشد بالله بالأسلوب العسكري في محاولته لاستعادة سلطانه ، فحاول
استغلال الخلافات الدائمة بين السلاجقة لتحقيق غايته في استعادة خلافته ، وقد أوجد
هذا الأسلوب الخوف لدى السلاطين السلاجقة ، فعندما كتب الخليفة السلطان محمود
يطلب منه مساعدته على قتال عمه سنجر ، وأن يكونا عليه ، وصل خبر تلك المكاتبة إلى
السلطان سنجر ، فكتب إلى ابن أخيه محمود ينهاه ويستميله إليه ويحذره من الخليفة
قائلا له : " متى ما فرغ منه (سنجر) تفرغ له ووثب عليه ، فأصغى إلى قول عمه " . (٢)
وقد أتت هذه السياسة ثمارها ، وتحول الموقف لصالح الخليفة العباسي ، فقد حرص
السلاطين على استرضاء الخليفة العباسي ، وكسب وده ، وأصبح الخليفة يتحدث ويفاوض
من موقع القوة التي أخافت السلاطين السلاجقة ، وفي مقدمتهم محمود الذي طلب بعقد
الصلح مع الخليفة وخرج بموافقة الخليفة على ذلك الطلب ، وأخذ يعتذر للخليفة عما
بدر منه . (٣)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٧/١٢ ، ابن قاضي شهبه : الكواكب الدريسة
ص ٩٢ ، الحسيني : زبدة التواريخ ص ١٩١ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ
دمشق ص ٢٠٦

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٩/١٢ ، ابن الجوزي : المنتظم ٢٥٤/٩ ، ابن واصل :
مفرج الكروب ص ٤٧ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ٤٧ ،
الكتبي : عيون التواريخ ص ١٧٣ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٦٧٠/١٠ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢١٠/١٢

واستمر الخليفة العباسي على هذه السياسة القوية ، وأعلن لمن خالفه من السلاطين السلاجقة أن السيف سيكون فاصلا بينه وبينهم ، ومن جهة ثانية اجتهد في كسب ولاء رعيته الى جواره ، فكان يبين لهم ما يتعرض له من ظلم واستبداد من السلاطين ، ويطلعهم على التدابير التي سوف يتخذها لحماية الخلافة التي أصبحت هدفا لكل طامع ، فبعد أداء الخليفة وجموع المصلين لحلاة العيد سعد المنبر وخطب خطبة بليغة ، ختمها بطلب النصر والتأييد من الله عز وجل . (١)

واجتهد الخليفة المسترشد بالله في مواجهته لنفوذ السلاطين السلاجقة بسنانه وبيانه ، محاولا تحقيق ما يصبو اليه من استعادة ملكه ونفوذ ه ، حتى وافاه الأجل على أيدي الباطنية ، وهو بعيد عن عاصمة خلافته بغداد في سنة ٥٢٩ هـ . (٢)

— جهود بعض الخلفاء في استعادة نفوذهم :

من الخلفاء الذين حاولوا استعادة نفوذهم والتخلص من تسلط السلجوقي على الخلافة العباسية :

الراشد بالله منصور بن المسترشد بالله ، وقد حاول السلاجقة اختيار خليفة من العباسيين لا يعارض نفوذهم ، حيث أرسل السلطان مسعود الى عمه سنجر يأخذ اذنه فيمن يولى الخلافة العباسية فقال له : " رتول الا من يقع عليه رأى الوزير ، وصاحب المخزن ، وكاتب الانشاء ، ويضمنون ما يجرى منه ، ويكون الجواب عليهم " (٣) ، فلما أخبر السلطان مسعود هؤلاء الثلاثة بما أشار به عمه سنجر قال الوزير : " اذا كان الأمر يلزمنا فنحن نولسي من نراه ، وهو الزاهد ، العابد ، الدّين ، الذى ليس في الدار مثله " فقال السلطان مسعود :

(١) ابن الجوزي : المنتظم ٢٥٦/٩ - ٢٥٨ ، الحسيني : زبدة التواريخ ص ١٩٩ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٥١ ، الكتبي : فوات الوفيات ١٧٩/٣ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٠ .

من هو ؟ فقال الوزير : " الأمير أبو عبد الله بن المستظهر " ، فقال : وتضمنون ما يجرى منه ؟ فقال الوزير : " نعم " . فعند ذلك قال السلطان : ذاك اليكم واكتموا الحال لئلا ينمو الأمر فيقتل " . (١)

وبعد مبايعة الراشد بالله الخلافة ، أرسل اليه السلطان مسعود يطلب منه دفع مبلغ أربعمئة ألف دينار مدعياً أن والده المسترشد بالله قد التزم بدفعها ، فامتنع الراشد من دفع المال ، وذكر لرسول السلطان مسعود : أنه ليس بيننا وبينكم إلا السيف ، وقد حاول رسول السلطان مسعود دخول دار الخلافة وأخذ الأموال المطلوبة ، ولكن الخليفة الراشد بالله استعد لمنعه وقاد عسكر الخلافة مما اضطر عسكر السلطان مسعود الى التراجع والانهمزام . (٢)

ثم دبر السلطان مسعود مكيدة جديدة على الخليفة العباسي الراشد بالله أدت الى خلع من الخلافة ، فقد أظهر السلطان كتاباً مدعياً فيه أن الخليفة قد أقرّ على نفسه بالخلع من الخلافة ان خرج من بغداد لقتال السلطان مسعود ، مع أن هذا الكتاب كان مزوراً حيث لم يلتق الخليفة منذ بداية خلافته بالسلطان مسعود ، ولم تكن بينهما مكاتبات ، ولو كان هذا الكتاب بخط الخليفة لما احتاج السلطان مسعود للضغط على القضاة والفقهاء وتخويفهم حتى يمد روا فتواهم بخلع الخليفة من الخلافة . (٣)

وكانت آخر محاولات الراشد بالله لاستعادة نفوذه ، عندما توجه الى بغداد لقتال السلطان مسعود ، ولكن تلك المحاولة لم تنجح لبقاء الخليفة وحيداً ، وتفرق من حوله ، مما اضطره للسير نحو أصبهان ، حيث انتهى أمره بمقتله (٤) قبل أن يحقق ما بدأه من جهود لاستعادة سلطانه ، وانقاذ الخلافة من استبداد السلاجقة .

-
- (١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥١ ، الكتبي : عيون التواريخ ص ٣٠٦ .
 (٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٥/١٢ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٠٠ .
 (٣) محمد مسفر الزهراني : نفوذ السلاجقة ص ١٤٣ .
 (٤) اختلف في سبب موته ، فذكر ابن الجوزي أنه مات مسموماً ٧٦/١٠ ، بينما ذكر ابن كثير مرة أنه قتل على يد رجل ممن يخدمه ٢٢٩/١٢ ، وذكر مرة ثانية أنه قتل على أيدي الباطنية ٢٢٩/١٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ص ٥٨ .

ومن هؤلاء الخلفاء : المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر ، وتمت مبايعته بالخلافة بعد خلع الراشد بالله بيومين ^(١) ، وبدأ السلطان مسعود بمضايقة الخليفة منذ بدايته خلافته ، " حيث استولى على جميع ما كان في دار الخلافة من أثاث ، وأموال ، ودخل أصحاب السلطان الى دار الخلافة ، فحوقوا نساء الخليفة لجبارهن على اخراج ما عندهن من الأموال ، وأخذوا في تلك الليلة ما قد روا عليه من حلي ومتاع " . ^(٢)

ورغبة من السلطان مسعود في تجريد الخليفة العباسي من أى قوة يعتمد عليها في استعادة نفوذه ، اشترط عليه ألا يكون عنده خيل ولا عدة سفر ، واستحلف الخليفة على أن لا يشتري طيلة خلافته مملوكا تركيا ^(٣) ، وشدد عليه في النواحي المالية ، فجعل " دخل الخليفة المقتفي لأمر الله قاصر على العقار الخاص " . ^(٤)

ومع هذا التضييق على الخليفة أخذ السلطان مسعود يلح في طلب المزيد من الأموال فرد عليه الخليفة بقوله : " ما رأينا أعجب من أمرك ، أنت تعلم أن المسترشد سار اليك بأمواله فجرى ما جرى ، وعاد أصحابه عراة ، وولي الراشد ففعل ما فعل ورحل ، وأخذ ما بقي من الأموال ، ولم يبق في الدار سوى الأثاث فأخذته جميعا ، وتصرفت في دار الضرب ، ودار الذهب ، وأخذت التركت ، والجوالي ، فمن أى وجه نقيم لك هذا الملك ، وما بقسى إلا أن نخرج من الدار ونسلمها لك ، فاني عاهدت الله تعالى ألا آخذ من مال المسلمين حبة واحدة ظلما " . ^(٥)

وذهب الخليفة العباسي الى أبعد من مجرد توبيخ السلطان مسعود وتهديده ، الى محاولة القضاء عليه والتخلص من تسلطه على الخلافة والخليفة ، فقد حاول القبض عليه

-
- (١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤٣/١١ ، ابن خلدون : التاريخ ٥٠٠/٤ .
 (٢) ابن الجوزى : المنتظم ٦٢/١٠ ، ابن خلدون : التاريخ ٧٣/٥ .
 (٣) البندارى : تاريخ آل سلجوق ص ٢١٥ .
 (٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٧٥ .
 (٥) ابن الجوزى : المنتظم ٦٦/١٠ .

وسجنه بالاتفاق مع أحد أعوانه ، عند خروج السلطان مسعود لمصلاة العيد ، ولكن لم تنجح تلك المحاولة لنزول الأمطار ليلة العيد ، فلم يخرج السلطان للمصلاة ، ففشل التدبير . (١)

وحاول الخليفة استغلال نزاعات السلاجقة فيما بينهم وانشغالهم عنه ، في إصلاح وضع الخلافة ، فبدأ بتكوين جيش نظامي للخلافة ، وجلس بنفسه واستعرض هذا الجيش ، ثم أمر بحفر الخنادق حول بغداد ، ونودي للناس بلبس السلاح ، وأن يستعدوا للدفاع عن أموالهم وأنفسهم . (٢)

وحاول الخليفة العباسي تقوية عاصمة الخلافة العباسية في بغداد ، فاتخذ التدابير اللازمة للدفاع عنها عند تعرضها لهجوم من السلاطين السلاجقة ، أو غيرهم من أمراء النواحي ، ولحمايتها من هجمات العياريين (٣) الذين كانوا يغيرون على بغداد من فترة لأخرى ، فشرع الخليفة " في بناء سور بغداد ، وأمر بحفر الخنادق وتحصينها ، وألزم التجار وأعيان الرعية القيام بما ينفق على العمارات من أموالهم على سبيل القرض والمعونة " (٤)

وبعد موت السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ ، قاد الخليفة جيشه ، فاستعاد مدينة واسط (٥) ، وأصلح أحوالها ، ثم توجه إلى الكوفة (٦) ، والحلة (٧) ، وفي سنة ٥٤٩ هـ

-
- (١) الراوندي : راحة الصدور ص ٣٤٥ .
(٢) ابن الجوزي : المنتظم ١٣٣/١٠ ، الحسيني : زبدة التواريخ ص ٢٤٧ .
(٣) جمع عيار ، والعيار من الرجال هو الذي يخلي نفسه وهوها لا يروعها ولا يزعجها .
(المصباح المنير : ٩٢/٢) .
(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٢ .
(٥) بلدة بين الكوفة والبصرة ، وسميت بواسط لتوسطها بينهما ، فمنها إلى كل واحدة منهما مسافة خمسين فرسخا . (الحموي : معجم البلدان ٣٤٧/٥) .
(٦) بالضم ، أرض مشهورة بسواد العراق ، سميت الكوفة لاستدارتها ، أول تمصيرها في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة ١٧ هـ .
(الحموي : معجم البلدان ٤٩٠/٤) .
(٧) مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، أول من عمرها صدقة بن منصور بن ديبس الأسدي نزل بها بأهله وعساكره وبنى بها المساكن الجليلة .
(الحموي : معجم البلدان ٢٩٤/٢) .

حاصر الخليفة مدينة تكريت (١) وأظفره الله عليها . (٢)

وعلى هذا النهج سار الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله ، حتى كانت وفاته سنة ٥٥٥ هـ بعد أن ظل في الخلافة العباسية قرابة أربعين سنة وثلاثة أشهر ، قضاها في محاولات الجادة لاستعادة سلطانه ، وقد كانت خلافته مغايرة لمن سبقه من الخلفاء الذين سعوا للتخلص من نفوذ واستبداد السلاطين السلاجقة ، ففي خلافته ظهرت ثمار تلك المحاولات العباسية ، واستطاع المقتفي لأمر الله أن " يباشر الأمور بنفسه ، وشارك في الحروب ، وانفرد بحكم العراق منفردا عن السلطان السلجوقي ، وتمكن في الخلافة ، وحكم على العسكر والأمراء " . (٣)

ويضيف السيوطي عن خلافة المقتفي لأمر الله قائلا :

" جدد معالم الامامة ، ومهد رسوم الخلافة ، وباشر الأمور بنفسه ، وفي أيامه عادت بغداد والعراق الى يد الخلفاء ، ولم يبق لهم منازع " . (٤)

ويقول عنه ابن العماد مؤكداً ضبط الخليفة المقتفي لأمر الله لأحوال الخلافة العباسية : " كان لا يجري في دولته أمر وان صغرا لا بتوقيعه " . (٥)

ومن هؤلاء الخلفاء الذين حاولوا استعادة نفوذهم : المستنجد بالله يوسف بن المقتفي لأمر الله ، الذي انفرد بأمر العراق من دون السلاجقة ، وحرص في بداية خلافته على بسط سلطان الخلافة العباسية على الأقاليم التي تخضع لحكم السلاطين السلاجقة ، وكتب الى السلطان سليمان شاه السلجوقي يسأله الطاعة والاذعان للخلافة ، ويطلب منه الخطبة

-
- (١) بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، وهي الى بغداد أقرب ، فتحت في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب سنة ١٦ هـ . (الحموي : معجم البلدان ٢/٣٨) .
- (٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١١/١٩٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/٢٤٦ .
- (٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/٢٥٩ .
- (٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٧٦ .
- (٥) ابن العماد : شذرات الذهب ٤/١٧٢

للخلافة في جميع البلاد التي تحت يده ، وذكره باحسان والده اليه ، وأفضاله عليه ، فبادر السلطان سليمان الى امتثال أمر الخليفة ، وقبل كتاب الخليفة احتراماً له ، وكتب الى البلاد التي تحت حكمه ليخطب للخليفة بها . (١)

ولما حاول السلطان السلجوقي سليمان شاه إعادة نفوذ السلاجقة على الخلافة ، تعذر عليه ذلك ، " فقد وقعت في أنفسهم من بغداد الهيبة ، ومن حملها الخيبة ، فلم يقدم ملك اليها ، ولم يقدم سلطان عليها " . (٢)

وعندما خاطب السلطان أرسلان شاه السلجوقي الخليفة المستنجد بالله يطلب منه " اعلان الخطبة له ببغداد ، وأن تعاد القواعد الى ما كانت عليه أيام السلطان مسعود ، أعيد رسول أرسلان شاه على أقبح حالة بعد اهانتة " . (٣)

وفي مدة خلافة المستنجد بالله التي استمرت احدى عشرة سنة ، عجز السلطان السلجوقي أرسلان شاه عن مواجهة الخليفة العباسي ، وباءت محاولاته لاستعادة نفوذ السلاجقة على الخلافة العباسية بالفشل (٤) ، واستطاع المستنجد بالله في خلافته تدبير أمور الخلافة العباسية ، واصلاح أوضاعها الداخلية ، فأمر بازالة المظالم والمكوس من العراق ، وحل الاقطاع وأعاد الأرض الى الخراج . (٥)

(١) البندارى : تاريخ آل سلجوق ص ٢٦٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٦٨/١١ .

(٤) لبيان محاولات السلطان أرسلان شاه السلجوقي وجهود الخليفة العباسي في مواجهتها :

ابن الجوزي : المنتظم ٢٣٢/١٠ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٦٢/١١ ، ابن

كثير : البداية والنهاية ٢٨١/١٢ .

(٥) محمد ضيف الله بطاينة : محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية ص ٤ .

ومن هؤلاء الخلفاء الذين سعوا لانقاذ الخلافة العباسية من تسلط السلاجقة :
 الخليفة المستعزي بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله ، وقد بدأ جهوده باصلاح أحوال
 الخليفة ، واكمال ما بدأه أسلافه من خلفاء بني العباس ، وفي خلافته تجددت أطماع
 بعض السلاطين السلاجقة في الاستيلاء على بغداد خاصة بعد وفاة المستنجد بالله ، فقد
 تقدم سلطان خوزستان ^(١) السلجوقي واستولى على واسط ، ثم تقدم نحو بغداد ، فلما
 علم الخليفة بذلك أرسل جيش الخلافة الذي استطاع حمايتها من الطامعين فيها
 ورد هم عنها . (٢)

وحاول السلطان أرسلان شاه السلجوقي في سنة ٥٧١هـ الاستيلاء على بغداد بنفسه
 بعد أن حرّض الأمراء السلاجقة ، فخرج بجيشه قاصدا بغداد ، ولكن تعذر عليه الوصول
 اليها لمرضه في الطريق ، مما منعه من مواصلة السير وتحقيق هدفه . (٣)

وفي سنة ٥٧٢هـ حاول أحد أبناء السلطان ملكشاه بن محمود الاستيلاء على بغداد
 وطلب مقابلة الخليفة العباسي المستضيء ، وأرسل رسوله ليؤذن له ، فلم يلتفت الي
 طلبه ، فعمد هذا السلجوقي الى الانتقام من الخليفة العباسي بنهب مواضع من أطراف
 بغداد ، فأرسل اليه الخليفة جيش الخلافة ، وبعد مناوشات بين الجانبين رحل هذا
 السلجوقي الى بلاده . (٤)

(١) تطلق خوزستان على مناطق من فارس والعراق ، تشمل نواحي الأهواز بين فارس والبصرة
 وواسط . (الحموي : معجم البلدان ٤٠٤/٢) .

(٢) البنداري : تاريخ آل سلجوق ص ٢٧٥ ، ابن الجوزي : المنتظم ٢٣٥/١٠ .

(٣) البنداري : تاريخ آل سلجوق ص ٢٧٧ .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ٢٦٤/١٠ ، ويذكر ابن الأثير أن هذا السلجوقي كان في كفالة

حاكم خوزستان الذي يدعى شمله ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤٤٠/١١ .

ومما ساعد الخليفة العباسي المستضيء على مواجهة النفوذ السلجوقي ، انشغال السلاجقة فيما بينهم ، حيث كان كل منهم يطمع في زيادة رفعة ملكه وسلطانه (١) ، وكان من نتيجة تلك النزاعات بين السلاطين السلاجقة استقرار عاصمة الخلافة العباسية بغداد ، ومع هذا استمر المستضيء بأمر الله في جهوده مستغلا فترة الاستقرار تلك في اصلاح أوضاع الخلافة الداخلية والاستعداد للدفاع عنها من الأطماع الخارجية .

ومن هؤلاء الخلفاء : الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بأمر الله ، فقد ولي الخلافة بعهد من والده ، وتمكن أمره وعظمت هيئته في البلاد ، وقام بجميع أمور الخلافة بنفسه . (٢)

وبدأ الخلاف بين الناصر لدين الله والسلطان السلجوقي طغرل بن أرسلان شاه عندما قام الخليفة العباسي بهدم دار السلطنة في بغداد التي كانت مقرا لاقامة السلاطين السلاجقة عند قدومهم الى بغداد ، وكان هذا ردا من الناصر على طلب السلطان بعمارة دار السلطنة حتى يسكنها اذا وصل بغداد ، فما كان من الخليفة الا أن أمر بنقض دار السلطنة فهدمت وعفى أثرها . (٣)

ويظهر من هذا التصرف شجاعة الخليفة العباسي ، وعزمه على مواجهة السلطان طغرل بحزم وشدة ، ومنعه من محاولته اتخاذ دار السلطنة تلك حجة لدخول بغداد ثم التسلط على الخلافة والخليفة ، ولم يقف الخليفة العباسي مكتوف اليدين أمام محاولات السلطان

(١) حسين أمين : تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٨٤ ، أحمد تيمور : ضبط الأعلام ص ١٣ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٢٦/١٢ ، النساني : المسجد المسبوك ص ١٧٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٥٦٠/١١ ، ابن الفرات : التاريخ ص ٢١١ .

طغرل لبسط نفوذه باتجاه العراق ، فقد أرسل جيش الخلافة في سنة ٥٨٤ هـ بقيادة وزيره عبيد الله بن يونس لمساعدة قزل مظفر الدين الذي كان مواليا للخلافة العباسية ، ويعمل تحت امرة الخليفة وفي خدمته . (١)

ثم أرسل الناصر لدين الله جيش الخلافة لقتال السلطان طغرل بن أرسلان في عاصمة ملكه همذان (٢) ، فهرب السلطان من مواجهة ذلك الجيش ، فلققه الجيش العباسي وهزمه هزيمة منكرة أجبرته على طلب الملح من الخليفة العباسي سنة ٥٨٦ هـ ، وأرسل السلطان ابنه ألب أرسلان رهينة الى الخليفة ، تعبيراً عن موافقته لكل ما يحكم به الناصر لدين الله . (٣)

وكانت نهاية النزاع بين الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، وبين السلطان طغرل أرسلان بموته أثناء قتاله لخوارزم شاه ، فقد أرسل الخليفة الى خوارزم شاه يطلب منحه المساعدة ويأمره بالتوجه الى طغرل أرسلان ، واشتكى الخليفة لخوارزم شاه مما أصابه من السلطان طغرل ، ووعد الخليفة باقطاعه البلاد التي يحكمها طغرل أرسلان ، فسار خوارزم شاه من نيسابور (٤) الى الري (٥) ومنها الى همذان فملك جميع تلك النواحي بعد مقتل السلطان طغرل بن أرسلان في سنة ٥٩٠ هـ . (٦)

-
- (١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٤/١٢ ، البنداري : تاريخ آل سلجوق ص ٢٧٦ .
(٢) بلدة بأرض فارس ، عذبة الماء ، طيبة الهواء ، فتحت في جمادى الأولى بعد ستة أشهر من مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة ٢٤ هـ ، وكان فتحها على يد المغيرة بن شعبة . (الحموي : معجم البلدان ٤١٠/٥) .
(٣) ابن النظام : أخبار الدولة السلجوقية ص ١٨٠ .
(٤) مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة ، معدن الفضلاء ومنبع العلماء ، فتحها المسلمون في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢١ هـ ، على يد الأمير عبد الله بن عامر ابن كريز . (الحموي : معجم البلدان ٣٣١/٥) .
(٥) مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن الكبيرة تقع على طريق الحاج ، فتحت في خلافة عمر بن الخطاب على يد عروة بن زيد الخيل الطائي سنة ٢٠ هـ . (الحموي : معجم البلدان ١١٧/٣) .
(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤٠/١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٠/١٣ ، البنداري : تاريخ آل سلجوق ص ٢٧٧ .

وشارك الخليفة العباسي الناصر لدين الله بارسال جيش الخلافة العباسية نجدة لخوارزم لمساعدته في التخلص من السلطان طغرل بن أرسلان ، وبعد مقتل طغرل أرسل الخليفة الخلع السلطانية الى خوارزم شاه مكافأة له لنصرة الخليفة . (١)

وكرس الخليفة العباسي الناصر لدين الله جهوده في الدفاع عن الخلافة العباسية ، واستقلاله بشؤونها ، وبذل جهده في منع أي تدخل قد تقوم به قوة خارجية تفرض سلطانها عليه كما كانت دولة السلاجقة قد فرضته على أسلافه السابقين . (٢)

وبخلافة الناصر لدين الله انتهت جهود الخلفاء العباسيين لاستعادة نفوذهم الذي استبد به السلاطين السلاجقة ، وقد استمرت جهود الخلفاء لتحقيق تلك الغاية قرابة سبعين سنة ، بدأت بالخليفة المسترشد بالله ، وختمت بالناصر لدين الله ، الذي بدأ بعد مقتل السلطان طغرل بن أرسلان في مباشرة الاشراف على أحوال الخلافة ، ومد سلطانه الى الأقاليم التي وقعت لفترات سابقة تحت حكم السلاطين السلاجقة ، فاستعاد تكريت ، وتسلم خوزستان ، وملك أصفهان (٣) وغيرها (٤) ، ومضى في جهوده الرامية لاصلاح أحوال الخلافة العباسية ، " وتقوية جانب الخلافة على الملوك والممالك " (٥) ، وعلى الصعيد الداخلي للدولة ، فقد اهتم الخليفة بعاصمة الخلافة بغداد ، فبنى لها سورا ، واهتم بطرق الحج ، واهتم أيضا بالنواحي التعليمية . (٦)

-
- (١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤٥/١٢ .
(٢) سعد الغامدي : أوضاع الدولة الاسلامية في الشرق الاسلامي ص ٥٩ .
(٣) مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن ، واسمها مركب بالفارسية ، ومعناه بلاد الفرسان . (الحموي : معجم البلدان ٢٠٦/١) .
(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٥٨/١٢ ، ابن كثير : ابلداية والنهاية ١٢/١٣ ، ١٤ .
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/١٣ .
(٦) المصدر السابق ٢١/١٣ ، ٥٧ .

وبما أن السلاجقة يعتقدون المذهب السني ، فقد كان من الممكن أن تتحسن فـي ظل ذلك العلاقة بينهم وبين الخلافة العباسية ، وتستعيد الخلافة بعض نفوذها السذي فقد ته من قبل ، ومع ذلك فان السلاجقة حرصوا أن تكون لهم اليد العليا في تصريف أمور الخلافة العباسية . (١)

الآثار التي نجمت عن التسلط السلجوقي على الخلافة العباسية :

من خلال السمات التالية ظهرت في فترة تسلطهم على الخلافة ، ومنها :

١ - بدأت العلاقة بين الخلافة العباسية و السلاجقة في سنة ٤٤٧ هـ ، فقد كاتب الخليفة القائم بأمر الله السلطان طغرل بك يطلب منه المساعدة و حمايته من أرسـلان الباسيري ، " وكانت العلاقة الطيبة من الجانبين بما أنهم جميعا يعتقدون المذهب السني ، مما يتر التعاون بينهما " . (٢)

٢ - أظهر بعض السلاطين السلاجقة احترام الخليفة العباسي و تقديره مثل طغرل بك ، والسلطان ملكشاه الذي أظهر احترامه للخليفة العباسي ، فانه لما دخل على الخليفة في دار الخلافة بادر الى تقبيل يده و وضعها على عينه ، فقابل الخليفة ذلك التقدير بأن فوض الى ملكشاه الاشراف على أمور الناس ، ثم ختمت هذه العلاقة الطيبة بينهما بزواج الخليفة المقتدي بأمر الله من ابنة ملكشاه في سنة ٤٨٠ هـ . (٣)

٣ - شاب العلاقة بين الخلافة و السلاجقة فترات من النزاع والاختلاف بسبب أطماع السلاجقة في الخلافة العباسية ، فقد اختلفت الكفة فيما بين المقتدي بأمر الله ، وملكشاه بسبب ابن الخليفة من ابنة ملكشاه ، فقد حرص السلطان على أن يكون ابن ابنته

(١) محمد ضيف الله بطاينة : محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ص ٥ .

(٢) فاضل مهدي بيات : السياسة السلجوقية ص ٩٧ ، أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ٤٣٠/٣ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/١٣٩ ، ١٤١ ، السبكي : طبقات الشافعية ٣٢٤/٤ .

وليا للعهد ، وأن ينقل الخليفة عاصمة الخلافة من بغداد الى البصرة ، فلم يوافق الخليفة على تلك المطالب . (١)

٤ - عاشت الخلافة العباسية الاستقرار ، وبقاء الخليفة في منصبه ، دون أن يتعرض للخلع أو القتل ، ما عدا الخليفة الراشد ، ويشهد لهذا طول المدة التي مكثها الخلفاء في مناصبهم في عصر السيطرة السلجوقية . (٢)

٥ - نازع بعض السلاطين السلاجقة الخلفاء العباسيين في نفوذهم وسلطانهم ، وظهرت محاولات عديدة من الخلفاء للتخلص من الاستبداد السلجوقي ، فلم يرض أولئك الخلفاء بأن يكون في أيدي السلاطين ادارة شؤون البلاد ، وحرمان الخلفاء من حقهم في أداء واجباتهم وهم قادة الأمة الاسلامية ، وقد تشدد بعض السلاطين في معاملتهم للخلفاء حيث حرّموا عليهم أن يكون لهم جيش خاص أو حرس خاص ، فأصبح الخلفاء لا سلطة لهم على خلافتهم ، فسعى الخلفاء للتخلص من ذلك التسلط فاستغلوا نشوب الصراعات بين السلاجقة لاستعادة سلطتهم على الخلافة التي سلبت منهم على مدى قرن من الزمان . (٣)

٦ - حرص السلاطين السلاجقة - وهم قوم عسكريون - وبسبب ثقلهم العسكري بين القوى الأخرى على عدم التنازل عن شيء من نفوذهم لصالح الخلافة العباسية ، وأصبحوا هم أهل القوة والمنعة في البلاد ، وعندما شفع الخليفة لدى السلطان طغرل بك فيمن التجأ الى دار الخلافة كان رد السلطان على الخليفة : ان هذا لا حرمة له يستحق بها المراعاة ويجب تسليمه ليتحقق الناس من منزلتي ، وتتضاعف هيبتني .

(١) السبكي : طبقات الشافعية ٣٢٦/٤ ، الراوندي : راحة الصدور ص ٢١٦ .
 (٢) عوامل الوحدة والفرقة في الدولة العباسية ص ٢٤٩ .
 (٣) سعد الغامدي : أوضاع الدول الاسلامية في الشرق الاسلامي ص ٥١ ، علي بيومي : قيام الدولة الأيوبية ص ٢٠ .

٧ - ساعد الخلفاء في استعادة نفوذهم وسلطانهم اهتمام الخلفاء بالناحية الدينية ونشرهم لمذهب أهل السنة والجماعة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتفقد أحوال الرعية ، وتقوية صلتهم بعامّة المسلمين وخاصتهم ، واجتهادهم في رفع الظلم عنهم من الأمراء ، والولاة (١) ، وغيرهم ، وتعقب المفسدين وتنفيذ أحكام الله فيهم ، وقد وجد الخلفاء ثمار هذه الأعمال الصالحة في وقوف الرعية بجانبهم ، وشدهم من أزر الخلفاء في المواقف العصيبة التي تعرضت لها الخلافة العباسية فكانت العامة خير معين - بعد الله عز وجل - للخلفاء في مهمتهم .

٨ - تعرضت الخلافة العباسية لأزمات اقتصادية في ظل النزاع بين السلاطين السلاجقة ، وبلغ الأمر بالسلطان بركيارق أن كتب الى الخليفة المستظهر بأمر الله " يشكو اليه الخائفة ، وقلّة المال ، ويطلب أن يعان بما ينفقه على جيشه ، وبعد مراجعات بينه وبين الخليفة تقرر الأمر على خمسين ألف حملها الخليفة الى السلطان " ، وبما أن هذا المال كان غير كاف للسلطان بركيارق ، عمد هو وأصحابه " فمدوا أيديهم الى أموال الناس ، فعمّ الضرر ، وتمنى أهل البلاد زوالهم عنهم " (٢) .

٩ - قدّم السلاجقة خدمات جلييلة للخلافة العباسية ، منها :

أ - انقاذ الخلافة العباسية من حركة أرسلان الباسيري التي كادت تقضي على الخلافة العباسية .

ب - دافع السلطان ألب أرسلان عن الخلافة العباسية من خلال قتاله للروم ، وانتصاره عليهم في موقعة (ملا ذكرد) سنة ٤٦٣ هـ ، واستطاع استعادة معظم بلاد الشام من نفوذ الدولة العبيدية ، فقد انتصر ألب أرسلان على ملك الروم (أرمانوس) ،

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٢١/٨ ، ابن خلدون : التاريخ ٥٨٣/٣ .

(٢) المصدر السابق ٣٠٧/١٠ .

الذي أعلن أنه يريد القضاء على الاسلام وأهله ، وبلغ به الغرور أن وزع البلا د
الاسلامية على بطارقتة (١) ، وبعد القضاء على الروم توجه ألب أرسلان نحو
بلاد الشام فحررها من نفوذ العبيديين ، وقطع الخطبة لهم ، وأعلنت الخطبة
للخلافة العباسية ، فقد تأكد لأميرها " أن المصلحة في الدخول في طاعة
السلطان ألب أرسلان ، التي ستكون بالتالي دخولا في طاعة الخليفة العباسي
في بغداد " . (٢)

ج - عمل السلاجقة على احياء مذهب أهل السنة والجماعة ، فقضوا بذلك على آخر نفوذ
لبني بويه الذين عملوا جاهدين على نشر مذهبهم الشيعي ، وتأليف كتب ذلك
المذهب المخالف لأهل السنة . (٣)

د - بذل السلطان محمد بن ملكشاه جهودا عظيمة في قتال الباطنية ، فأمر بهدم
حصونهم وقلاعهم التي كانوا يلجأون اليها بنواحي أصبهان ، وقتل خلقا كثيرا
ممن كان بها . (٤)

هـ - اهتم الوزير نظام الملك بانشاء المدارس التي نسبت اليه فعرفت (بالنظامية)
فقد أيقن أن هذه الوسيلة هي خير سلاح يواجه به انتشار التشيع الذي خلفه
بني بويه ، وكان يختار للتدريس فيها أكفأ المدرسين من العلماء والفقهاء . (٥)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/١٠٥ ، علي الغامدي : بلاد الشام قبيل
الغزوالصليبي ص ١٣٢ .

(٢) رشيد الجميلي : امارة الموصل في العصر السلجوقي ص ٦٧ ، محمد عبد الله عنان :
مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ص ١٠٥ .

(٣) عوامل الوحدة والفرقة في الدولة العباسية ص ٢٥٠ .

(٤) الحسيني : زبدة التواريخ ص ١٣٩ .

(٥) جميل عبد الله المصري : محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ص ٨٥ .

٥ - الحركات الدينية المعادية للإسلام :

واجه الإسلام منذ بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله عليه وسلم - العداوة والبغضاء ، ففي عهد النبوة حملت قريش وغيرها من القبائل العربية عبء الصد عن دين الله عز وجل الذي ختم به الأديان السماوية ، وارتضاه سبحانه وتعالى ديناً لا يقبل من الناس غيره ، قال تعالى : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) - الآية ٨٥ من سورة آل عمران - ، وقال تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً) - الآية ٣ من سورة المائدة .

وشارك قريش وغيرها من القبائل العربية قبائل يهود بالمدينة ، والنصارى بأطراف الجزيرة العربية ، ولكن الله عز وجل نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم أولئك المتربصين بالمسلمين الشر ، وردهم على أعقابهم خائبين ، وأتم الخلفاء الراشدون ما بدأه النبي صلى الله عليه وسلم من نشر الدعوة الإسلامية ، فبلغ الإسلام في عهدهم بلاداً جديدة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

وفيما يخض الخلافة العباسية فقد ظهرت عدة حركات دينية تتظاهر بالإسلام فسي بداية أمرها ، ثم ما هي الا فترة يسيرة من ظهورها فيتضح ما تخفيه من عداوة وحقد على الإسلام والمسلمين .

أسباب ظهور الحركات المعادية للإسلام :

يمكن تحديد أسباب ظهورها فيما يلي :

١ - عدم اعتناق أصحابها واتباعهم للإسلام عن قناعة ومعرفة بأحكامه ، فهؤلاء لم يتغلغل الإيمان في قلوبهم ، ولم يتربوا تربية إسلامية تغرس فيهم حب هذا الدين الحنيف والانقياد له .

٢ - رغبة زعماء تلك الحركات التفلت من رباط الاسلام ، والعودة الى جاهليتهم من خلال احياء ديانات وثنية باطلة ، وطمعا في احياء دولهم التي بددها ظهور الاسلام ، فحاول زعماء تلك الحركات استغلال النزعات القومية في التذكير بأمجاد أسلافهم ليكون ذلك دافعا لأتباعهم للتضحية بالمال والنفس لنصرة تلك الحركة وزعيمها .

٣ - بحث قادة تلك الحركات الدينية عن الزعامة والملك وكثرة الأتباع ، ومما يؤكد ذلك شدة قتالهم للخلافة العباسية ، والاهتمام ببناء الحصون والقلاع في المناطق التي سيطروا عليها بالقوة ، ودقة تنظيم بعض تلك الحركات ، وقوة الرابطة بين زعيم الحركة وأتباعه .

وفيما يلي أشير الى أهم تلك الحركات التي تظاهرت بالدين وآثارها على الخلافة العباسية :

أ - الحركة المقتنعية :

وسميت بذلك نسبة الى قائدها عطاء المقنع الخراساني^(١) ، وقد ظهر هذا الرجل في عهد الخليفة العباسي محمد المهدي ، وادعى المقنع الألوهية ، ثم أخذ يشرع لأتباعه في الحلال والحرام ، مخالفًا لأحكام الاسلام عندما أباح لهم أكل الميتة ، ولحم الخنزير ، ثم أسقط عن أتباعه سائر العبادات ، وفي مقدمتها الصلاة ، والصوم ، والحج ، وقد غالى فيه أتباعه وعظموه وسجدوا له^(٢) ، وقد دامت هذه الحركة قرابة أربع عشرة سنة ، وتم القضاء عليها بواسطة جيش الخلافة العباسية في سنة ١٥٨ هـ .

(١) عطاء المقنع الخراساني ، استطاع أن يتغلب على عقول أتباعه لمعرفة أشياء ممن السحر ، ولذلك عظم اعتقادهم فيه .

(ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢٦٣/٣) .

(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٥٨ ، ابن الجوزي : المنتظم ٢٥ / ١١ ،

المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٣٠٧ .

ب - الحركة الباكية :

وقد تزعم هذه الحركة بابك الخرمي (١) الذي ظهر في سنة ٢٠١ هـ في ناحية أذربيجان (٢) ، وأعلن عصيانه للخليفة العباسي المأمون ، ولما كثر أتباعه أمرهم بعقيدته التي تقوم على الاباحية ، فأباح لهم المحرمات ، واعتصم معهم بأحد جبال أذربيجان يعرف بالبدين ، ومما يؤكد خطورة هذه الحركة اتصال ملك أرمينية ، وامبراطور الدولة البيزنطية ببابك ، فوجد منهما المساعدة ، وبسط نفوذه على المنطقة الواقعة بسين أذربيجان وإيران (٣) ، وعاث في الأرض فسادا ، وأكثر من قتل الناس ، حتى قيل : ان عدد من قتلهم ألف ألف انسان من المسلمين ما بين رجل وامرأة وصبي . (٤)

ج - حركة المازيار بن قارن :

كان المازيار يتولى أمر جبال طبرستان ، ثم أعلن عصيانه للخليفة العباسي المعتصم بالله وخلق طاعته ، فلما بلغ الخليفة أمر عصيانه ، أرسل اليه الحسن بن عبد الله ابن طاهر ، ف وقعت بينهما عدة وقائع وقع بعدها المازيار في الأسر ، وحمل الى دار الخلافة ببغداد ، فلما وصلها اعترف المازيار بأن الأفشين (٥) حرضه على الخروج ، وحسن له الخلاف

-
- (١) بابك الخرمي : من أهل فارس ، يطلق على أتباعه الحزمية الثانية ، تمييزا لهم عن الحزمية الأولى أتباع مزدك الفارسي ، دخل بابك في الاسلام وتسمى الحسنة ، حدثته نفسه باعادة ملك فارس ودينها . (ابن الجوزي : المنتظم ٧٨/١١) ، علي ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامي العام ص ٣٥٨ ، ابراهيم العدوي : التاريخ الاسلامي : آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية ص ٢٨٣ ، الدينوري : الأخبار الطسوال ص ٤٠٢ ، الأزدي : أخبار الدول المنقطعة ص ١٣٨ .
- (٢) اقليم واسع لمملكة عظيمة ، الغالب عليها الجبال ، فيها القلاع الكثيرة والخصيرات الواسعة ، فتحها المغيرة بن شعبة في خلافة عثمان رضي الله عنه . (الحموي : معجم البلدان ١٢٨/١)
- (٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ١٠٩/٢ ، فاروق عمر العباسيون الاوائل ٣٠٣/١ .
- (٤) المسعودي : مروج الذهب ٥٥/٤ ، البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ .
- (٥) حيدر بن كاوس ، من الأمراء الشجعان ، كان من قادة جيش الخلافة العباسية . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٢٩٢/١٠) .

ومعصية الخليفة ، فأمر الخليفة العباسي بحبس الأفشين ، وضرب المازيار أربعمئة وخمسين سوطا ، وبعد ضربه مات من ساعته في سنة ٢٢٤ هـ . (١)

د - حركة صاحب الزنج :

ظهر صاحب الزنج في البصرة سنة ٢٥٤ هـ ، وادعى فيها نسبا علويا ، وأن اسمه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، واجتمع حوله طوائف ممن يعملون بكسح السباخ^(٢) في تلك النواحي ، ثم انتقل من البصرة الى بغداد ، وأخذ ينتقل من مكان الى آخر حتى وصل الى البحرين ، وادعى فيها نسبا علويا جديدا ، ودعا الناس الى طاعته ، فانقسموا على أنفسهم وتقاتلوا بسببه ، فلما تنكروا له رحل الى البادية ، وانتقل من مكان الى آخر حتى رجع الى البصرة مرة ثانية . (٣)

وفي البصرة كثر أتباعه فأوهمهم أنه المهدي المنتظر ، وكان غالب أتباعه من الجهلة والعوام ، فلما علم الخليفة العباسي المعتمد على الله بأمره أرسل اليه جيشا لقتاله ، ولكن ذلك الجيش هُزِمَ من صاحب الزنج وأتباعه مما جعله يتمادي في ضلاله فكون له جيشا مِمَّا نهبه أتباعه من أموال الناس وأسلحتهم . (٤)

وحاول صاحب الزنج جمع أكبر عدد من الأتباع بادعائه بعض الآيات الخاصة به ، مثل محادشته للرعد ، وأن الملائكة تقاتل معه ، وتؤيده في حروبه ، وتثبت جيوشه وقال لهم :

-
- (١) المسعودي : مروج الذهب ٦١/٤ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٢٥/٦ ، البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٦٨ ، فاروق عمر : العباسيون الأوائل ٢٨٥/١ .
 (٢) السباخ : هي الأراضي المالحة ، كان هؤلاء يعملون فيما لم يفلح من الأراضي أو يعمر . (الحموي : معجم البلدان ١٨٢/٣) .
 (٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤١٠/٩ ، أحمد عكبي : ثورة الزنج ص ٢٦ ، محمد حمادة : الوثائق السياسية ص ٢٥٨ ، فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ٢٨٥/١ .
 (٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢١/١١ ، ابن الجوزي : المنتظم ٥٠/١١ ، مجلة الرسالة - العدد ٤٠٠ ، ص ٢٦٨ .

- (١) " ان الملائكة لتنمرني وتؤيدني في حربي ، وثبتت من ضعف قلبه من أصحابي " ،
 وادعى أحد أعوانه ويدعى بهبود أنه أرسل الى الخلق ، وأنه مطلع على المغيبات ، وكان
 له منبر يخطب في أتباعه من فوقه يتعرض في خطبه لسب الصحابة (رضوان الله عليهم)
 ومنهم عثمان ، وعلي (٢) ، وطلحة ، وعائشة . (٣)
 وقد واجه الخليفة العباسي المعتمد على الله (٤) (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) هذه الحركة
 بحزم وشدة ، وكان يرسل الجيش تلو الجيش للقضاء عليها ، وأرسل أخاه الموفق بالله (٥)
 ليتولى محاربة صاحب الزنج وأتباعه الذين تزايدت أعدادهم ، وتمكن الموفق بالله وابنه
 من محاصرة صاحب الزنج في قصوره التي احتوى بها ، ولكنها لم تمنع سيف الحق من قطع
 رأسه (٦) ، وبقتله انتهت هذه الفتنة التي دامت أكثر من خمس عشرة سنة .

-
- (١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٦٤ ، محمود الشرقاوي : الزنج في البصرة - مجلة
 الرسالة - العدد ٣٩٧ - المحرم سنة ١٣٦٠ هـ * يوسف العث : تاريخ عصر الخلافة
 العباسية ١٢٢ .
 (٢) صاحب هذه الحركة يدعى أنه من آل أبي طالب ، وبهبود هذا يب خيار الصحابة
 وفيهم علي بن أبي طالب الذي ينتسب اليه صاحب الزنج ؟
 (٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٦٤ ، الحموي : التاريخ ص ١١٣ ، ابن خلدون :
 التاريخ ٢٤/٤ .
 (٤) الخليفة أبو العباس أحمد بن المتوكل على الله جعفر ، استخلف بعد قتل المهتدي بالله
 في سادس عشر رجب سنة ٢٥٦ هـ ، انشغل بمجالسة الندماء عن الخلافة .
 (الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٤٠/١٢) .
 (٥) أبو أحمد طلحة وقيل : محمد بن المتوكل جعفر بن المعتمد محمد ، كان بيده الحل
 والعقد في خلافة أخيه المعتمد على الله ، أحبته الرعية خاصة بعد مقتل صاحب
 الزنج على يديه .
 (الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٦٩/١٣) .
 (٦) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥٤/٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية
 ٤٤/١١ .

وقد طال أمد هذه الحركة وصاحبها ، لأن الخلافة العباسية في فترة ظهورها لم تكن قوية متمكنة ، فحال الخلافة العباسية قد تغير وتبدل ، وغدا الخلفاء ضعفاء مسلوبى الإرادة ، يعتمدون على جيش لا يهتم ببقاء الخلافة وتوسع سلطانها ليشمل البلاد الإسلامية ، بل كان جل اهتمام قادة الجيش محصورا في الاستبداد بالسلطة ، والاستئثار بأموال الدولة أكبر فترة ممكنة . (١)

هـ - حركات القرامطة :

كانت حركات القرامطة تتحرك وفق مخطط مدروس ، يتكون من ثلاث شعب تستهدف أحداث الفوضى الدينية والاجتماعية بين المسلمين ، وهذه الشعب هي :

١ - شعبة ظهرت بالكوفة قام بها حسين الأهوازي ، بالمشاركة مع حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط .

٢ - شعبة ظهرت باليمن وقام بأمرها الحسين بن حوشب ، وعلي بن الفضل . (٢)

٣ - شعبة ظهرت بالمغرب وقام بأمرها أبو عبد الله الشيعي (٣) الذي مهد لقيام الدولة العبيدية بالمغرب ثم مصر . (٤)

وكسابتها من الحركات الدينية ، فقد استغلت هذه الشعب الثلاث من حركة القرامطة ومن قام على أمرها التظاهر بالاسلام والغيرة عليه للكيد لأهله ، ثم بعد فترة ولما كثر الأتباع من حولهم ، أعلنوا ما يعتقدونه من عقائد باطلة تخالف الدين الاسلامي الحنيف ،

(١) حسن الباشا : دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص ٧٧ ، فاروق عمر : التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين ص ٣٧٩ ، أحمد أمين : ظهر الاسلام ١٣٤/٤ .

(٢) علي بن الفضل بن أحمد القرمطي ، أحد المتغلبين على اليمن ، ملك ملكا ضخمًا وادعى النبوة ، وأباح لأتباعه المحرمات . (الزركلي : الأعلام ٣١٩/٤) .

(٣) الحسين بن أحمد ، زعم أنه من أبناء فاطمة رضي الله عنها ، أقام الدعوة للمهدي العبيدي بافريقية . (ابن كثير : البداية والنهاية ١٢٣/١١) .

(٤) محمد الخطيب : الحركات الباطنية في العالم الاسلامي ص ١٢٧ ، احسان الهي ظهير : الاسماعيلية تاريخ وعقائد ص ٨٨ - ٩٥ .

ومن ذلك قيام حمدان بن الأشعث بالكتابة الى أتباعه بأرض العراق كتابا يحدد لهم فيه العبادات الواجبة عليهم من صلاة وصوم وحج ، ويبين لهم فيه ما يحل لهم وما يحرم عليهم من الطعام . (١)

وأما الحسين بن حوشب ، وعلي بن الفضل ، فبعد وصولهما اليمن ، أخذوا في اقناع الناس بقرب ظهور المهدي المنتظر خروجه في آخر الزمان ، وأوصوهم " بلزوم الحلة والصيام والزهد ، وأعلنوا لأتباعهم بأن لكل ظاهر باطنا (٢) " تمهيدا لنقض أركان الاسلام ، ثم بعد فترة وجيزة من وصولهما اليمن " تسمى ابن حوشب بالمنصور آل أحمد ، وتسمى ابن الفضل بالولي ، ومكثا مدة يتستران باقامة الشريعة ، ثم ظهر منهما الاباحة و ليلة الافاضة ، وأولاد المصوفة ، ونكاح الأمهات والأخوات والبنات ، والمشاركة في الزوجات ، وتعطيل الشرائع ، وشتم الأنبياء عند التمكن والقدرة ، ثم ظهر بين ابن حوشب وابن الفضل المشاتمة ، وبرىء كل واحد من صاحبه ، ودعا كل واحد منهما الى نفسه ، بأنه اله ورب ... " . (٣)

وأما القرامطة في الشام فقد تزعمهم زكرويه بن مهرويه ، واستطاع ابنه يحيى استمالة القبائل العربية في بادية الشام ، وأخذ البيعة منهم على أنه من آل علي بن أبي طالب ، وتبعه العوام والجهال الذين سخرهم للاغارة على مدن الشام ، فتوجه بأتباعه نحو دمشق سنة ٢٨٩ هـ ، فعاث في الأرض فسادا ، فأحرق في طريقه المساجد ، ولم يجتز وأتباعه قرية الا نهبوا ، حتى وصل دمشق فهزموا نائبا ، وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا . (٤)

-
- (١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٧/١٠ ، حيث ذكر صاحب الكتاب نص رسالة ابن الأشعث لأتباعه .
- (٢) الخطيب : الحركات الباطنية ص ٦٥ ، محمد حمادة : الوثائق السياسية والادارية للمعمر العباسية ص ٢٠٧ .
- (٣) احسان الهي ظهير : الاسماعيلية تاريخ وعقائد ص ٩٨ ، سهيل زكار : أخبار القرامطة باليمن ص ١٤١ .
- (٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١٠٢/١١ - ١٠٣ ، ابن خلدون : التاريخ ١١٤/٤ .

و هلك يحيى بن زكرويه أثناء القتال مع الجيش الذي أرسله أحمد بن طولون الى دمشق لانقاذها من أذى القرامطة الذين حاصروها في سنة ٢٩٠ هـ ، وبعد هلاكه تولى أمر قرامطة الشام من بعده أخوه الحسن الذي تلقب بأمير المؤمنين ، وتوجه الى مدن دمشق ، وحمص ، وحماة ، فغلب عليها وخطب له على منابرها ، وكاتب أهل الشام الى الخليفة العباسي المكتفي بالله (١) (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) بما يلقونه من الحسن بن زكرويه وأتباعه ، فجهز اليهم جيوشا كثيفة تمكنت - بفضل الله - من هزيمة هؤلاء القرامطة ، وأسر رئيسهم وأتباعه ، فحملوا الى عاصمة الخلافة ، فضربت أعناقهم بين يدي الخليفة في سنة ٢٩١ هـ . (٢)

وأما القرامطة بالبحرين فقد بدأ نشاطهم ضد الخلافة العباسية بوصول أحد دعواتهم ويدعى يحيى بن المهدي في سنة ٢٨١ هـ ، وادعى يحيى هذا أنه رسول المهدي المنتظر ، وأنه خرج الى شيعته في البلاد يدعوهم الى أمره ، ويبشرهم بقرب ظهوره ، وقرأ على من صدقه في دعوته كتابا قال لهم : انه من المهدي ، فأجابوه وأعلنوا أنهم سيخرجون معه اذا ظهر أمره ، ثم بعث يحيى برسائل معاملة الى سائر قرى البحرين فأجابوه الى ما طلبه منهم . (٣)

وكان في مقدمة من استجاب ليحيى بن المهدي : أبو سعيد الجنابي (٤) الذي تولى

أمر طائفة القرامطة بالبحرين ، وقوى أمر هؤلاء القرامطة فقادهم أبو سعيد لمهاجمة نواحي

(١) علي بن أحمد بن طلحة ، بويع بالخلافة عند موت والده بعهد منه سنة ٢٨٩ هـ .

(الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٧٩/١٣) .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٩٧/١١ ، سهيل زكار : أخبار القرامطة ص ١٣٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤٩٤/٧ .

(٤) أبو سعيد الجنابي ، من أهالي بلدة جنابة بناحية هجر ، كان يعمل مسـاراً

يبيع الطعام للناس .

(ابن كثير : البداية والنهاية ٨٦/١١) .

هجر (١) والقطيف ، ثم واصل سيره الى البصرة ، وقاتل أبو سعيد جيش الخلافة العباسية

سنة ٢٨٧ هـ ، و قتل ذلك الجيش العباسي بين يدي جنود أبي سعيد الجنابي . (٢)

ثم بعد هلاك أبي سعيد الجنابي تولى قيادة القرامطة ولده سعيد الذي غلب عليه

أخوه سليمان المكي بأبي طاهر ، وقد سار سليمان سيرة والده ، فهاجم البصرة ، فقتل

الرجال ، ونهب الأموال (٣) ، ولقيت مدينة الكوفة نفس المصير في سنة ٣١١ هـ ، وبلغ به

الأمر أن كتب الى الخليفة العباسي المقتدر بالله " يطلب منه التنازل له عن مدينة

البصرة " . (٤)

وزاد عدد أتباع أبي طاهر بعد قيامه ببناء دار له في هجر ، سماها دار الهجرة ،

وبعد بنائها شجع أهل القرى من حوله على الهجرة اليها ، وقد استغل هؤلاء الأتباع في

هجومه على القرى القريبة منه فيقتل رجالها وينهب أموالها . (٥)

وامتد أذى هذا القرمطي الى طرق الحج ، فلم يسلم منه الحجاج القادمون بيت الله

الحرام ، فأكثر أتباعه من التعرض لهم ، ثم قصد مكة المكرمة سنة ٣١٧ هـ ، فهجم على الحجاج

في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة ، فاستباح الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، والدم الحرام ،

(١) هجر : هي قاعدة ناحية البحرين ، تبعد عن اليمامة عشرة أيام ، بينها وبين البصرة

خمسة عشر يوماً ، فتحت سنة ٨ هـ ، وقيل : ١٠ هـ ، على يد العلاء بن الحضرمي .

(الحموي : معجم البلدان ٣٩٣/٥) .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤٩٩/٧ ، ابن خلدون : التاريخ ١١٦/٤ .

(٣) " : " ، " ، " ، " : " ، ١١٨/٤ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤٣/٨ .

(٥) المصدر السابق ١٥٨/١١ ، سهيل زكار : أخبار القرامطة ص ١٤٦

وقتل في رحاب البيت وحول الكعبة من الحجاج خلقا كثيرا ، وبلغ به العدد وان والطنفيان أن جلس على باب الكعبة المشرفة والحجاج يصرعون أمامه ، والسيوف تعمل فيهم وهو يردد : «أنا الله ، وبالله أنا ، يخلق الخلق ، وأفنيهم أنا» وقبل رحيله عن البيت الحرام أمر بخلع باب الكعبة ، ونزع الكسوة من فوقها ، وأمر بقلع الحجر الأسود ، فبقي في بلادهم ما يقارب اثنتين وعشرين سنة ، حتى أعيد في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة . (١)

وقد استطاعت هذه الحركة أن تبسط نفوذها في أجزاء من العالم الاسلامي ، مثل البحرين ، وسواد العراق ، وهجر ، وأثارت الرعب والخوف بين الناس ، وأظهرت عجز الخلافة العباسية عن حماية طرق الحجاج والأماكن المقدسة في فساد القرامطة . (٢)

وتم - بحمد الله - القضاء على آخر فلول هذه الحركة في عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله عند ما تعاون الخليفة مع السلاطين السلاجقة ، وأهل السنة في البحرين والاحساء على قتال هؤلاء القرامطة ، في موقعة الخندق سنة ٤٧٠ هـ ، وزاد في فنائهم اختلاف قادتهم وقاتل بعضهم بعضا . (٤)

ومنها الحركة الباطنية :

وقد عاثت هذه الحركة في الأرض فسادا ، فلم يجد الخليفة العباسي بدا من اعلانه اهدار دم ومال كل من يقبض عليه منهم ، وذلك في محاولة منه للقضاء عليهم ، وللاستفادة من قدرات الأمة بشكل عام للقضاء على هذا الخطر الذي يهدد دينها وأموالها وأرواحها ،

-
- (١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤٨٦/٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٣/١١ ، الأزدي : الدول المنقطعة ص ٢١٥ ، المقرئ : اتعاظ الحنفا ص ١٧٨ - ١٨٠ القزويني : آثار البلاد ص ٧٨ ، الحموي : التاريخ ص ١١٩ .
- (٢) مصطفى غالب : القرامطة بين المد والجزر ص ١٦٩/٦ ، أحمد تيمور : ضبسط الأعلام ص ١٢٥ .
- (٣) الخطيب : الحركات الباطنية في العالم الاسلامي ص ١٥٨ ، محمد سليمان : دولة الاسماعيلية في ايران ص ١٦٠ .
- (٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٥١/٨ .

فنودي في الناس : " أن كل من قد رتم عليه منهم فاقتلوه وخذوا ماله " (١) .

وقد تزعم هذه الطائفة : الحسن بن الصباح الذي وصل الى مصر ، فتأثر بعض الزنادقة فيها ، وبدأ دعوته بالتحريض بالعمامة فيجلس الى الواحد منهم ويدعوهم الى حب آل البيت ومولاتهم ، ويطلب ممن يستميلهم أن يساعده في إعادة الخلافة الى آل البيت حسب زعمه ، ويظل يدعوهم حتى يستجيبوا له ، ويصير الواحد منهم أطوع له من أمه وأبيه . (٢)

ثم لما كثر أتباعه في تلك الدعوة ، وضع لهم مراتب تحديد منزلة أولئك الأتباع ، وقد أخذ تلك المراتب من دعاة العبيديين بمصر ، فقسم المراتب الى سبعة أقسام ، صنف فيها دعواته وأتباعه ودرجاتهم وصفاتهم . (٣)

وأما عن موقف الحسن بن الصباح من الخلافة العباسية فقد بينه بقوله :

" ... فمن تعدى هذا الأمر وخالف الوصية ، وطلب أن يكون خليفة الله تعالى ليدبر خلقه ، فإنه لا يتم له ذلك ، وإن تم وقد ر عليه فانما هو خليفة ابليس ، لأنها حيلة ومكيدة وخدعة ، وتعد وغمب وظلم وعدوان وطغيان وعصيان ... " (٤)

ومما تقدم يتضح خطورة موقف الحسن بن الصباح من الخلافة العباسية ، فهو لا يعترف بخلفائها ، ويرى أنهم اغتصبوا الخلافة من آل البيت - حسب زعمه - ، ويعف خلافتهم

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/١٧٠ .

(٢) المصدر السابق ١٢/١٧٠ ، ابن خلدون : التاريخ ٤/١٢٥

(٣) هذه المراتب هي : ١ - شيخ الجبل ، وقد تولاه الحسن بن الصباح بصفته نائب الامام ورئيس الدعوة . ٢ - كبار الدعوة وعددهم ثلاثة ممن يثق بهم الحسن بن الصباح . ٣ - الدعوة ٤ - الرفاق ٥ - الفداوية ٤ - اللامقنون ، المستجيبون .

ووضع الحسن بن الصباح لدعواته مراحل دعوتهم للناس وهي : ١ - التفريس ٢ - التأنيس ٣ - التشكيك ٤ - التعليق ٥ - الربط ٦ - التدليس ٧ - التلبيس ٨ - الخلع والسلخ ، وهي اخراج المستجيب من دينه .

(الخطيب : الحركات الباطنية ص ١٢٦) .

(٤) عمر الدسوقي : اخوان الصفا وعلان الوفاء ٤/٤٠٤

بأنها ظلم وعدوان ، ونسي ما قام به وأصحابه من أعمال الظلم والعدوان بقلاعهم في نواحي أصبهان ضد أمراء الاسلام وعامتهم .

وقد أشرت هذه الطائفة بطريق مباشر أو غير مباشر في وحدة القوى الاسلامية المواجهة للمليبيين ، ففي الوقت الذي كان المسلمون فيه في حالة دفاع ضد الفرنج ، تعرضوا لطعنات قوية من الخلف ، من جانب الباطنية ، مما أضعف قوة المسلمين ، وأحدث ثغرة كبيرة في جبهتهم ، في حين تماسك الفرنج وحرص أمراؤهم على شد أزر بعضهم بعضا . (١)

وبعد أن نظم الحسن بن الصباح دعوته بدأ بتوجيه أتباعه الى بلاد الاسلام ، فكانوا يقتلون ويأسرون ويسرقون من المسلمين ما قد روا عليه ، فهلك على أيديهم الأمراء والسلاطين ، وبعض الخلفاء ، والعلماء ، والقضاة ، ولما اشتد أذاهم اجتهد السلطان ملكشاه السلجوقي في تعقبهم حتى أفنى منهم خلقا كثيرا . (٢)

وبقيت قلعة الحسن بن الصباح (أَمُوت) مصدر شر ، حتى اجتاحتها المغول أثناء سيرهم الى بغداد ، فهدموها وما حولها من القلاع في نواحي أصبهان التي بلغت أربعين قلعة ، وقتلوا من فيها من طوائف الباطنية (٣) ، وكان لهذه الطائفة أثر سييء في تاريخ الاسلام في القرن الخامس الهجري . (٤)

-
- (١) سعيد عاشور : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ٣٤٠ .
(٢) ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ٩١ - ٩٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/١٨٧ ، الكتبي : عيوان التواريخ ص ٢١ ، ٦٤ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٩ ، الأزدي : الدول المنقطعة ص ٢٨٩ .
(٣) محمد سليمان : دولة الاسماعيليين في ايران ص ٢٤٥ ، محمد حمادة : دراسة نقدية للتاريخ الاسلامي ص ١٩٧ .
(٤) محمد قدرى لطفى : الاسماعيليين - مجلة الرسالة - العدد ٣٩ ص ٥٣٣ ، والعدد ٤٠ ص ٥٧٠ - ٥٧٢ .

الآثار السيئة لظهور تلك الحركات :

مما تقدم تظهر الآثار السيئة التي تركتها هذه الحركات التي تظاهرت بالاسلام ، فقد نازعت الخلافة العباسية في سلطانها ، وأعلنت العصيان والخروج عن طاعة الخليفة العباسي ، واستنزفت الشيء الكثير من جهود الخلافة العباسية للقضاء عليها ، وظهرت تلك الحركات في أوقات حرجة بالنسبة لتاريخ الخلافة العباسية وما تعانيه من اضطرابات داخلية وأطماع أعداء الاسلام من الناحية الخارجية ، وحاولت بعض تلك الحركات احياء ديانات وثنية أماتها نور الاسلام ، وبعثة خير الأنام صلى الله عليه وسلم ، واتملت بعض الحركات بأعداء الاسلام الذين حاولوا استغلال بعض تلك الحركات للتأثير على وحدة وقوة الدولة الاسلامية ، كما أن تلك الحركات استنزفت الموارد المالية للدولة ، فقد أصبحت الخلافة العباسية تعمل جاهدة على تجهيز الجيوش لقمع تلك الحركات التي طال أمد بعضها الى سنوات عدة ، وأشاعت تلك الحركات بظهورها الخوف والرعب وعدم الاستقرار في المناطق التي ظهوروا فيها ، والأماكن التي وصلوا اليها مثل طرق الحج والتجارة بين الأقاليم الاسلامية ، " وقد حاول زعماء هذه الحركات أبناء الجنابي من خلال تحركاتهم ضد الخلافة العباسية ، بناء دولة على أنقاض الولايات العباسية التي استولوا عليها بعد أعمال القتل والسلب وقطع الطريق " (١) .

٦ - حركات العلويين :

واجهت الخلافة العباسية منذ قيامها العديد من حركات العلويين ، وهم الذين ينتسبون لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ولأبنائه ، وبدأ خطر تلك الحركات العلوية على الخلافة العباسية مبكرا ، وكان السبب في ظهور تلك الحركات المخالفة لسلطان الخلافة العباسية ، أن قادتها كانوا يرون أن آل علي أحق بالخلافة ممن سبقهم اليها من الأمويين ،

(١) مصطفى غالب : القرامطة بين المد والجزر ص ٣٢٢ ، فاروق عمر فوزي : صلاح الدين

ومؤامرات الباطنية - المورد - العدد ٤ - سنة ١٩٨٧ م ص ٨٥ ، ١٧٤ .

ثم العباسيين ، وشجعهم على الاستمرار في تلك الرغبة من اجتمع حولهم من الأتباع من أصحاب المصالح الشخصية الذين سرعان ما يتفرقون عن صاحب الحركة عند مواجهتهم لجيش الخلافة العباسية ، الذي تكون نهايته في تلك المواجهة الحاسمة للخلافة .

وقد حرص الخلفاء العباسيون على القضاء على تلك الحركات عند ظهورها ، والعمل على منع تكرارها ، لما تمثله من خطورة على وحدة الدولة الإسلامية ، ولتلافي آثارها السيئة وفي مقدمتها تشجيع غير العلويين على القيام بمثل تلك الحركات المخالفة للدولة ، زعزعة الأمن والاستقرار ونشر الخوف والاضطراب والفوضى في أقاليم الخلافة العباسية ، وذلك بحمل قادة تلك الحركات وأتباعهم السلاح ضد الخلافة ، وتآليبهم الرعاع والجهال ضد الدولة ، ومنازعتهم لسلطان الخليفة العباسي والخلافة . (١)

يأتي في مقدمة الحركات العلوية : حركة محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية الذي ظهر في سنة ١٤٥ هـ بالمدينة ، والسبب في خروجه أنه في أواخر أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، بايع بعض أهل المدينة محمدا هذا بالخلافة ، ومن جملة من بايعه أبو جعفر المنصور ، فلما صارت الخلافة للعباسيين خاف محمد بن عبد الله ، وأخوه إبراهيم ، من الخليفة المنصور خوفا شديدا ، وتوهم المنصور العباسي أنهما لا بد أن يخرجيا عن طاعته كما أراد الخروج عن طاعة مروان بن محمد ، فأصبح كل طرف يتوجس خيفة من الطرف الآخر ، فهرب الأخوان من المدينة الى اليمن ، ثم الهند ، وغابا عن الأنظار ، واجتهد الخليفة المنصور في البحث عنهما . (٢)

(١) فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ص ١١٢ ، العباسيون الأوائل ١/١٦٩ .

(٢) مروان بن محمد بن عبد الملك بن مروان ، آخر خلفاء بني أمية ، اشتهر بالشجاعة والشدة ، ضربَ بصبره المثل ، اضطربت أحوال الدولة الأموية في عهده ، طارده الجيوش العباسية حتى قتل في موضع يقال له بوضير .
(الذهبي : سير أعلام النبلاء ٦/٧٦٦) .

(٣) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٨٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٠/٨٤ ، التنوخي : الفرغ بعد الشدة ١/٣١٧ .

يضاف الى ذلك أن الأخوين محمد وإبراهيم ، ابنا حسن ، أرادا قتل أبي جعفر المنصور أثناء أدائه لفريضة الحج ، فاتفقا مع أحد أمراء الخليفة على تنفيذ تلك المهمة ، ولكن والد هما عبد الله بن حسن نهاهما عن ذلك لشرف البقعة ، وقد علم الخليفة المنصور بذلك باعتراف أميره الذي تواطأ مع ابني حسن ، ويدعى خالد بن حسان . (١)

وبعد أن ضاق محمد بن عبد الله ذرعا من التخفي وكثرة الارتحال من مكان الى مكان ، وشدة نائب الخليفة العباسي بالمدينة في البحث عنه ، واعد أصحابه على الظهور ، وحدد لهم ليلة معينة ، وتواعد مع أخيه إبراهيم على الظهور في وقت واحد ، يظهر محمد بالمدينة وإبراهيم بالبصرة . (٢)

ولما علم الخليفة العباسي بنبا ظهور محمد النفس الزكية بالمدينة واستيلائه عليها وسجنه لأمرها السابق ، ندب عيسى بن موسى بن محمد للتوجه الى المدينة ، وكتب معه كتابا لمحمد بن عبد الله ينذره به قبل قتاله . وقد عرض الخليفة عليه في ذلك الكتاب أن له الأمان اذا رجع لطاعة الخليفة ، ووعد به بمبلغ من المال وقضاء جميع حوائجه ، والسماح له بالاقامة في أحب البلاد اليه . (٣)

ورد محمد بن عبد الله على كتاب الخليفة المنصور بكتاب بين فيه أنه أولى بولاية الأمر منه نظرا لقربته من الرسول صلى الله عليه وسلم ، واعتذر عن قبول ما قدمه الخليفة من عطايا ووعود بحجة أنه يخشى من عدم وفاء الخليفة بها .

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٥٧٦/٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٨٥/١٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٨٥/١٠ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٨٦/١٠ ، صالح العلي : بغداد مدينة السلام ص ١٠٢ .

وبعد تلك المكاتبات بين الطرفين ، نشب القتال بينهما ، وانتهى بمقتل محمد بن عبد الله ، ونفر من أصحابه الذين ثبتوا معه ، لأن معظم أتباعه انفضوا عنه بعد أن خبرهم محمد بن عبد الله بالبقاء على بيعته والقتال معه أو تركها ، فتسلل كثير منهم ، ولم يبق معه إلا نفر قليل منهم . (١)

أما أخوه إبراهيم (٢) ، فقد ظهر بالبصرة في أول شهر رمضان سنة ١٤٥ هـ ، وأخذ يدعون الناس إلى بيعة أخيه محمد ، فلما وصله نبأ مقتله ، ظهر بالبصرة فأخذها ، وأقبل عليه الناس ما بين ناصر وناظر ، حتى كثروا ، فوجه إليه الخليفة العباسي المنصور جيش الخلافة الذي قضى على تلك الحركة في مهدها ، أما قائدها إبراهيم ، فقد قتل بعد إصابته بسهم لا يعرف راميته (٣) ، وهكذا وقف الخليفة العباسي بشدة وحزم في وجه هذه الحركة لخطورتها على الخلافة العباسية ، وما يؤكد ذلك البيت الذي أنشده المنصور ، الذي يوضح فيه ذلك بقوله :

بني عمنا ، لا نصر عندكم لنا ولكنكم فينا سيوف قواطع (٤)

وفي سنة ١٦٩ هـ ظهر بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن ، وجلس بالمسجد النبوي فالتف حوله جماعة من أهل المدينة وبايعوه على الكتاب والسنة والضي من آل البيت ، وقد اتخذ الحسين بن علي من المسجد النبوي مأوى له ولأتباعه ، وبقي بالمدينة أحد عشر يوماً ثم خرج إلى مكة فأقام بها حتى زمن الحج ، فلما علم الخليفة العباسي بأمره انتظر حتى فراغ الناس من أداء نسكهم ، فأرسل إليه جيشا التقى بالحسين بن علي وأتباعه بمكان

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٩٠/١٠ .

(٢) إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، ظهر بالبصرة ، ودعا لنفسه بعد مقتل أخيه محمدا فاستجاب له خلق كثير وصلوا إلى أربعة آلاف .
(الذهبي : سير أعلام النبلاء ٦٢٢/٦) .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦٤٦/٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٩٣/١٠

(٤) القضاي : الحلة السيرة ص ٣٥ .

يقال له فـخ (١) ، فالتقى الجمعان في موقعة قتل فيها الحسين و طائفة من أصحابه ،
 وهرب بقيتهم وتفرقوا شذراً مذر ، وقد استمرت هذه الفتنة منذ ظهور الحسين بن علي ،
 الى مقتله مدة تسعة أشهر . (٢)

وظهر ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (٣) في سنة
 ١٧٢ هـ ، فقد خاف على نفسه مما أصاب أخويه محمد و ابراهيم في خلافة أبي جعفر المنصور
 فهرب الى مصر ، ومنها انتقل الى المغرب ، وبها التف عليه جماعة من أهلها ، فأسس
 دولة الأدارسة التي حكمت من سنة ١٧٢ - ٢٧٥ هـ .

وفي بلاد الديلم ظهر يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن سنة ١٧٦ هـ ، فاتبعه
 خلق كثير ، وقويت شوكته ، وارتحل اليه بعض الناس من القرى المجاورة له ، فلما علم
 الخليفة العباسي هارون الرشيد بأمره ، أرسل اليه جيش الخلافة العباسية يقوده الفضل بن
 يحيى بن خالد بن برمك (٤) ، وقد سعى الفضل في إعادة يحيى بن عبد الله الى طاعة
 الخلافة العباسية ، فوفق في ذلك وحصل من هارون الرشيد على كتاب أمان ليحيى بسن
 عبد الله ، وأرسل مع ذلك الكتاب الهدايا ، وسافر يحيى في صحبة الفضل الى عاصمة الخلافة
 العباسية بغداد ، واستقبله الخليفة وأكرمه وأجزل له في العطاء . (٥)

-
- (١) وادي بمكة ، ويقال : أنه وادي الزاهر ، يروى فيه قول بلال بن رباح :
- ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
 بفخ وعندى أذخر وجليل
 (الحمسوى : معجم البلدان ٢٣٧/٤) .
- (٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ١٩٢/٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٠/١٦٢ .
- (٣) القضاعي : الحلة السيرة ص ٥٠ .
- (٤) الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك ، تولى الوزارة للرشيد ، وكان الرشيد يدعوه
 بأخي لأن أم الفضل قد أرضعته ، تولى الفضل بن يحيى تعليم محمد بن هارون
 الرشيد . (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٢٢/٦) .
- (٥) ابن كثير : البداية والنهاية ١٠/١٧٢ ، صالح العلي : بغداد مدينة السلام
 ص ١٠٢ .

وهكذا تتابعت هذه الحركات التي قادها أفراد ممن ينتسبون لآل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومنها :

ظهر في سنة ١٩٩ هـ محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بالكوفة ، واتفق أهل الكوفة على مناصرته ، واجتمعوا عليه ، ووفدت عليه الأعراب من نواحي الكوفة ، وانتهى أمره بمقتله في قتاله لجيش الخلافة العباسية ، فأقيم مكانه محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين الذي تولى أمره أبو السرايا السري بن منصور الشيباني . (١)

وظهر ابراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد الذي لقب بالجزار ، لكثرة من قتل من أهل اليمن في سنة ٢٠٠ هـ ، وبعد حروب كثيرة بينه وبين نائب اليمن انتقل الى خراسان . (٢)

وظهر محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بمكة بعد النزاع بين الأخوين الأمين والمأمون ابنا الرشيد ، ودعا الى مبايعته بعد أن حثه على ذلك نفر من الطالبين ، فبويع بالخلافة وسموه أمير المؤمنين ، ولم يكن له من الخلافة إلا الامارة شيء ، فقد تولى ابنه وبعض بني عمه أمره ، وأسأوا والتصرف بمكة حتى ضجر أهلها منهم ومن أفعالهم . (٣)

وظهر عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد ببلاد عك (٤) باليمن سنة ٢٠٧ هـ فدعا الى مبايعة الرضي من آل محمد . (٥)

(١) الدينوري : المعارف ص ١٦٩ ، ابن الجوزي : المنتظم ٧٣/١٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٥٦/١٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٥٧/١٠ ، ابن الجوزي : المنتظم ٨٢/١٠ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥٣٧/٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٥٧/١٠ .

(٤) عك : موضع باليمن ينسب الى عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزدي ، سميت بذلك لشدة الحرارة بها .

(٥) الحموي : معجم البلدان ١٤٢/٤ .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ١٦٠/١٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٧١/١٠ .

وظهر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين في سنة ٢١٩ هـ بخراسان (١) ، وكانت بداية أمره أن جاء رجل من أهل خراسان وقال له : أنت أحق بالامامة من كل أحد وبايعه ، ثم أصبح هذا الخراساني يحضر لمحمد بن القاسم النفر بعد النفر من حجاج خراسان يبايعونه بالامامة حتى اغتر بكثرة من بايعه ، ثم خرج الى خراسان وفيها أعلن للناس طلب مبايعته ، ونتج عن ذلك قتال عبد الله بن طاهر والي خراسان للخليفة العباسي المعتمم بالله لمحمد هذا ، فقبض عليه وأرسله الى بغداد فحبس بها ، ثم تمكن من الفرار من حبسه ، وجعل الخليفة العباسي جائزة مقدارها مائة ألف دينار لمن يدل عليه ، فلم يعترف لابن القاسم خبر بعد ذلك . (٢)

وظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بالكوفة سنة ٢٥٠ هـ (٣) ، وفي نفس السنة ظهر الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بناحية طبرستان (٤) ، وقد استطاع الحسن هذا اقامة دولة في تلك الناحية . (٥)

وظهر الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن علي بالكوفة سنة ٢٥١ هـ ، وحاول الخليفة العباسي المستعين بالله اعادة الحسين لطاعة الخلافة العباسية قبل ارسال جيش الخلافة لقتاله ، ونتج عن هذه الحركة هروب الحسين بن محمد بعد هزيمته . (٦)

-
- (١) بلاد واسعة تمتد من أطراف العراق الى غزنة ، تشتمل على أمهات البلاد ، فتحت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٨ هـ ، على يد القائد الأحنف بن قيس . (الحموي : معجم البلدان ٢/٣٥٠) .
- (٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦/٤٤٢ ، ابن الجوزي : المنتظم ١١/٤١ .
- (٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٩/٢٦٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١١/٦ .
- (٤) تشمل هذه التسمية بلادا كثيرة واسعة ، يغلب عليها الجبال ، خرج من نواحيها من لا يحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه . (الحموي : معجم البلدان ٤/١٤) .
- (٥) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/٧ .
- (٦) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٩/٣٢٨ .

وظهر أحد العلويين بنينوى^(١) من أرض العراق سنة ٢٥١ هـ ، ولكنه هرب الى الكوفة بعد مقتل طائفة ممن كان معه . (٢)

وظهر الحسين بن أحمد بن اسماعيل بن محمد بناحية قزوين^(٢) في سنة ٢٥١ هـ ، وفي نفس السنة ظهر اسماعيل بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الله بمكة ، فانتهب وأتباعه منازل أصحاب السلطان ، وقتل من جند الخلافة وأهل مكة عددا كثيرا ، وأخذ ما في الكعبة وخزائنها من الذهب والفضة ، وأخذ كسوة الكعبة ، وأخذ من أموال الناس نحو من مائتي ألف دينار ، وخرج من مكة بعد نهبها واحراق بعض دورها ، ثم سار الى المدينة فهرب منه عامل الخلافة ، ثم رجع الحسين بن أحمد الى مكة فلقى منه أهلها كل بلاء . (٤)

ثم ظهر في سنة ٢٥٤ هـ كل من عيسى بن جعفر ، وعلي بن زيد الحسنيان بالكوفة ، واشتد خطرهما على الخلافة العباسية بعد قتلها لناشب الكوفة . (٥)

وظهر بمصر أحمد بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم في سنة ٢٥٥ هـ ، فسار الى الصعيد وكثر أتباعه بها ، وادعى الخلافة فسير اليه والى مصر أحمد بن طولون جيشا قاتل أحمد بن محمد وأتباعه ، وانتهت الموقعة بمقتله بعد انهزام أصحابه عنه . (٦)

(١) قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل . (الحموى : معجم البلدان ٣٣٩/٥) .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٦٥/٧ .

(٣) مدينة مشهورة فتحت صلحا في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢٤ هـ .

(الحموى : معجم البلدان ٢٤٢/٤) .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٦٥/٧ - ١٦٦ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ١٨/١١ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢١٧/٧ .

وظهر ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله الملقب بابن الصوفي في صعيد مصر سنة ٢٥٦ هـ ، وقد عمّ شره الديار المصرية ، وعجزت جيوش والي مصر أحمد بن طولون عن القضاء عليه ، ثم في سنة ٢٥٩ هـ هرب من مصر الى مكة فقبض عليه واليها وأرسله الى أحمد بن طولون فأمر بسجنه .

وظهر بمكة أحد العلويين ويدعى الحسين بن جعفر العلوي في سنة ٢٨١ هـ .

ومما تقدم من الاشارة الى بعض حركات العلويين يظهر سبب ظهور تلك الحركات ، وهو أن أصحابها نقموا على الخلافة العباسية منذ قيامها ، ونقموا على الخلفاء العباسيين الذين تمت لهم الخلافة ، وناذوهم العدو ، واعتبروهم مغتصبين للخلافة ممن هو أحق بها منهم ، وظهرت طائفة من العلويين تطالب بالخلافة ، ولكن محاولاتهم لم يكتب لها النجاح . (١)

وكان الاضطراب في مركز الخلافة العباسية في بغداد اذ انا باضطراب الأحوال في أقاليم الدولة المختلفة ، وكانت تلك فرصة لأصحاب الأغراض المختلفة سعوا لاستغلالها في تحقيق أغراضهم ، ومن أولئك تلك الطائفة من العلويين الذين ظلوا يسعون لتحقيق غايتهم في الوصول الى الخلافة حتى أحدثوا بسبب ذلك كثيرا من الاضطرابات في أقاليم الدولة العباسية التي ظهروا فيها ، وكانوا يخرجون علانية اذا استطاعوا . أو يكيدون للخلافة العباسية سرا اذا لم تمكنهم الظروف من الخروج علانية ، لأنهم كانوا يعتبرون الخلفاء العباسيين مغتصبين للخلافة . (٢)

أثر الحركات العلوية على الخلافة العباسية :

يظهر الأثر السيء لتلك الحركات العلوية على الخلافة العباسية من خلال منازعة أصحابها لسلطان الخلفاء العباسيين وهم أبناء العمومة ، ويعودون الى عبد المطلب بن هاشم

(١) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ص ١٩٤ - ٢٠٢

محمد جابر عبد العال : حركات الشيعة المتطرفين ص ٦٨ . صابر محمد ديباب : دراسات في تاريخ مصر الاسلامية ص ٩١ ، عبد السلام الترماني : أحداث التاريخ الاسلامي ١١٤٠/٢ ، يوسف العشي : تاريخ عصر الخلافة العباسية ١٣٢ .

(٢) سيدة كاشف : محرفي عصر الولاة ص ٩١ ، حسين محمد سليمان : الدولة الاسلامية في العصر العباسي ص ١٦ ، ٨٧ ، ١٠٤ ، عمر كحالة : العانم الاسلامي ص ٤٨

ابن عبد مناف ، فكانوا من خلال حركاتهم تلك من عوامل تأليب الرعية ضد سلطان الخلافة العباسية من جهة ، و ساعدوا بحركاتهم تلك الى زيادة انقسام وتجزء الخلافة العباسية من خلال تمكنهم من اقامة دويلات خاصة بهم مثل الدولة الزيدية في طبرستان ، والدولة الادريسية بالمغرب ، مما أدى الى تمزيق الدولة الاسلامية ، وتفتيت كيانها ، وبعثرة قواها الى دول متحاربة متنازعة .

٧ - حركات القبائل العربية :

دخلت القبائل العربية في الاسلام ، وشاركت بعد اسلامها في حركة الفتوحات الاسلامية لنشر الدعوة الاسلامية خارج الجزيرة العربية ، وانتقلت أعداد كبيرة منهم الى البلاد المفتوحة مثل : الشام ، مصر ، العراق ، وافريقيا ، وغيرها ، وظلت تلك القبائل في خدمة الدولة الاسلامية ، في عهد الخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية ، والدولة العباسية فلما استعانت الخلافة العباسية ببعض العناصر من الأتراك ظهر نوع من المنافسة والمزاحمة على وظائف الجيش بينهم وبين أفراد القبائل العربية ، فأثر بعضهم ترك الجيش العباسي بعد أن غلب عليه القادة العسكريون ، فضلا عن استبدادهم بالخلافة العباسية ، وكان ذلك التصرف تعبيرا عن رفضهم لتلك الأوضاع التي سادت الخلافة العباسية ، وأعلن بعضهم عصيان الخليفة العباسي ، وحملوا السلاح لمقاتلة جيش الدولة العباسية .

أما عن دور القبائل العربية فانه يرجوع تلك الطوائف الناقمة على الخليفة والخلافة العباسية ، أصبحت قيادة تلك القبائل بأيديهم ، ورجعت تلك القبائل الى ما كانت عليه قبل الاسلام من اغارة بعضها على بعض ، وتكرار الحروب وأعمال السلب والنهب بين تلك القبائل المتنازعة فيما بينها .

ففي الحجاز والجزيرة العربية عمت قبائل بنو سليم ، وبنو هلال ، وبنو شعلبة ، وطيء ، وفزارة ، وغيرها ، وتعرضت تلك القبائل لطرق الحج الى مكة ، حتى تعطل وصول الحجاج اليها ، وعاد الحجاج أكثر من مرة الى الأماكن التي قدموا منها بعد فوات الحج

عليهم بسبب مطالبة تلك القبائل الحجاج بدفع مبالغ مالية في مقابل السماح لهم بعبور
ديارهم والتوجه الى مكة . (١)

وكانت الخلافة العباسية تسعى جاهدة لمساعدة الحجاج على أداء نكهم بتجهيز
الأموال لدفعها لبعض زعماء تلك القبائل حتى تسمح بمرور قافلة الحجاج القادمين من
العراق الى مكة . (٢)

وبالمدينة خرجت بنو سليم فعاشوا في الأرض فسادا سنة ٢٣٠ هـ ، وأخافوا السبيل ،
وقاتلهم أهل المدينة فهزموا أهلها ، واستحوذوا على ما بين مكة والمدينة من المناهل (٣)
والقرى ، فلما علم الخليفة العباسي الواثق بالله بأمرهم ، بعث اليهم القائد بغا التركي في
جيش فقاتلهم في شعبان من تلك السنة ، فقتل منهم خمسين فارسا ، وأسر منهم ، وانهمز
بقيتهم ، فدعاهم الى الأمان ، وأن يكونوا على حكم أمير المؤمنين ، فاجتمع اليه منهم خلق
كثير ، فدخل بهم المدينة وسجن رؤوسهم ، ثم خرج الى الحج . (٤)

وفي اليمامة عاشت قبيلة يقال لها بنونمير فسادا ، فأرسل الخليفة الواثق بالله
كتابا الى القائد بغا الكبير ، وهو مقيم بأرض الحجاز فحاربهم فقتل منهم جماعة وأسر منهم
آخرين ، وهزم بقيتهم ، ثم التقى مع بني تميم وهم في ثلاثة آلاف وهو في ألفي فارس ،
فجرت بينهم حروب ، ثم كان الظفر له عليهم آخرا ، وعاد الى بغداد ومعه من أعيانهم
جماعة في القيود والأسر ، وقد فقد من أعيانهم في تلك الوقائع ما ينيف على ألفي رجل
(٥)
من بني سليم ، ونمير ، ومرة ، وكلاب ، وفزارة ، وشعلبة ، وطي ، وتميم ، وغيرهم .

-
- (١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٠٥/٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣٦٤/١١ .
(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ١٣٣/٩ ، ، : ، ، ١٢/١٢ .
(٣) واحداهما منهل ، والمراد بها المورد الذي ترده الدواب للشرب .
(المصباح المنير ٣٠٠/٢) .
(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ١٢٩/٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣١٥/١١ ،
ابن خلدون : التاريخ ٣٣٨/٣ .
(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٦٤/١١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣٢١/١١ .

وفي سنة ٣٩٦ هـ تعرضت قبيلة بنو هلال لركب حجاج البصرة فأسروهم ، وكان عددهم قريبا من ستمائة ، ولم يطلقوا سراحهم الا بعد أن أخذوا منهم مبلغ ألف ألف دينار . (١)

وفي السنة التي تليها تعرض مدرك بن الجراح الطائي أمير الأعراب لطريق الحجاج ، وعاقبهم عن الذهاب الى مكة ، ففاتهم الحج ، ورجعوا الى بلادهم فدخلوها في يوم التروية . (٢)

وقد كان للقبائل العربية جهد ونشاط في مساعدة حركة القرامطة التي ظهرت في شرق وشمال الجزيرة العربية ، فقد انضمت الى تلك الحركة بعض القبائل العربية ، وسارت مع رسلهم الذين انتشروا بين القبائل العربية يدعونهم الى طاعتهم ، والدخول في طاعة قادة تلك الحركات . (٣)

الحركات الخارجة عن طاعة الخلافة في الشام ومصر :

أما بلاد الشام فقد ظهرت فيها عدة حركات قادها أفراد من القبائل العربية ، أعلنوا عصيانهم للخلافة العباسية ، وقد ظهرت بعض هذه الحركات في وقت مبكر من تاريخ الخلافة العباسية ، ومن هذه الحركات :

حركة مجزأة بن الكوثر الكلابي (٤) الذي كان أحد قادة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بدمشق ، وظهرت حركته بسبب سوء تصرف أحد جنود عبد الله بن علي العباسي (٥) مع ولد مسلمة بن عبد الملك ، مما دفع مجزأة لقتل ذلك الجندي ، ثم أظهر البياض (٦) ،

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٦٤/١١ .
 - (٢) المصدر السابق ٣٦٥/١١ .
 - (٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦٠٠/٨ .
 - (٤) أبو الورد مجزأة بن الكوثر الكلابي ، أحد أصحاب مروان بن محمد ، ولي امارة مدينة قنسرين .
 - (٥) عم الخلفاء العباسيين السفاح والمنصور ، ولي امارة الشام في بداية خلافة بني العباس فمهد أمورها ، وأصلح أحوالها ، ووطد ملك بني العباس بدمشق وما حولها .
 - (٦) اظهار البياض المراد به رفع رايات بيضاء ، واللون الأبيض كان شعارا للخلفاء بني أمية .

وأعلن خلع عبد الله بن علي ، ودعا أهل قنسرين ^(١) لطاعته فأجابوه ، وانتهت هذه الحركة بمقتل مجزأة بن الكوثر متأثراً بجراحه التي أصيب بها في قتاله لجيش الخلافة العباسية . (٢)

وظهر عثمان الأزدي في دمشق وأعلن خلع طاعة عبد الله بن علي ، وقتل وأتباعه عددًا من جند الخلافة العباسية ، وانتهت هذه الحركة بتفرق أهل دمشق عن الأزدي ، مما مكّن عبد الله بن علي من القضاء عليها . (٣)

وظهر في خلافة الأمين العباسي علي بن عبد الله المعروف بالسفياني ، فدعا أهل دمشق لمبايعته ، وقام بطرد عامل الخلافة العباسية على دمشق في سنة ١٩٥ هـ ، وقد انضم إلى هذه الحركة القبائل اليمنية بدمشق ، وأهل قنسرين ، وأهل حمص . (٤)

وظهر نصر بن شيبث العقيلي وأعلن عصيانه للخليفة العباسي المأمون في سنة ٢٠٤ هـ وقد اجتمع حوله أعداد كثيرة من الأعراب ، فلما اقترحوا عليه مبايعة أحد العلويين أو بني أمية ، فلم يوافق وقال لهم : " انما هواي مع بني العباس ، وانما حاربتهم محاربة للعرب لأنهم يقدمون عليهم العجم " ^(٥) ، وقد استمرت حركة نصر بن شيبث هذا قرابة خمس سنوات عجزت الخلافة العباسية خلالها عن القضاء عليها ، مما دفع الخليفة المأمون لأن يكتب أماناً لنصر بن شيبث في سنة ٢١٠ هـ . (٦)

(١) احدى مدن الشام ، فتحت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد أبي عبيدة عامر بن الجراح . (الحموي : معجم البلدان ٤/٤٠٣) .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٧/٤٤٣ .

(٣) المصدر السابق ٧/٤٤٤ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٩/٣٢٧ .

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٨/٤٥١ .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ١٠/٢٧٥ .

وفي حمص (١) تكررت حركات عصيان القبائل العربية للخلافة العباسية ، وأعلن أهلها خلع نائب الخليفة العباسي ، ومن تلك الحوادث في سنة ١٩٤ هـ ، وسنة ٢٤٠ هـ ، حيث عدا أهل حمص/عليها الخليفة العباسي موسى بن ابراهيم الراققي ، لأنه قتل رجلا من أشرفهم ، فقتلوا جماعة من أصحابه ، وأخرجوه من بين أظهرهم ، فلما بلغ الخليفة المتوكل أمرهم بعث اليهم أميرا وقال لمرافقه : ان قبلوه والا فأعلمني ، فقبلوه ، فعمل فيهم الأعاجيب وأهانهم غاية الاهانة . (٢)

وفي جمادى الأولى من سنة ٢٤١ هـ وثب أهل حمص على عامل الخلافة العباسية محمد ابن عبدويه ، فأرادوا قتله ، وساعدهم نصارى أهلها أيضا عليه ، فكتب ذلك العامل إلى الخليفة العباسي يعلمه بالأمر ، فكتب اليه يأمره بمناهضتهم ، وأمر صاحب دمشق أن يمدّه بجيش من عنده ليساعده على أهل حمص ، وأمره الخليفة بأن يقبض على ثلاثة من أهلها معروفين بالشر ، وأن يقبض على غيرهم وعددهم قريبا من عشرين ، ويرسلهم إلى سامراء مقيدين في الحديد ، وأمره بأن يخرج كل نصراني بحمص ، وأن يهدم كنيستها العظمى وأن يضيفها إلى المسجد الجامع الذي بجوارها ، فامتثل محمد بن عبدويه ما أمره به الخليفة . (٣)

وفي الديار المصرية ظهر عبد الله بن السرى وأعلن خلعه لطاعة الخليفة العباسي المأمون ، وذلك في سنة ٢١٠ هـ ، وبعد تغلبه على مصر أرسل اليه الخليفة قائد عبد الله بن طاهر لقتاله ، وانتهت هذه الحركة بطلب ابن السرى الأمان فأعطي ما طلب . (٤)

(١) مدينة مشهورة بين دمشق وحلب في نصف الطريق ، فتحت صلحا على يد أبي عبيد

عامر بن الجراح . (الحموي : معجم البلدان ٣٠٢/٢) .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٤/١٠ ، ٣٣٢ .

(٣) المصدر السابق ٣٣٧/١٠ - ٣٣٨ ، ١٧٣/١١ .

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٦١٠/٨ .

ثم ظهر رجلان هما : عبد السلام ، وابن جليس ، فأعلننا خلع الخليفة المأمون ، واستحوذا على الديار المصرية في سنة ٢١٣ هـ ، وقد تابعهما في ذلك العصيان طائفة من القبائل القيسية واليمينية ، فلما علم الخليفة المأمون بأمرهما توجه بنفسه للقضاء على تلك الحركة وقادتها . (١)

وعاد الخليفة المأمون مرة ثانية الى الديار المصرية للقضاء على عصيان القبائل العربية بها بعد اجتماعها تحت طاعة عبد وس الفهرى وذلك في سنة ٢١٧ هـ . (٢)

ويضاف الى تلك الحركات ما ظهر منها في العراق في نواحي الكوفة والبصرة ، وفي فلسطين ، وفي نواحي خراسان ، وأذربيجان ، وغيرها ، قادها أفراد من القبائل العربية التي استوطنت في تلك النواحي . (٣)

وقد كان لبعض القبائل العربية مشاركة في حركة القرامطة وغيرها من الحركات التي خرجت عن سلطان الخلافة العباسية ، فنجد قبيلة بني تميم تعين الزنج أثناء عصيانهم للخلافة العباسية على دخول البصرة ، واحراقها (٤) ، وكان بعض تجار بني تميم يمدون صاحب الزنج وأتباعه بما يحتاجونه من المؤن ، وساعدوا بذلك على طول أمد تلك الحركة التي استنزفت الكثير من قدرات الخلافة العباسية العسكرية والمالية .

وشاركت بعض القبائل العربية في مساعدة القرامطة ، وساروا تحت قيادة الحسين بن أحمد القرمطي أثناء توجهه لقتال المعز لدين الله العبيدي ، وقد استطاع المعز استمالة قائد القبائل العربية في جيش القرامطة ، ويدعى حسان الطائي ، وأغراه بالمال في مقابل انسحابه بمن معه من القبائل العربية من جيش القرامطة ، وذلك لما يمثلونه في قوة عسكرية

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٧٩/١٢ .

(٢) المصدر السابق ٢٨٤/١٢ .

(٣) المصدر السابق ٢٥٧/١٠ ، ٢١٤/١١ - ٢١٥ .

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦٠٧/٩ .

لا يستهان بها ، ومما يؤكد ذلك أنه بعد انسحاب القبائل العربية تمكن المعز لدين الله من صد عدوان القرامطة على الديار المصرية ، فرجعوا وهم في أذل حال وأرذل له (١) ، بعد أن كان قد أسقط في يد المعز لدين الله من كثرة عرب الشام الذين ساروا تحت طاعة الحسين بن أحمد القرمطي .

وسعت الدولة العبيدية للاستفادة من القبائل العربية التي انفصلت عن جيش القرامطة ، فضموا بني هلال الى جيش الدولة العبيدية ، وانضمت بعض القبائل العربية الأخرى مثل تميم ، وشيبان ، وعنزة ، الى طوائف القرامطة في سواد العراق .

وقامت طوائف من القبائل العربية التي تقع تحت سلطان الدولة العباسية بمنازعة الدولة في سلطانها ، وذلك من خلال حركات العياريين الذين عاشوا في الأرض فسادا ، فكانوا يستغلون ضعف الخلافة العباسية أو انشغالها عنهم للقيام بأعمال القتل والسلب في بلاد الاسلام ، حتى أن مركز الخلافة العباسية لم يسلم من شر أولئك العيارون (٢) ، " الذين كانوا يمثلون تكتلات شعبية لا تلتزم بنظام أخلاقي ، وتعيث في الأرض فسادا " (٣) ، وكانوا مبعث شر وفساد على المسلمين . (٤)

أثر خروج القبائل العربية على الخلافة :

مما تقدم يتبين الأثر الذي تركته تلك القبائل العربية على الخلافة العباسية ، فبعد أن كانت تلك القبائل من عوامل قوة الدولة الاسلامية ، نجد ها في فترات تاريخ الخلافة العباسية تعلن العصيان على سلطان الخلافة ، ويحمل أبناء تلك القبائل سلاحهم ضد

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٩٤/١١ ، وسعيد الديوه جي : تاريخ الموصل ص ٧٦ - ٧٧
 (٢) " : " ، ١٣٥/١١ ، ٣٢٩ ، ٢٠/١٢ ، ٢٢ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٦٧ .
 (٣) أكرم ضياء العمري : دراسات تاريخية ص ٢٧١ .
 (٤) ابن الجوزي : المنتظم ١٧٠/١٥ ، ابن الفرات : التاريخ ص ٨١ ، الفسائي : المسجد المسبوك ص ٦١١ .

الخلافة العباسية ، ويمكن ارجاع أسباب ظهور تلك الحركات الى موقف الخلافة العباسية واستغناء الخلافة عن خدمات أفراد تلك القبائل في جيش الخلافة ، مما جعل مواطنهم ميادين القتال فيما بينهم ، وظهرت بعض تلك الحركات لتجاهل الخلافة العباسية لاحتياجات تلك القبائل ، وعدم تفقد الخلافة لأوضاعها ، وتلمس مشاكلها ، ومعرفة أسباب عصيانها للعمل على تلافيتها ومنع تكرارها ، وظهر البعض الآخر من تلك الحركات بسبب ظلم بعض عمال الخلافة العباسية لأهل بعض المدن والقرى الواقعة تحت ولايتهم .

٨ - الطامعون في الخلافة العباسية :

واجهت الخلافة العباسية الكثير من المصاعب بسبب الطامعين فيها ، حيث سعى بعض أبنائها لاستغلالها ، وحرص على مصالحه الشخصية ، وقد مها على المصلحة العامة للدولة الإسلامية ، ومن أبرز هؤلاء الطامعين : أبو الحارث أرسلان البساسيري^(١) ، الذي بدأ نفوذه يتعاظم شيئاً فشيئاً ، حتى فاق أقرانه من القادة الأتراك في جيش الخلافة العباسية ، ولم يبق للخليفة العباسي أمر أز نهي من دونه ، وأعلن البساسيري عزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة ، مما دفع القائم بأمر الله الى أن يكاتب السلطان محمد بن ميكائيل الملقب بطغرل بك يستنهضه في المسير الى العراق .^(٢)

وتظهر خطورة هذه الحركة فيما أقدم عليه صاحبها من مكاتبة المصريين بالطاعة " وخلص ما كان عليه من طاعة العباسيين " ، ثم لما علم بمكاتبة الخليفة لطغرل بك فرّ الى بلاد الرحبة وكتب الى صاحب مصر " بأنه على اقامة الدعوة له بالعراق . فأرسل اليه بولاية الرحبة ونيابته ، ليكون البساسيري على أهبة الأمر الذي يريده " .^(٣)

(١) كان مملوكاً لرجل من أهل بسا ، فنسب اليه فقبل له البساسيري ، كان مقدماً كبيراً عند الخليفة القائم بأمر الله ، لا يقطع أمراً دونه ، ثم طغى وبغى وتمرد وخرج على الخليفة والمسلمين ودعا الى خلافة الفاطميين . (ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/٨٩)

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ١٥/٣٤٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/٧١ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٨٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/٧١ ، الحسيني : زبدة التواريخ ص ٦٣ ، الكتبي : عيون التواريخ ص ١٤١ ، الأربلي : خلاصة الذهب المسبوك ص ٢٦٥ ، المقرئ : المنتقى من أخبار مصر ص ١٤ .

لقد كانت حركة البساسيري فرسة سانحة للحكام العبيديين ، أحسنوا استغلالها ،
 وذلك لمناوأتهم للخلافة العباسية ، وحرصهم على اسقاطها ، ومد نفوذهم باتجاه العراق
 مروراً ببلا د الشام ، وبدأت أولى خطوات التعاون بين المستنصر بالله العبيدي ، والبساسيري
 في سنة ٤٥٠ هـ ، فقد توجه البساسيري الى بغداد ومعه الرايات البيضاء مكتوباً عليها اسم
 المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين ، فتلقيه أهل الكرخ^(١) الرافضة ، الذين نهبوا
 دور أهل السنة ، وخطب البساسيري للمستنصر بالله العبيدي في بغداد^(٢) ، وبلغ الأمر
 بالبساسيري أن أحضر أعيان العلويين والعباسيين وقاضي القضاة وأخذ عليهم البيعة
 للخليفة العبيدي ، واستحلفهم على الوفاء له .^(٣)

أما عن موقف البساسيري من الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، فقد أجبره على الخروج
 من بغداد ، وأمره بأن يكتب له عهداً بأنه " لا حق له ولا للعباسيين في الخلافة مع وجود
 بني فاطمة الزهراء ، وأشهد عليه الشهداء ، وبعث بالكتاب والشهود الى مصر " .^(٤)
 وظل البساسيري أداة للمستنصر بالله العبيدي يوجهه كيف يشاء ، حتى تم القضاء
 عليه وعلى أطماعه بعد وقوعه في أسر السلطان طغرل بك^(٥) ، وبذلك انتهت تلك الفتنة
 التي كادت أن تقضي على الخلافة العباسية بعد أن وجدت التأييد والمساعدة من
 العبيديين .

-
- (١) الكرخ : ضاحية في وسط بغداد ، أهلها كلهم من الشيعة الامامية ، ولا يوجد منهم
 سني البتة ، (الحموي : معجم البلدان ٤٤٨/٤) .
 (٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ١٧٧/٢ ، حسين أمين : تاريخ العراق في
 العصر السلجوقي ص ٦٣ .
 (٣) ابن الجوزي : المنتظم ٢٠٢/٨ .
 (٤) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ٢٥٣/٢ .
 (٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٨٧ ، سهيل زكار : أخبار القرامطة
 ص ١٠٤ ، طه ندا : فصول من تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٢٨ .

ومن الطامعين في الخلافة العباسية : أبو عبد الله البريدي ، الذي أصبح الرجل

الثاني في الدولة العباسية ، فكان ترتيبه يأتي بعد الخليفة العباسي . (١)

ومن الطامعين في الخلافة العباسية : جلال الدين بن خوارزم شاه ، فقد طمع في

أخذ العراق من الخليفة الناصر لدين الله ، فلما علم الخليفة بأمره استعد لملاقاته عسكرياً

(٢)

ولكن جلال الدين رجع عن بغداد بعد أن حاصرها ثمانية عشر يوماً ، وذلك في سنة ٦٢٢ هـ .

ومن الطامعين في الخلافة العباسية : دبير بن صدقة (٣) ، فقد عانت الخلافة

العباسية من عصيانه وأطماعه الشخصية الشيء الكثير ، وكان يعمل جاهداً على استغلال

أوضاع الخلافة العباسية مع الخارجين عن سلطانها لتحقيق مصالحه وأهدافه ، وفي مقدمة

أولئك : أرسلان البساسيري ، ثم نجد دبير بن صدقة يتعاون مع الفرنج عند حصارهم

لمدينة حلب ، ويسعى لايقاع الفتنة بين السلاطين السلاجقة ليتسنى له نهب مدينة

البحيرة وقتل أميرها . (٤)

ثم بعد ذلك قعد عاصمة الخلافة العباسية بغداد فنهب دورها ، وتوجه إلى

دار الخلافة العباسية وتهدد الخليفة في داره . (٥)

ولما وقف الخليفة العباسي المسترشد بالله في وجه أطماع دبير بن صدقة ، حاول

اخافة الخليفة بالقيام بأعمال النهب في بلدة الحلة ، في محاولة منه لا جبار الخليفة على

(١) عبد القادر المعافيدى : واسط في العصر العباسي ص ٤٠ ، ابن مسكويه : تجارب

الأمم ٤١٢/١ ، حيث يشير المؤلف إلى النزاع الذي وقع بين البريدي والأمير جكم

بسبب أطماعهما في الخلافة العباسية .

(٢) الحموي : التاريخ المنصورى ص ٣٠٦ .

(٣) دبير بن صدقة صاحب حلة بني مزيد الواقعة بين الكوفة والبحيرة ، كان شيعياً

كأبائه ، قتله السلطان مسعود السلجوقي سنة ٥٢٩ هـ .

الذهبي : سير أعلام النبلاء ٦١٢/١٩ ، ابن خلدون : التاريخ ٣٥٩/٤ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٣/١٢ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٦ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٠/١٢ ، الكتبي : عيون التواريخ ص ١٤١ ، ابن

واصل : مفرج الكروب ص ٤٧ .

اعطائه حكم مدينة الموصل ، فلما نفذ صبر الخليفة على تلك التجاوزات قاد جيش الخلافة العباسية للقضاء على عصيان دبيس بن صدقة ، وذلك في سنة ٥١٦ هـ (١) ، وظل يهدد الخلافة العباسية التي لا تجد بدا من الاستنجاد بالسلطين السلاجقة في كل مرة يحسّ فيها الخليفة العباسي بالخطر .

واستمر دبيس في عصيانه لسلطان الخلافة العباسية حتى تم انقاذاها منه بمقتله (٢) بواسطة جيش السلاجقة ، ومما يبيّن خطورة أطماع دبيس بن صدقة على الخلافة العباسية الاشارة الى تشيع دبيس واعلانه لمعتقداته ، وهو يقاتل الخلفاء العباسيين ، فقد خرج في جيشه يرافقه الفسّاق وأصحاب الدفوف يضربون عليها وهم يصيحون بصوت واحد : " العنوا زقلي ومقلي ، والعنوا شيخ الضلالة ... " ، فلما وقعوا في الأسر سألوهم عن تلك الأسماء فأجابوا بأن معنى زقلي (أبو بكر) ، ومعنى مقلي (عمر) ، وشيخ الضلالة (عثمان) وذكروا أنهم كانوا يريدون قتل الخليفة العباسي ودخول بغداد ونهبها . (٣)

وبذلك يظهر موقف دبيس بن صدقة ، فهو يعلن مخالفته لعقيدة الخلفاء العباسيين الذين يمثلون بخلافتهم أهل السنة والجماعة ، ويظهر العصيان لسلطان الخلافة العباسية طمعا في ولاية مدينة من مدن العراق ، ولو كانت تلك الولاية بواسطة الاستيلاء عليها بالقوة من غير حاجة الى تفويض من الخليفة العباسي يجيز له تسلك الولاية .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦٠٢/١٠ ، سعيد عاشور : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ٣٣٨ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥١ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٠/١١ .

(٣) ابن العمراني : الانباء في تاريخ الخلفاء ص ٢١٥ .

٩ - ظهور الدويلات المستقلة :

ومن الأسباب التي ساعدت على سقوط الخلافة العباسية ظهور دويلات وأمارات مستقلة عنها ، وقد ظهرت تلك الدويلات مبكرا ، ففي النصف الثاني من القرن الثاني ظهرت تطورات في الأمارات الإسلامية ، أهمها أن تلك الأمارات شهدت ولاية يورثون المملك ويظفرون باستقلال محلي للبلاد التي يظهرون فيها ^(١) ، فضعفت السلطة المركزية في بغداد ، وفي المقابل ظهور تلك الأقاليم وعلو شأنها على الخلافة . ^(٢)

ويمكن ارجاع سبب ظهور تلك الدويلات الى :

- ١ - ضياع هيبة الخليفة العباسي ووقوعه تحت سيطرة المستبدين بالخلافة العباسية ، فلم يبق له من الخلافة الا الاسم .
 - ٢ - انشغال الخليفة العباسي عن تلك الأقاليم بمحاولته استعادة نفوذه على الخلافة العباسية ، ومحاولة التخلص من سيطرة المستبدين بالخلافة العباسية .
 - ٣ - انشغال الخليفة بجهود في اصلاح أحوال الخلافة والقضاء على الاضطرابات الداخلية وحركات العميان لسلطان الخلافة .
 - ٤ - بعد تلك الأقاليم التي استقلت عن مركز الخلافة العباسية ، مما يتعدى معه خروج الخليفة العباسي بجيش الخلافة لاستعادة تلك الأقاليم .
- كان وقوع الخلافة العباسية تحت سيطرة آل بويه نقطة تحول في تاريخ الخلافة العباسية ، ففي فترة الخليفة العباسي الرازي بالله (٢٢٢ - ٢٢٩ هـ) كانت رقعة الخلافة تنحصر في بغداد وما حولها ، وأصبحت الدولة العباسية عبارة عن دول متعددة ، لكل دولة منها بيت مالها وجندها وأميرها وقضاؤها وادارتها . ^(٣)

(١) حسن أحمد محمود : مصر في عصر الطولونيين ص ٤ ، ابراهيم العدوي : مصر الإسلامية ص ٢٦٩ . يوسف العث : تاريخ عصر الخلافة العباسية ١٢٧ .

(٢) صابر محمد دياب : دراسات في تاريخ مصر الإسلامية ص ١٤٥ ، حسن أحمد محمود : مصر في عصر الطولونيين ص ٥ .

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ٩٠/١ ، مهيب البكري : الدرهم الحمداني - المورد - العدد الأول ص ٢٨ . عبد الكريم حتاملة : البنية الادارية للدولة العباسية ص ١٢٣ ، ابراهيم العدوي : مصر الإسلامية ص ٢٨٩ .

ويبين السيوطي (١) خطورة ذلك الوضع من خلال ظهور منافسين للخلافة العباسية ممن انتسب الى الخلافة في حكمه فيقول : " ٠٠٠ انه بعد عام ٢١٦ هـ أصبح هناك ثلاثة خلفاء ، ٠٠٠ الخليفة العباسي المقتدر بالله في بغداد ، والخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث بقرطبة (٢) ، والخليفة العبيدي بقرطبة (٢) ٠٠٠ " ، ووصلت حال الخلافة العباسية في خلافة الناصر لدين الله أن كانت الدولة كبيرة الاسم قليلة البلاد ، ليس في حكمها الا بغداد ، والبصرة ، وواسط وما حولها . (٤)

ولم يجتهد بعض الخلفاء في الحفاظ على هيبة الخلافة العباسية لتقف في وجهه ما يظهر من تفرق الكلمة ، فعندما غاب الخلفاء الأقوياء ، وخلف بعدهم خلفاء ضعاف ، أصبح الطريق ممهدا أمام الأشخاص الأقوياء ليؤسسوا دولا تحدى بعضها مركز الخلافة العباسية في بغداد . (٥)

فقد كانت هذه الدويلات في بداية ظهورها تعترف بالخلافة العباسية وسلطتها الشرعية ، لأن ذلك مما يزيد لها قوة بعد استقلالها ، فاعترافها بالخليفة العباسي واعتراف الخليفة بشرعية حكم تلك الدولة يزيد لها مهابة واحتراما ، ولكن مع مرور الوقت ضعفت تلك الصلة بين الخلافة العباسية وأمرائها ، تلك الدويلات المستقلة ، ووصل الأمر الى أن بعضهم

-
- (١) ابن الساعي : الجامع المختصر ٢٥/٩ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٩٢ .
القلقشندي : مآثر الانافة في معالم الخلافة ٢٩٠/١ - ٢٩٣ ، حوادث سنة ٣٢٩ هـ .
(٢) مدينة عظيمة بالأندلس ، كانت بها ملوك بني أمية الى حدود سنة ٤٤٠ هـ ، حيث انقضت مدة الأمويين وظهر المتغلبون بالأندلس واستولى كل منهم على ناحية منها .
(الحموي : معجم البلدان ٣٢٤/٤) .
(٣) بلدة بافريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام سيرا على الأقدام ، لم يكن بافريقية أطيب هواء ولا أعدل نسима منها ، بناها ابراهيم بن أحمد بن الأغلب ، بقيت دار ملك بني الأغلب حتى غلب عليها أبو عبد الله الشيعي .
(الحموي : معجم البلدان ٥٥/٣) .
(٤) ابن الساعي : الجامع المختصر ٥٠/٩ .
(٥) محمد علي حيدر : الدويلات الاسلامية في المشرق ص ٢١٦ ، ابراهيم العدوي : مصر والشرق العربي ص ١٢٥ .

مار يتلقب بلقب (أمير المؤمنين) أو (الخليفة) . (١)

وهناك من يرى أن الخلافة العباسية كانت مرغمة على القبول بذلك الوضع والرضا به ، وأنها سعت الى تثبيت الولاة المنتصرين على تلك الأقاليم ، ولا سيما في مصر ، لأن الخلافة ترغب في بقاء هذه البلاد في يد والي قوى يستطيع صد الفاطميين عنها ، ويحمي الخلافة من خطرهم ، ويستشهد صاحب هذا الرأي بأن الرشيد سبق له أن أقطع الأغالبة افريقية لتكون ولايتهم بها حاجزا يحمي مصر والمشرق الاسلامي من دولة الأدارسة وغيرهم من الخارجين عن سلطان الخلافة العباسية . (٢)

مواقف الدول المستقلة من الخلافة العباسية :

تباينت أحوال تلك الدول المستقلة مع الخلافة العباسية ، فمنها من أعلن الولاء التام للخلافة مثل دولة بني زياد ، وبني نجاح ، وبني يعفر ، ودولة الأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) ، والدولة الطاهرية (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ) ، والدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ) ، ومنها من ناصب الخلافة العباسية العداوة ، مثل : الدولة الحفارية (٢٥٤ - ٢٨٩ هـ) والدولة الزيدية (٢٥٥ - ٣١٦ هـ) ، ثم أهم هذه الدول الدولة العبيدية (٤) بالمغرب ومصر (٢٩٧ - ٥٦٧ هـ) ، التي ناوت الخلافة العباسية وسعت الى اسقاطها ، " فقد كانت جهودهم موجهة لاقامة خلافة علوية على أطلال الخلافة العباسية ، واتخذوا شمال افريقيا لبعد القيروان عن مركز الخلافة العباسية في بغداد التي سعسوا

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام ٩٢/١ ، حسين محمد سليمان : الدولة الاسلامية في العصر العباسي ص ٢٤ ، عمام عبد الرؤوف الفقي : اليمن في ظل الاسلام ص ٨٥ ، محمد ماهر حماده : دراسة وثقافية للتاريخ الاسلامي ص ١٨٠ .

(٢) الأغالبة : نسبة الى الأغلب بن سالم التميمي ، مؤسس ملك الأغالبة بافريقية .

(٣) سيده كاشف : مصر في عصر الاخشيديين ص ٩١ - ٩٤ ، البلوى : سيرة ابن طولسون ص ٤٦ .

(٤) نسبة الى عبيد الله ، وهو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح اليهودي .

لتهديدها من خلال أطماعهم باحتلال مصر وبلاد الشام" (١) . يضاف الى هذا تأييد الحكام العبيديين للخارجيين عن سلطان الخلافة العباسية ، فقد أيد المستنصر بالله العبيدي إرسال البساسيري ضد الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وأمدّه بالمال والخيال والسلاح ، وسعيهم لبسط نفوذهم على الحرمين الشريفين ليثبتوا للعالم الاسلامي شرعية خلافتهم . (٢)

يضاف الى ذلك أن ظهور بعض تلك الدول المستقلة كان على حساب دولة قبلها ، فمثلا نجد الدولة العبيدية قامت على أنقاض دولة الأغالبة التي قامت على أنقاض دولة الأدارسة (٣) ، والدولة الخوارزمية قامت على أنقاض الدولة السلجوقية . (٤)

وقد أدى ظهور تلك الدول المستقلة الى جعل الخلافة العباسية في موقف حرج ، بسبب أن أغلب تلك الدول لم تسطع اثبات وجودها في الاقليم الذي ظهرت فيه ، فقد دبت الخلافات بين حكام تلك الدول المستقلة عن الخلافة العباسية ، وحرص كل منهم على زيادة نفوذه وسلطانه على حساب غيره ، فما أن تظهر تلك الدولة ويشهد عودها ويقوى الا وتبدأ في صراع عسكري مع الدولة التي بجوارها ، وكان القوى يطمع في الضعيف منها ، يضاف الى ذلك اصابة تلك الدول بالانقسام والفرقة بين أبنائها ، ويحمل الأخ سلاحه ضد أخيه ، ولا ينتهي نزاعهما الا بعد مقتل أحدهما ، فكانت تلك الدول عالة على الخلافة العباسية ،

(١) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر ص ٦٦ ، ابراهيم العدوي : مصر الاسلامية ص ٢٥٣ ، حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٨٠ - ٨١ ، محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٧٢ - ٧٦ ، خاشع المعاضدي : الحياة السياسية في بلاد الشام ص ٨٤ ، عبد القادر المعاضدي : واسط في العصر العباسي ص ٧٨ .

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٦٥ ، ٨٤ ، المقرئزي : المنتقى في أخبار مصر ص ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، حسن ابراهيم حسن : المعز لدين الله ص ٧٦ ، ٨٤ ، ٢٤٠ ، محمد سرور تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٢ ، ٢٦٤ ، علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الفسزو المليبي ص ٤٣ ، عباس اقبال : الوزارة في عهد السلاجقة ص ٣٣٠ ، محمد سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص ٢٧ - ٢٨ ، محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله - مجلة الرسالة - العدد ٩١ - عام ١٤٥٤ هـ ، ص ٤٨٨ - سيرة المؤيد في الدين .

(٣) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٦ .

(٤) نافع العبود : الدولة الخوارزمية ص ١٧ .

وقد أطمعت تلك الحال جيران هذه الأمارات المستقلة ، ناهيك عن أطماع جيرانها
من أعداء المسلمين .

أثر نزاعات الدويلات على الدولة الإسلامية :

مما يؤكد الأثر السيء ، لتلك النزاعات على الدولة الإسلامية ، أنه لما قدمت جيوش
المغول قاصدة ديار الإسلام ، وجدت دويلات إسلامية ضعيفة متفرقة فيما بينها ، أنهكتها
الخلافت والحروب فيما بينها ، ولم تستطع تلك الدول توحيد صفوفها للوقوف صفا واحدا
في مواجهة زحف المغول عليهم ، فكانت لقمة سائغة التهمتها أثناء سيرها نحو عاصمة الخلافة
العباسية في بغداد ، وظلت تلك الخلافت ملازمة لها في أحلك الظروف التي تعصف بها ،
(١)
فقد انقسم جيش الدولة الخوارزمية على نفسه ، فتغير الموقف العسكري لصالح جيش المغول .
أما وضع الخلافة العباسية ، فنجد أن أوضاعها الداخلية قد اضطرت ، وأقاليمها
البعيدة عن مركز الخلافة قد تجزأت وأصبحت في وضع لا تحسد عليه ، وعند مقارنة حال
الخلافة العباسية بحال المغول قبل وصولهم إلى بغداد يظهر مدى الأثر السيء الذي نتج
عن ظهور تلك الدول المستقلة في أقاليم الخلافة العباسية التي غلب على ظن الخلافة
أنها ستسهم في دفع الأخطار التي تواجهها ، ونظرا لتدهور العلاقات بين تلك الدول
المتقلة ، نجد الدولة الخوارزمية تعرضت للهجوم المغولي مبكرا قبل تقد مهم السبي
العراق ، ووجدت تلك الدول نفسها وحيدة في ميدان مقارعة ومحاولة المغول ، فانهزمت
(٢)
عسكريا ، ووجد المغول الطريق إلى بغداد مفتوحا .

(١) عماد الدين عبد الرؤوف : بلاد الهند في العصر الإسلامي ص ٥٦ - ٥٧ .
(٢) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ٧٠ ، محمد علي
حيدر : الدويلات الإسلامية في المشرق ص ٢٢١ .

وبما أن الدولة الخوارزمية كانت أقوى الدول المستقلة بالشرق الإسلامي ، وآخرها سقوطاً بأيدي المغول ، فقد كانت علاقتها بالخلافة العباسية قوية ومتينة ، خاصة في خلافة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) ، فقد حاول الخليفة العباسي التخلص من السيطرة السلجوقية على الخلافة العباسية من خلال الاستعانة بطرف قوي قادر على القيام بهذه المهمة (١) ، فاتصل بالسلطان علاء الدين الخوارزمي يحثه على قتال السلاجقة ووعدته أن يقطعه ما بيده من البلاد إن أنجز هذه المهمة ، وقد وقى له بذلك الوعد بأن أعطاه تقليداً على البلاد التي تحت يده . (٢)

ولكن علاء الدين استغل حاجة الخلافة العباسية وحاول الضغط على الخليفة الناصر لدين الله مما أدى إلى تدهور العلاقة بين الخلافة والدولة الخوارزمية وزيادة حدة العداوة بين الطرفين ، وسعى علاء الدين لتهديد الخليفة العباسي لإجباره على الموافقة على مطالبه التي أرسلها في كتابه إلى الخليفة وفيه : " ... كن معي كما كانت الخلفاء قبلك مع السلاطين السلجوقية كألب أرسلان وملكشاه ، وأقربهم لنا عهد السلطان سنجر ، فيكون أمر بغداد والعراق لي ، ولا يكون لك إلا الخطبة ... " . (٣)

فلما أبى الخليفة من ذلك وأنكر على علاء الدين ما يطلبه ، شرع علاء الدين خوارزم يتذرع بشتى الوسائل في معاداة الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، ومحاولة إزالة الخلافة العباسية ، وفي المقابل سعى الخليفة لإضعاف قوة الدولة الخوارزمية العسكرية من خلال تأييده للمخالفين للسلطان علاء الدين من أمراء الدولة الخوارزمية . (٤)

-
- (١) نافع العبود : الدولة الخوارزمية ص ٩٤ ، صادق السوداني : العلاقات الخارجية للخلافة العباسية - المورد - العدد الثالث ، سنة ١٩٧٣ م ، ص ٨٧ .
- (٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٧/٩ .
- (٣) المصدر السابق وابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٣ .
- (٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٤٨/٩ ، النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ١٧٠ ، ٢٣٩ ، المنذرى : التكملة لوفيات النقلة ٢٢٢/٢ ، ابن الخازن : الجامع المختصر ص ١٢١ ، ٢٠٤ ، نافع العبود : الدولة الخوارزمية ص ٩٤ ، محمد حمادة : الوثائق السياسية للعصور العباسية ص ٤٧٢ .

وكما سبقت الإشارة الى هذه النزاعات التي استحكمت بين الخلفاء و حكام تلك الدول من جهة ، وبين أبناء الدولة المستقلة نفسها من جهة ثانية ، ففي الوقت الذي اشتدت فيه تحركات المغول في المشرق الاسلامي ، نجد هذه المكائد والدسائس تحاك بين بعض الحكام المسلمين ، فكان الأولى بالخلافة العباسية والدولة الخوارزمية تنسيق الجهود وحشد الطاقات العسكرية والمالية لمواجهة الخطر المغولي ، وبتلك الخلافات ساعدت الخلافة ومخالفها مهمة الجيش المغولي في قصده لديار الاسلام ، حيث لم يكن أمامه إلا القوة الخوارزمية التي أنهكت في جهود أمرائها لبسط نفوذهم على المشرق الاسلامي ، والعمل على تثبيت حكمهم على أنقاض الدولة السلجوقية ، ولكنها لم تستطع اكمال تلك الطموحات بسبب الانتشار السريع لجيش المغول ، وبالرغم من انتصاراتهم على المغول في بداية مواجهة العسكرية بينهما ، إلا أن النهاية كانت لصالح الجيش المغولي . (١)

وفيما يلي بيان بأهم تلك الدول التي ظهرت في بعض الأقاليم الخاضعة لسلطان

الخلافة العباسية :

١ - في المغرب الاسلامي :

- أ - الدولة الأموية بالأندلس (١٣٨ - ٥٤٢٢ هـ) .
- ب - دولة الأدارسة بفاس (١٧٢ - ٥٣٧٥ هـ) .
- ج - دولة الأغالبة بالقيروان (١٨٤ - ٥٢٩٦ هـ) .
- د - الدولة العبيدية بقرقنة بالمغرب (٢٩٧ - ٥٣٦١ هـ) .

(١) نافع العبود : الدولة الخوارزمية ص ١١٧ ، صالح السوداني : العلاقات

الخارجية للخلافة العباسية ص ٨٨ ، عبد الكريم حناملة : البنية الادارية

للدولة العباسية ص ١٢٣ .

٢ - في المشرق الاسلامي :

- أ - الدولة الطاهرية (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ) .
- ب - الدولة الصفارية (٢٥٤ - ٢٨٩ هـ) .
- ج - الدولة الزيدية (٢٥٥ - ٣١٦ هـ) .
- د - الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) .
- هـ - الدولة الخوارزمية (٤٤٧ - ٦٢٧ هـ) .

٣ - في بلاد الشام والعراق :

- أ - الدولة الحمدانية في الموصل (٣١٧ - ٣٥٨ هـ) .
- ب - الدولة الحمدانية في حلب (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ) .

٤ - في البلاد المصرية :

- أ - الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ) .
- ب - الدولة الاخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) .
- ج - الدولة العبيدية (٣٦١ - ٥٦٧ هـ) .

٥ - في اليمن :

- أ - الدولة الزيادية (٢٠٥ - ٤٠٢ هـ) .
- ب - الدولة اليعفرية (٢٢٥ - ٣٩٣ هـ) .
- ج - الدولة النجاشية (٤٠٣ - ٥٥٥ هـ) .
- د - الدولة المليحية (٤٣٩ - ٥٣٢ هـ) . (١)

(١) ابن خلدون : التاريخ ، المقدسي : الذيل على الروضتين ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة . أحمد تيمور باشا : ضبط الأعلام . حسين محمد سليمان : الدولة الاسلامية في العصر العباسي . عصام الدين عبد الرؤوف : الدولة الاسلامية المستقلة . عمر رضا كحالة : العالم الاسلامي . محمد ماهر حمادة : دراسة وثيقة للتاريخ الاسلامي ومصادره . محمود شاكر : التاريخ الاسلامي ١٨٧/٦ . رزق الله المدفي : تاريخ دول الاسلام ١٣٩/١ ، ٢٩٦ . القضاءي : الحلة السيرة ، ص ٩٣ . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ٦٥/٣ - ١٦٢ .

١٠ - قيام الحروب الصليبية : (١)

جاءت هذه الحملات الصليبية في وقت وصلت فيه الخلافة العباسية الى مدى بعيد من الضعف والانقسام الذي يهدد كيانها ، بعد تسلط المستبدين بها ، ثم ظهور الدول المستقلة في أقاليمها على حساب وحدة الخلافة وقوتها ، فزادت تلك الحملات الصليبية أوضاع الخلافة سوءاً وساعدت على سقوطها.

ولم تكن الحروب الصليبية الا شكلا من أشكال الصراع بين الحق والباطل ، وبعد أن كان هذا الصراع يحدث في أراضي الأعداء ، أصبح - لما ضعف المسلمون - يهاجمهم في عقردارهم (٢) ، أما دوافع تلك الحملات الصليبية التي توجهت الى البلاد الاسلامية فيمكن اجمالها فيما يلي :

أ - العداوة والحقد على الاسلام والأمة الاسلامية ، وقد بين الله عز وجل في كتابه الكريم ما تكنه قلوب اليهود والنصارى من حقد على أمة الاسلام ، فقال تعالى في محكم التنزيل : (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ) آية ١٢٠ من سورة البقرة ، وقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ

(١) سميت بالحروب الصليبية لأن الجيوش التي توجهت الى بلاد الاسلام كانت ترفع

الصليب فوق راياتها رمزا وشعارا لهم ، وقد بدأت هذه الحملات سنة ٤٩٠ هـ .

ويقال : ان تلك التسمية بسبب اعلان رجال الكنيسة أن القتال انما هو للدفاع عن الصليب ، وأن واجب المقاتل المسيحي هو محاربة أعداء اديانة المسيحية وهم المسلمون .

صالح العابد : الحروب الصليبية - مجلة المورد - العدد الرابع عشر ،

سنة ١٩٨٢ م ع ٩ .

(٢) محمد فيف الله بطاينة : محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية ص ١٦ .

عبد الحلیم عويس : تاريخنا ودرس الحروب الصليبية ، مجلة الفيصل ، العدد ٧٨ ،

ص ٤٨ . على بيومي : قيام الدولة الأيوبية ص ٣٢ .

لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وُدًّا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
 صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) - الآية : ١١٨ - آل عمران
 وقوله تعالى : (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ
 أَشْرَكُوا) - الآية ٨٢ المائدة .

ب - محاولة هؤلاء النصارى استعادة ما فقدوه من بعض البلاد في صراعهم ضد المسلمين .
 ج - حاول هؤلاء النصارى الثأر من المسلمين ورد اعتبارهم بعد الهزيمة العسكرية التي
 حلت بهم في موقعة ملاذكرد ، " ولتحقيق ذلك استنجد زعماء النصارى في
 القسطنطينية باخوانهم في الدين في روما التي رحبت بهذا الاستنجد من أجل زيادة
 قوة النصارى للتمرد على المسلمين " . (١)

د - استنصار الصليبيين لشأن المسلمين واحتقارهم لقوتهم المفككة ، وهزأوا بجبهتهم
 المتصدعة ، فأخذوا ينتقلون من مدينة إسلامية إلى مدينة أخرى
 حتى اشتدت وطأتهم على البلاد الإسلامية ، في محاولة من القوى الصليبية لمنع
 تقدم الإسلام إلى مناطق جديدة فيهدد وجودهم وكيانهم النهراني . (٢)

وفي ظل ظهور الإمارات والدول المستقلة ، وتمزق الدولة الإسلامية نتيجة للنزاعات المتكررة
 بين تلك الدول ، أصبح هم كل دولة منها المحافظة على كيانها ، غير مهتمة بما تتعرض ببقية
 البلاد الإسلامية من أخطار ، وقد ساعد هذا التمزق الحركة الصليبية على المضي قدماً في
 حملتهم على بلاد الشام ، فتتابعت الحملات الصليبية في ظل انقسام الحكام ، واشتداد
 الخلافات فيما بينهم مما كان له الأثر الكبير في غياب القوة العسكرية المنظمة التي تستطيع
 الدفاع عن البلاد الإسلامية التي بدأت تتساقط واحدة بعد الأخرى في قبضة الصليبيين . (٣)

-
- (١) علي عبد الحليم محمود : الغزو الصليبي ص ٢٣ ، جوزيف نسيم : معركة حطين ص ٢٣٥ .
 (٢) التميمي : الحروب الصليبية - مجلة الرسالة - العدد ٤٢٤ ص ١٠٣٦ .
 (٣) ابن الساعي : الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ١٥١/٩ ، ٢٤٢ .
 فاضل رجب : الحملة الصليبية الأولى : مجلة الفيصل - العدد ٩٨ ، ص ٩٧ .
 عبد الحليم عويس : تاريخنا ودرس الحروب الصليبية - مجلة الفيصل - العدد ٧٨
 ص ٤٨ .

ولم تفلح تلك الحملات المليبية في تنبيه المسلمين ، حكّاما ومحكومين الى خطر التجزء والانقسام والفرقة ، أو ايقاظهم من غفلتهم لينبذوا الضغائن والمصالح والأطماع الشخصية ، ويستعدوا لمواجهة أعدائهم الذين استغلوا تفرق المسلمين واختلاف كلمتهم .

وفي المقابل نجد همّة المليبيين وجدّهم للمتقدم نحو بلاد الاسلام ، فشارك في تلك الحملات بتشجيع من البابوية رجال الكنيسة والملوك ، والأمراء ، ورجال الاقطاع ، والتجار ، والطبقات الاجتماعية الفقيرة المحرومة منها والمسرّقة للقضاء على الاسلام ، والاستيلاء على أرض المسلمين ، واقامة ممالك نصرانية عليها ، مع الاستمتاع بخيراتها ، وجني المكاسب التجارية ، والحصول على قسط من الحرية . (١)

وقد اشتدت وطأة الحروب المليبية في عهد الخليفة العباسي المستظهر بأمر الله (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) ، وأعلن ملوك وأمراء شاركوا في تلك الحملات مناصرة للديانة النصرانية عن محاولة للاستيلاء على الأماكن المقدسة في الحجاز . (٢)

وتنفيذ تلك الأطماع ، استولى الصليبيون على بعض المدن الاسلامية في سنة ٤٩٠ هـ فوقع بأيديهم من المدن : مرعش (٣) ، وأنطاكية (٤) ، وقونية (٥) ، وعند ذلك

-
- (١) محمد فيف الله بطاينة : محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية ص ١٦ .
- (٢) الذهبي : دول الاسلام ٩٠/٢ ، وسير أعلام النبلاء ١٧٤/٢٣ - ١٧٥ .
- (٣) مدينة بالشغور بين الشام وبلاد الروم .
- (الحموى : معجم البلدان ١٠٧/٥) .
- (٤) من أعيان مدن الشغور الشامية ، موصوفة بالحسن ، وطيب الهواء ، وعذوبة الماء ، وكثرة الفواكه ، وسعة الخير ، فتحها أبو عبيدة عامر بن الجراح - رضي الله عنه - صلحا .
- (الحموى : معجم البلدان ٢٦٦/١) .
- (٥) من أعظم مدن الاسلام ببلاد الروم ، وبها سكنى ملوكهم .
- (الحموى : معجم البلدان ٤١٥/٤) .

قام الخليفة العباسي المستظهر بارسال السلطان بركيارق السلجوقي لقتال العسود ،
والذود عن الاسلام وأرضه . (١)

ثم كرر الصليبيون المحاولة في سنة ٥٥٠٧ هـ ، فتوجه الأمير مودود صاحب الموصل
لقتالهم ، واستطاع - بفضل الله - من تحقيق نصر مؤزر على جيوش الصليبيين . (٢)
وفي خلافة المسترشد بالله ، التقى الأمير ايلغازي بالصليبيين في موقعة البلاط
في سنة ٥٥١٣ هـ ، وانتمرو المسلمون على الصليبيين انتمارا باهرا ، ونتيجة لذلك الانتصار
أرسل الخليفة الخلع والهدايا للأمير ايلغازي . (٣)

واستمرت الحروب بين الجيوش الاسلامية والحملات الصليبية ، وشهدت الجبهة
الاسلامية في ظل تزايد الخطر الصليبي في بعض الفترات نوعا من الاتحاد واتفق الكلمة
خاصة بين الخلافة العباسية والسلاطين السلاجقة ، ومرت تلك الجبهة بأوقات عميبة
تمثلت في اختلاف رأي الأمراء السلاجقة حول خطة القتال التي ينبغي اتباعها في مواجهة
الصليبيين ، أو لبعض الشكوك ، والنوايا السيئة ، وزادت من خطرهم على البلاد الاسلامية ،
وكانت فرصة سانحة استغلها الصليبيون فاحتلوا بعض المدن الاسلامية . (٥)

(١) ابن الجوزي : المنتظم ١٠٨/٩ .

(٢) اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ١٩٣/٣ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٨٤/٨

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٩٤/٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية
١٩٠/١٢ .

(٤) محمد ضيف الله بطاينة : محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية ص ١٧ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٧/١٢ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ
٥٥٣ ، ٥٤٨/١٠ .

وقد شهدت الجبهة الاسلامية في غمرة هذه الحملات الصليبية على البلاد الاسلامية ظهور عدد من المجاهدين من السلاطين والأمراء والقادة الذين كانوا يندفعون بجيوشهم لقتال أولئك الصليبيين نصرة للدين وحماية لبلاد الاسلام ، ومنهم السلطان ألب أرسلان السلجوقي ، والسلطان محمد بن ملكشاه ، والأمير عماد الدين زنكي صاحب الموصل الذي اجتهد في توحيد البلاد الاسلامية المتاخمة للصليبيين ، وأن تكون تلك البلاد تحت قيادته من جهة ، ليجمع أكبر قدر من القوى الاسلامية لقتال الصليبيين من جهة ثانية ، واستمر مدة حياته لتحقيق تلك الغاية حتى مقتله على يد أحد معاليكه ، وقد كان لتلك النهاية المؤلمة لعماد الدين الأثر السني ، على معنويات المدافعين عن البلاد الاسلامية فلم يكن مقتله على يد أعداء الاسلام ، أو في ميادين القتال ، وإنما على يد واحد من أبناء المسلمين .

ومن المجاهدين في هذه الفترة العصبية من تاريخ الأمة الاسلامية نور الدين محمود ابن عماد الدين الذي سار على نهج والده في جهوده لتوحيد البلاد الاسلامية ، واجتهد في استرداد ما وقع بأيدي الصليبيين من البلاد الاسلامية في نواحي حمص ، وطرابلس ، وكان كلما فتح حصنا نقل اليه ما يحتاج اليه من الرجال والعتاد الذي يكفي لعدة سنوات ، وذلك حتى يمنع وقوع تلك الحصون بأيدي الصليبيين مرة ثانية .

صلاح الدين يستعيد الثغور الاسلامية :

بعد وفاة نور الدين ظهر قائد اسلامي أكمل مسيرة الجهاد ضد أعداء الاسلام والمسلمين ، فكان يتنقل من بلاد الشام الى الديار المصرية لمواجهة حملات الصليبيين ، وسعى جاهدا لمنع وقوعها في أيديهم ، ألا وهو المظفر يوسف بن أيوب الملك الناصر

صلاح الدين (١) ، الذي انتصر على جموع الصليبيين في موقعة حطين سنة ٥٨٢ هـ ، التي كانت من أكبر المعارك في تاريخ الحروب الصليبية ، وكانت حدثاً هاماً في تاريخ الحركة الصليبية بمفهوم عامة ، والتاريخ الإسلامي على وجه الخصوص . (٢)

وقد واجه في بداية جهاده بعض المتاعب والمصعوبات نتيجة للخلاف بينه وبين أبناء نور الدين زنكي ، الأمر الذي مكّن الصليبيين من احتلال بعض الثغور الإسلامية في مصر والشام ، ولكن سرعان ما تدارك الأمر واستطاع صلاح الدين الأيوبي من استعادة تلك الثغور والبلاد التي احتلها الصليبيون ، ثم توج جهوده باستعادة بيت المقدس من أيديهم (٣) ، وقدم خدمة جليلة للخلافة العباسية عندما احتل الديار المصرية ، وعلان الخطبة بها للخليفة العباسي المستضيء ، بأمر الله في سنة ٥٦٧ هـ ، وقطعت الخطبة للعبيديين بمصر الذين كان آخرهم العاضد لدين الله (٤) ، بعد أن انقطعت خطبة العباسيين بها قرابة ٢٠٨ سنوات. (٥)

-
- (١) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٣٧ . ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ١٨٥ . الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ص ١٩٧ . ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ١٥٨/٣ .
- (٢) جوزيف نسيم : معركة حطين - خلفياتها ودلالاتها - مجلة عالم الفكر ، العدد الأول سنة ١٩٨٩ م ص ٢٣٥ ، ٢٤٩ . محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ص ١٣٠ ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ٤٥ .
- (٣) الأصفهاني : سنا البرق الشامي ٣٠٩/١ ، الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ص ١٩٨ - ١٩٩ .
- (٤) اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ٤٤٥/٣ ، الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٧٥ . المقدسي : الروضتين في أخبار الدولتين ق ٢ ج ١ ص ٥٠٠ ، المنذرى : التكملة لوفيات النقلة ٣٣٧/١ . ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ١٥٦ ، ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٢٤٨ .
- (٥) ابن الفرات : التاريخ ص ١٦١ ، ١٧٤ . الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار ص ٢٧/١ .

وبقضاء صلاح الدين على الدولة العبيدية واعادته للديار المصرية الى سلطان الخلافة العباسية فسي بفد داد وضع الوجود الحليبي الذي سيطر على أجزاء من بلاد الشام ، بين شقي الرحي ، وقضى على أطماعهم التوسعية في البلاد الاسلامية ، وكانت بداية النهاية للوجود الحليبي في بلاد الشام . (١)

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ ، دب الخلاف بين أبنائه ، وتغيّر الوضع من قتال الحليبيين الى قتال بعضهم بعضا (٢) ، واستغل أعداؤهم ذلك الوضع وعملوا على احتلال بيت المقدس بعد سقوط مدن عكا ودمياط بأيديهم ، ثم سقطت مدن حماه ، وحمص ، وصيدا ، وتمكن الحليبيون من ايجاد مواطنيهم لأقدامهم في البلاد الاسلامية في الشام ، ومصر . (٣)

وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون يهاجمون الثغور الاسلامية في الشام ومصر ، كانت هناك هجمة مماثلة على الوجود الاسلامي بالأندلس ، حيث انه لم تنقطع أطماع الممالك

-
- (١) عبد الله الغامدي : صلاح الدين والحليبيون ص ٢٨٦ ، جوزيف نسيم : دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ٤٣ .
- (٢) محمد فيف الله بطاينة : محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية ص ٢١ . وعن النزاع بين أبناء صلاح الدين : الكامل ، والأشرف ، والمعظم ، راجع :
- ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ١٣٢/٣ . الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ . ابن خلدون : التاريخ ٣٨٣/٥ . ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤١ ، ٤٨ . اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ٥٩/٤ .
- (٣) الحنبلي : شفاء القلوب ص ٤١٦ ، ٤١٩ . ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ١٨٠/٣ . الحريري : الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ص ٦٥ ، ٧٥ ، ٨٩ ، ٩٥ . المقدسي : الذيل على الروضتين ص ١٥٢ . اليافعي : مرآة الجنان ١٠٠/٤ .

النصرانية في الاستيلاء، على البلاد الواقعة تحت حكم المسلمين في الأندلس، وقد قاد تلك الممالك النصرانية مملكتي أرغون، وقشتالة. (١)

أما بلاد الشام، ومصر، فقد ظلت تقاوم الجيوش المليبية التي تجددت أطماعها في تلك النواحي حتى كانت سلطنة المماليك بمصر والشام، حيث استطاعوا - بفضل الله - تطهير بلاد الشام من الوجود الصليبي في سنة ٦٩٠ هـ، وسوف يكون الحديث عن جهودهم في الباب الثالث من هذا البحث ان شاء الله تعالى.

أما الآثار المترتبة على هذه الحملات المليبية، فإنه لا يمكن أن نتصور أي فائدة استفادها العالم الإسلامي من الحروب الصليبية التي استهدفت دينه وعرضه وماله وبلاده، " وكيف يمكن الاستفادة ممن كان أقل ثقافة، وأحط حضارة، فلم يكن الصليبيون يفوقون المسلمين في ثقافة أو غيرها، بالرغم مما أصاب العالم الإسلامي قبيل الحروب الصليبية وأثناءها، وقد كان غنم هذه الحروب للصليبيين، أما غرمها فكان من نصيب المسلمين، وذلك لِمَا حَلَّ ببلا دهم من تدمير وتخريب، وازهاق لأرواح المسلمين، ونهب لأموالهم بدون حساب " . (٢)

١١ - الغزو المغولي :

وهو العامل المباشر الذي أدى إلى سقوط الخلافة العباسية، والمغول قبيلة من القبائل التركية العديدة التي كانت تقيم حول نهر سيحون، وبرز من تلك القبيلة جنكيز خان^(٣)، الذي وحد قبائل المغول، وأقام مملكة واسعة الحدود، وجعل لتلك القبائل

(١) سعد البشري : الدور الفرنسي في الحروب المليبية - مجلة جامعة أم القرى، العدد الرابع، سنة ١٤١١ هـ ص ١٩٢ .

(٢) محمد العروسي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص ١٦٩ .

(٣) السلطان الأعظم، خضعت له قبائل الترك حتى صار يركب في ثمانمائة ألف مقاتل .

(ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/١٢٧) .

نظاما يرجع اليه أفرادها في أحكامهم ومعاملاتهم ، وكانت نظرة جنكيز خان الى من حوله من البلاد نظرة طمع ورغبة في التوسع والسيادة ، وقصد استفاد المغول من تجزئة الخلافة العباسية وما حلّ بالمجتمع الاسلامي من ضعف وتفرق ، وفي حين عجز الملبينيون عن اسقاط الخلافة العباسية ، فان المغول نجحوا فيما عجز عنه الملبينيون .

فمنذ سنة ٦١٤ هـ بدأ جنكيز خان في محاولة تحقيق أطماعه فاجتاح الأقاليم الاسلامية في بلاد ما وراء النهر نواحي سمرقند (١) ، وبخارى (٢) ، فلما ملكها توجه نحو خراسان ، فلما فرغ منها ملكا وقتلا ونهباً وتخريباً ، تجاوزها الى الري ، وهمذان ، حتى وصلوا حدّ العراق ، واستطاع جنكيز خان في سنة واحدة ملك سائر الممالك الآل العراق والجزيرة ومصر ، وقهروا جميع الطوائف التي بتلك النواحي . (٣)

ومما ساعد القائد المغولي على السيطرة السريعة على الأقاليم في المشرق الاسلامي : الخلافات التي نشبت بين حكام تلك الأقاليم ، وما تبعها من معارك متتالية ، فلما جاءت جموع المغول لم تجد مقاومة تذكر ، أوقوة تستطيع ايقات زحفهم باتجاه ديار الاسلام عامة ، وعاصمة الخلافة العباسية على وجه الخصوص ، ويؤكد هذا ابن الأثير بقوله :
 " فما نرى من ملوك الاسلام من له رغبة في الجهاد ، ولا نصره الدين ، بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه ، وظلم رعيتيه ، وهذا أخوف عندي من العدو . . . " . (٤)

-
- (١) بلد معروف مشهور في بلاد ما وراء النهر ، فتحت في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه سنة ٥٥٥ هـ .
 (الحموي : معجم البلدان ٢٤٦/٣) .
 (٢) من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها . كانت قاعدة ملك السامانية .
 (الحموي : معجم البلدان ٣٥٣/١) .
 (٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٥٩/١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٩٢/١٣ .
 (٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٦٥/١٢ .

ومع شدة الخطر الذي أصبح يتهدد المسلمين ويحدق بهم ، " لم يتهياً للملوك أن يتفوقوا ضد هذا العد والشديد المراسن ، بل كانوا فيما بينهم مختلفين، يُغير بعضهم على بعض ، وهم عن عد وهم لاهون غافلون " . (١)

واستطاع المغول أن يزيلوا كل العقبات التي صادفتهم في طريقهم الى بغداد التي دبت الشيخوخة في أوصالها ، ولم تعد هي الخلافة التي عرفها العالم في أيام هارون الرشيد ، فقد انحسر نفوذها في بغداد وما حولها ، وتناول حكام الأقاليم على الخلافة وأعلنوا استقلالهم . (٢)

ثم تقدم جنكيز خان نحو عاصمة الخلافة بغداد واستولى في طريقه على كثير من البلدان ، مثل : تبريز (٣) ، وكنجة (٤) ، فقتلوا أهلها ، ونهبوا ما فيها ، واستأسروا ذراريها .

ولما تواترت الأنباء بمسير قائد المغول نحو بغداد ، انزعج من ذلك الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) ، فحصن بغداد ، واستخدم الأجناد ، وقنت الناس في الملوات يطلبون من الله عزّ وجلّ دفع الأذى عنهم . (٥)

-
- (١) محمد الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية ص ٤٧٩
- (٢) فتحية النبراوي : العلاقات السياسية الاسلامية وصراع القوى الدولية ص ٢٧٤ ، محمد نصر : قضايا العالم الاسلامي ص ٧٩ .
- (٣) من أشهر مدن أذربيجان ، وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة ، مرّ بها التتار سنة ٦١٨ هـ .
- (٤) (الحموي : معجم البلدان ١٣/٢) .
- (٥) مدينة عظيمة بين خوزستان وأصبهان .
- (الحموي : معجم البلدان ٤٨٢/٤) .
- (٥) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/١٠٢ .

وفي تلك الاثناءواجه الخليفة العباسي خطرا يقوده السلطان جلال الدين الخوارزمي الذي انهزم أمام المغول ، فتوجه بجنده نحو أذربيجان حتى وصل الى نواحي العراق ، فحاصر المدن والقرى ، وأعلن جلال الدين عزمه على قتال الخليفة العباسي ، زاعما أنه كان سببا في هلاك والده ، فلما بلغ الخليفة ما عزم عليه جلال الدين زاد من تحصين بغداد ، واستخدم الجيوش والأجناد ، وأنفق الأموال في الناس . (١)

أما عن جيوش المغول ، فقد استمرت تعيث في الأرض فسادا حتى كانت سنة ٦٢٤ هـ ، حيث توفي قائد هم و سلطانهم الأعظم جنكيز خان ، الذي خرب البلاد وأباد الأمم (٢) ، وبموته تراجعت جيوش التتار عن بغداد ، وعادت الى نواحي أذربيجان وأصبهان ، حيث خاضت معارك حاسمة مع السلطان جلال الدين الخوارزمي ، وقد استغل الخليفة العباسي تراجع المغول عن عاصمة ملكه فاهتم بالنواحي العسكرية للدفاع عنها ، و جهّز العساكر نجسدة لصاحب اربل (٣) في قتاله ضد المغول الذين قادهم بعد وفاة جنكيز خان ابنه أوكتاي . (٤)

وبعد هزيمة المغول لجلال الدين الخوارزمي ومقتله سنة ٦٢٨ هـ والقضاء على الدولة الخوارزمية ، تجددت أطماعهم في احتلال العراق (٥) ، وحصل هولاكو خان على

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤٣٥/١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١١٤/١٣ .

(٢) الذهبي : العبر في خبر من غير ١٩٢/٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢٨/١٣ ، الغساني : المسجد المسبوك ص ٣٧٠ ، ابن خلدون : التاريخ ٥٩١/٥ .

(٣) مدينة كبيرة ، وقلعة حصينة ، تعد من أعمال الموصل ، بينهما مسيرة يومين ، أكثر أهلها أكراد قد استعربوا .
(الحموي : معجم البلدان ١٣٨/١) .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٢/١٣ ، الذهبي : العبر في خبر من غير ٢٠٢/٣ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٠/١٣ ، الذهبي : العبر في خبر من غير ٢١٦/٣ .

تفويض من أخيه منكوب بالاستيلاء على البلاد الإسلامية ، وإزالة الخلافة العباسية ،
وبدأت كتابتهم تحوم حول العراق في محاولة لاختبار قوة الخلافة العسكرية ، وكانوا
يعتمدون على أسلوب الكرّ والفرّ ، فإذا وجدوا فرصة اغتتموها ، وعسادوا
محملين بالغنائم التي لا تحصى . (١)

واستمرت تلك المحاولات المغولية حتى كانت سنة ٦٥٦ هـ ، حيث نزلت في شهر
ذي الحجة طلائع المغول على بغداد مقدمة لقائدهم هولوكو بعد استيلائهم على
الموصل . (٢)

وعندما وصل المغول إلى بغداد كان العالم الإسلامي عشيّة غزوهم لبغداد في العقد
الثاني من القرن السابع الهجري مقسما بين قوى متناحرة ، ودولة الخلافة في بغداد قد
تقلص نفوذها بحيث لم يعد في سلطة الخليفة العباسي سوى العراق ، وقد ساعد على
هذا التقلص الانقسام الذي أصاب الخلافة العباسية منذ وقت مبكر ، فقامت في أقاليمها
دويلات تدّين للخلافة العباسية بالولاء الاسمي ، بل إن بعضها أعلن عداوته للخلافة
العباسية ، وعمل على إسقاطها ، ولم يجد المغول جبهة إسلامية موحدة تقف في
وجههم ، فكان ضعف الحكام وانقسامهم على أنفسهم عاملا قويا سهّل للمغول غزو العالم
الإسلامي .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/١٩٤ ، الذهبي : العبر في خبر من غبر

٢/٢١٨ ، ٢٢٢ ، ابن خلدون : التاريخ ٥/٦١٢ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/٢١٠ ، ابن خلدون : التاريخ ٥/٦١٢ ، وانظر :

مأمون جرار : أصداء الغزو المغولي ص ٢١ ، محمد الخفزي بك : محاضرات في

تاريخ الأمم الإسلامية ص ٤٧٠ .

محمد حمادة : وثائق الحروب الملبية ص ٦٧ .

و عن بد ايات ظهور المغول على ديار الاسلام في سنة ٦١٧ هـ ، وما أحابها على
أيد يهم ، فيقول عنه ابن الأثير :

" لقد بقيت عدة سنين معرّضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها ، فأنا
أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن ذا الذي يسهل عليه نعي الاسلام والمسلمين ؟ ومن ذا
الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أُمي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل حد وثهما ،
وكنت نسيا منسيا "

الى أن قال : هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، السّتي
عقمت الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخمت المسلمين ، فلو قال قائل : ان
العالم مُد خلق الله سبحانه وتعالى آدم ، والى الآن ، لم يبتلوا بمثلها لكان مادقا ،
فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها " (١) .

سقوط عاصمة الخلافة العباسية :

كان سقوط بغداد في خلافة عبد الله المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) آخر الخلفاء
العباسيين في بغداد ، الذي كانت تصل اليه أخبار زحف الجيش المغولي على بغداد ،
ومع ذلك لم يتخذ الأهبة لمواجهةهم قبل أن يستفحل خطرهم ، ويستطير شرهم (٢) ،
وعند ما نُبه الى ما ينبغي فعله في أمر المغول اما تجيش العساكر لقتالهم قبل تمكنهم من
الاستيلاء على بغداد ، واما مداراتهم ، كان يقول : " أنا تكفيني بغداد ولا يستكثرونها
عليّ اذا تنازلت لهم عن باقي البلاد ، ولا يهجمون عليّ وأنا بها ، وهي بيتي ودار مقامي " ،
فهذه الخيالات الفاسدة وأمثالها عدلت به عن الصواب فأصيب بمكاره لم تخطر بباله ، فقد
تقدم هولاكو قاصدا بغداد " (٣) .

-
- (١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٥٨/١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٣/١٣ .
(٢) عماد الدين عبد الرؤوف : الدولة الاسلامية المستقلة في الشرق ص ٢٧٢ .
السامرائي : تاريخ الدولة العربية الاسلامية ص ٣٥١ .
(٣) الصديقي : تاريخ دول الاسلام ٢٠٠/١ . عبد الله الغامدي : جهاد المماليك
ضد المغول ص ٥١ ، ٥٣ .

وعندما تقدم هولاء نحو بغداد كتب الى الخليفة العباسي المستعصم يهدده

بأخذ بغداد ، فكان رد الخليفة على ذلك :

" لا ضير على الأسرة العباسية ، اذ أن ملوك الأرض هم بمثابة الجنود لي ، وهم منقادون مطيعون لأمرى ونهبي ، فأدعوهم من كل قطر . . . " الى أن قال عن هولاء كوجند :
"فانهم رغم كونهم أرباب دولة ، وأصحاب شوكة ، الا أنهم لا يملكون سوى الهوس في رؤوسهم ، والريح في أكفهم " . (١)

وما هي الا مدة قصيرة حتى أحاطت جيوش المغول ببغداد لضعف القوة العسكرية بها ، فقد كانت في غاية القلة ، ونهاية الذلة ، لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم وبقية الجيش قد صرفوا عن اقطاعاتهم ، حتى استعطى كثير منهم في الأسواق ، وأبواب المساجد . (٢)

يضاف الى ذلك أن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي (٣) الراضي ، اقترح على الخليفة العباسي أن يقتصر على بعض العساكر ، فصرف الخليفة أكثرهم (٤) ، ويعسد أن كان جيش الخلافة في أيام الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) قريبا من مائة ألف لم يزل ابن العلقمي يجتهد في تقليلهم حتى لم يبق سوى عشرة آلاف . (٥)

-
- (١) الهمذاني : جامع التواريخ ٢٧٣/١ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٥
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٤/١٣ .
(٣) محمد بن محمد مؤيد الدين ابن العلقمي ، تولى الوزارة للخليفة العباسي المستعصم بالله فأهلك الحرث والنسل ، وأساء ادارة الدولة ، وانتشر الرفض في مدة وزارته . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٦٢/٢٣) .
(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٧٥/٢٣ .
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٥/١٣ .

ومع تناقص عدد جيش الخلافة العباسية ، وقلّة عتاده ، فإن الصلّة بينه وبين الخليفة العباسي كانت مقطوعة ، وذلك بسبب قطع الخليفة لأرزاقهم ، وكان **بيحيدر** بالخليفة العباسي والخلافة تمر بهذه الظروف العميقة أن يتألف هؤلاء الجنود ، ويتفقد أحوالهم ، ويجري عليهم أرزاقهم التي قطعت عنهم .

وقد حاول هذا الجيش على قدر رطاقته الدفاع عن بغداد ، وتم اعداد خطة عسكرية تقوم على أساس مواجهة المغول والتمددى لهم قبل دخولهم بغداد ، بينما تبقى مجموعة أخرى منهم داخل بغداد لحراستها ، ولكن مجريات الأمور لم تكن في صالح هذا الجيش ، فقد انهزمت المجموعة المكلفة بقتال المغول خارج بغداد ، وهلك أكثر أفرادها ، ومن سلم منهم لجأ الى بغداد للاحتباء خلف أسوارها . (١)

ولما قضى هولاء على القوة المدافعة عن بغداد تقدم لحمارها بجيشه الذي بلغ قرابة مائتي ألف مقاتل ، فكان أول من برز اليه الوزير ابن العلقمي الذي خرج بأهله وأصحابه وخدمه . فاجتمع بهولاء ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج لملاقاة هولاء ، والمثول بين يديه لتقع المصالحة بينهما ، على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة ، فخرج الخليفة في سبعمائة من القضاة والفقهائـاء ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان ، فلما اقتربوا من مقر هولاء حُجِبوا عن الخليفة الآ سبعة عشر نفساً ، فخلص الخليفة بهم الى هولاء ، وأنزل الباقون عن مركبهم فقتلوا عن آخرهم .

(١) سعد الغامدي : سقوط الدولة العباسية ص ٢٢٣ ، ٢٢٩ .
محمد الخضري بك : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ص ٤٨٢ .

وبعد مقابلة الخليفة لهولا كو رجع الى دار الخلافة ، وفي أثناء ذلك أشار الملأ من الرافضة وغيرهم على هولا كو أن لا يصالح الخليفة ، وقال له ابن العلقمي : متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا الا عاما أو عامين ، ثم يعود الأمر الى ما كان عليه قبل ذلك ، وحسن له قتل الخليفة . فلما رجع المستعصم بالله ثانية لمقابلة هولا كو أمر بقتله فقتل ، وقتل معه سادات العلماء والأمراء ، وأولى الحلّ والعقد (١) ، و ذكر أن ابن العلقمي حسن لهولا كو أن يقيم خليفة فاطميا في بغداد ، فلم يتم له ذلك واطرحه المغول ، وبقي معهم على صورة بعض الغلمان ، فمات بعد قريب كمدا وندما . (٢)

عبث المغول في بغداد :

بعد مقتل الخليفة ورجال دولته ، مال المغول على أهل البلد فقتلوا جميع من قد روا عليه من الرجال والنساء والولدان ، فسالت الدماء جارية في المساجد والجوامع والأزقة ، وعادت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلها ، كأنها خراب ، ليس فيها الا القليل من الناس ، واختلف في عدد من قتل من المسلمين في هذه الواقعة ، ف قيل : ثمانمائة ألف ، وقيل : ألف وثمانمائة ألف ، وقيل : ألفي ألف نفس ، وذلك نتيجة لاعمال المغول السيف في أهل بغداد قرابة أربعين يوما ، بقيت بغداد بعدها

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ٨٥/١ ، الهمذاني : جامع التواريخ ٢٩٤/١ - ٢٩٥ الأربلي : خلاصة الذهب المسبوك ص ٢٩١ ، الذهبي : العبر ٢٧٨/٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٣/١٣ . الغساني : العسجد المسبوك ص ٦٣٠ ، الحريري : الاعلام والتبيين ص ٩٧ . الذهبي : سير اعلام النبلاء ١٢٤/٢٣ ، المفدى : الوافي بالوفيات ١١٤/١ .

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ٩١/١ ، الذهبي : سير اعلام النبلاء ٣٦١/٢٣ الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار ٢٩/١ .

خاوية على عروشها ، ليس بها الا الشاذ من الناس ، و القتلى في الطرقات كأنها التلؤلؤ ،
ولما رحل هولاء عن بغداد نودى بالأمان ، فخرج من تحت الأرض ممن كان متخفياً
كأنهم الموتى ، وقد أنكر بعضهم بعضاً ، فلا يعرف الوالد ولده ، والأخ لا يعرف أخاه ،
وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى . (١)

وبعد سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية في أيدي المغول ، يجدر الإشارة
الى بعض الأطراف التي ساعدت المغول في تلك المهمة ، فمن داخل الخلافة العباسية
وجد الرافضة وفي مقدمتهم الوزير ابن العلقمي ، والوزير نصير الدين الطوسي ، وغيرهما
كانوا في خدمة هولاء قبل دخوله بغداد ، وفي أثناء حصاره لها قاموا بإرسال الرسل
اليه يعلنون ولاءهم التام له ، ويطلبون منه أن يبعث اليهم حاكماً مغولياً من
قَبَلِهِ !!!

ومن خارج بغداد وجد هولاء كالمساعدة من بعض الحكام في المشرق الاسلامي
الذين عجزوا عن مواجهة المغول ، فسارعوا الى مداراتهم وكسب رضاهم ، ليحفظوا
ملكهم من الوقوع في أيدي المغول ، ومن هؤلاء الحكام والأمراء :

أ - حاكم كرمان الذي أعلن خضوعه لسلطان المغول ، وعمل في خدمتهم
عينا لهم ، ناقلاً لهم مجريات الأمور في النواحي القريبة منه باتجاه عاصمة
الخلافة العباسية بغداد .

ب - حاكم فارس الذي أعلن ولاءه لهؤلاء هولاء ، وقدم له فروض الطاعة والاحترام ،
وأرسل اليه الهدايا ، وشارك عسكرياً في حملات المغول ضد السلاجقة ،
وبعد سقوط بغداد سار بنفسه الى هولاء كوضد الخليفة العباسي
المستعصم بالله . (٢)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٦/١٣ ، الذهبي : العبر في خبر من

غبر ٢٧٨/٣ .

(٢) سعد الغامدي : سقوط الخلافة العباسية ٣٣٠ .

ج - حاكم الموصل الذي أعلن خضوعه لهولاكو ، وأمر بتزويد الجيوش المغولية بما تحتاجه من مؤن وعتاد وهي في طريقها قاصدة بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وبعد سقوطها سار بنفسه الى هولاكو حاملا معه الهدايا والتحف . (١)

وهكذا لم يكن سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية بسبب عامل واحد ، وإنما لمجموعة من العوامل ، أدت مجتمعة الى انهاء الخلافة العباسية فسي بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ووضعت مقاليد الأمور بيد أقوام غير مسلمين ، وفقدت السلطة الاسلامية التي ظلت سائدة طوال الخلافة العباسية . (٢)

(١) سعد الغامدي : سقوط الخلافة العباسية ص ٣٣١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ .

عبد الله الغامدي : جهاد المماليك ضد المغول ص ٦٥ ، ٨٠ .

(٢) صالح العلي : بغداد مدينة السلام ص ٩ . عباس الصالح : استيلاء المغول على

بغداد - مجلة الرسالة - العدد ٤٦ ، ص ٨٥٥ . طه ندا : فصول من تاريخ

الحضارة الاسلامية ص ١٢٢ . محمود شاكر : التاريخ الاسلامي ٢٥٥/٦ .

حال العالم الاسلامي بعد سقوط بغداد :

كانت الخلافة العباسية ببغداد تجمع عقد الأقاليم الاسلامية التي تخضع لسلطان الخلافة ، فلما زالت الخلافة أمام الوهن بقية الأقاليم ، وقد كانت عاصمة الخلافة ببغداد لتلك النواحي والأقاليم بمثابة الرأس من الجسد ، فلما قطع ذلك الرأس انعدمت الحياة في سائر الأجزاء ، فبعد سقوط بغداد بأيدي المغول ضعفت قوة المسلمين المعنوية والعسكرية (١) ، فزادت تلك الحادثة من سوء أحوال الدولة الاسلامية بشكل عام ، وفي العراق والشام على وجه الخصوص .

وفيما يلي أشير الى أوضاع كل من العراق والشام بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، وذلك لأنهما تحملا أذى المغول وظلمهم ، ووقع على عاتقهم عبء مقارعتهم ، ومحاولة مدحهم عما بقي من ديار الاسلام بعد سقوط بغداد .

أ - فأما بلاد العراق ، فبعد أن كانت حاضرة بلاد المسلمين وبها عاصمة الخلافة العباسية ، فقد استولى المغول عليها ، ويطوا سلطانهم فيها ، وأصبحت بلاد العراق منطلقاً لجيوش المغول الذين أخذوا يعدون العدة للاستيلاء على بلاد الشام ، والديار المصرية .

وجعل المغول من بلاد العراق قاعدة لجيوشهم التي تتابعت حملاتها قاعدة احتلال الشام ومصر ، حتى كانت المعركة الفاعلة في عين جالوت في سنة ٦٥٨ هـ ، حيث انحر بعد هذا التواجد المغولي في العراق وفارس ، وتراجعوا بعض الشيء عن مهاجمة بلاد الشام ، " وعملوا على تثبيت دعائم ملكهم في نواحي العراق وفارس بأعمالهم السيف في أهلها ، وأخافوهم ، وأخربوا مدنها " . (٢)

(١) مأمون فريز جزار : أمداء الغزو المغولي ص ٢٨ ، محمد الخضير بك : محاضرات

في تاريخ الأمم الاسلامية ص ٤٨٣ .

(٢) محمود شاعر : التاريخ الاسلامي ٦/٢٣٢ ، علي شاعر علي : تاريخ العراق في العهد العثماني ص ١٩

(٣) الذهبي : العبر في خبر من غير ٣/٢٩٧

وقد ساعد على ذلك الانحسار أيضا ، اسلام عدد كبير من المغول وكفهم أذاهم عن المسلمين ، يضاف الى ذلك الخلافات التي وقعت بين قادة المغول وقاتل بعضهم بعضا (١) ، ثم وفاة هولاكو خان ملك العراقيين وخراسان ، ومقدم التتار الى النار الذي أباد العباد والبلاد ، ومات على كفره في سنة ٦٦٤ هـ . (٢)

ب - أما بلاد الشام فبدأت استعدادات هولاكو لأخذها في مستهل سنة ٦٥٧ هـ ، فقد أرسل هولاكو الى صاحب دمشق وحلب الملك الناصر يوسف يستدعيه اليه ، فأرسل اليه الناصر ولده العزيز وهو صغير السن ، ومعه هدايا كثيرة وتحف ، فلم يحتفل به هولاكو ، بل غضب على أبيه ، اذ لم يقبل اليه ، وأخذ ابنه وقال : أنا أسير الى بلاد بنفسي ، فانزعج الناصر لذلك ، وبعث بأهله الى الكرك (٣) ليحمنهم بها وخاف أهل دمشق خوفا شديدا . (٤)

ثم سار هولاكو بجنوده قاصدا الشام ، فنزل على فارقيين ، فلما امتنعت عليه أرسل اليها ولده أشموط فدخلها قسرا بعد حصارها وقتل ملكها الكامل بن غازي بن العادل . (٥)
وقد رافق سير هولاكو الى بلاد الشام النزاع الذي وقع بين الناصر يوسف صاحب دمشق ، وبين الملك المغيث صاحب الكرك ، فتواترت أخبار زحف المغول وأهل الشام في صراع فيما بينهم حتى طردهم المغول .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٢٢/٧ ، الذهبي : العبر في خبر من غير ٣٠١/٣

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣١/١٣ ، الذهبي : العبر في خبر من غير ٣١١/٣ .

(٣) الكرك : كلمة أعجمية ، وهي اسم لقلعة حصينة جدا في طرف الشام ، وهي على سن

جبل عال ، تحيط بها الأودية .

(٤) (الحموي : معجم البلدان ٤٥٣/٤) .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٨/١٣ .

(٥) المصدر السابق . ٢٢٨ / ١٣ .

ففي الثاني من شهر صفر سنة ٦٥٨ هـ وصل المغول الى حلب فحاصروها سبعة أيام ، ثم دخلوها بالأمان ، فغدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقا لا يعلمهم الا الله عز وجل ، ونهبوا الأموال ، وسبوا النساء والأطفال ، وجرى على أهل حلب قريبا مما جرى على أهل بغداد وجاس المغول خلال الديار ، ولما فتحت حلب توجه الجيش المغولي الى حماه التي أرسل صاحبها بمفاتيحها الى هولاكو ، فاستناب عليها رجلا من العجم ، فخرّب أسوارها مثل مدينة حلب . (١)

ثم أرسل هولاكو جيشه الى دمشق (٢) في آخر شهر صفر من سنة ٦٥٨ هـ ، فأخذوها سريعا من غير ممانعة ولا مدافعة ، بل تلقاهم كبارهم بالرحب والسعة ، وكتب هولاكو أمانا لأهل البلد ، فقرىء ونُودي به في الناس ، فأمنوا على وجل من الغدر ، وأما قلعة دمشق فقد عجز الجيش المغولي عن الاستيلاء عليها مع ما أحابها من خراب من جراء رميهم لها ، حتى تداعت للسقوط ، عند ذلك أجابهم متولي القلعة ومالحمهم ، فلما فتحوها قتلوه وخرّبوا ما بقي منها ، ثم تسلم المدينة أمير من أمراء المغول يقال له أبل سيان ، وكان مُعظما لدين النصارى ، فاجتمع بالنصارى بها وزار كنائسهم ، فصارت لنصارى دمشق دولة ومولة بسببه . (٣)

وذ هبت طائفة من النصارى الى هولاكو وأخذوا معهم هدايا وتحفا ، فلما رجعوا من عنده أعطاهم كتاب أمان من جهته ، فدخلوا دمشق ومعهم صليب يحملونه وهم ينادون :

(١) الذهبي : العبر في خبر من غير ٢/٢٨٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/٢٣١ - ٢٣٢ . ابن خلدون : التاريخ ٥/٤٢٦ . اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ٤/١٤٨ .

(٢) البلدة المشهورة بالشام ، سميت بذلك لأنهم دمشقوا في بنائها أي أسرعوا ، فتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٤ هـ بعد حصار ومنازلة على يد قادة الفتوحات الاسلامية الذين حاصروها وهم : أبو عبيدة ، و خالد بن الوليد ، و شرحبيل بن حسنة ، و يزيد بن أبي سفيان . (الحمصوي : معجم البلدان ٢/٤٦٥) .

(٣) الذهبي : العبر في خبر من غير ٣/٢٨٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣/٢٣٢ .

ظهر الدين الصحيح دين المسيح ، ويذمون دين الاسلام وأهله ، ومعهم أواني فيها خمر لا يمرون على باب الارشوا عنده ، ورشوا منها على وجوه الناس وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به في الطرقات والأسواق أن يقوم لجليبهم ، وعند ما اجتمع قضاة المسلمين وفقهاؤهم ، وتوجهوا الى متسلمها أبل سيان يشكون اليه هذا الحال أهانهم وطردهم . (١)

انتصار المسلمين في عين جالوت :

هياً الله عز وجل المظفر قطز الذي بلغه ما فعله التتار والنصارى ببلاد الشام ، وأنهم نهبوا البلاد ، ووصلوا الى غزة ، وفي عزمهم دخول مصر بعد أن تمهد لهم ملك الشام ، فبادرهم المظفر قطز قبل أن يبادروه ، وبرز اليهم ، وقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه ، فخرج في عساكره ، وقد اجتمعت الكلمة عليه ، وسار حتى انتهى الى الشام ، واستيقظ له عسكر المغول وعليهم كتبغانوين ، فساروا اليه وسار اليهم ، فكان اجتماعهم على عين جالوت (٢) في يوم الجمعة ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، فاقتتلوا قتالا عظيما ، فكانت النصره ولله الحمد للاسلام وأهله ، وهُزم المغول هزيمة هائلة ، وقتل كتبغانوين وجماعة من أهل بيته . (٣)

وأخذ الجيش الاسلامي يتتبع فلول المغول يقتلونهم في كل موضع ، وسارت جماعة بقيادة بيبرس البندقدارى (٤) خلف المغول الى أن وصلوا حلب ، وهرب من كان بدمشق من المغول

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٣/١٣ ، الذهبي : العبر في خبر من غير ٢٨٨/٣ .

(٢) اسم أعجمي ، وهي بليدة بين بيسان ونابلس ، من أعمال فلسطين ، كان الروم قد استولوا عليها مدة ثم استنقذها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٧٩ هـ .
(الحموى : معجم البلدان ١٧٧/٤) .

(٣) الذهبي : العبر في خبر من غير ٢٨٨/٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية

٢٣٣/١٣ ، ابن خلدون : التاريخ ٤٣٦/٥ - ٤٣٧ .

(٤) بيبرس البندقدارى : الأسد الفارى ، كان رجلا صالحا ، تولى ملك الشام بعد

مقتل المظفر قطز .

(ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٥/١٣) .

فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون منهم ، وَيَسْتَفْكُونُ الأَسَارَى من أيديهم ، وجاءت بذلك البشارة ولله الحمد على جبره اياهم بلطفه ، فجأوبتها دق البشائر من القلعة ، وفرح المؤمنون بنصر الله فرحا شديدا ، وأيد الله الاسلام وأهله تأييدا ، وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين ، وظهر دين الله وهم كارهمون . (١)

ثم مال المسلمون الى من وقف بجانب المغول وخاصة النصارى والرافضة الذين مالتوا المغول ضد المسلمين ، وقتل المسلمون جماعة من المنافقين ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين . (٢)

أما المظفر قطز (٣) ، فبعد كسره للمغول توجه الى دمشق فدخلها في أبهة عظيمة وفرح به الناس فرحا شديدا ، ودعوا له دعاء كثيرا ، ثم أخذ بعد استقراره في دمشق في تمهيد الأمور بها ، وعيّن أمراء لكل من حلب ، وحمص ، وحمص ، بعد أن طهرها من الوجود المغولي ، وعادت لحكم المسلمين ، فلما فرغ من ذلك رجع المظفر قطز الى الديار المصرية والعساكر الاسلامية في خدمته ، وعيون الأعيان تنظر اليه شزرا من شدة هيئته . (٤)

وهكذا كان يوم موقعة عين جالوت يوما عظيما في تاريخ الاسلام ، وذلك لأن السيل المغولي أصبح ينذر باقتحام المشرق الى المغرب ، فباجتياح التتار لمصر ربما اجتاحتها

-
- (١) الذهبي : العبر في خبر من غير ٢٨٨/٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٤/١٣ .
- (٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٤/١٣ ، ابن خلدون ٤٣٧/٥ .
- (٣) الملك المظفر قطز بن عبد الله التركي ، لما سمع بأمر التتار خاف من شرهم على المسلمين لضعف ابن استاذة المنصور بن علي التركماني ، فعزل المنصور ودعا الى نفسه ، وبويع في سنة ٦٥٧ هـ ، وسار لقتال التتار ، فجعل الله نصرته الاسلام على يديه
- (ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٨/١٣) .
- (٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٥/١٣ .

بلاد المغرب ، والأندلس ، وأروبا ، ولانهارت صروح المدنية كلها من شرقية أوغربية . (١)

أهم الآثار الناتجة عن معركة عين جالوت :

١ - ظهور الجيش المملوكي كجيش قوى ، وهو الذى لم يسبق له خوض تجربة عسكرية مثل عين جالوت ، وقد استطاع - بفضل الله - مع قلة تجربته ، الانتصار على جيش المغول الذى اجتاح بلاد المشرق الاسلامي ، وأصبح يهدد الشام ومصر ، وبذلك انهارت الخرافة القائلة بأن المغول قوم لا يغالون .
وكان لهذه المعركة الأثر المعنوي في رفع المخاوف وازالة الرعب من المغول في نفوس المسلمين . (٢)

٢ - انحسار المد المغولي ، وتراجع خطره على العالم الاسلامي ، فقد أوقفت هذه المعركة ذلك المد المغولي الهمجى ، الذى اجتاح العالم الاسلامي ، وكاد أن يقضي على آخر المعاقل الاسلامية في البلاد الشامية والديار المصرية . (٣)

٣ - حاول المغول بعد هذه الهزيمة استعادة مجدهم ورد اعتبارهم ، وارجاع سمعتهم الحربية ، وهيمنتهم العسكرية على البلاد التي وصلوا اليها في زحفهم نحو

(١) محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ص ١٦٨ ، محمود شاكر : التاريخ الاسلامي ٣١/٧ ، علي الخربوطلي : مصر العربية الاسلامية ص ٢٨٩ ، عماد الدين خليل : دراسات تاريخية ص ٧٢ .

(٢) علي الخربوطلي : مصر العربية الاسلامية منذ الفتح العربي الى الفتح العثماني ص ٢٨٩ ، راجحة على غالب : معركة عين جالوت - مجلة المورد - العدد الثالث ، سنة ١٩٨١ م ص ١٦٩ ، والعدد الرابع ، سنة ١٩٨١ م ص

(٣) محمد ظاهر : معركة عين جالوت ص ٣٧٩ - ٣٨١ ، فتحية النبراوى : العلاقات السياسية الاسلامية ص ٢٨٤ .

بلاد الاسلام ، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل ، وذلك بسبب عجزهم عن

تحقيق أى انتصار عسكري على الجيوش المملوكية . (١)

٤ - أحس السلاطين المماليك بالخطر المغولي على بلاد الاسلام ، فاجتهدوا في

تقوية نفوذهم داخل دولتهم ، مع الاستعداد العسكري لصد أى عدوان

مغولي محتمل .

٥ - تزعم سلطنة المماليك للعالم الاسلامي بعد تلك المعركة الحاسمة

وأعلنها قيام الخلافة العباسية في مصر ، ومبايعة أول خلفائها

بالخلافة (٢) ، فبعد مقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله ، غربت

شمس الخلافة العباسية في بغداد لتشرق مرة أخرى في سماء القاهرة ،

فسدت بذلك الفراغ الكبير الذى شعر به المسلمون بعد سقوط

الخلافة في بغداد . (٣)

(١) علي الخربوطلي : مصر العربية الاسلامية ص ٢٩١ .

(٢) محمد ظاهر : معركة عين جالوت ص ٣٨٢ .

(٣) علي الخربوطلي : غروب شمس الخلافة ص ١٣٩ .

الفصل الثاني

قيام الخلافة العباسية

في مصر

المبحث الأول

مكانة الخلافة في الإسلام

الخلافة في الاسلام مسئولية عظيمة ، ومنصب كبير له أهمية بالغة في الدولة
الاسلامية ، وما ذلك الا لما تحمله الخليفة من القيام بتدبير أمور المسلمين ، الذين
أصبحوا أمانة في عنقه يسأل عنها يوم القيامة ، أحفظها أم ضيعها .

والخلافة^(١) هي حظيرة الاسلام ، ومحيط دائرته ، ومربع رعاياه ، ومرتع سائمته ،
بها يحفظ الدين ويحمى ، وتمان بيضة^(٢) الاسلام ، وتسكن الدهما^(٣) ، وتقوام
الحدود ، فتمنع المحارم عن الانتهاك ، وتحفظ الفروج ، فتمان الأنساب عن الاختلاط
والاشتباك ، وتحصن الثغور فلا تطرق ، ويذاد عن الحرم فلا تفرغ^(٤) ، ولما كانت الخلافة
من النبوة ، كان لها من جلالة القدر ، وفخامة الأمر ، أعلاها مراتب ، وأشرفها مراتب ، وهي
من أس الأعمال ، وقوانين الأفعال .^(٥)

-
- (١) الخليفة : السلطان الأعظم ، يكون بمعنى فاعل ، لأنه خلف من قبله أي جاء بعده ،
ويكون بمعنى مفعول ، لأن الله تعالى جعله خليفة ، أو لأنه جاء به بعد غيره .
(الفيومي : المصباح المنير ١٩١) .
- (٢) المراد بالبيضة هنا : الحوزة ، بمعنى بيضة القوم أي ساحتهم .
(الرازي : مختار الصحاح ٨٥) .
- (٣) المراد بهم عامة الناس ومن يميل الى اشاعة الفتن والاضطراب .
راجع : (الرازي : مختار الصحاح ٢٣٣) .
- (٤) القلقشندی : مآثر الأنافة في معالم الخلافة ٢/١ .
- (٥) الصابي ، رسوم دار الخلافة ٥ .

ونصب الخليفة أو الامام واجب ، قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله :

" الفتنة اذا لم يكن امام يقوم بأمر الناس ... " . (١)

والوجه في وجوب نصب الخليفة أو الامام ، أن المحابة رضي الله عنهم لما اختلفوا

في الرأي في السقيفة (٢) بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ،

قالت الأنصار : منا أمير ، ومنكم أمير ، ودفعهم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب

رضي الله عنهما وقالوا :

ان العرب لا تدين الا لهذا الحي من قريش ، ورووا في ذلك أحاديث وأخبارا عن

النبي صلى الله عليه وسلم . فلولا أن الامامة واجبة لما ساغت تلك المحاوراة والمناظرة عليها،

ولقال قائل : ليست بواجبة لا في قريش ولا في غيرهم .

والخلافة فرض على الكفاية مخاطب بها طائفتان من الناس :

أحدهما : أهل الاجتهاد حتى يختاروا .

الثانية : من يوجد فيه شرائط الامامة حتى ينتصب أحد هم للامامة .

أما الاختيار فيعتبر فيهم ثلاثة شروط :

أحدها : العدالة .

الثاني : العلم الذي يتوصل به الى معرفة من يستحق الامامة .

الثالث : أن يكون من أهل الرأي والتدبير المؤدبين الى اختيار من هو الأصلح للامامة .

فأما أهل الامامة فيعتبر فيهم أربع شروط :

أحدها : أن يكون قريشياً .

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ٣ .

(٢) هي سقيفة بني ساعدة التي اجتمع بها المهاجرون والأنصار بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

وفسرها تم اختيار الصديق للخلافة .

الثاني : أن يكون على صفة من يصلح أن يكون قاضيا ، فيشترط فيه الحرية ، والبسوغ ،
والعقل ، والعلم ، والعدالة .

الثالث : أن يكون قيما بأمر الحرب والسياسة ، واقامة الحدود ، لا تلحقه رافة في ذلك ،
ويقوم بالذب (١) عن الأمة .

الرابع : أن يكون من أفضلهم في العلم والدين .

ومصلحة الأمة الاسلامية تقتضي وجود الامام الذي يقوم بالحقوق الواجبة عليه
شرعا ، وهي :

- ١ - حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة ، فان زاغ ذ وشبهة عنه بين له
الحجة ، وأوضح له الصواب ، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ، ليكون الدين
محروسا من الخلل ، والأمة ممنوعة من الزلل .
- ٢ - تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين ، وقطع الخصام بينهم ، حتى تظهر النصفية ،
فلا يعتدى ظالم ، ولا يضعف مظلوم .
- ٣ - حماية البيضة ، والذب عن الحوزة ، ليتصرف الناس في المعاش ، وينتشروا فسي
الأسفار آمنين .
- ٤ - اقامة الحدود لتحصن محارم الله تعالى عن الانتهاك ، وتحفظ حقوق عباده من اتلاف
أواستهلاك .
- ٥ - تحميم الثغور بالعدة المانعة ، والقوة الدافعة ، حتى لا تظفر الأعداء بغزوة
ينتهكون بها محرما ، أو ينفكون فيها دم لمسلم أو معاهد .
- ٦ - جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة ، حتى يسلم أو يدخل في الذمة .
- ٧ - جباية الفية والمدقات على ما أوجبه الشرع من غير عسف .

(١) بمعنى الحماية والمدافعة . (الفيومى : المصباح المنير ٢٢٠) .

٨ - تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقصير فيه ، ودفعه فسي

وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

٩ - استكفاء الأمناء ، وتقليد النمحاء فيما يفوضه اليهم من الأعمال ، ويكله اليهم من

الأموال ، لتكون الأعمال مضبوطة ، والأموال محفوظة .

١٠ - أن يباشر بنفسه مشاركة الأمور ، وتحفح الأحوال ليهتم بسياسة الأمة ، وحراسة

الملة ، ولا يعوّل على التفويض تشاغلا بلذة ، أو عبادة ، فقد يخون الأميين ،

ويغش الناصح . (١)

قال تعالى : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ

الْهَوَىٰ ۖ ۝ (الآية : ٢٦ سورة ص) .

فلم يقتصر سبحانه على التفويض دون المباشرة ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (كَلِّمُكُمْ

رَاعٍ ، وَكَلِّمُكُمْ مُسْئِلٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ۝) الحديث . فاذا قام الامام بحقوق الأمة وجب له عليهم

حقان : الطاعة ، والنصرة . (٢)

وطاعة أولي الأمر واجبة في غير معصية الله تعالى ، قال عز من قائل : (يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۝) (الآية : ٥٩ سورة النساء)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ : مَا لَمْ يُؤْمَرْ

بِمَعْصِيَةٍ ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ) . (٣)

ومما تقدم تظهر أهمية نصب خليفة أو امام على المسلمين ، يسمع له ويطاع ، ولتجتمع

به كلمة المسلمين ، وتنفذ به أحكام الدين الاسلامي ، ويكون اختياره بواحد من أمور أربعة

تنعقد بها الامامة :

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ١١ - ١٢ .

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية ١٢ .

(٣) صحيح البخاري ، حديث رقم ٧١٤٤ كتاب الأحكام ، وصحيح مسلم ، حديث رقم

١٨٢٩ كتاب الأمانة .

- ١ - النص عليه ، فلونص على أن فلانا هو الامام فانها تنعقد له بذلك ، وقال بعض العلماء : أن امامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه من هذا القبيل .
- ٢ - اتفاق أهل الحل والعقد على بيعته .
- ٣ - أن يعهد اليه الخليفة الذي قبله ، كما وقع من أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ومنه جعل عمر رضي الله عنه الخلافة شورى بين ستة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذين مات وهو عنهم راض .
- ٤ - أن يتغلب على الناس بسيفه ، وينزع الخلافة بالقوة حتى يستتب له الأمر ، وتدين له الناس . (١)

(١) محمد الأمين الشنقيطي : أضواء البيان ١٢٥/٢ .

مكانة الخلافة تاريخيا :

مهم

حرص الولاة والأمرء على الأقاليم الإسلامية على كسب ودّ الخليفة وطاعته والقيام بخدمته ، والسمع له ، وتنفيذ أوامره ، والتشاور معه فيما يهم المصلحة العامة لدولة الإسلام ، والأمثلة على ذلك كثيرة في عصور الخلفاء الراشدين ، ثم خلفاء بني أمية ، ثم بني العباس ، وما ذلك إلا لأهمية الخلافة في الدولة الإسلامية .

وبلغ الأمر ببعض الولاة والأمرء إلى محاولة نقل الخلافة العباسية من العراق إلى المناطق التي يحكمونها ، وكانت محاولات اجتذاب الخلافة تلك لانفناء الشرعية على حكمهم ، ولحسب تأييد من حولهم ممن يدخل في طاعتهم ، وتقوية نفوذهم ، وزيادة سلطانهم ، ولما في ذلك من التشريف والجاه باقامة الخليفة في ذلك الإقليم الذي أصبح حاكمه يستظلل بهيبة الخلافة ، ويستند في شرعية حكمه لوجود الخليفة العباسي بجواره .

وقد بدأت محاولات اجتذاب الخليفة العباسي إلى خارج بغداد مبكرا ، وذلك بسبب ما لقيه الخليفة من ظلم وتسلط عليه وعلى خلفائه ، الأمر الذي دفع بعض أولئك الخلفاء للبحث عن عاصمة جديدة للخلافة ، ومقر يستقر فيه الخليفة يتحقق له ما فقد من أمن واستقرار في بغداد .

وأول من حاول نقل الخلافة العباسية من بغداد الخليفة المعتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) الذي سار إلى دمشق في سنة ٢٤٣ هـ ، وعزم على اتخاذها عاصمة له ، وأمر بنقل الدواوين إليها^(١) ، بعد ما اشتد تحكّم القادة العسكريين الأتراك بالخلافة العباسية في بغداد^(٢) ، وكان وقع تلك المحاولة شديدا على أهل العراق " الذين تأسفوا

(١) ابن الجوزي : المنتظم ٣٠٥/١١ ، ٢٢٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣٥٩/١١ .

(٢) نادبة مقر : مطلع العصر العباسي الثاني ٦٦ ، عبد السلام الترماني : أحداث

على ذهاب الخليفة من بين أظهرهم " (١) ، وهذا يبين الحالة النفسية التي كان عليها سكان بغداد ، وذلك لأنهم يرون الخليفة أصبح ضعيفا أمام أولئك المستبدين بالخلافة ، فكيف تكون حالهم بعد رحيل الخليفة وانتقال عاصمة الخلافة الى دمشق ؟ .

أما أول من حاول من الولاة اجتذاب الخلافة العباسية الى مقر ولايته فهو أحمد بن طولون (٢) ، فبعد أن أصبح الخلفاء تحت تسلط القادة الأتراك ، وغدا وما بين مخلوع من الخلافة ، أو مسمول ، أو مقتول ، نظر اليهم بعض الولاة نظرة شفقة ورحمة .

وقد حاول ابن طولون اجتذاب الخلافة العباسية عند ما استنجد به الخليفة العباسي المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) ضد أخيه الموفق بالله ، فقد اشتد الخلاف بين الأخوين بسبب سوء تصرفات المعتمد على الله ، فحجر عليه الموفق بالله ، ووكل به من يراقبه ، ومنعه من النزول من دار الخلافة ، ومنع الناس من الدخول اليه ، فكتب أحمد بن طولون الى المعتمد على الله يطلب منه القدوم الى مصر ، فخرج من سامراء على وجه التسنزه ، وقصد التوجه الى ابن طولون ، وذلك بعد ما رأى الخليفة المعتمد على الله أن أخاه الموفق بالله قد استحوذ على أمور الخلافة ، وصار هو الحاكم الأمر الناهي ، واليه تجلسب وتحمل الهدايا والأموال ، وهو الذي يولي ويعزل ، ووعد ابن طولون النصر والقيام معه . (٣)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٥٩/١١ .

(٢) أبو العباس أحمد بن طولون ، أمير الديار المصرية ، ملك دمشق والسواصم والثغور مدة طويلة ، اشتهر بالملاح وكثرة العبادة ، بنى المسجد الذي يعرف بمسجد طولون ، وبنى المارستان ، كانت له صدقات كثيرة جدا ، واحسان زائد ،

(ابن كثير : البداية والنهاية ٤٩/١١) .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٤٦/١١ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ،

ورغبة من ابن طولون في حماية الخليفة العباسي ، أرسل اليه جيشا ليقابله بالرقصة ولكن تلك المحاولة لم تنجح ، فعندما اجتاز الخليفة المعتمد على الله نواحي الموصل اعتقله نائبها ومنعه من السير الى ابن طولون ، وألزم الخليفة ومن معه من الأمراء بالعودة الى سامراء ، فرجعوا اليها في غاية الذل والاهانة . (١)

ومن تلك المحاولات الهادئة التي اجتذاب الخلافة العباسية خارج بغداد ، في خلافة المتقي لله (٣٢٩ - ٥٣٣ هـ) عندما سار بأهله الى تكريت (٢) لقتال أمير الأمراء القائد التركي توزون ، فلما حلت الهزيمة بالخليفة العباسي كتب الى الاخشيدي صاحب مصر أن يحضر اليه ، فلما حضر قال للخليفة :

" يا أمير المؤمنين ، أنا عبدك ، وابن عبدك ، وقد عرفتُ الأتراك وفجورهم وغدرهم ، فالله الله في نفسك ، سر معي الى مصر فهي لك ، وبها تأمن على نفسك " . (٣)

فلم يقبل الخليفة تلك الدعوة ، مع سروره باخلاص الاخشيدي له . (٤)

ومنها محاولة صاحب الموصل ناصر الدولة بن حمدان استمالة الخليفة العباسي المتقي لله الذي ضاقت به الحال في بغداد ، فانتقل الى الموصل ، فبقي بها مدة ثم رجع مرة أخرى الى بغداد ، فكانت نهاية خلافته برجوعه اليها على يد القائد توزون في سنة ٥٣٣ هـ حيث قبض على الخليفة ومن معه ، وأدخل المتقي لله الى بغداد وهو مسمول العين . ثم خلع من الخلافة . (٥)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٤٧/١١ ، ابراهيم العدوي : مصر الاسلامية ٢٧٠ .
محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر : سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدا ٤٤ .
- (٢) بلدة مشهورة بين الموصل وبغداد ، وهي الى بغداد أقرب ، بينهما ثلاثون فرسخا (الحموي : معجم البلدان ٣٨/٢) .
- (٣) الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان ٨٧ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٣٩٦ .
- (٤) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر ٥٥ ، ابراهيم العدوي : مصر الاسلامية ٢٨٩ .
- (٥) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٣/١١ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٣٩٦ .

وحاول السلطان السلجوقي طغرل بك نقل الخلافة من بغداد الى خراسان ، فبعد زواجه من ابنة الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، حرص على اصطحابها معه عند رجوعه الى مقر سلطانه (١) ، وسلمت الخلافة العباسية من تلك المحاولة بموت طغرل بك بعد اشتداد مرضه ، على أن الخليفة وافق مكرها على سفر ابنته مع طغرل بك الى خراسان .

ومنها حرص السلطان السلجوقي ملكشاه (٢) على اجتذاب الخلافة العباسية ونقلها من بغداد باستغلاله لزواج الخليفة المقتدى بأمر الله من ابنته ، فبعد أن رزق الخليفة منها بولد ، طلب ملكشاه من الخليفة أن يجعل ابن ابنته جعفر وليا للعهد ، وأن يخرج الخليفة الى البصرة لتكون دار خلافته (٣) ، وذلك لعزم السلطان ملكشاه بناء دار خلافة لابن ابنته في أصفهان .

والذي دفعني الى الحديث عن أهمية الخلافة في الفكر الاسلامي ، وفي الواقع التاريخي ، أنه بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد ظهرت شدة حاجة المسلمين في تلك الظروف العميقة الى إعادة توحيد صفوفهم ، واجتماع كلمتهم تحت قيادة قوية تستطيع

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٩٣/١٢ ، وهناك من يرى أن زواج طغرل بك من ابنة

الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، انما هو وسيلة لاستمالة الخلافة العباسية من بغداد ونقلها الى خراسان . (محمد الزهراني : نفوذ السلاجقة ١١٢) .

(٢) السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان ملك بعد أبيه ، وامتدت مملكته من أقصى بلاد الترك الى أقصى بلاد اليمن ، كانت دولته صارمة ، والطرق في أيامه آمنة ، له العديد من أعمال البر والخير .

(ابن كثير : البداية والنهاية ١٥١/١٢) .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١٥٠/١٢ .

حماية الدين الاسلامي الحنيف ، ومدافعة الأعداء من مغول و صليبيين ، فكان الاعلان عن احياء الخلافة العباسية في القاهرة ، وتعيين أول خلفائها المستنصر بالله أولى الخطوات العملية للوصول الى تلك الغاية ، وبعد قيام الخلافة العباسية أصبح للدولة الاسلامية قاعدة تنطلق منها للدفاع عن شغورها من الطامعين فيها من مغول و صليبيين ، كما أصبح مقر الخلافة الجديد في مأمن من وصول الأعداء اليه ، مما ساعد على بقاء الخلافة لأطول فترة ممكنة .

فبعد سقوطها على أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ ، وما نتج عن وصول المغول لديار الاسلام من تدمير وتخريب ، توجه الأمير المظفر قطز من الديار المصرية باتجاه دمشق قاصداً قتال المغول ، فالتقى بهم في موقعة عين جالوت ، وبعد انتصاره عليهم بلغه وهو في دمشق قدوم أحد العباسيين اليها ويدعي أبا العباس أحمد^(١) ، فأرسل قطز يستدعيه لمقابلته ، فلما قابله أعلن أمامه أنه اذا رجع الى مصر سيعيده للخلافة^(٢) ، ولكن المظفر قطز مات وهو في طريقه الى الديار المصرية ، فلم ينجح في احياء الخلافة العباسية وتنفيذ ما وعد به .

ومما تقدم من الأمثلة عن محاولات اجتذاب الخلافة العباسية من بغداد الى مصر أو الشام أو غيرهما ، نلاحظ أن تلك المحاولات قدمت في هيئة عروض للخليفة العباسي يُمنى فيها بالأمن والاستقرار . وأنه سوف يكون في منعة وقوة ، ورغد من العيش ، وهو ما افتقده الخليفة العباسي في بغداد . ولكن بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد اختلف الأمر وأصبح الخليفة بنفسه يبحث عن يحميه ويساعده على استعادة ملكه الذي فقد في بغداد .

(١) استدعاه الظاهر بيبرس بعد مقتل الخليفة العباسي المستنصر بالله وبايعه بالخلافة

فكان ثاني الخلفاء العباسيين بالديار المصرية .

(٢) محمد جمال الدين سرور : الخلافة الفاطمية في مصر ٦٤ .

وقد اضطر من نجا من أفراد البيت العباسي بعد سقوط بغداد للبحث بأنفسهم عن يقبل ايواءهم ، فكانت الديار المصرية هي المقر الثاني للخلافة العباسية ، وكان بإمكانهم إقامة الخلافة في إحدى المناطق التي مروا بها في طريق هروبهم من المغول ، ولكن الدرس الذي تعلموه من سقوط بغداد دفعهم للبحث عن مكان آمن بعيد عن متناول جيوش المغول التي طمعت في التقدم نحو البلاد الشامية بعد سيطرتهم على العراق .

وتظهر سلامة ذلك التفكير في أن البلاد الشامية لم تكن بعيدة المنال عن جيوش المغول ، حيث ظلت منطقة يسهل الوصول إليها ، وتعرضت لهجمات مغولية متتالية بهدف احتلالها ، وبسط سلطانهم عليها ، وفي إقامة الخلافة العباسية مرة ثانية في بلاد الشام لا يستبعد سقوطها مرة ثانية في ظل أطماع المغول في تلك النواحي ، مما قد يتعذر معه قيامها مرة أخرى .

فكان بعد عاصمة الخلافة العباسية من العوامل التي ساعدت على تثبيت دعائمها ، فأصبح الخليفة العباسي في القاهرة في مأمن ، ووجدت الخلافة من يحميها ويدافع عنها ، ونالت الجيوش الإسلامية التي نازلت المغول عسكرياً دفعة معنوية قوية أدت بفضل الله عز وجل إلى دحر المغول عن البلاد الشامية ، وصدّهم عن الوصول إلى الديار المصرية .

وبما أن الخلافة العباسية في بغداد قد عجزت عن مقاومة المغول ، فقد كانت أعادتها مرة ثانية في مصر على أيدي السلاطين المماليك من الأسباب التي ساعدت على استمرار الخلافة ، فقد كانت الخلافة بحاجة إلى قوة عسكرية تدفع عنها الطامعين فيها ، ولا تستطيع دولة أخرى - غير سلطنة المماليك - في تلك الظروف العميقة أن تقوم بتلك المهمة والاضطلاع بها ، ولذلك اتخذت التدابير لاعادة الخلافة العباسية وأحيائها في مصر بعد وصول أفراد من البيت العباسي إليها ، وتفرغ السلاطين المماليك بعد الانتهاء من تلك المهمة للدفاع عن بلاد الإسلام وحمايتها من أطماع المغول والصليبيين .

وتظهر أهمية احياء الخلافة العباسية بالديار المصرية على يد الظاهر بيبرس من خلال المقارنة بين محاولته لإعادة الخلافة والمحاولات السابقة التي أظهرت رغبة بعض الأمراء والولاة في انتقال الخليفة العباسي من بغداد الى بلاد الشام أو مصر .

فنجد أن المحاولات الأولى التي تقدم بها الأمراء والولاة لبعض خلفاء بني العباس أعلن عنها والخلافة العباسية ما زالت قائمة في عاصمتها بغداد لم تسقط أو تُزال بالكلية ، وقد تُفسر تلك المحاولات على أنها محاولة من أولئك الولاة لتحقيق بعض المكاسب السياسية والمصالح الشخصية في ظل الظهور بمظهر حماية الخليفة العباسي بعد اخراجه من بغداد الى منطقة نفوذهم .

أما المحاولة التي قام بها الظاهر بيبرس فقد كانت بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد وزوالها بالكلية على أيدي المغول ، فأعاد الخلافة من جديد ، وجمع شمل الأسرة العباسية بعد هروبها من بغداد ، وأعاد اليهم الخلافة ثانية ، ولكن في عاصمة جديدة هي القاهرة .

المبحث الثاني

قيام الخلافة العباسية في مصر

تم اعلان قيام الخلافة العباسية في مصر في وقت كانت البلاد فيه مفككة العرى ، مفصومة الوحدة ، والاضطرابات شاملة كل ناحية من النواحي ، فمصر تتنازعها عدة عوامل من مناوشات الصليبيين لها وأطماعهم فيها ، وتنافس الأمراء من المماليك على الأمر بها ، وتطلع الأيوبيين بالشام اليها ، وتهديد المغول باحتلالها .

وبعد مقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله (٦٥٦ هـ) ، خلت البلاد الاسلامية من الخلافة ، وليس من أمراء الاسلام من يجروا على اعادة الخلافة الى سابق عهدها ، لانشغال كل أمير مهتم بالمحافظة على بقاء ملكه في دويلته التي تأمر عليها ، أو مقاطعته التي ملكها ، مع رغبته في اتساع منطقتة ، وازدياد نفوذه الى بعض النواحي الأخرى . (١)

غير أن السلطان الظاهر بيبرس عند ما رأى الفرصة سانحة لاعادة الخلافة الاسلامية لم يتردد في اتخاذ التدابير اللازمة لاعلان قيام الخلافة العباسية مرة ثانية في البلاد المصرية ومبايعة أول خلفائها بالخلافة ، فقد وصل الى مصر أحمد بن الظاهر في صحبة جماعة من الأمراء الأعراب في ثامن رجب سنة ٦٥٩ هـ ، فخرج السلطان الظاهر بيبرس ومعه أعيان دويلته فتلقوه قبل دخوله القاهرة ، فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب جلس السلطان والخليفة بحضور الوزير ، والقاضي ، والأمراء على طبقاتهم ، وأثبت نسب الخليفة بأنسه أخو المستنصر ، باني المستنصرية ، وعم المستعصم ، فبويع بالخلافة بمصر ، فأول من بايعه القاضي تاج الدين ، ثم الملك الظاهر بيبرس ، ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ثم الأمراء ، ورجال الدولة . (٢)

(١) محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس و حضارة مصر في عصره ٦٢ ،

مصطفى رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث ١١ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٤/١٣ ، الكتبي : فوات الوفيات ١٦٩/٤ ، ابن الوردي : تنمة المختصر في أخبار البشر ٣٠٥/٢ ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ٢٥٥/١ .

وباعلان قيام الخلافة العباسية في مصر تغيرت موازين القوى في العالم بشكل عام ، وفي العالم الاسلامي على وجه الخصوص ، فقد أصبحت مصر مقر الخلافة العباسية الجديد ، وقلب العالم الاسلامي النابض ، وأصبح السلاطين المماليك حماة للخلافة والخلفاء العباسيين أمام الرأي العام الاسلامي . (١)

أما عن دوافع السلطان الظاهر بيبرس لحياء الخلافة العباسية مرة ثانية فهي :

١ - رأى الملك الظاهر أن الانتصار العسكري الذي تحقق للمسلمين في معركة عين جالوت لا يكفي وحده في تثبيت سلطانه ، فانتهاز فرصة ظهور أمير عباسي بد مشق ممن فرّ من جيوش المغول ، فاستدعاه الى القاهرة ، فلما تأكد من نسبه بايعه بالخلافة . (٢)

٢ - يضاف الى ذلك أن بيبرس أراد أن يتخذ من احيائه للخلافة العباسية بمصر سندا يستند اليه حكم السلاطين المماليك بالديار المصرية الذين ظهروا في تلك الأثناء بمظهر المقتصبين للملك من ساداتهم الأيوبيين (٣) ، فاعلان قيام الخلافة

(١) علي الخربوطلي : غروب شمس الخلافة ١٤٤ ، شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي

في عصر الدول والامارات ٣٥ ، أحمد رمضان أحمد : الخلافة في الحضارة الاسلامية : ١١٩ ، عاشور : الظاهر بيبرس ٤٦ ، ستانلي لينبول : سيرة القاهرة ١٢٩ ، فتحية النبراوى : العلاقات السياسية الاسلامية ٢٧٩ ، حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ١٢/١ .

(٢) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي في عصر الدول والامارات ٣٥ ،

أحمد رمضان : الخلافة في الحضارة الاسلامية ١١٩ .

(٣) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ٢٢٦ ، محمد مهنا : قضايا

العالم الاسلامي ٨٢ .

ومبايعة أول خلفاء بني العباس سيوقف محاولات الأمراء الأيوبيين في استعادة ملك مصر من أيدي المماليك الذين استطاعوا تحقيق ما عجز عنه غيرهم من إعادة الخلافة العباسية للعالم الاسلامي مرة ثانية .

٣ - هدف السلطان الظاهر بيبرس من احياء الخلافة العباسية الى تحقيق مكسب سياسي بجانب الكسب الديني الذي تحقق باعلان مبايعة الخليفة الجديد ، فإقامة الخلافة تمكن من بسط سلطانه السياسي بمعاونة الخليفة العباسي وتأييده على البلاد المجاورة لمصر باتجاه المغرب ، وفي المشرق باتجاه بلاد الشام وبلاد الحجاز وذلك لتقوية نفوذ ملكه في نظر المسلمين لوجود الحرمين الشريفين ، وحتى يؤمن حدود مصر الشرقية من هجمات جيوش المغول . (١)

٤ - أراد الظاهر بيبرس من وراء احياء الخلافة العباسية بمصر تقوية نفوذه داخلها ، وتمكين ملكه بالديار المصرية ، وكبت أطماع منافسيه على الملك من الأمراء المماليك ، ولأجل تحقيق ذلك سعى لاحاطة ملكه وسلطانه بسياج من الهيبة والاحترام على الصعيد الداخلي والخارجي ، ليحرز زعامته للعالم الاسلامي . (٢)

وقد استفادت السلطنة المملوكية باحياء الخلافة العباسية فائدتين كبيرتين هما :

أ (ظهور السلاطين المماليك ابتداء من الظاهر بيبرس فصاعدا ، بمظهر حماة للخلفاء والخلافة الاسلامية ، وحماة للعالم الاسلامي .

ب (اكتساب السلطنة المملوكية الشرعية في الملك والنفوذ التي ما كانت لتكسبها من أي مصدر آخر غير الخلافة ، وذلك عندما قلده الخليفة العباسي المستنصر بالله

(١) أحمد رمضان : الخلافة في الحضارة الاسلامية ١١٩ ، عبد المنعم ماجد : نظم

دولة سلاطين المماليك ٩٤/١ .

(٢) محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس ٦٧ ، حسن ابراهيم حسن : المجمل

في التاريخ المصري ١٩٢ .

السلطات في البلاد للسلطان المملوكي . (١)

وبعد اعلان قيام الخلافة العباسية في الديار المصرية تتابع خلفاء بني العباس في استلام ذلك المنصب الرفيع ، وكان ترتيبهم في الخلافة على النحو التالي :

(١) اليوسفي : نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ٨٧ ، طرخان : مصر
في عمر دولة المماليك ٥٢ .

" بيان بخلفاء بني العباس بالديار المصرية ومدّة خلافة

كل واحد منهم (٦٥٩ - ٩٢٣ هـ) " .

الرقم	اللقب	الاسم	مدّة الخلافة	ملاحظة
١	المستنصر بالله	أحمد بن محمد بن أحمد	(٦٥٩ - ٦٦٠ هـ) قرابة ستة أشهر	وفاة
٢	الحاكم بأمر الله	أحمد بن الحسن بن أبي بكر	(٦٦٠ - ٧٠١ هـ) قرابة أربعين سنة .	وفاة
٣	المستكفي بالله	سليمان بن أحمد بن الحسن ابن أبي بكر .	(٧٠١ - ٧٣٩ هـ) قرابة ثمان وثلاثين سنة .	خلع
٤	الواثق بالله	ابراهيم بن محمد بن أحمد ابن الحسن .	(٧٣٩ - ٧٤٢ هـ) قرابة اربع سنوات .	خلع
٥	الحاكم بأمر الله	أحمد بن سليمان بن أحمد ابن الحسن .	(٧٤٢ - ٧٥٣ هـ) قرابة احدى عشرة سنة .	وفاة
٦	المعتضد بالله	أبو بكر سليمان بن أحمد ابن الحسن .	(٧٥٣ - ٧٦٣ هـ) قرابة عشر سنوات .	وفاة
٧	المتوكل على الله	محمد بن أبي بكر بن سليمان ابن أحمد بن الحسن .	(٧٦٣ - ٧٨٥ هـ) قرابة اثنتين وعشرين سنة .	خلع
٨	الواثق بالله	عمر بن ابراهيم بن محمد بن أحمد بن الحسن .	(٧٨٥ - ٧٨٨ هـ) قرابة ثلاث سنوات .	وفاة
٩	المستعصم بالله	زكريا بن ابراهيم بن محمد بن أحمد بن الحسن .	(٧٨٨ - ٧٩١ هـ) قرابة سنتين ونصف .	خلع
١٠	المتوكل على الله	محمد بن أبي بكر بن سليمان ابن أحمد .	(٧٩١ - ٨٠٨ هـ) قرابة سبعة عشر سنة .	وفاة

(تابع)

" بيان بخلفاء بني العباس بالديار المصرية ومدّة خلافة كل واحد منهم "

الرقم	اللقب	الاسم	مدّة الخلافة	ملاحظة
١١	المستعين بالله	العباس بن محمد بن أبي بكر ابن سليمان .	(٨٠٨ - ٨١٥ هـ) قرابة سبع سنوات .	خلع
١٢	المعتضد بالله	داود بن محمد بن أبي بكر ابن سليمان .	(٨١٥ - ٨٤٥ هـ) قرابة ثلاثين سنة .	وفاته
١٣	المستكفي بالله	سليمان بن محمد بن أبي بكر ابن سليمان .	(٨٤٥ - ٨٥٤ هـ) قرابة تسع سنوات .	وفاته
١٤	القائم بأمر الله	حمزة بن محمد بن أبي بكر ابن سليمان .	(٨٥٤ - ٨٥٩ هـ) قرابة خمس سنوات .	خلع
١٥	المستنجد بالله	يوسف بن محمد بن أبي بكر ابن سليمان .	(٨٥٩ - ٨٨٤ هـ) قرابة خمس وعشرين سنة .	وفاته
١٦	المتوكل على الله	عبد العزيز بن يعقوب بن محمد بن أبي بكر .	(٨٨٤ - ٩٠٣ هـ) قرابة تسع سنوات .	وفاته
١٧	المستمك بالله	يعقوب بن عبد العزيز بن يعقوب بن محمد بن أبي بكر .	(٩٠٣ - ٩١٤ هـ) قرابة احدى عشرة سنة ونصف .	تنازل لولده
١٨	المتوكل على الله	محمد بن يعقوب بن عبد العزيز بن يعقوب .	(٩١٤ - ٩٢٣ هـ) قرابة تسع سنوات .	انتهاء الخلافة بمصر .

١ - الخليفة

المستنصر بالله

أحمد بن محمد الظاهر بالله بن الناصر لدين الله

(٦٥٩ - ٦٦٠ هـ)

أول الخلفاء العباسيين بمصر ، بويع له بالخلافة في ثالث عشر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة ، بعد خلو الوقت من خليفة عباسي ثلاث سنين ونصف السنة . (١) عرف عن المستنصر بالله الشجاعة ، وعلو الهمة ، والهيبة ، لم تظل مدة خلافته بسبب سفره مع الملك الظاهر بيبرس الى بلاد الشام ، وبعد وصولهما دمشق توجه الخليفة العباسي المستنصر بالله قاصدا العراق لقتال المغول ، واستعادة بغداد من أيديهم ، فكان ذلك آخر العهد به لوفاته في يوم الاثنين ثالث المحرم من سنة ٦٦٠ هـ (٢) ، فكانت خلافته أقل من سنة . (٣)

وقد ظن المستنصر بالله أن المغول رحلوا عن العراق وفارقوها على عادتهم المألوفة أنهم يخربون ثم يذهبون ، ولم يدرك أنهم في البلاد ساكنون ، فسار حتى علموا بقدمه فجردوا اليه عسكريا منهم ، فأدركوه وحاربوه ، فقاتلهم حتى قتل (٤) ، والمصادر التاريخية التي ترجمت للخليفة المستنصر بالله تضمن علينا بعد ذلك بالأخبار عنه . (٥)

(١) الذهبي : العبر ٢٩٤/٣ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥٠٩ .

(٢) اختلف المؤرخون في نهاية خلافة المستنصر ، فمنهم من قال انه قتل أثناء قتاله للمغول ، ومنهم من قال : نجا من المغول في طائفة ممن كانوا معه ، ومات عندهم متأثرا بجراحه ، ومنهم من قال : انه سلم من القتل وأضرته البلاد .

(ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١٧/٧) .

(٣) المقرئ : الخطط المقرئية ٢٤٢/٢ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ٣٩٩/٣ .

(٤) الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ٨٥ ، ابن خلدون : التاريخ ٤٤٠/٥ .

٢ - الخليفة

الحاكم بأمر الله

أحمد^(١) بن الحسن بن أبي بكر بن علي القُبي بن الراشد بالله حسن

(٦٦٠ - ٥٧٠ هـ)

عندما توجه الخليفة العباسي المستنصر بالله الى العراق لقتال المغول ، رافقه الحاكم بأمر الله ، وشهد معهوقعة ، وهرب مع جماعة ممن سلم ، فدخل مصر في السابع والعشرين من ربيع الآخر سنة (٦٦٠ هـ) ، فلما كان يوم دخوله تلقاه السلطان الظاهر بيبرس وأظهر له السرور ، وبايعه بالخلافة^(٢) ، وخطب باسمه على المنابر ، وضربت السكة باسمه واسم السلطان الظاهر بيبرس مدة في أول خلافته ، ثم اقتصر على اسم السلطان المملوكي .

وبعد مبايعته لزم داره ، وهو أول من سكن بمصر ومات بها من خلفاء بني العباس^(٣) ، ووصف الحاكم بأمر الله بأنه كان فيه شجاعة وديانة^(٤) ، امتدت أيامه في الخلافة حيث بلغت أربعين سنة .^(٥)

(١) اختلف في نسب الحاكم بأمر الله الى قولين :

أ - المشهور عند النسابة أنه أحمد بن حسن بن أبي بكر بن علي بن حسن

الراشد بالله بن المستظهر بالله .

ب - أنه أحمد بن أبي بكر بن علي بن أبي بكر أحمد بن المسترشد بالله الفحل بن

المستظهر بالله . النزهة السنبة ١٢٢ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٦/١٣ ، ٢١/١٤ ، ابن خلدون : التاريخ ٤٤١/٥ .

(٣) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ١٤٧/٨ ، المنهل الحافي ٧٩/٢ ، العمامي : سمط

النجوم العوالي ٣٩٩/٣ .

(٤) الكتبي : فوات الوفيات ٦٨/١ . ابن دقماق : الجواهر الثمين ٢٢٩/١ .

(٥) ومن مصادر ترجمته :

الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٢/٢ ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ٥٣٠/١

- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ١٤١ ، القلقشندی : مآثر الانافة ١١٦/٢ .
- شافع بن علي : حسن المناقب السرية ٥١ ، الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة
- ٩٤ ، نيسبرس المنصوري : التحفة الملوكية ٥١ ، الفاخوري : تحفة الأنام مختصر
- تاريخ الاسلام ١٣٥ . ابن الوردی : تنمة المختصر في أخبار البشر ٣٠٧/٢ ، النهرواني :
- الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ٨٥ . ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ١٥٠ ،
- العيبي : عقد الجمان ٨٧/٢ ، القلقشندی : صبح الأعشى ٢٦١/٣ ، اليافعي : مرآة
- الجنان ١٥٩/٤ ، دحلان : الفتوحات الاسلامية ٩٧/٢ ، الجبرتي : تاريخ عجائب
- الآثار ٣٢/١ ، الصفوى : صفوة الزمان ق ٣٤ ، الحنبلي : نزهة الناظرين ق ١٦ ،
- مؤلف مجهول : جواهر البحور ق ٥٠ . ابن اياس : بدائع الزهور ٣٤٥/١ ،
- دحلان : تاريخ الدول الاسلامية ٢٧ . ابن حجر : الدرر الكامنة ١١٩/١ ، السيوطي :
- تاريخ الخلفاء ٥١١ . الزركلي : الأعلام ١١١/١ ، الفاخوري : تحفة
- الأنام ١٣٥ .

(٥) ومن معادرت ترجمته :

الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢١/٢ ، شافع بن علي : حسن المناقب السرية ٣٧
 ابن حجر : الدرر ١١٩/١ ، اليوسفي : نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ٨٧
 اليونيني : ذيل مرآة الزمان ٢٥٥/١ ، الحنبلي : نزهة الناظرين في تاريخ مسن
 ولي مصر من الخلفاء والسلاطين ق ١٥ ، المصدى : صفوة الزمان فيمن تولى على
 مصر من أمير و سلطان ق ٣٣ ، أبوشامة : الذيل على الروضتين ٢١٣ ، مؤلف
 مجهول : جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور وأخبار الديار المصرية ق ٥٦ ،
 النهرواني : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ٨٥ ، ابن الوردى : تتمة المختصر في
 أخبار البشر ٣٠٥/٢ ، ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ١٠٠ ،
 المنصورى : التحفة الملوكية ٤٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١٤/٧ ،
 الدليل الشافى على المنهل المافى ٧١/١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٤/١٣ ،
 الذهبى : سير أعلام النبلاء ١٦٨/٢٣ ، ابن الطولونى : النزهة السنية ١٢١ ،
 اليافعى : مرآة الجنان ١٥١/٤ ، دحلان : الفتوحات الاسلاميــــــــــــــــة ٩٧/٢ ،
 وتاريخ الدول الاسلامية ٢٧ ، ابن دقماق : الجواهر الثمين ٢٢٤/١ ، ابن ظهيرة :
 الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ١٩٤ .

٣ - الخليفة

المستكفي بالله

سليمان بن الحاكم بأمر الله أحمد بن الحسن

(٧٠١ - ٧٤٠ هـ)

م م م م م م م

بويغ بالخلافة بعهد من أبيه^(١) الحاكم بأمر الله ، وقُرِيَّهَ كتاب تقليده
 الخلافة بحضرة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وأعيان الدولة ، وخطب له على المنابر
 على العادة ، وسكن في دار والده حتى أمره الناصر بالسكنى في قلعة الجبل .^(٢)
 كان المستكفي بالله كريما ، فاضلا ، حشما ، امتدت خلافته لفترة طويلة^(٣) حتى
 خلع من الخلافة ونُفِيَ الى قوض^(٤) مع أهله وقرابته بأمر من السلطان الناصر محمد بن
 قلاوون ، وفي نفيه قال الشاعر :

أخرجوكم من الصعيد لعدو غير مجد في ملتي واعتقادي
 لا يغيركم الصعيد وكونوا فيه مثل السيوف في الأغماد^(٥)

(١) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٥/٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٢٦١/٣ - ٢٦٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤٨/٨ ، والدليل الشافى على المنهـل
 الشافى ٣١٦/١ .

(٣) اختلف في مدة خلافة المستكفي بالله ف قيل :

١ - كانت تسعا وثلاثين سنة وشهرين وثلاثة عشر يوما . ابن تغرى بردى :
 في النجوم الزاهرة .

٢ - كانت تسعا وثلاثين سنة وشهرين وثمانية عشر يوما . ابن حجر فـسى
 الدرر الكامنة .

٣ - كانت أربعين سنة . الديار بكرى : تاريخ الخميس ، ابن كثير : البداية
 والنهاية .

(٤) مدينة كبيرة عظيمة واسعة بصعيد مصر ، أهلها أرباب ثروة واسعة ، وهي محط التجار

القادمين من عدن ، وأكثرهم من أهل هذه المدينة . (الحموى : معجم البلدان ٤١٣/٤) ٤١٣/٤

المعطار ٤٨٤ . (٥) ابن الوردى : تنمة المختصر في أخبار البشر ٤٥١/٢ .

وبقي الخليفة العباسي المستكفي بالله في منفاه حتى وفاته سنة ٧٤٠ هـ. (١)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٨/١٤ ، الذهبي : الاعلام بوفيات الأعلام

١٨٠ ، بيمرس المنمورى : التحفة الملوكية ١٦٢ .

ومن مصادر ترجمته :

ابن الوردي : تنمة المختصر في أخبار البشر ٤٥١/٢ ، السلامي : الوفيات ٢٣٠/١ .

المقريزي : الذهب المسبوك ٦٠ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ١٤٤/١ .

القلقشندي : مآثر الأنافة ١٣٢/٢ ، ابن دقماق : الجواهر الثمين ٢٣١/١ .

الحنبلي : نزهة الناظرين ق ١٦ ، العيني : عقد الجمان ١٩٠/٣ .

اليوسفي : نزهة الناظر ٢٦٢ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢١٥/٢ .

ابن العماد : شذرات الذهب ١٢٦/١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢١/١٤ .

السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥١٧ ، اليافعي : مرآة الجنان ٢٣٥/٤ .

ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ١٩٦ ، دحلان : تاريخ الدول الاسلامية ٢٨ .

ابن الطولوني : النزهة السنية ١٢٤ ، الفخوري : تحفة الأنام ١٣٦ .

الزركلي : الأعلام ١٢١/٣ .

٤ - الخليفة

الوائق بالله

ابراهيم بن محمد بن أحمد الحاكم بأمر الله أحمد

(٧٤٠ - ٧٤١ هـ)

بوسع بالخلافة^(١) بعد موت المستكفي بالله سليمان ، ولم يمض السلطان الناصر محمد العهد الذي كتبه الخليفة المستكفي بالله بولاية الأمر من بعده لابنه أحمد ، وأقام ابراهيم هذا مكانه في الخلافة^(٢) ، وبقي الواثق بالله في الخلافة مدة سنة ، ثم ندم الناصر محمد عند موته وأوصى بخلع ابراهيم الواثق بالله واعادة الخلافة لأحمد بن المستكفي بالله ، فخلع في أول المحرم سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة .^(٣)

(١) اختلف المؤرخون في خلافة الواثق بالله :

١ - فمنهم من عده من الخلفاء لكون السلطان أقامه في الخلافة وبايعه بها .

٢ - ومنهم من لم يعده من الخلفاء لكون المستكفي بالله كان قد عهد بالخلافة

من بعده لابنه أحمد ، ولذلك لم يذكره في كتبهم .

(٢) ابن حجر : الدرر ٣٨٤/١ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٦/٢ ،

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥١/٩ .

(٣) الحنبلي : نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والولاة ق ١٦ ،

ويذكر ابن كثير أنه خطب لأبي اسحاق الواثق بالله ابراهيم جمعة واحدة بالقاهرة

قبل أن يعزله المنصور أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون ٢٠٣/١٤ .

ومن مصادر ترجمته :

القلقشندى : صبح الأعشى ٢٦٢/٣ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ٢٩٩/٣ .

ابن الطولوني : النزهة السنية ١٢٤ ، ابن الوردي : التاريخ ٤٦٦/٢ ، ابن حجر :

الدرر الكامنة ٥٦/١ ، الفاهوري : تحفة الأنام ١٣٦ ، دحلان : تاريخ السدول

الاسلامية ٢٩ ، ميخائيل بك : الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث ٢٦٥/٢ ،

الزركلي : الأعلام ٦٠/١ .

٥ - الخليفة

الحاكم بأمر الله

أحمد بن المستكفي بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله أحمد

(٧٤٢ - ٧٥٢ هـ)

بويغ بالخلافة في مستهل المحرم سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، وخطب في ذلك اليوم خطبة بليغة مشتملة على أشياء من المواعظ والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . (١)

وكانت اعادته للخلافة بأمر السلطان الملك المنصور بن الناصر محمد السدي " جمع القضاة للنظر في اعادة أحمد هذا الى الخلافة ، فاتفقوا على اعادته لعهد أبيه اليه بالخلافة بمقتضى مکتوب ثابت على قاض قوصي " . (٢)

وصفه ابن فضل الله بقوله : " هو امام عصرنا ، وغمام مصرنا ، قام على غيظ العدي ، وغرق لفيض الندي ، صارت له الأمور الى مصائرهما ، فأحيا رسوم الخلافة ، ورسم بما لم يستطع أحد خلافة . وسلك مناهج آباءه ، وقد طمست ، وأحياها لمناهج بنائه وقد درست ، وجمع شمل بني أبيه وقد طال بهم الشتات ، ورفع اسمه على ذرى المنابر " . (٣)

وقال فيه ابن حجر : قال شيخنا العراقي : " سمع الحديث على بعض المتأخرين وبلغني أنه حدث ... " . (٤)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٣/١٤ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٤/١٠ ، الذهبي : العبر ١٦٠/٤ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ١٧٤/٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٤٩٩ .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ١٤٦/١ - ١٤٧ .

بقي في الخلافة حتى وفاته ، وكانت مدة خلافته قرابة أربعة عشر سنة

وأشهر (١) . وعهد بالخلافة من بعده لأخيه المعتضد بالله . (٢)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٥٤٨/١ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥٠/١٠ ، بينما يذكر ابن اياس أنه لم يعهد

بالخلافة لأحد من أقاربه . ٥٤٨/١ .

ومن مصادر ترجمته :

المقريزى : السلوك ٩٣٣/٣ ، ابن الوردي : تنمة المختصر في أخبار البشر

٤٧٠/٢ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٧/٢ ، الحنبلي : نزهة الناظرين

ق ١٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥٢٣ ، ابن الطولوني : النزهة السنية ١٢٥ ،

العمامي : سمط النجوم العوالي ٣٩٩/٣ ، ابن دقماق : الجواهر الثمين ٢٣٣/١ ،

القلقشندي : مآثر الأنافة ١٤٥/٢ ، صبح الأعشى ٢٦٢/٣ ، الغافوري : تحفة الأنام

١٣٦ ، دحلان : تاريخ الدول الاسلامية ٢٩ ، الزركلي : الأعلام ١٣٢/١ ،

الشرقاوى : تحفة الناظرين ١١٢ .

٦ - الخليفة

المعتضد بالله

أبوبكر بن الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفي بالله سليمان

(٧٥٢ - ٧٦٣ هـ)

بوسع بالخلافة بعد وفاة أخيه الحاكم بأمر الله ، فقد جمع الأمير شيخون كبار
الأمراء والقضاة ، وعقدوا المشورة فيمن يلي الخلافة ، وطلبوا جماعة من بني العباس
فوقع الاختيار على أبي بكر فبايعوه ، ولقبوه بالمعتضد بالله ، وكنى بأبي الفتح . (١)

وبعد مبايعته بالخلافة أحضر له التشريف ، ونزل الى بيته في موكب حافل
قدّامه القضاة الأربعة ، وأعيان الناس . (٢)

وصف المعتضد بالله بأنه كان " خيرا ، متواضعا ، محبا لأهل العلم " . (٣)
دامت خلافته عشر سنين ، حيث توفي ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٧٦٣ هـ . (٤)

-
- (١) ابن حجر : الدرر الكامنة ٤٤٣/١ ، المقرئ : الخطط المقرئية ٤٤٢/٢ .
السيوطي : حسن المحاضرة ٨١/٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٥٤٨/١ .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٥٤٩/١ ، ابن ظهيرة : الغفائل الباهرة ١٩٦ .
(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ٤٤٣/١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ١٩٨/٦ .
(٤) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٧/٢ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥٠٠ .

ومن مصادر ترجمته :

- ابن دقماق : الجواهر الثمين ٢٣٥/١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤/١١ .
المقرئ : السلوك ٧٧/٣ ، ابن تغرى بردى : الدليل الشافى ٨١٥/٢ .
الذهبي : العبر ١٦٠/٤ ، الحنبلي : نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر
من الخلفاء والسلاطين ق ١٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٧/١٤ .
القلقشندي : مآثر الأنافة ١٤٥/٢ ، صبح الأعشى ٢٦٦/٣ ، السخاوى : التبر
المسبوك ٢٥ ، ابن العراقي : الذيل على العبر ٩٧/١ ،

- الشرقاوى : تحفة الناظرين ١١٠ ، الفاخورى : تحفة الأنام ١٣٦ .
- ابن الطولونى : النزهة السنية ١٢٦ ، دحلان : تاريخ الدول الإسلامية ٢٩ .
- ميخائيل بك : الكافي في تاريخ مصر ٤٧٢/٢ ، الزركلى : الأعلام

٠٣٨/٢

٧ - الخليفة

المتوكل على الله

محمد بن أبي بكر المعتضد بالله بن أحمد الحاكم بأمر الله

ابن سليمان المتكفي بالله

(٧٦٣ - ٧٨٥ هـ)

بويج بالخلافة^(١) بعد موت أبيه وبعهد منه^(٢) ، بقي في الخلافة العباسية حتى نقم عليه الأمير أيبك البدرى فخلعه من الخلافة وعزم على نفيه الى بلدة قسوى في الثالث من شهر ربيع الأول سنة ٧٧٩ هـ ، واستخلف مكانه زكريا بن ابراهيم بن الحاكم بأمر الله أحمد من غير عهد من المتوكل على الله أو خلعه لنفسه من الخلافة .^(٣)

وأقام زكريا في الخلافة حتى الرابع عشر من شهر ربيع الأول من نفس السنة حيث تكلم الأمراء مع الأتابك أيبك البدرى في اعادة المتوكل على الله الى الخلافة ورغبوه في ذلك ، فأذعن لهم وأعادته للخلافة^(٤) ، وأقام خليفة حتى سنة خمس وثمانين وسبعمائة حيث خلعه من الخلافة العباسية .^(٥)

(١) بويج بالخلافة للمرة الأولى لأنه تعرف للخلع من الخلافة على يد السلطان الظاهر

برقوقى . (السخاوى : الغزوة اللامع ١٦٨/٧) .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٧/١٤ . ابن العماد : شذرات الذهب ٢٠٠/٦ .

(٣) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٨/٢ . المقرئى : الخطط المقرئية ٢٤٣/٢ .

السخاوى : الغزوة اللامع ١٦٨/٧ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ٥٠٤ .

(٤) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٨/٢ .

(٥) المقرئى : السلوك ٢٤/٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٣٧/١١ .

ومن مصادر ترجمته :

السيوطى : حسن المحاضرة ٨٤/٢ ، ابن ظهيرة : الفخائل الباهرة ١٩٦ ،

- ابن حجر : انباء الغمر بأبناء العمر ٤/١ ، ابن العراقي : الذيل على
العبر ٩٨/١ ، القلقشندی : صبح الأعشى ٢٦٢/٣ ، مآثر الانافة ١٦٧/٢ .
الميرفي : نزهة النفوس ٧٠/١ ، الحنبلي : نزهة الناظرين ق ١٦ ، ابن دقماق :
الجوهر الثمين ٢٣٦/١ ، الشرقاوى : تحفة الناظرين ١١٠ ، دحلان : تاريخ
الدول الاسلامية ٢٩ ، ابن الطولسوي : النزهة السنية ١٢٧ ، الفاخوري :
تحفة الأنام ١٣٧ ، الزركلي : الأعلام ١٤٥/٥ .

٨ - الخليفة

الوائق بالله (١)

عمر بن الواثق بالله ابراهيم بن المستمك بالله محمد

ابن الحاكم بأمر الله أحمد

(٧٨٥ - ٧٨٨ هـ)

بوسع بالخلافة العباسية بعد خلع المتوكل على الله محمد بن أبي بكر (٢) ،
فأقام في الخلافة حتى مات في التاسع عشر من شهر شوال سنة ٧٨٨ هـ (٣) ، فكانت خلافته
نحو ثلاث سنين (٤) .

(١) يذكر ابن الطولوني أن لقبه هو المستعمم بالله . (النزعة السنية ١٢٨) .

(٢) المقرئ : السلوك ٩٧٥/٣ ، الخطط المقرئية ٢٤٣/٢ ، السخاوي : الضوء ،
اللامع ١٦٨/٧ ، السيزطي : تاريخ الخلفاء ٥٠٥ ، القلقشندی : مآثر الانافسة
١٨٧/٢ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٨/٢ ، ابن دقماق : الجواهر الشمسين
٢٣٧/١ .

(٣) يذكر المقرئ أن وفاته كانت في تاسع شوال من سنة ٧٨٨ هـ ، الخطط المقرئية
٢٤٣/٢ بينما يذكر ابن تغرى بردى أن وفاته في سابع عشر شوال من سنة ٧٨٨ هـ .
الدليل الشافي ٣٩٢/١ .

(٤) نقل ابن اياس أن خلافته كانت ثلاث سنين وأشهر . بدائع الزهور ٤٥٧/١ .

ومن مصادر ترجمته :

القلقشندی : صبح الأعشى ٢٦٢/٣ . ابن العراقي : الذيل على العبر ٥٤٤/٢ .
ابن حجر : انباء الغمر بأبناء النمر ١٢٩/٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب
٣٠٣/٦ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٨/٢ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة
في محاسن مصر والقاهرة ١٩٧ ، الحنبلي : نزعة الناظرين ق ١٧ ، الشرقاوى : تحفة
الناظرين ١١١ ، دحلان : تاريخ الدول الاسلامية ٢٩ ، ميخائيل بك : الكافي
في تاريخ مصر القديم والحديث ٤٦٣/٢ ، الفاخوري : تحفة الأنام ١٣٦ . الزركلي :
الأعلام ٣٩/٥ .

٩ - الخليفة

المستعصم بالله (١)

زكريا بن الواثق بالله ابراهيم بن المستعصم بالله محمد

ابن الحاكم بأمر الله أحمد

(٧٨٨ - ٧٩١ هـ)

بويغ بالخلافة (٢) بعد موت أخيه الواثق بالله عمر ، فقد استدعى السلطان
الظاهر برقوق زكريا وأعلمه أنه يريد أن ينصبه في الخلافة بعد وفاة أخيه الواثق بالله
عمر ، واستدعى القضاة والأمراء والأعيان ، وأخلع عليه السلطان ، ثم نزل زكريا
الى داره . (٣)

وبعد ثلاثة أيام طلع الخليفة العباسي زكريا الى القلعة ، وأحضر القضاة
والأمراء والأعيان وبايعه السلطان بالخلافة أولا ، ثم بايعه من حضر ، وتلقب
بالمستعصم بالله ، ثم نزل الى داره ، وبين يديه القضاة وأعيان الدولة . (٤)

(١) يذكر ابن الطولوني أنه تلقب بالمعتمم بالله . النزهة السنية ١٢٩ ، ابن ظهيرة :
الفضائل الباهرة ١٩٧ .

(٢) تكون خلافة زكريا هذه للمرة الثانية على قول من أثبت خلافته الأولى في سنة
٧٧٩ هـ ، عندما خلع الأمير أينبك الخليفة العباسي المتوكل على الله وبايع
زكريا هذا . الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٨/٢ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٤٥/١١ ، المقرئى : السلوك ٢٥٢/٣ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٤٥/١١ ، وتمت مبايعة المستعصم بالله
زكريا والخليفة المتوكل على الله في سجنه .

أقام المستعصم بالله في الخلافة سنتين وخمسة أشهر ، حيث خلع من الخلافة في سنة ٧٩١ هـ (١) ، فلزم داره حتى وفاته . (٢)

(١) اختلف في تحديد تاريخ خلعه :

- ١ - ذكر أنه كان في الأول من جمادى الأولى من سنة ٧٩١ هـ . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨/١٣ ، ابن حجر : انباء الغمر ٧١/٢ .
- ٢ - أنه كان في الحادى عشر من ذى القعدة من سنة ٧٩١ هـ . المقرئسى : السلوك ٦٧٠/٣ .

(٢) اختلف أيضا في تاريخ وفاته :

- ١ - فليل : انها في الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٨٠١ هـ . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨/١٣ ، المقرئسى : السلوك ٦٧٥/٣ .
- ٢ - وقيل : انها في الثانى من جمادى الأولى من نفس السنة . القلقشندى : مآثر الانافة ١٨٧/٢ .

ومن مصادر ترجمته :

- القلقشندى : صبح الأعشى ٢٦٢/٣ ، الحنبلى : نزهة الناظرين ق ١٧ .
- ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ١٩٧ ، ابن الطولونى : النزهة السنية ١٢٩ .
- ابن حجر : انباء الغمر ٧١/٢ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ٥٠٥ .
- السخاوى : الضوء اللامع ٢٣٣/٣ ، الشرقاوى : تحفة الناظرين ١١١ .
- ابن الصيرفى : نزهة النفوس ١٤١/١ . ميخائيل بك : الكافى في تاريخ مصر القديم والحديث ٤٧٢/٢ ، الفاخورى : تحفة الأنام ١٣٧ . الزركلى : الأعلام ٤٥/٣ .

١٠ - الخليفة

المتوكل على الله

محمد بن أبي بكر المعتضد بالله بن أحمد الحاكم بأمر الله

ابن سليمان المستكفي بالله

(٧٩١ - ٨٠٨ هـ)

بويغ بالخلافة ثانية^(١) في جمادى الأولى من سنة ٧٩١ هـ ، حيث أخرجـه
السلطان الظاهر برقوق من سجنه ، وأعاد ه للخلافة العباسية ، وأنعم عليه ، وأكرمـه
غاية الاكرام وتمافيا . (٢)

وقام في منصبه هذه المرة نحو سبع عشرة سنة ، وكانت مجموع خلافته بما فيها
من الخلع والحبس نحو خمس وأربعين سنة^(٣) ، أما وفاته فكانت في شهر رجب من
سنة ٨٠٨ هـ^(٤) ، وهو ابن ثمانين سنة . (٥)

(١) عدت خلافته هذه المرة الثالثة عند من اعتبر خلافة زكريا بن الواثق بالله ابراهيم ،
فيكون المتوكل على الله تولى الخلافة ، ثم عزل بزكريا ، ثم أعيد للخلافة ثانية ،
فعزل على يد الظاهر برقوق ، ثم أعيد الى الخلافة الثالثة في سنة ٧٩١ هـ .

الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٩/٢ .

(٢) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٩/٢ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ٢٣٧/١ .

(٣) الحنبلي : نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين ق ١٧ ،

ابن الطولوني : النزهة السنية ١٣٠ .

(٤) اختلف في تاريخ وفاته ، فقليل :

١ - أنها في ثامن عشر رجب سنة ٨٠٨ هـ المقریزی : الخطط ٢٤٣ / ٢ ،

السلوك ٢٤/٤ ، السيوطي : التاريخ ٥٠٤ .

٢ - أنها في السابع والعشرين من رجب من سنة ٨٠٨ هـ . القلقشندی : مآثر

الانافة ١٨٧/٢ .

٣ - انها في الثامن والعشرين من نفس الشهر والسنة السابقة (٨٠٨) هـ .

ابن دقماق : الجواهر الثمين ٢٣٧/١ .

٤ - انها في شعبان من سنة ٨٠٨ هـ . ابن حجر : انباء الغمر ٢٤٣/٢ .

(٥) ابن ايباس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٧٤٦/١ .

ومن مصادر ترجمته :

القلقشندي : صبح الأعشى ٢٦٣/٣ ، ابن العراقي : الذيل على العبر ٥٤٤/٢ .

ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ١٩٧ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢/٧ .

السخاوي : الضوء اللامع ١٦٨/٧ ، ابن دقماق : الجواهر الثمين ٢٣٧/١ .

أبو العز : الدر المنتخب ٢٨/٢ ، ميخائيل بك : الكافي في تاريخ مصر

٢٩٠/٢ ، الشرقاوي : تحفة الناظرين ١١٢ ، الفاخوري : تحفة الأنام ١٣٧ .

١١ - الخليفة

المتعين بالله

العباس بن المتوكل على الله محمد بن المعتض بالله

أبي بكر

(٨٠٨ - ٨١٥ هـ)

بويص بالخلافة بعد موت أبيه ، وبعهد منه ، حيث استدعى الملك الناصر

فرج بن الظاهر برقوق أبا الفضل العباس ولد الخليفة المتوكل على الله وبايعه بالخلافة

ولقب بالمستعين . (١)

أقام في الخلافة العباسية بالديار المصرية الى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، ثم

اختير من قبل الأمراء المماليك ليلي منصب السلطنة على كره منه (٢) ، فتسلطن ستة أشهر

ثم خلعه المؤيد شيخ محمودى من السلطنة والخلافة معا في سنة خمس عشرة وثمانمائة . (٣)

وصف المستعين بالله بأنه كان خيرا دينا ، حشما ، وقورا ، كريما ، عنده

تواضع وسؤدد . (٤)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥١/١٣ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٩/٢ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥٠٦ ، السخاوى : الضوء اللامع ١٩/٤ .

(٣) القلقشندى : مآثر الانافة ٢٠٢/٢ - ٢٠٦ ، النهرواني : الاعلام بأعلام بيت الله

الحرام ٩٣ .

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ٢٠/٤ .

ومن مصادر ترجمته :

القلقشندى : صبح الأعشى ٢٦٣/٣ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ١٩٧ .

-
-
- ابن حجر : انباء الغمر ٤٤٥/٣ ، ابن تغرى بردى : الدليل الشافى ٣٨٠/١
 - المقرىزى : الخطط ٢٤٣/٢ ، السيوطى : التاريخ ٥٠٦ ، حسن المحاضرة ٨٩/٢
 - الحنبلى : نزهة الناظرين ق ١٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣/٢
 - الحيرفى : نزهة النفوس ٢١٧/٢ ، دحلان : تاريخ الدول الاسلامىة ٣٠
 - الشرقاوى : تحفة الناظرين ١١٢ ، الفاخورى : تحفة الأنعام ١٣٧
 - ميخائىل بك : الكافى فى تاريخ مصر ٢٩٥/٢ ، الزركلى : الأعلام ٣٦٥/٣

١٢ - الخليفة

المعتضد بالله

داود بن المتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله

أبي بكر

(٨١٥ - ٨٤٥ هـ)

بوسع بالخلافة بعد خلع أخيه المستعين بالله سنة خمس عشرة وثمانمائة^(١) ،
طالت مدته في الخلافة نحو ثلاثين سنة .^(٢)

وصف المعتضد بالله بأنه كان سيد بني العباس في زمانه ، أهلاً للخلافة
بلامدافعة^(٣) ، كريماً ، عاقلاً ، ديناً ، سيواً ، متواضعاً ، حلواً المحاضرة^(٤) ،
نبيلاً ، ذكياً ، فطناً ، يجالس العلماء والفضلاء ، يجلب طلبه العلم وأهل الأدب ،
ويستفيد منهم ، ويشاركهم فيما هم فيه ، جواداً ، سمحاً إلى الغاية^(٥) ، قال ابن حجر
رحمه الله في مدح الخليفة المعتضد بالله لكثرة كرمه واحسانه للعلماء :

-
- (١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥٠٩ .
(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ٩٠/٢ ، وذكرت بعض المصادر التاريخية مُدداً أخرى ،
وبعضها لم يحدد عدد .
فذكر الديار بكرى عبارة ٠٠٠٠ أقام في الخلافة سنين ٠٠ تاريخ الخميس ٤٢٩/٢ .
وقال السخاوي عبارة ٠٠٠ واستمر دهرًا ٠٠٠ الضوء اللامع ٢١٥/٣ .
وقال البعض : انها تسع وعشرون سنة وأياماً ٠ ابن اياس : النجوم الزاهرة ٤٨٩/١٥ .
وقيل : انها ثمان وعشرين سنة وشهرين وأياماً ٠ ابن اياس : بدائع الزهور ٢٣٠/٢ .
(٣) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٩/٢ .
(٤) السخاوي : الضوء اللامع ٢١٥/٣ .
(٥) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٩/٢ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥٠٩ .

ياسيد اساد بني الدنيا فهم تحت لوائه الكريم المنعقد
 أمد دتني فضلا وشكري قاسر فان أردت الشكر مني فاقتصد
 أشبهت عباس الندي في المحل اذ أطاعه الغيث وكان قد فُقد
 الى أبي الفضل انتهى الجود وفي أولاده بقية فسل تجد (١)

بقي الخليفة العباسي المعتضد بالله في الخلافة حتى وفاته في شهر ربيع الأول من
 سنة خمس وأربعين وثمانمائة . (٢)

(١) السخاوى : الضوء اللامع ٢/٢١٥ .

(٢) الحنبلي : نزهة الناظرين ق ١٧ ، الصيرفي : نزهة النفوس ٢/٢٣٤ .

ومن مصادر ترجمته :

- السخاوى : التبر المسبوك في ذيل السلوك ٢٥ ، ابن ظهيرة : الفضائل ١٩٨ .
- ابن تغرى بردى : الدليل الشافي ١/٢٩٦ ، القلقشندى : مآثر الانافة ٢/٢١٠ .
- ابن الطولوني : النزهة السنية ١٣٣ ، الشرقاوى : تحفة الناظرين ١١٢ .
- الفاخورى : تحفة الأنام ١٣٧ ، الزركلي : الأعلام ٢/٢٣٤ .

١٣ - الخليفة

المستكفي بالله

سليمان بن المتوكل على الله محمد بن المعتض بالله

أبي بكر

(٨٤٥ - ٨٥٥ هـ)

بويغ بالخلافة بعهد من أخيه المعتض بالله ، فقد جمع السلطان الظاهر جقمق قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر ، وبقية القضاة ، وسائر الأمراء ، فلما تكامل المجلس بويغ سليمان بالخلافة ، ونزل الى داره في موكب حافل وقدّ امه القضاة الأربعة ، وأعيان الناس حتى وصل الى داره . (١)

أقام في الخلافة العباسية حتى وفاته في ثاني المحرم من سنة خمس وخمسين وثمانمائة بعد مرضه عدة أيام . (٢) ، فكانت مدة خلافته قرابة عشر سنين .

وصف المستكفي بالله بأنه كان حسن السيرة ، دينا ، عفيفا ، متواضعا ، تام العقل عفيفا عن المنكرات (٣) .

وقال فيه السيوطي : " وما أظن أنه وجد على ظهر الأرض خليفة بعد آل عمر بن عبد العزيز أعبد من آل بيت هذا الخليفة ... " . (٤)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٢٣٠ .

(٢) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٢/٤٣٠ ، السخاوى : الضوء اللامع ٣/٢٦٩ .

(٣) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٢/٤٣٠ .

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥١٣ .

ومن مصادر ترجمته :

الحنبلي : نزهة الناظرين ق ١٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥/٣٤٩ .
ابن تغرى بردى : الدليل الشافي ١/٣٢٠ ، ابن الطولوني : النزهة السنية ١٣٤ .
الشرقاوى : تحفة الناظرين ١١٢ ، الفاخورى : تحفة الأنام ١٣٧ ، الزركلي : الأعلام ٣/١٣٢ .

١٤ - الخليفة

القائم بأمر الله

حمزة بن المتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله أبي بكر

(٨٥٥ - ٨٥٩ هـ)

بويغ بالخلافة بعد موت أخيه المستكفي بالله سليمان الذي لم يكن قد عهد لأحد بالخلافة من بعده ، فأمر السلطان الظاهر جقمق بعرض أولاد الخليفة المتوكل على الله ، فلما عرضهم اختار منهم حمزة هذا ، فانه كان أسنّ من بقي من اخوته وأمثلهم ، فاستدعاه الى القصر السلطاني ، وحضر القضاة والأمراء وأعيان الدولة ، وأجمعوا على مبايعة حمزة بن المتوكل على الله بالخلافة . (١)

أقام في الخلافة حتى سنة ٨٥٩ هـ حيث خلع منها بأمر من السلطان الأشرف اينال ، وحمل القائم بأمر الله الى الاسكندرية فسجن بها حتى وفاته . (٢)

وصف الخليفة القائم بأمر الله بالشهامة ، والمراومة ، وأنه أقام أبهة الخلافة قليلا ، وكان عنده جبروت بخلاف سائر اخوته (٣) ، وكان فيه حدّة مع طيش وخفّة فيما قيل . (٤)

-
- (١) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٣٠/٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢٨٧/٢ .
 (٢) ابن الطولوني : النزهة السنية ١٣٥ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥١٣ .
 (٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥١٣ . نظم العقيان ١٠٧ .
 (٤) السخاوى : الضوء اللامع ١٦٦/٣ .

ومن مصادر ترجمته :

- ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ٤٣٢/١٥ ، الدليل الشافي ٢٧٩/١ ، الحنبلي : نزهة الناظرين ق ١٨ ، الشرقاوى : تحفة الناظرين ١١٢ ، الفاخورى : تحفة الأنام ١٣٧ ، ميخائيل بك : الكافي في تاريخ مصر ٥٠٣/٢ . الزركلي : الأعلام ٢٨٠/٢ ، أبو العز : الدر المنتخب ٢٨/٢ .

١٥ - الخليفة

المستنجد بالله

يوسف بن المتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله أبي بكر

(٨٥٩ - ٨٨٤ هـ)

بوسع بالخلافة بعد خلع أخيه حمزة في رجب سنة ٨٥٩ هـ (١) ، حيث أمر السلطان الأشرف اينال باحضار القضاة الأربعة ، وأشهدهم على مبايعته ليوسف بن المتوكل على الله بالخلافة ، وتلقب بالمستنجد بالله ، ونزل من القلعة في موكب حافل والقضاة قدّامه وأعيان الناس ، حتى أوصلوه الى بيته وهو في غاية العظمة . (٢)

طالت أيام المستنجد بالله في الخلافة العباسية (٣) حتى مرضه ثم وفاته فـ

رابع عشر المحرم سنة ٨٨٤ هـ ، فكانت مدة خلافته قرابة خمس وعشرون سنة .

وصف الخليفة العباسي المستنجد بالله بأنه كان " ريسا ، حشما ، عنده لين جانب مع تواضع زائد " (٤) ، وقال عنه السخاوي : " كان فيما بلغني كثير التلاوة في المصحف ، ساكنا ، بهيا " . (٥)

(١) ذكرت بعض المصادر أن مبايعته كانت في ثالث الشهر ، وبعضها ثالث عشر الشهر ،

وبعضها بدون تحديد ، بعبارة : ٠٠٠ في أوائل رجب ٠٠٠ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٣٥٠ .

(٣) ذكر السخاوي ، وابن اياس : أن مدة خلافته نحو أربع وعشرين سنة .

الضوء اللامع ١٠/٣٢٩ ، وبدائع الزهور ٣/١٥١ .

وذكر الحنبلي : أنها خمس وعشرين سنة . نزهة الناظرين ق ١٨ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٣/١٣٧ .

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ١٠/٣٣٠ ، وذكر أن المستنجد بالله حفظ القرآن الكريم

في نشأته ١٠/٣٢٩ .

ومن مصادر ترجمته :

- الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٣٠/٢ ، الحنبلي : نزهة الناظرين ق ١٨ .
- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٥٢/٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥١٤ .
- السيوطي ، حسن المحاضرة ٩٢/٢ ، ابن الطولوني : النزهة السنية ١٣٦ .
- الشرقاوى : تحفة الناظرين ١١٢ ، الفاخورى : تحفة الأنسـام ١٣٧ .
- ميخائيل بك : الكافي في تاريخ مصر ٥٠٦/٢ ، الزركلي : الأعلام ٢٥١/٨ .

١٦ - الخليفة

المتوكل على الله

عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله محمد

ابن المعتض بالله أبي بكر

(٨٨٤ - ٩٠٣ هـ)

بويغ بالخلافة بعد موت عمه المستنجد بالله يوسف وبعهد منه ، فانه لما طال مرض المستنجد بالله عهد الى ابن أخيه عبد العزيز بالخلافة^(١) ، فلما مات المستنجد بالله طلبه السلطان الأشرف قايتباي ، فحضر وحضر معه القضاة الأربعة ، وأرباب الدولة ، فوقع الاتفاق على مبايعته بالخلافة ، فلم يكن في بني العباس يومئذ أمثل منه^(٢) ، وبعد مبايعته ركب من القلعة الى منزله والقضاة والأعيان بين يديه .^(٣)

أقام في الخلافة حتى وفاته في المحرم سنة ٩٠٣ هـ بعد أن اشتد به المرض ، فكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وأياما .^(٤)

وقد اهتم والده بتربيته وتعليمه وتأديبه ، وقد قرأ المتوكل على الله القرآن في نشأته ، ونشأ معظما مشارا اليه ، ولا غرابة اذا وصف المتوكل على الله بأنه من خيار بني العباس ، كفوًا للخلافة ، وكان محبوبا للخاصة والعامه بخماله الجميلة ومناقبه الحميدة ، وتواضعه ، وحسن سمته ، وبشاشته لكل أحد^(٥) ، ومحفته للعلماء

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٥١٤ ، ابن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ٧٢/١ .

(٢) حضر عمه موسى بن المتوكل على الله محمد ذلك الاجتماع ، وطمع في الخلافة ، ولكنها صرفت عنه لعدم صلاحه لها . ابن اياس : بدائع الزهور ١٥١/٣ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ١٥١/٣ - ١٥٢ .

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٥١٦ .

(٥) المصدر السابق ٥١٥ .

وزيارته لهم ، والتأديب معهم ، فسمع الحديث على جماعة ، وأخذ الفقه واللغة العربية عن آخرين . (١)

(١) السخاوى : الضوء اللامع ٢٣٦/٤ .

ومن مصادر ترجمته :

الحنبلي : نزهة الناظرين ق ١٨ ، النهرواني : الاعلام بأعلام بيت النبوة
الحرام ٨٦ ، السيوطي : حسن المحاضرة ٩٢/٢ ، الشرقاوى : تحفة
الناظرين ١١٢ ، الفاخورى : تحفة الأنام ١٣٨ ، الزركلى :
الأعلام ٢٩/٤ .

١٧ - الخليفة

المستمسك بالله

يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز بن يعقوب بن

المتوكل على الله محمد

(٩٠٣ - ٩١٤ هـ)

بويغ بالخلافة بعد موت والده ، وبعهد منه ، ومع وجود من يطمع في منصب الخلافة الا أنه ترشح يعقوب لها ، " وفي الحقيقة لم يكن يومئذ من بني العباس من يملح للخلافة غيره في الدين ، والخير ، والصالح ، فاتفق الأمراء على ولايته " . (١)

ثم طلب السلطان حضور القضاة ، فلما حضروا وتكامل المجلس أحضر ليعقوب بن المتوكل على الله شعار الخلافة ، وتلقب بالمستمسك بالله ، ثم نزل من القلعة في موكب حافل حتى وصل الى داره . (٢)

أقام المستمسك بالله في الخلافة حتى سنة ٩١٤ هـ ، حيث استعفى منها ، وعهد بها الى ولده محمد ، فكانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة الا ثلاثة أشهر .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣/٣٨٠ .

(٢) المصدر السابق ٣/٣٨٠ .

ومن مصادر ترجمته :

السخاوى : الضوء اللامع ١٠/٢٨٥ ، الحنبلي : نزهة الناظرين ق ١٩ .

النهرواني : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ٨٦ ، الشرقاوى : تحفة

الناظرين ١١٢ ، الفاخورى : تحفة الأنام ١٣٨ ، الزركلي : الاعلام ٧/١٤٧ .

١٨ - الخليفة

المتوكل على الله

محمد بن المستمك بالله يعقوب بن المتوكل على الله

عبد العزيز

(٩١٤ - ٩٢٣ هـ)

آخر الخلفاء العباسيين بالديار المصرية ، بدأت خلافته في الرابع من شهر شعبان سنة ٩١٤ هـ ، حيث بويغ بالخلافة بعد أن استعفى والده يعقوب منها لكبر سنه وضعفه ، وقد عقد السلطان قانموه الغوري مجلساً بحضور القضاة والأمراء والأعيان لإعلان مبايعة محمد بن المستمك بالله بالخلافة ، فلما انفض ذلك المجلس نزل الخليفة المتوكل على الله من القلعة السلطانية في موكب حافل ، وصحبته القضاة الأربعة وأعيان الناس حتى وصل إلى داره . (١)

أقام في الخلافة حتى دخل السلطان سليم العثماني الديار المصرية ، وعند عودته إلى بلاده أخذ المتوكل على الله معه ، فبقي هناك حتى كبر سنه وشيخاً فاستأذن بعد وفاة السلطان سليم في العودة إلى مصر ، فأذن له ، وعين له ما يكفيه ، واستمر حتى وفاته في شعبان سنة خمسين وتسعمائة . (٢)

كان الخليفة المتوكل على الله فاضلاً ، أديباً ، يقول الشعر ، ومن شعره

قوله يصف حاله وزمانه :

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٤١/٤ .

(٢) الحنبلي : نزهة الناظرين ق ١٩ .

لم يبق من محسن يرجى ولا حسن

ولا كريم اليه مشتكى الحزن

وانما ساد قوم غير ذي حـــــــب

ما كنت أؤثر أن يمتد بي زمني (١)

(١) النهرواني : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ٨٦ .

ومن مصادر ترجمته :

العصامي : سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ٣/٣٩٩ .

الشرقاوى : تحفة الناظرين ١١٢ ، ميخائيل بك : الكافي في تاريخ مصر القديم

والحديث ٢/٤٩٠ ، الفاخورى : تحفة الأنام ١٣٨ ، ١٦٩ ، الزركلي : الأعلام

١٤٧/٧ ، زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ١/٤ - ٥

جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ٢/٩ ، أورخان علي : السلطان عبد الحميد

الثاني ٢١ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ٩٦ ، ١٩٤ ، علي

حسون تاريخ الدولة العثمانية ٥ .

ومن خلال استعراض الألقاب التي حملها الخلفاء العباسيون بالديار المصرية بعد اعلان قيامها ثانية ، نجد أن كثيرا من تلك الألقاب سبق أن حملها بعض خلفاء بني العباس في بغداد ، أو بعض الحكام العبيد بين الذين تسموا بالخلفاء ، وحاولوا اثبات صحة نسبهم لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم بالتشرف بحمل لقب الخلافة .

وقد يرجع السبب في اختيار تلك الألقاب واطفائها على الخليفة العباسي بعد مبايعته بالخلافة الى التيمن بحمل ذلك اللقب و التفاؤل بأن يكون هذا الخليفة الجد يد مثل الذي سبقه من خلفاء بني العباس الذين حملوا ذلك اللقب في عاصمة الخلافة العباسية الأولى بغداد ، يضاف الى هذا طبيعة التنافس على حمل لقب الخلافة بين أكثر من طامع فيها من نواحي مختلفة من البلاد الاسلامية نظرا لمكانة هذا المنصب لدى المسلمين ، ولذلك نجد أن اللقب الواحد حمله أكثر من شخص في وقت واحد في أمكنة مختلفة في ظل ذلك التنافس السياسي .

ومن الأمثلة على ذلك أنه بعد مبايعة أول الخلفاء العباسيين بمصر لقب بالمستنصر بالله ، " وهذا لقب اتخذته ماحب افريقيا قبل قيام الخلافة ثانية في القاهرة ولم يكن تطابق اللقبين مجرد معادفة ، أو توارد خواطر بقدر ما كان نوعا من التحسد والمنافسة " (١) ، على زعامة العالم الاسلامي . ومحاولة لاثبات الوجود السياسي لكل طرف منهما . وايجاد الهيبة لدى المخالفين لهما المعارضين لنفوذهما .

وحمل بعض الخلفاء العباسيين في الديار المصرية ألقابا سبق أن حملها من سبقهم في تولي منصب الخلافة ، فنجد لقب المستكفي بالله حمله سليمان بن أحمد سنة ٧٠١ هـ ، وسليمان بن محمد في سنة ٨٤٥ هـ . ولقب المعتضد بالله حمله

(١) أحمد العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ١٩٦٠ .

أبوبكر بن سليمان سنة ٧٥٣ هـ ، وداود بن محمد سنة ٨١٥ هـ ، ولقب المتوكل على الله
حملة محمد بن أبي بكر سنة ٧٦٣ هـ ، ٧٩١ هـ ، وحملة عبد العزيز بن يعقوب سنة
٨٨٤ هـ ، ثم حملة حفيده محمد بن يعقوب آخر الخلفاء العباسيين في مصر سنة ٩١٤ هـ .

الرقم	اللقب	اسم من حمله	التاريخ	المكان
١	المستنصر بالله	أ) محمد بن علي الظاهر العبيدي ب) منصور بن محمد الظاهر بالله العباسي ج) محمد بن يحيى بن عبد الواحد الحفصي د) أحمد بن محمد بن الظاهر بالله العباسي هـ) عمر بن يحيى بن عبد الواحد الحفصي	٤٢٧ - ٤٨٧ هـ ٦٢٢ - ٦٤٠ هـ ٦٤٨ - ٦٧٥ هـ ٦٥٩ - ٦٦٠ هـ ٦٨٢ - ٦٩٤ هـ	القاهرة بغداد تونس القاهرة تونس
٢	الحاكم بأمر الله	أ) منصور بن عبد العزيز العبيدي ب) أحمد بن الحسن العباسي	٣٨٦ - ٤١١ هـ ٦٦٠ - ٧٠١ هـ	القاهرة ،
٣	المستكفي بالله	أ) عبد الله بن علي المكتفي بالله العباسي ب) سليمان بن أحمد الحاكم بأمر الله ج) سليمان بن محمد بن المعتضد بالله العباسي	٣٢٣ - ٣٢٤ هـ ٧٠١ - ٧٤٠ هـ ٨٤٥ - ٨٥٥ هـ	بغداد القاهرة القاهرة
٤	الواثق بالله	أ) هارون بن محمد المعتصم بالله العباسي ب) الواثق بالله بن المستنصر الحفصي ج) إبراهيم بن محمد بن الحاكم بأمر الله	٢٢٦ - ٢٣٢ هـ ٦٧٥ - ٦٧٨ هـ ٧٤٠ - ٧٤١ هـ	بغداد تونس القاهرة
٥	المعتضد بالله	أ) أحمد بن الموفق بالله طححة العباسي ب) أبو بكر بن سليمان بن الحاكم بأمر الله ج) داود بن محمد بن المعتضد بالله	٢٧٩ - ٢٨٩ هـ ٧٥٢ - ٧٦٢ هـ ٨١٥ - ٨٤٥ هـ	بغداد القاهرة ،

الرقم	اللقب	اسم من حمله	التاريخ	المكان
٦	المتوكل على الله	أ (جعفر بن المعتمد بالله محمد ب (أبو بكر بن يحيى الحفصي ج (محمد بن أبي بكر المعتضد بالله د (عثمان بن محمد الحفصي هـ (عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله و (محمد بن يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز	٢٣٢ - ٢٤٧ هـ ٧١٧ - ٧٤٧ هـ ٧٦٣ - ٧٨٥ هـ ٧٩١ - ٨٠٨ هـ ٨٢٩ - ٨٩٣ هـ ٨٨٤ - ٩٠٣ هـ ٩١٤ - ٩٢٣ هـ	بغداد تونس القاهرة " " تونس القاهرة القاهرة
٧	المستعم بالله	أ (عبد الله بن منصور العباسي ب (زكريا بن ابراهيم بن محمد بن الحاكم	٦٤٠ - ٦٥٦ هـ ٧٨٨ - ٧٩١ هـ	بغداد القاهرة
٨	المستعين بالله	أ (أحمد بن محمد المعتمد بالله العباسي ب (العباس بن محمد بن المعتضد بالله	٢٤٨ - ٢٥٢ هـ ٨٠٨ - ٨١٥ هـ	بغداد القاهرة
٩	القائم بأمر الله	أ (نزار بن عبيد الله العبيدي ب (عبد الله بن أحمد بن المقتدر بالله العباسي ج (حمزة بن محمد بن المعتضد بالله	٢٢٢ - ٢٣٤ هـ ٤٢٢ - ٤٦٧ هـ ٨٥٥ - ٨٥٩ هـ	القاهرة بغداد القاهرة
١٠	المستنجد بالله	أ (يوسف بن محمد بن المستظهر بالله العباسي ب (يوسف بن محمد بن المعتضد بالله	٥٥٥ - ٥٦٦ هـ ٨٥٩ - ٨٨٤ هـ	بغداد القاهرة

وقد نظم جلال الدين السيوطي قصيدة في مائة وستة عشر بيتا ، ذكر فيها
 أسماء الخلفاء ، ووفياتهم ، بدءا من الخلفاء الراشدين ، وانتهاء بخلفاء عصره ، وكانت
 تلك القصيدة خاتمة لكتابه (تاريخ الخلفاء) ، ومما قاله عن خلفاء بني العباس بالديار
 المصرية بعد حديثه عن مجيء المغول لديار الاسلام وسقوط بغداد في سنة ٦٥٦ هـ :

- | | |
|-------------------------------------|--------------------------------|
| موت ثلاث سنين بعده ، وبلي | نصف ودهر الوري من قائم شغرا |
| (١) | |
| وقام من بعد ذا مستنصر ، وشوى | في آخر العام قتلا منهم و سرى |
| أقام ست شهور ، ثم راح لــــدى | مهل ستين لم يبلغ بها وطرا |
| (٢) | |
| وقام من بعده في مصر حاكمهم | على وهى لا كمن من قبله غبرا |
| (٣) | |
| ومات في عام احدى بعد سبع مئى | وقام من بعد مستكفيهم وجرى |
| (٤) | |
| في أربعين قفى اذ قام واثقهم | ففي اثنتين مضى خلعا من الأمرا |
| (٥) | |
| وقام حاكمهم من بعده ، وقضى | عام الثلاث مع الخمسين معتبرا |
| (٦) | |
| وقام من بعده بالأمر معتضدا | وفي الثلاثة والستين قد عبرا |
| (٧) | |
| وذ والتوكــــل يتلوه أقام الــــى | بعد الثمانين في خمس وقد حصرا |
| (٨) | |
| وبايعوا واثقا بالله . تمت نى | عام الثمان قفى ، سميه عمرا |
| (٩) | |
| وبايعوا بعده بالله معتصما | لعام احدى وتسعين أزيل ورا |
| (١٠) | |
| وذ والتوكــــل رد وه ، أقام الــــى | ذا القرن عام ثمان منه قد قبرا |
| في عهده زيد من بعد الأذان على | خير النبيين تسليم كما أمرا |
| وأحدث السمة الخفراء للشرفا | يا حسنها من سمات بوركت خفرا |
| أولاده منهم خمس ميجــــلة | جاءوا الخلافة اذ كانت لهم قدرا |
| (١١) | |
| فالمستعين وآل الأمر أن خلعاوا | في شهر شعبان في خمس تلي عشا |
| (١٢) | |
| وقام من بعده بالأمر معتضدا | لأربعين تليها الخمسة احتفرا |
| (١٣) | |
| وقام بالأمر مستكفيهم . وقضى | في عام الأربع والخمسين محظبرا |

- (١٤) وقام قائمهم من بعد ، تمت في
 (١٥) وقام من بعده مستنجد دهرًا
 وليس يعرف في الأعصار قبلهم
 وبعد نظمي هذا النظم في مدد
 في عام الأربع في شهر المحرم من
 (١٦) وبوبع ابن أخيه بعده ، ودعي
 ولم يسم امام في الأولى سبقوا
 فالله يبقيه ذا عز ، ويحفظه
 ومات عام ثلاث ، بعد تسع مئتي
 (١٧) لنجله البر يعقوب الشريف ، وقد
- تسع وخمسين بعد الخلع قد حصرا
 خليفة العصر رقاها الاله ذرى
 خمس ولوا اخوة بل أربع أمرا
 قضى خليفتنا المذكور مصطبرا
 بعد الثمانين يوم السبت قد قبرا
 بذى التوكل كالجذ الذي شهرا
 عبد العزيز سواه فاسمه ابتكرا
 ويجعل الملك في أعقابه زمرا
 سلخ المحرم عن عهد لمن سطر
 لقب مستمسكا بالله في صفرا

الفصل الثالث

السلطين المماليك

في

مصر

يرجع ظهور المماليك في العالم الاسلامي الى ما قبل قيام السلطنة المملوكية بأمد طويل ، والمقصود بالمماليك هم أعداد من الرقيق الأبيض الذين عرفهم المجتمع الاسلامي منذ أيام قوة الخلافة العباسية في بغداد ، فكانوا يجلبون في أول الأمر من وسط آسيا وغربها ، ثم كثر استخداهم في جيوش مختلف الدول الاسلامية حتى أصبحوا أسباب النفوذ والسلطان في شئون الحرب والسياسة معا ، وذلك بعد أن أصبح كثير من السلاطين والحكام يستعينون بأولئك المماليك الذين صاروا الأداة الحربية في بعض الدول ، مثل الطولونيين ، والاشقيديين ، ثم الفاطميين (*) . (١)

وقد تزايدت أعداد أولئك المماليك بالديار المصرية تحت حكم الطولونيين حتى الفاطميين ، ولما انتقلت السلطة الى الأيوبيين في سنة ٥٦٢ هـ لم يشذ سلاطينهم عن سبقهم ، فأكثروا من شراء الرقيق الأبيض ، واتخاذ المماليك دعامه يستندون اليها في تدعيم نفوذهم داخل البلاد ، وحمائتهم من الأخطار الخارجية التي تهدد هم من ناحية الدول المجاورة لهم . (٢)

وكانت كل مجموعة من هؤلاء المماليك تنسب الى سيدها الذي اشتراها من تجار الرقيق ، وتولاها بالتربية والتدريب للعمل في خدمته ، وكانت أعدادهم لا تنقطع بسبب ازدياد حاجة السلطنة الى اقتناء المماليك واستخداهم في الجيش ، ولأن ثراء الدولة المملوكية وتواتر الأخبار بأن في وظائفها وسلطنتها ميداناً فسيحاً لكل ذي موهبة ومقدرة ، فساعد ذلك على اجتذاب عدد كبير من أجناس مختلفة الى مصر (٣) ،

(*) سماوا بذلك لادعائهم أنهم ينتسبون الى فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وفي صحة نسبهم خلاف ، والاسم الصحيح لدولتهم هو (العبيدية) نسبة الى جد هم (عبيد الله) (١) سعيد عاشور : العصر المملوكي في مصر والشام ٥٥٠ ، مصر في عصر المماليك البحرية ١٢ ، على حسن : تاريخ المماليك البحرية ٢٣ ، أحمد العبادي : قيام دولة المماليك ١١ .

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٢ .

(٣) كانت الغالبية العظمى من أولئك المماليك من نواحي بلاد القوقاز وتركستان ، وبلاد ما وراء النهر ، فكانوا خليطاً من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد . علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٢٤ .

وقسيل أن ما كان يصل الى بلاد التركستان من الأقاليم عن أحوال المماليك في مصر وما يذاع عن ثروة الناس بالقاهرة ، كان باعثا لكثير من أهل تلك البلاد على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا من حاشية السلاطين في مصر . (١)

ويبدو من تاريخ السلطان الصالح أيوب (٢) ، وهو السلطان قبل الأخير من سلاطين البيت الأيوبي في مصر ، أنه أكثر من استخدم المماليك في جيشه ، الى درجة فوق المعتاد ، وأنه اتخذ منهم حرسا خاصا له بعد أن أصبح لا يأمن على نفسه شر المؤامرات العديدة التي حاكها ضده أقاربه من أبناء البيت الأيوبي قبل أن يصبح سلطانا . (٣)

وإذ دان الصالح أيوب لطوائف المماليك ، فان ذلك جعله لا يثق كثيرا في هذه الطوائف بعد أن وضع لأفرادها أنهم أصحاب فضل عليه بمساعدتهم له للوصول الى منصب السلطنة ، لذلك استقر رأيه على تأليف طائفة جديدة من المماليك ترتبط به وتدين له بالطاعة ، وتعترف له بالفضل ، ولا تذكر أستاذ لها غيره ، وقد أطلق الصالح أيوب على هذه الطائفة الجديدة من المماليك الذين جلبهم اسم (المالحية البحرية) إشارة الى نسبتهم اليه من ناحية ، والى مقرهم الجديد في قلعة الروضة من نهر النيل من ناحية أخرى ، حيث بنى لهم تلك القلعة في سنة ٦٣٨ هـ ، وأقام فيها تحوطه صفوة مماليكه ، وزود تلك القلعة بكثير من الأسلحة وآلات الحرب ومما يحتاج اليه من المؤن والغلال ، وبذلك استطاع أن يأمن على نفسه من شر سائر طوائف المماليك المتطاحنة في داخل مصر وخارجها . (٤)

-
- (١) علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٢٥ ، أحمد العبادي : قيام دولة المماليك ١٣
(٢) الملك الصالح أيوب بن الكامل محمد بن العادل ، من كبار الملوك الأيوبيين بمصر ، ولد ونشأ بالقاهرة ، كان شجاعا مهيبا عفيفا ، من آثاره قلعة الروضة بالقاهرة .
(الزركلي : الأعلام ٣٨/٢) .
(٣) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٣ ، أحمد العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ٩٤ .
(٤) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٤ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٣٦ .

غير أن الأيام الأخيرة لسلطنة المالح أيوب شهدت محاولات الملبيين احتلال السواحل المصرية ، حيث قاد لويس التاسع حملة فرنسية استطاعت الاستيلاء على مدينة دمياط ، ومات المالح أيوب قبل أن يتمكن من هزيمة الملبيين وذلك في سنة ٦٤٧ هـ ، وقامت بتدبير أمر السلطنة زوجته شجرة الدر ، حيث قبضت على زمام الدولة واستطاعت أن تقوم بدور خلد اسمها في التاريخ ، فقد لجأت الى اخفاء خبر وفاة زوجها السلطان المالح أيوب في وقت كانت الحرب قائمة بين المسلمين والمليبيين في مصر حتى لا تتأثر السروح المعنوية لجند السلطنة ، واستمرت في الاشراف على سير المعارك بالتشاور مع قائد الجيش الأمير فخر الدين يوسف بن حمويه . (١)

وبعد موت السلطان المالح أيوب أشاعت زوجته شجرة الدر أن السلطان قد اشتد به المرض ، وظلت الأطعمة والأشربة والأدوية تدخل لغرفة السلطان في مواعيدها ، واستمرت الموائد السلطانية تعمل في أوقاتها ، يضاف الى ذلك أن الأوامر السلطانية كانت تصدر وعليها توقيع السلطان المالح أيوب ، وكان اذا سأل سائل عن السلطان ، ردت شجرة الدر : بأنه مريض ما يعمل اليه أحد ، ولانقاذ الدولة الأيوبية من ذلك الموقف الحرج عمدت شجرة الدر بارسال قائد المماليك البحرية الى ناحية حمن كيفا (٢) في مهمة سرية عاجلة لاحضار ابن المالح أيوب توران شاه . (٣)

(١) علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٣٧ ، السيد العربي : المماليك ٤٥ .
 (٢) ويقال له (حمن كيا) ، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على نهر دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر ، من ديار بكر ، تولى حكمها صاحب آمد من أبناء الأسرة الأرتقية . (الحموي : معجم البلدان ٢/٢٦٥) .
 (٣) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٥ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٣٧ .

وبعد وصول توران شاه^(١) الى مصر سلمته شجرة الدر مقاليد الحكم ، وأعلن خبر وفاة والده السلطان الصالح أيوب بعد أن حلف له الأمراء يمين السلطنة ، ولكن العلاقة بين توراه شاه ومماليك أبيه من جهة ، وزوجة أبيه شجرة الدر من جهة ثانية ، ساءت بعد فترة وجيزة من توليه السلطنة ، فقد تنكر للجميل الذي صنعتة زوجة أبيه بعد وفاته ، وهددها وتوعدها بالعقاب ، وأساء معاملتها بعد أن اتهمها باخفاء ثروة أبيه ، ثم أتبع ذلك بعدم الوفاء بالوعد الذي قطعه على نفسه لأتابك العساكر وقائد الجيش الأمير فارس الدين أقطاي بأن يمنحه نيابة مدينة الاسكندرية .

ثم تمادى توران شاه في الاساءة الى مماليك أبيه بعد أن اعتقل كثيرا منهم ووزع وظائفهم على جلسائه الذين حضروا في صحبتته من حصن كيفا ، ويبدو أن هؤلاء الندماء أخذوا يثيرون ضغينة توران شاه على زوجة أبيه ومماليكه ، فأوحوا اليه بأن النفوذ الفعلي في السلطنة في يد أرملة أبيه ومن حولها من الأمراء ، لذلك عزم السلطان توران شاه على أن يضيق على المماليك البحرية مما جعلهم يفكرون في التخلص منه خاصة بعد أن ظهر منه ما يخيفهم باعلانه عزمه على ضربهم جميعا بالسيف . (٢)

وقد انتهت تلك الفتنة بين توران شاه والأمراء المماليك بمقتله على أيديهم ، ثم وقع الاتفاق بين أمراء المماليك البحرية على مبايعة الأمير عز الدين أيبك التركمانى بالسلطنة فملكوه عليهم ولقبوه بالملك المعز ، وبعد خمسة أيام أعلن عن اقامة الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف الأيوبي في الملك وجعل المعز أيبك مدبرا للمملكة ، وذلك لصغر سن الأشرف مظفر الدين ، وقد كانت شجرة الدر خلف تلك

(١) الملك المعظم توران شاه بن الصالح أيوب ، تولى أمر حصن كيفا في حياة أبيه ، وكان أبوه يستدعيه في أيامه الى الديار المصرية فلا يجيبه ، فلما توفي أبوه استدعاه الأمراء فلما حضر اليهم ملكوه عليهم ثم قتلوه . (ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/١٩٢) .
 (٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٦ - ١٧ ، على حسن : تاريخ المماليك البحرية ٣٧ ، السيد العريني : المماليك ٤٦ ، العبادي : قيام دولة المماليك ١١١ .

التدابير التي وقعت بالديار المصرية بعد مقتل توران شاه ، وأصبحت تدبير شؤون السلطنة فكانت الخطبة والسكة لها ، ويدعى لها على المنابر أيام الجمع بمصر وأعمالها مدة ثلاثة أشهر ، حتى استقل الملك المعز بالملك بعد ذلك بلا منازعة بعد خلع الأشرف (١) مظفر الدين الأيوبي ، ثم زواجه من شجرة الدر التي نزلت له عن الملك بالديار المصرية .

وبسلطنة شجرة الدر ، ثم المعز أيبك التركماني بدأ حكم المماليك البحرية للديار المصرية ، وقد حاول الأيوبيون بالشام معارضة حكم المماليك لمصر واستعادتها من أيديهم وفي مقدمة هؤلاء الناقمين على المماليك السلطان الناصر يوسف الأيوبي ملك حلب ، فقد غضب لمقتل ابن عمه توران شاه وعزم على الانتقام لمقتله واستعادة ما اغتصبه المماليك البحرية من أراضي السلطنة الأيوبية بمصر . (٢)

ونتيجة عن ذلك النزاع بين الأيوبيين والمماليك البحرية انقسام البلاد المصرية والشامية الى قوتين متنازعتين : الأولى بأيدي المماليك ، والثانية بأيدي الأيوبيين ، وادراكا من الخليفة العباسي المستعصم بالله لخطورة ذلك النزاع في ظل تزايد الخطر المغولي على البلاد الاسلامية أسرع الخليفة العباسي الى العمل على توحيد صفوف المسلمين لمواجهة هذا الخطر الجديد ، فأرسل الشيخ نجم الدين البادرائي للصلح بينهم فتم توقيع معاهدة بين الطرفين في سنة ٦٥١ هـ . (٣)

وبعد تلك المعاهدة انشغل المعز أيبك باصلاح الأوضاع الداخلية لسلطنة المماليك بالديار المصرية ، حيث زاد عبث المماليك البحرية وأكثروا اعلان مخالفتهم

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/١٩٠ - ١٩١ ، ابن تغرى بردى : النجوم

الزاهرة ٨/٧ .

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٢٤ ، أحمد العبادي : قيام

دولة المماليك ١٢٢ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/١٩٦ . الحقيزي : السلوك ١/٢/٣٨٥ .

وعصيانه من جهة ، ونشط الأعراب في نواحي مصر وأنفوا من الخضوع لحكم المماليك البحرية من جهة ثانية ، واستمر المعز أيبك في تلك المعاناة حتى كانت وفاته على يد أقرب الناس اليه وهي زوجته شجرة الدر بعد أن علمت بعزمه على الزواج من ابنة صاحب الموصل ، وكانت وفاته سنة ٦٥٥ هـ . (١)

وبعد وفاة عز الدين أيبك التركماني أقام الأمراء المماليك مكانه ولده عليا ولقبوه بالملك المنصور ، وذلك باشارة من أكبر مماليك أيبك وهو الأمير سيف الدين قطز ، الذي أصبح مدبرا للمملكة لمصر سن الملك المنصور ، وليست هناك أهمية خاصة في التاريخ لعهد المنصور الذي كان من المحتمل أن يستمر في الحكم مدة أطول لولا تطور الأحداث الخارجية تطورا خطيرا بسبب تهديد المغول لقلب العالم الاسلامي مما عجل بوضع نهاية لعهد السلطان المنصور حيث عزله المظفر قطز واستقل بالملك وأعلن نفسه سلطانا على مصر في سنة ٦٥٨ هـ ، بعد أن أعلن للملأ " حاجة المسلمين الى سلطان قاهر يقاتل عن المسلمين عدوهم ، وأن المنصور علي صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة " . (٢)

وقد واجه المظفر قطز في بداية سلطنته تزايد تهديد المغول للديار المصرية والبلاد الشامية بعد احتلال هولاء كولا للعراق ، فاستغل وقته في الاستعداد للقائهم وحماية البلاد الاسلامية من شرهم ، وكانت الموقعة الشهيرة معهم في عين جالوت في رمضان من سنة ٦٥٨ هـ التي كانت أول هزيمة تلحق بالمغول على أيدي المسلمين ، وبذلك انهارت المقولة التي كان يرددونها قادة المغول لاخافة أعدائهم ، وهي أن المغول قوم لا يغلبون . (٣)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٨/١٣ - ٢٠٩ ، المقرئزي : السلوك ٣٩٥/٢/١ .
 (٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٩/١٣ - ٢١١ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٧٧/٧ ، سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٢٨ - ٣١ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٤٥ .
 (٣) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٣٥ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٤٥ .

وبعد أن تحقق ذلك الانتصار على يد المظفر قطز - بفضل الله وتوفيقه -
 وقع الخلاف بينه وبين كبار الأمراء المماليك ، مما نتج عنه مقتله في سادس عشر ذى الحجة
 سنة ٦٥٨ هـ ، وبذلك انتهت حياة المظفر قطز بطل عين جالوت ، وقام الأمراء المماليك
 البحرية بمبايعة الأمير بيبرس البندقدارى بالسلطنة ، واتجه الركب في طريقه الى القاهرة
 التي كانت قد استعدت لاستقبال قطز باقامة الزينات ، وخرج الأهالي مرحبين في انتظار
 مقدم السلطان المظفر غير عالمين بأن الموكب السلطاني القادم من الشام هو مركب الظاهر
 بيبرس لا المظفر قطز . (١)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٨/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨٧/٧
 سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٣٧ ، علي حسن : تاريخ المماليك
 البحرية ٤٥ ، أحمد العبادى : قيام دولة المماليك ١٦١ ، ١٧٢ ، السيد
 العرينى : المماليك ٤٨ - ٤٩ .

السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ) :

وقد تولى السلطنة بالديار المصرية ، واعتلى عرش المملكة بعد مقتل المظفر قطز ، وتشير الحوادث التالية الى أن السلطان الجديد قد وضع لنفسه برنامجاً ضخماً في الداخل والخارج ، فبدأ باستمالة الأهالي الى جانبه عن طريق ابطال كثير من المكوس والضرائب التي استحدثها المظفر قطز ، وعمل جاهداً على تهدئة المماليك البحرية ومنعهم من التعدي للأهالي بسوء ، وبذلك هدأت النفوس وأخذ الناس يطمئنون الى العهد الجديد . (١)

والواقع أن الأمور لم تستقر للظاهر بيبرس في سرعة وسهولة ، اذ تعرض في أوائل حكمه لبعض الفتن والثورات الداخلية التي تعرض لها غيره من السلاطين المماليك السابقين واللاحقين ، ومن ذلك عصيان الأمير علم الدين سنجر الحلبي واعلانه نصب نفسه سلطاناً بدمشق . (٢)

يضاف الى ذلك الخطر المغولي الذي ما زال يهدد البلاد الاسلامية في الشام ومصر ، والأطماع الصليبية في السواحل الشامية ، وقد واجه الظاهر بيبرس تلك المصاعب برباطة جأش وحزم ، جعله من أعظم سلاطين المماليك بالديار المصرية ، فاستطاع - بفضل الله - القضاء على الاضطرابات الداخلية ، وحماية البلاد الاسلامية بالشام ومصر من خطر المغول والصليبيين . (٣)

-
- (١) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٣٨ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٤٨ .
- (٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٢/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠٤/٧ .
- (٣) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٣٩ ، العصر المملوكي في مصر والشام ٥٨ ، علي حسن : استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ المصري ٢٩ - ٣٠ .

وقد وُصف الظاهر ببيبرس بمفات حميدة ساعدته على بسط نفوذه واستقرار ملكه فقيل عنه : أنه كان ملكاً شجاعاً ، مقداماً ، غازياً ، مجاهداً ، مرابطاً ، جليل القدر ، مهيباً ، كفؤاً للسلطنة ، وافر العقل ، عارفاً بأحوال المملكة ، خضعت له ملوك الشرق وملوك الفرنج ، وكان يلقب بأبي الفتوحات لكثرة فتوحاته للبلاد والشغور ، وكان منقاداً للشريعة ، يحسب العلماء والملحاء وفعل الخير .

كانت وفاته بحلب أثناء خروجه لقتال المغول حيث ثقل عليه المرض حتى مات بنواحيهسا ، فحمل إلى دمشق فدفن بها ، وبذلك انتهت سلطنته التي دامت قرابة سبعة عشر عاماً . (١)

السلطان الملك السعيد محمد بن الظاهر ببيبرس (٦٧٦ - ٦٧٨ هـ) :

تولّى السلطنة المملوكية بعد وفاة والده ، وقد مهد الظاهر ببيبرس لذلك بأن جعل ابنه ولياً للعهد من بعده في سنة ٦٦٢ هـ ، فأقام على ذلك سنين حتى كانت وفاة والده ، فتمت مبايعته بالسلطنة في شهر صفر من سنة ٦٧٦ هـ ، وهو ابن تسع عشرة سنة ، ونظراً لضعفه سنة فقد كان القائم بتدبير أمور المملكة الأمير بدر الدين الخازندار . (٢)

وعلى الرغم من أن الظاهر ببيبرس كان أحد الأمراء المماليك الذين لم يؤمنوا بنظام وراثته الملك ، وعلى الرغم من أنه عاصر الأحداث التي أدت إلى عزل المنصور علي بن المعز أيبك التركماني وقيام المظفر قطز في السلطنة ، إلا أن غريزة الأبوة غلبت على ببيبرس فأراد أن يورث سلطنة المماليك لابنه الملك السعيد ، وربما ظن الظاهر ببيبرس أن ما حققه من انتصارات عسكرية وإصلاحات داخلية ، وما وصل إليه من نفوذ واسع لم يدركه من قبله من سلاطين المماليك ، وما تحقق من المجد ما يكفل لابنه الملك السعيد القيام في الحكم من

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٨٩/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة

١٧٧/٧ ، القلقشندي : صبح الأعشى ٣٦٣/٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٤١/١ ،

محمد جمال الدين سرور : الظاهر ببيبرس وحضارة مصر في عصره ١١٣ ، علي حسن :

تاريخ المماليك البحرية ٥٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٩٢/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٥٩/٧ .

بعده دون اعتراض على ذلك من كبار الأمراء المماليك . (١)

ولكن أوضاع السلطنة المملوكية سارت بخلاف رغبة الظاهر بيبرس ، فقد كانت الحال عند وفاة السلطان المملوكي أو مقتله بالنسبة للأمراء المماليك ، يرون أن المفروض هو انتقال منصب السلطنة الى أقوى الأمراء وأوفرهم حظا ، وكان الذي يحدث في كثير من الأحيان عند موت السلطان اشتداد التنافس بين كبار الأمراء للفوز بمنصب السلطنة ، وتجنباً للفتنة يلجأ الأمراء المماليك في هذه الحالة الى المناداة بابن السلطان الميت ومبايعته بالسلطنة لا ايمانا منهم بأحقيته في وراثة أبيه في منصبه ، وانما كان ذلك التصرف منهم اجراء مسكناً سريعا الى أن تهدأ الأمور ويبرز من بينهم من يستطيع التغلب على منافسيه ، فعندئذ يسهل عزل ذلك الابن ليحل محله أمير مملوكي يعتمد على قوته ونفوذه بعد فوزه بمنصب السلطنة ، وهذا ما حدث للملك السعيد ولغيره من أبناء السلاطين المماليك من بعده . (٢)

يضاف الى ذلك الخلاف الذي وقع بين السلطان الملك السعيد وكبار الأمراء المماليك وقيامه بتوعدهم بالقتل بعد أن حبس جماعة منهم ونفى آخرين ، وانشغاله عن السلطنة باللهو ومجالسة الندماء حتى نفرت منه قلوب من حوله ، وتمنى كل أحد زواله ، وكان ذلك بخلعه من السلطنة بعد سنتين وشهر من توليها . (٣)

السلطان العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس (٦٧٨ - ٦٧٨ هـ) :

تولى السلطنة بعد خلع أخيه الملك السعيد ، فقد حصل الاتفاق بين الأمراء المماليك على مبايعة سلامش بالسلطنة وأن يكون الأمير سيف الدين قلاوون الألفي المالحي ، ثم أخذ قلاوون في تحليف الأمراء للسلطان الجديد فحلفوا له بأجمعهم على السمع والطاعة

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٦٤ ، مصر في عصر المماليك البحرية ٤٣

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، مجلة عالم الفكر ، العدد

الرابع ، السنة ١٩٨٥ م ، ص ٢٥٦ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٤/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٧٠/٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٤٥/١ ، العمامي : سمط النجوم العوالي ١٩/٤ ، سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٦٥ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٥٢

على العادة .

وخطب الخطباء باسم العادل سلامش ، وضربت السكة باسميهما في أحد الوجهين اسم الملك العادل ، والآخر اسم الأمير قلاوون ، واستمر الأمر على ذلك . (١)

وكان المتصرف في أمور السلطنة هو الأمير قلاوون الذي تصرف في المملكة والخزائن وعامله الأمراء والعساكر السلطانية بما يعاملون به السلطان ، ولم يكن معه العادل سلامش سوى آلة ليس له في السلطنة سوى مجرد الاسم فقط ، وكان قلاوون هو الكل ، ولم تكن بيعسة

(٢) سلامش الا خوفا من غضب المماليك الظاهرية الذين كانوا يوم ذاك هم معظم العساكر المصرية .

وقد استغل الأمير قلاوون صغر سن السلطان العادل سلامش حيث كان ابن سبع سنين عندما تولى السلطنة فأخذ يمكن لنفسه لنيل السلطنة ، فبعد أن قبض على زمام الأمور بتخلعه من ممالك الظاهر بيبوس وسجنهم ، جمع كبار الأمراء المماليك واتفق الجميع على خلع العادل سلامش من السلطنة ومبايعة الأتابك قلاوون ، وبذلك انتهت سلطنة العادل التي دامت قرابة ثلاثة أشهر وستة أيام . (٣)

السلطان المنصور قلاوون الألفي (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) :

بويغ قلاوون بالسلطنة بعد خلع العادل سلامش ، وخطب له على المنابر بالديار المصرية والشامية وضربت السكة باسمه ، وجرت الأمور بنقنقى رأيه ، فعزل وولى ، ونفسدت أوامره في سائر البلاد . (٤)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٥/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٧١/٧ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٨٨/٧ . ابن اياس : بدائع الزهور ٣٤٦/١ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٥/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٨٨/٧ ،

ابن اياس : بدائع الزهور ٣٤٧/١ ، المنوفي : أخبار الأول ١١٧ ، العصامي : مسط

النجوم العوالي ١٩/٤ ، ابن الوردي : التاريخ ١٥٠/٢ ، ابن طولون : اعلام السورى

بمن ولى من الأتراك ناشيا بد مشق الكبرى ٨ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٦/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٩٢/٧ .

غير أن السلطان الملك المنصور قلاوون لم يلبث أن تعرض في أوائل حكمه لكثير من العقبات التي تعرض لها غيره ممن سبقه من سلاطين المماليك ، ونقصد بهذه العقبات خروج كبار الأمراء المماليك عن طاعته ، لأنهم يأنفون الخضوع لواحد منهم ، لاعتقادهم بأنهم أجد ر منسـه بالسلطنة ، ومن ذلك عصيان الأمير سنقر الأشقر للمنصور قلاوون واعلانه لنفسه سلطانا بد مشق وتلقبه بالملك العادل ، لأنه كان يرى نفسه أعظم عند الظاهر بيبرس ، واستمرت تلك الفتنة حتى استطاع المنصور قلاوون القضاء عليها واعادة الأمير سنقر للطاعة . (١)

وفيما يتعلق بجهاد المنول والصلبيين فقد سار المنصور قلاوون على نهج سياسة الظاهر بيبرس في الوقوف بالمرصاد للمنول ومحاولاتهم للدخول الى بلاد الشام ، وفي الوقت نفسه اجتهد في تقويض بناء الصليبيين بالشام . (٢)

وقد استمر السلطان المنصور قلاوون على تلك السياسة في جهاد أعداء الاسلام من منول و صليبيين في مدة توليه السلطنة حتى كانت وفاته وهو في معسكر جيشه خارج القاهرة ، حيث كان يكمل الاستعدادات العسكرية لقتال الصليبيين بالشام ، فقد عزم في سنة ٦٨٩هـ على الحج فبلغته أخبار الفرنج بعكا فتهياً للخروج الى البلاد الشامية ، ورأى أن يقدم فتح عكا وغزو أهلها على الحج ، ولكن وافاه الأجل قبل تنفيذ ما عزم عليه ، وبذلك انتهت مدة سلطنته التي استمرت قرابة احدى عشرة سنة وثلاثة أشهر .

وقد وصف المنصور قلاوون بأنه كان شجاعاً مقداماً في الحرب ، عادلاً كريماً ، مائلاً الى فعل الخير ، والأمر بالمعروف ، وعليه أبهة السلطنة ، ومهابة الملك . (٣)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٩/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٩٩/٧ .
 (٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٦٨ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٥٨ .
 (٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٣٦/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٢٦/٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٤٣١/٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٦١/١ ، العمامي : سمط النجوم العوالي ١٩/٤ ، المنوفي : أخبار الأول ١١٧ .

السلطان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) :

تولى السلطنة بعد وفاة والده ، وكان المنصور قلاوون قد عهد بالأمر من بعده لولده علاء الدين ، وتلقب بالملك الصالح ، غير أنه مات في حياة والده في سنة ٦٨٧ هـ ، وكانت المصلحة تحتم أن يعهد قلاوون بولاية العهد لابنه الثاني خليل ، وقد كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر تقليدا بولاية خليل للسلطنة ، ولكن المنصور قلاوون مات قبل امضاء ذلك العهد والموافقة عليه ، وكان السلطان قلاوون يقول : " أنا ما أولي خليلاً على المسلمين " ، ومعنى ذلك أنه قد ندم على توليته السلطنة من بعده ، ولما أخرج ابن عبد الظاهر ذلك التقليد بدون توقيع قلاوون عليه قال الأشرف خليل مخاطباً ابن عبد الظاهر : " يا فتح الدين : السلطان امتنع أن يعطيني ، وقد أعطاني الله " ، ورمى التقليد من يده وتم أمره ، ورتب الديار المصرية ، وكتب بسلطنته إلى الأقطار ، وأرسل الخلع إلى النواب بالبلاد الشامية ، وحلف له جميع الأمراء ، وخطب له على المنابر . (١)

وقد تعرض السلطان الأشرف خليل في بداية سلطنته للمؤامرات التقليدية التي تعرض لها بقية السلاطين المماليك قبله ، وخاصة من مماليك والده ، وفي مقدمتهم الأمير حسام الدين طرقتاي ، فقبض على جماعة منهم وصاد رهم حتى استتب له الأمر ، وبعد ذلك أخذ في الاستعداد لجهاد العليبيين وخرج بمساعره من الديار المصرية باتجاه تكسا فحاصرها حتى فتحها في سنة ٦٩٠ هـ ، فاستعادها من أيديهم ولله الحمد والمنة . (٢)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٥/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣/٨

ابن اياس : بدائع الزهور ٣٦٥/١ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٢٨/١٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٦٥/١ .

سعيد عاشور : المعمر الحماليكي في مصر والشام ٧٢ . علي حن : تاريخ

المماليك البحرية ٦٢ .

وبعد طرد السلطان الأشرف خليل لبقايا المصليبيين ببلاد الشام وتحريره لمدينة عكا من الوجود المصليبي ، توجه نحو الديار المصرية ، وقبل دخوله القاهرة هجم عليه جماعة من كبار الأمراء المماليك الناقمين عليه ، فتناولوه بسيوفهم حتى قضاوا عليه ، وبذلك انتهت مدة سلطنته التي استمرت قرابة ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام ، فتألم الناس لفقدانه وأعظموا قتله . (١)

السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ - ٦٩٤ هـ) :

وقد بويغ بالسلطنة بعد مقتل أخيه الأشرف خليل ، حيث اتفق الأمراء المماليك وفي مقدمتهم زين الدين كتبغا ، و علم الدين سنجر الشجاعي ، على مبايعة محمد بن قلاوون وكان عمره اذ ذاك ثمان سنين وشهورا ، فلما جلس على سرير الملك حلف له الأمراء ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضح الناس له بالدعاء . (٢)

ونظرا لمغرسن الناصر محمد فقد جعل الأمير زين الدين كتبغا أتابكا له ومدبرا للملكة ، وجعل الأمير سنجر الشجاعي مشاورا كبيرا ، ولكن الشجاعي حدثه نفسه في الوصول الى السلطنة فمار يرمي الفتن بين الأمراء المماليك وبين نائب السلطنة الأمير كتبغا ، ونتج عن تلك الفتن زيادة حدة الصراع بين الأمراء المماليك التي لم تتوقف الا بعد مقتل من سعى لاثارتها وهو الأمير الشجاعي ، وبذلك لم يبق للأمير كتبغا من ينازعه من الأمراء المماليك . (٣)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٥٤/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٦/٨ ،

ابن اياس : بدائع الزهور ٣٧٨/١ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ٢٠/٤ ،

القلقشندي : صبح الأعشى ٤٣١/٣ ، المنوفي : أخبار الأول ١١٨ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٥٤/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم

الزاهرة ٤١/٨ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٥٥/١٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٨٣/١ .

غير أن الأمور لم تستقر بالسلطنة المملوكية ، حيث أعلن معاليك الأشرف خليل عزمهم على الثأر من قتلة استاذهم ، وأعلنوا العميان على نائب السلطنة الأمير كتبغا ، فلما أحسن الأمير زين الدين كتبغا بخطورة الموقف طلب حضور الخليفة العباسي والقضاة والأعيان وكبار الأمراء ، فلما حضروا تكلم معهم في عدم أهلية السلطان الناصر محمد للسلطنة لمصر سنه ، وأن الأمور لا بد لها من رجل كامل تخافه الجند والرعية، وتقف عند أوامره ونواهيته وكان ذلك الحرس من كتبغا على السلطنة بتدبير من الأمير حسام الدين لاجين الذي خاف على نفسه من السلطان الناصر محمد وبقائه في السلطنة ، فمال كتبغا الى كلامه وأعلن بحضور الخليفة والقضاة والأمراء على خلع الناصر محمد من السلطنة وذلك في المحرم من سنة ٦٩٤ هـ . (١)

السلطان العادل كتبغا المنصوري (٦٩٤ - ٦٩٦ هـ) :

بعد خلع الناصر محمد بن قلاوون ، جلس الأمير كتبغا على كرسي السلطنة بعد مبايعته بها ، وخطب له وضربت السكة باسمه ، وقد اختار بعد مبايعته الأمير حسام الدين لاجين نائبا للسلطنة وفوض اليه تدبير أمر المملكة . (٢)

ومع احسان العادل كتبغا للأمير لاجين ، إلا أنه انقلب عليه وأنكر جميله ، وأعلن العميان عليه . واستولى على القلعة السلطانية بالديار المصرية ، وأعلن عن توليه منصب السلطنة وخلع العادل كتبغا ، الذي لم يسعه سوى التسليم للأمر الواقع بعد أن دخل كبار الأمراء المعاليك والنواب في طاعة السلطان الجديد حسام الدين لاجين . وبذلك انتهت سلطنة العادل كتبغا التي استمرت قرابة سنتين . (٣)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٥٨/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤٩/٨ ، القلقشندي : صبح الأعشى ٤٣١/٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٨٤/١ ، العمامي : سمط النجوم العوالي ٢١/٤ ، المنوفي : أخبار الأول ١١٨ .
- (٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٥٩/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥٨/٨ .
- (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٦٨/٨ ، القلقشندي : صبح الأعشى ٤٣٢/٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٩٢/١ ، العمامي : سمط النجوم العوالي ٢١/٤ ، المنوفي : أخبار الأول ١١٨ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٢٦٢/٣ .

السلطان المنصور حسام الدين لاجين المنصوري (٦٩٦ - ٦٩٨ هـ) :

بويسع لاجين بعد خلع كتبغا المنصوري من السلطنة ، وجلس على سرير الملك وتلقب بالملك المنصور ، ونودي باسمه في القاهرة ، وخطب له على المنابر ، وضح الناس له بالدعاء .

وبعد مدة قصيرة من توليه السلطنة قبض على أعيان أمراء مصر وأماثلهم ، وولى مملوكه منكوتمر نيابة السلطنة بالديار المصرية ، فنفرت منه قلوب الأمراء المماليك والعساكر السلطانية ودبروا عليه ، واستوحش هو أيضا منهم واحترز على نفسه وقلل من الركوب ، ولسزم القعاد بالقلعة السلطانية متخوفا على نفسه .

وزاد من حدة الخلاف بين الطرفين قسوة نائب السلطان الأمير منكوتمر وغلظته على الأمراء المماليك والعساكر ، فعظم ذلك عليهم وقالوا فيما بينهم : " متى طالت مدته أخذنا واحدا بعد واحد ، ولا يمكن الوثوب عليه أمام أستاذه " ، فلم يجدوا بدا من قتل أستاذه الملك المنصور لاجين ثم يقتلونه بعده واتفقوا على ذلك فيما بينهم .

ونفذ أولئك المماليك ما اتفقوا عليه ، فكانت نهاية سلطنة المنصور حسام الدين لاجين ونائبه منكوتمر على أيديهم ، وبعد قتلهاما اتفقت كلمتهم على إعادة ابن استاذهم الملك الناصر محمد بن قلاوون . (١)

السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٨ - ٧٠٨ هـ) :

تولى السلطنة للمرة الثانية وذلك بعد مقتل حسام الدين لاجين ، حيث اتفقت كلمة الأمراء المماليك على إعادة ابن استاذهم الملك الناصر محمد ، فأرسلوا يطلبون منه الحضور

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣/١٤ - ٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٩٨/٨ - ١٠١ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٤٣٢/٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٩٩/١ ، العمامي : سمط النجوم العوالي ٢١/٤ ، المنوفي : أخبار الأول ١١٨ .

من بلدة الكرك ، وخطب له على المنابر قبل قدومه ، وحلف الأمراء على طاعته ، وسكنت
الفتنة ، وفرح غالب الناس بزوال حكم الأمير منكوتمر . (١)

غير أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون لم يهنا بالملك وينفرد بتدبير أمور
السلطنة حيث وقع تحت حكم الأميرين سار ، وبيبرس الجاشنكير، حتى فاق ذرعا من ذلك
الوضع خاصة بعد أن وقع الخلاف بينهما وبين معاليك الناصر محمد ، وعزما على خلعهم من
السلطنة ، فلما عجز الناصر عن القضاء على تلك الفتنة تظاهر بأنه يريد السفر الى مكة للحج
فلما خرج من القاهرة ووصل الكرك استقر بها وأرسل كتابا الى الأمراء بالديار المصرية يعلن
لهم فيه أنه عزل نفسه من السلطنة ، وجعلهم في حل من اختيار من يتولى الأمر من بعده . (٢)

فلما وصل ذلك الكتاب الى الأمراء المماليك وقرأه الأميران سار ، وبيبرس قالوا :

إذا جاء هذا الحبي ما بقي يفلح ولا يملح للسلطنة ، وأي وقت عاد اليها لا نأمن غدرة ، فلما
سمعت الأمراء ذلك اجتمعت على سلطنة الأمير سار ، فخاف من عاقبة ذلك فامتنع ، فاختار
الأمراء بدلا عنه الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وبايعوه بالسلطنة .

وبذلك انتهت سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية التي استمرت قرابة عشر سنين وخمسة
أشهر وتسعة عشر يوما . (٣)

السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ - ٧٠٩) :

تولى السلطنة بعد أن خلع الناصر محمد بن قلاوون نفسه منها ، وجلس على سرير

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٤/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٠١/١ .

(٢) ، ، : ، ، ، ٥٠/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٧١/٨ .

(٣) ، ، : ، ، ، ٥٠/١٤ ، ، ، : ، ، ، ١٨١/٨ .

القلقشندي : صبح الأعشى ٤٣٢/٣ ، العمامي : سمط النجوم العوالي ٢٢/٤ .

ابن اياس : بدائع الزهور ٤٢٢/١ ، المنوفي : أخبار الأول ١١٨ .

الملك وهو يبكي رغبة عن السلطنة ، وأظهر عدم الرضا بما صار اليه ، واشترط أن يكون الأمير سار نائباً له والا تركها ، فقامت الأمراء على سار الى أن قبل ذلك ولبس خلعة النيابة ، فانظم الأمر على ذلك وحلف الأمراء فيما بينهم على السمع والطاعة .

ولم تمض مدة يسيرة على سلطنة المظفر بيبرس حتى اضطربت أحوال الدولة ، حيث كاتب بعض الأمراء المماليك الناصر محمد يطلبون منه العودة الى السلطنة ، وأعلنوا مخالفة المظفر بيبرس ، وصارت العساكر فرقتين : فرقة مع الناصر محمد ، وفرقة مع المظفر بيبرس ، وصارت طوائف من الأمراء المماليك يخرجون من القاهرة ليلاً ويتوجهون الى الناصر محمد في الكرك ، فلما بلغ المظفر أمرهم أرسل الى الناصر محمد يقول له : " اذا لم ترجع عن مكاتبك الأمراء نقلتك من الكرك " ، وهدده واستوعده بكل سوء ، وردّ الناصر محمد على رسالة المظفر بضرب رسله وحبسهم عنده بالكرك . ثم أرسل الناصر محمد الى نواب حلب وحماه وصفد وطرابلس يقول لهم : " ... لما اشتد عليّ الضنك من الأمراء خرجت من مصر وتركت لهم الملك ، ورضيت من الدنيا بأحقر الأماكن ، وأضيق المساكن ، ليستريح خاطري من النكد ، فلم يرجعوا عني ، وأرسل المظفر يهددني بالنفي من الكرك ، ويطلب ما لا أقدر عليه ، وأنتم تعلمون ما لوالدي عليكم من العتق والتربية ، وما أظنكم ترضون لي بهذا الحال " .

عند ذلك ثارت الحمية لدى أولئك الأمراء وتعصبوا للناصر محمد وقالوا له في ردهم عليه : " نحن مماليكك ومماليك أبيك ، فمسيها شئت نحن تحت أمرك وطوع يدك " ، ففرح الناصر محمد بذلك الجواب وأخذ يستعد للتوجه الى القاهرة بعد أن دخلت البلاد الشامية تحت طاعته وخطب باسمه على منابرها .

ولما تحقق المظفر بيبرس من موقف الأمراء المماليك وتخليهم عنه وميلهم الى الناصر محمد ، أعلن خلع نفسه من السلطنة بعد أن اضطربت أحواله ، وبذلك انتهت مدة ملكه التي استمرت قرابة أحد عشر شهراً وأياماً . (١)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤/٥٤ - ٥٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨/٢٣٥ ، ٢٧١ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ١/٥٠٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١/٤٢٩ العمامي : سمط النجوم العوالي ٤/٢٢ ، المنوفي : أخبار الأول ١١٨ .

السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ - ٧٤١ هـ) :

رجع الناصر محمد للسلطنة مرة ثالثة ، ودخل القاهرة قادما من الكرك بعد أن أعلن كبار الأمراء المماليك موافقتهم على سلطنته و القيام بخدمته ، فلما طلع الى القلعة السلطانية جلس على سرير الملك ، وحلف له الأمراء بالسمع والطاعة . (١)

وقد استمرت سلطنة الناصر محمد الثالثة مدة طويلة ، تعتبر من أزهى عصور السلطنة المملوكية ، حيث أصبحت القاهرة حاضرة لسلطنة شاسعة مترامية الأطراف امتدت من برقة غربا الى ساحل البحر الأحمر شرقا ، ومن آسيا الصغرى شمالا الى بلاد النوبة جنوبا ، وإجتمعت سلطنة الناصر محمد في مواجهة اعتداءات المغول ، فلم يجد غازان قائد مغول فارس بدا من مهادنة المماليك وارسال بعثة الى الناصر محمد يطلب عقد الملح بينهما وكان رد الناصر محمد على ذلك الطلب بأنه مستعد لعقد الملح اذا أثبت غازان حسن نيته وتوقف عن مهاجمة أراضي السلطنة المملوكية ، ولما لم يتحقق ذلك الشرط توجه السلطان الناصر محمد بنفسه لقتال غازان وأنزل بجموع المغول هزيمة منكرة بمرج الصفر قرب دمشق . (٢)

ولم يزل السلطان الناصر محمد قائما في السلطنة حتى ابتداء مرضه ثم وفاته في آخر ذي الحجة من سنة احدى وأربعين و سبعمائة ، وبذلك انتهت سلطنته الثالثة التي استمرت قرابة اثنين وثلاثين سنة . (٣)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٥٤/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨/٩ .
- (٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٤٧ - ٤٨ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٠٥ .
- (٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٢/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦٤/٩ . ابن اياس : بدائع الزهور ٤٨٢/١ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ٢٢/٤ .

السلطان المنصور سيف الدين أبوبكر بن الناصر محمد (٧٤١ - ٧٤٢ هـ) :

بويغ بالسلطنة بعهد من أبيه ، وكان في اخوته من هو أكبر منه ، ولكن الملك الناصر محمد اختار سلطنته من بعده دون بقية أولاده وقد مه عليهم ، فتولى الملك وله من العمر نحو عشرين سنة ، وجلس على سرير الملك ، وتلقب بالملك المنصور ، ونودي باسمه في القاهرة ، وخطب له على المنابر ، وضح الناس له بالدعاء . (١)

وبعد توليه السلطنة خلع على الأمير قوصون الناصري أن يكون مدبراً للمملكة ، ورأس المشورة ، وخلع على صهره الأمير طقز دمر الحموي بنيابة السلطنة بالديار المصرية ، فحكم وصرف الأمور .

ثم لم يلبث أن دب الخلاف بين السلطان الملك المنصور والأمير قوصون الذي أكثر من معارضة السلطان ومخالفة أمره ، وأصبح كل منهما يتربص بالآخر يريد التخلص منه ، وقد استغل الأمير قوصون تردى أوضاع الدولة في ظل انشغال السلطان المنصور باللهو ومجالسة الندماء ، استغل ذلك في استمالة الأمراء المماليك الذين اتفقت كلمتهم على خلع المنصور من السلطنة ، فتم لهم ذلك وأعلن عن خلعهم من السلطنة ، وقد دامت سلطنته قرابة ثلاثة أشهر . (٢)

السلطان الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد (٧٤٢ - ٧٤٢ هـ) :

بويغ بالسلطنة بعد خلع أخيه أبي بكر ، وجلس على سرير الملك ونودي باسمه في القاهرة ، وضح له الناس بالدعاء ، وتولى الملك وهو ابن سبع سنين ، وكان وصوله للملك بعد

- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٢/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨/١٠ .
 (٢) ابن كثير : المصدر السابق ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ١١/١٠ ، ١٦ .
 القلقشندى : صبح الأعشى ٤٣٢/٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٨٩/١ .
 العمامي : سمط النجوم العوالي ٢٣/٤ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٤٦٢/١ .

أن تشاور الأمير قوصون الناصري والأمير يشبك الناصري ، واتفقهما على عدم ملاحية أحدهما ليلي ذلك المنصب ، فاختارا سلطنة الأشرف كجك ، وحلف كل منهما للآخر على المصحف بالوفاء على طاعته . (١)

وبعد أن تم أمر الأشرف قرر الأمير قوصون نائباً للسلطنة بمصر وأتابكا للعاكـر فتضاعفت حرمة وتزايدت عظمتـه ، وتعرف في أمور المملكة بما يختار ، فقبض على جماعة من الأمراء المماليك المخالفين له ونفاهم الى الاسكندرية ، وأنعم على جماعة آخرين ممن كانوا من عصيته وقررهم في وظائف سنية ، وفرّق عليهم الاقطاعات بعد أن ولاهم وعزل غيرهم . وأصبح السلطان الأشرف آله في يد مدبر المملكة الأمير قوصون ، فاضطربت أحوال البلاد الشامية ، وتعطلت مصالح الرعية بالديار المصرية ، وفي ذلك يقول الشاعر :

سلطاننا اليوم طفل والأكابر في . . . خلف وبينهم الشيطان قد نزعا
فكيف يطمع من مسته مظلـمة . . . أن يبلغ السؤل والسلطان ما بلغنا (٢)
ونتج عن استبداد الأمير قوصون مخالفة كبار الأمراء والمماليك لذلك التسلط على أمور الدولة المملوكية ، وأعلنوا عصيانهم بالبلاد الشامية ، ثم توجهوا نحو القاهرة لاصلاح أحوالها ، وكانت نهاية الحال بمحاصرة قوصون في القلعة السلطانية ، مما أجبره على طلب الأمان على نفسه من القتل ، فلما قبض عليه الأمراء أرسلوه الى الاسكندرية مسجوناً . ووقع الاتفاق فيما بينهم على خلع الأشرف كجك من السلطنة لمغـر سنه وعجزه عن تدبير أمور المملكة ، وبذلك انتهت مدة سلطنته التي استمرت قرابة خمسة أشهر وأياماً . (٣)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٠/١٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٩١/١ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٢/١٠ ، ابن الوردى : التاريخ ٣٢٣/٢ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤ / ٢٠٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤٩/١٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٩٢/١ ، العمامي : سمط النجوم العوالي ٢٣/٤ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٢٦٥/٣ ، المنوفي : أخبار الأول ١١٩ .

السلطان الناصر أحمد بن الناصر محمد (٧٤٢ - ٧٤٣ هـ) :

وقد بويع بالسلطنة وهو راغب عنها ، فبعد خلع أخيه الأشرف اتفق الأمراء المماليك على مبايعة الناصر أحمد وكتبوا اليه يطلبون حضوره من قلعة الكرك ، وقد كان ذلك بتدبير من الأمير أيد غمش الناصري .

ثم بعد مدة من توليه السلطنة قبض على من كان سببا - بعد الله - في وصوله الى ذلك المنصب ، وأمر بنفيهم الى سجن الاسكندرية ، فنفرت عنه لذلك قلوب الرعية وأضمرؤا له كل الأذية . (١)

وعاد السلطان الناصر أحمد للاقامة بمدينة الكرك حيث سافر من القاهرة قاصداً البلاد الشامية ، فلما وصل الى الكرك قرر البقاء بها واحتجب عن الناس وعكف على اللهو ومجالسة خاصته من أهل تلك المدينة ، ولما علم الأمراء بذلك اتفقوا على مكاتبة الناصر أحمد في العودة الى القاهرة لفساد أحوال المملكة وضياع حقوق الرعية ، فرد عليهم بقوله : " إنَّ الشتاء قد دخل ، وقد اخترت الإقامة بالكرك الى أن يمضي الشتاء ، وبعد ذلك إنَّ أراد الله تعالى عدت الى مصر " . (٢)

وأتبع الناصر أحمد ذلك بقتل اثنين من كبار الأمراء المماليك الذين خرجوا معه الى الكرك بعد أن قبض عليهم وسجنهم مما أدى الى تغير خواطر بقية الأمراء بالديار المصرية ، حيث عقدوا مجلسا للتشاور في أمر الناصر أحمد ، وأسفر ذلك الاجتماع عن اتفاق كلمتهم على خلعهم من السلطنة ، وبذلك انتهت مدة سلطنته التي قاربت ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً . (٣)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥٧/١٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٩٦/١ .
(٢) " ، : " ، ، ٦٨/١٠ ، " ، ، ٤٩٧/١ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٣/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٦٩/١٠ .
ابن حجر : الدرر الكامنة ٢٩٤/١ ، القلقشندي : صبح الأعشى ٤٣٣/٣ .
ابن اياس : بدائع الزهور ٤٩٨/١ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ٢٣/٤ .

السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد (٧٤٣ - ٧٤٦ هـ) :

ببيع بالسلطنة بعد خلع أخيه الناصر أحمد باتفاق من الأمراء على ذلك ، فجلس على سرير الملك وحلف له الأمراء والعساكر على طاعته ، وحلف لهم أيضا أن لا يؤذى أحدا منهم ، وأن لا يقبض على أمير منهم بغير ذنب ، فتم أمره في السلطنة ونودي باسمه في القاهرة ، وضح له الناس بالدعاء . (١)

وفي مدة سلطنته انشغل بقتال أخيه الناصر أحمد الذي تحصن بقلعة الكسرك حتى تم القبض عليه وقتله ، خاصة بعد أن انتشرت الشائعات بأن الناصر أحمد أخذ يستعد لدخول القاهرة وقتل السلطان الصالح اسماعيل . (٢)

استمر الصالح اسماعيل في منصبه حتى مرض واشتد عليه المرض ولازم فراشه ، وحاول بعض الأمراء المماليك حث السلطان الصالح أن يعهد بالأمر من بعده لأحد اخوته ، غير أنه مات قبل اختيار من يخلفه في السلطنة ، وكانت مدة سلطنته ثلاث سنين وشهر ونصف .

وبعد وفاة الصالح اسماعيل تشاور الأمراء المماليك فيمن يلي السلطنة ، فوقع اتفاقهم على سلطنة أخيه شعبان الذي أظهر حرمه عليها عندما أعلن أنه سيقتل بسيفه من يحاول اقامته من كرسى الملك . (٣)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٤/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧٨/١٠ .
 (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨١/١٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٥٠٣/١ .
 (٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٧/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٩٦ / ١٠ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٣٨٠/١ ، القلقشندي : ميسغ الأعشى ٤٣٣/١٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٥٠٥/١ ، العمادي : مسط النجوم العوالي ٢٤/٤ .

السلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦ - ٧٤٧ هـ) :

بويغ بالسلطنة بعد وفاة أخيه الملك الصالح واتفاق كلمة الأمراء المماليك على سلطنته ، ولما جلس على سرير الملك أحضروا المصحف ليحلفوا له بالطاعة ، فحلف هو أولاً أنه لا يؤذيهم ، ثم حلفوا له بعد ذلك على العادة ، وخطب له من الغد على منابر الديار المصرية وكتب بسلطنته الى الأقطار . (١)

وبعد مدة وجيزة من سلطنته تدخل النساء في شئون الدولة مع خضوع السلطان الكامل شعبان لمطالبهن من جهة ، واكثاره من القبض على الأمراء المماليك من جهة أخرى ، فاتفتت كلمة الأمراء على خلعهم من السلطنة بعد أن ضاقوا ذرعاً بما آلت إليه أحوال السلطنة بالديار المصرية والبلاد الشامية .

وكانت نهاية هذه الفتنة بين السلطان الكامل والأمراء المماليك القبض عليه، وسجنه، بعد أن رفض خلع نفسه من السلطنة ، وبذلك انتهت مدة ملكه التي استمرت قرابة سنة واحدة وشهرين ، وكانت تلك المدة من أشد الفترات صعوبة ، لما عرف عن الكامل من الظلم والبطش وسوء التدبير ، وقبيح الفعل . (٢)

السلطان المظفر حاجي بن الناصر محمد (٧٤٧ - ٧٤٨ هـ) :

بويغ المظفر بالسلطنة بعد خلع أخيه الكامل شعبان ، وجلس على سرير الملك ، وقبل الأمراء المماليك الأرض بين يديه علامة على السمع والطاعة ، وحلف لهم أنه لا يؤذي أحداً منهم ، ثم حلفوا على طاعته ، وأرسل من يحلف الأمراء ونواب البلاد الشامية . (٣)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٧/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١٧/١٠
ابن حجر : الدرر الكامنة ١٩١/٢ ، القلقشندي : صبح الأعشى ٤٣٣/٣ .
- (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤٠/١٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٥١٢/١ .
- (٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٠/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤٩/١٠
ابن حجر : الدرر الكامنة ٣/٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٥١٣/١ .

بدأ سلطنته بالقبض على من سعى لتوليته السلطنة من كبار الأمراء المماليك ، وهما الأمير أقسنقر ، والأمير ملكتمر ، وحبسهما بالقلعة السلطانية ، وفي المقابل اصطفى جماعة آخرين من الأمراء ، وفرق عليهم الوظائف وأقام لهم عمبة منهم تختص به ليضمن بذلك ولاءهم وطاعتهم لأوامره .

وانشغل السلطان المظفر حاجي عن السلطنة وأمور المملكة بالحمام واللعب به ، حتى قيل عنه في ذلك : " ... وقد اشتغل المظفر حاجي بلعب الطيور عن تدبير الأمور ، والتهى عن أمر الأحكام بالنظر الى الحمام ، فجعل السطح داره ، والشمس سراجة ، والبرج مناره ، وأطاع سلطان هواه ، وخالف من نهاه ، وخرج في ذلك عن الحد ، وصار لا يعرف الهزل من الجد " .

ولما أنكر عليه الأمير جبغا ذلك الاهتمام بتربية الحمام ، والانشغال به عن تدبير المملكة ، غضب من ذلك النصح والتوجيه ، وقام بذبح جميع ما كان بيده من الحمام ، وأعلن أنه قد ذبح ما عنده من الحمام وقال : " وأنا انشاء الله سأذبح خياركم من الأمراء كما ذبحت الحمام ... " .

ولأجل ذلك الوعيد تغيرت عليه خواطر الأمراء المماليك ، واجتمعوا عند ناشب السلطنة الأمير أرقطاي ، فاتفق رأيهم على خلع المظفر حاجي من السلطنة ، وأجبر على ذلك بعد امتناعه ، وعمد المظفر لقتال الأمراء المخالفين له ، والتمسك بالسلطنة ، فقبض عليه بعد أن تفرق من حوله من مماليكه ، وقد انتهت سلطنته بمقتله بعد أن دام في الملك قرابة سنة وثلاثة أشهر . (١)

السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد (٧٤٨ - ٧٥٢ هـ) :

بعد مقتل المظفر حاجي طلع الأمراء المماليك الى القلعة السلطانية ، وتشاوروا فيمن يلي السلطنة من بني قلاوون ، واختلفوا في ذلك ، فطائفة رأيت تولية السلطنة لحسين

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠/١٨٨ ، ٢٢٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١/٥٢٨

ابن الناصر محمد - وهو الأكبر - ، وطائفة منهم رأَت سلطنة حسن بن الناصر محمد ، ووقع القيل والقال بين الناس ، وأقامت مصر يومين بلا سلطان والناس يدعون الله تعالى لاصلاح الحال واخماد الفتنة ، وفي اليوم الثالث اجتمعت كلمة الأمراء على سلطنة حسن بن الناصر محمد وبادروا الى مبايعته دون تأخير ، خوفا من حدوث فتنة . (١)

ونظرا لصغر سن السلطان الناصر حسن فقد كان أمر المشورة والتدبير في الدولة لتسعة من الأمراء المماليك ، فكانوا يجتمعون وينفذون ما يختارونه في أحوال المملكة بسين يدي السلطان حسن .

ثم لم يلبث أن ظهر الخلاف بين السلطان الناصر حسن وبعض الأمراء المماليك الذين أعلنوا عصيانه بحجة اتفاق السلطان مع بعض مماليكه على قتلهم ، وطلب أولئك الأمراء من السلطان تسليمهم الأمراء الذين تأمر معهم على تنفيذ تلك المؤامرة ، فسلمهم السلطان وهو يبكي ، ثم اتفق كبار الأمراء على خلعهم من السلطنة ووكلوا به من يحفظه ، وبذلك انتهت سلطنته التي استمرت قرابة ثلاث سنين وتسعة أشهر ، لم يكن له فيها من السلطنة سوى مجرد الاسم لصغر سنه، وحجر الأمراء عليه، ومنعه من التصرف في أمور السلطنة بشي . (٢)

السلطان المالح صالح بن الناصر محمد (٧٥٢ - ٧٥٥ هـ) :

بويغ بالسلطنة بعد خلع أخيه الناصر حسن حيث بايعه الأمراء وألبسوه شعار الملك وسار حتى جلس على سرير الملك ، وحلف له الأمراء وحلف لهم على العادة ، ونودي باسمه في القاهرة وضح له الناس بالداء . (٣)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٦/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠/١٨٣ .
ابن حجر : الدرر الكامنة ٣٨/٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١/٥١٩ .
- (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠/١٨٨ ، ٢٣٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١/٥٣٨ .
- (٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤ / ٢٥١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠/٢٥٥ .

ولما تم له الأمر في السلطنة فوَّضَ أمور المملكة إلى الأمير طاز ، فصار صاحب الحبل والعقد في دولة الصالح ، واجتمعت فيه الكلمة فشق ذلك على بقية الأمراء المماليك قاطبة ودبت بينهم عقارب الفتن ، وأعلن الأمراء المماليك أنه لا بد من خلع الملك الصالح واعادة الناصر حسن للسلطنة مرة ثانية ، ولما تباطأ السلطان الصالح وحاشيته عن تنفيذ ذلك الأمر وثب عليه جماعة من الأمراء و قبضوا عليه و سجنوه و خلعوه من السلطنة من يومه فزال ملكه كأن لم يكن ، وكانت مدة سلطنته ثلاث سنين و ثلاثة أشهر وأياما . (١)

السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد (٧٥٥ - ٥٧٦٢ هـ) :

بعد خلع السلطان الصالح اتفق الأمير مر غتمش والأمير شيخون على اعادة الناصر حسن للسلطنة ثانية ، فطلبوا حضوره من محبسه بالقلعة ، فلما حضر كلموه في عودته للملك واشتروا عليه شروطا ، فلما قبلها بايعوه بالسلطنة ونودي باسمه في القاهرة وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس . (٢)

وقد وقع السلطان الناصر تحت تصرف نائب السلطنة الأمير أقتمر ، ثم بعد مدة وجيزة من سلطنته غلب عليه الأمير شيخون العمري ، فكان الناصر حسن لا يفعل شيئا حتى يشاوره في الجليل والحقير ، وبعد وفاة الأمير شيخون انفرد الأمير مر غتمش بتدبير أمور المملكة وعظم أمره وزادت حرمته .

أحسن الناصر حسن بفقد نفوذه على الدولة مع استبداد الأمير مر غتمش فقبض عليه وأصبح بعد ذلك سلطان مصر بلا منازع ، وأخذ وأعطى وقرب من اختار من الأمراء وأبعد من أبعد . (٣)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٦٣/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٨٦/١٠

ابن حجر : الدرر الكامنة ٢٠٢/٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٥٥٢/١ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٠٢/١٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٥٥٢/١ .

(٣) .. : .. : ٣٠٩/١٠ .. : .. : ٥٦٤/١ .

ثم عاد الأمراء للتسلط على السلطنة المملوكية حيث ثقلت وطأة ثلاثة منهم وهم :
 الأمير يلبغا العمري ، والأمير طيبغا الطويل ، والأمير تمان تمر ، علي الناصر حسن ، وعظم
 أمرهم في الدولة حتى صار يلبغا العمري هو المشار اليه في المملكة وأخذ يعترض على أفعال
 الناصر حسن مما أوقع بينهما الفتنة التي سعى أعداء يلبغا من الأمراء على زيادة حدتها
 حتى كانت نهاية الناصر حسن على يد أقرب الناس اليه وهم خواصه من مماليكه الذين اشتراهم
 وربّاهم و خولهم من النعم ورقاهم أعلى المراتب حتى يكونوا عوناً له على مماليك أبيه
 الناصر محمد .

وبذلك انتهت سلطنة الناصر حسن الثانية التي استمرت قرابة ست سنين وسبعة
 أشهر ، وقضى آخر أيامه تحت العقوبة التي أدت الى وفاته . (١)

ويخلع السلطان الناصر حسن من سلطنته الثانية ثم قتله انتهت المرحلة التي حكم
 فيها أبناء السلطان الناصر محمد بن قلاوون وقد تدهورت حالة السلطنة المملوكية في ظل
 الصراع بين السلاطين المماليك وكبار الأمراء المماليك ، حيث أصبح بعض أولئك السلاطين
 الصغار ألعوبة بين أيدي الأمراء الذين غلبوا على السلطنة واستبدوا بالنفوذ فيها ، ولم يبق
 لصغار السلاطين من الملك سوى مجرد الاسم فقط ، وذلك في المدة التي استمرت من سنة
 (٧٤١ هـ الى سنة ٧٦٢ هـ) .
 وكان اشتداد نفوذ أحد الأمراء المماليك وقربه من السلطان لا يقتصر أثره على تركيز
 السلطة في يده فحسب ، بل كان من نتائجه المباشرة ظهور عوامل الحسد والغيرة والتنافس
 بينه وبين بقية الأمراء الطامعين في النفوذ والسلطة من خلال الوصول الى الوظائف المهمة
 في السلطنة المملوكية . (٢)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٦٣/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣١٣/١٠
 القلقشندي : صبح الأعشى ٤٣٣/٣ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٣٨/٢ .
 ابن اياس : بدائع الزهور ٥٧٧/١ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ٢٦/٤ .
 (٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١١٧ ، علي حسن : تاريخ المماليك
 البحرية ١٢٨ .

وبعد انتهاء سلطنة الناصر حسن الثانية بدأت مرحلة جديدة من تاريخ السلطنة

المملوكية حيث حكم فيها أحفاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وهم :

السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجي بن الناصر محمد (٧٦٢ - ٧٦٤ هـ) :

وقد بويغ بالسلطنة بعد مقتل عمه الناصر حسن وكان القائم في أمر سلطنته الأمير

يلبغا العمري ، فقد كان الأمير حسين بن الناصر محمد موجودا فأبى يلبغا سلطنته ولم يرض

به، لما عرف عنه من صلابته وشدّة بأسه ، وكان الأمير أحمد بن الناصر حسن موجودا فلم يرض

به الأمير يلبغا خشية منه لأن يسعى في الأخذ بثأر أبيه منه ، فأعرض عنه ، ولم يقبل بسلطنة

غير محمد بن المظفر حاجي فوق الاتفاق على سلطنته وهو ابن أربع عشرة سنة ، فأحضروا له

شعار الملك وحلف له الأمراء على العادة .

وبعد توليه السلطنة عين الأمير يلبغا العمري في وظيفة مدبر المملكة وبشاركه

في تلك الوظيفة الأمير طيبنغا الطويل على أن كلا منهما لا يخالف الآخر ، ثم بعد مدة يسيرة

غلب الأمير يلبغا على السلطان المنصور وأصبح أمر الدولة جميعه بيده من عزل وتولية . (١)

ثم وقعت الوحشة بين السلطان المنصور والأمير يلبغا العمري بسبب ما ظهر من

السلطان من أمور شنيعة نفرت قلوب الأمراء عنه ، من انشغال باللهو ومجالاة الندماء ،

والاعتداء على الأموال والأعراض واشتغاله بتلك الأفعال عن أمور المملكة وضياع حقوق الرعيّة

الذين لم يجدوا لهم من ناصر ولا معين ، فوقع اتفاق سائر الأمراء المماليك على خلع السلطان

المنصور من منصبه ، فقبض عليه وسجن بالقلعة السلطانية ووكل به من يحفظه . وبذلك انتهت

مدة سلطنته التي استمرت قرابة سنتين وثلاثة أشهر وأياما ، لم يكن له من السلطنة سوى مجرد

الاسم فقط (٢) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣/١١ - ٥ . ابن اياس : بدائع الزهور ١/٥٨١ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣١٦/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٦/١١ - ٧

ابن اياس : بدائع الزهور ١/٥٩٢ . العنصامي : سمط السجود العوالي ٤/٢٧ .

السلطان الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر محمد (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ) :

تولى السلطنة بعد اتفاق كلمة الأمراء عليه وخلع ابن عمه المنصور محمد بن المظفر حاجي ، وبعد استقراره في السلطنة عين الأمير يلبغا العمرى في وظيفة مدبر المملكة ، وأحضر نائب السلطنة بالبلاد الشامية الأمير علي المارد يني وعينه نائبا للسلطنة بالديار المصرية .
(١)

ثم بعد مدة غلب الأمير يلبغا على السلطان الأشرف شعبان ، وصار يلبغا هو المتكلم في أمور المملكة بعد أن قبض على منافسه الأمير يلبغا الطويل ، وتصرف يلبغا العمرى على حسب اختياره في عزل من يريد وتولية من يريد في وظائف الدولة ، وأصبح السلطان الأشرف معه مجرد آلة في السلطنة .

وبعد موت الأمير يلبغا تسلط على السلطنة المملوكية الأمير اسند مر الناصرى الذى أصبح أتابكا للعساكر السلطانية ومدبرا للمملكة ، ونائبا للسلطنة بالديار المصرية ، ولما بلغ اسند مر هذه المنزلة في الدولة سعى الى خلع الأشرف شعبان من السلطنة طمعا فيها وأعلن مخالفته للسلطان المملوكي حتى قضى الأشرف على أطماعه وتخلص من استبداده بالنفوذ في السلطنة . (٢)

غير أن الأمور لم تستقر للسلطان الأشرف شعبان حيث دبّ الخلاف بينه وبين الأمراء المماليك الذين تزعمهم الأمير أيبك البدرى ، وكانت نهاية السلطان على أيديهم حيث قتلوه شرقتلة ، وبذلك انتهت مدة سلطنته التي استمرت قرابة أربع عشرة سنة وشهرين وعشرين يوما . (٣)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣١٦/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٤/١١ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٢/١١ - ٣٣ ، ٤٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٥٩٦/١ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨٣/١١ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٤٣٤/٣ .
العمامي : سمط النجوم العوالي ٢٧/٤ ، المنوفى : أخبار الأول ١٢٠ .

السلطان المنصور علي بن الأشرف شعبان (٧٧٨ – ٧٨٣ هـ) :

وقد ولي السلطنة المملوكية بتدبير من الأمير أئنيك البدرى والأمير قرطاي الطازى ،
وجلس على سرير الملك وحلف له الأمراء على العادة وكان عمره يوم ولي السلطنة سبع
سنتين .

ثم شهدت بداية سلطنة المنصور تنافس الأمير قرطاي ، والأمير أئنيك على النفوذ في
السلطنة المملوكية ، وكانت نتيجة ذلك النزاع لصالح الأمير أئنيك الذى تخلص من منافسه
ومار أتايكا للعساكر بالديار المصرية ، ومد برا للممالك السلطانية ، وصار الأمر له من غير
منازع ، فأخذ في المملكة وأعطى وحكم بما اختار وأراد ، واستغل أئنيك نفوذه في السلطنة
المملوكية لتحقيق مصالحه الشخصية ، وأخلع على أبنائه وحاشيته الوظائف الهامة في الدولة .
ولم يرض كبار الأمراء المماليك باستبداد الأمير أئنيك بالسلطنة المملوكية وأعلنوا
عميانهم ، وسعوا للقبض عليه ، ولكنه تمكن من النجاة بنفسه بفراره من القاهرة ، أما السلطان
المنصور فقد ظل في السلطنة حتى وفاته بعد اشتداد مرضه ، وبذلك انتهت مدة سلطنته
التي قاربت خمس سنين وثلاثة أشهر وعشرين يوماً ، لم يكن له فيها من السلطنة سوى مجرد
الاسم فقط ، وإنما كان أمر المملكة في أيامه لجماعة من الأمراء أولهم قرطاي الطازى ، وآخرهم
برقوق العثماني . (٢)

السلطان الصالح حاجي بن الأشرف شعبان (٧٨٣ – ٧٨٤ هـ) :

تولى السلطنة بعد وفاة أخيه المنصور علي بتدبير من الأمير سيف الدين برقوق ،
فقد أشيع بعد وفاة المنصور علي سلطنة الأتابك برقوق العثماني ، فعظمت هذه المقالة على
أكابر الأمراء في السلطنة المملوكية وقالوا : لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوك الأمير يلبغا ،

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤٩/١١ ، ١٥٤ – ١٥٥ ، العمادي : مط النجوم
العوالي ٢٨/٤ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٨٨/١١ ، الحنوفى : أخبار الأول ١٢٠ .

وأشياء من هذا النمط ، فلما بلغ الأمير برقوق كلامهم خاف أن لا يتم أمره في السلطنة فسعى في سلطنة حاجي بن الأشرف شعبان . (١)

وجلس السلطان حاجي على سرير الملك وهو ابن تسع سنين ، وتولى تدبير أمور السلطنة الأمير برقوق الذي أصبح المتكلم في الدولة من غير معاند ، وفي خدمته بقية الأمراء المماليك بعد أن قبض على الأمراء الكبار منهم مما مكنه من الانفراد بتدبير الدولة بمفرده . (٢)

وقد حاول بعض الأمراء المنافسين لبرقوق العثماني التخلص من استبداده بأمر السلطنة المملوكية ، ولكن كانت الغلبة لبرقوق عليهم ، وبعد أن قبض عليهم أمر بسجنهم ثم ما زال يعمل في الوصول الى منصب السلطنة والاستقلال به حتى وافقه كبار الأمراء المماليك على خلع الصالح حاجي من السلطنة ومبايعته بها بحضور الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله والقضاة الأربعة ، وبذلك انتهت سلطنة الصالح حاجي التي دامت قرابة سنة وسبعة أشهر لم يكن له فيها من الأمر والنهي لا كثير ولا قليل . (٣)

وبنهاية سلطنة الصالح حاجي بن الأشرف شعبان تنتهي فترة حكم سلاطين دولة المماليك الأولى ، أو المماليك البحرية لتحل محلها دولة المماليك الثانية أو المماليك البرجية^(٤) الذين سموا بذلك نسبة لأبراج القلعة السلطانية التي سكنوا فيها .

السلطان الظاهر برقوق العثماني (٧٨٤ - ٧٩١ هـ) :

بويغ بالسلطنة بعد خلع الصالح حاجي وتلقب برقوق بالملك الظاهر ، ولما عرف عن الظاهر برقوق من الشجاعة والصرامة والفطنة والمعرفة بتدبير الدولة فقد استطاع القضاء

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٠٧/١١ ، العمامي : سمط النجوم العوالي ٢٩/٤

(٢) " : " ، الشوكاني : البدر الطالع ١٦٢/١ .

(٣) " : " ، ٢١٥/١١ ، " : " ، ١٦٣/١ .

(٤) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١١٧ ، علي حسن : تاريخ

المماليك البحرية ١٢٧ .

على الفتن الداخلية التي هددت حكمه منذ بداية سلطنته وبذلك دانت لحكمه الديار المصرية والبلاد الشامية . (١)

غير أن ذلك الاستقرار لم يستمر طويلا فقد خرج عن طاعته جماعة من الأمراء المماليك وأعلنوا عزمهم على خلعهم من السلطنة ، فبرز الظاهر برقوق لقتالهم واعدتهم لطاعته ، وتمكن أولئك الأمراء من تحقيق هدفهم بعد أن تخاذلت عساكر الظاهر برقوق ووقفت في صفوف مخالفته مما أجبره على النزول من القلعة السلطانية، والاختفاء عن الأنظار بعد أن ترك لأولئك الأمراء حرية اختيار السلطان المملوكي الجديد، بعد أن خلع نفسه من السلطنة ، وقد كانت مدة سلطنة الظاهر برقوق الأولى قرابة ست سنين وثمانية أشهر . (٢)

السلطان المالح حاجي بن الأشرف شعبان (٧٩١ - ٧٩٢ هـ) :

بعد اختفاء الظاهر برقوق ثم هربه الى مدينة الكرك اتفقت كلمة الأمراء المماليك على إعادة العال حاجي لمنصب السلطنة مرة ثانية ، ومار الأمير يلبغا الناصري أتابكا للسلطان . ثم لم يلبث أن دب الخلاف بين الأمير يلبغا الناصري والأمير منطاش الذي طمع في السلطنة ، وقد استغل الظاهر برقوق ذلك النزاع لعالمه فخرج لقتال منطاش الذي هرب الى بلاد الشام وتمكن من هزيمته وعاد الى الديار المصرية حيث استقرت قدمه في الملك ثانية وخلص السلطان المالح حاجي من السلطنة . (٣)

- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/ ١٠٧ ، الشوكاني : البدر الطالع ١/ ١٦٣ .
 (٢) .. : .. ، ١١٥/١٢ ، .. : .. ١/ ١٦٣ .
 العمامي : سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٩ ، المنوفي : أخبار الأول ١٢١ .
 (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/ ١٤٥ ، الشوكاني : البدر الطالع ١/ ١٦٣ ، العمامي : سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٩ ، المنوفي : أخبار الأول ١٢١ .

السلطان الظاهر برقوق العثماني (٧٩٢ - ٨٠١ هـ) :

عاد الظاهر برقوق للسلطنة ثانية بعد أن شهد كبار الأمراء المماليك على خلع السلطان حاجي لنفسه من السلطنة ، وجلس الظاهر برقوق على سرير الملك و قدم عليه كبار الأمراء وأهل الدولة لمبايعته والدخول في طاعته .

وبعد استقرار الظاهر برقوق في السلطنة قبض على بعض الأمراء المماليك الذين سعوا لمنعه من الوصول الى السلطنة ثانية فأرسلهم الى سجن الاسكندرية .

وظل الظاهر برقوق في سلطنته حتى مرضه في شوال سنة ٨٠١ هـ ، فلما اشتد عليه المرض طلب حضور الخليفة العباسي المتوكل على الله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وجميع أرباب الدولة ، فلما اكتمل المجلس حد شهم الظاهر برقوق في ولاية السلطنة لأولاده من بعده على أن يكون الناصر فرج هو السلطان بعد وفاة أبيه ، ثم حلف القضاة والأمراء وجميع أرباب الدولة للأمير فرج بن برقوق ، وبعد ذلك حلفوا أن يكون القائم بالسلطنة بعد فرج أخوه عبد العزيز وبعد عبد العزيز أخوهما ابراهيم .

وبعد أسبوعين من ذلك المجلس مات الظاهر برقوق في ليلة الجمعة خامس عشر شوال وبذلك انتهت سلطنته الثانية بالديار المصرية والبلاد الشامية التي استمرت قرابة تسع سنين وثمانية أشهر . (١)

السلطان الناصر فرج بن برقوق (٨٠١ - ٨٠٨ هـ) :

بويع الناصر فرج بالسلطنة بعد وفاة والده بعد أن عهد اليه بولاية السلطنة من بعده ، وجلس على سرير الملك بالقصر السلطاني ، وحضر الخليفة العباسي المتوكل على الله ، فبايعه بالسلطنة وقلده أمور المسلمين . (٢)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠١/١٢ - ١٠٢ ، ١٠٥ ، الشوكاني : الدر الطالع ١٦٣/١ ، ابن مصرى : الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ٣ ، ٥ ، ١٩ ، ٦٥ ، ١٠١ .
(٢) تقبيل اليد من العادات السيئة التي انتشرت في ذلك العصر ، وهي مما خلفه العبيد يون بالديار المصرية ، والقصد منها اظهار التعظيم والاحترام والخضوع لأولئك الحكام والسلاطين عند اعلان مبايعتهم .

ثم جرى تحليف الأمراء المماليك على السمع والطاعة للملك الناصر فرج . (١)

غير أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثته الملك ، ولم يلبث كبار الأمراء المماليك أن رأوا فرصتهم سانحة في قيام الناصر فرج بن برقوق في منصب السلطنة وهو ابن عشر سنوات ، فبدأت المنافسات والمنازعات فيما بينهم ، الأمر الذي جعل السلطان فرج يزهده في العرش فهرب من القلعة السلطانية واختفى في أحد البيوت . (٢)

عند ذلك طلع الأمراء المماليك إلى القلعة السلطانية ومعهم الخليفة العباسي ، وتكلموا فيمن ينصبوه سلطانا ، حتى اتفقوا على سلطنة الأمير عبد العزيز بن الملك الظاهر برقوق ، لأنه ولي عهد أخيه فرج في السلطنة حسبما قرره والده برقوق قبل وفاته ، فطلبوا حضوره من الدور السلطانية وتم أمره ، وخلع الناصر فرج من السلطنة فكانت مدة ملكه ست سنين وخمسة أشهر . (٣)

السلطان المنصور عبد العزيز بن برقوق (٨٠٨ - ٨٠٨ هـ) :

بويغ بالسلطنة بعد اختفاء أخيه الناصر فرج باتفاق الأمراء المماليك ، وقد اضطربت أحوال السلطنة المملوكية لشدة الخلافات بين الأمراء الذين حسدوا الأتابك بيبرس على المكانة التي وصل إليها في الدولة وازداد ياد نفوذه بحكم وصايته على السلطان المنصور من جهة ، واضطراب السلطان نفسه من جهة ثانية ، لاختفاء أخيه الناصر فرج الذي عاد الأمراء في السعي لاعادته في السلطنة للتخلص من استبداد الأمير بيبرس الذي انشغل عن أمور المملكة بانهماكه في اللهو والملذات . (٤)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/١٦٨ - ١٧٧ ، الشوكاني : البدر الطالع ١/١٦٣ .
 (٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٦٠ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٢٨ .
 (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/٢٣٠ - ٢٣١ ، القلقشندي : صبح الأعشى ٣/٤٣٥ .
 العمامي : سمط النجوم العوالي ٤/٢٢ ، المنوفي : أخبار الأول ١٢١ .
 (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٣/٤١ - ٤٥ .

وفي ظل حرص الأمراء والمماليك على عودة الناصر فرج الى السلطنة خرج من مخبئه، فلما تسامعت به الأمراء أتوه من كل فج بآلة الحرب والسلاح ، فصعدوا القلعة السلطانية ، وطلب الناصر فرج أخاه المنصور وأعلن خلعه من السلطنة التي لم يكن له فيها سوى مجرد الاسم فقط لا غير ، وبذلك انتهت مدة سلطنة المنصور التي قاربت شهرين وعشرة أيام وزال ملكه . (١)

السلطان الناصر فرج بن برقوق (٨٠٨ - ٨١٥ هـ) :

عاد الناصر فرج للسلطنة ثانية بعد عزله لأخيه المنصور عبد العزيز ، وفي بدايته سلطنته عمل بعض التغييرات في وظائف الدولة من عزل وتولية ، واستقر الأمير تمرار الناصري نائبا للسلطنة بالديار المصرية .

وقد شهدت سلطنة الناصر فرج الثانية مزيدا من الاضطراب والفوضى وسوء تدبير أمور الدولة ، وذلك لزيادة حدة الصراعات بين كبار الأمراء المماليك من ناحية ، ولما عرف عن الناصر فرج من ناحية أخرى من الشدة والقسوة في تصرفاته وأحكامه حتى على أقرب الناس اليه وهم أخويه عبد العزيز وابراهيم ، حيث أمر بنفيهما الى سجن الاسكندرية وبقيتا فيهِ حتى وافاهما الأجل . (٢)

ولكثرة حركات عصيان الأمراء والنواب على الناصر فرج بالبلاد الشامية ، خرج بنفسه للقضاء على أخطرها وهي التي تحالف فيها الأمير نوروز الحافظي نائب الشام ، والأمير شيخ المحمودى نائب طرابلس ، ولكن الناصر وقع في أسرهما بعد هزيمته ، فوقع اتفاق بقبية الأمراء على خلعه من السلطنة ، فتم ذلك ، وكانت نهايته بموته في القلعة السلطانية حيث سجن فيها ، وبذلك انتهت سلطنة الناصر فرج الثانية التي دامت قرابة ست سنين وعشرة أشهر . (٣)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤٧/١٣ .

(٢) المصدر السابق ٤٩/١٣ - ٥٠ ، ٥٧ .

(٣) المصدر السابق ١١٣/١٣ ، ١٤٩ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ٣٣/٤ .

السلطان المؤيد شيخ محمودى (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) :

بعد خلع الناصر فرج من سلطنته ، اقترح الأمير شيخ المحودى سلطنة الخليفة العباسى العباس المستعين بالله حتى يمنع وصول الأمير نوروز الحافظى لمنصب السلطنة ، واقترح أيضا أن يبقى الأمير الحافظى نائبا للسلطان بالديار الشامية على أن يعود هـرمع الخليفة والعساكر السلطانية بعد هزيمة الناصر فرج وخلعه من السلطنة . (١)

ومن الواضح أن اختيار الخليفة المستعين بالله للسلطنة المملوكية لم يكن الا اجراء شكليا حتى يستقر الموقف بين الأميرين شيخ ونوروز ، ومما يؤكد ذلك أنه لم يكد الأمير شيخ يرجع الى القاهرة حتى أعلن عزل الخليفة من السلطنة بعد خمسة أشهر من سلطنته ثم حلّ مكانه وتلقب بالمؤيد شيخ . (٢)

ولما علم الأمير نوروز بما أقدم عليه شيخ المحمودى أعلن العصيان وانضم اليه أمراء ونواب البلاد الشامية ، وانتهت الفتنة بينهما بالقبض على الأمير نوروز بعدما وعده المؤيد شيخ بالصلح معه ، فلما حضر نوروز أمر السلطان المؤيد بسجنه ثم قتل من ليلته . (٣)

واستمر المؤيد شيخ في منصبه حتى مرضه ثم وفاته ، وبذلك انتهت مدة سلطنته التي استمرت قرابة ثمانى سنين وخمسة أشهر وثمانية أيام .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤/١٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٤

(٢) سعيد عاشور : العمر المماليكى في مصر والشام ١٦٢ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤/٢١ ، ابن طولون : اعلام السورى ٢٦

ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٦١ ، المنوفى : أخبار الأول ١٢١ .

العيني : السيئ المهند في سيرة الملك المؤيد ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ .

السلطان المظفر أحمد بن المؤيد شيخ (٨٢٤ - ٨٢٤ هـ) :

بويغ بالسلطنة يوم مات أبوه الملك المؤيد شيخ ، وكان عمره يوم بويغ سنة واحدة
وثمانية أشهر وسبعة أيام .

تولى الأمير ططر الظاهري تدبير أمر المملكة ، فكان يجلس بالد يوان السلطاني ويأخذ بيد
المظفر أحمد وفيها قلم العلامة حتى يعلم على الأوامر وغيرها ، وبقي الأمير ططر يدبر أمر
المملكة حتى مهد الأمور لنفسه فأعلن خلع المظفر أحمد من السلطنة ، وكانت مدة سلطنة
المظفر سبعة أشهر وعشرين يوما . (١)

السلطان المظفر ططر الظاهري (٨٢٤ - ٨٢٤ هـ) :

بويغ الظاهر ططر بالسلطنة بعد خلع المظفر أحمد واتفاق أعيان الأمراء المماليك
على توليه السلطنة وهم بالبلاد الشامية قبل العودة الى الديار المصرية .
وبعد مبايعته بالسلطنة قبض على من يخشاه من مماليك المؤيد شيخ الذين تعصبوا لابن
استاذهم المظفر أحمد و غضبوا لخلع الظاهر ططر له من منصبه .

وأعلن الناس فرحهم بتولية الظاهر ططر السلطنة لأنه بذلك رفع ما أصابهم من أذى
الأمراء والمماليك المؤيدية الذين جاروا على الناس وصاروا يأخذون أموالهم غصبا، فكرههم كل
أحد ، ولما تسلطن الظاهر ططر قمعهم وقضى على فسادهم وأظهر العدل في الرعية، ورفع
الأذى عنهم . (٢)

وبعد قرابة شهر ونصف من سلطنته مرض ولازم فراشه مع قيامه بأمر الدولة حتى وفاته،
وبذلك انتهت سلطنته التي دامت أربعة وتسعون يوما . (٣)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦٧/١٤ ، ١٧١ ، ١٩٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور
٦٣/٢ ، ٦٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٩٨/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٧٢/٢ - ٧٣ .

(٣) " : " ، ٢٠٦/١٤ ، " : " ، ٧٥/٢ .

العصامي : سمط النجوم العوالي ٣٧/٤ ، المنوفي : أخبار الأول ١٢٢ .

السلطان الصالح محمد بن الظاهر ططر (٨٢٤ - ٨٢٥) :

بويغ بالسلطنة بعهد من والده ، فجلس على سرير الملك وقبل الأمراء الأرض بسين يديه ، ونودي في القاهرة باسمه .

بدأت فترة سلطنته بانقسام الأمراء المماليك الى طائفتين : احدهما مع السلطان الصالح ومدبر المملكة الأمير جاني بك الصوفي ، والثانية مع الأمير برسباي الدقماقي الذي انفرد بتدبير أمور السلطنة ، وصار صاحب الحل والعقد في تلك الأيام . (١)

وقد نتج عن ذلك الخلاف بين كبار الأمراء المماليك اضطراب أحوال الدولة وانتشار الخوف والذعر بين الرعية لفقد الأمن والاستقرار في عاصمة السلطنة المملوكية .

وكانت نهاية ذلك الصراع لصالح الأمير برسباي الذي تمكن من القبض على خصومه وفي مقدمتهم الأمير جاني بك الصوفي والأمير يشبك الحكمي ، عند ذلك نودي بالأمان في نواحي القاهرة ففتحت الأسواق وشرع الناس في بيعهم وشراهم بعدما غلب على ظنهم أن الفتنة قد تطول بين أولئك الأمراء أياما كثيرة . (٢)

ثم أخذ الأمير برسباي الدقماقي في تهيئة الأمور لنفسه واستطاع التخلص من خصومه الطامعين في السلطنة وفي مقدمتهم الأمير طراباي ، فلما استقرت أحوال الدولة أعلن برسباي خلع الصالح محمد من سلطنته التي استمرت قرابة أربعة شهور لم يكن له منها سوى الاسم فقط ، حيث كان أمر المملكة والولاية والعزل للأمير برسباي . (٣)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢١١/١٤ - ٢١٢ ، ابن اياس : بدايع الزهور ٧٦/٢ .

(٢) " : " ، ٢٢٠/١٤ ، " : " ، ٧٩/٢ .

(٣) " : " ، ٢٣٢/١٤ ، " : " ، ٨٠/٢ .

العصامي : سبط النجوم العوالي ٣٨/٤ . الحنوفي : أخبار الأول ١٢٢ .

السلطان الأشرف برسباي الدقماقي (٤٢٥ - ٨٤١ هـ) :

تولى السلطنة بعد خلعها للسلطان الصالح فجلس على سرير الملك ، وقبل الأمراء الأرض بين يديه ، ونودي باسمه في القاهرة وضج الناس له بالدعاء ، وتلقب بالملك الأشرف .

وجاءت سلطنة الأشرف برسباي على غير القياس ، حيث كان في الأمراء من هو أقوى منه وأحق بالسلطنة ، ولعل قرب برسباي من الصالح محمد بن الظاهر ططر ، حيث كان المدبر لأمر المملكة ، ساعده على الوصول الى منصب السلطنة مع وجود من هو أحق منه بها . (١)

وقد امتازت فترة السلطان برسباي بالاستقرار وقلّة الاضطرابات الداخلية نوعاً ما ، وقد مكن ذلك الاستقرار الذي نعمت به سلطنة المماليك في عهده بمشروع حربي كبير هو غزو جزيرة قبرص وادخالها في نطاق التبعية لسلطنة المماليك في مصر ، خاصة بعد أن اتخذ القبارصة من جزيرتهم مركزاً للوثوب على الموانئ الإسلامية في شرق البحر المتوسط وتهديد هم لحركة التجارة الإسلامية التي تمر بالقرب من تلك الجزيرة . (٢)

وقد طالّت مدة الأشرف برسباي في السلطنة وأحسن في إدارة الدولة ، ونالت السعادة بعد أن دانت له الديار المصرية والبلاد الشامية وأهلها ، واستمرت مدة سلطنته قرابة سبع عشرة سنة . (٣)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥/١٠٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٨٢ .
 - (٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٦٣ - ١٦٤ .
 - (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥/١٠٦ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ٤/٣٨ - ٣٩ ، الشوكاني : البدر الطالع ١/١٦١ ، المنوفي : أخبار الأول ١٢٢ .

السلطان العزيز يوسف بن الأشرف برسباي (٨٤١ - ٨٤٢ هـ) :

ولي السلطنة بعد وفاة والده وبعهد منه ، وقد جعل الأشرف برسباي الأمير جقمق العلائي مدبرا للمملكة ، وذلك لصغر سن العزيز يوسف ، فعند ما تولى السلطنة كان في الرابعة عشرة من عمره .

وبعسد ثلاثة أيام من سلطنته بدأت الفتنة بين خال العزيز يوسف الأمير جكم الخامكي والأمير اينال ، وأصبحت المملكة مضطربة الأحوال ، ليس للناس فيها من يرجع الى كلامه حيث كثر المتكلمون في أمور الدولة مع تناثر القلوب فيما بينهم . (١)

وقد استغل الأمير جقمق ذلك الاضطراب باعلانه عزل السلطان العزيز من السلطنة بعد أن اتفقت كلمة كبار الأمراء على ذلك ، وبذلك انتهت مدة سلطنة العزيز التي استمرت قرابة ثلاثة أشهر لم يكن له فيها الا مجرد الاسم فقط ، ولم تطل أيامه ولا تحكّم في الأمور لتشكر أفعاله أو تذم ، وإنما كان آلة في الملك والمتصرف غيره لصغر سنه . (٢)

السلطان الظاهر جقمق العلائي الظاهري (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ) :

بويغ بالسلطنة بعد خلع العزيز بن الأشرف باتفاق الأمراء المماليك وأعيان المملكة على سلطنته ، بدأت مدة سلطنته بخلافه مع الأمير قرقماس الشعباني الذي طمع في منصب السلطنة فاضطربت أحوال الدولة حتى قبض على قرقماس ، وبذلك صفا الوقت للظاهر جقمق ، وتفرغ لاعمال أحوال الديار المصرية والبلاد الشامية ، فحمدت أفعاله لاهتمامه بحصالح العباد والبلاد .

بقي في السلطنة حتى مرض في المحرم من سنة ٨٥٧ هـ ، ولما اشتد به المرض خلع نفسه ممن

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٢٩/١٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١٩٢/٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٣٥/١٥ - ٢٤٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور

الزهور ١٩٨/٢ ، العمامي : سبط النجوم العوالي ٣٩/٤ ، الشوكاني : البدر

الطالع ١٦٢/١ .

السلطنة وعهد بها لولده عثمان . (١)

السلطان المنصور عثمان بن الظاهر جقمق (٨٥٢ - ٨٥٢ هـ) :

تولى السلطنة بعد أن اشتد المرض بوالده الظاهر جقمق واعلانه خلع نفسه من السلطنة المملوكية ، وكان له من العمر لما جلس على سرير الملك نحو تسع عشرة سنة ، فأحضر له شعار الملك ونودي باسمه في القاهرة وارتفعت له الأصوات بالدعاء . (٢)

وحرصا من الظاهر جقمق على استمرار ابنه عثمان في السلطنة فانه لم يجعل له وصيا عليه ولا من يدبر المملكة من بعده لیساعد ابنه في تدبير أمور الدولة ، وظن أن ذلك يثبتته في السلطنة ، فجاء الأمر بخلاف ذلك (٣) ، ولعل الظاهر جقمق رأى بنفسه ما تعرض له أبناء السلاطين من قبل حيث كانت نهايتهم على أيدي مدبري المملكة ومن وكل اليهم الوصاية على أولئك الأبناء الصغار ، فأراد تلافى تلك النهاية ولكن كانت النتيجة واحدة .

حيث أنه بعد أيام من سلطنته اجتمع الأمراء المماليك عند الأمير اينال العلاءي ، وأعلنوا عزمهم على خلع المنصور عثمان من السلطنة ومبايعة اينال وهو يمتنع من قبول ذلك المنصب ، فلم يلتفتوا لتمنعه ، ولبسوا سلاحهم وقاتلوا السلطان عثمان ومن حوله من المماليك ، وبعد خمسة أيام من القتال أعلن خلع المنصور عثمان بحضور الخليفة العباسي القائم بأمر الله حمزة والقضاة الأربعة ، وبذلك انتهت مدة سلطنته التي قاربت شهر ونصف، وهي أقل مدة أقامها سلطان مملوكي في ملك مصر . (٥)

- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٥٦/١٥ ، ٢٧٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١٩٩/٢ .
العصامي : سمط النجوم العوالي ٤٠/٤ ، الشوكاني : البدر الطالع ١٨٤/١ - ١٨٥ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٣/١٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٠١/٢ .
(٣) " : " ، ٤٠/١٦ ، " : " ، ٣٠١/٢ .
(٤) القضاة الأربعة اشارة الى قضاة المذاهب الفقهية الأربعة ، حيث جعل لكل قضاة منها قاض يتولى رئاسة قضاة ذلك المذهب ، ويعين ذلك القاضي ويعزل بأمر من السلطان المملوكي ، وكان يشترط حضور هؤلاء القضاة عند مبايعة الخليفة بمصر أو عند تولية أو عزل أحد السلاطين المماليك .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤١/١٦ ، ٤٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٠٥/٢ .

السلطان الأشرف اينال العلائي (٨٥٧ - ٨٦٥ هـ) :

ببيع بالسلطنة بعد انهزام الملك المنصور عثمان ومن معه من المماليك ، ثم خلعته من السلطنة ، مع اصرار كبار الأمراء المماليك على مبايعة الأشرف اينال بالسلطنة واجبارهم له على قبولها وهو يمتنع من ذلك ، ولما تم أمره جلس على سرير الملك أخذ في تدبير أمره واملاح شأنه ، فأجرى عدة تعيينات في وظائف الدولة الهامة ما بين عزل ، وولاية ، وحبس ونفي . (١)

وقد عمفت حركات العميان التي قام بها ممالك الأشرف اينال بملكه حيث انعدم الأمن والاستقرار ، وشاع الخوف والذعر من جراء اعتداءات أولئك المماليك على الخاصة والعامة بعاصمة الخلافة العباسية ومقر السلطنة بالديار المصرية القاهرة .

ففي الأعوام الأخيرة من تاريخ سلطنة المماليك دأب السلاطين على شراء المماليك وهم قد تجاوزوا سن البلوغ ، مما جعل أولئك المماليك الأجلاب لا يتشربون روح الولاء والنظام والطاعة لاستاذهم في طفولتهم ، فماروا معدر خطر على السلطان نفسه ، وتعددت حركات عميانهم حتى صار بعض السلاطين أنفسهم ألعوبة في أيديهم . مما ساعد على سهولة عزل سلطان واقامة غيره في منصبه ، ومما يؤكد على الأثر السيء الذي تركته تلك الحركات من اضطراب وفساد ، أنه في سلطنة الأشرف اينال التي استمرت قرابة ثماني سنوات أعلن المماليك الأجلاب العميان عليه والخروج من الطاعة سبع مرات . (٢)

وقد استمر الأشرف اينال في السلطنة حتى وفاته بعد اشتداد مرضه في منتصف جمادى الأولى سنة ٨٦٥ هـ . (٣)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦/٥٧ . ٦٢ ، ٦٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٣٠٧ ، ٣٠٩ .

(٢) سعيد عاشور : العدمر المماليكي في مصر والشام ١٧٣ ، ابراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ٣٦ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦/١٥٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٣٦٧ ، العمامي : سخط النجوم العوالي ٤/٤٠ ، المنوفي : أخبار الأول ١٢٢ .

السلطان المؤيد أحمد بن الأشرف اينال (٨٦٥ - ٨٦٥ هـ) :

بويغ بالسلطنة في حياة والده عندما اشتد عليه مرضه ، فقد أشار أحد كبار الأمراء المماليك ويدعى الأمير برد بك على السلطان الأشرف اينال أن يعهد بالسلطنة لابنـه أحمد بسبب فساد أحوال البلاد واضطرابها ، فوافق الأشرف اينال على ذلك الاقتراح وعهد بالسلطنة لابنه أحمد بحضور الخليفة العباسي والقضاة الأربعة . (١)

وبعد توليه السلطنة اجتهد في اصلاح أحوال الدولة وتدبير أمورها ، غير أنه لم يجد المساعد له بالقول والفعل لقللة خبرته وتدبيره ، وعدم معرفته بمدخله الأتراك ، ولم يكن عنده من يرشده ، وزادت أيامه في الاضطراب لمخالفة المماليك السلطانية لأوامره . (٢)

وكانت نهاية أيامه باجتماع طوائف من المماليك عند الأمير خشقدم - على كره منه - وأعلنوا عزمهم على خلع المؤيد أحمد من السلطنة ونصب غيره ، وبعد مداوات وقع اتفاقهم على مبايعة الأمير خشقدم بالسلطنة ، وبأدر الأمراء الى تقبيل الأرض بين يديه ، وبذلك انتهت سلطنة السلطان المؤيد أحمد التي دامت قرابة أربعة أشهر وستة أيام . (٣)

السلطان الظاهر خشقدم الناصري (٨٦٥ - ٨٧٢ هـ) :

بويغ بالسلطنة يوم خلع المؤيد أحمد بعد اجتماع كلمة الأمراء المماليك عليه ، وقد امتازت مدة سلطنته بالهدوء ، ولم يعكر صفو ذلك الهدوء سوى محاولة الأمير جانم بك نائب الشام لانتزاع منصب السلطنة ، ولكن السلطان خشقدم استطاع في سهولة أن يقضي على تلك المحاولة . (٤)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٢١/١٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٠٧/٢ .
 - (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٣١/١٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٧١/٢ .
 - (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٤٠/١٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٧٧/٢ .
 - العصامي : سمط النجوم العوالي ٤١/٤ ، السخاوى : الضوء اللامع ٢٤٦/١ .
 - (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٦٢/١٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٨٣/٢ .
- سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٧٣ ، ابراهيم طرخان : مصر في عصر المماليك الجراكسة ٣٩ .

ظل الظاهر خشقدم في منصبه حتى مرض وعجز عن القيام بمهام السلطنة ومباشرة
أمورها بسبب ملازمته لفراشه ، وعند ذلك اجتمع كبار الأمراء لتدارك الأمر قبل وفاة السلطان
خشقدم ، فوقع اتفاهم على اختيار سلطان جديد يتولى أمر المملكة . (١)

السلطان الظاهر يلباي المؤيدى (٨٧٢ - ٨٧٢ هـ) :

بعد وفاة الظاهر خشقدم اجتمع الأمراء المماليك بالأمير يلباي وخاطبوه بالسلطنة
فامتنع امتناعا هينا ، فلم يلتفتوا الى كلامه وأرسلوا الى بقية الأمراء ، فلما حضروا بايعوه
بالسلطنة وتم أمره بحضور الخليفة العباسي يوسف المستنجد بالله وشهادة القضاة الأربعة . (٢)
وفي بداية سلطنته حاول الظاهر يلباي التخلص من شر المماليك الأجلاب بحيلة
دبرها ، ولكنها انقلبت عليه ، حيث اكتشف المماليك تلك الحيلة ، فاجتمعت كلمتهم
على خلعهم من السلطنة ، ولما رفض يلباي التنازل عن منصبه حاصرت طوائف المماليك حتى وقع
في أيديهم فخلعوه من سلطانه .

ذكر عنه ضعف التدبير ، فقد كان أميا لا يحسن القراءة والكتابة ، وعجز عن تدبير
أمور السلطنة والبيت فيما يعرض عليه من أحوال المملكة ، يخاف الى ذلك أنه كان مسلوب
الارادة والاختيار ، بعد أن غلب عليه الأمير خاير بك ، فكان الظاهر يلباي لا يقضي أمرا من
دونه ، ولم يكن له من السلطنة الا مجرد الاسم فقط . وكانت مدة ملكه شهرين الا أربعة
أيام . (٣)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦/٢٠٥ - ٢٠٦ ، ابن اياس : بدائع
الزهور ٢/٤٥١ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ٤/٤١ . الشوكاني : البدر
الطالع ١/٢٤١ .
- (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦/٣٥٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٤٥٨ .
- (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦/٣٦٩ - ٣٧١ ، ابن اياس : بدائع
الزهور ٢/٤٦٤ - ٤٦٧ .

السلطان الظاهر تمر بغا الظاهري (٨٧٢ - ٨٧٢ هـ) :

بويغ بالسلطنة بعد اتفاق كلمة الأمراء المماليك من سائر الطوائف ، وبعد توليه السلطنة سلك مع الناس مسالك استجلب بها قلوب الخاص والعام .
غير أن المماليك الأجلاب الذين تزعمهم الأمير خاير بك أعلنوا خلع السلطان تمر بغا بعد أن عجز في كسب رضاهم ، وأعلنوا نصب خاير بك في السلطنة ، إلا أن ذلك التصرف لم يكتب له النجاح بعد أن وقف الأمير قايتباي المحمودي في وجه المماليك الأجلاب وتولى السلطنة ، وكانت مدة الظاهر تمر بغا في السلطنة قرابة شهرين . (١)

السلطان الأشرف قايتباي المحمودي (٨٧٢ - ٩٠١ هـ) :

حاول المماليك الأجلاب نصب الأمير خاير بك في السلطنة فوافقهم على ذلك بعد أن وعدوه بالدفاع عنه وحمايته ممن يخالف سلطنته ، وجلس خاير بك على سرير السلطنة لمدة ليلة واحدة ، وتلقب بالملك العادل .
وبعد أن قضى قايتباي على آمال خاير بك في السلطنة اضطر لقبولها بعد أن عرض عليه الأمراء المماليك الجلوس على سرير السلطنة أو البحث عن غيره ، فعندما أظهر قايتباي الامتناع قال له الأمراء : لا يفيد الامتناع ، وقد قبلنا لك الأرض ، فاما أن تذعن ، واما أن نسلطن غيرك ، فلما علم تمر بغا بذلك الاجتماع وما دار فيه نزل من القلعة السلطانية وبذلك تم أمر قايتباي في السلطنة . (٢)

وقد طالبت مدة الأشرف قايتباي في السلطنة حيث قاربت تسعة وعشرين عاما، لقي فيها الكثير من الصعوبات ، خاصة على نطاق الحدود الشمالية للدولة ، فقد غلب عدم الاستقرار على تلك المنطقة بسبب كثرة عميان القبائل التركمانية ، يضاف الى ذلك الخطر

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦/٣٧٥ ، ٣٨٨ - ٣٩٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٤٧٠ - ٤٧٣ ، العمامي : سمط النجوم العوالي ٤/٤٢ ، المنوفي : أخبار الأول : ١٢٣ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٠٦/٣٩٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣/٤ ، ٥

الجديد الذي أصبح يهدد الدولة وهو تعاظم قوة الدولة العثمانية وتزايد نفوذ السلطان العثماني في تلك المنطقة بمئة خاصة ، وفي أرازي الخلافة العباسية بمئة عامة .

السلطان الناصر محمد بن الأشرف قايتباي (٩٠١ - ٩٠٤ هـ) :

ولي السلطنة بسعي من الأمير قانصوه خمسمائة ، وكان عمره عند ما جلس على سرير الملك أربعة عشرة سنة ، وقد كانت أيامه عصيبة على الرعية لشدة بطشه وظلمه وكثرة شروره وسوء تدبيره ، حتى قتل على أيدي الأمراء المماليك في المحرم من سنة ٩٠٤ هـ .^(١)

السلطان الظاهر قانصوه الأشرفي (٩٠٤ - ٩٠٥ هـ) :

بعد مقتل الناصر محمد بن قايتباي وقع الاضطراب بين الأمراء المماليك بسبب اختيار السلطان الجديد ، وعندما عرضت السلطنة على بعض الأمراء رفض قبولها ، حتى وقّع اتفاقهم على سلطنة الأمير قانصوه الأشرفي بحجة أنه خال الناصر محمد بن قايتباي ، فتم أمره في السلطنة .^(٢)

وكان قانصوه في مدة سلطنته التي استمرت قرابة سنة وثمانية أشهر ملوب الاختيار مع الأمراء المماليك مهما يقولون له يقول ، لخوفه منهم ، وخشيته من سطوتهم عند مخالفتهم ، ومع ذلك فانه لم يسلم منهم حيث خلعه من السلطنة .^(٣)

السلطان الأشرف جان بلاط الأشرفي (٩٠٥ - ٩٠٦ هـ) :

وقد تولى السلطنة بعد هزيمة الظاهر قانصوه ثم خلعه من السلطنة حيث وقع الاختيار عليه ليلي ذلك المنصب بتدبير من الأمير طومان باي الذي كان يطمع في الوصول الى السلطنة

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣/٢٢٢ ، ٤٠٣ ، العمامي : سمط النجوم النوالي ٤/٤٨٠ .

(٢) .. : .. ٤٠٥/٣ ، .. : .. ٤٩/٤ .

(٣) .. : .. ٤٣٨/٣ ، الحنوفي : أخبار الأول ١٢٤ .

ولكن وجود جان بلاط يجعل تلك الأمنية يتعذر تحقيقها ، فتعصب طومان باي لسلطنة
جان بلاط ورجح كفته على غيره من الأمراء المماليك .

ولكن الأمير طومان باي لم يلبث أن نازع جان بلاط الأشرفي وقاتله حتى هزمه ، وقضى
على نفوذه ، وبذلك انتهت سلطنة الأشرف جان بلاط التي قاربت ستة أشهر ونصف ،
كان فيها فسي غاية الضنك لتسلط طومان باي ، وحصل للناس فيها غاية الضرر لشدة
ظلم جان بلاط وعسفه . (١)

السلطان العادل طومان باي الأشرفي (٩٠٦ - ٩٠٦ هـ) :

تولى السلطنة بعد أن اجتمعت كلمة الأمراء المماليك وأرباب الدولة قاطبة على
مبايعته بها ، ولكن مدته لم تطل في ذلك المنصب حيث انتهت سلطنته بعد ثلاثة أشهر ،
ومع قصرها فقد كانت كثيرة الشرور والفتن . (٢)

السلطان الأشرف قانصوه الغوري (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ) :

بعد خلع العادل طومان باي تعصب الأمراء المماليك والعساكر لسلطنة قانصوه
الغوري وقالوا : ما نسلطن الا هذا ، فسحبوه وأجلسوه على سرير السلطنة وهو يمتنع من ذلك
ويبكي ، ثم اضطر لقبول ما عرضوه عليه بعد أن اشترط عليهم عدم قتله ان أرادوا خلعه
من السلطنة ، فعاهدوه على ذلك .

حاول الأشرف قانصوه الغوري التخلص من مؤامرات ود سائس الأمراء المماليك والعساكر
السلطانية بايقاع الفتنة بينهم، فاشتغلوا عنه بذلك حتى أفنى كبراءهم وبذلك استطاع

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣/٣٣٩ - ٤٤٠ ، ٤٦٣ ، العصامي : سمط النجوم
العوالي ١٢٤ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٣/٤٦٤ - ٤٦٦ ، ٤٧٧ ، ابن طولون : اعلام الوري ١٢٧ .
العصامي : سمط النجوم العوالي ٤/٤٩ ، المنوفي : أخبار الأول ١٢٤ .

أن يعيد الأمن والاستقرار في الناحية الداخلية (١)

أما الميدان الخارجي فقد كان الخطر الكبير الذي هدد ممالح البلاد في عصر السلطان الغوري فبعد أن تثبت البرتغاليون أقدامهم في السواحل الهندية ، اتجهوا نحو سواحل البحر الأحمر ، واستطاعوا هزيمة الأسطول المملوكي في موقعة (ديو) البحرية سنة ٩١٥ هـ ، وبذلك ضاعت مكانة مصر التجارية بين الشرق والغرب ، ثم كان الخطر الثاني الذي ترتب عليه سقوط سلطنة المماليك نفسها ، وهو تقدم السلطان سليم العثماني الى البلاد الشامية ، ثم الديار المصرية (٢) ، ومقتل الغوري في موقعة مرج دابق ، وبذلك انتهت سلطنته التي استمرت قرابة خمس عشرة سنة . (٣)

السلطان الأشرف طومان باي الناصري (٩٢٢ – ٩٢٣ هـ) :

عندما توجه الأشرف قانصوه الغوري لحماية البلاد الشامية ، جعل الأمير طومان باي نائباً له بالديار المصرية ، وبقي كذلك حتى عادت العساكر المصرية بعد هزيمة قانصوه الغوري في موقعة (مرج دابق) ، فلما اجتمع الأمراء المماليك بالقاهرة استقر رأيهم على مبايعة طومان باي بالسلطنة ، فصار يتمتع من ذلك غاية الامتناع والأمراء كلهم يقولون له : ما عندنا من نسلطان الا أنت طوعاً أو كرها ، وكانت نهاية ذلك الاجتماع قبول الأمير طومان باي لمنصب السلطنة بعد أن حلف له الأمراء بالسمع والطاعة وعدم الغدر به . (٤)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٤/٤ – ٥ ، المنوفي : أخبار الأول ١٢٤ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٧٨ – ١٧٩ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٥/٨٨ – ٩٠ ، ابن طولون : اعلام الوري ٢١٣ ، العمامي :

سمط النجوم العوالي ٤/٥٠ ، المنوفي : أخبار الأول ١٢٥ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٥/٨٥ ، ١٠٤ – ١٠٥ ، العمامي : سمط النجوم

العوالي ٤/٥٧ .

وبعد مبايعة طومان باي حاول الدفاع عن الديار المصرية والحيلولة دون وقوعها في يد السلطان سليم العثماني ، إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل ، وكانت نهاية الأشرف طومان باي هربه من القاهرة وتخفيه عن العيون حتى قبض عليه ثم قتله بأمر السلطان سليم ، وكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً . (١)

وبعد استعراض من تقدم من السلاطين المماليك ، نجد تفاوتاً كبيراً بينهم في إدارة الدولة ، فكان منهم السلاطين الأقوياء الذين حرصوا على تحقيق الأمن والاستقرار ونشر العدل بين الرعية ، وحماية الدولة من الطامعين فيها من مغول و صليبيين ، وكان منهم السلاطين الضعاف الذين استغلوا وصولهم إلى منصب السلطنة فآللهو ومجالسة الندماء، فساءت أحوال العباد والبلاد ، وكانوا سبباً لنشر الفوضى والاضطراب، لكثرة الطامعين في الدولة من الأمراء المماليك في ظل وصول أولئك السلاطين الضعاف لمنصب السلطنة .

وهول

وقد مرت السلطنة المملوكية بأزمات عصيبة في ظل/صغار السلاطين لمنصب السلطنة ، حيث لم يلبث الأوصياء عليهم أن استقلوا بتدبير أمور السلطنة، ثم أعلنوا خلع أولئك السلاطين الصغار ، وتولّى السلطنة بدلا عنهم مما يؤكد عدم نجاح مبدأ وراثة الملك لدى المماليك ، وقد كان الخليفة العباسي في منأى عن تلك الصراعات التي عصفت بالخلافة العباسية في مصر في ظل تسلط المماليك على مقاليد الأمور في الدولة وتزايد أطماع الأمراء في تحقيق مكاسب شخصية على حساب أمن واستقرار الدولة الإسلامية .

* * * * *

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٥ / ١٧٦ ، المنوفي : أخبار الأول ١٢٥ .

الباب الثاني
الأوضاع الداخلية في ظل الخلافة العباسية
وفيه الفصول التالية :

- الفصل الأول: العلاقة بين الخلفاء العباسيين والسلطين المماليك
الفصل الثاني : مظاهر الحياة العامة في عصر الخلافة العباسية
الفصل الثالث: الإصلاحات الداخلية في ظل الخلافة العباسية

الفصل الأول

العلاقة

بين

الخلفاء العباسيين و السلاطين المماليك

خلافة المستنصر بالله أحمد بن محمد (٦٥٩ - ٦٦٠ هـ) :

بعد سقوط مدينة بغداد بأيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ ، وقضائهم على الخلافة العباسية ، نجا من أيديهم أحد أفراد البيت العباسي وهو أحمد بن الظاهر محمد بن الناصر أحمد ، وتوجه الى جماعة من الأعراب بأرض العراق ، فلما سمع بملك الظاهر بيبرس للديار المصرية ، قصده وفي صحبته جماعة من أمراء الأعراب من بني مهارش . (١)

ولما علم الظاهر بيبرس بقدمه سرّ بذلك وركب بنفسه للقاءه ، ودعا الناس على طبقاتهم الى أبواب السلطان بالقلعة السلطانية ، وأعدّ مجلسا لاستقباله عند وصوله . (٢)

وبعد وصول أحمد بن محمد العباسي الى الديار المصرية وحضوره مجلس السلطان الظاهر بيبرس ، وتم اثبات صحة نسبه ببيع بالخلافة العباسية سنة ٦٥٩ هـ ، فبايعه السلطان والقضاة والأمراء ، ثم نزل الى داره في موكب حافل والأمراء بين يديه والناس حوله ، وسار في نواحي القاهرة . (٣)

وقد اهتم السلطان الظاهر بيبرس البندقداري بالخليفة العباسي المستنصر بالله و باعلان خلافته حيث كتب الى النواحي بأخذ البيعة له ، والخطبة له على المنابر ، وأمر بنقش اسمه على السكة (٤) ، ورتب للخليفة العباسي من الأعوان من يساعده ، وخصص له كاتباً ، وعين له خزانة ، وعدة مماليك ومائة فرس . (٥)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١٠/٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣١٣/١ .
(٢) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤١٥/٢ ، ابن خلدون : التاريخ ٤٤٠/٥ .
(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ٢٩٧/٥ ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢١٢/١
ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٤/١٣ ، ابن الوردي : تنمة المختصر في أخبار البشر ٣٠٥/٢ .
(٤) ابن خلدون : التاريخ ٤٤٠/٥ ، سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ٣٤٩ .
(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٦٩/٢٣ ، العبر ٢٩٤/٣ ، اليافعي : مرآة الجنسان ١٥١/٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٢٩٧/٥ .

ومن مظاهر احترام السلطان الظاهر بيبرس للخليفة العباسي المستنصر بالله أنه أمر الخليفة أن يتولى ^{خطبة} يوم الجمعة بجامع القلعة السلطانية ، فركب الخليفة حتى جاء إلى الجامع وصعد المنبر ، وخطب خطبة بليغة .

ثم لم يلبث الخليفة العباسي المستنصر بالله أن فوض أمر الخلافة للسلطان الظاهر بيبرس ولقبه بقسيم أمير المؤمنين ^(١) ، وأشهد الملاء على ذلك التفويض وكتب عهده بذلك ، وأثنى الخليفة على السلطان بيبرس وشكره على صنيعه باقامة الخلافة العباسية بالديار المصرية ، ورعايته للخليفة واحسانه اليه ، وحثه الخليفة في ذلك العهد على بسط يد العدل والاحسان للرعية ورفع الظلم عنهم ، ومما ورد في ذلك العهد :

" بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذي اصطفى الاسلام بملايس الشرف ، وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحکم عليها من الصدف ، وشيد ما وهى من علائمه حتى أنسى ذكر ما سلف ، وقبض لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلف ٠٠٠ وبعد :

فان أولى الأولياء بتقديم ذكره ، وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا في تسطير مناقبه وبره ، من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدما ٠٠٠ وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زندا ومعصما ، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه نارا وأجراه دما ، ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولوى السلطانسى الملكى الظاهرى الركنى ، شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز النبوى الامامى المستنصرى أعز الله سلطانه ، تنويهها بشريف قدره ، واعترافا بمنعه الذى تنفذ العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره ، وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، ومنح أمير المؤمنين عند القدم عليه حنواً وعظفا ٠٠٠٠ وأبدى من الاهتمام بأمر الشريعة والبيعة أمرا لورامه غيره لامتنع عليه ٠٠٠٠ وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع .

(١) الصفوى : صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير و سلطان ق ٣٤ .

وقد قلدك الديار المحرقة والبلاد الشامية والديار بكريّة والحجازية واليمينية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوّض أمر جندها ورعاياها اليك حين أصبحت بالمكارم فردا ، ولا جعل منها بلدا ولا حصنا من الحصون يستثنى ، ولا جهة من الجهات تعدّ في الأعلى ولا في الأدنى . فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا . . . وأبسط يدك بالاحسان والعدل . . . وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج الى نواب وحكام وأصحاب رأى من أصحاب السيوف والأقلام . فاذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقّب عليه تنقيبا وأمرهم بالأناة في الأمور والرفق ومخالفة الهوى اذا ظهرت أدلّة الحق ، وأن يعاملوا الضعفاء في حوائجهم بالشفرة الباسم والوجه الطلق ومما تؤمرون به أن يمحي ما أحدث من سيء السنن ، وجدد من المظالم التي هي من أعظم المحسن وحقيق بالمقام الشريف المولوى السلطاني الملك الظاهري الركني أن تكون ظلمات الأنعام مردودة بعد له ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذى أضحي على الأمة فرضا وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة الى ما كان عليه في الأيام الأول . فأيقظ لنصرة الاسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا ، وكن في مجاهدة أعداء الله اماما متبوعا لا تابعا ، وأيد كلمة التوحيد ، فما تجد في تأييدها الا مطيعا سامعا ، ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها وشيد منها كل ما غادره العدو ومنهد ما وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا وكذلك أمر الأسطول الى أن يقول : " والله يمدك بأسباب نصره ، ويوزعك شكر نعمه ، فان النعمة ستتم بشكره " . (١)

ولم يذكر الخليفة العباسي المستنصر بالله من الأسباب التي دفعته لاحد ار ذلك التفويض للسلطان الظاهر بيبرس سوى اقامته للخلافة العباسية ، ومبايعته للخليفة ،

(١) حوادث سنة ٦٥٩ هـ في النجوم الزاهرة ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجوهري

الشمين في سير الملوك والسلاطين .

بينما يرى البعض أن ذلك التفويض إنما هو تنفيذ لرغبة السلطان الظاهر ببيبرس في تقوية مركزه ونفوذِه ضد مناوئيه من الأمراء المماليك ، ولاحاطة ملكه بسياج من الهيبة والاحترام فرأى أن يعقد اجتماعا يتلى فيه تفويض الخليفة العباسي المستنصر بالله له بالسلطة .^(١)

ولكن ذلك التفويض كان قد صدر في ظروف عصيبة ، كانت الدولة الإسلامية تمر بها بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، واجتياح المغول لدار الإسلام ، ويبدو أن الخليفة العباسي المستنصر بالله كان مهتما عند اصدار ذلك التفويض باعادة الخلافة والعودة الى العراق لجهاد المغول ، ولذلك حرص بعد مبايعته بالخلافة بالديار المصرية على قتال المغول واخراجهم من البلاد الإسلامية ، ولعله أراد باصدار ذلك التفويض أن يزيد الجبهة الإسلامية التي يقودها الظاهر ببيبرس قوة وتماسكا ، وتصبح أقوى على دحر المغول وصد هجماتهم عن البلاد الإسلامية ، ويتسنى له بعد ذلك اعادة الخلافة العباسية الى بغداد ثانية .

(١) محمد جمال الدين سرور : الظاهر ببيبرس وحضارة مصر في عصره ٦٧٠ .

خلافة الحاكم بأمر الله أحمد بن الحسن (٦٦١ - ٥٧٠١ هـ) :

وقد تولى السلطنة في مدة خلافة الحاكم بأمر الله كل من : الظاهر بيبرس ، والسعيد محمد بن بيبرس ، والعماد لسلامش بن بيبرس ، والمنصور قلاوون الألفي ، والأشرف خليل بن قلاوون ، والناصر محمد بن قلاوون ، والعماد لكتبغا المنصوري ، والمنصور لاجين ، والناصر محمد بن قلاوون للمرة الثانية .

استخلاف الحاكم بأمر الله أحمد بن الحسن :

كان أحمد بن الحسن العباسي قد خرج في محبة الخليفة المستنصر بالله عند سفره الى العراق لقتال المغول ، فلما فُقد الخليفة المستنصر بالله وحلت الهزيمة بجيشه سار أحمد بن الحسن مع من نجا منهم الى القاهرة، فدخلها في أواخر شهر ربيع الآخر سنة ٦٦١ هـ . (١)

وبعد وصول أحمد بن الحسن للديار المصرية عقد السلطان الظاهر بيبرس مجلسا عظيما وبايعه بالخلافة ثم بايعه الأعيان ، وخص له السلطان حننا ليقوم فيه ، وأشرك له في الدعاء في الخطبة بالديار المصرية والبلاد الشامية ، وضربت السكة باسمهما . (٢)

ثم بايع الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله في سنة ٦٦١ هـ السلطان الظاهر بيبرس بالسلطنة ، وأوصى السلطان بالرفق بالرعية وإقامة الحق وإظهار شعائر الاسلام ونصرة الدين . ثم قال له : فوفيت اليك جميع أمر المسلمين وقلدتك ما تقلدته من أمور المسلمين (٣)

وقد طالبت مدة خلافة الحاكم بأمر الله في الخلافة حيث قاربت أربعين سنة تولى فيها السلطنة بالديار المصرية عدد من السلاطين المماليك تباينت علاقتهم بالخليفة العباسي فكانت على النحو التالي :

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١٨/٧ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٧٨ ،
الحقريزي : الذهب المسبوك ٦٠ .
- (٢) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٢/٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٣٠٤/٥ .
- (٣) القلقشندي : صبح الأعشى ٢٦٥/٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣١٩/١ .

الخليفة الحاكم بأمر الله والسلطان الظاهر بيبرس (٦٦١ - ٦٧٦ هـ) :

تجد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى يهتم بمبايعة أحمد بن الحسن ، ويظهر سروره بقدمه للديار المصرية ، وبعد مبايعته يخصص له السكن اللائق به ، ثم يجرى على الخليفة العباسي الأرزاق ويحسن اليه ، ورسم بأن ينقش اسم الخليفة مع اسم السلطان على الدنانير والدراهم ، وأن يخطب له مع السلطان في كل جمعة ، وأن يدعى لهما على المنابر ، وأن يقدم اسم الخليفة على اسم السلطان في الدعاء . (١)

خطبة الخليفة الحاكم بأمر الله في حث الظاهر بيبرس على جهاد المغول :

الحمد لله الذي أقام لآل العباس ركنا ظهيرا ، وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا .
أحمده على السراء والضراء ، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء ، وأستنصره على دفع الأعداء ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء ، وأئمة الاقتداء ، لا سيما الأربعة ، وعلى العباس كاشف غمه أبي السادة الخلفاء ، وعلى بقية الصحابة أجمعين والتابعين لهم باحسان السلي
يوم الدين .

أيها الناس .. اعلموا أن الامامة فرض من فروض الاسلام ، والجهاد ، محتوم على جميع الأنعام ، ولا يقوم علم الجهاد الا باجتماع كلمة العباد ، ولا سببت الحُرْم الا بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء الا بارتكاب الجرائم ، فلو شاهدتم أعداء الاسلام لما دخلوا دار الاسلام ، واستباحوا الدماء والأموال وقتلوا الرجال والأطفال ، وسبوا الصبيان والبنات ، وأيتموهم من الآباء والأمهات ، وهتكوا حرم الخلافة والحريم ، وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم الطويل ، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه ، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه ، فشمروا عباد الله

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٥١/١٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١/٣٢٠ .
ابن دقماق : الجواهر الثمين ١/٢٣٠ ، ابن الطولوني : النزهة السنوية ١٢٢ .

عن ساق الاجتهاد في احياء فرض الجهاد، (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (١) فلم يبق معذرة في القعود عن أعداء الدين ، والمحاماة عن المسلمين ، وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الأجل العالم العادل المجاهد المؤيد ركن الدنيا والدين ، قد قام بنصر الأمامة عند قلة الأعمار ، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار ، وأصبحت البيعة بهيمته منتظمة العقود ، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود ، فبادروا عباد الله الى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا نياتكم تنحروا ، وقاتلوا أولياء الشيطان تخفروا ، ولا يرومكم ما جرى فالحرب سجال والعاقبة للمتقين ، والدهر يومان ، والأجر للمؤمنين .

جمع الله على الهدى أمركم ، وأعز بالايمان نصركم ، وأستغفر الله لي ولسائر المسلمين ، فاستغفروه انه هو الغفور الرحيم " . ثم خطب الثانية ونزل فملى . (٢)

ولكن السلطان بيبرس أصدر أمره في رمضان من سنة ٦٦٤ هـ بحجب الخليفة العباسي أحمد الحاكم بأمر الله عن الناس ، ومنع الناس من الدخول اليه ، مع أنه قد أسكنه عنده بالقلعة السلطانية " برفقته أهله وخدمه موسعا عليه في النفقات والكساوى ، يتردد اليه العلماء والقراء على أكمل ما يكون من أنواع الاكرام ، وملاحظة جانب الاجلال والمهابة ممنوعا من الاجتماع بأحد من أهل الدولة . . . " . (٣)

ويسعود سبب منع الخليفة الحاكم بأمر الله من الاجتماع برجال الدولة ، ثم منع سائر الناس من الدخول اليه يعود الى أن أصحاب الخليفة كانوا يخرجون من عند الخليفة الى البلد فيتكلمون في أمر الدولة . (٤)

(١) الآية ١٦ من سورة التغابن .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/٢٥٠ - ٢٥١ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ١/١٤١

ابن اياس : بدائع الزهور ١/٣١٥ - ٣١٦ .

(٣) المقرئى : الخطط ٢/٢٤٢ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤٧٩ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ٢/٦١ ، تاريخ الخلفاء ٤٨٠ .

ويدل هذا التصرف من الظاهر بيبرس - والله أعلم - على خوفه من تدخل الخليفة العباسي في أمور السلطنة ، وذلك لأن جلساء الخليفة من المحتمل أنهم كانوا ينقلون للعامه بعض آراء الخليفة ، فأراد الظاهر بيبرس الحيلولة بين الخليفة الحاكم بأمر الله وبين الرعية واجتماعها حول الخليفة ، وهذا يؤكد مشاركة الخليفة العباسي ، ومتابعته لمجريات الأحداث في عصره ، الا أن يده كانت مكفوفة عن التصرف والتدبير . وبما أنه قد استقر ملك الظاهر بيبرس " فقد أصبح في غنية عن ظهور الخليفة العباسي واجتماعه بالعامه ، ولم يصبح السلطان بيبرس في حاجة لاسماع كلمة الخليفة للرعية فزج به في أعماق دار لا يصل اليه أحد من خواص الدولة ورجالاتها ، فقد خاف السلطان على نفسه عند اتمال الخليفة بالرعية ، لأنه قد تتألب الرعية على السلطان بيبرس وتقيم الخليفة مقامه ... " (١) ، ثم تعمل على نقل ما بيد السلطان من مباشرة أمور الدولة الى يدي الخليفة وهو ما لا يرضاه السلطان ويخشاه ، ولذلك عمل على حجب الخليفة عن رجال الدولة ثم عن الرعية .

وهناك من يرى أن السلطان الظاهر بيبرس قصد من ذلك أن يكون الخليفة العباسي على مقربة منه وتحت مراقبته ، ولم يرد السلطان أن يكون في عاصمة سلطنته القاهرة سلطة دينية أو سياسية بجانب سلطنته ، وأراد أن تكون الخلافة العباسية سندا للسلطنة المملوكية ، وأن يكون الخليفة العباسي شخصية نافعة لتحقيق أغراض السلاطين المماليك . (٢)

-
- (١) محمد جمال سرور : الظاهر بيبرس ٧٢ ، محمود سليم : عصر سلاطين المماليك ٧٥/١ .
 (٢) محمد العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ١٨٩ ، سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ٢٣٠ ، حامد غنيم : الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ٥٨/٣ .

ولم يبق أمام الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله سوى منبر الخطابة في يوم الجمعة ليصرّح من فوقه بما يختلج في صدره من هموم ، مع استغلاله في حث السلطان بيبرس على جهاد المغول ، واستمر الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله على تلك الحال حتى وفاة السلطان الظاهر بيبرس ، حيث تولى السلطنة من بعده ابنه محمد .

الخليفة الحاكم بأمر الله والسلطان السعيد (٦٧٦ - ٦٧٨ هـ) :

في سلطنة الملك السعيد محمد بن الظاهر بيبرس جنب الخليفة الحاكم بأمر الله الدولة الإسلامية فتنة كادت تعصف بها ، وذلك عندما دبّ الخلاف بين السلطان الملك السعيد والأمراء المماليك ، فسعى الخليفة للملح بين الطرفين ، فقد نقم الأمراء المماليك على السلطان انشغاله باللهو ، وتمكن بعض جلسائه من أمور الدولة ، وقالوا : " الملك لا ينبغي له أن يلعب أو يلهو ، وإنما همّة الملوك في العدل ، ومصالح المسلمين ، والذب عن حوزتهم ، كما كان أبوه " . (١)

وترددت الرسل بين السلطان السعيد والأمراء المماليك الذين اقترحوا على السلطان ابعاد بعض من حوله من خاعته فلم يوافق على ذلك ، مما دفع الأمراء لمحاصرة السلطان في القلعة السلطانية ، فلما طال الحصار أرسل السلطان الخليفة الحاكم بأمر الله ليتوسط بينه وبين الأمراء المماليك الناقمين عليه ، فلما وصل الخليفة سألهم عن غرضهم وما يريدونه من السلطان ، فقالوا :

" يخضع الملك السعيد نفسه من الملك ونعطيهِ الكرك (٢) ، فأذعن السلطان لذلك وحلف له الأمراء وحضر الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله والقضاة والأعيان اشهاد السعيد على نفسه بأنه لا يملح للملك ، وخلعه لنفسه من السلطنة ، وحلف أنه لا يتطرق الى غير الكرك

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/٣٠٤ ، والمراد بأبيه هو السلطان الظاهر بيبرس البند قد ارى .

(٢) اسم أعجمي لقلعة حمينة جدا في أطراف الشام ، على سن جبل عال تحيط بها الأودية (الحموي : معجم البلدان ٤/٤٥٣) .

ولا يكاتب أحدا من النواب ، ولا يستميل أحدا من الجند " . (١)

الخليفة الحاكم بأمر الله والسلطان الأشرف بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) :

ظهر أمر الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله في سلطنة الأشرف بعد ما كان حاملا في سلطنة والده المنصور قلاوون ، فخطب الخليفة العباسي بالناس في يوم الجمعة وأعلن توليته للسلطان الأشرف خليل بن قلاوون لأمر الاسلام . (٢)

وعندما كثرت اعتداءات ملك الفرنج صاحب عكا (٣) على المسلمين ، " أمر السلطان الأشرف خليل الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله أن يخطب في جامع القلعة ويحرض الناس على قتال الفرنج فخطب الخليفة خطبة بليغة في معنى ذلك ... " . (٤)

ويظهر هنا لجوء السلطان المملوكي للخليفة العباسي عند الحاجة ، ولما فيه مصلحة للدولة الاسلامية ، حيث رغب الأشرف خليل حث العساكر السلطانية وعامة المسلمين على الجهاد في سبيل الله للدفاع عن البلاد الاسلامية التي تتعرض لاعتداءات الفرنج ، وكان نشاط الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله داخل أسوار القلعة السلطانية ، وعند ما يحتاجه السلطان الأشرف .

وبعد ما تمكن السلطان الأشرف خليل من طرد الصليبيين من بلاد الشام في سنة ٦٩٠ هـ

" خطب الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله خطبة بليغة حرض فيها على استنقاذ بلاد العراق

(١) المقرئزي : السلوك ٦٥٢/١ - ٦٥٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٤٥/١ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٨٢ .

(٣) اسم لبلد على ساحل الشام ، وهي من أحسن بلاد الساحل ، تعرضت لحملة الفرنج لاحتلالها ، استعادها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٢ هـ ، ثم سقطت في أيديهم ثانية سنة ٥٨٢ هـ ، وقتلوا ثلاثة آلاف من سكانها .

(الحموي : معجم البلدان ١٤٣/٤) .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٦٨/١ .

من أيدي التتار " (١) ، وأراد الخليفة بذلك حث السلطان الأشرف خليل على قتال التتار وليكون له جهود عسكرية لاستخلاص العراق وغيرها من بلاد المسلمين التي وقعت في أيديهم .

الخليفة الحاكم بأمر الله والسلطان الناصر محمد (٦٩٣ - ٦٩٤ هـ) :

اضطربت أحوال المملكة واجتمع الأمراء المماليك و ضربوا المشورة في الأمر وقالوا فيما بينهم : ان السلطان الناصر محمد صغير السن (٢) ، وقد طمع فيه المماليك ، ومن الرأي أن يتولى المملكة سلطان كبير من الأتراك لقمع المماليك و قبائل العربان ، فوقع الاتفاق فيما بينهم على سلطنة الأمير كتبغا المنموري ، وأرسلوا خلف القضاة الأربعة ، فلما حضروا أعلن الأمراء المماليك خلع الملك الناصر محمد من السلطنة وتولية الأمير كتبغا السلطنة ، وقام الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله بمبايعة السلطان الجديد بالسلطنة (٣) ، وذلك في سنة ٦٩٤ هـ .

الخليفة الحاكم بأمر الله والسلطان لاجين (٦٩٦ - ٦٩٨ هـ) :

وفي سلطنة المنمور لاجين المنموري ، نجد السلطان يُخرج الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله من عزلته . وينعم عليه بكونه له ولعياله ، ويجري عليه من المال ما يكفيهم . (٤)

(١) العيني : عقد النجمان ٨٧/٢ .

(٢) تولى الناصر محمد بن قلاوون السلطنة وهو ابن تسع سنين .

ابن اياس : بدائع الزهور ٣٨٧/١

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٨٦/١ .

(٤) المقرئزي : الخطط المقرئزية ٢٤٢/٢ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ١/١٩٥ .

ولما استأذن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من السلطان المنصور لاجين في الحج فأذن له في ذلك ، وأنعم عليه بمال جزيل ، فحجّ وعاد الى مصر فأخلع عليه السلطان خلعة سنية^(١) ، ولم يحج من الخلفاء العباسيين بالقاهرة إلا الحاكم بأمر الله العباسي^(٢) .

ال خليفة الحاكم بأمر الله والسلطان الناصر محمد (٦٩٨ - ٧٠٨ هـ) :

بعد مقتل السلطان المنصور لاجين المنصوري اجتمع الأمراء المماليك وضربوا المشورة فيمن يولونه السلطنة ، فوقع الاتفاق على عود الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأرسلوا اليه يطلبون منه سرعة حضوره الى الديار المصرية ، فلما حضر بايعه الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله بالسلطنة .^(٣)

ثم ساءت العلاقة بين الخليفة الحاكم بأمر الله وبين السلطان الناصر محمد بعد مبايعة الخليفة له بالسلطنة ، فقد بلغ السلطان - بعد مبايعته بالسلطنة ثانية - أن الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله قال عنه : هذا خارجي ، فوبخه الناصر بالكلام وقال له : تقسول عني خارجي يا أسود الوجه ؟^(٤) ، فلم ينطق الامام أحمد بحرف واحد .^(٥)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٩٨/١ .

(٢) المقرئى : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ٥٩ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٠١/١ .

(٤) وصف الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله بأنه كان أسمر اللون جدا .

ابن اياس : بدائع الزهور ٤٠١/١ .

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٠١/١ .

وهذه الحادثة تظهر مدى ضعف جانب الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله حتى أنه لم يستطع الدفاع عن نفسه والرد على السلطان الناصر محمد الذي لم يحترم الخليفة العباسي ووبخه أمام أعيان الدولة ، فضلاً عن أنه لم يتأكد من صحة صدور ذلك القول من الخليفة العباسي ، فربما قصد ناقل تلك العبارة الايقاع بين الخليفة العباسي والسلطان المملوكي في ظل التنافس المحموم على منصب الخليفة والسلطنة في ذلك العصر .

واستمر الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله على تلك الحال حتى كانت وفاته في ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٧٠١ هـ ، وأخفى السلطان موته حتى بعد صلاة الجمعة في ذلك اليوم بجوامع القاهرة . (١)

ولانقطاع الصلة بين الخلفاء العباسيين والرعية لم يعلم أحد بموته الا بعد اعلان السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون لنبا وفاة الخليفة الحاكم بأمر الله في الوقت الذي يريده .

ويذكر أن السلطان الناصر محمد حضر جنازة الخليفة وخرج معها يرافقه الأعيان اكراما للخليفة (٢) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤٧/٨ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ١١٩/١ .

السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٨٢ ، الكتبي : الوافي بالوفيات ٣١٧/٦ .

(٢) العيني : عقد الجمان ١٨٩/٣ .

خلافة المستكفي بالله سليمان بن أحمد الحاكم بأمر الله (٧٠١ - ٧٤٠ هـ) :

وقد ولي السلطنة في مدة خلافته من السلاطين : الناصر محمد في سلطنته الثانية ، وبيبرس الجاشنكير ، ثم الناصر محمد في سلطنته الثالثة .

وفي بداية خلافته استمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية ، وقد تولى المستكفي بالله الخلافة العباسية بعهد من أبيه ، وبويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه (١) ، حيث طلبه السلطان الناصر محمد في أول نهار الجمعة قبل الاشارة بموت والده ، وأشهد عليه أنه ولي الملك الناصر محمد بن قلاوون جميع ما ولاه والده ، وفوضه اليه . (٢)

وقد حاول السلطان صرف الخلافة العباسية عن سليمان فأرسل الي تقي الدين ابن دقيق العيد قاضي القضاة بالديار المصرية يستشيريه في أمر سليمان هل يصلح للخلافة أم لا ؟ فقال : نعم يصلح ، وأثنى عليه . (٣)

" ويلاحظ هنا أن الخلافة العباسية أصبحت منحة يمنحها السلطان المملوكي

لمن يشاء ويصرفها بمن يشاء " . (٤) وأصبح مركز السلطنة أعلى من منزلة الخلافة خاصة بعد أن أصبح بيد السلطان المملوكي تدبير أمور الخلافة العباسية الداخلية والخارجية بتفويض من الخليفة .

(١) يذكر ابن تغرى بردى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون تأخر في مبايعته

للمستكفي بالخلافة مدة ستة أيام .

• النجوم الزاهرة ١٤٩/٨ .

(٢) العيني : عقد الجمان ١٩٠/٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤٨/٨ .

• السيوطي : حسن المحاضرة ٦٢/٢ ، ابن دقماق : الجواهر الشمسية ٢٣١/١ .

• الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٥/٢ ، ابن رافع السلامي : الوفيات ٣٣٠/١ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤٨/٨ ، السيوطي : حسن المحاضرة ٦٣/٢ .

(٤) علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ٢٥٩ .

وبعد مبايعة الخليفة العباسي المستكفي بالله بالخلافة سارت العلاقة بينها على خير ما يرام ، واستمر الخليفة في صحبة السلطان والركوب معه ومرافقته في السفر والاقامة كأنهما أخوان^(١) ، وأجرى عليه السلطان راتبه الذي كان مقررا لوالده وزيادة^(٢) .
واستمر الخليفة على تلك الحال من الاكرام حتى نهاية سلطنة الناصر محمد الثانية الذي أعلن عن خلع نفسه من السلطنة وذلك في شهر شوال سنة ٧٠٨ هـ .

الخليفة المستكفي بالله والسلطان بيبرس (٧٠٨ - ٧٠٩ هـ) :

انتهى الخلاف بين السلطان الناصر محمد بن قلاوون والأمراء المماليك باعلان الناصر خلع نفسه من السلطنة ورغبته الاقامة بالكرك ، عند ذلك وقع الاتفاق من الأمراء المماليك على سلطنة الأمير بيبرس المنصوري ، وحضر الخليفة العباسي المستكفي باللسه فبايعه بالسلطنة ، وفوض اليه أمور الخلافة^(٣) ، وألبسه خلع السلطنة وهي عمامة سوداء و حبة سوداء ، فشق المظفر بيبرس شوارع القاهرة وهو في تلك الأبهة^(٤) .
ثم لم يلبث الناصر محمد بن قلاوون أن طمع في العودة الى السلطنة من جديد ، وأخذ يعد العدة ويجهز أتباعه للعودة الى الديار المصرية بعد أن كاتبه الأمراء المماليك يطالبونه بالتوجه الى القاهرة ، وقطعهم الوعود على أنفسهم بمساعدته ضد السلطان بيبرس الجاشنكير .

-
- (١) ابن دقماق : الجواهر الثمين ٢٣١/١ ، السيوطي : حسن المحاضرة ٦٧/٢ .
(٢) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ١٤٩/٨ ، العيني : عقد الجمان ١٩٠/٣ .
ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٤٠/١ .
(٣) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ٢٣٣/٨ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٨٥ .
(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٢٣/١ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ١٧/٢ .

فلما علم السلطان المظفر بيبرس بتلك الأخبار لجأ الى الخليفة العباسي المستكفي بالله ليستمد رمنه عهداً جديداً وبيعة جديدة ، وليقرأ على المنابر لعلمه أنه لا يستطيع أحد مخالفة مليكته أمير المؤمنين ، ولمحاولة كسب تأييد من بقي من الأمراء المعاليك الذين انحاز كثير منهم الى جانب الناصر محمد بن قلاوون ، وجاء في ذلك العهد :

" (انّه مِنْ سُلَيْمَانَ وَانّه بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) : من عبد الله و خليفته رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي الربيع بن أحمد العباسي . . . لأمرء المسلمين وجيوشها ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) ، واني رضيت لكم بعبد الله تعالى الملك المظفر ركن الدين ناثباعني لملك الديار المصرية والبلاد الشامية ، وأقمته مقام نفسي لدينه وكفائه وأهليته ، ورضيته للمؤمنين ، وعزلت من كان قبله بعد علمي بنزوله عن الملك ، ورأيت ذلك متعينا عليّ ، وحكمت بذلك الحكام الأربعة . واعلموا - رحمكم الله - أن الملك عقيم ليس بالوراثة لأحد خالف عن سالف ، ولا كابر عن كابر ، وقد استخرت الله تعالى ووليت عليكم الملك المظفر ، فمن أطاعه فقد أطاعني ، ومن عصاه فقد عصاني ، ومن عصاني فقد عصا أبا القاسم ابن عمي صلى الله عليه وسلم ، وبلغني أن الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور شق العصاة على المسلمين ، وفرّق كلمتهم ، وشتت شملهم ، وأطمع عدوهم فيهم ، وعرض البلاد الشامية والمصرية الى سبي الحرير والأولاد وسفك الدماء ، فتلكت دماء قد صانها الله تعالى من ذلك . وأنا خارج اليه ومحاربه ان استمر على ذلك ، وأدافع عن حريم المسلمين وأنفسهم وأولادهم لهذا الأمر العظيم ، وأقاتله حتى يفيء الى أمر الله تعالى ، وقد أوجبت عليكم يا معاشر المسلمين كافة الخروج تحت لوائي اللواء الشريف ، وقد أجمعت الحكام على وجوب دفعه و قتاله ان استمر على ذلك ، وأنا مستصحب معي الملك المظفر فجهزوا أرواحكم . والسلام " . (١)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٦٣/٨ .

ومن خلال هذا العهد الذي أصدره الخليفة العباسي المستكفي بالله نجده يتكلم من منطق القوة ، منكرًا على السلطان الناصر محمد بن قلاوون جهوده في العودة للسلطنة بعد أن تنازل عنها بدون اكراه ، ومحاولته تحيين الفرصة المناسبة لتحقيق ذلك ، وقد كسب هذا العهد التأييد بعد تصديق القضاة عليه .

وكانت نهاية تلك الفتنة عودة الناصر محمد بن قلاوون للسلطنة للمرة الثالثة .

الخليفة المستكفي بالله والناصر محمد (٧٠٩ - ٧٤١ هـ) :

بعد عودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون للسلطنة للمرة الثالثة ، وجلسه على كرسي الملك في أول شوال سنة ٧٠٩ هـ ، حضر الخليفة العباسي المستكفي بالله والقضاة الأربعة لمبايعته بالسلطنة ، فلما تكامل المجلس التفت السلطان الناصر الى قاضي القضاة الشافعية وقال له : **كيف تفتي بأني خارجي ويجب قتالي ؟**

فحلف القاضي أن الفتوى كانت بناء على كلام المستفتي ، ولا علم له أن السؤال عن السلطان الناصر محمد ^(١) ، فلما تقدم الخليفة للسلام على السلطان بعد مبايعته بالسلطنة قال له : **كيف تحضر وتسلم على خارجي ؟ هل كنت أنا خارجيا وبيبرس من سلالة بني العباس ؟** فتغير وجه الخليفة ولم ينطق ، ونزل الى بيته . ^(٢)

وفي سنة ٧٢٦ هـ تغير خاطر السلطان الناصر محمد على الخليفة العباسي المستكفي بالله ، وأمره بالانتقال الى القلعة ، فسكن في أحد أبراجها ، ومنع السلطان الناس عن الخليفة ، ولم يمكنهم من الاجتماع به ، وجعل على باب دار الخليفة من يحفظه . ^(٣)

-
- (١) ابن ابياس : بدائع الزهور ٤٣٢/١ .
 (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨/٩ .
 (٣) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٦/٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١٥/٩
 ابن حجر : الدرر الكامنة ١٤٤/١ . ابن ابياس : بدائع الزهور ٤٢٦/١ .

وقد أقام الخليفة العباسي على ذلك نحو خمسة أشهر حتى شفع فيه بعض الأمراء، عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فرسم له بالنزول من القلعة والعودة إلى داره على عادته . (١)

وفي سنة ٧٢٨ هـ تغير خاطر السلطان على الخليفة العباسي مرة ثانية ، ورسم له السلطان الناصر محمد في هذه المرة بخروج الخليفة المستكفي بالله إلى قوص ، فخرج ومعه أولاده و عياله ، وشق على الناس خروج الخليفة ، ولم يستحسنوا من السلطان هذه الفعلة . (٢)

أما أسباب ذلك التغير من السلطان الناصر محمد على الخليفة العباسي المستكفي بالله :

١ - فقد ذكر ابن اياس أنه رفعت إلى الخليفة العباسي المستكفي بالله قصة بأن شخما له على الملك الناصر محمد دعوى شرعية ، فكتب عليها الخليفة : ليحضر أويوكل ، وأرسلها إلى السلطان ، فلما قرأها شق عليه ذلك ، وبقي في خاطره منه ، فتغافل عنه مدة ثم رسم باخراجه إلى قوص . (٣)

ويضيف ابن حجر أن السلطان الناصر محمد عندما علم بأمر تلك القصة التي عليها خط الخليفة العباسي غضب من ذلك ، وأمر باحضار الخليفة إلى القلعة ، ولكن أحد القضاة أشار على السلطان بترك ذلك خشية من أن يبذ ومن الخليفة كلام لا يمكن رده ، فاستصوب الناصر رأيه . (٤)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٧٢/١ .

(٢) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٦/٢ ، المقرئى : الخطط المقرئية ٢٤٢/٢

ابن دقماق : الجوهر الثمين ٢٣٢/١ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٨٧

ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٩٧/٢ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٧٤/١ .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣٣٧/٢ .

- ٢ - أن الناصر محمد أخرج الخليفة الى قوص لما كان في نفسه منه عند ما قام الخليفة المستكفي بالله بنصرة السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير . (١)
- ٣ - اجتماع الخليفة العباسي المستكفي بالله وابنه بجماعة من خواص السلطان الناصر محمد ، وتردد هم على دار الخليفة من وقت لآخر . (٢)

وعند امعان النظر في هذه الأسباب نجد أن السلطان الناصر محمد تحامل على الخليفة العباسي كثيرا ، فالسبب الأول لا يستحق أن يغضب منه السلطان كل ذلك الغضب فلم يطلب منه الخليفة أمرا عظيما لا يقدر عليه ، وانما دعاه الخليفة الى انصاف خصمه ، ولتحقيق العدل في ملكه ، فلا غفاسة عليه في حضوره الى مجلس القضاء للفصل بينه وبين خصمه اما له ، واما عليه .

أما السبب الثاني فان الخليفة العباسي بمبايعته للمظفر بيبرس الجاشنكير انما يسعى من وراء ذلك الى المحافظة على وحدة الدولة ، وحتى لا يكون سببا في زيادة الفرقة والاختلاف بين الأمراء المماليك الذين يطمع كل منهم في منصب السلطنة ، ولا لوم على الخليفة العباسي في ذلك لعدة أمور منها :

- ١ - ضعف جانب الخليفة العباسي مع هؤلاء السلاطين والأمراء المماليك الذين يحظون بالهيبة والطاعة مع كثرة أتباعهم ، وقوة مركزهم في الدولة ، بينما الخليفة العباسي يقف وحيدا بين تلك القوى المتصارعة لا يملك الا الخضوع للقوى منها ، والا لحمل له ما لا تحمد عقباه .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٢٢/٩ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣٣٨/٢ ، اليوسفي : نزهة خاطر في سيرة الملك الناصر ٣٦٢ .

٢ - لم تكن مبايعة الخليفة العباسي المستكفي بالله للمظفر بيبرس الا بعد أن تشاور الأمراء المماليك فيما بينهم ، واتفقوا على سلطنته ، ومبايعة الخليفة انما هي لاضفاء الشرعية على ما اتفق عليه أولئك المماليك .

٣ - أن السلطان الناصر محمد أعلن بنفسه عن التخلي عن الملك ، وأمراؤاأمراء الذين رافقوه بالعودة الى الديار المصرية ، وأذن لهم بأن يختاروا لهم من يولونه السلطنة .

أما السبب الثالث فان الخليفة العباسي المستكفي بالله لم يطلب من خواص السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يترددوا على دار الخليفة ، بل هم الذين كانوا يطلبون الجلوس مع الخليفة الذي منع من الخروج من داره .

وبذلك يظهر مدى تحامل السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون على الخليفة العباسي المستكفي بالله من خلال هذه الحادثة وملابساتها .

وبعد نفي الخليفة المستكفي بالله الى قوص بقي بها حتى وفاته في مستهل شعبان من سنة ٧٤١ هـ (١) ، ومع طول مدته في الخلافة العباسية الا أنه لم يكن له أمر ولا نهي في الخلافة ، بل انه ام يسلم من تضيق السلطان المملوكي عليه ، ومع ذلك كان يخطب له على المنابر حتى في زمن حبه ببرج القلعة ، ومدة اقامته بقوص بعد نفيه . (٢)

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ٣٥١/٢ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١٤٤/١ .

خلافة الواثق بالله ابراهيم بن محمد بن أحمد الحاكم بأمر الله (٧٤٠ - ٧٤١ هـ) :

الخليفة الواثق بالله والسلطان الناصر محمد (٧٣٦ - ٧٤١ هـ) :

عهد المستكفي بالله قبل وفاته بالخلافة العباسية لابنه أحمد ، وأشهد على ذلك العهد أربعين عدلا من أهل قوص ، وأثبتته لدى قاضي قوص ، فلما توفى المستكفي بالله عقد السلطان الناصر محمد مجلسا وجمع القضاة الأربعة للتشاور فيمن يلي الخلافة ، فلما رأى القضاة ذلك العهد الذي كتبه المستكفي بالله تمسكوا بحكم قاضي قوص ، ولكن السلطان توقف عن مبايعة أحمد بن المستكفي بالله ، وأقامت مصر بلا خليفة مدة أربعة أشهر ، فكان الخطباء لا يدعون الا للسلطان فقط ، ولا يذكرون اسم الخليفة . (١)

ويظهر من خلال تصرف السلطان الناصر محمد بن قلاوون مدى استبداده برأيه مع مخالفته لما أجمع عليه القضاة الأربعة من امضاء العهد الذي كتبه المستكفي بالله لابنه أحمد .

ولم يكتف السلطان الناصر محمد بذلك ، بل زاد عليه أن طلب حضور ابراهيم بن محمد ابن الحاكم بأمر الله وطلب حضور القضاة ، فلما حضروا عرّفهم السلطان بما أراد من اقامة ابراهيم في الخلافة وأمرهم بمبايعته ، وعند ما أعلن القضاة عدم أهليته للخلافة لم يلتفت السلطان الى ذلك وقال لهم : انه قد تاب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . (٢)

وأمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون على مبايعة ابراهيم بن محمد بالخلافة ، وقرر له ما كان مقررا للخليفة المستكفي بالله ، ولم يزل بالقضاة حتى بايعوه . (٣)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥١/٩ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٧٤/١ .

(٢) ، ، : ، ، ١٥١/٩ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٥٧/٢ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ٦٨/٢ ، تاريخ الخلفاء ٤٨٩ .

أقام ابراهيم في الخلافة وتلقب بالواثق بالله (١) ، وكان فيها عارية مستردة الى أن تولى أحمد بن المستكفي بالله (٢) ، فكانت مدة خلافة الواثق بالله قريبا من سنة ، ورجع السلطان عن معارضته لخلافة أحمد وندم على مبايعته لابراهيم ، وأوصى عند ما حضرته الوفاة بأن ترد الخلافة الى ولي عهد المستكفي بالله سليمان وهو ابنه أحمد (٣) ، وأوصى السلطان ابنه أبا بكر بأن يرد الأمر الى أهله ، وامضاء عهد المستكفي بالله لابنه وقال : الآن حصص الحق ... (٤)

(١) كانت العامة تلقبه بالمتعطي بالله ، لأنه كان يستعطي من الناس ما ينفقه ، يضاف الى ذلك ما عرف عنه من كثرة اللهو ، ومعاشرته للأرذال .

(السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٨٩) .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٧٥/١ ، المقرئ : الخطط ٢٤٢/٢ .

(٣) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٦/٢ .

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٩٠ .

خلافة الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفي بالله سليمان (٧٤٢ - ٧٥٣ هـ) :

الخليفة الحاكم بأمر الله والمنصور (٧٤١ - ٧٤٢ هـ) :

لما مات السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وأقيم ابنه المنصور أبو بكر نسي

السلطنة ، عقد مجلسا واستدعى أحمد بن المستكفي بالله والقضاة وقال :

من يستحق الخلافة شرعا ؟ فقال القاضي عز الدين بن جماعة : ان الخليفة المستكفي

المتوفي بمدينة قوص أوصى بالخلافة من بعده لولده أحمد ، وأشهد عليه أربعين عدلا ،

وثبت ذلك عندى بعد ثبوته عند نائبي بمدينة قوص ، فخلع السلطان الخليفة

الواثق بالله حينئذ وبايع أحمد ، ثم بايعه القضاة ^(١) ، ولقب بالحاكم بأمر الله لقب

جده ^(٢) ، فوافق في الاسم واللقب ^(٣) ، وكان ذلك في سنة ٧٤٢ هـ .

وفي مدة خلافة الحاكم بأمر الله تولى السلطنة بالديار المصرية ثمانية أخوة

من أبناء المنصور قلاوون وهم : الملك منصور أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون . ثم أخوه

الأشرف كجك ، ثم أخوه الناصر أحمد ، ثم أخوه الصالح اسماعيل ، ثم أخوه الكامل شعبان ،

ثم أخوه المظفر حاجي ، ثم أخوه الناصر حسن ، ثم أخوه الصالح صالح ، ولم يحدث لخليفة

عباسي قبل الحاكم بأمر الله ولا بعده أن ولي مثل هذا العدد من الأخوة منصب السلطنة .

(١) ابن الوردي : تنقيح المختصر في أخبار البشر ٢/٣٣٢ ، ابن تغري بردي : النجوم

الزاهرة ٤/١٠ ، المنهل الصافي ١/٢٩١ ، السيوطي : حسن المحاضرة ٢/٦٩ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/١٣٧ ، المقرئ : الخطط

المقريزية ٢/٢٤٢ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٩٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١/٤٨٧ .

وقد أظهر السلطان المنصور أبو بكر تقدير الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله واحترامه منذ مبايعته بالخلافة ، حيث أجلسه معه على سرير الملك (١) ، ثم خطب الخليفة خطبة بليغة مشتملة على أشياء من الموعظ ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأوصى السلطان والأمراء بالرفق بالرعية ، وإقامة الحق والعدل ، وتعظيم شعائر الله ونصرة الدين (٢)

ثم أعلن الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله تفويض أمور الخلافة للسلطان المنصور وقال له - كعادة الخلفاء - : فوضت اليك جميع أحكام المسلمين ، وقلدتك جميع ما تقلدته من أمور الدين ثم قلده الخليفة خلعة سوداء و سيفاً عربياً ، ثم قرىء عهد الخليفة ، فلما فرغ منه قُدِّمَ للخليفة فكتب عليه ، ثم كتب من بعده القضاة الأربعة بالشهادة عليه . (٣)

واستمر الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله حتى أعلن الأمراء المماليك العميان على السلطان المنصور أبي بكر ثم خلعه من السلطنة ونفيه الى مدينة قوص ، ولما ثبت

-
- (١) ابن العماد : شذرات الذهب ١٣٦/٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٨٧/١ .
 (٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٣/١٤ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٩٠ .
 (٣) السيوطي : حسن المحاضرة ٨١/٢ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٧/٢ .

عليه من تعاطي ما لا يليق وغشيان المنكرات . (١)

وفي خلع المنصور أبي بكر من السلطنة وإخراجه مع أخوانه إلى مدينة قوص عسيرة لمن اعتبر ، فإن والده الناصر محمد بن قلاوون كان قد أخرج الخليفة العباسي المستكفي بالله سليمان مع أولاده وحواشيه إلى قوص منفيا ، فقوصي^(٢) الملك الناصر محمد عن قريب في ذريته بمثل ذلك ، وأخرج الأمير قوصون الناصري أولاد الناصر محمد بن قلاوون وأعز مماليكه . (٣)

الخليفة الحاكم بأمر الله والأشرف كجك (٧٤٢ - ٧٤٢ هـ) :

وبعد خلع المنصور أبي بكر من السلطنة ، وليها أخوه الأشرف كجك ، وبايعه الخليفة العباسي بالسلطنة ، وأقام فيها الأشرف قرابة خمسة أشهر ، ولم تسجل المصاوير التاريخية ما يستحق الذكر عن العلاقة بين الخليفة الحاكم بأمر الله والسلطان الأشرف كجك .

الخليفة الحاكم بأمر الله والسلطان الناصر (٧٤٢ - ٧٤٢ هـ) :

خُلع الأشرف كجك من عامه ، وولي السلطنة أخوه أحمد الذي وصل الديار المصرية قادما من الكرك ، فلما طلع إلى القلعة السلطانية حضر الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله وبايعه بالسلطنة بحضور القضاة الأربعة والأمراء المقدمين ، فلما وقف السلطان الناصر أحمد على قدميه تقدم الأمراء وقبلوا يده واحد بعد واحد على قدر مراتبهم ، ثم جاء من بعدهم الخليفة العباسي ، ثم القضاة الأربعة . (٤)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٤/١٤ . ابن العماد : شذرات الذهب ١٣٦/٦ .

(٢) أي عوقب ، بمعنى أخذ منه مثل ما أخذ من غيره ، وفُعِلَ بأولاده مثل ما فُعِلَ بالخليفة المستكفي بالله وأولاده .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٧/١٠ .

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ١٣٦/٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٦٠/١٠ .

وبعد مبايعة الخليفة العباسي للسلطان الناصر أحمد بالسلطنة طلب منه أن يسافر معه الى مدينة الكرك^(١) ، وفي أثناء ذلك اتفق الأمراء المماليك على خلع الناصر أحمد من السلطنة^(٢) .

الخليفة الحاكم بأمر الله والسلطان اسماعيل (٧٤٣ - ٧٤٦ هـ) :

في أثناء غياب الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله في غزة بعد سفره في صحبة السلطان الناصر أحمد سنة ٧٤٣ هـ ، اتفقت كلمة الأمراء والمماليك السلطانية على سلطنة الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ، وعند ما عاد الخليفة العباسي وجماعة من الأمراء المماليك الى الديار المصرية مفارقين للناصر أحمد ، بايع الخليفة السلطان اسماعيل بالسلطنة^(٣) ، وشارك الخليفة مع السلطان في حملته العسكرية باتجاه البلاد الشامية للقضاء على عصيان بعض النواب و خروجهم عن طاعة السلطان الصالح اسماعيل ، وبعد قضائهما على تلك الفتنة عادوا سويًا الى الديار المصرية .^(٤) واستمر حسن العلاقة بين الخليفة العباسي والسلطان المملوكي حتى وفاة السلطان اسماعيل .

الخليفة الحاكم بأمر الله والكامل شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦ - ٧٤٧ هـ) :

وبعد وفاة السلطان الصالح اسماعيل ، بايع الخليفة الحاكم بأمر الله شعبان ابن الناصر محمد بالسلطنة في سنة ٧٤٦ هـ ، وذلك بحضور القضاة والأمراء المماليك ، وبعد مبايعته بالسلطنة أخلع الكامل شعبان على الخليفة والقضاة والأمراء .^(٥)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠ / ٦٦ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ١ / ٤٩٨ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠ / ٨٠ .

(٤) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٤ / ١٤٩ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠ / ١١٧ ، السيوطي : تاريخ

الخليفة الحاكم بأمر الله و المظفر حاجي (٨٤٧ - ٧٤٨ هـ) :

أعلن الأمراء خلع الكامل شعبان من السلطنة ، وأجلسوا مكانه على سرير الملك حاجي بن الناصر محمد ، ثم طلبوا حضور الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله ، فلما حضر الخليفة بايعه بالسلطنة ، وفوض اليه . (١)

الخليفة الحاكم بأمر الله و الناصر حسن (٧٤٨ - ٧٥٢ هـ) :

انتهت سلطنة المظفر حاجي بقتله ، واتفق الأمراء المماليك على سلطنة أخيه حسن ، وعقدوا مجلسا بحضور الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله والقفاة الأربعة ، فلما تكامل المجلس طلبوا حضور حسن بن الناصر محمد ، فبايعه الخليفة بالسلطنة قائلا له : على بركة الله . (٢)

الخليفة الحاكم بأمر الله و السلطان الصالح (٧٥٢ - ٧٥٥ هـ) :

أعلن السلطان الناصر حسن خلع نفسه من السلطنة فأحضر الأمير طاز المنصوري صالح بن الناصر محمد ، وجمع الأمراء وسائر الأعيان والقفاة الأربعة ، ثم أرسل خلف أمير المؤمنين الخليفة الحاكم بأمر الله ، فلما حضر بايعه بالسلطنة ، ثم بايعه البقية . (٣)

وفي سلطنة الصالح خرج الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله بحجة السلطان لقتال نائب حلب ومن معه من نواب السلطان بالبلاد الشامية الذين أعلنوا العميان

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠ / ١٤٩ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ١ / ٥٢٠ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠ / ٢٥٤ ، ابن اياس : بدائع

الزهور ١ / ٥٣٨ .

والخروج عن طاعة السلطان ، وقاموا بمحاصرة أهل دمشق وايدأتهم بالنهب والسبي والقتل (١) ، وأقام الخليفة والسلطان في دمشق حتى تم القضاء على تلك الفتنة ، واعادة النواب للطاعة وذلك في سنة ٧٥٣ هـ .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١/٥٤١ - ٥٤٣ هـ .

خلافة المعتضد بالله أبي بكر بن المستكفي بالله سليمان (٧٥٢ - ٧٦٢ هـ) :

عاصر الخليفة المعتضد بالله في خلافته من السلاطين : المالح صالح بسن

الناصر محمد ، والناصر حسن بن الناصر محمد ، والمنصور محمد بن المظفر حاجي . وفيما يلي بيان لملاحم العلاقة بين الخليفة العباسي وهؤلاء السلاطين :
الخليفة المعتضد بالله والسلطان المالح (٧٥٢ - ٧٥٥ هـ) :

توجه الخليفة العباسي المعتضد بالله الى البلاد الشامية في صحبة السلطان

المالح وذلك للقضاء على عميان الأمير يلبغا العمري ومن معه من المفسدين ، وكان

الخليفة راكبا الى جانب السلطان . (١)

الخليفة المعتضد بالله والسلطان الناصر حسن (٧٥٥ - ٧٦٢ هـ) :

أعلن الأمراء المماليك خلع السلطان المالح من السلطنة ، واتفقت كلمتهم

على سلطنة الناصر حسن ، وطلبوا حضور الخليفة ، فلما حضر بايع الناصر حسن بالسلطنة ،

وشهد على ذلك القضاة الأربعة (٢) وذلك في أول شوال من سنة ٧٥٥ هـ .

الخليفة المعتضد بالله والسلطان المنصور محمد (٧٦٢ - ٧٦٢ هـ) :

بعد مقتل السلطان الناصر حسن اتفق الأمراء المماليك على سلطنة محمد بن

المظفر حاجي ، وأرسل الأمير يلبغا العمري خلف أمير المؤمنين المعتضد بالله ،

فلما حضر الخليفة بايع محمد بن المظفر حاجي بالسلطنة بحضور الأعيان والقضاة

الأربعة . (٣)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٥٧/١٤ ، السيوطي : حسن المحاضرة ٨١/٢ .

(٢) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ١٠ / ٣٠٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١ / ٥٥٢ .

(٣) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ١١ / ٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١ / ٥٨٠ .

وفي سلطنة المنصور محمد خرج الخليفة العباسي المعتضد بالله في
 محبة السلطان الى البلاد الشامية للقضاء على عصيان نائب الشام الأمير بيد مر
 الذي أعلن خروجه عن الطاعة ^(١) ، ورافق الخليفة العباسي السلطان المملوكسي
 حتى عودته للديار المصرية ، وقد استغرقت تلك الحملة العسكرية قرابة
 شهرين .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٥٨٢/١ .

خلافة المتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله (٧٦٣ - ٧٨٥ هـ) :

تعدُّ خلافة المتوكل على الله من الفترات العميقة التي مرت بالخلافة العباسية في الديار المصرية ، وذلك لما تعرض له الخليفة العباسي من عزل وتولية والتضييق عليه ومنعه من مجالسة الناس ، أو دخولهم عليه ، ويضاف الى ذلك الخلافات التي ظهرت بين السلاطين المماليك وكبار الأمراء .

وفيما يلي أهم الأحداث التي وقعت في خلافة المتوكل على الله وعلاقته بالسلاطين المماليك الذين تولوا السلطنة في مدة خلافته ، وهم : المنصور محمد بن المظفر ، والأشرف شعبان ، والمنصور علي بن الأشرف شعبان ، والصالح حاجي بن الأشرف ، والظاهر برقوق .

الخليفة المتوكل على الله و السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجي

(٧٦٣ - ٧٦٤ هـ) :

بعد وفاة الخليفة العباسي المعتضد بالله استدعى السلطان محمد بن

المظفر حاجي ، محمد بن المعتضد بالله فأخلع عليه ، وقرره في الخلافة عوضاً عن أبيه

وفوض اليه نظر المشهد النفيسي، (١)

الخليفة المتوكل على الله و السلطان الأشرف شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ) :

في سنة ٧٦٤ هـ قرر الأمراء المماليك وفي مقدمتهم يلبغا الناصري خلع المنصور محمد من السلطنة ، وكانت حجتهم في خلعه اختلال عقله وسوء تدبيره ، وأرسلوا خلف

(١) من المهام التي أوكلت لبعض الخلفاء العباسيين بمصر الاشراف على المشهد النفيسي

والاستعانة بما يدفعه العوام من أموال عند ذلك الموضع بالنفقة على من يعولونهم

في سياأتي التعريف بهذا المشهد في ص ٢٩٥ من هذا البحث . وهذا الخبر ورد عند

ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٧/١٤ . ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٩٤/٣ .

الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٧/٢ . القلقشندي : صبح الأعشى ٣٦٢/٣ .

المقريزي : الخطط المقرية ٢٤٣/٢ . ابن اياس : بدائع الزهور ٥٨٨/١ .

أمير المؤمنين المتوكل على الله ، فلما حضر أشهد وه على خلع المنصور محمد من السلطنة ، ومبايعة شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون . (١)

ورافق الخليفة العباسي المتوكل على الله السلطان الأشرف شعبان عندما عزم على الحج ، وفي أثناء الطريق وقبل الوصول الى الديار الشامية ، عرض أولئك الأمراء السلطنة على الخليفة وقالوا له : تسلطن يا أمير المؤمنين ، أنت أحق بالسلطنة ، فامتنع من ذلك غاية الامتناع (٢) ، وطال الجدال بينه وبين الأمراء المماليك ، فلما صمم الخليفة على الامتناع عينوا أميرا منهم يتوجه بركب الحاج الى مكة ، وعاد الخليفة والقضاة والأعيان الى الديار المصرية ، وقبل دخولهم القاهرة جاءتهم الأخبار بمقتل السلطان الأشرف شعبان ، واختيار ابنه علي للسلطنة . (٣)

ونرى الخليفة العباسي المتوكل على الله يعرض عليه الأمراء المماليك منصب السلطنة فيمتنع عن قبوله ، لا عجزا عن القيام بمهام ذلك المنصب ، ولكنه - والله أعلم - آثر السلامة وقنع بمنصبه في الخلافة بعد أن جرده السلاطين المماليك من القيام بواجبه في الخلافة ، وكيف يرضى الخليفة المتوكل على الله بالسلطنة وهو يرى أمامه تهافت هؤلاء الأمراء المماليك عليها ، ويسمع أخبار السلاطين المماليك الذين أضحوا ما بسين مقتول أو مخلوع بتدبير من كبار الأمراء المماليك !!

الخليفة المتوكل على الله والمنصور علي (٧٧٨ - ٧٨٢ هـ) :

تمت سلطنة المنصور علي بن الأشرف شعبان من غير حضور للخليفة العباسي المتوكل على الله ، فلما رجع الخليفة الى الديار المصرية سنة ٧٧٨ هـ اجتمع الأمراء

-
- (١) ابن العماد : شذرات الذهب ٢٠٠/٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١/٥٩٣ .
 (٢) ابن اياس : بدائع الزهور ١/٥٩٥ .
 (٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥٠٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١/٧٩ .

واستدعوا الخليفة الى القلعة وجدوا البيعة بالسلطنة للمنصور علي (١) ، وقُرِيءَ تقليد الخليفة وتفويضه بالسلطنة وشهد القضاة على ذلك ، وأخلعَ على الخليفة وأنعم عليه (٢) .

وفي سلطنة المنصور علي بن الأشرف شعبان وقع بين الخليفة العباسي المتوكل على الله ، والأمير أيوبك البدرى خلاف لأمر (٣) حقد ها الأمير على الخليفة العباسي ، فأمر الأمير بنفي الخليفة الى قوص ثم خلع في سنة ٧٧٩ هـ من الخلافة ، فخرج المتوكل على الله الى قوص ثم شفع فيه بعض الأمراء فعاد الى بيته ، ومن الغد استدعى الأمير أيوبك البدرى زكريا بن ابراهيم بن الحاكم بأمر الله وبايعه بالخلافة عوضاً عن المتوكل على الله ، من غير مبايعة من المتوكل لزكريا ، ولا خلع المتوكل نفسه من الخلافة (٤) .

ثم بعد قرابة أسبوعين من ذلك تكلم الأمراء مع الأمير أيوبك البدرى فيما فعله مع الخليفة المتوكل على الله ، ورغبوه في اعادته الى الخلافة ، فوافقهم وطلبه وأعادته الى الخلافة (٥) .

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١/١٤٨ .
- (٢) المصدر السابق ١١/١٥٢ .
- (٣) لم تذكر المصادر تلك الأمور التي جعلت الأمير أيوبك يخلع المتوكل على الله من الخلافة ، غير أن السيوطي يشير اليها مجملًا وبعبارة : «لأمر حقد ها عليه وقعت عند مقتل السلطان الأشرف شعبان» .
- السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٥٠٣ .
- (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١/١٥٥ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٥٠٣ ، السخاوى : الضوء اللامع ٧/١٦٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١/٥٩٨ .
- (٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١/١٥٥ . السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٥٠٣ .

الخليفة المتوكل على الله والسلطان حاجي (٧٨٣ - ٧٨٤ هـ) :

بعد وفاة السلطان المنصور علي بن الأشرف شعبان عارض الأمراء المماليك سلطنة الأمير برقوق العثماني ، وانتقصوا من قدره وعرضوا به ، عند ذلك جمع برقوق في سنة ٧٨٣ هـ الأمراء والقضاة واستدعى الخليفة العباسي المتوكل على الله ، فلما اكتمل المجلس تكلم معهم برقوق العثماني في سلطنة بعض أولاد الأشرف شعبان ، فقالوا : هذا هو المصلحة . فطلبوا من بقي من أولاد السلطان الأشرف شعبان ، فلما حضروا وقع الاتفاق على سلطنة أمير حاج لأنه أكبرهم ، فولّوه السلطنة وبايعه الخليفة المتوكل على الله . (١)

ويظهر هنا حرص هؤلاء الأمراء المماليك على نيل منصب السلطنة وطمع كل منهم في الوصول اليه ، ونجد الأمير برقوق العثماني يجد معارضة شديدة من أولئك الأمراء لتولييه السلطنة ، وعند ذلك أشار عليهم بذلك الرأي الذي أوصله الى السلطنة بسهولة ، بعد استغلاله لسلطنة أمير حاج بن الأشرف شعبان بتنصيب برقوق لنفسه وصيا على السلطان المملوكي .

ثم من الغد جلس الملك السلطان الصالح لقراءة تقليد الخليفة له بالسلطنة بحضور القضاة والأمراء والعساكر السلطانية ، فلما فرغ من قراءة ته قُدِّمَ للخليفة المتوكل على الله فعلم عليه بخطه . (٢)

وفي التاسع عشر من شهر رمضان طلب الأمير برقوق العثماني الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء فلما اجتمعوا تكلم القاضي بدر الدين بن فضل الله وقال :

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١ / ٢٠٧ ، ابن ايباس : بدائش الزهور ٣٠/٢ .
 (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١ / ٢٠٨ ، ابن ايباس : بدائش الزهور ٣١/٢ .

" يا أمير المؤمنين ، ان أحوال المملكة قد فسدت ، وزاد فساد العربان في نواحي البلاد ، وخامر^(١) غالب النواب في البلاد الشامية ، وخرجوا عن الطاعة ، والأحوال غير مستقيمة ، وأن الوقت قد ضاق ومحتاجون الى اقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ، ويسكن الاضطراب فتكلم القضاة مع الخليفة في سلطنة الأمير برقوق ، وخلصوا الصالح أمير حاج مسن السلطنة " . (٢)

الخليفة المتوكل على الله والسلطان برقوق (٧٨٤ - ٧٨٥ هـ) :

بدأت العلاقة بين الخليفة العباسي المتوكل على الله والسلطان الظاهر برقوق بمبايعة الخليفة لبرقوق بالسلطنة ، وتقليده أمور المملكة ، وقرىء ذلك العهد بحضور القضاة والأمراء وأعيان الدولة . (٣)

ثم ساءت العلاقة بينهما في مطلع سنة ٧٨٥ هـ عندما معد الأمير محمد بن تنكز الى السلطان الظاهر برقوق ونقل له عن الخليفة العباسي المتوكل على الله ما غير خاطره ، وأخبره بأن الخليفة اتفق مع كل من ابراهيم العلاشي ، وقرط بن عمر التركماني في جماعة من ثمانمائة فارس على الوثوب بالسلطان الظاهر برقوق ويقتلونه اذا نزل من القلعة . ويمكنون الخليفة من الأمر والاستبداد بالملك ، وحلف السلطان ابن تنكز على صحة ذلك فحلف له ، عند ذلك بعث السلطان الى الثلاثة الذين ذكرهم ناشب الشام فحفروا بين يديه ، فلما ذكر لهم ما نقل عنهم أنكروا لآ قرط بن عمر ، فانه خاف من تهديد السلطان فقال :

-
- (١) من المخامرة . وهي التغطية ، والمراد بها الخيانة و اعلان العميان على السلطان .
 (٢) المقرئزي : السلوك ٤٧٥/١/٢ ، ابن ابياس : بدائع الزهور ٤٥/٢ .
 (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٢١ / ١١ ، المقرئزي : السلوك ٤٧٧/١/٣ .

الخليفة طلبني وقال : هؤلاء ظلمة قد استولوا على هذا الملك بغير رضائي ، واني لم أقلد برقوقا السلطنة الا غصبا ، وقد أخذ أموال الناس بالباطل ، وطلب مني أن أقوم معه ، وأنصر الحق فأجبتته الى ذلك ووعدته بالمساعدة ، وأن أجمع له ثمانمائة من الأكراد والتركمان

فقال السلطان للخليفة : ما قولك في هذا ؟ فقال المتوكل على الله : ليس لما

قاله صحة .

ثم سأل ابراهيم العلابي فقال : ما كنت حاضرا هذا الاتفاق ، لكن الخليفة طلبني الى بيته وأعلمني بهذا الكلام وقال لي : ان هذا مصلحة ، ورغبني في موافقته والقيام لله تعالى ونصرة الحق ، فأنكر الخليفة ما قاله ابراهيم أيضا وحلف للسلطان أن هذا الكلام ليس له صحة ، فاشتد الملك الظاهر برقوق وسلّ السيف ليضرب عنق الخليفة ، ولكن الأمير سودون نائب السلطان حال بينه وبين الخليفة ، وما زال به حتى سكن بعض غضبه ، وأمر الظاهر برقوق بابراهيم العلابي ، وعمر بن قرط أن يُسمّرا ، واستدعى القضاة ليفتوه بقتل الخليفة ، فلم يفتوه وقاموا عنسه ، فأمر السلطان بسجن الخليفة في أحد أبراج القلعة ، وأعلن خلع المتوكل على الله من الخلافة ، وأمر برقوق بقتل قرط بن عمر التركماني فقتل ، وأما ابراهيم العلابي فقد شفع فيه الأمراء فسجن ولم يقتل . (١)

ومن خلال هذه الحادثة يظهر استبداد السلطان برقوق وتسارعه في قبول تلك الوشاية

وعدم تثبته من صحتها ، و غضبه على الخليفة العباسي من خلال احضاره للقضاة واجبارهم على اصدار فتوى بمعاقبة الخليفة ، ولما لم يثبت لديهم ما يدّين الخليفة المتوكل على الله قاموا وتركوا برقوق وشأنه ، ونرى أيضا عدم المساواة في تطبيق العقوبة على من اتهموا في تلك الحادثة ، فبينما أمر السلطان بقتل احد هما قبل الشفاعة في ثانيهما

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١/٢٣٤ - ٢٣٥ ، المقرئى : السلوك ٣/١/٤٩٣ .

وألاحظ من خلال هذه الحادثة أن الخليفة المتوكل على الله كان يحركه في علاقته مع السلطان الظاهر برقوق الحرص على مصلحة الأمة ومنع الظلم عنهم و حماية أموالهم ، واجراء الأمور على وجه الحق واقرار العدل والقيام بأمر الله تعالى .

وبعد ذلك أمر السلطان الظاهر برقوق الأمير بجاسي والي باب القلعة السلطانية أن يتوجه الى الخليفة العباسي المتوكل على الله وينقله من داره الى أحد أبراج القلعة ، مع التضييق عليه ، ومنع الناس من الدخول اليه ، فبات الخليفة ليلته بالبرج ثم أعيد من الغد الى داره بالقلعة السلطانية بعد أن كتم الأمراء المماليك السلطان في ذلك . (١)

وعن الدافع لامدار السلطان برقوق لذلك الأمر هو خوفه من الأمير يلبغنا الناصري الذي شنع على السلطان برقوق في أمور كثيرة أكبرها سجنه للخليفة العباسي المتوكل على الله .

ويظهر ذلك التصرف من السلطان برقوق العثماني حرص السلاطين المماليك على كسب ودّ الخليفة العباسي ، فذلك يعطي حكمهم الشرعية أمام الأمراء المماليك وعامة الرعية ، فالظاهر برقوق يشدد الحراسة على الخليفة المتوكل على الله بعد خلع من الخلافة خوفاً من تمكن المخالفين للسلطان من الوصول اليه واخراجه من سجنه ، ثم استغلاله في خلافهم مع الظاهر برقوق . فوجود الخليفة العباسي بجانب المخالفين لبرقوق سوف يكون سبباً لزيادة أكبر عدد من المؤيدين والأعوان فتتراجع كفتهم على السلطان الظاهر برقوق الذي خلع الخليفة المتوكل على الله من منصبه ونفي عليه .

ثم انه لا يستبعد أن أولئك الأمراء - الذين أتهموا بتلك المحاولة - أرادوا استغلال الخليفة العباسي المتوكل على الله واتخاذها وسيلة لتحقيق أطماعهم في السلطنة أو غيرها من المناصب الهامة في المملكة .

(١) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ٢٦٠/١١ ، المقرئزي : السلوك ٥٩٤/١/٣ . السبوطي : حسن المحاضرة ٨٤/٢ ، السخاوي : الضوء اللامع ١٦٨/٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٩٨/٢

خلافة المستعصم بالله زكريا بن الواثق بالله ابراهيم بن محمد بن الحاكم بأمر الله (٧٨٨ - ٧٩١ هـ) :

وقد عاصر الخليفة من السلاطين المماليك : الظاهر برقوق ، والعالم حاجي بن

الأشرف .

الخليفة المستعصم بالله و السلطان برقوق (٧٨٨ - ٧٩١ هـ) :

يعد وفاة الخليفة التباسي عمر الواثق بالله كتم الناس الظاهر برقوق في اعادة الخليفة المتوكل على الله الى الخلافة فلم يقبل (١) ، ثم استدعى السلطان برقوق زكريا بن الواثق بالله وأعلمه أنه يريد أن ينصبه خليفة عوضا عن الواثق بالله عمر بعد وفاته ، ثم استدعى القضاة وأهل الدولة ، فلما اجتمعوا أظهر زكريا عهد عمه المعتضد بالله أبي الفتح له بالخلافة ، فخلع عليه السلطان برقوق خلعاً غير خلع الخلافة ، ونزل زكريا الى داره . (٢)

ثم بعد ثلاثة عشر يوماً طلع زكريا الى القصر السلطاني وحضر القضاة الأربعة وأعيان الأمراء فبايعه السلطان برقوق أولاً ، ثم بايعه من حضر على مراتبهم ، ونعتت نفسه بالمستعصم بالله أبي يحيى . (٣)

وفي ذلك المجلس أشهد الخليفة المستعصم بالله على نفسه أنه قلّد السلطان الظاهر برقوق أمور العباد والبلاد ، وأنه أقامه في ذلك مقام نفسه ، فخلع عليه السلطان خلعاً الخلافة ، وخلع على عامة من حضر ، ثم نزل الخليفة الى داره والقضاة يسرون أمامه وأعيان الدولة فكان يوماً مشهوداً . (٤)

-
- (١) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٨/٢ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥٠٥ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٤٥/١١ ، المقرئ : الخطط المقرئية ٢٤٣/٢ .
(٣) المقرئ : السلوك ٢٥٢/٢/٣ ، السخاوي : الذوق اللامع ٢٣٣/٣ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٤٥/١١ ، المقرئ : السلوك ٢٥٢/٢/٣ .

الخليفة المستعصم بالله والسلطان المالح حاجي (٧٩١ - ٧٩١ هـ) :

في سنة ٧٩١ هـ أعلن الأمير يلبغا الناصري عصيان السلطان الظاهر برقوق لجملة أسباب من ضمنها حبس السلطان للخليفة المتوكل على الله مع التضييق عليه والحجر الزائد ، ولما لم يستطع الظاهر برقوق القضاء على تلك الفتنة عسكريا ، أعلن خلع الخليفة المستعصم بالله وإعادة المتوكل على الله الى الخلافة العباسية ، ولما عجز عن قتال يلبغا استتر ونزل من القلعة واختفى ، واستولى الأمير يلبغا الناصري على القلعة السلطانية ، عند ذلك " كَلَّمَهُ أصحابه في أن يلي السلطنة فأبى وامتنع من ذلك وانفض ذلك المجلس من غير طائل ثم دعاهم الأمير يلبغا ثانية فاستقر الرأي على سلطنة الملك المالح أمير حاج بن الأشرف شعبان " . (١)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٨٩/١١ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ٢٣٨/١

السيوطي : حسن المحاضرة ٨٥/٢ .

خلافة المتوكل على الله محمد بن المعتض بالله (٧٩١ - ٨٠٨ هـ) :

تولى السلطنة في مدة خلافته كل من : المحالج حاجي بن الأشرف ، والظاهر برقوق للمرة الثانية ، والناصر فرج بن الظاهر برقوق ، والمنصور بن عبد العزيز بن برقوق ، ثم الناصر فرج للمرة الثانية .

حاول السلطان الظاهر برقوق العثماني قبل اختفائه استغلال الخليفة العباسي المتوكل على الله لوقف عحيان الأمراء المماليك وفي مقدمتهم الأمير يلبغا الناصري ، فأعلن خلع المستعصم بالله من منصبه ومبايعة الخليفة المتوكل على الله بالخلافة ، حيث طلب برقوق احضار المتوكل على الله من البرج الذي اعتقل فيه ، فخرج اليه وهو مقيد ، فلما حضر بين يدي السلطان أمر بنزع القيد ، وقام اليه وصار يعتذر اليه مما وقع منه في حقه ، وطلب القضاة الأربعة وأشهدهم على اعادته الى الخلافة وأخلع عليه ، ونزل الخليفة الى بيته فسي موكب عظيم ، فلما وصل الخليفة المتوكل على الله الى داره أرسل اليه السلطان برقوق مبلغ ألف دينار ، وبنحو ألف دينار أقمشة . (١)

ولكن اعتذار برقوق واعادته للمتوكل للخلافة جاء متأخرا ، فقد اشتد حصار الأمير يلبغا الناصري على السلطان برقوق ، وتفرق عنه من كان حوله من المماليك . فأشهر الانحباب والاختفاء قبل أن يقع في قبضة الأمراء المماليك الناقمين عليه .

الخليفة المتوكل على الله و السلطان حاجي (٧٩١ - ٧٩٢ هـ) :

وفي سلطنة حاجي ظهر نزاع بين الأمير يلبغا الناصري والأمير منطاش ، وبعث يلبغا الى الخليفة العباسي المتوكل على الله يسأله التوجه الى منطاش ليصلح

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٣٥/١١ ، المقرئزي : السلوك ٥٩٥/١/٣ .

القلقشندي : مبيح الأعشى ٢٦٣/٣ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٥٠٤ .

ابن اياس : بدائع الزهور ٢٢٠/٢ .

بينهما ويسعى في اخماد الفتنة ، فنزل الخليفة اليه وكلمه في ذلك فقال منطاش :
 أنا في طاعة السلطان وهو استاذي ، وابن استاذي ، والأمرء اخواني ، وما غريمي
 الا يلبغا الناصري ، لأنه حلف لي أننا نكون شيئاً واحداً ، وأن السلطان يحكم في مملكتيه
 بما شاء ، فلما حصل لنا النصر – على برقوق – وصار هو أتاك العساكر استبد بالأمر ، ومنع
 السلطان من الحكم وحجر عليه

ثم أضاف : ولم يعطني الناصري شيئاً من المال سوى مائة ألف درهم ، وأخذ لنفسه
 أحسن الاقطاعات وأعطاني أضعفها ، والله ما أرجع عنه حتى أقتله أو يقتلني ويتسلطن
 ويستبد بالأمر وحده من غير شريك .

وأخذ الخليفة المتوكل على الله يلاطف الأمير منطاش فلم يسمع له ، فقام
 الخليفة من عنده وهو على مقالته^(١) ، وظل ذلك الخلاف بينهما حتى كانت الغلبة
 للأمير منطاش .

ويظهر لنا من خلال هذه الأحداث استغلال بعض الأمراء المماليك للخليفة العباسي ،
 وظهور مهمة جديدة للخليفة العباسي ، وهي السعي للإصلاح بين الأمراء المماليك المتنازعين
 على مناصب الدولة ، ولحرص كل منهم على تحقيق مصلحته الشخصية ولو كان ذلك على حساب
 الدولة الإسلامية .

وبعد اختفاء الظاهر برقوق العثماني ظهر ثانية بالبلاد الشامية ، ووصلت الأخبار
 بسيره نحو الديار المصرية ، فعقد الأمير منطاش مجلساً بالقصر السلطاني وأرسل خلف أمير
 المؤمنين الخليفة العباسي المتوكل على الله يطلب حضوره ، وحضور القضاة الأربعة ، والشيخ
 عمر البلقيني^(٢) ، فلما اكتمل المجلس عرض عليهم منطاش سؤالاً جاء فيه : ما تقول
 السادة العلماء في رجل خلع الخليفة وسجنه وقيدته من غير موجب لذلك ، وقتل

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٣٦/١١ ، المقرئى : السلوك ٦٤٤/١/٣ .
 (٢) سراج الدين عمر بن رسلان الكناني العسقلاني الأصل ، ثم البلقيني ، المصرى الشافعي
 من العلماء ، حافظ للحديث ، ولي قضاء الشام سنة ٧٦٩هـ ، له عدة مؤلفات منها :
 (التدریب) في فقه الشافعية ، (محاسن الاصطلاح) في الحديث . توفي سنة ٨٠٥هـ .
 (الاعلام للزركلي ٤٦/٥) .

رجلا شريفاً^(١) في الشهر الحرام ، في البلد الحرام ، واستحل أموال الناس بغير حق ؟

فقال القضاة : ما نكتب على هذا السؤال حتى يكتب شيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني ،

فكتب الشيخ : اذا قامت عليه البينة بذلك وجب قتاله فكتبوا عليها ، ثم جعلت

الفتيا في عشر نسخ . (٢)

وبعد صدور تلك الفتيا التي قمد بها الظاهر برقوق ، حضر الخليفة العباسي

المتوكل على الله الاجتماع الذي عقده الأمير منطاش بحضور الأمراء وأهل الدولة لاثبات بلوغ

السلطان الحالح أمير حاج رشده واستقلاله بالملك . (٣)

ثم سافر الخليفة العباسي بمحبة السلطان باتجاه البلاد الشامية لقتال الظاهر برقوق

قبل دخوله الديار المصرية ، ولكن كانت الغلبة لبرقوق ، ووقع الخليفة العباسي والسلطان

المملوكي في الأسر ، ووكل بهما من يحفظهما لانشغال الظاهر برقوق بقتال منطاش ومن في

وجوههم ، وذلك لأن الخليفة لما رآه كاد يهلك من هيئته ، فما زال بهم الظاهر برقوق

حتى طمأن خواطرهم . (٤)

وقبل دخولهم الى الديار المصرية جمع الظاهر برقوق من معه من الأمراء والأعيان

والقضاة بحضور الخليفة العباسي المتوكل على الله فأشهدهم على خلع السلطان الحالح لنفسه

من السلطنة ، ثم قام الخليفة وبايع الظاهر برقوق بالسلطنة ، وأثبت القضاة البيعة . (٥)

(١) المقصود به أمير مكة المشرفة الشريف محمد بن أحمد بن عجلان ، وكان مقتله سنة ٥٧٨٨ هـ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٥٩/١١ ، المقريزي : السلوك ٦٧٠/١/٣ .

(٣) المقريزي : السلوك ٦٧٣/١/٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢٤٨/٣ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٦٩ / ١١ ، المقريزي : السلوك ٦٩٣/١/٣ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٧١ / ١١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢٥٠/٣ .

الخليفة المتوكل على الله والظاهر برقوق في سلطنته الثانية (٧٩٢ - ٨٠١ هـ) :

بعد عودة الخليفة العباسي المتوكل على الله الى الديار المصرية صعد الى القلعة السلطانية ، واستدعى السلطان الظاهر برقوق القضاة الأربعة وأهل الدولة ، وجدّد الخليفة عقد السلطان الظاهر برقوق ، وفوض اليه أمور الخلافة ثانية وشهد القضاة بذلك ، وأظهر السلطان برقوق الاحترام للمتوكل على الله وندم على ما كان منه ، وأكرمه غاية الاحترام وتعافيا . (١)

وعندما وصلت الأخبار بتقدم قائد المغول تيمورلنك نحو البلاد الشامية ، خرج الخليفة العباسي المتوكل على الله في سنة ٧٩٦ هـ بمحبة السلطان الظاهر برقوق لقتالهم ، ولبثا أياما بدمشق وحلب ، ثم عاد الى الديار المصرية ، ولم يقع بينهم وبين جيوش المغول قتال ، لرجوع تيمورلنك الى بلاده قبل وصول الخليفة المتوكل على الله والسلطان الظاهر برقوق الى البلاد الشامية . (٢)

الخليفة المتوكل على الله والناصر فرج (٨٠١ - ٨٠٨ هـ) :

مرض السلطان الظاهر برقوق ، فلما اشتد مرضه طلب حضور أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وأرباب الدولة ، فلما تكامل المجلس حدّثهم بولاية العهد من بعده لأولاده ، على أن يكون ولده فرج ولي العهد من بعده ، ثم من بعده عبد العزيز ، ثم من بعده ابراهيم ، وبدأ الظاهر برقوق بتحليف الخليفة العباسي للأمير فرج ابن برقوق وأنه هو السلطان بعد وفاة أبيه ، ثم حلّف القضاة ، والأمراء ، وأرباب الدولة ،

(١) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٩/٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢ / ٤ .

المقريزي : السلوك ٧٠٥/٢/٣ ، السخاوي : الضوء اللامع ١٦٨/٧ .

(٢) المقريزي : السلوك ٧١٠/٢/٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٢٠/٣ .

وأوصى الظاهر برقوق قبل موته بومايا لأهل بيته ، وجعل الأمير ايتمش البجاسي وميا عسلى أولاده ، وفوض اليه أمر الولاية والعزل ، ثم جعل أمير المؤمنين المتوكل على الله وميما على أولاده من بعد ايتمش . (١)

ولما توفي الظاهر برقوق جلس ابنه الناصر فرج على سرير الملك ، وبايعه الخليفة المتوكل على الله بحضرة القضاة الأربعة والوعى على ابنه الأمير ايتمش البجاسي و سائر الأُمراء . (٢)

وعندما اشتد الخلاف في سنة ٨٠٤ هـ بين السلطان الناصر فرج وبين بعض الأُمراء العماليك الذين يتزعمهم الأمير نوروز الحافظي بعث السلطان الى الخليفة العباسي المتوكل على الله ومعه القضاة الأربعة الى الأمير نوروز في طلب الملح ، فلم يجد نوروز بدا من القبول بالمح و ترك القتال و خلع عنه آلة الحرب . وفي اليوم التالي ركب الخليفة العباسي المتوكل على الله والقضاة الأربعة الى القلعة السلطانية و حلفوا الأُمراء بالسمع والطاعة للسلطان الناصر فرج . (٣)

ويظهر في ذلك الموقف من الخليفة العباسي المتوكل على الله حرصه على جمع الكلمة، فقد بذل جهده في وضع حد لتلك الحملات بين السلطان المملوكي وكبار أمراءه حرصا على مصلحة الدولة . و قطعاً لدا بر تلك الخلافات والنزاعات التي عمفت بقوة ووحدة الدولة الاسلامية . فكان الخليفة العباسي المتوكل على الله بين المتخاصمين من الأُمراء العماليك لصالح ذات البين فيما بينهم . وبأخذ منهم الأيمان لطاعة السلطان .

ثم خرج الخليفة العباسي المتوكل على الله في محبة السلطان الناصر فرج الى البلاد الشامية وذلك في سنة ٨٠٧ هـ للقضاء على عميان الأُمراء العماليك والنواب ، ولكن وقع الخليفة

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/١٠٢ ، المقرئى : السلوك ٢/٣/٩٣٦ . ابن

اياس : بدائع الزهور ٣/٢٢٥ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣/٢٧٥ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/٢٨٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣/٣٨٠ .

العباسي والقضاة الأربعة في أسر أولئك الأمراء الذين قادهم الأمير شيخ محمودى بينما اختفى السلطان الناصر فرج بعد تلك الموقعة . (١)

الخليفة المتوكل على الله والسلطان المنصور (٨٠٨ - ٨٠٨ هـ) :

بعد اختفاء الناصر فرج طلع جماعة من الأمراء المماليك الى القلعة السلطانية ، وأحضروا الخليفة العباسي المتوكل على الله والقضاة الأربعة ، وتشاوروا فيمن ينصبونه سلطانا ، فوقع الاتفاق على سلطنة عبد العزيز بن الظاهر برقوق لأنه ولي عهد أخيه حسبما قرر والده برقوق قبل موته ، فتم أمره في السلطنة ، وأعلن الخليفة المتوكل على الله مبايعته وخلع الناصر فرج . (٢)

ومع صغر سنّ السلطان المنصور نجد الخليفة العباسي المتوكل على الله يفوض اليه أمور الدولة ، والمتصرف في الأمور هو مدبر المملكة الأمير بيبرس الظاهري . (٣)

لم تطل مدة سلطنة المنصور عبد العزيز وذلك بسبب اضطراب أحوال الدولة ، ولم يستقر في الملك بسبب اختفاء أخيه الناصر فرج ، ورغبة بعض الأمراء في عودة الناصر للسلطنة ، فضلا عن أنه لم يكن للسلطان المنصور من السلطنة سوى مجرد الاسم فقط . (٤)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢ / ٣٢٠ ، ابن ايباس : بدائع الزهور ٣ / ٣٨٥ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢ / ٣٣١ .

(٣) المصدر السابق ١٣ / ٤١ .

(٤) " " ١٣ / ٤٧ .

الخليفة المتوكل على الله و السلطان الناصر فرج في سلطنته الثانية

(٨٠٨ - ٨٠٨ هـ) :

ظهر الناصر فرج من مخبئه ، فلما تسامعت الأمراء المماليك بذلك أتوه
من كل فج بال سلاح وآلة الحرب ، فمعد الى القلعة السلطانية فملكها ، وأرسل
يطلب حضور الخليفة العباسي المتوكل على الله والقضاة الأربعة ، فلما حضر الخليفة
جدد له البيعة بالسلطنة ، وأعلن خلع السلطان المنصور عبد العزيز بن برقوق . (١)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٣ / ٤٨ ، ابن آيلى : بدائع

الزهور ٣ / ٣٩٠ .

خلافة المستعين بالله العباس بن المتوكل على الله (٨٠٨ - ٨١٥ هـ) :

وقد عاصر الخليفة في مدة خلافته من السلاطين المماليك كل من : الناصر

فرج بن برقوق ، والمؤيد شيخ محمودى .

الخليفة المستعين بالله والناصر فرج (٨٠٨ - ٨١٥ هـ) :

بعد وفاة الخليفة العباسي المتوكل على الله ، استدعى السلطان الناصر فرج

ابنه العباس وبايعه بالخلافة ، ولبس خلع الخلافة ، ولُقِبَ بالمستعين بالله ، ثم نزل الى

داره (١) ، وفي سنة ٨١٢ هـ خرج الخليفة العباسي الى دمشق لأجل السعي في الملح بسين

السلطان الناصر فرج والأمير شيخ محمودى (٢) ، وبعد عودته الى مصر أخلع عليه السلطان

لنجاحه في تلك المهمة .

وعندما أعلن الأمير شيخ محمودى ، والأمير نوروز الحافظي العميان على السلطان

الناصر فرج بالبلاد الشامية في سنة ٨١٤ هـ أمر السلطان العساكر السلطانية بلبس آلة الحرب

والاستعداد لقتالهما ، وخرج الخليفة العباسي المستعين بالله في صحبة الناصر فرج ومعه

القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، ووقعت بين الطرفين موقعة قرب اللجون (٣) ، وانتهت تلك

الموقعة بهزيمة الناصر فرج وعسكره ، واستيلاء الأمير شيخ محمودى على الخزانة التي

حملها السلطان معه ، ووقع الخليفة العباسي المستعين بالله والقضاة الأربعة

في أسر الأمراء المماليك . (٤)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥١/١٣ .

(٢) المصدر السابق ٨٦/١٣ ، ١٢٠ .

(٣) بلد بالأردن بينه وبين بحيرة طبرية عشرون ميلاً .

(٤) الحموى : معجم البلدان ١٣/٥ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤١/١٣ ، ١٩٠ ، ابن اياس : بدائع

الزهور ٤٠٠/٣ .

وبعد ما انهزم الناصر فرج أعلن خلعته من السلطنة في سنة ٨١٥ هـ ، واجتمع الأمير شيخ محمودى والخليفة العباسي المستعين بالله ، والأمير نوروز الحافظي والقضاة الأربعة وسائر الأمراء ، واشتوروا فيمن يولونه السلطنة ، فقال نوروز لشيخ : لا أنا ولا أنت نتسلطن ولكن اجعلوا الخليفة العباسي هذا هو السلطان ، ويكون الأمير شيخ أتاك العساكر ومد بر المملكة بمصر ، ويكون نوروز نائب الشام ، ويحكم البلاد الشامية من غزة^(١) الى الفرات يولي بها من يختار ويعزل من يختار . فترافوا على ذلك وحلف جميع الأمراء للخليفة والأميرين شيخ ونوروز ، واشترط على الخليفة المستعين بالله أنه اذا بقي سلطانا بمصر لا يعزل أحدا ولا يولي حـتـي يراجع في ذلك الأمير شيخ محمودى ، والأمير نوروز الحافظي . (٢)

وقد حاول الخليفة العباسي المستعين بالله التهرب من قبول السلطنة ، ولكنسه اضطر لقبولها على كره منه وامتناع ، وبعد مداعة لها قبلها على شروط عديدة شرطها على الأمراء المماليك ، منها أنه اذا خلع من السلطنة يستمر في الخلافة العباسية على حاله الأول قبل السلطنة ، فأجابوه الى ذلك ، وطمئن الأمير نوروز الحافظي الخليفة المتوكل على الله بقوله : " ولا تخف ، أنا ظهرك ، لا يحيبك الا ما يحيب رقبتي . . . " . (٣)

ونلاحظ هنا موقف الأمير نوروز : فلحرمه على منع وصول السلطنة للأمير شيخ اقترح سلطنة الخليفة العباسي المتوكل على الله . فكانت سلطنة الخليفة مرحلة انتقالية

-
- (١) مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر ، وهي من نواحي فلسطين ، مات فيها هاشم بن عبد مناف بن عبد المطلب .
 (٢) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ١٣ / ١٩٠ . السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٥٠٦ ، السخاوى : الفوء اللامع ٤ / ١٩ ، ابن الطولوني : النهضة السنية ١٣١
 (٣) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤١٥/٣ .

مؤقتة ، حتى يتسنى لكل منهما التفكير في الخطوة الثانية التي توصله الى منصب السلطنة والجلوس على سرير الملك ، وليقطع اعلان سلطنة الخليفة أطماع غيرهما من الأمراء المماليك في ذلك المنصب ، وفي مقدمتهم السلطان الناصر فرج الذي ما زال يطمع في العودة الى السلطنة .

بدأ الخليفة العباسي سلطنته بالبلاد الشامية حيث بويع بالسلطنة فيها ، وقبل عودته للديار المصرية اختار نوابا له من الأمراء المماليك على مدن دمشق ، وحلب ، وطرابلس ، وكتب كتاب الى الأمراء بالديار المصرية يأمرهم بالدخول في طاعته ، وأعلن أنه أبطل المظالم من سائر أعماله . (١)

ثم قاد الخليفة العباسي الجيوش السلطانية لقتال الناصر فرج حتى أذن للمصلح مع الخليفة وأعلن رضاه في أن يستمر الخليفة المتوكل على الله سلطانا ، ولما قبض على الناصر فرج اختلفت كلمة الأمير شيخ والأمير نوروز في السلطان الناصر فرج بين سجنه أو قتله ، فصوب أغلب الأمراء قتله فقتل . (٢)

وبعد أن وطّد الخليفة العباسي ملكه بالبلاد الشامية عزم على العودة الى الديار المصرية وقبل سفره من دمشق فوض للأمير نوروز الحافظي نيابة الشام ، وأن له أن يولي بجميع البلاد من شاء من أصحابه من غير مراجعة للخليفة ، " غير أنه يطالعه بمن يستقر به في شيء من ذلك ليجهز اليه الخليفة التشريف . (٣)

ويظهر من هذا التفويض حرص الخليفة العباسي المتوكل على الله على مكافأة الأمير نوروز الحافظي على ما بدر منه من احترام وتقدير للخليفة ، واعلانه لحماية الخليفة من أي مكروه .

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٣/١٩٢ .

(٢) المصدر السابق ١٣/١٩٧ .

(٣) " " ١٣/٢٠١ .

ويظهر أيضا من خلال هذه الجهود التي قام بها الخليفة العباسي المستعين بالله في بداية سلطنته وفي مدة اقامته بالبلاد الشامية قدرته على ادارة أمور الدولة ، ومتابعة أحوالها ، وهذا ما حرم منه الخلفاء العباسيون قبله ، وذلك بسبب تسلط واستبداد السلاطين المماليك بالخلافة ، واستئثارهم بالسلطة من دون الخليفة العباسي ، وضياع هيبة الخليفة معهم ، وكان من الممكن أن تتحسن أحوال الخلافة العباسية في ظل ممارسة الخلفاء لحقهم الشرعي في ادارة الدولة وتصريف أمورها لولا تمسك السلاطين بنفوذهم وحرصهم على ممارسة تصريف أمور الخلافة ، فالأمير نوروز كان قد تشجع على نقل السلطنة الى الخليفة المستعين بالله ليمنع وصولها الى الأمير شيخ الذي كان شديد الطمع فيها ، ولكن طمع شيخ بالسلطنة لم ينته وانما توقف بعض الوقت ، فلما سار الخليفة العباسي المستعين بالله والأمير شيخ المحمودي الى الديار المصرية في سنة ٨١٥ هـ ، زينت لقدمه القاهرة أحسن زينة ، وطلع الى القلعة السلطانية ، وكان الأمير شيخ يظن أن الخليفة يتوجه الى داره على عادته أولا - قبل السلطنة - فلما طلع الى القلعة تحقق الأمير شيخ أن الخليفة يريد السير على طريق السلاطين ويترك طريق الخلفاء ، فأخذ يكيد به بأشياء كثيرة حتى ضعف أمر الخليفة المستعين بالله ، ومن ذلك أن الأمير شيخ أجبر الخليفة على اعطائه تفويضا بتدبير أمور المملكة من غير مراجعة للخليفة ، فكان يقع عند الأمير شيخ الابرام والنقض والحل والعقد في أمور الدولة ثم يعلم (١) الخليفة على ذلك . (٢)

ولم يكتف الأمير شيخ بذلك التسلط على الخليفة العباسي ، فأظهر أطماعه فسي السلطنة عند ما طلب من الخليفة أن يفوض اليه السلطنة كعادة من سبقه من الخلفاء -

(١) المراد توقيع الخليفة ما يعدره الأمير شيخ من أوامر سلطانية ، نص التفويض .

القلقشندي : قلائد الجمان ١٩٢ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢٠٢/١٣ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٩/٢ .

السيوطي : حسن المحاضرة ٨٩/٢ ، تاريخ الخلفاء ٥٠٦ ، ابن اياس : بدائع

الزهور ٤٥٠/٣ .

السلطين المماليك ، فتوقف الخليفة عن الموافقة أياما ، ثم أذ عن على رغمه بشـرط أن ينزل من القلعة الى بيته ، فلم يوافقه الأمير شيخ على ذلك ، و غلب على السلطنة وأعلن خلع الخليفة منها . (١)

ويتضح من ذلك أن الأمير شيخ - بقبوله لسلطنة الخليفة العباسي - كان يمهد الأمور لنفسه ، فظل ينتظر الفرصة السانحة للوثوب على كرسي السلطنة ، ولم يكن من المعقول أن يطالب بالسلطنة في ظل الظروف العميبة بعد خلع الناصر فرج منها ، فكان تعيين الخليفة العباسي في السلطنة أشبه بمحاولة جس نبض بقية الأمراء المماليك الطامعين في السلطنة ولمعرفة ردة الفعل لديهم ، ولما عاد الأمير شيخ في صحبة الخليفة العباسي بدأ في التضييق على الخليفة المستعين بالله ومنازعتة في السلطنة ، ولما أبدى الخليفة عدم الرضا من تصرفات الأمير شيخ وأراد النزول من القلعة السلطانية خُلع من السلطنة .

وقد ترك اجتماع منصبى الخلافة والسلطنة بيد الخليفة المستعين بالله ارتياحا كبيرا عند المسلمين لأنه يذكر بعز الخلافة في السابق وقد عبّر الحافظ ابن حجر عن هذا الارتياح بقصيدته (٢) التي مدح فيها الخليفة المستعين بالله عند ما بويع بالسلطنة مضافة للخلافة العباسية بالديار المصرية ، ومما جاء فيها :

الملك فينا ثابت الأسـاس	بالمستعين العادل العباسي
رجعت مكانة آل عم الممطـفى	لمحلها من بعد طول تناسي
ثاني ربيع الآخسر الميمون في	يوم الثلاثاء حُفّ بالأعراس
بقدم مهدى الأنام أمينهم	مأمون غيب طاهر الأنفاس

(١) المقرئزى : الخطط المقرئزية ٢٤٢/٢ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٩/٢ .

السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥٠٦ ، السخاوى : الضوء اللامع ١٩/٤ .

(٢) وردت هذه القصيدة في : السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥٠٦ ، ابن القاضي : ذيل وفيات الأعيان ٦٨/١ .

من أسرة أسروا الخطوب ، وظهروا
 أسد اذا حضروا الوغى ، واذا اخلوا
 نهضوا بأعباء المناقب وارتقوا
 تركوا العدى مرعى بمعترك الردى
 وامامهم بجلاله متقـــــــدم
 لولا نظام الملك في تدبيره
 آيات مجد لا يحاول جده هـــــــا
 ومناقب العباس لم تجمع ســـــــوى
 لا تنكروا للمستعين رئاســـــــة
 لولا المهابة طولت أمد احـــــــه
 فأدام رب الناس عزك دائـــــــما
 وبقيت تستمع المديح لخـــــــادم

نما يغيرهم من الأدناس
 كانوا بمجلسهم كظبي كئناس
 في منصب العليا الأشم الراسي
 فإله يحرمهم من الوسواس
 تقديم " بسم الله " في القرطاس
 لم يستقم في الملك حال الناس
 في الناس غير الجاهل الخناس
 لحفيد ملك الزرى العباس
 في الملك من بعد الجحود الناس
 لكنها جاءته بالقسطاس
 بالحق محروسا برب الناس
 لولاك كان من الهمسوم يقاسي

الخليفة المستعين بالله و السلطان المؤيد (٨١٥ - ٨١٥ هـ) :

بعد أن أعلن الأمير شيخ محمودى خلع الخليفة المستعين بالله من السلطنة
 عقد مجلسا حضره الأمراء الحمايك ، والقفاة الأربعة ، فلما اكتمل المجلس قام كاتب السر
 وقال لمن حضر : " ان الأحوال خائفة ، ولا تستقيم الأمور الا بأن يقوم سلطان على العادة ،
 ودعاهم الى سلطنة الأمير شيخ محمودى ، فقال شيخ : هذا لا يتم الا برضا الجماعة ، فقال
 من حضر بلسان واحد : نحن راضون بالأمير الكبير شيخ . فبايعوه بالسلطنة " (١)
 وبعد مبايعة الأمير شيخ محمودى بالسلطنة أقام الخليفة العباسي المستعين
 بالله بالقلعة السلطانية محتفظا به ، ومنعه السلطان المؤيد شيخ من الاجتماع بأحد .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢ / ٢٠٦ ، ابن اياس : بدائع

فقد كان المؤيد شيخ يريد الاحتفاظ بالخليفة المستعين بالله بداخل القلعة حتى يتم أمره في السلطنة ، لأنه لا يأمن جانب الأمراء المماليك اذا علموا بما فعله من خلع للمستعين بالله من السلطنة بعد ما حلف له الأيمان المؤكدة بأن يكون في خدمته .

فلما استقر السلطان المؤيد شيخ في السلطنة أعلن خلع الخليفة المستعين بالله من الخلافة ، وبايع أخاه داود من بعده ، ولم يمض عهد المستعين بالله بالخلافة من بعده لابنه يحيى .

ويظهر أن السلطان المؤيد شيخ المحمودى خاف على ملكه عند بقاء الخليفة العباسي المستعين بالله في الخلافة بعد أن خلع من السلطنة ، يضاف الى ذلك أن تولية الخلافة لابنه يحيى قد تسبب للمؤيد شيخ عدم الاستقرار في السلطنة خاصة من جانب الأمير نوروز الحافظي الذي سبق له أن حلف الأيمان بطاعة الخليفة المستعين بالله ، وحمائمه من أي مكروه يصيبه ، فأراد المؤيد شيخ قطع أطماع نوروز الحافظي في السلطنة من خلال خلع الخليفة العباسي من الخلافة العباسية ، ولخوفه من يحيى بن المستعين بالله صرف عنه الخلافة أيضا ، لأنه قد يثار من السلطان المؤيد شيخ - في حالة وصوله الى الخلافة - الذي خلع والده من السلطنة والخلافة .

وأقام الخليفة المستعين بالله بعد خلعه بداره بقلعة الجبل حتى أمر المؤيد شيخ بنقله الى الاسكندرية مسجوناً^(١) ، حتى كانت سلطنة الظاهر ططر فأمر بالافراج عنه ، وأذن له بالمجيء الى القاهرة ، فاختار سكنى الاسكندرية لأنه استطابها ، وحصل له مال كثير من العمل بالتجارة بها ، وبقي حتى وفاته بالطاعون في سنة ٨٣٣ هـ .^(٢)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٠٨/١٣ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥٠٨ .
 (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٠٨/١٣ ، ٢٠٦/١٤ ، ١٦٣/١٥ ، السخاوى : الضوء اللامع ٢٠/٤ ، ابن الطولوني : النزهة السنية ١٣١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١٢٠/٤ .

خلافة المعتضد بالله داود بن المتوكل على الله محمد (٨١٥ - ٨٤٥ هـ) :

بويغ المعتضد بالله بالخلافة بعد خلع المؤيد شيخ للمستعين بالله
وذلك آخر شهر ذي الحجة من سنة ٨١٥ هـ ، وبعد مبايعته نزل المعتضد بالله من القلعة
السلطانية في موكب حافل ، قدّاه القضاة الأربعة وأعيان الناس حتى وصل الى بيته (١) ،
وقد تولى السلطنة في خلافة المعتضد بالله كل من المؤيد شيخ ، والمظفر أحمد بن
المؤيد ، والظاهر ططر ، والصالح محمد بن ططر ، والأشرف برسباي ، والعزیز يوسف بن
برسباي ، والظاهر جقمق .

الخليفة المعتضد بالله والسلطان المؤيد شيخ محمودي (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) :

أعلن نائب الشام الأمير نوروز الحافظي عصيانه للسلطان شيخ في سنة ٨١٦ هـ
بسبب خلعه للخليفة المستعين بالله من السلطنة ، فخرج الخليفة المعتضد بالله في صحبة
السلطان الى البلاد الشامية ، وبقي الخليفة في تلك الحملة العسكرية خارج الديار المصرية
قراية ثمانية أشهر ، فلما تم القضاء على عصيان نوروز توجه الخليفة العباسي والسلطان
المؤيد لزيارة بيت المقدس ، ثم عاد الى الديار المصرية في موكب عظيم . (٢)
وفي سنة ٨٢٣ هـ مرض السلطان المؤيد شيخ واشتد مرضه عليه ، فأرسل يطلب
حفور الخليفة العباسي داود المعتضد بالله والقضاة الأربعة وأعيان الأمراء ، فلما اجتمعوا
عهد بالأمر من بعده لولده أحمد وكان عمره سنة وخمسة أشهر ، وجعل الأمير الطنيسا
مدبرا للمملكة الى أن يبلغ أحمد بن المؤيد شيخ الحلم ، وحلّف الأمراء على ذلك ، وأخذ
عليهم العهود والأيمان بالقيام في طاعة ولده ، وطاعة مملكته . (٣)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٢/٢ .

(٢) المصدر السابق ١٥/٢ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠٣/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٥٧/٢ .

وفي هذا التصرف نجد السلطان المؤيد شيخ يحل لنفسه ما حرمه على الخليفة المستعين بالله ، فقد منع يحيى بن المستعين بالله من تولي الخلافة العباسية بنساء على العهد الذي كتبه والده ، وصرف عنه الخلافة ، وعين فيها المعتضد بالله ، بينما هو يعهد بالسلطنة لولده أحمد مع صفر سنة .

الخليفة المعتضد بالله والمظفر أحمد (٨٢٤ - ٨٢٤ هـ) :

بعد وفاة المؤيد شيخ طلع الخليفة العباسي المعتضد بالله والقضاة الأربعة والأمراء المماليك ، فلما اجتمعوا طلبوا حضور أحمد بن المؤيد ، فلما أحضروه اشترط الخليفة لمبايعته بالسلطنة أن يكون الأمير ططر الظاهري هو القائم بأمر المسلمين الى أن يحضر الأتابكي الطنبغا القرمشي الذي عهد اليه المؤيد شيخ بتدبير سلطنة ابنه ، ثم بايع الحضور أحمد بن المؤيد ووضع على سرير الملك وهويبيكي ، ولقبوه بالمظفر ، ونودي باسمه وسلطنته . (١)

ومع أنه لا يتصور قيام هذا الرضيع بأمر نفسه فضلا عن القيام بأمر المملكة ، إلا أن الخليفة العباسي لم يجد بدا من مبايعته بالسلطنة ، فهو لا يملك مخالفة الأمراء المماليك الذين تعصبوا لسلطنة ابن استاذهم المؤيد شيخ ، ويذكر موقف الخليفة العباسي المعتضد بالله المشرف في اشتراطه أن يكون الأمير ططر مدبرا للمملكة لغياب من وكلت اليه تلك المهمة في حملة عسكرية خارج الديار المصرية .

بعد مبايعة المظفر أحمد بالسلطنة أصبح الأمير ططر الظاهري هو المدبر لأمر المملكة ، غضب نائب الشام الأمير جقمق الأرغون من ذلك ، وأعلن عصيانه ، وأخذ قلعة دمشق واستولى على ما بها من الأموال والسلاح ، واضطربت الدولة بذلك ، استدعى الأمير

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦٧/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٦٤/٢

ططر الخليفة العباسي المعتضد بالله والقضاة وسائر الأمراء ، فلما حضروا أخبرهم بأن نواب الشام لم يرضوا بأن يكون مدبرا لسلطنة المظفر أحمد بن المؤيد وقال :
 " لا بد للناس من حاكم يتولى مستدبير أمورهم ، وعليهم أن يعينوا رجلا منهم يرضونه ليقوم بتحمل أعباء المملكة ، فقال جميع من حضر : قد رضينا بك ، فعند ذلك أشهد الخليفة الحاضرين بأنه قد فُوضَ جميع أمور الرعية للأمير ططر ، وجعل اليه عزل من يريد عزله وولاية من يريد ولايته من سائر الناس ، وأن يعطي من يختار ، ويمنع من يختار . . . واستثنى الخليفة اللقب السلطاني والدعاء على المنابر ، وضرب الاسم على الدينار والدراهم ، فانها باقية على ما هي عليه باسم السلطان المظفر أحمد بن المؤيد " . (١)

ويظهر هنا وفاء الخليفة العباسي المعتضد بالله بالعهد الذي حلف عليه للمؤيد شيخ قبل موته في لزومه طاعة ابنه المظفر أحمد عند سلطنته ، فلم يبـادـر الخليفة في ذلك الاجتماع الى اعلان خلع المظفر أحمد من السلطنة لعجزه عن القيام بمهامها واضطراب أحوال الدولة ، وفي ذلك الموقف من الخليفة اختبار لنوايا الأمير ططر الظاهري وليعرف الخليفة المعتضد بالله صحة دعوى ططر في حرمه على قوة الدولة ووحدتها ، أو أنه يكون من جملة الطامعين في السلطنة الذين يتحينون مثل تلك الحوائف المضطربة للوصول اليها .

وكذلك الاجتماع الذي عقد في الأمير ططر وما حمل فيه من نقاش يضع علامة استفهام حول موقف الأمير ططر ، فالاجابة الجماعية من الأمراء المماليك برفاههم عن الأمير ططر لها احتمالان :

الأول : اعجاب أولئك الأمراء بالأمير ططر الظاهري و سعادتهم بموقفه الجريء عند ما عقد ذلك الاجتماع وتحدث اليهم بمراحة عن الأحوال السيئة التي تمر بها

(١) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ١٤ / ١٧٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢ / ٦٦ .

الدولة مما ينم عن قوة شخصيته وحسن تدبيره ، الأمر الذي جعل الأمراء
المماليك يسلمون اليه زمام الأمور .

الثاني : أن يكون ذلك الاجتماع قد دُبِرَ أمره بلييل ، ووقع الاتفاق بين الأمـير
ططر الظاهري وأولئك الأمراء ، ولم يسبق الا أخذ المفة الشرعية من خلال
حضور الخليفة العباسي المعتضد بالله وشهادة القضاة الأربعة .

الخليفة المعتضد بالله والظاهر ططر (٨٢٤ - ٨٢٤ هـ) :

خرج الخليفة العباسي المعتضد بالله في صحبة الأمير ططر مدبر المملكة
في سنة ٨٢٤ هـ للقضاء على عصيان نائب الشام الأمير جقمق الأرغون ، ورافقهما السلطان
المظفر أحمد بن المؤيد شيخ ، ولما وصلوا دمشق جمع الظاهر ططر الخليفة العباسي
والقضاة الأربعة وسائر الأمراء ، فأعلن الخليفة خلع المظفر أحمد من السلطنة ، ومبايعة
الظاهر ططر بها بعد أن سأل القضاة والأمراء عن أهلية ططر في القيام بالسلطنة فقالوا :
نحن راضون بالأمير الكبير ططر ، فتم أمره في السلطنة . (١)

ونجد الظاهر ططر هنا يطلب السلطنة بعد وصوله مع الخليفة الى دمشق ،
وبعد أن ألقى القبض على كبار الأمراء المماليك الذين يعارضون وصوله الى السلطنة ،
ويبين عدم استطاعة الظاهر ططر الوصول الى السلطنة وهو بالديار المصرية خوفا من الأمراء
المماليك ، ثم في مبايعته بالسلطنة بدمشق محاولة منه لمعرفة موقف الأمراء المماليك
بالديار المصرية ومدى قبولهم بسلطنته فيستمر في منصبه ، أو معارضتهم له واعلان
عصيانهم له فيتراجع عن الاستمرار بها ، أو يبقى في دمشق منتظرا وصول من هو أقوى منه
للسلطنة فيدخل تحت طاعته .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٩٨/١٤ - ٢٠١ ، ابن اياس : بدائع الزهور

الخليفة المعتضد بالله والسلطان برسباي (٨٢٥ - ٨٤١ هـ) :

في سنة ٨٢٥ هـ عزم الأمير برسباي على خلع السلطان الصالح محمد بن طـطر فقبض على جاني بك الصوفي ، وأرسل الى الخليفة العباسي المعتضد بالله والقضاة الأربعة والأمراء المماليك ، فاجتمعت الكلمة على خلع الصالح محمد من السلطنة ، وسلطنة برسباي عند ذلك بايعه الخليفة والقضاة وجميع من حضر بالسلطنة ، وجلس على سرير الملك ، وخلع على الخليفة المعتضد بالله . (١)

وفي سنة ٨٢٦ هـ خرج الخليفة العباسي المعتضد بالله في صحبة السلطان الأشرف برسباي الى البلاد الشامية ، وشارك الخليفة مع السلطان في قتاله للخارجين عن الطاعة ، وكان الخليفة يساعد السلطان برسباي في تنظيم صفوف الجيش قبل الاستعداد للقتال ، وبقي الخليفة في تلك الحملة العسكرية ما يقارب ستة أشهر ، حتى عادا سويا الى الديار المصرية ، وكان موكب الخليفة أثناء الطريق يسير أمام موكب السلطان برسباي . (٢)

ولما مرض السلطان الأشرف برسباي في سنة ٨٤١ هـ أخذ يمهد لسلطنة ابنه يوسف قبل وفاته ، فاستدعى الخليفة المعتضد بالله ، والقضاة الأربعة ، وأمراء الدولة ، فلما حضر الخليفة جلس بجانب السلطان برسباي فكلمه في العهد لابنه بالسلطنة ، فاستحسن الخليفة هذا الرأي ، وشكر السلطان على فعله ذلك ، وتم كتابة العهد " بأنه عهد بالملك الى ولده يوسف من بعده ، وأنه جعل الأمير جقمق العلاشي هو القائم بتدبير أمر مملكة يوسف بن الأشرف ، وأمضى الخليفة ذلك العهد ، وشهد بذلك القضاة " . (٣)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٤٢/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٧٦/٢ .
 (٢) " : " : " ، ٣٤ ، ١٤/١٥ ، " : " ، ١٥١ ، ١٤٦/٢ .
 (٣) " : " : " ، ١٠٣ - ١٠٢/١٥ ، " : " ، ١٨٨ - ١٨٧/٢ .

الخليفة المعتضد بالله والسلطان يوسف بن برسباى (٨٤١ - ٨٤٢ هـ) :

لما علم الخليفة العباسي المعتضد بالله بموت السلطان الأشرف برسباى حضر الى القلعة السلطانية في الحال ، وحضر معه القضاة الأربعة ، فلما تكامل المجلس أخرج يوسف من الدور السلطانية وبايعه الخليفة بالسلطنة بحضور القضاة وسائر الأمراء ، ومدّ بر المملكة الأمير جقمق العلائي ، وبعد مبايعته بالسلطنة فوّض اليه الخليفة ادارة المملكة كالعادة (١) ، وأنعم السلطان على المعتضد بالله بأن وهبه جزيرة الصابوني زيادة على ما بيده . (٢)

المعتضد بالله والسلطان جقمق العلائي (٨٤٢ - ٨٤٥ هـ) :

زيّن الأمير قرقماش الشعباني لجقمق العلائي خلع العزيز يوسف من السلطنة فاستدعى جقمق الخليفة المعتضد بالله والقضاة ، وسائر الأمراء ، وأعيان الدولة ، فلما تكامل المجلس افتتح الأمير قرقماش بمخاطبة الخليفة العباسي فقال في جملة حديثه :
 " والسلطان صغير ، والأحوال فائسة لعدم اجتماع الكلمة في واحد بعينه ، ولا بد من سلطان ينظر في مصالح المسلمين ، وينفرد بالكلمة ، ولا يصلح لهذا الأمر سوى الأمير جقمق . فقال جقمق : هذا لا يتم الا برضا الأمراء والجماعة ، فصاح الجميع : نحن راضون بالأمير الكبير جقمق . فمد الخليفة يده وبايعه بالسلطنة ، ثم القضاة .
 والأمراء على العادة " . (٣)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥ / ١٠٦ ، ٢٢٢ ، ابن اياس : بدائع

الزهور ١٩١/٢ .

(٢) المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ١٨٥/٢ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥ / ٢٥٦ ، ابن اياس : بدائع

الزهور ١٩٧/٢ .

ونرى الخليفة العباسي يحاول كسب رضا السلاطين المماليك من خلال موافقتهم فيما يرونه ويتخذونه من قرارات قبل وفاتهم بتولية أبنائهم السلطنة ، مع عدم أهليتهم لتلك المناصب ، فنجد الخليفة المعتضد بالله يوافق الأشرف برسباي في رغبته تولية السلطنة لابنه يوسف ، ثم بعد وفاته يوافق الأمراء المماليك على خلعهم من السلطنة بعد أن طمع فيها الأمير جقمق ، ونسي الأيمان التي أخذت عليه بالوفاء ليوسف ابن الأشرف برسباي ، وقد شجعه على ذلك الأمير قرقماش الذي أراد نيل حظوة عند جقمق العلائي بعد سلطنته ، والحمول على منصب من مناصب الدولة التي يتهافت عليها الأمراء المماليك .

ولقي الخليفة المعتضد بالله التقدير والاحترام من السلطان جقمق مدة خلافته حتى وفاته ، وحضر السلطان الملاءة على الخليفة ، ومشى في جنازته حتى دفنه وذلك في سنة ٥٨٤٥ هـ^(١) .

(١) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٢٩/٢ .

خلافة القائم بأمر الله حمزة بن المتوكل على الله محمد (٨٥٥ - ٨٥٩ هـ) :

وقد عاصر الخليفة العباسي في مدة خلافته من السلاطين المماليك كل من :
الظاهر جقمق العلائي ، والمنصور عثمان بن جقمق ، والأشرف اينال العلائي .

الخليفة القائم بأمر الله والسلطان الظاهر جقمق العلائي (٨٥٥ - ٨٥٧ هـ) :

بعد وفاة الخليفة العباسي المستكفي بالله لم ينتظر السلطان الظاهر جقمق كثيرا ، وذلك لأهمية منصب الخلافة في الأمة من جهة ، وحتى يُضفي على سلطنته المفة الشرعية بعد وفاة المستكفي بالله من جهة ثانية ، ولما لم يعهد الخليفة لأحد من بعده ،
أمر الظاهر جقمق " بعرض أولاد المتوكل على الله ، فلما عُرِضوا عليه اختار منهم حمزة " (١) .

ثم بادر الظاهر جقمق باعلان مبايعة الخليفة الجديد بالخلافة ، وعقد لذلك مجلسا حضره القضاة والأمراء وسائر الأعيان ، وبعد مبايعة السلطان للخليفة نزل في موكب حافل الى داره " وهو في غاية العزة والعظمة ، وكان له يوم مشهود " (٢) .

ومن مظاهر احترام السلطان جقمق للخليفة العباسي أن القائم بأمر الله أرسل ابن أخيه ويدعى عبد العزيز ليشفع عند السلطان في أحد الأعيان ، فلما طلوع عبد العزيز الى القلعة قام الظاهر جقمق لاستقباله ، وأجلسه بجواره وقال له : " أنا كنت أريد توسطه (٣) ، ولأجل الخليفة قد عفوت عنه ، ثم أنعم على عبد العزيز بمائة دينار... " (٤) .

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤٣٢/١٨ ، السخاوى : الضوء اللامع ١٦٦/٣
ابن اياس : بدائع الزهور ٢٨٧/٢ .
- (٢) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢٨٨/٢ .
- (٣) التوسط : قطع الشيء نصفين ، وهو أحد الأساليب التي اتبعها السلاطين لقتل خصومهم . (الرازى : مختصرالمصاحح ٧٤٥) .
- (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤٤١/١٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢٩٦/٢ .

وفي سنة ٨٥٧ هـ مرض السلطان الظاهر جقمق واشتد عليه المرض، فعزم على خلع نفسه من السلطنة، وتولية ابنه عثمان، فراجع في ذلك فلم يقبل، وأمر باحضار الخليفة القائم بأمر الله والقضاة الأربعة من الغد، فلما كان اليوم التالي حضر الخليفة والقضاة وجميع الأمراء بعد صلاة الصبح، فلما اجتمعوا خلع الظاهر جقمق نفسه من السلطنة، وقال للخليفة والقضاة: " الأمر لكم، فانظروا فيمن تسلطوه، لعلمه أنهم لا يعدلون عن ولده عثمان، فانه كان أهلاً للسلطنة بلا مدافعة، فلما سمع الخليفة كلام السلطان لم يعدل عن عثمان ابن جقمق لما اشتمل عليه من العلم والفضل، فبايعه بالسلطنة" (١).

ولعل الخليفة العباسي أراد أن يردّ جميل السلطان جقمق عليه واحسانه وكرامه له من خلال مبايعة ابن السلطان عثمان بالسلطنة، ومما يؤكد حسن العلاقة بين الخليفة العباسي القائم بأمر الله والسلطان جقمق أن الخليفة حضر جنازة السلطان بعد وفاته، وأمّ المصلين عليها، وسارمتها حتى دفنت (٢).

الخليفة القائم بأمر الله والمنصور عثمان (٨٥٧ - ٨٥٨ هـ) :

بعد وفاة الظاهر جقمق طلع الخليفة العباسي القائم بأمر الله الى القلعة السلطانية وحضر القضاة الأربعة والأمراء وجميع أعيان الدولة، وأعلن الخليفة مبايعة عثمان ابن جقمق بالسلطنة وقرى، تقليد الخليفة له بالسلطنة، وأنعم السلطان على الخليفة القائم بأمر الله بألف دينار، وباقطاع هائل زيادة على ما بيده (٣).

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥ / ٤٥٢ . ابن اياس : بدائع الزهور ٢ / ٢٩٦ .
 (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥ / ٤٥٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢ / ٢٠٣ .
 (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦ / ٢٣ . السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥١٣ .

ولعل انعام السلطان على الخليفة العباسي بذلك المبلغ والاقطاع في مقابل موافقة الخليفة سلطنته ، غير أنه عيب على السلطان المنصور عثمان في ذلك اليوم عدم احترامه للخليفة العباسي ، فقد جلس السلطان على كرسي الملك وجلس الخليفة أمامه على الأرض (١) ، فعظم ذلك على الخليفة ولم يبده ، وكانت عادة السلاطين المماليك قبله تقريب الخليفة العباسي منهم عند مبايعته لهم بالسلطنة ، وكان بعضهم يجلس الخليفة معه على كرسي الملك لظهار محبته واحترامه للخليفة .

وبعد قرابة شهرين من سلطنة المنصور عثمان بن جقمق عزم كبار الأمراء المماليك على خلع من السلطنة ، وحاصروا السلطان بالقلعة في مجموعة من ممالك أبيه ، ثم طلب الأمراء حضور الخليفة القائم بأمر الله ، فلما حضر أظهر الميل للأمير اينال ، وأظهر كوامن كانت عنده من الملك المنصور عثمان وحواشيه ، ورجح الخليفة كفة القتال لصالح الأمراء المماليك عندما كان يردد غير مرة أنه سيخلع السلطان عثمان من السلطنة . (٢)

وفي اليوم التالي عقد الأمير اينال مجلساً حضره الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء أعلن فيه الخليفة على الملأ خلع المنصور عثمان و سلطنة الأمير اينال الأجرود فحكم القضاة بخلعه . (٣)

ومع أن الخليفة العباسي القائم بأمر الله قد وجد في نفسه من عدم احترام السلطان المنصور عثمان وحاشيته له ، إلا أنه عندما اشتدت هذه الفتنة وافق على رغبة الأمراء المماليك في خلع السلطان عثمان ، وذلك لمعرفة الخليفة أن هؤلاء الأمراء لن يهدأوا إلا بعد تحقيق رغبتهم سواء وافقهم الخليفة أو خالفهم ، فحرص الخليفة على القضاء على تلك

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٥/١٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٠٣/٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤١/١٦ ، السخاوى : الضوء اللامع ١٦٦/٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤٦/١٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٠٤/٢ .

الفتنة بين أنصار السلطان عثمان والأمراء المخالفين له ، حرصاً منه على الحفاظ على وحدة الدولة ، واستقرار أحوالها بمبايعته لسلطان أعلن الأمراء قبولهم بسلطنته .

الخليفة القائم بأمر الله والسلطان اينال العلابي (٨٥٢ - ٨٥٩ هـ) :

صعد الخليفة العباسي القائم بأمر الله حمزة ، والقضاة الأربعة ، وناثر الأمراء ، الى القلعة السلطانية ، فلما تكامل المجلس أعلن الخليفة مبايعة الأشرف اينال بالسلطنة ، وألبسه خلع السلطنة الخليفية السوداء ، فلما قُرِيَءَ تقليد السلطان أخلع على الخليفة والقضاة ونزلوا الى د ورهم . (١)

وبعد سلطنة الأشرف اينال راعى الخليفة قيامه معه ، فزاده عدة أقطيع ، وعظمه حتى نال من الوجاهة وقيام الحرمة ما لم ينله أحد من أقربائه . (٢)

وفي سنة ٨٥٩ هـ وعند ما حملت الفتنة بين السلطان الأشرف اينال والمماليك الظاهرية ، واستعد كل منهم لقتال الآخر ، طلب السلطان من الخليفة العباسي القائم بأمر الله أن يتغيب عن بيته حتى تسكن الفتنة ، فلم يجبه الخليفة الى ما طلب ، فتوجه المماليك الظاهرية الى الخليفة فأركبوه من بيته وأخذوه معهم ، ولما ذكر عن الخليفة القائم بأمر الله من خفة وطيش فقد مال اليهم ضد الأشرف اينال . ظنا منه أنه يكون مع هؤلاء ، فينتصر أحدهم فيبايعه بالسلطنة ويقوى أمره ويرتفع أمر الخليفة ، زيادة على ما فعل الأشرف اينال ، ويصير الأمر كله بيده . (٣)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥٨/١٦ ، ٦٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣١٢/٢ .

(٢) .. : .. : ٦٨/١٦ ، السخاوى : الضوء اللامع ١٦٦/٣ .

(٣) .. : .. : ٩٠/١٦ ، .. : .. : ١٦٧/٣ .

فلما علم السلطان بأمر الخليفة توجه اليهم فلم تكن الا ساعة يسيرة ، وانفض ذلك الجمع وفرّ المماليك من حول الخليفة القائم بأمر الله ، وانحلّ أمرهم ، وأراد الخليفة العودة الى منزله أو الطلوع الى السلطان فلم يمكنّ منهما ، وقبض عليه جماعة الأشرف اينال وصعدوا به اليه فوبخه وأمر بحبسه بالقلعة . (١)

لقد أدى طمع الخليفة العباسي القائم بأمر الله في زيادة المكانة والرفعة فسي الدولة الى خلع من الخلافة ، فهو وحده يتحمل عاقبة موافقته للأمر، المماليك فسي محاولتهم لخلع السلطان الأشرف اينال من السلطنة ، ونجد الخليفة ينكر جميل السلطان اليه ، وينسى تفضله عليه حتى أنه بلغ درجة لم يبلغها من سبقه من الخلفاء العباسيين ، وكان لنتيجة سوء العلاقة بينهما في أواخر خلافة القائم بأمر الله " ٠٠٠ أن وقع بينهما أمور يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب " . (٢)

فمن ذلك أنه لما عزم السلطان الأشرف اينال خلع الخليفة القائم بأمر الله وأحضر القضاة للشهادة على ذلك ، قام الخليفة في ذلك المجلس وقال للحاضرين : " اشهدوا عليّ أنني قد خلعت نفسي من الخلافة ، وخلعت السلطان اينال من السلطنة ، فاضطرب المجلس لذلك " ، وتدارك الموقف قاضي القضاة بقوله : " ان خلع السلطان لا يصح ، وقد بدأ بخلع نفسه أولاً ، ثم استثنى بخلع السلطان وهو غير متولي للخلافة ، فلم يصح عزله للسلطان " . (٣)

(١) الديّار بكري : تاريخ الخميس ٢ / ٤٣٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم

الزاهرة ٩٠/١٦ .

(٢) الديّار بكري : تاريخ الخميس ٢ / ٤٣٠ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢ / ٢٢٨ .

وبعد خلع القائم بأمر الله من الخلافة في سنة ٨٥٩ هـ أمر السلطان الأشرف اينال بحبسه في قلعة الجبل ، ثم نقله الى سجن الاسكندرية فبقي فيه الى أن أفرج عنه السلطان في سنة ٨٦١ هـ ، ورسم له بأن يسكن حيث شاء من الاسكندرية ؛ فسكن في بيت أخيه المستعين بالله العباس الى أن مات سنة ٨٦٢ هـ ، ودفن عند شقيقه المستعين بالله . (١)

وفيها يقول السيوطي : " والعجب أن هذين الأخوين الشقيقين خلعا من الخلافة ، واعتقل كل منهما بالاسكندرية ، ودفنا معا ... " . (٢)

(١) الديار بكرى : تاريخ الخبيس ٤٣٠/٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة
 ١٩٣/١٦ - ١٩٤ . ابن الطولوني : النزهة السنية ١٢٥ ، ابن اياس : بدائع
 الزهور ٣٤٩/٢ .
 (٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥١٣ .

خلافة المستنجد بالله يوسف بن المتوكل على الله محمد (٨٥٩ - ٨٨٤ هـ) :

بويـع بالخلافة بعد خلع السلطان الأشرف اينال لأخيه حمزة (١) ، فقد طلب السلطان يوسف بن المتوكل على الله و القضاة الأربعة والأمراء وسائر الأعيان ، فلما حضروا قام كاتب السرفقال : " نشهد عليك يا مولانا السلطان أنك عزلت الخليفة حمزة من الخلافة ووليت أخاه يوسف ، فقال السلطان الأشرف : نعم ، فأحضروا له التشريف وأفيض عليه ، ونزل من القلعة في موكب حافل ، قدّامه القضاة الأربعة وأعيان الناس حتى أوصلوه الى بيته ، وهو في غاية العظمة " . (٢)

وقد طالبت أيام الخليفة المستنجد بالله في الخلافة ، وتولى السلطنة في خلافته ستة من السلاطين ، كانت علاقتهم به كما يلي :

الخليفة المستنجد بالله والسلطان الأشرف اينال العلائي (٨٥٩ - ٨٦٥ هـ) :

أقام الأشرف في خلافة المستنجد بالله حتى مرضه في سنة ٨٦٥ هـ ، فلما اشتد به المرض عزم على خلع نفسه من السلطنة على أن يكون ابنه أحمد فيها من بعده ، فطلب حضور الخليفة العباسي والقضاة الأربعة ، واستدعى أرباب الدولة من أهل العقد والحل ، فلما اجتمعوا دخلوا على السلطان وهو في النزاع لا يستطيع الكلام ، فشهدوا عليه بخلع نفسه من السلطنة ، وأن يُسَلَّم الأمر الى ولده أحمد ، وأعلن الخليفة أنه بايع أحمد بالسلطنة . (٣)

وعند ما مات الأشرف اينال حضر الخليفة العباسي المستنجد بالله جنازته وصلى الخليفة عليه . (٤)

-
- (١) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٤٣٠/٢ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥١٤ . السخاوى : الضوء اللامع ٣٢٩/١٠ ، ابن الطولوني : النزهة السنية ١٢٦ .
- (٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٣٥/٢ .
- (٣) ابن تغرى بردى : المعجم الزاهرة ١٥٦/١٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥١٣ .
- (٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٧١/٢ .

الخليفة المستنجد بالله والمؤيد أحمد بن اينال (٨٦٥ - ٨٧٥ هـ) :

صعد الخليفة العباسي المستنجد بالله الى القلعة السلطانية لقراءة تقليد أحمد بن الأشرف اينال السلطنة ، وحضر أرباب الدولة والأعيان ، فلما قرئ التقليد أخلع السلطان المؤيد أحمد على الخليفة بهذا اياكشيرة . (١)

ولم تدم مدة السلطان المؤيد أحمد في منصبه حيث أعلن الأمير خشقدم الناصري خلع المؤيد منها وتوليه السلطنة مكانه .

الخليفة المستنجد بالله والسلطان خشقدم (٨٦٥ - ٨٧٢ هـ) :

أقدم خشقدم على خلع المؤيد أحمد من السلطنة من غير مشاورة للخليفة العباسي المستنجد بالله ، أو أخذ رأيه في ذلك ، ولم يجد الخليفة بدا من مبايعة خشقدم بالسلطنة عند ما استدعاه بحضور القضاة وأعيان الأمراء . وبعد مبايعة خلع على الخليفة هدايا حائلة . (٢)

وعندما علم نائب الشام الأمير جانم المكحل بما أقدم عليه خشقدم من خلع المؤيد أحمد وتوليه السلطنة مكانه ، أعلن عصيانه وعدم قبوله لذلك . وقصد الديار المصرية لقتال الظاهر خشقدم وأخذ السلطنة منه . ولما وصلت أخباره للسلطان خشقدم أرسل الى الخليفة المستنجد بالله يأمره بالعمود الى القنعة والاقامة بها (٣) . في محاولة منه لمنع وصول جانم المكحل للخليفة أو التأثير عليه واستمالته لمحفة ضد السلطان .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٢٦/١٦ . ابن اياس : بدائع الزهور ٣٧٣/٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٥٣/٢٦ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ١٠ / ٣٣٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور

الزهور ٢٨٣/٢ .

وكانت نهاية هذا الخلاف بين الظاهر خشقدم والأمير جانم رجوع الثاني السى
منطقة نيابته في دمشق قانعا بما أخذه من مبالغ مالية وامتيازات منحه اياها السلطان
الظاهر خشقدم . (١)

وبعد انتهاء تلك الفتنة أذن السلطان للقضاة الأربعة ، وللأمراء المماليك
بالنزول الى د ورهم ، أما الخليفة العباسي المستنجد بالله فقد أبقاه السلطان بالقلعة (٢)
تحت ملاحظته خوفا من استمالة الأمراء المماليك للخليفة ضده فيكون في ذلك خلعه
من السلطنة ، وضياع ملكه .

وحرصا من السلطان الظاهر خشقدم على استمرار ملكه زاد من التضييق
على الخليفة العباسي المستنجد بالله ، فمنعه من النزول من القلعة الى المدينة ،
حتى أن أخت الخليفة توفيت فلم يمكنه السلطان من النزول لحضور الصلاة عليها . (٣)

الخليفة المستنجد بالله والسلطان يلباي (٨٧٢ - ٨٧٢ هـ) :

بعد وفاة الظاهر خشقدم قلّد الخليفة العباسي المستنجد بالله السلطنة يلباي
وأعلن مبايعته له بحضور القضاة الأربعة ، ولما قرىء تقليد الخليفة له بالسلطنة ، أخلع
يلباي المؤيدى على الخليفة والقضاة . (٤)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٥٩/١٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢٨٤/٢ .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٨٣/٢ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥١٤ .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٥٧/٢ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٥٧/١٦ ، ٣٦٥ ، السيوطي : تاريخ
الخلفاء ٥١٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٥٩/٢ .

الخليفة المستنجد بالله والسلطان تمر بغا (٨٧٢ - ٨٧٢ هـ) :

وَقَبَّتِ العساكر السلطانية على السلطان الظاهر يلباي بعد شهرين من سلطنته ، وأعلنوا خلعهم من السلطنة ، ووقع اختيارهم على الأمير تمر بغا ، فلما حضر الخليفة وأرباب الدولة والأعيان ، أعلن الخليفة مبايعته لتمر بغا بالسلطنة ، وخلعه للظاهر يلباي بعهد أن ثبت عجزه عن تدبير المملكة ، وبعد جلوس الظاهر تمر بغا على كرسي السلطنة أُخلع على الخليفة العباسي ، ثم نزل إلى داره . (١)

الخليفة المستنجد بالله والسلطان قايتباي (٨٧٢ - ٨٨٤ هـ) :

ثم بعد شهرين أيضا وثبتت العساكر السلطانية على السلطان تمر بغا ، واجتمعت كلمة الأمراء المماليك على مبايعة قايتباي المحمودى بالسلطنة ، وأرسلوا خلف أمير المؤمنين الخليفة المستنجد بالله ، فلما حضر عدلت صورة شرعية في خلع الظاهر تمر بغا من السلطنة فخلعه الخليفة في الحال ، وبايع قايتباي بالسلطنة ، وأخلع على الخليفة على العادة (٢) واستقر له الملك ، وسار في المملكة بشهامة وصرامة ما سار بها قبله ملك من عهد الناصر محمد بن قلاوون . (٣)

وذكر أنه بعد أربعة أشهر من مبايعة الخليفة العباسي المستنجد بالله لقايتباي بالسلطنة أخرج السلطان قرية انبابة (٤) التي كانت بيد الخليفة منذ سلطنة

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥١٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٦٨/٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦ / ٣٩٤ ، ابن اياس : بدائع

الزهور ٤٦٨/٢ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥١٤ .

(٤) من ضواحي مدينة القاهرة وتتبع محافظة الجيزة ، وتبعد عن القاهرة قرابة عشرين

كيلومتر .

الأشرف اينال ، ثم بعد مدة أخرج قايتباي من اقطاع الخليفة جزيرة المابوني (١) ، وأقطعها لبعض مماليكه (٢) ، ولم يذكر ذلك المصدر سبب اخراج تلك الاقطاعات من يد الخليفة العباسي .

خرج السلطان الأشرف قايتباي الى البلاد الشامية في سنة ٨٨٢ هـ للقضاء على عميان بعض الأمراء المماليك ، وقد كانت العادة اذا سافر السلطان خارج الديار المصرية أن يصطحب الخليفة العباسي معه ليضمن بالدرجة الأولى بقاءه في السلطنة ، لأنه لا يأمن أن يظهر طامع فيها في أي لحظة فيستمد شرعيته من مبايعة الخليفة العباسي له بالسلطنة ، ولكن الأشرف قايتباي في سفره ذلك " ترك الخليفة العباسي بالقاهرة ، وكان يكتب له الرسائل من البلاد الشامية يطلعه على أخباره " . (٣)

امتدت خلافة المستنجد بالله قرابة خمس وعشرين سنة ، ورأى في خلافته غاية العز (٤) ، وفي سنة ٨٨٤ هـ كانت وفاته بعد مرضه نحو عامين ، ومات وله من العمر زيادة عن ثمانين سنة وهو أول خليفة سكن بالقلعة السلطانية وأقام بها حتى مات . (٥)

(١) جزيرة المابوني : المابوني قرية على الشاطيء الشرقي لنهر النيل ، ويقال لها :

سواقي المابوني .

(الحموى : معجم البلدان ٣ / ٢٨٧) .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٣ / ١٢ .

(٣) المصدر السابق ٣ / ١٣٧ .

(٤) المصدر السابق ٣ / ١٥٠ .

(٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥١٤ ، حسن المحاضرة ٢ / ٩٢ .

خلافة المتوكل على الله عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله محمد (٨٨٤ - ٩٠٣ هـ) :

وقد تولى منصب السلطنة في خلافته من السلاطين المماليك كل من :

الأشرف قايتباي ، والناصر محمد بن قايتباي .

الخليفة المتوكل على الله والسلطان قايتباي (٨٨٤ - ٩٠١ هـ) :

لما طال مرض الخليفة العباسي المستنجد بالله عهد بالخلافة الى ابن أخيه (١)

فلما مات الخليفة طلبه السلطان الأشرف قايتباي فحضر وحضر القضاة الأربعة وأرباب الوظائف والأعيان ، وحضر عمه موسى بن المتوكل على الله ، ولكنه غير صالح للخلافة ، فلم يكن فسي بني العباس يومئذ أمثل من عبد العزيز ، فوقع الاتفاق من السلطان والأمراء على ولايته للخلافة وأحضر اليه شعار الخلافة وأبيض عليه ، ثم نزل من القلعة في موكب حافل قدّامه القضاة وأعيان الدولة حتى وصل الى منزله ، ثم في آخر اليوم عاد الى القلعة وسكن بدار عمّه المستنجد بالله التي كان يسكنها قبل موته . (٢)

ومع استقرار أحوال الدولة قبل مبايعة المتوكل على الله بالخلافة ، وأثناءهما

الأننا نجد السلطان الأشرف قايتباي يستمر في سياسة الحجر والتضييق التي لقيها الخلفاء

العباسيون من قبل السلاطين المماليك . ويتعرفون مع الخلفاء لا يراعون لهم حرمة .

ومن ذلك أنه لما احترقت حواصل السلطان الأشرف قايتباي وقيل أن النار جلت من مطبخ

الخليفة قام السلطان باخراج الخليفة من داره وأمره أن ينتقل بأهله للسكن مع عامة الناس

بالقاهرة .

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٥١٤ ، حسن المحاضرة ٩٢/٢ ، السخاوي : الضوء

اللامع ٢٣٦/٤ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٥١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١٥١/٣ .

وفي ظل تلك السياسة فإن السلاطين كانوا يسمحون للخلفاء بالمشاركة في بعض الأمور الثانوية والمناسبات العامة في محاولة منهم لكسب العامة ، ومن ذلك :

صدر أمر السلطان الأشرف قايتباي في سنة ٨٨٩ هـ بعمل مولد للسيدة نفيسة ^(١) ، ورسوم للخليفة المتوكل على الله عبد العزيز أن يحضره ، واجتمع فيه القضاة وأعيان الناس وقرآء البلد قاطبة ، ومدت موائد الطعام في ذلك اليوم ، وصار يقال لذلك المولد : مولد الخليفة ^(٢) فنسب ذلك العمل الى الخليفة العباسي المتوكل على الله في محاولة من السلطان قايتباي لاطهار الود والاحترام للخليفة العباسي أمام الرعية .

ومن الأمثلة على مظاهر الاحترام والود في العلاقة بين الخليفة والسلطان قايتباي : أنه في سنة ٨٩١ هـ حاول الخليفة العباسي عبد العزيز المتوكل على الله تعيين الشيخ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي في مشيخة خانقاه ^(٣) البيبرسية ، فسعى لدى السلطان الأشرف قايتباي المحمودي لأجل ذلك . ^(٤)

وعندما مرض السلطان الأشرف قايتباي في سنة ٨٩١ هـ نتيجة لكسر أصابه في فخذه " طلع الخليفة المتوكل على الله ومعه القضاة الأربعة ليهنئوا السلطان بالعافية والشفاء من الكسر الذي أصابه " .

وعندما وزع السلطان الأشرف قايتباي المحمودي النفقة على الأمراء المماليك والعساكر السلطانية في سنة ٩٠١ هـ ، بعث النفقة الخاصة بالخليفة العباسي المتوكل على الله . ^(٥)

(١) هذا المولد من جملة البدع التي انتشرت في ذلك العصر ، ومما خلفه الحكام العبيديين بالديار المصرية ، وسمي بـ " المشهد النفيسي " نسبة الى السيدة نفيسة بنت الحسن ابن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد عرفت السيدة نفيسة بالصلاح والزهد وكثرة العبادة ، توفيت سنة ثمان ومائتين ود فنت بمنزلها وهو الموضع الذي به قبرها الآن ، وبُنِيَ على القبر قبة في زمن أمير الجيوش بمصر عبيد الله بن الحكم بأمر من المستنصر بالله العبيدي في سنة ٤٨٢ هـ . (المقریزی : الخطط المقريزية ٤٤٢/٢) .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٠٦/٣ ، وقد نُسبت تلك البدعة الى الخليفة المتوكل على الله ، مع أن الذي أمر بها هو السلطان قايتباي المحمودي .

(٣) الخوانق أو الخوانك : جمع خانقاه ، وهي كلمة فارسية معناها بيت ، وقيل : أصلها خونقاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك . والخوانق أو الخوانك حدثت في بلاد الاسلام في حدود الأربعمئة من سني الهجرة ، وجُعِلت لخلوة الصوفية فيها لعبادة الله تعالى وأصبحت تنسب الى من أنشأها ، فقيل (البيبرسية) نسبة للظاهر بيبرس .

(المقریزی : الخطط المقريزية ٤١٤/٢) .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٢٨/٣ .

(٥) المصدر السابق ٢٢٩/٣ ، ٣٣٠ .

ولما مرض السلطان قايتباي في آخر سنة ٩٠١ هـ واشتد مرضه وانفق الأمراء المماليك على سلطنة ابنه محمد ، أرسلوا خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة ، فلما تكامل المجلس تكلموا في خلع السلطان الأشرف قايتباي بحكم اشتداد مرضه ، ومبايعة ابنه محمد ، فأعلن الخليفة خلع الأشرف وبايع ولده محمد بالسلطنة ، وجرت تلك المبايعة والأشرف في النزاع لا يشعر بشيء مما يجري . (١)

الخليفة المتوكل على الله والناصر محمد بن قايتباي (٩٠١ - ٩٠٢ هـ) :

بايع الخليفة العباسي الناصر محمد بالسلطنة وهو ابن الرابعة عشرة من عمره ، ولم يكن للخليفة حق معارضة ما يقرره السلاطين والأمراء المماليك وما يتفقون عليه .

ثم طلب السلطان الناصر محمد من الخليفة العباسي المتوكل على الله الصعود إلى القلعة السلطانية ، وأن يسكن بها كما كان سابقا قبل أن يخرج والده الأشرف قايتباي بعهد غضبه على الخليفة العباسي . (٢)

وفي سنة ٩٠٢ هـ عهد الخليفة العباسي للشيخ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي بوظيفة كبير القضاة ، وله حق أن يوَلّي منهم من شاء ويعزل من شاء في سائر ممالك الإسلام ، فلما بلغ القضاة ذلك شق عليهم واستخفوا بعقل الخليفة وقالوا : «ليس للخليفة منع وجود السلطان حل ولا ربط . ولا ولاية ولا عزل . ولكن الخليفة استخف بالسلطان لكونه حديث السن وقصد أن يكون الأمر له من دون السلطان ، فلما قامت الدائرة على الخليفة رجع عن ذلك ، وقال : «كانت هذه وظيفته قديمة ، كان الخلفاء يولونها لمن يختارونه»

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣/ ٣٢٤ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٣٨ .

من العلماء، ثم أشهدوا على الخليفة أنه رجع عن ذلك ، وبعث لأخذ العهد الذي كتبه للشيخ السيوطي ، وكادت تكون فتنة كبيرة بسبب ذلك . (١)

وبتأمل هذه الحادثة نرى أن الخليفة العباسي المتوكل على الله أراد أن يصلح بعض الأوضاع في الدولة مستغلا صغر سن السلطان وعدم أهليته للسلطنة ، ولكنه وجد خصوما في هذه المرة من غير المماليك، وهم القضاة الذين سفّها رأى الخليفة العباسي وشنّوا عليه لإحداً تلك الوظيفة التي سوف تقضي على نفوذهم وهيبتهم ومكانتهم في الدولة ، وأعلنوا أن الخليفة لا حق له في الولاية أو العزل ، مما دفع الخليفة للتراجع عن ذلك العهد وابطاله قبل بدء العمل به .

وقد شجّع صغر سن السلطان الناصر محمد بن قايتباي الأمراء المماليك على طلب السلطنة ، حيث برز منهم الأمير قانصوه الذي أرسل يطلب حضور أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة ، فلما حضروا عنده ، استدعى العساكر السلطانية من أمراء وجند ، فلما تكاملوا كلّموا الخليفة في خلع السلطان الناصر وسلطنة الأمير قانصوه ، فقبل الخليفة ذلك ، وكتب محضرا بمبايعة قانصوه . (٢)

وفي ظل انشغال السلطان الناصر بلهوه ومجالسة ندمائه عن أمور السلطنة لم يكن بوسع الخليفة المتوكل على الله رفض ما طلب منه ، خاصة وهو يقف وحيدا بين أولئك الأمراء وجندهم ، فأدى ما طلب منه على كره وعدم رضا حفاظا على مصلحة الدولة ، ومنعا للفتنة ، وترك ما بقي للماليك يتفقون عليه بطريقتهم المعتادة في مثل هذه المواقف العصيبة التي مرت بها الخلافة العباسية في مصر ، وقد انتهت تلك المحاولة

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣/٣٣٩ .

(٢) المصدر السابق ٣/٣٤٢ .

بفشل الأمير قانصوه في البقاء في السلطنة وانهزامه عسكرياً أمام مماليك الأشرف قايتبغاى الذين وقفوا بجوار سيدهم الناصر محمد ، وقضوا على أطماع قانصوه في السلطنة ، وفكوا الخليفة العباسي المتوكل على الله الذي احتجزه قانصوه في مدة قتله لمعارضيه على السلطنة ، وكاد الخليفة العباسي أن يهلك أثناء القتال بين الطرفين . (١)

و بعد القضاء على محاولة الأمير قانصوه طلع الخليفة المتوكل على الله لتهنئة السلطان الناصر محمد بانتصر على قانصوه ، وأعاد الخليفة الناصر محمد للسلطنة وبايعه ثانية . (٢)

ولم يحاسب الأمراء المماليك الخليفة العباسي على مبايعته لقانصوه بالسلطنة لعلمهم بأنه لا حول ولا قوة في ذلك القرار الذي أكره على اتخاذه . وكان من عادة الخلفاء العباسيين تهنئة السلطان في أول الشهر ، وفي العيدين ، وعند ما طلع الخليفة العباسي المتوكل على الله ليهنئ الناصر محمد بالعيد وجده مع ندائه ، " فلم يخرج السلطان للقاء الخليفة ، وأرسل يتشكر منه وأمره بالانصراف ، فعبد ذلك من نواحي السلطان الناصر محمد الذي كان في تلك الأيام في غيبة الخليفة " . (٣)

ولم يطلع الخليفة المتوكل على الله بعد ذلك لتهنئة الناصر محمد بدخول الشهر الجديد ، ولتهنئته بانتصاره على الأمير آقبردي ، وذلك بسبب ابتداء مرض الخليفة العباسي وعدم استطاعته الخروج من منزله لاشتداد المرض عليه ثم وفاته بعد أيام وله من العمر أربع وثمانون سنة ، وقد حضر السلطان الناصر محمد الصلاة عليه ودفنه . (٤)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٢) المصدر السابق ٢/٣٤٦ .

(٣) ٣/٣٦١ .

(٤) ٣/٣٧٦ - ٣٧٨ .

خليفة المستمك بالله يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز (٩٠٣ - ٩١٤ هـ) :

عندما اشتد مرض الخليفة المتوكل على الله وأشرف على الموت عهد بالخلافة من بعده لولده يعقوب ، ثم من بعد يعقوب ولده محمد ، وشهد القضاة على ذلك العهد . (١)

فلما علم ابن عمه خليل بذلك العهد اضطربت أحواله ، وضاقت عليه الدنيا بما رحبت ، وكان منتظرا للخلافة بعد وفاة عمه عبد العزيز ، فلم ينله من ذلك شئ ، وفاته المطلوب .

الخليفة المستمك بالله والسلطان الناصر محمد بن قايتباي (٩٠٣ - ٩٠٤ هـ) :

وبعد وفاة المتوكل على الله بعث السلطان الناصر محمد يطلب حضور ولده يعقوب فحضر ، وحضر معه ابن عمه خليل ، فعرض يعقوب عهد والده اليه بالخلافة على السلطان ، وشرع خليل يتكلم في يعقوب بكلمات قبيحة ، فلم يلتفت الناصر الى كلامه وقال يسأل الامراء عن خليل : هل كان ابوه خليفة .

ف قيل له : لا ، فقال الناصر محمد : لا يلي الخلافة الا من كان أبوه خليفة .

وبذلك تم أمره في الخلافة العباسية ، " وفي الحقيقة لم يكن يومئذ من بني العباس من يصلح للخلافة غير يعقوب في الدين والخير والصلاح ، فاتفق الأمراء على ولايته ونزل خليل من القلعة بخفي حنين " . (٢)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣/٣٧٩ .

(٢) المصدر السابق ٣/٣٨٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ١٠/٢٨٥ .

أما أحقية يعقوب في الخلافة فقد ثبتت بالعهد الذي كتبه والده المتوكسل على الله قبل وفاته يعهد اليه بالخلافة من بعده ثم لمحمد بن يعقوب ، ولا حاجة للسلطان لمفاوضة طالب الخلافة العباسية خليل مع وجود ذلك العهد وشهادة القضاة بمحتته ، ولم يبق الا تنفيذ ما ورد فيه .

وبعد استحقاق يعقوب للخلافة عقد السلطان الناصر محمد مجلسا بحضور القضاة وأحضر اليه شعار الخلافة فأفيض عليه ، ونزل من القلعة السلطانية في موكب حافل حستى وصل الى داره (١) ، وذكر أن الشيخ جلال الدين السيوطي هو الذي لقبه بالمستمسك بالله وكناه بأبي الصبر ، أما ابن اياس فقد مدحه بقوله :

يا أمير المؤمنين أقبـل ولا . . . ترتجي غير الذي قد شرفك

لو أتى العباس أضحى قائلـا . . . يرحم الله الذي قد خلفك

الخليفة المستمسك بالله والسلطان قانموه (٩٠٤ - ٩٠٥ هـ) :

عندما اتفق الأمراء المماليك على خلع الناصر محمد ومبايعة الأمير قانموه أرسلوا خلف أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة ، فلما حضروا جميعا بايعة الخليفة بالسلطنة ، وشهد القضاة بذلك ، وركب السلطان قانموه ومعه الخليفة حتى وملا الى القلعة السلطانية ، فلما جلس السلطان على كرسي الملك أخلع على الخليفة المستمسك بالله . (٢)

الخليفة المستمسك بالله والسلطان جان بلاط (٩٠٥ - ٩٠٦ هـ) :

مبعـدما عقد الأمراء المماليك العزم على خلع الظاهر قانموه من السلطنة بتدبير من الأمير طومان باي . أرسلوا خلف أمير المؤمنين الخليفة العباسي المستمسك بالله

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣/٢٨١ .

(٢) المصدر السابق ٣/٤٠٥ .

والقضاة الأربعة ، فلما تكامل المجلس أعلنوا خلع قانصوه من السلطنة فخلعه الخليفة وبايع الأمير جان بلاط بالسلطنة ، ثم أخلع السلطان على الخليفة ، وألزمه أن يتحول معه من يومه ليسكن بالقلعة السلطانية كما كان والده المتوكل على الله عبد العزيز ، فامتثل لذلك . (١)

ولم يذكر سبب ذلك الطلب وهل هو تقدير من السلطان للخليفة العباسي ؟ أم هو محاولة من السلطان جان بلاط للحيلولة بين الخليفة العباسي والأمراء المماليك الطامعين في السلطنة من حوله ؟

ومما يؤكد طمع الأمراء في منصب السلطنة أن الأمير طومان باي الأشرفي الذي سعى لسلطنة جان بلاط هذا أعلن العصيان عليه ، وأعلن سلطنة جديدة بالبلاد الشامية وأخذ يستعد للتوجه الى الديار المصرية لقتال السلطان جان بلاط ، وسعى الأخير الى احضار الخليفة العباسي والقضاة الأربعة ليشهدوا على الأيمان والعهود التي أخذها السلطان على الأمراء المماليك بعدم الغدر به أو خيانتته أو الميل مع طومان باي اذا وصل الى الديار المصرية . (٢)

ثم أتبع ذلك بأن أمر الخليفة وأقاربه كبارهم وصغارهم بأن يطلعوا عنده بالقلعة السلطانية (٣) ، في محاولة منه لمنع وصول طومان باي للخليفة ، فعند ذلك سيضفي الشرعية على سلطنة طومان ، وحتى لا يحاول طوماي باي استمالة أحد العباسيين الطامعين في الخلافة مما قد يترتب عليه خلع المستمسك بالله من منصبه ، ومبايعة الخليفة الجديد لطومان باي بالسلطنة .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٣٩/٣ .
 (٢) المصدر السابق ٤٥٤/٣ .
 (٣) " " ٤٥٧/٣ .

الخليفة المستمسك بالله والسلطان طومان باي (٩٠٦ - ٩٠٦ هـ) :

انتهت سلطنة جان بلاط بعد هزيمته أمام الأمير طومان باي ، وترشح أمر طومان ليبي السلطنة ، فأرسل يطلب حضور الخليفة العباسي المستمسك بالله والقضاة الأربعة ، فلما اجتمعوا عنده أصدر القضاة فتوى شرعية في خلع الأشرف جان بلاط وولاية العسادل طومان باي ، ثم أعلن الخليفة مبايعة طومان باي بالسلطنة ، ورسم السلطان للخليفة بأن ينزل من القلعة ويسكن داره . (١)

الخليفة المستمسك والسلطان قانصوه الغوري (٩٠٦ - ٩١٤ هـ) :

بعدهما أعلن الخليفة العباسي مبايعة قانصوه الغوري بالسلطنة ركب السلطان والخليفة عن يمينه ، ومشى الأمراء أمامهما حتى طلعا إلى القصر السلطاني ، فلما جلس الأشرف قانصوه على كرسي الملك أخلع على الخليفة المستمسك بالله . (٢)

وعندما احتاج السلطان لتأمين الأموال اللازمة لنفقة الجند عقد السلطان الأشرف مجلسا بحضور الخليفة المستمسك بالله والقضاة الأربعة للمشاركة في كيفية تأمين تلك الأموال ، وانفض المجلس بعدم موافقة القضاة على رأى السلطان في أخذ أموال الأوقاف ، وقال السلطان في غضب للقاضي الحنبلي : " إذا ركبوا المحاليك و طلبوا مسني نفقة أبعثهم اليك في بيتك فتكلمهم بما تعرف " . (٣)

وظهرت وظيفة جديدة للخليفة العباسي بالديار المصرية خاصة في أواخر عصور الخلافة. فلكثرة حركات العميان ضد السلطان قانصوه الغوري وبعد فرار مجموعة من

(١) ابن ابياس : بدائع الزهور ٣/٣٦٥ ، ٣٧٤ .

(٢) المصدر السابق ٤/٤ .

(٣) " " ٤/١٤ .

الأمراء المماليك المواليين لطومان باى بعد قتلهم السجّان في سنة ٩٠٧ هـ ، وقلق السلطان قانصوه من اختفاء هؤلاء الأمراء بالقاهرة ، مع كثرة القيل والقال ، استدعى السلطان الخليفة المستمسك بالله وأحضر المصحف وحلّف عليه سائر الأمراء بحضرة الخليفة والقضاة الأربعة على أنهم لا يخونوه ولا يغدروا به . (١)

وحرص السلطان المملوكي قانصوه الغوري على حضور الخليفة العباسي المستمسك بالله المناسبات العامة ، ففي ليلة عيد النحر سنة ٩٠٨ هـ عمل السلطان وليمة حافلة بسبب الانتهاء من بناء مدرسته ، وحضر ذلك الحفل الخليفة العباسي المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة ، والأعيان ، وكانت تلك المدرسة في غاية البناء ، إلا أن الناس شتت على السلطان الأشرف قانصوه في مصروف عمارتها الذي كان من وجوه المظالم والمصادرات ، وأخذ غالب رخامها من أماكن شتى بأبخس الأثمان . (٢)

وكان من الأفضل للسلطان الغوري الترفع عن تلك الأموال التي جمعها من وجوه الظلم ليبنى بها مدرسة ، فتحقيق العدل ورفع الظلم عن الرعية أهم من بناء مدرسة طلبا للسمعة أو محاولة مشابهة من سبقه من السلاطين ، ثم أن القاهرة كانت تعج بالمدارس ولم تكن مدرسة السلطان قانصوه الغوري فريدة عصرها .

وحضر الخليفة العباسي المستمسك بالله حفل افتتاح جامع السلطان الغوري والمدرس التي بناها السلطان بجواره (٣) ، وذلك في سنة ٩٠٩ هـ .

وفي سنة ٩١١ هـ ولما تكررت حالات عصيان أمراء ونواب السلطان الأشرف قانصوه استحدث أسلوبا جديدا في محاولة منه لوقف تلك الظاهرة التي أدت إلى اضطراب ملكه ،

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٨/٤ .

(٢) المصدر السابق ٥٣/٤ .

(٣) “ “ ٥٩/٤ .

فكان يأمر صاحب الوظيفة المرشح لها أن يحضر أمام الخليفة العباسي المتمسك بالله والقضاة الأربعة ويحلف بحضرتهم على المصحف الشريف بأنه " لا يعصي السلطان ، ولا يخون الأيمان التي أخذت عليه ، ثم يشهد عليه الخليفة والقضاة الأربعة بذلك " . (١)

وفي سنة ٩١٣ هـ طلع الخليفة العباسي المتمسك بالله لتهنئة السلطان بالشهر الجديد ، فوقع بينه وبين ابن عم أبيه خليل تشاجر بمجلس السلطان ، فقال خليل للخليفة يعقوب : أنت ولايتك لا تمنح فإني أعنى ، وكان الخليفة يعقوب بعينه ضعف ، فقام اليه محمد بن المتمسك بالله وقال لخليل : وأنت ما تمنح الملاة خلفك لأنك لا تحسن قراءة الفاتحة ، وكان خليل ألشغ لا ينطق بحرف الراء ، فألزمه السلطان أن يقرأ الفاتحة بحضرة القضاة الأربعة ، فلما قرأ خليل لم يستطع اكمال قراءة الفاتحة وسكت ، فقال السلطان : يوم الاثنين نعقد مجلسا في أمر من يملح للخلافة ، وكان السلطان مُحِطًا على الخليفة ، رائمًا منه مالا . (٢)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٨٩/٤ .

(٢) " " " " ١٢٩/٤ .

فلما كان اليوم المحدد حضر الخليفة العباسي المستمك بالله وولده محمد وابن عمهم المدعو خليل ، وأخرج الخليفة في ذلك المجلس العهد الذي كتبه والسد عبد العزيز ، وفيه أنه يعهد بالخلافة لولده يعقوب ثم من بعده لولده محمد ، ثم أعلن المستمك بالله أنه عهد بالخلافة الى ولده محمد ، عند ذلك قال قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل بعد وقوفه على العهدين : الحق للناصرى محمد بن الخليفة يعقوب .

ثم قال الخليفة المستمك بالله للسلطان الغورى : أنا قد كبر سني ، وقد عزلت نفسي من الخلافة ، وعهدت بها الى ولدى محمد ، فان شاء السلطان يوليه أو لا ، فقال السلطان : قد وليت ولدك ثم شهد القضاة على ذلك ، وقام الخليفة يعقوب فوادع السلطان فأكرمه وعظمه ، ونزل الخليفة الى داره وهو في غاية العز والعظمة . (١)

وبذلك انتهت خلافة المستمك بالله يعقوب ، وقيل : انه تكلف في نقل الخلافة الى ولده محمد اثنا عشر الف دينار ، ولولا أنه فعل ذلك لنفي الى دمياط . (٢)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٤٠/٤ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ١٤١/٤ .

وما أقدم عليه الخليفة في دفع ذلك المال يحدث لأول مرة في تاريخ الخلافة العباسية في مصر ، حيث لم يسبق لخليفة عباسي أن دفع مالا لسلطان مملوكي ليبقي في الخلافة ، أو ليعهد بها الى ولده . ويوضح هذا الموقف من السلطان المملوكي أن منسب الخلافة مع تولية آخر الخلفاء العباسيين أصبح يُشترى من السلطان المملوكي ، ويأخذه من يدفع أكثر من أفراد البيت العباسي ، فقد ذكر أيضا عن خليل سعي ليلي الخلافة العباسية بحال جليل ، وقد يكون ما دفعه المستمك بالله أكثر مما عرفه ابن عمه خليل على السلطان قانصوه الغوري ، ويعد دفع المال للسلطان المملوكي تطورا جديا في العلاقة بين الخليفة العباسي والسلطان المملوكي ، وقد جاء هذا التطور في آخر أيام الخلافة العباسية بالديار المصرية .

وكان من الممكن أن يشكل اتباع مثل هذا التصرف خطوة على الدولة الاسلامية في عمور متقدمة من تاريخ الخلافة العباسية بتأثيره على الأسرة العباسية من جهة وعلى العلاقة بين الخلفاء العباسيين والسلاطين العماليك من جهة ثانية .

خلافة المتوكل على الله محمد بن المستمك بالله يعقوب (٩١٤ - ٩٢٣ هـ) :

بويغ بالخلافة العباسية بعد أن تنازل له والده عنها ، وعقد مجلس لاعلان مبايعته ، وبعد أن لبس شعار الخلافة وجلس بين يدي السلطان الأشرف قانصوه الغوري أشهد عليه القضاة بأنه فوض اليه ما فوض اليه والده المستمك بالله يعقوب فقال : نعم . وانفض ذلك المجلس ، ثم قام الخليفة المتوكل على الله ونزل من القلعة في موكب حافل وصحبه القضاة الأربعة ، وأعيان الناس . (١)

وقد ولي المتوكل على الله الخلافة وهو في الثالثة والأربعين من عمره ، ولم يتفق لأحد من الخلفاء العباسيين في مصر أن ولي الخلافة ووالده في قيود الحياة سواه .

وارتفعت الأصوات بعد ذلك بالدعاء للسلطان قانصوه الغوري لأنه لم يخرج الخلافة عن يعقوب وابنه محمد ، ولم يمكن ابن عمهم خليل منها مع سعيه بمال جزييل ، " فلم ينل من ذلك مناه ، ونزل من القلعة وقد اشتعل قلبه نارا " . (٢)

الخليفة المتوكل على الله والسلطان قانصوه (٩١٤ - ٩٢٢ هـ) :

في سنة ٩١٤ هـ طلع الخليفة العباسي المتوكل على الله لتهنئة السلطان قانصوه بشهر رمضان ، فقام اليه السلطان وعظمه الى الغاية . (٣)

ولما مرض السلطان في سنة ٩١٦ هـ ، واحتجب عن الناس ، ولم يستطع الخروج للصلاة طلع اليه الخليفة المتوكل على الله وزاره ، واستمر الخليفة على تلك العادة يطلع للسلطان

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٤٠/٤ .
 (٢) المصدر السابق ١٤١/٤ .
 (٣) " " ١٤٣/٤ .

لتهنئته بدخول الشهر الجديد في مدة خلافته ، وكان في بعض الأحيان يطلع للقلمنة
فلا يجد السلطان قانموه فيعود الى داره . (١)

وفي سنة ٩١٨ هـ عزم السلطان قانموه السفر الى الاسكندرية أرسل الى الخليفة
المتوكل على الله يطلب منه التجهز للخروج معه اليها (٢) ، وبذلك أعاد ما اتبعه
السلطين المماليك قبله في اصطحابهم للخلفاء العباسيين معهم ، بعد ما توقفت تلك
العادة منذ سنة ٨٣٦ هـ حتى خلافة المتوكل على الله .

وخرج السلطان الأشرف قانموه الغوري في سنة ٩١٨ هـ للتمز به بالغيوم ، وفي
طريق عودته الى القاهرة مرّ قريبا من دهشور ، فخرج الخليفة العباسي المتوكل على الله
لاستقباله ، فأقبل عليه السلطان قانموه الغوري ورحّب بالخليفة ، وبالغ في اكرامه
وتعظيمه ، وقدّم له الخليفة أشياء كثيرة من الأغنام والأبقار ، وأنواع الأكل ، فشكر له
السلطان قانموه ذلك . (٣)

**وهنا نلاحظ أن الخليفة العباسي أحسن حالا من الناحية المادية من السلطان
المملوكي الذي ظل معتمدا على المصادرات لجمع ما يحتاجه من مال لينفق على نفسه
وعلى مماليكه وموائد واحتفالاته بين الفينة والأخرى على مدى سنة ٩١٨ هـ .**

وعندما فرّق السلطان النغمة في سنة ٩١٩ هـ بدأ أولا بالخليفة العباسي المتوكل
على الله ، فأرسل اليه ألف دينار ، (٤)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٤/٢٠٠ ، ٢٨٤ .

(٢) المصدر السابق ٤/٢٨٧ ، ٥/٢٣٠ .

(٣) ، ، ٤/٢٩٢ .

(٤) ، ، ٤/٣٢٢ .

ولما مرض السلطان قانصوه الغورى وتزايد به المرض طلع الخليفة العباسي المتوكل على الله الى القلعة فسلم على السلطان ، وشارك الخليفة أهل القاهرة أفراحهم بشفاء السلطان قانصوه ، وزيّن الخليفة باب داره سرورا بشفاء السلطان . (١)

وبالغ السلطان في اكرام الخليفة العباسي المتوكل على الله في كل مرة يطلع فيها الخليفة للسلام على السلطان ، ومن مظاهر ذلك التكريم والاحترام ، أنه طلع أبو بكر وأخوه أحمد ابنا خليل ابن عم الخليفة المتوكل على الله ، ورافعوه عند السلطان بسبب المرتب الذى كان لوالدهم خليل ، فلما مات قرّر الخليفة ذلك الراتب لولده هــارون ، وحاولا ايقاع الفتنة بين الخليفة والسلطان ، ولم ينجحا في ذلك ، لأن السلطان قانصوه وقف في صف الخليفة المتوكل على الله ، وأجازه فيما فعل ، وطرد ابنا خليل ، وتوعدهما بالأذى ان رجعا يشكوان الخليفة وقال لهما : " كونوا كلكم تحت طاعة ابن عم أبيكم فنصر السلطان الخليفة المتوكل على الله ، ورجع الى داره وهو في غاية العز والعظمة " . (٢)

وكان الخليفة العباسي المتوكل على الله يخرج لاستقبال السلطان الأشرف قانصوه الغورى عند عودته من أسفاره الى الديار المصرية ، ويركب الخليفة في صحبة السلطان (٣) حتى يدخلا القاهرة ، ويملا الى القلعة السلطانية ، ومن الأمثلة على ذلك استقبال الخليفة للسلطان قانصوه عند عودته للقاهرة في سنة ٩٢٠ هـ وسنة ٩٢١ هـ . وفي سنة ٩٢٢ هـ وعند ما بدأت تحركات السلطان سليم العثماني في أطراف مملكة السلطان قانصوه أرسل الى الخليفة يقول له : " اعمل يرقك الى السفر ، فانه لا بد من سفر السلطان

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣١٤/٤ ، ٣٣٤ .

(٢) المصدر السابق ٣٦٤/٤ .

(٣) " " ٤١٧/٤ - ٤١٨ ، ٤٧٦ ، ٢١/٥ .

الى حلب ، وأنه ينفق ويخرج في شهر واحد ، فتتكذ الخليفة لهذا الخبير " (١) ، ولم يعرف سبب تنكذ الخليفة المتوكل على الله هل هو بسبب اعتداء السلطان سليم على دولة الخلافة ، أو بسبب عدم رغبته في السفر مع السلطان قانصوه ، أو بسبب عجزه المادي عن الاستعداد للسفر ؟

ثم بعد ثلاثة أيام أرسل السلطان الى الخليفة المتوكل على الله من يعمل لسه يرقه للسفر في محبته ، " وكانوا قد كشفوا في الدفاتر القديمة فوجدوا أن الخليفة اذا سافر محبة السلطان يكون جميع عمل يرقه على السلطان ، فكتب قوائم بمصروف عمل اليرق ، فكان ذلك بنحو عشرة آلاف دينار ، وأخذت تلك القوائم لعرضها على السلطان قانصوه " (٢) .

ومن خلال ذلك التنظيم المتبع لدى السلاطين ، يظهر اهتمامهم باحترام الخليفة العباسي وكرامته عند خروجه معهم في الحملات العسكرية ، وتحمل السلطان المملوكي تكاليف سفر الخليفة معه ، وتأمين ما يحتاجه الخليفة من مصروف خلال مدة سفره .

على أن ما سينفقه السلطان من الأموال سيكون له مردود ايجابي على استقرار ملكه ، فان خروج الخليفة العباسي في محبته سيرفع من معنويات العاكر السلطانية وهي تقاتل أعداءها ، والخليفة بين أشهرهم ، ويزيد من ولائهم للسلطان المملوكي بعد وقوف الخليفة العباسي بجانبه ، و سيكون لخروج الخليفة مع السلطان الأثر السلي مخالفيه لانهم سيجدون انفسهم يقفون أمام الخليفة العباسي الذي يكون له التقدير والاحترام ، ولا يستطيع أحد منهم رفع سلاحه في وجه الخليفة لقرابته من بيت النبوة .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٣/٤ ، والحراد باليرق ما يتجهز به المسافر عند سفره .

(٢) المصدر السابق ٢٣/٤ .

وفي غمرة استعدادات السلطان قانصوه الغوري للسفر الى حلب ، وانشغاله بتوزيع النفقة على الأمراء المماليك والعاكر السلطانية ، تأخر وصول النفقة المقررة للخليفة ، وهو ينتظرها ، فحمل للخليفة غاية المشقة من ذلك الموقـــــــف ، وبعـد طـول انتظـار أرسل السلطان الى الخليفة نفقة السفر بسعي من الأمير طومان باي ، وكان مجموع ما حصل للخليفة من السلطان دون الألفي دينار ، بينما تكلف الخليفة المتوكل على الله فوق خمسة آلاف دينار . (١)

وبعد قرابة ثلاثة أشهر من الاستعداد والتجهز خرج الخليفة العباسي المتوكل على الله في موكب عظيم في صحبة السلطان قانصوه الغوري .
وعندما وصل الخليفة العباسي الى حلب حضرت اليه رسل السلطان سليم العثماني ، وأحضروا معهم هدايا حافلة للخليفة العباسي . (٢)

وقد تكون هذه الهدايا محاولة من ابن عثمان لكسب ود الخليفة المتوكل على الله ، ولاستمالة الخليفة الى صفه واقناعه بالتخلي عن القتال في صف السلطان قانصوه الغوري مما يرجح كفة السلطان سليم عسكريا .

وفي مدة اقامة السلطان قانصوه الغوري في حلب كان الخليفة العباسي المتوكل على الله يصلي بالسلطان ، وأنعم قانصوه عليه في أحد الأيام بأربعمائة دينار ، ومائتة رأس من الغنم . (٣)

وكان الخليفة المتوكل على الله منذ وصوله حلب يبعث الى والده يعقوب بالديار المصرية كتباً يبين له فيها الاستعدادات العسكرية لقتال ابن عثمان ، وكانت

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٠/٥ ، ٣٣ .
(٢) المصدر السابق ٦١/٥ .
(٣) “ “ ٦٣/٥ .

تلك الكتب من الوثائق التاريخية التي اعتمد عليها ابن اياس في كتابه بدائع الزهور^(١) ،
وأرخ من خلالها للقتال بين السلطان قانموه الغوري والسلطان سليم العثماني بشهادة
الخليفة العباسي المتوكل على الله .

ولما انتهت تلك المواجهة العسكرية بين المماليك والعثمانيين بهزيمة
الأشرف قانموه الغوري ، ومُلِك ابن عثمان لحلب توجه اليه الخليفة المتوكل على الله ،
فلما دخل عليه قام اليه ابن عثمان وعظمه وأجله وأجلسه بين يديه ، فلما أراد الانصراف
من عنده أخلع عليه وأنعم عليه بمال ، ووكل به حتى لا يهرب من حلب ، وظل الخليفة
في حلب لا يخرج منها الا باذن من السلطان سليم ، ولم يمكنه من العودة الى مصر ،
وبقي أسيرا بحلب . (٢)

وعندما وصلت في شعبان سنة ٩٢٢ هـ أخبار هزيمة السلطان الغوري الى الديار
المصرية وتحقق موته ، توقف الخطباء من الدعاء باسمه على المنابر ، ودعوا باسم الخليفة
المتوكل على الله فقط لمدة خمسين يوما ولم يذكروا اسم سلطان ، ومما قاله بعض الخطباء :
" اللهم وَلِّ علينا خيارنا ، ولا تَوَلِّ علينا شرارنا " .

واستمرت الديار المصرية والبلاد الشامية مدة طويلة بغير سلطان . (٣)

الخليفة المتوكل على الله والسلطان طومان باي (٩٢٢ – ٩٢٣ هـ) :

لم يستعجل الأمير طومان باي في الوثوب على السلطنة بعد وصول أخبار مقتل
السلطان قانموه الغوري ، وتروى في الأمر ، وولي السلطنة بعد اختيار الأمراء المماليك له

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٦٤/٥ .

(٢) المصدر السابق ٧٤/٥ ، ٧٧ ، ٨٨ .

(٣) ٨١/٥ ، ١٠٥ .

لذلك المنصب ، ونظرا لغياب الخليفة المتوكل على الله وبقائه في أسر السلطان سليم ، أرسل طومان باي خلف والده يعقوب المستمسك بالله ، فحضر يعقوب ومعه هارون ابن المتوكل على الله ، فلما تكامل المجلس أظهر يعقوب وكالة مطلقة عن ولده محمد المتوكل على الله بأنه وكله في جميع أموره ، سواء ما يتعلق بالخلافة أو غيرها ، وأثبت القاضي صحة تلك الوكالة ، واكتفى بها من حضر ذلك المجلس ، ثم بايع المستمسك بالله يعقوب السلطان طومان باي نيابة عن ولده محمد المتوكل على الله .

وكان لذلك التصرف من محمد المتوكل على الله بتوكيله والده يعقوب في غيابه الأثر الطيب في ظل تلك الظروف العصيبة التي تمر بها الخلافة العباسية وسلطنة المماليك ، لأنه من المحتمل عدم رجوع الخليفة المتوكل على الله من البلاد الشامية سالما وأن يصاب السلطان الغوري ، وساعدت تلك الوكالة على اجتماع الكلمة واختيار سلطان جديد بعد مقتل قانصوه الغوري وازفاء الشرعية على ملك السلطان الجديد بمبايعة والد المتوكل على الله له بالسلطنة ، ثم أن تلك الوكالة حفظت الحق الشرعي للخليفة المتوكل على الله في الخلافة في مدة غيابه عن الديار المصرية ، فقد أشيع تولية الخلافة الى أحد أبناء خليل بسبب أن يعقوب سبق له أن تنازل عن الخلافة لابن المتوكل على الله محمد .

وبعد مبايعة السلطان طومان باي بالسلطنة عزم على صد السلطان سليم العثماني عن دخول الديار المصرية بعد أن وقعت البلاد الشامية بيده ، ولكن محاولات طومان باي باءت بالفشل وانتهت بهزيمته أمام الجيوش العثمانية سنة ٩٢٢ هـ ، ثم اختفائه عن الأنظار حتى قبض عليه وحمل للسلطان سليم الذي أحسن اليه وأكرمه ، ثم بعد مدة أمر بقتله بتحريض من بعض الأمراء المماليك الذي خافوا على أنفسهم

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٠٥/٥ ، الجزيري : الدرر الفرائد ٧٩٨/٢ .

مع بقاء الأمير طومان باي حراً طليقاً ، فزيناوا للسلطان سليم قتل طومان باي
فقتله .

أما الخليفة العباسي المتوكل على الله فقد قدم الى الديار المصرية ، فلما
دخل القاهرة ، " أمر بالنداء في الناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، وأن
لا يعتدي أحد على أحد من الرعية ، وقد غلق باب الظلم ، وفتح باب العدل ، وأمر
بالدعاء للسلطان المظفر سليم بالنصر ، ففج الناس له بالدعاء " . (١)

وفي محرم سنة ٩٢٣ هـ سار الخليفة العباسي المتوكل على الله أمام السلطان سليم
أثناء دخولهما القاهرة ، وكان للخليفة المتوكل على الله أثر في التخفيف من حدة غضب
السلطان العثماني على أهل مصر ، وتقليل ضرره عليهم ، وذلك أن السلطان كان يسرد
في مجالسه قبل دخوله الديار المصرية قوله : " اذا دخلت مصر أحرق بيوتها قاطبة ،
وأعمل في أهلها السيف ، فتلطف به الخليفة المتوكل على الله حتى أرجعه عن ذلك " . (٢)

وأصبح الخليفة العباسي المتوكل على الله بعد عودته الى الديار المصرية
هو " صاحب الحل والعقد ، والأمر والنهي ، ومات أولاد السلاطين جالسة في بيته
ومعهم أبناء الأمراء وأعيان الناس ، وكانت رسائله لا ترد عند وزراء ابن عثمان ،

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٤٧/٥ .

(٢) المصدر السابق ١٥١/٥ .

وشفاعته لا ترد ، وصار في مقام سلطان مصر في نفاذ الكلمة ، وازهار العظيمة ،
ودخل عليه من الناس أموال عظيمة ، مما لم يفرح به آباؤه ولا أجداده " . (١)

وفي ربيع الثاني سنة ٩٢٣ هـ أرسل السلطان سليم العثماني يقول لأمير المؤمنين
الخليفة المتوكل على الله : " استعد حتى تسافر الى اسطنبول (٢) ، فلما تحقق الخليفة
من ذلك اضطربت أحواله ، ثم قيل له : تسافر أنت وأولاد عمك خليل ، وصهرك محمد
ابن خاص ، فلما بلغهم ذلك تنكدوا جميعا " . (٣)

ولم يذكر سبب حرص السلطان العثماني على اصطحابه للخليفة العباسي عند
رجوعه الى بلاده ، ولكن - والله أعلم - يمكن أن يفسر ذلك بأن السلطان سليم خاف
على ملكه من بقاء الخليفة العباسي بالديار المصرية ، فلا يستبعد أن يطمع في ملك
الديار المصرية طامع ، سواء من أفراد البيت العباسي ، أو من أبناء السلاطين المماليك
الذين قضى السلطان العثماني على دولتهم .

ويؤكد هذا أن السلطان اصطحب معه الخليفة العباسي وأبناء عمه ، " وترك والده
يعقوب بالقاهرة ولم يأخذه لكبر سنه " (٤) ، وذلك في محاولة من السلطان العثماني

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٥٨/٥ ، خالد زيادة : من المماليك العثمانيين

- مجلة الاجتهاد - العدد الرابع سنة ١٩٨٩ م ص ١٦٧ .

(٢) اسم لمدينة القسطنطينية ، وهي دار الروم ، عمرها ملك من ملوك الروم يقال له
قسطنطين ، فسميت باسمه .

(الحموي : معجم البلدان ٢١٢/١ ، ٣٤٧/٤) .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ١٨٣/٥ .

(٤) المصدر السابق ١٤٧/٥ ، النهرواني : الاعلام ببیت الله الحرام ٨٦ .

لكسب تأييد المسلمين حول مملكته التي آوت آخر الخلفاء العباسيين .

ثم خرج أمير المؤمنين المتوكل على الله قاصداً السفر إلى اسطنبول فسـ

جمادى الأولى سنة ٩٢٣ هـ ، وخرج في صحبته أولاد ابن عمه خليل أبو بكر وأحمد ،

وغيرهم من الأعيان ، فحمل للناس على فقد أمير المؤمنين من مصر غاية الأسف : وقالوا :

« انقطعت الخلافة من مصر وصارت باسطنبول » . (١)

ومكث الخليفة المتوكل على الله في اسطنبول مدة ، ثم أطلقه السلطان سليم

العثماني قبل وفاته ، فعاد الخليفة إلى مصر ، وأجرى عليه في كل يوم ٦٠ درهماً ،

فأقام إلى أن توفي سنة ٩٥٥ هـ . (٢)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٨٥/٥ .

(٢) الحنبلي : نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين ق ١٨ .

الزركلي : الأعلام ١٤٧/٧ ، ١٩/٨ - ٢٠ .

ويعتد استعراض أحداث الخلافة العباسية في مصر يمكن اجمال أبرز مظاهر

العلاقة بين الخلفاء العباسيين والسلاطين المماليك فيما يلي :

١ - في حين استأثر السلاطين المماليك بالملك والسلطنة والنفوذ على الدولة ، نجد

أن الخلفاء لم يكن لهم من الخلافة الا الاسم ، وليس لهم من أمر الدولة شيء ،

وانفرد السلطان المملوكي بلقب " سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية

والأقطار الحجازية " (١) ، وأما حال الخلفاء مع أولئك الملوك والسلاطين فكان

كحال أسلافهم ببغداد مع المتغلبين على الخلافة في الاقتناع من الخلافة

بالرسم ، والدعاء على المنابر ، ولا نفوذ ولا كلمة ، ولا أمر ، ولا نهى ، وانما هو

بمنزلة واحد من أعيان الدولة (٢) ، وغاية الأمر أنهم كانوا يأتون بالخليفة

للسلطان الذي يريد ون توليته السلطنة فيبايعه ويقول له : وليتك السلطنة " (٣)

٢ - يحق للسلطان المملوكي تولية وعزل من شاء ومتى شاء ، وكيف شاء ، ويسرى

ذلك الحق حتى على الخلفاء العباسيين ، أما الخليفة العباسي فلا يحق له تولية

أو عزل أحد حتى يأمره السلطان المملوكي بذلك .

٣ - ينتهي دور الخليفة العباسي بعد مبايعته للسلطان بالسلطنة ، لاضفاء الصفة

الشرعية على ملك ذلك السلطان ، ثم لا يبحث عنه السلطان الا عند اقدمه

على أمر هام (٤) ، أو عند قيامه بعمل يحتاج للمشورة ، فيحضر الخليفة

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/١٦٨ ، المقرئى : السلوك ٣/٩١٥ .

(٢) " : المنهل الصافي ١/٢٩١ ، الحمصي : منتخبات التواريخ لدمشق

١٨٤/١ ، النهرواني : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ٨٥ .

(٣) الحنبلي : نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين ق ١٩ .

حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ١٠٢ .

(٤) محمد كرد علي : خطط الشام ٢/١٥٤ .

والقضاة الأربعة ذلك المجلس الذي يعقد ه السلطان ، وينفض المجلس من غير

سؤال الخليفة عن رأيه ، فالرأى الأول والأخير للسلطان المملوكي .

٤ - حرص السلاطين المماليك على اصطحاب الخلفاء العباسيين معهم عند خروجهم

في حملات عسكرية خارج الديار المصرية ، وذلك حتى لا يستغل بقاء الخليفة

العباسي خلف السلطان من يطمع في السلطنة من الأمراء المماليك ، ونجسد أن

السلاطين خلعوا من السلطنة وهم في مقر ملكهم فكيف اذا سافروا وبقي الخليفة

بالديار المصرية ، وأصبح معلوما لدى الطامعين في السلطنة أن حملتهم على

مبايعة الخليفة لهم أهم خطوة يجب اتخاذها عند الرغبة في الوصول الى كرسي

السلطنة .

٥ - المصلحة المتبادلة بين الخليفة العباسي والسلطان المملوكي وثقت العلاقة

بين الخلافة والسلطنة نوعا ما ، فالسلطان المملوكي بايع أول الخلفاء العباسيين

بالخلافة ، ثم فوض ذلك الخليفة تدبير أمور العباد والبلاد للسلطان المملوكي ،

وأصبح ذلك التفويض عادة متبعة فيمن ولي الخلافة من الخلفاء والسلطنة من

السلاطين ، ويقوم الخليفة بمبايعة من اختاره الأمراء المماليك للسلطنة ،

ويقوم السلطان بمبايعة الخليفة بالخلافة بناء على عهد ممن سبقه أو اختيار

من السلطان .

٦ - وجد بعض الخلفاء العباسيين المناسفة على منح الخلافة من بعض أبناء

الأسرة العباسية بالديار المصرية الذين طمعوا في الخلافة ، وسعوا لنيلها

بجاههم ومالهم . ولكن تلك المحاولات لم يكتب لها النجاح .

٧ - عاش أغلب الخلفاء العباسيين في وضع مادي لا يتناسب مع إيرادات الدولة

المالية ، فكانوا أبدا في نيش غير موسع ، وتحسنت أحوال فئة قليلة منهم

لاحسان السلاطين اليهم وتفقد هم لأحوالهم ، والزيادة في نفقاتهم ، وفي
المقابل نجد السلاطين والأمراء المماليك يعيشون في اسراف وترف وبسوخ ،
يشهد بذلك القصور التي بنوها ، والموائد التي أقاموها ، والاحتفالات التي
أحيوها .

٨ — استعان السلاطين المماليك في العصور المتأخرة من الخلافة العباسية
بالخلفاء العباسيين ليحضروا الأيمان والعهود والمواثيق التي تؤخذ على
كبار الأمراء والنواب بالطاعة للسلطان والوفاء له وعدم خيانتة أو الغدر به
ومع ذلك فان أولئك الأمراء لا يقيمون لتلك الأيمان وزنا ، وما أكثر
ما نقضوها وخالفوها .

تابع : " بيان بالخلفاء و السلاطين بالديار المصرية "

الرقم	الاسم	اللقب	مدة الخلافة	السلاطين المماليك	ملاحظة
٣	سليمان بن أحمد بن الحسن	المستكفي بالله	(٧٠١ - ٧٣٦ هـ)	أ - الناصر محمد بن قلاوون . ب - المظفر بـ الجاشنكير . ج - الناصر محمد بن قلاوون .	الأول الثالثة
٤	ابراهيم بن محمد بن أحمد ابن الحسن	الواثق بالله	(٧٣٦ - ٧٤٢ هـ)	أ - الناصر محمد بن قلاوون ب - المنصور أبي بكر بن الناصر محمد بن قلاوون	الأول
٥	أحمد بن سليمان بن أحمد ابن الحسن .	الحاكم بأمر الله	(٧٤٢ - ٧٥٣ هـ)	أ - المنصور أبي بكر بن الناصر محمد بن قلاوون ب - الأشرف كجك بن الناصر محمد . ج - الناصر أحمد بن الناصر محمد . د - الصالح اسماعيل بن الناصر محمد . هـ - الكامل شعبان بن الناصر محمد . و - المظفر حاجي بن الناصر محمد . ز - الناصر حسن بن الناصر محمد	الثاني الأولى

تابع " بيان بالخلفاء و السلاطين بالديار المصرية "

الرقم	الاسم	اللقب	مدة الخلافة	السلاطين المماليك	ملاحظة
			ج -	العالج صالح بن الناصر محمد	
٦	أبو بكر بن سليمان بن أحمد .	المعتضد بالله	(٧٥٣ - ٧٦٣ هـ) أ -	الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون .	الأول الثانية
			ب -	المنصور محمد بن المظفر حاجي بن الناصر محمد .	
٧	محمد بن أبي بكر بن سليمان	المتوكل على الله	(٧٦٣ - ٧٨٥ هـ) أ -	الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر .	الأول
			ب -	المنصور علي بن شعبان ابن حسن .	
			ج -	العالج حاجي بن شعبان بن حسن .	الأولى
			د -	الظاهر برقوق العثماني	
٨	عمر بن ابراهيم بن محمد ابن أحمد .	الواثق بالله	(٧٨٥ - ٧٨٨ هـ) أ -	الظاهر برقوق العثماني	
٩	زكريا بن ابراهيم بن محمد	المتعمم بالله	(٧٨٨ - ٧٩١ هـ) أ -	الظاهر برقوق العثماني .	
			ب -	العالج حاجي بن شعبان بن حسن .	الثانية
١٠	محمد بن أبي بكر بن سليمان .	المتوكل على الله	(٧٩١ - ٨٠٨ هـ) أ -	العالج حاجي بن شعبان ابن حسن .	الثانية الثالثة

تابع " بيان بالخلفاء والسلاطين بالديار المصرية "

الرقم	الاسم	اللقب	مدة الخلافة	السلاطين المماليك	ملاحظة
				الظاهر برقوق العثماني الناصر فرج بن برقوق المنصور عبد العزيز بن برقوق • الناصر فرج بن برقوق •	الثانية الأولى الثانية
١١	العباس بن محمد بن أبي بكر •	المستعين بالله	(٨٠٨ - ٨١٥ هـ)	الناصر فرج بن برقوق المؤيد شيخ محمودى	
١٢	داود بن محمد بن أبي بكر	المعتضد بالله	(٨١٥ - ٨٤٥ هـ)	المؤيد شيخ محمودى المظفر أحمد بن شيخ المحمودى الظاهر ططر الظاهرى المالح محمد بن ططر الظاهرى الأشرف برسباى الدقماقي العزیز يوسف بن برسباى الظاهر محمد جقمق العلائي •	الثاني
١٣	سليمان بن محمد بن أبي بكر •	المستكفي بالله	(٨٤٥ - ٨٥٤ هـ)	الظاهر محمد جقمق العلائي	الثاني

تابع " بيان بالخلفاء والسلاطين بالديار المصرية "

الرقم	الإسم	اللقب	مدة الخلافة	السلاطين المماليك	ملاحظة
١٤	حمزة بن محمد بن أبي بكر	القائم بأمر الله	(٨٥٤ - ٨٥٩ هـ)	أ - الظاهر محمد جقمق العلائي ب - المنصور عثمان بن محمد جقمق . ج - الأشرف اينال العلاي	
١٥	يوسف بن محمد بن أبي بكر .	المستنجد بالله	(٨٥٩ - ٨٨٤ هـ)	أ - الأشرف اينال العلاي ب - المؤيد أحمد بن اينال العلاي . ج - الظاهر خثعم الناصرى د - الظاهر يلباي المؤيدى هـ - الظاهر تدر بن الظاهرى و - الأشرف قايتباي المحمودى	
١٦	عبد العزيز بن يعقوب ابن محمد .	المتوكل على الله	(٨٨٤ - ٩٠٣ هـ)	أ - الأشرف قايتباي المحمودى . ب - الناصر محمد بن قايتباي المحمودى	الثاني
١٧	يعقوب بن عبد العزيز ابن يعقوب .	المستمك بالله	(٩٠٣ - ٩١٤ هـ)	أ - الناصر محمد بن قايتباي المحمودى .	

تابع " بيان بالخلفاء والسلاطين بالديار المصرية "

الرقم	الاسم	اللقب	مدة الخلافة	السلاطين المعاليك	ملاحظة
				ب - الظاهر قانصوه الأشرفي • ج - الأشرف جان بلاط • د - العادل طومان باي الأشرفي هـ - الأشرف قانصوه الغوري	
١٨	محمد بن يعقوب بن	المتوكل على الله	(٩١٤ - ٩٢٣ هـ)	أ - الأشرف قانصوه الغوري • ب - الأشرف طوماي باي الناصري •	الثالث

الفصل الثاني

مظاهر الحياة العامة

في

عصر الخلافة العباسية

المبحث الأول

الحياة الدينية

ختم الله عزّ وجلّ بالاسلام الأديان السماوية ، وختم الأنبياء ببعثة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يقبل غير الاسلام دينا ، فقال عزّ وجلّ في كتابه الكريم : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) . (الآية ٨٥ من سورة آل عمران)

وأمر سبحانه وتعالى باتباع ما أمر به خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم واجتناب ما نهى عنه ، فقال عزّ من قائل : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) (الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة آل عمران)

وترك النبي صلى الله عليه وسلم أمته على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها الا هالك ، وأمر عليه الصلاة والسلام أمته باتباع سنته فقال صلى الله عليه وسلم : " ... أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وان تأمّر عليكم عبد حبشي ، فانه من يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة . " (١)

وكان الصحابة رضي الله عنهم أشد الناس حرصا على اتباع وصية النبي صلى الله عليه وسلم ، وأشد الناس حرصا على العمل بالكتاب والسنة ، يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه مؤكدا هذا المعنى : " أشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ،

(١) نص الحديث : ... عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة) . البخارى : الصحيح ١٠٥/٨ ، كتاب الأحكام .

والحدث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين " . وقال عند ما بُويِعَ بالخلافة بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى : " أيها الناس . اني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتُموني على حق فأعينوني ، وان رأيتُموني على باطل فسدوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . . . " (١) .

وعندما رأى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه جماعة يسبحون ويحمدون ويكبرون جماعة ، قال لهم : " لقد جئتم ببدعة ظلما ، أو فقتم محمدا وأصحابه علما ؟ " وقال رضي الله عنه لأصحابه : " اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم " .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما لمن سأله الوصية : " عليك بتقوى الله والاستقامة ، اتبع ولا تبتدع " .

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : " كل عبادة لا يتعبد بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدوها ، فان الأول لم يدع للآخر مقارنًا .

وبعد انقضاء عصر الصحابة سار التابعون لهم على منهجهم في اتباع كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومما يؤكد حرصهم على ذلك : قال عمر بن عبد العزيز في وصيته : " أوصيكم بتقوى الله ، والاقتماد في أمره ، واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم " .

ومما نقل عن علماء الأمة من السلف الصالح في التأكيد على الاعتماد بأمر الله عز وجل وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم : روى عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى قوله : " عليك بالأثر ، وطريقة السلف ، واياك وكل محدثة فانها بدعة " .

وقال مالك رحمه الله : " من ابتدع في الاسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا خان الرسالة ، لأن الله يقول : (. . . الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

(١) محمد الشقيري : السنن والمبتدعات ٤ .

وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ۝ (الآية ٠) (الآيه ٢ من سورة العائدة)

فما لم يكن يومئذ دينا لا يكون اليوم دينا " .

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : " من استحسَن فقد شرع " .

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : " أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاقتراء بهم ، وترك البدع ، فكل بدعة فلالة " . (١)

وعلى هذا المنهج القويم سار السلف المالح من علماء الأمة ، الذين اجتهدوا

في الاعتماد بحبل الله المتين ، ونشر أحكام الدين الحنيف ، وحث الأمة على تعلم العلم

الشرعي وفق هدى الكتاب العزيز والسنة الشريفة ، إلا أن ذلك الاعتماد بالدين - في

فترة هذا البحث - لم تعد كما كانت عليه من قبل ، فقد اعترى الأمة الإسلامية ما اعتراها

من التغيير والتبديل ، وحادث طوائف من أبنائها عن الطريق القويم ، وفيما يتعلق بفترة

البحث فيمكن الإشارة الى بعض المخالفات الدينية والظواهر التي انتشرت في ذلك العصر ،

وهي تعطي فكرة واضحة عن الناحية الدينية في ظل الخلافة العباسية في مصر في عصر

السلطين المماليك ، ومن أهمها :

١ - ضعف الايمان :

من مظاهر ضعف الايمان الاستهانة بحرمة الأنفس والأعراض والأموال ، ولم يكن

ذلك محصورا في طائفة ، بل شمل حتى السلاطين والأمراء المماليك ، وطوائف من الرعيية ،

ويظهر ضعف الايمان من خلال تعامل هؤلاء السلاطين فيما بينهم من جهة ، وتعاملهم مع

رعييتهم من جهة ثانية ، حيث غلب على ذلك غلاظة وقسوة قلوبهم ، وحرصهم على

الانتمار للنفس ، وأخذت العصبية الممقوتة تفعل فعلها في توجيه العلاقة بين السلاطين

وكبار الأمراء ورجال الدولة والرعية .

(١) محمد الشقيري : السنن والمبتدعات ٦ .

ومن الأمثلة على ضعف الإيمان والجسـهـل بالعقيدة الإسلامية لدى بعض السلاطين
 المماليك : عندما انتشر وباء الطاعون سنة ٨٢٥ هـ في سلطنة الأشرف برسباى جاءه رجل
 فقال له : انهم اذا وقع الطاعون في بلادهم يجمعون من الأشراف والسادة عدد أربعين
 ممن اسمه محمدا ، بشرط أن يكونوا شرفاء من الأب والأم ، فيدعوا الله تعالى يوم الجمعة
 بعد العصر على سطح الجامع ، فأمر السلطان الأشرف برسباى أن يفعلوا ذلك ، وبعد أن
 جمعوا من الأشراف أربعين توجهوا الى الجامع الأزهر ، ودعوا الى الله برفع الطاعون ،
 فلما فعلوا ذلك تزايد أمر الطاعون جدا وكثر الموت . (١)

ونجد السلطان هنا يعلق أمره في رفع ذلك الوباء بأولئك الأشراف ويعتمد
 عليه في رفع ذلك الضر الذي نزل بالأمّة ، ولم يخلص في لجوئه لله عزّ وجلّ ويتوكل عليه
 فوكله الله الى أولئك السادة أو الأشراف الذين لا يملكون جلب نفع أو دفع ضر عن أنفسهم
 فضلا عن غيرهم من الخلق .

ونجد السلطان قايتباى يلجأ الى غير الله عزّ وجلّ عند الشدة ويطلب منه
 العون والمساعدة ، فعندما أرسل جيشه لقتال ابن عثمان توجه الى أحد الأولياء يطلب منه
 مساعدة جنده ويقول له : " يا سيدى ، حملتي مع ابن عثمان ... " . (٢)

أما السلطان قانصوه الغورى فانه عندما انتشر وباء الطاعون في عصره ، أشار عليه
 أحد الحكماء بأن يلبس في أصابعه خواتم من ياقوت أحمر فانه يمنع الطاعون ، فاتخذ
 السلطان خاتمين وصار يلبسهما دائما . (٣)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٣٥/٢ .

(٢) " : " : " ٢٥٩/٣ .

(٣) " : " : " ٢٩٧/٤ .

وعندما تأخر نزول المطر ، وتناقص ماء نهر النيل اضطرب السلطان خشقداً م
 وبعث خلف الشيخ أمين الدين الأقصراى يستفتيه في أمر النيل ، فأشار عليه الشيخ بقوله :
 تجمع بني العباس من كبير وصغير فيضعون في أفواههم شيء من الماء ثم يمجّونسه (١)
 في اناء و يصبونه في النيل ، فأمر السلطان بتنفيذ ما أشار به ذلك الشيخ . . . (٢)
 ولما كثر عميان الأمراء المماليك و غد رهم بالسلاطين عمد كثير منهم السى
 تحليف أولئك الأمراء وأخذ العهود والمواثيق منهم بالسمع والطاعة لهم ، فكانوا يحلفونهم
 بالله عزّ وجلّ ، وأوثق لعرى العهود التي تؤخذ عليهم (٣) ، يضاف الى ذلك تعود كثير
 من السلاطين على الحلف بغير الله عزّ وجلّ مما يعظّم في نفوسهم ، حتى بلغ الأمر ببعضهم
 بالحلف بحياته . (٤)

٢- التطير والتشاؤم :

فمن ذلك التطير من موافقة عيد الفطر أو الأضحى ليوم الجمعة ، ففي التاسع
 والعشرين من شهر رمضان أمر السلطان بالاعلان عن العيد في اليوم التالي سواء رأوا الهلال
 أو لم يروه ، فلما أشيع ذلك بين الناس طلع القاضي الشافعي زين الدين زكريا الى القلعة ،
 واجتمع بالسلطان وعرفه أن العيد لا يكون إلا اذا رؤى الهلال ، فشق ذلك على السلطان ،

(١) يمح : من محّ أى رمى به ، والمراد اخراج الماء من الفم بعد تحريكه داخله .

(٢) (الرازى : مختار الصحاح ٢٢٨) .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٩٥/٢ .

(٤) المصدر السابق ٤٤٥/٣ .

(٤) ، ، ، ٣٤٥/٤ ، ٢٨٤ ، ٣٤٨ .

وهم بعزل ذلك القاضي في ذلك اليوم ، فلما دخل الليل لم ير الهلال في تلك الليلة ، وجاء العيد بالجمعة ، وكان السلطان تطير من العيد في مجيئه يوم الجمعة فكان ذلك على رغم أنفسه ... (١)

ويظهر من خلال هذه الحادثة تلك الشجاعة من القاضي زين الدين السدي نصح السلطان وبيّن له بماذا يعرف حلول العيد ، وأجبر السلطان على التراجع عمّا عزم عليه ، وأنقذه من تحمل انقاص شهر رمضان المبارك يوماً واحداً .

٣ - ومن مظاهر ضعف الإيمان تقريب السلاطين للمنجمين وعلماء الفلك ،

وتصد يقهم فيما يخبرونهم من أخبار تعد من الغيب الذي لا يعلمه الا الله عز وجل وحده يضاف الى ذلك أن ما يخبر به هؤلاء المنجمون لا يقع ، ومع ذلك فُتِنَ بهم السلاطين المماليك ورجال الدولة والأعيان والعامّة الآ من رحم الله ، ومن الأمثلة على ذلك : اشتد حرص الكثير من المماليك على الوصول الى السلطنة ، وكان المنجمون يرددون لكثير من الأمراء بأنه سوف يلي السلطنة ولو بعد حين ، فيجتهد ذلك الأمير في استخدام جميع الوسائل للوصول الى تلك السلطنة بعد أن مناه ذلك المنجم بتلك المقولة التي سعى للتكسب المالي من خلالها ، وقد أودى بعض الأمراء بأنفسهم الى التهلكة بسبب تصد يقهم لأولئك المنجمين . (٢)

ومن مظاهر تصديق المنجمين أن بعض السلاطين يتردد في الخروج لسفـر أو قتال استناداً الى رأى أحد المنجمين الذي يختار الوقت المناسب في الطوالع لسفـر السلطان أو قتال عدو له . (٣)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣/٣٦٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٠/٤ .

(٢) المصدر السابق ٢/١٦٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٣/١٣٦ ، ١٤/١٢٠ ، ١٦/٣٣٠ .

وكمما ردد المنجمون الوعود لبعض الأمراء بولاية السلطنة ، كانوا يخبرون بموعد انقضاء ملك بعض السلاطين ، فمن ذلك أنه أعلن المنجمون بأنه في سنة ٨٤٨ هـ يكون انقضاء مدة الملك الظاهر جقمق ، لأنهم سبق أن أجمعوا أنه لا يقيم في الملك أكثر من سبع سنين . فلم يصدقوا في ذلك

وممن ذلك وفاة الأمير تنم المؤيدى قبل أن يلي السلطنة ، فقد سبق أن أعلن أحد المشهورين بعلم النجوم وأرباب التقويم أن تنم سيلي السلطنة بعد خروجه من السجن فلم يقع ما أخبر به . . .

ويعلق ابن تغرى بردى على انتشار أولئك المنجمين وتصديق الناس لهم بقوله عنهم : " وهؤلاء كذبة وكل ما يقولونه كذب وبهتان واختلاق ، للنصب على أموال الناس " ، ويخيف الى ذلك : " أنه لا يتعجب من كذبهم وجهلهم ، وإنما يتعجب من تصديق الناس لهم ، وما يدعونه من علم الغيب وقراءة الطالع ونحوه " (١) .

وفي أحلك الظروف التي مرت بها الخلافة وقبل ملاقاته السلطان قانصوه الغورى للسلطان سليم العثماني ، نجد السلطان الغورى عند ما خرج لملاقاة ابن عثمان يمطحب معه رمًا لا حاذقا ، وكان يقول له من حين الى حين : انظر الى من يلي الحكم بعدى ؟ فيقول : حرف السين ، فكان السلطان يعتقد أن المقمود هو الأمير سيباي فتخوف منه وأخذ يظن به الظنون ، فلا يقبل منه نصيحة ولا رأى . (٢) .

وحصل مثل ذلك مع الأمير طومان باى ، فبعد أن ولي السلطنة قرب المنجمين وعدتهم فيما يقولونه ، ولخوفه على فقد منصبه قالوا له : ما يأخذ الملك منك إلا حرف

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٢٢/١٦ ، ٣٤٩ .

(٢) ابن زنبيل : آخرة المماليك ١٥ .

القاف ، فظن أن المقصود هو الأمير قصره ، فما زال به حتى قتله (١) ، ولما انتشر فساد هؤلاء المنجمين قال فيهم الشيخ عبد الباسط الحنفي يرد ما يدّعون من تأثير النجوم على أهل الأرض عند اقتران زحل مع المريخ في برج الحوت :

إِنَّ الْمُؤَثِّرَ فِعْلٌ مِّنْ خَلْقِ الْقُرْآنِ فَتَدْبُرُ
فَالفِعْلُ عَنْهُ مَادٌّ وَكَمْ يَا مُنَجِّمُ تَفْتَرِي

٤ - ومن المظاهر في هذه الفترة انتشار البدع وتمسك الناس بها إلا من رحم الله -

فمن ذلك : بدعة المولد النبوي الشريف ، الذي أصبح عادة سنوية يُحتفل بها في ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولاعتقاد السلاطين أن ذلك العمل إنما هو تقرباً لله عزّ وجلّ ومحبة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد حرص كل منهم في مدة سلطنته على أحياء تلك البدعة ، وأصبح الاحتفال بالمولد النبوي من الأعياد الرسمية التي يحييها السلاطين ويشاركون في حضورها . (٢)

ومن البدع التي انتشرت : بناء القباب على المساجد والمبالغة في زخرفتها ، ونقشها بالذهب لتكون قبوراً للسلاطين والأمراء المماليك ، وتشجيع السلاطين على بناء الأضرحة والقباب على قبور من يسمون بالأولياء الصالحين ، وتخصيص السلاطين بالأوقاف لعمارة تلك الأضرحة ، وللنفقة على القائمين على شئونها ، وترتب على تلك الأبنية أن أصبح يقصدها آلاف الزوّار في كل سنة ، بعد أن قصدها السلطان بنفسه . (٣)

-
- (١) ابن اياس : بدائع الزهور ٥/٤ ، وقصيدة الشيخ عبد الباسط في ٣١٨/٣ .
 (٢) محمد عبد الله عنان : أحياء المولد النبوي - مجلة الرسالة - العدد ٥١ ، سنة ١٣٥٣ هـ ، ص ١٠٤٨ .
 (٣) كامل العسلي : وثيقة مقدسية تاريخية - مجلة دراسات تاريخية - العدد ٢١ ، سنة ١٤٠٦ هـ ص ١٨١ .
 وللزيادة : ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ٧٣/١٢ حيث بيّن صفة المولد النبوي ، و ١٦٣/١٥ يبين ما طرأ على المولد من زيادة ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٤٨/١ ، ٤٤٩/٢ ، ٣٣٧/٤ ، ٤٢٥ . ابن بطوطة : تحفة النظار ٥٤/١ - ٥٥ .

ومن البدع التي ظهرت في هذا العصر : الزيادة في ألفاظ الأذان ، حيث أمر المؤذنون أن يزيدوا في الأذان جملته : " الصلاة والسلام عليك يا رسول الله " عدة مرّات ، وذلك بسبب رؤية رآها أحد الفقهاء زعم فيها أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه ، وأنه أمره أن يقول لمحتسب القاهرة أن يأمر المؤذنين أن يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم عقب كل أذان ، وكانت العادة قبل ذلك أنه في ليلة الجمعة وبعد أذان العشاء يردد المؤذنون الصلاة على النبي مرارا على المثذنة . (١)

ومن البدع التي ظهرت في العزاء بعد دفن الأموات : قراءة القرآن على قبر الميت ، وبلغ عدد مرات القراءة على القبر بالآلاف ، واحضار القراء عند القبور بعد دفن الميت ، ويقوم أولئك القراء بقراءة القرآن لمدة سبعة أيام (٢) ، وانتشار لطسم الخدود ، وشق الجيوب ، والنياحة على الأموات . (٣)

ومن تلك البدع في العزاء الضرب على الدفوف وخروج الجوارى الى الطرقات وهن حواسر يبكين ويلظمن وجوههن ، وضرب الطار على الميت وفي داره لمدة أسبوع . (٤)

ومن البدع قراءة القرآن على الميت قبل دفنه من الليل حتى الصباح (٥) ، والبكاء على الميت ونعيه بالمغاني والطارات سبعة أيام ، وعمل الموائد الحافلة بعد مرور جمعة على وفاة الميت ، والجلوس للعزاء مع النساء وهن يلظمن وجوههن وينحن على موتاهن . (٦)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١/٣٢١ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢/٣٢٠ .
 (٢) .. : .. ١١/٩٢ ، ١٤/٩٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١/٣٥٨ .
 (٣) الميرفي : انباء الهمسر بأنباء العصر ١٣٤ .
 (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠/٩٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤/٤٠٨ . ٤٥٢ .
 (٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥/٤١٣ .
 (٦) ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٣١٩ ، ٣/١٥٣ ، ٥/٣١ .

ومن البدع التي شاعت في هذا العصر : اهتمام السلاطين باحياء ليلة النصف من

شعبان ، ومشاركتهم فيها بالحضور شخصيا ، ومما قاله الأشرف قانصوه عن هذه الليلة قصيدة

بلغت ثلاثة وعشرين بيتا جاء في مطلعها :

لله في أيامنا نَفَحَاتُ من دهرنا تزكوا بها الأوقاتُ
فيها ألا فتعرضوا وتضرعوا فيها تُجَابُ لكم الدعواتُ
هَذِي مواسِمها لنا قد أَقبلتُ ودَنَا بموعدها لنا ميقاتُ (١)

٥ - التصوف والصوفية :

ازدهر التصوف في مصر ، وانتشرت الطرق الصوفية في هذا العصر بسبب رعاية

السلاطين للمتصوفة ، وانتشر تعظيم وتقديس شيوخ الصوفية والطاعة العمياء لهم ، وظهر

الغلو فيهم أحياء وأمواتا، حتى قدمت لهم النذور ، وتمسح بقبورهم ، وتجاوز العامة ذلك

الى صرف أنواع من العبادات لغير الله عز وجل من أصحاب القبور والأضرحة (٢) .

وشدّ الناس رحالهم الى كثير من الأمكنة والبقاع ، وعن ذلك يقول شيخ الاسلام ابن تيمية

رحمه الله : " فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها ، ولم تستحب الشريعة ذلك فهو من

المنكرات ، وبعضه أشد من بعض ، سواء كانت البقعة شجرة أو غيرها ، أو قناة جارية ، أو جبلا ،

أو مغارة ، وسواء قصدها ليصلي عندها ، أو ليدعو عندها ، أو ليقرا عندها ، أو ليذكر الله

سبحانه عندها ، أو لينسك عندها ، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع

تخصيص تلك البقعة به ، لا عينا ولا نوعا " . (٣)

(١) عبد الوهاب عزام : مجالس السلطان الغوري ٤٤ .

(٢) محمد أحمد لوح : تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ٨٤٨ .

(٣) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ٣١٤ - ٣١٥ .

وقد بدأ التصوف عند الصوفية بالزهد عن الدنيا ، ثم مع مرور الزمن تطوّر ذلك الزهد ، وبنى الصوفية طريقتهم على أربعة أشياء : قلة الطعام ، قلة المنام ، قسلة الكلام ، الاعتزال عن الناس . (١)

ثم تغيرت نظرة العوام للمتصوفة ، " فنظر اليهم على أنهم أولياء لله ، وكثير من الناس يغلط في هذا الموضوع فيظن في شخص أنه ولي لله ، ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله ، ويُسلم اليه في كل ما يقوله ويفعله ، وإن خالف الكتاب والسنة ، فيوافق بعضهم ذلك الشخص ، ويخالف ما بعث الله به رسوله ، الذي فرض الله على جميع الخلق تحمده يقسه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر " (٢) .

وبلغ الأمر عند بعضهم أن منح بعض الأشخاص صفة الولاية لله و غلوف في هؤلاء الأولياء ، حتى ادعوا أنهم يتصرفون في الكون ، ويعلمون الغيب ، ويجيبون من استغاث بهم ، ثم عبد وهم بعد وفاتهم ، وبنوا على قبورهم الأضرحة ، ثم طافوا حولها ، وتبركوا بها ، وذبوا لها التذور . (٣)

وبعد أن أصبح لتلك الطائفة هذه الحكاية ، فلا غرابة إذا ما تمادوا في فلالهم وكذبوا على الله عزّ وجلّ وعلى رسوله ، فقد اختلقوا الأقوال عنه سبحانه وتعالى ، وادعوا مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في محاولة منهم لجمع أكبر عدد من الأتباع حولهم .

فزعّموا أنهم صفوة أهل الايمان ، امطفاهم الله عز وجل واختارهم لنفسه ، فلا الجنة يطلبون ، ولا من النار يرهبون ، وعبادتهم عبادة محبة لذات الله ، لا تشوبها الرغبة

(١) احسان الهي : التصوف ١٠١ .

(٢) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٢١٠/١١ .

(٣) صالح الفوزان : حقيقة التصوف ٢٧/٢٨ .

ولا الرهبة ، وأنهم قد سمو بأنفسهم عن المطامع والملذات الدنيوية والأخروية ، فد ينههم بزعمهم هو الحق ، ولذلك خصهم الله تعالى بمصادر ر يتلقون فيها دينهم وشرعهم في حال يقظتهم ، ومنامهم ، فالناس جميعا مشغولون بالجنة والنار ، وهم مشغولون بالله تعالى وحده . (١)

وشرع الصوفية لأنفسهم عبادات وأعمال لم يأذن بها الله عز وجل ، وأحاطوها بفضائل من صنع أنفسهم ، ترويجا لها ، ولصبغها بالصبغة الشرعية الدينية في أعين الأتباع فمن ذلك : زعمهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الايمان في قلوبكم ، وجعلوا من الجوع والفقر غاية في شرعهم ودينهم ، ونسبوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : (بطن جائع أحب الى الله من سبعين عابداً غافلاً) ، ومن أقوالهم الداعية الى تجويع النفس : أجيئوا بطونكم ، وأظمنوا أكبادكم ، وأعروا أجسادكم ، لعسل قلوبكم ترى الله عيانا في الدنيا ، وبلغ الأمر بأحداهم أن قال : " المعدة المملوءة بالخمير أحب الي من المعدة الممتلئة بالطعام ... " . (٢)

وعندما قدم لأحداهم طعام فقال : لا آكل . فقيل له : لِمَ ؟ فقال : لأن نفسي تشتهي ، وأنا منذ سنين ما بلغت نفسي ما تشتهي " .
ويعلق ابن الجوزي على ذلك بقوله : " ويرد عليهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن على هذا وأصحابه ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يأكل لحم الدجاج ، ويحب الحلوى والعسل " ويضيف : " وان ما يظهره هؤلاء الزهاد انما صارت لأقوام منهم كالمعاش ، يجنون من أرباحها تقبيل اليد ، وتوفير التوقير ، وحراسة الناموس ، وأن أكثرهم في خلوته على غير حالته في جلوته " . (٣)

(١) فلاح اسماعيل أحمد : العلاقة بين التشيع والتصوف ٢٥٥ .

(٢) المرجع السابق . ٣٥٦ .

(٣) ابن الجوزي : صيد الخاطر ٦٣ - ٦٦ .

وشيئا فشيئا ابتعد هؤلاء المتصوفة نتيجة لما ابتدعوه في الدين عن العقيدة الصحيحة ، وبعدها مناهجهم في العبادة عن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم والحابسة والتابعين ، واعتقد هؤلاء أنهم وصلوا الى مراتب لم يصلها أحد من السابقين ، ونتج عنه أيضا عدم عودتهم الى ذلك المنهج الصحيح ، وحرموا أنفسهم من الاستفادة من خير جيل . (١)

وانحرف أولئك المتصوفة بسبب انخراط طوائف من الدجالين والمشعوذين الى زوايا الصوفية ، وأطلق عليهم المجاذيب والذراويش ، وادعوا الكرامات ، وأنهم من أولياء الله والله عز وجل برىء منهم لانحرافهم عن جادة الدين . (٢)

ولما انحرفت تلك الطوائف من شيوخ الصوفية ، امتد انحرافهم الى السلاطين والأمراء والعامة والخاصة - الآ من رحم الله - ، ومن الأمثلة على انحراف المتصوفة عن الدين الاسلامي الحنيف :

أ - تعاهد السلاطين والأعيان والعامة قبور وأضرحة من يسمون بالأولياء ، وشد الرحال لزيارتهم وطلب البركة منهم (٣) ، فتكرر تردد الناس على قبور الشافعي ، والليث ابن سعد - رحمهما الله - وغيرهما ، واهتم السلاطين بتجديد وعمارة أضرحة أولئك الأولياء والمالحين كما يُسمون ، مثل أبي العباس المرسي ، وأحمد البدوي ، وإبراهيم الدسوقي . (٤)

-
- (١) محمد العبدية : الصوفية نشأتها وتطورها ١٠٣ .
- (٢) المرجع السابق محمد العبدية : الصوفية نشأتها وتطورها ٧٧ .
- بشار معروف : الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الاسلام ٧٨ .
- جابر طعيمة : الصوفية معتقدا وسلكا ٢٧١ .
- (٣) محمد أحمد لوح : تقديس الأشخاص في الفكر الحوفي ٨٤٨ .
- (٤) ابن ابياس : بدائع الزهور ١٥٦/٣ ، ١٧٠ ، ٢٠٠ ، ٢٣٠ ، ٢٨/٥ .

ب - تزايدت أعداد أولئك المتصوفة بعد أن كثرت الزوايا التي بناها السلاطين لشيخوخة الصوفية ، وتكفل أولئك السلاطين بالنفقة الكاملة لشيخوخة الزوايا وللمن فيها مسكن الصوفية الذين أخذت أعدادهم في تزايد بعد أن أمّن لهم المسكن والمطعم والملبس . (١)

ج - ونجد كثيرا من السلاطين والأمراء والأعيان وغيرهم يوصي بأن يكون قبره عند أحد أولئك الأولياء ، أو عند من اشتهر بالحلاج بحجة البركة ، وافتتن الناس بهذا العمل استنادا على حديث ينسب الى النبي صلى الله عليه وسلم وفيه ٠٠٠٠ أن الميت ليتأذى من جار السوء كما يتأذى به الحي ٠٠٠ (٢)

وهذا الحديث ذكره السيوطي في اللآليء الممنوعة في الأحاديث الموضوعة بسنده الى أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ادفنوا موتاكم في وسط قوم صالحين ، فان الميت يتأذى بجار السوء) ، ثم قال عن هذا الحديث : " لا يصح بسبب ورود أحد الكذابين في سنده " . (٣)

وعلا بهذا الحديث الذي لم تثبت صحته أوصى السلطان الظاهر برقوق أن يدفن بعد موته في مدرسته التي بناها ، وأن يكون في لحد تحت أرجل الفقراء وذكر مجموعة منهم ممن كانوا من شيخوخة الصوفية . (٤)

ومثله الظاهر خشقدم حيث دُفِنَ أحد مشايخ الصوفية في تربته الخاصة به تبركا بذلك الشيخ ٠٠٠ (٥)

-
- (١) ابن حجر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٥٠٧/١ ، سعاد ماهر : مساجد مصر ١٥٠ .
 (٢) علي السخاوي الحنفي : تحفة الأحاب وبغية الطلاب ٩ .
 (٣) السيوطي : اللآليء الممنوعة في الأحاديث الموضوعة ٤٣٩/٢ .
 (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠٨/١٢ ، السيوطي : حسن المحاضرة ٤٢٤/١ .
 (٥) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٠١/٢ ، الغزى : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ٥٩/١ ، ٢٦٥/٢ .

د - ومن مظاهر ذلك الانحراف الاعتقاد في الأولياء والمالحين جلب النفع ودفع الضرر في حياتهم وبعد مماتهم ، وأنهم يستنزل بهم الغيث (١) ، وشُدَّت الرحال السبي أولئك القوم طلباً للعلاج ، والرزق ، وزيادة الأموال (١) ، وانتشر اللجوء إلى أولئك الأولياء عند الكروب ، وتعلق الناس بهم ، فمن ذلك قول أحد هم مادحاً لأولياء في ضاحية القرافة بالقاهرة :

إذا ما ضاق صدرى لم أجد لي مفرَّ عبادةٍ إلا القرافة
لئن لم يرحم المولى انكسارى وقلّة ناصري لم ألق رافة (٢)

وكثرت زيارة هؤلاء الأولياء لطلب البركة والدعاء منهم لمن قصدهم ، وقد كثر المترددون على زوايا المتصوفة بعد أن ادعوا الكرامات ، وخوارق العسادات وعلم المغيبات . (٣)

هـ - ومن مظاهر انحراف أولئك المتصوفة انقطاعهم عن الناس ، وعدم مخالطتهم ، وملازمة الزوايا لسنوات طويلة . (٤)

و - ومن الأمثلة على انحراف أولئك المتصوفة عن الدين الإسلامي الحنيف : تركهم لما أحله الله من الطيبات ، فنقل عن كثير منهم أنه أقام عشرات السنين لا يأكل اللحم ولا الخاكية (٥) ، ونقل عن بعضهم أنه أقام أكثر من أربعين سنة يصوم الدهر ، وعند فطوره يأكل حمص يخلطه بالملح . (٦)

-
- (١) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ١٢٠ ، السخاوي : التبر المسبوك ٣٠٢ .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٩٦٨/١ .
(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ٤٢٥/١ ، النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ١٦٦/٢ .
(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ٤٢٧/١ - ٤٣٠ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٥٦/٢ .
(٥) اليوسفي : نزهة خاطر ٣٩٠ . ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٥٦/٢ .
(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٣٠٣/١١ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ٢٤٧/١ .

ومن ذلك مخالفتهم للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وسنة النبي

(١)

صلى الله عليه وسلم بامتناعهم عن الزواج ، والاقبال على العبادة لعشرات السنين .

ز - ومنها : احياء أولئك المتصوفة للبدع مثل المولد النبوي ، وما يقع في تلك الزوايا

من الفساد لتجمع المتفرجين عليهم ، حتى صار ذلك الوقت من جملة النُزّه يتواعدون

عليه قبل عمله بأيام ، ويتوجهون اليه أفواجا (٢) ، ثم أصبح لأولئك المتصوفة من

الأولياء والصالحين موالد خاصة بهم يحييها أتباعهم في كل سنة .

ح - ومن مظاهر انحراف أولئك الصوفية : ارتكابهم للمحرمات ، حيث نقل ذلك عن

طوائف منهم ، فأحد شيوخ الزوايا تنتهي اليه الرئاسة في فن الموسيقى والألحان ،

صنف فيها المؤلفات ، وعُدَّ وحيد عصره في الموسيقى والرقص . (٣)

وشيخ مقام أحمد البدوي وُجِدَ ميتا بسبب الخمر ، وعرف عنه كثرة انهماكه

في المعاصي وسوء سيرته . (٤)

وهكذا بعد أن كان التصوف مبعثه الزهد في الحياة الدنيا ، والرغبة في

التوبة الى الله ، إلا أنه بعد ذلك تطرق الفساد الى أولئك المتصوفة عندما عدلوا

عن الزهد والتقشف بالانحراف الى الرذائل ، وأصبحت عبادتهم وأذكارهم نوعا من

الغناء والرقص والتصفيق على صوت الدُف والمزمار ، حتى صاروا لا ينسبون الى علم

ولا الى ديانة . (٥)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٣٥/١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٣٤/١٥ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٣٥/١١ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ١٦٩/٣ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٩١/١٦ .

(٥) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٨٨ .

ولما استشرى فساد أولئك الصوفية تمدى العلماء للرد على أقوالهم ، والانكار

على أفعالهم ، فمما قيل في الرد عليهم :

الضرب بالطار والتشبيب بالقصب	شيئان قد عرفا باللهو والطرب
اني لأعجب من قوم وطيشهم	وإن أمرهم من أعجب العجيب
ومطربانين لا تصفى لقولهما	فالشرع قد حرم الامغاء للطرب
ان نقرؤا الطار أموا يرقمون لسه	شبه القروود ألا سحقا لمرتكيب
صوفية أحد ثوا في ديننا لعبا	وخالفوا الحق دين الممطفى العرب
من اقتدى بهم فلّ مثلهم	سحقا لمذ هبهم لو كان من ذهب
أهل المراقص لا تأخذ بمذ هبهم	فقد تماروا على التمويه والكذب
أنكر عليهم اذا ما كنت مقتدرا	واضرب ظهورهم بالسوط والخشب (١)

٦ - ظهور الفساد وانتشاره :

انتشرت في هذا العصر مظاهر الفساد سواء على مستوى السلاطين والأمراء المماليك والأعيان ، أو على مستوى العامة - الآ من رحم الله - فظهر الانهماك في الملذات ، وتعاطي بعض المحرمات (٢) .

ومن مظاهر الفساد : انتشار المغنيين والمغنيات ، ورواج بضاعتهم في فترات من ذلك العصر ، حتى أنه ذكر عن نساء المنصور قلاوون أنها كانت تجيد الغناء ، وكان للناس بها اجتماعات في مجالس أنسهم (٣) ، ونقل عن ولع السلاطين والأمراء بأرباب تلك المهنة

-
- (١) السخاوى : التبر المسبوك في ذيل السلوك ٢٢٠ - ٢٢١ .
 (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠/١٨٤ ، ١٢/٦٢ ، المقرئى : السلوك ٢/٥٠٠ .
 الميرفى : انباء الهمر بأنباء العصر ٨١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٥٤١ .
 (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠/٥٠ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٢/٩٥ .

الشيء الكثير ، ونتج عن ذلك غلبة أولئك الفساق وخاصة النساء على أولئك السلاطين الذين أتلفوا أعمارهم وأموالهم بمنادمة تلك الطوائف من جلساء السوء ، وأصبح من العادة في تلك الأيام أن يكون لكل سلطان أو ملك جوقة من المغاني (فرقة غناء) عنده في داره في اقامته ، ويصطحبهم معه عند سفره . (١)

وقرب السلاطين أرباب الموسيقى والآلات حتى أنه اذا مرض بعضهم عادته جميع أعيان الدولة ، وأصبح لبعضهم مكانة في الدولة وعُدَّ من أعيانها . (٢)

ووجدت بعض الدور التي خصمت لاقامة بنات الخطأ^(٣) ، وعندما رفع بعضهن الى السلطان أمربأخذ مبالغ مادية بدلا من عقوبتها ، وقد ساعد ذلك التساهل على انتشار تلك المعاصي بعد أن أمن مرتكبوها من العقوبة ، ووجود من يشفع فيهم عند القبض عليهم ، وسمح لأولئك النسوة بتعاطي تلك الرذيلة مقابل مبالغ مالية تدفع للسلطان . (٤)

ومن مظاهر الفساد : توجه الناس الى بعض الأماكن للنزهة ، ويحدث باجتماعهم في تلك الأماكن ما لا يوصف من الفساد^(٥) ، في أيام الأعياد الكثيرة والاحتفالات التي اتسع معها اللهو والنزهة ، اما بسبب مبايعة خليفة أو سلطان أو زواج أحد السلاطين أو ولادة مولود لهم .

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥٦/١٠ ، ١٧٠ ، ٣٨١/١١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٥٧٩/١ .
- (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٢٠/١١ ، ١٥٢/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١٨٥/٣ .
- (٣) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ١٤٠ ، ابن طولون : مفاكهة الخلان ١٢٠/١ .
- (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٥٠/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣١١/٢ ، ١٤٨/٤ .
- (٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠ / ٨٨ ، ٩٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٨٦/١ ، ١٢٤/٤ .
- (٥) ابن اياس : بدائع الزهور ١١٠/٤ - ١١١ ، شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ٥٥

المبحث الثاني

الناحية الإجتماعية

يقوم المجتمع المسلم على أسس قوية مستمدة من نصوص الكتاب الكريم ، والسنة الشريفة ، وهدى السلف الصالح ، رسخت بين المسلمين الشعور بالجسد الواحد ، وقد بين الله عز وجل تلك الأسس في القرآن الكريم ، وطبقها النبي صلى الله عليه وسلم قولا وعملا في حياته مع أهل بيته ، وصحابته - رضوان الله عليهم - ، وبذلك استحقوا الثناء من الله عز وجل بعد أن عملوا بما أمرهم به من توحيد ه عز وجل وعبادته ، وأداء ما افترضه عليهم ، وصدقوا نبيه صلى الله عليه وسلم قال تعالى : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) . (الآية ١١٠ من سورة آل عمران)

وأمر الله عز وجل عباده بالاعتصام بدينه الذي ارتضاه لهم ، فقال عز وجل : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) . (الآية ١٠٣ من سورة آل عمران)

فأمرهم سبحانه بالتمسك بدينهم ، وأمرهم بالجماعة ونهاهم عن الفرقة ، وذكرهم بنعمته عليهم بأن ألف بين قلوبهم فأصبحوا اخوانا ، وأزال عنهم ما كان بينهم من عداوة وضغائن طال بسببها القتال بينهم ، فلما جاء الاسلام ودخل فيه منهم من دخل ، صاروا اخوانا متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى . (١)

ولم يبين الله عز وجل في هذه الآية الكريمة ما بلغته معاداتهم لبعض من الشدة ، ولكنه بين ذلك في موضع آخر ، فذكر أن عداوتهم بلغت من الشدة أمرا عظيما ، حتى إنه

(١) ابن كثير : التفسير ٣٠٥/١ .

لو أنفق ما في الأرض كله لزالتهما ، وللتأليف بين قلوبهم لم يفد ذلك شيئا " (١) وذلك
 في قوله تعالى : (وَإِنْ يُرِيدُ وَأَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَىٰكَ بِنَصْرِهِ
 وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) . (الآيتان ٦٢ - ٦٣ من سورة الأنفال) .

وفي التوجيهات النبوية الشريفة ما يؤكد على قوة الرابطة بين المسلمين ، فقد
 ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثلا محسوسا بأن جعلهم كالجسد الواحد ، فقال عليه
 الصلاة والسلام : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى
 منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) ، وقال صلى الله عليه وسلم في بيان
 لقوة الرابطة بين المسلمين : (المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا) ، وقوله :
 (المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا - ويشير الى صدره
 ثلاث مرات - بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم) .

وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم أمته بوصايا قيمة تبين حقوق المسلم على أخيه
 المسلم ، وواجبات كل واحد منهما تجاه الآخر ، مما يزيد في قوة الرابطة بينهما ، ويوثق
 عرى الأخوة الاسلامية بين أفراد الأمة حتى يعود ذلك بالعزة والقوة على الأمة الاسلامية ،
 ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : (حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعبادة
 المريض ، واتباع الجنائز ، واجابة الدعوة ، وشميت العاطس) .
 وقوله صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه - أو قال لجاره - ما يحب
 لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : (الدين النصيحة - وسئل - لمن يا رسول الله ؟ قال : لله
 ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم) .

(١) محمد الأمين الشنقيطي : أضواء البيان ١/٣٤٧ .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) ، وسُئِلَ عليه الصلاة والسلام عن كيفية نصره وهو ظالم ؟ فقال : (تأخذ فوق يده بمعنى تحجزه عن الظلم ، وتحول بينه وبين فعله ، فذلك نصر لك له) .

وقوله على الصلاة والسلام : (كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (من نَفَسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يستر على معسر يستر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) . (١)

فهذه الآداب والأخلاق الإسلامية التي حثنا الله عزَّ وجلَّ ، ونبيه صلى الله عليه

وسلم على التمسك بها ، والعمل بها ، هي التي جعلت من عهد النبوة وعهد الخلافة

الراشدة خير القرون ، بسبب إيمانهم بها ، وتطبيقهم لتلك الآداب والأخلاق الإسلامية

في تعاملهم فيما بينهم في شتى مجالات الحياة ، وكانوا بذلك أسوة حسنة وقدوة ملاحمة

لمن جاء بعدهم ، ممن أراد الاقتداء بهم ، قال تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) .

• الآية ٢١ من سورة الأحزاب) .

وعند النظر الى الحالة الاجتماعية في عصر الخلافة العباسية بالديار المصرية ،

نلاحظ غياب كثير من الأخلاق والآداب الإسلامية عند طوائف من أفراد المجتمع في ذلك

العصر ، مع وجود بقية باقية منها تظهر من خلال الأحداث والمواقف من حين لآخر .

وفيما يلي أشير الى بعض الملامح الاجتماعية في ذلك العصر من خلال الوقوف على طوائف

المجتمع في عصر الخلافة العباسية بالديار المصرية :

(١) وردت هذه الأحاديث وغيرها في صحيح البخارى ٢٠/١ ، ٧٧/٧ . وصحيح مسلم

٤٩/١ ، ١١/٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٧٧ .

أولا : المماليك : (١)

ظل المماليك طبقة منفصلة عن سائر السكان في مصر والشام ، واستأثر أولئك

المماليك بالملك والحكم ، وحازوا الاقطاعات الكبيرة من أراضي الدولة الاسلامية . (٢)

وحرصا من السلاطين المماليك على بقاء ذلك الاستقلال الاجتماعي رسم بعضهم بمنع انتقال مملوك من ممالك السلطان الى أحد غيرهم عن طريق البيع ، فصدرت الأوامر " بالتحذير من انتقال مملوك الى كاتب أو عامي - أي من غير المماليك - ومن كان عنده مملوك منهم فليبعه ، ومن عثر عليه بعد ذلك أن عنده مملوكا فلا يلوم الا نفسه " . (٣)

وقد أحدثت هذه العزلة الاجتماعية التي عاش فيها المماليك فجوة واسعة بين الحكام

والمحكومين في الديار المصرية والبلاد الشامية ، مما كان له الأثر السيء في العلاقة بينهما ، وبالتالي على المجتمع بشكل عام .

أما العلاقة بين طوائف المماليك فيمكن اجمالها فيما يلي :

١ - غلب على أولئك المماليك الحرص على الملك والسلطنة ، فقد حرص الأمراء المماليك للوصول الى ذلك المنصب بشتى الوسائل ، فدفعهم ذلك الى تدبير المكائد والسياسات فيما بينهم ، وكثر عصيان أولئك الأمراء الطامعين في الملك لمن تولى السلطنة منهم ،

(١) تقدم الحديث عن أصولهم والمناطق التي قدموا منها أثناء الحديث عن السلاطين المماليك في الفصل الثالث من الباب الأول من هذا البحث ص ١٧٤ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ١٥٧ ، يوسف غوانمة : التاريخ الحضاري لشرق الأردن ١٢٧ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٩ / ٩٢ ، المقرئ : السلك

حتى أصبحت حركات العصيان تلك سمة من سمات عصر المماليك بالديار الممريية
والبلاد الشامية ، وتعرض الطامعون في الملك للسلطين بالقتل (١) ، أو الخلع ،
أو التآمر عليه مع مخالفيه ، وضعف ولاء أولئك الأمراء المماليك للسلطان حتى وان
كانوا من أقرب الناس اليه ، ونجد هم يتخلون عن السلطان في أحلك الظروف وأسعبها
ويعلنون ولاءهم للسلطان الجديد طمعا في تحقيق أغراض شخصية ، ومصالح ادارية
في وظائف الدولة ، فكانت تلك الطوائف من الأمراء المماليك تسعى خلف مصالحها
فهم أول المبايعين للسلطان في بداية سلطنته ، وهم أول المخالفين له عند ظهور
ملاحم انهزامه أمام خصومه ، فكانوا يدورون خلف مصالحهم حيثما دارت ، وفسسي
أى اتجاه سارت . (٢)

ولكثرة مؤامرات الأمراء المماليك اتبع السلطين طريقة جديدة للحد من عصيانهم
وهي تحليف هؤلاء الأمراء ، ومع ذلك لم يجد ما يأخذه السلطان من أيمان ومواثيق على
أولئك الأمراء المماليك ، فبالرغم من تحليفهم أكثر من مرة إلا أنهم حنثوا بتلك الأيمان
والعهود ، وأعلنوا العصيان وعدم الطاعة . (٣)

ومن طوائف المماليك السلطانية الذين اهتم السلطين المماليك بتربيتهم
بعد شرائهم من التجار الذين يجلبون أولئك المماليك من مناطق شتى ، واعتنى السلطين
بتربية هؤلاء المماليك ، فأول ما يبدأ به مرحلة عرفت برسم الكتابة يحفظ فيها ذلك المملوك

-
- (١) الحوادث في هذا كثيرة ، ومن الأمثلة على ذلك : محاولة قتل الناصر محمد وهو
في طريقه الى الحج مرتين . راجع : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠٤/٩ ، ١٤٠
(٢) الأمثلة التي تؤكد ذلك لا تعد ولا تحصى ، وشملت فترات حكم السلطين المماليك
جميعا ، وعلى سبيل المثال راجع : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٧١/٨ ،
٦٠/١٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ ، ٣٠٥ ، وغيرها .
(٣) ابراهيم طرخان : مصر في عصر المماليك الجراكسة ٤٣ ، محمد سرور : الظاهر
بيبرس ١٢٩ .

أجزاء من القرآن الكريم ، ولكل طائفة منها فقيه يحضر اليها كل يوم ليعلمها القرآن والملوات والأذكار وآداب الاسلام ، فاذا شبّ الواحد منهم علمه شيئاً من الفقه ، فاذا صار الى سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب واستخدام السلاح وفنون القتال ، وبعد تدريبه ينقل الى الخدمة السلطانية ، وينتقل من رتبة الى رتبة بعد أن تهذبت أخلاقه وكثرت آدابها ، وامتزج تعظيم الاسلام وأهله في قلبه . (١)

ولكن بعد مدة من الزمن أصبح أولئك المماليك من أسباب اضطراب البلاد وعدم استقرارها بنشرهم الخوف والرعب في عاصمة الخلافة العباسية بالديار المصرية ، بكثرة عصيانهم للسلطان ومشاركتهم في الخلافات والنزاعات التي عصفت بالدولة الاسلامية في تلك الفترة ، فأصبح أولئك المماليك أداة في أيدي الطامعين في السلطنة يستغلونها لتحقيق أغراضهم الشخصية ، " فشاركوا في إسقاط سلطان واقامة غيره مكانه ، يضاف الى ذلك هبوط مستوى التربية والتعليم لهؤلاء المماليك سواء في الدين أو الفنون الحربية ، فتغيرت أحوالهم ، وصاروا أرذل الناس وأدناهم " (٢) ، فامتد أذاهم الى الحكم والمحكومين ، واعتدوا على الأرواح والأعراض والأموال بعد أن عجز السلطان عن إيقافهم عند حدودهم .

وقد انفرد السلاطين المماليك وكبار الأمراء المماليك بأموال الدولة ، فنالوا الحظ

الأوفر منها ، يؤكد ذلك بعض المظاهر التي اتصف بها عصر المماليك ومنها :

- ١ - الثراء الفاحش الذي حظي به السلطان المملوكي والأمراء من حوله .
- ٢ - الإسراف في الانفاق دون تردد خاصة في المناسبات الاجتماعية مثل حفلات الزواج .
- ٣ - التمسك الشديد لدى السلاطين والأمراء بالمظاهر المادية التي تعبر عن مسلك واضح

(١) السيد العريني : المماليك ٨٩ ، علي حسن ابراهيم : تاريخ المماليك البحرية ٤٦٠

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٥٨ ، السيد العريني : المماليك

في التنافس والتفاخر و المباهاة فيما بينهم .

٤ - المبالغة في تقديم الهدايا المتبادلة بين السلاطين والأمراء في المناسبات ،
وذلك لارتباط قيمة الهدية التي يقدمها الأمير بمركزه الاجتماعي والمادي في
الدولة .

٥ - المبالغة في تقديم الصداق عند الزواج ، فيلاحظ أن المماليك يببالغون في قيمة
الصداق المقدم الى نساء طبقتهم ، وتكشف المبالغ الباهظة عن المكانة الرفيعة
التي أعطيت للمرأة المنتمية الى هذه الطبقة ، ونجد في المقابل تناؤل الصداق
الخاص بالنساء غير المماليك مما يقلل مكانتهن نظرا لوضعهن الاجتماعي في
هذا العصر . (١)

وظهرت بعض الفوارق الاجتماعية في عصر السلاطين المماليك بالديار المصرية
والبلاد الشامية ، يظهر ذلك جليا من حيث مقدار الصداق ، وصيغة عقود
النكحة ، ويظهر من ذلك الفرق الشاسع في الصداق الذي يقدم لبنات
السلاطين والأمراء ، وبين ما يقدم لعامة النساء من غير بنات السلاطين والأمراء . (٢)

بيان مقدار صداق غير المماليك :

م	اسم الزوجين	تاريخ الزواج	جملة الصداق	المعجل من الصداق
١	الفقيه نجم الدين اسحاق وبنت نصير بن عبد المنعم	١٢٧٧/٥٢٧٨م	٥٠٠ درهم	١٠٠ درهم
٢	الفقيه نجم الدين اسحق وبنت نصير بن عبد المنعم	١٢٩٠/٥٦٨٩م	١٠٠ درهم	٥٠ درهم
٣	حسن تشكر ومليحة بنت أيلم	١٣٤٣/٥٧٤٤م	١٥٠ درهما	٥٠ درهم

(١) حياة الحجى : الأمير قوصون - المجلة العربية للعلوم الانسانية ع ٢٢ ، س ١٩٨٨م ص ٨ - ٩

(٢) أحمد عبد الرازق : عقد انكاح من عصر المماليك البحرية - المجلة العربية للعلوم

بيان مقدار صدق السلاطين والأمراء :

سلسل	اسم الزوجين	تاريخ الزواج	جملة الصداق	المعجل من الصداق
١	السعيد بركة خان بن السلطان الظاهر بيبرس وغازية خاتون ابنة المنصور قلاوون	١٢٧٤ هـ / ١٢٧٥ م	٥٠٠٠ دينار *	٢٠٠٠ دينار
٢	الملك الصالح بن المنصور قلاوون وخوند منيك بنت سيف الدين نوكيه	١٢٨٢ هـ / ١٢٨٢ م	٥٠٠٠ دينار	٢٠٠٠ دينار
٣	سنقر الأعسر وبنت الوزير شمس الدين بن السلموس	١٢٩١ هـ / ١٢٩١ م	١٥٠٠ دينار	٥٠٠ دينار
٤	السلطان الناصر محمد بن قلاوون وخوند طولة	١٢٢٠ هـ / ١٢٢٠ م	٣٠٠٠٠ دينار	٢٠٠٠٠ دينار
٥	أبا بكر بن أرغون نائب السلطنة وبنت السلطان الناصر محمد	١٢٢٢ هـ / ١٢٢٢ م	٤٠٠٠ دينار	—
٦	أنوك بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون وبنت الأمير بكتمر الساقى	١٢٢٢ هـ / ١٢٢٢ م	١٢٠٠٠ دينار	١٠٠٠٠ دينار
٧	عام الدين بن سراج وأم الخير بنت الأمير ركن الدين بن الحسين	١٢٢٤ هـ / ١٢٢٤ م	٥٠٠ دينار	١٠٠ دينار
٨	عز الدين أفرون وأم الخير بنت الأمير ركن الدين ابن الحسين	١٢٤١ هـ / ١٢٤١ م	٢٠٠ دينار	٥٠ ديناراً
٩	السلطان الصالح اسماعيل وبنت أحمد بن بكتمر الساقى	١٢٤٢ هـ / ١٢٤٢ م	١٠٠٠٠ ديناراً	—
١٠	السلطان الصالح اسماعيل وبنت الأمير قطر دم نائب الشام	١٢٤٣ هـ / ١٢٤٣ م	١٠٠٠٠ دينار	—
١١	منكلى بغا الشمسى وخوند سارة بنت حسين بن محمد ابن قلاوون	١٢٦٧ هـ / ١٢٦٧ م	١٥٠٠٠ ديناراً	—
١٢	بشناك رأس نوبة وخوند سارة أخت السلطان الأشرف شعبان	١٢٦٩ هـ / ١٢٦٩ م	١٥٠٠٠ ديناراً ٤٠٠٠٠٠ درهم	—

ثانيا : العلماء والفقهاء والكتاب :

ويطلق عليهم المعمون ، أو أهل العمامة ، وكانت تشمل هذه التسمية أرباب الوظائف في الدواوين السلطانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب ، وامتازت هذه الفئة بمميزات معينة طوال عصر المماليك ، على الرغم مما تعرض له بعض أفرادها من الإهانة أحيانا .

ويبدو أن السلاطين والأمراء والمماليك أحسوا بأنهم غرباء عن البلاد المصرية والشامية وعن أهلها ، وفي حاجة إلى دعامة يستندون إليها في حكمهم ، ويستعينون بها على إرضاء رعيتهم فلم يجدوا سوى طائفة العلماء ، وذلك لما للدين وأهله من مكانة وقوة في نفوس المسلمين ، فاحترم المماليك العلماء لانهم قوة لها أثرها في كسب الرأي العام في البلاد ، يخاف إلى ذلك أنهم هم أنفسهم – بهؤلاء العلماء – عرفوا الدين الإسلامي ، ومن مظاهر احترام العلماء كان بعض السلاطين يقومون بهم إذا دخلوا عليهم ويجلسونهم بجوارهم ، واغداق المنح والمرتبات السخية على أرباب الوظائف من هؤلاء العلماء ، ومما يؤكد المكانة الرفيعة التي وصل إليها العلماء في هذا العصر أن بعض الأمراء والمماليك السلطانية خافوا من مشاركة العلماء لهم في الوجاهة والرفعة ، حتى أنهم اشترطوا على السلطان منع العلماء من ركوب الخيل ، لأنهم بذلك العمل سوف يتساوون معهم ، ولما تغاضى السلطان عن تلك المطالب ، عمدت جموع المماليك السلطانية للاعتداء على العلماء والفقهاء ، وانزالهم عن خيولهم وأخذها منهم . (١)

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٥٨ – ١٥٩ .

ثالثا : التجار :

كانت هذه الفئة من الفئات المقربة الى السلاطين المماليك ، فقد أحسوا أن التجار دون غيرهم المصدر الأساسي الذي يمد الدولة بالمال في ساعات الشدة والأزمات المالية ، وتدل الشواهد على سعة ثروة أولئك التجار في عصر كانت مصر حلقة الوصل للنشاط التجاري بين الشرق والغرب ، وكانت تلك الثروات الطائلة بأيدي التجار مصدر نقمة عليهم ، فقد غدا محل طمع السلاطين المماليك ، فأكثروا من مصادرة أموالهم ممن حين آخر ، فضلا عن مطالبتهم بالضرائب الباهظة ، ومن ذلك ما كان يؤخذ من التجار عند خروج جند الدولة للقتال ، فاذا لاح خطر مفاجيء واحتاج السلطان الى أموال لاعداد الجيوش فليس أمامه سوى التجار ليقترض منهم ما يحتاجه بضمان وشهود ، أو يقوم السلطان بمصادرة جزء من ثروتهم يبلغ النصف في بعض الأحيان ، أو يفرض عليهم مبلغا معيناً يتعاونون فيما بينهم على جمعه ودفعه للسلطان المملوكي ، ولذا لم يكن التجار في هذا العصر يطمئنون على أموالهم وتجارتهم ، بل كانوا يدعون على أنفسهم أحيانا بسبب تلك الأموال التي جعلتهم تحت مراقبة السلاطين المماليك^(١) ، وكان هؤلاء التجار يعتمدون الى اخفاء أموالهم وأرزاقهم عند أي بادرة للفتنة بين السلاطين والأمراء والعساكر السلطانية ، والا لأصبحت تلك الأموال غنيمة باردة بعد سلبها من أصحابها .

رابعا : العامة :

وهؤلاء يشكلون السواد الأعظم من سكان البلاد الواقعة تحت حكم الخلافة العباسية التي غلب عليها السلاطين المماليك ، وتضم هذه الفئة أعدادا من العمال ، والباعة ، والفلاحين ، والمعدمين ، وغيرهم ، وقد رت أعداد هؤلاء في فترة من عصر السلاطين

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٦٠ ، ومن الأمثلة : النجوم الزاهرة ٢٢٦/١٤ ، ٢٥٠ ، ٢٠٥ .

المماليك بنحو خمسين ألف الى مائة ألف في القاهرة و حدها . (١)

وكانت هذه الفئة مغلوبة على أمرها ، لتوالي الظلم والجور عليها ، وتسلبت الحكام عليهم بمصادرة أملاكهم ، وانطهاد كبار رجال الدولة الذين لم يكن يعنيهـم الا مصلحتها ، فأثرت بعد متربة ، وأغنت بعد املاق ، وتنفذت بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً . (٢)

ولم تكن هذه الفئة تعيش على هامش الحياة ، فكثيراً ما عبروا عن سخطهم وعدم رضاهم لما حل بهم من ظلم وانطهاد ، وكانوا لا يترددون في مساندة من يرعاهم من السلاطين المماليك .

ويؤكد ما أصاب هذه الطائفة من حاجة وفقر كثيرة من يستجدي الناس ويطلب المدقة في ذلك العصر ، وقد وجدوا العناية والاهتمام في فترات من حكم بعض السلاطين المماليك ، ولكن كثرة أعدادهم دفعت بعضهم لاحتراف السلب والنهب والاعتداء على أموال الغير ، وتحين فرص الخلافات بين السلاطين والأمراء المماليك لتحصل على أكبر قدر من المغانم . (٣)

يضاف الى ذلك أن بعض أصحاب النفوذ في الدولة استغل حاجة تلك الفئة وفقرها لتحريفها على نهب أموال الغير ، خاصة خصومه من كبار الأمراء المماليك اشياءاً لمشاعر الحقد ، والانتقام الشخصي من خصومهم .

-
- (١) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٦١ .
 (٢) الحميري : أنباء الهصر في أنباء العصر/٢٧، محمد سلام : الأدب في العصر المملوكي ١٦/١ ، يوسف غوانمة : التاريخ الحضاري لشرق الأردن ١٢٧ .
 (٣) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٦٠ .

ومن ضمن هذه الفئة القبائل العربية التي انتشرت في نواحي البلاد المصرية وبخاصة في البحيرة^(١) ، والشرقية^(٢) ، والفيوم^(٣) ، وقد أنفت هذه القبائل الخضوع للسلطين المماليك منذ قيام دولتهم بالديار المصرية ، ولم يتمكن المماليك من اخضاعهم إلا بعد صعوبة ، ومنذ ذلك الوقت والقبائل العربية تستغل الفرص السانحة في أعمال السلب والنهب ، وقطع الطرق ، والاخلال بالأمن ، حتى الحجاج لم يسلموا منهم في طريقهم الى الحرمين أو عودتهم الى بلادهم ، ولم تسلم منهم المدن الكبيرة مثل أسيوط والقاهرة نفسها عاصمة دولة المماليك ، وبهذه الأعمال استطاع العربان الاستيلاء على مساحات واسعة من الأراضي ، مما جعل السلطنة المملوكية ترسل اليهم الحملات العسكرية لتأديبهم واستعادة ما أخذوه ، وزيادة على ذلك التنكيل بهم وبقادتهم ومشايخهم .^(٤)

ومن ضمن هذه الفئة : الفلاحون - وهم أغلبية - لم يكن نصيبهم في عصر السلطين المماليك سوى الإهمال والاحتقار ، حتى أصبح لفظ الفلاح في ذلك العصر مرادفا للشخص المستضعف المغلوب على أمره .

-
- (١) البحيرة - تصغير بحرة ، وهو المتسع من الأرض . وهي احدى المحافظات بشمال مصر . (ياقوت الحموى : معجم البلدان ١/٣٥٠) .
- (٢) قرية في شرق مصر وهي الآن احدى المحافظات الكبيرة بمصر . (ياقوت الحموى : معجم البلدان ٣/٣٢٧) .
- (٣) اسم لموضعين احدهما بالعراق والثاني بمصر، وهي ولاية بينها وبين الفسطاط أربعة أيام وبينهما مفازة لا ماء بها ولا مرعى . ياقوت الحموى : معجم البلدان ٤/٢٨٦
- (٤) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٦٢ ، نظير سعداوى : مصر ومظالم من عصر المماليك ١٢ .

وزاد من سوء حال هؤلاء الفلاحين كثرة المغارم والمظالم التي حلت بهم من الأمراء والولاة المماليك ، فكانوا يأخذون منهم أضعاف ما يستحق عليهم (١) ، وفرض الولاة على أولئك الفلاحين نظام المسؤولية المشتركة في دفع الضرائب للدولة ، حتى في حالة توزيع القرية الواحدة بين عدة ملاك ، أو اقطاعها لأكثر من شخص ، وبذلك اعتبر كل فلاح بالنسبة لزملائه شريكا . (٢)

وكانت حياة هذه الفئة من المجتمع في هذا العصر مجالا رحبا للشعراء الذين أحسوا بما تعانيه الرعية تلك الطائفة من حاجة وفقر ، فكانت أبياتهم الهزلية تحمل في طياتها بطريق غير مباشر السخرية من ذلك العصر ، وبيان حال الرعية المغلوبة على أمرها ، وأبرز أولئك الشعراء في نتاجهم الشعري ملامح الحياة العامة ، وأبدوا معارضتهم للموضع الاجتماعي الذي كانت عليه الدولة في عصر المماليك ، فهناك أقلية تستأثر لنفسها بكل شيء من النفوذ والسلطة والمال ، والطعام الهنيء ، والعيش الرغيد ، وأغلبية لا تمتلك قوت يومها ، ولا تنعم بشيء مما تصنعه بأيديها ، ووصل بها الحال إلى أقصى درجات الحرمان . (٣)

ويمكن اجمال نشاط العامة فيما يلي :

- ١ - استعان كبار الأمراء المماليك بالعامة للاستفادة من جهودهم لتحقيق المحالـح الشخصية السياسية في الدولة فند خـمومهم ، في ظل النزاع المحموم حول السلطنة ووظائف الدولة الهامة .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٠٢/٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠/١٢٢ .
 (٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٦٢ ، نظير سعداوى : مسـور ومظالم من عصر المماليك ٤٣ ، ٤٥ .
 (٣) محمد النجار : الشعر الشعبي الساخر في عمور المماليك - مجلة عالم الفكر - العدد الأول ، سنة ١٩٨٣ م ، ص ١٩٤ - ٢٠٤ .

- ٢ - ظهر الاستعداد الكبير لدى هذه الطائفة للنهب والسلب ، خاصة ضد ممتلكات الطبقة المتسلطة صاحبة النفوذ في الدولة ، وربما ترجع تلك الرغبة القوية عند بعض العامة في سلب كل ما تصل اليه أيديهم ، الى شدة حاجتهم لتلك الأصناف المنهوبة ، مع طول معاناتها من الجوع والفقر ، وشدة الحاجة .
- ٣ - كان لتشجيع ^{بعض} الأمراء ^{بعض} المماليك العامة على النهب سببا لجرائمهم تلك ، ولجراتهم على ذلك الى درجة عدم الخوف من السلطة ، فكانوا يستغلون الفرصة السانحة لممارسة ذلك السلوك المنحرف ، مما أثار الفوضى والاضطراب في مختلف نواحي القاهرة ، وانعدمت مظاهر الأمن مع تلك الأعمال بالتدريج .
- ٤ - فقدت القاهرة عاصمة سلطنة المماليك والخلافة العباسية في مصر طابع الأمن والاستقرار الاجتماعي ، لانتشار تلك التجاوزات من تلك الطوائف .
- ٥ - ارتفعت الأسعار بدرجة كبيرة ، بسبب نشاط بعض العامة في أعمال السلب والنهب ، مما أدى الى معاناة الأسر الفقيرة من صعوبة الحصول على الغذاء ، في حين نعم الناهبون بما نهبوه من ذهب وتحف ثمينة ، وملابس فاخرة ، ومؤون وأغذية .
- ٦ - تلاشى مبدأ العدالة الاجتماعية لغياب أسلوب الجزاء والعقاب ، فالناهيون حظوا بعفو شامل من السلطة المملوكية ، وبذلك أفقدت البيوت حرمتها ، وانتاب الناس الفزع والخوف ، ولم يعد أحد يأمن على نفسه ، أو أسرته ، أو بيته ، أو ماله ومتجره ، في ظل تلك الفوضى الأمنية التي تكررت في عصور السلاطين المماليك (١) .
- ٧ - ساعد السلاطين المماليك على التجاوزات بتساهلهم مع فاعليها ، وعدم معاقبتهم بما يستحقون من العقوبة الشرعية من جهة ، ولعدم تفقد هم لأحوال الرعيصة ،

(١) حياة الحجى : الأمير قوصون - المجلة العربية للعلوم الانسانية - العدد

وتلمس حاجاتهم من جهة ثانية ، والعمل على معرفة الأسباب التي تدفع بعض العامة للقيام بتلك الأعمال ، لايجاد الحلول اللازمة لمنع تكرارها ، من خلال التجاوب معهم ، والعطف على مصالحهم ، والعمل من أجل رفاهيتهم .

٨ - ظهرت أمراض اجتماعية في هذا العصر عمفت بالشخصية المتميزة للمجتمع المسلم ، فانتشرت الرشوة ، والأمراض الأخلاقية الذميمة المخالفة للدين الاسلامي الحنيف ، وأصبح هذا العصر مليئا بالعجائب والغرائب والمتناقضات . (١)

خامسا : أهل الذمة :

اجتهد السلاطين المماليك في تقرير العدل تجاه رعاياهم من المسلمين وغيرهم عملا بتعاليم الدين الاسلامي الحنيف ، فكانت المراسيم السلطانية تأمر " بالاحسان لأهل الذمة ، وأن تكون ذمتهم محفوظة بحفظ الاسلام ، وعملا بحكم الملة الاسلامية ، ولشريعة الشريعة الاسلامية المحمدية " . (٢)

وفي فترات من عصر السلاطين المماليك تعرض أهل الذمة للتضييق خاصة في ثمرة الصراع بين المماليك والحليبيين ، وعند الأزمات المالية التي كانت تمرّ بها الدولة المملوكية . (٣)

ولم تكن معاملة السلاطين المماليك لأهل الذمة واحدة ، فقد اختلفت تلك المعاملة من سلطان لآخر ، وكان الأقباط من ذوى نشاط ظاهر في دواوين الدولة ، اهتموا باصلاح أمور الدولة المالية ، وتولى بعضهم مناصب هامة في الدولة مثل الوزارة ، وكتابة

-
- (١) شفيق جبرى : دمشق في عصر المماليك - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - المجلد ٤٦ سنة ١٣٩١ هـ ص ٤٥٨ - ٤٦١ .
- (٢) ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعمور ٢١٦ - ٢١٧ .
- (٣) علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٤٤٦ ، قاسم عبده : أهل الذمة في العمور الوسطى ٧٣ .

السر بالديار المصرية ، ومع ذلك " كان السلاطين يقصونهم من تلك الوظائف من حين لآخر ، غير أن ذلك الاقصاء كان قصير الأمد ، لأن وجودهم في تلك الوظائف كان ضروريا ، فقد كان السلاطين المماليك يشعرون بخلل في الادارة بعد ترك الأقباط لوظائفهم ، وكان غضب المماليك يثور على أولئك الرعايا الأقباط بسبب العداء المستمر بين المماليك والمليبيين " . (١)

ومن الأمثلة على تفاوت معاملة السلاطين المماليك لأهل الذمة :

نجد الظاهر بيبرس يعامل النصارى واليهود بشدة وحزم ، ومثله المنصور قلاوون الذي حرّم عليهم العمل بوظائف الدولة ، وتوعد من يخالف ذلك الأمر بأشد أنواع العقوبة . (٢)

وفي سنة ٦٨٩ هـ وهي بداية عهد السلطان الأشرف خليل قل اضطهادهم ، وسمح لهم بالعمل في وظائف الدولة ، ثم بعد مدة قصيرة أساء أحد النصارى في معاملة المسلمين فثار سخطهم عليه وتوجهوا الى السلطان الأشرف خليل فأمر بأن ينادى في القاهرة " أن لا يخدم أحد من النصارى واليهود عند أمير ... " (٣) .

وفي بداية سلطنة الناصر محمد الثانية سنة ٦٩٨ هـ أظهر عطفه على اليهود والنصارى ، وأمر باعادة من طرد منهم الى وظيفته ، ورفع الأذى عنهم ، فنعموا بالهدوء والطمأنينة تلك المدة ، ثم تغير عليهم وأمرهم بلبس زي خاص بهم ، فأمر بالنداء بالقاهرة بأن اليهود يلبسون عمائم صفر ، والنصارى يلبسون عمائم زرق ... فامتثلوا ذلك الأمر . (٤)

(١) علي حسن : مصر في العصور الوسطى ٤٨٠ ، تاريخ المماليك البحرية ٤٤٧ - ٤٤٨ .

(٢) المقریزی : الخطط المقریزية ٣٠٢/٢ .

(٣) المصدر السابق ٤٩٧/٢ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٠٨/١ .

(*) عرف هذا الزي في التاريخ الاسلامي (بالغيار) حيث ألزم أهل الذمة بارتداء ملابس خاصة بهم مغايرة لما يلبسه المسلمون ، لتكون تلك الملابس علامة لهم تميزهم عن غيرهم . وللزيادة انظر هامش رقم (٤) في صفحة (٣٦٢) .

ثم اتبع ذلك بامد ار أمر آخر في سنة ٧٠٠ هـ يحرم فيه استخدام النصارى أو اليهود بد يوان السلطان ، أو د واوين الأمراء الآ من أسلم منهم ، ونودي في القاهرة بأن كل من خالف هذه القيود كان جزاؤه القتل ، وقد حاول النصارى واليهود التحرر من تلك القيود أو من بعضها عن طريق بذل الأموال الوفيرة ، ولكن تلك المحاولات بساءت بالفشل ، وزاد السلطان الناصر على ذلك أن أصدر أمره باغلاق الكنائس ، فأعلن كشير من النصارى اعتناق الاسلام (١) ، وبعد أن عزل الناصر هؤلاء أصدر أمره بتولية جماعة من العلماء في الوظائف التي كان يشغلها النصارى واليهود . (٢)

وفي سلطنة الملك الصالح في سنة ٧٥٣ هـ أمر أن يقر أهل الذمة على ما أقرهم عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من ترك تشبههم بالمسلمين في أمر من الأمور ، وترك ركوب الخيل ، أو حمل السلاح ، ومنعهم من رفع أصواتهم على أصوات المسلمين . (٣)

وبعد فترة من سنة ٧٥٤ هـ نودي بأمر الملك الصالح " أن لا يهودى ولا نصراني يستعان بهم في ديوان ، وأنهم اذا مروا بالمسلمين وهم راكبون ينزلون عن دوابهم ، الى غير ذلك من الشروط الكثيرة التي اشترطها عليهم اذ لا لهم ، وتصفيرا لشأنهم . (٤)

وعندما احتاج السلطان المنصور حاجي الى المال في سنة ٧٩١ هـ ألزم رئيس النصارى ، ورئيس اليهود بدفع أموال قررها عليهم ، فكان على رئيس النصارى دفع

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٣٣/٨ ، المقرئى : السلوك ٩١١/١ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٥٧٨/١ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٨٥/١٠ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٥٥٢/١ .

مائة ألف درهم ، وعلى رئيس اليهود دفع خمسين ألف درهم . (١)

وقسي سلطنة المؤيد شيخ المحمودى سنة ٨١٥ هـ أصدر أمره بجمع طوائف اليهود والنصارى فاجتمعوا لتؤخذ منهم الجزية على الوجه الشرعي ، بحسب قدرتهم على ذلك . (٢)

وعندما تهاون النصارى فيما أمروا به ، استدعى السلطان المؤيد شيخ بطرك النصارى في سنة ٨٢٢ هـ بحضور مشايخ العلم والقضاة ، فلما حضر أوقفه على قدميه ووبخه ، وأنكر عليه ما يتعرض له المسلمون من الذل ببلاد الحبشة (٣) تحت حكم ملكها ، وهدده السلطان بالقتل ، وطال كلام العلماء مع السلطان في تهاون النصارى فيما أمروا به من الملابس والهيئة ، واستقر رأى السلطان على النداء بأن لا يباشر أحد منهم في ديوان السلطان ، ولا عند أحد من الأمراء ، وصمم السلطان على ذلك حتى انكف النصارى عن المباشرة في سائر الدواوين بالديار المصرية ، ولزموا بيوتهم . (٤)

ثم يضيف ابن تغرى بردى مؤيدا هذا التصرف : وهذا من أعظم الأمور لنصرة الاسلام ، لأن غالب المسلمين يحتاج الى التردد على أرباب الدولة لقضاء حوائجهم ، فيحتاجون الى الخضوع لمن بيده أمر الديوان الذى يقصد التحكم في المسلمين ، فلما أبطل المؤيد مباشرة النصارى بالدواوين أعلى كلمة الاسلام ، وحذل كلمة الكفر ، فاحتال النصارى على ذلك المنع باظهار دين الاسلام ، وتلفظوا بالشهادتين في الظاهر ، والله سبحانه وتعالى متولي السرائر .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١/٣٦٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣/٢٤٨ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٥/٢ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ٥/٣٢٢ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤/٨٢ .

ويقترح ابن تغرى بردى مواجهة هذا التحايل : بأن يمنع السلطان المؤيد

شيخ من كان قريب عهد منهم من دين النصرانية عن مباشرة الوظائف . (١)

وفي سلطنة الأشرف برسباى أعاد السلطان التأكيد على ما قرره المؤيد

شيخ ، فنودى في القاهرة في سنة ٨٢٥ هـ : بأن لا يستخدم أحد من اليهود ولا النصارى

في ديوان من دواوين السلطان أو الأمراء المماليك ، فتدخل عظماء الأقباط والنصارى

من مباشرة الدولة ضد ذلك النداء ، فلم يتم العمل به . (٢)

وهكذا استمر تعامل السلاطين المماليك مع أهل الذمة حتى كان شهر رجب

من سنة ٨٤٠ هـ ، حيث أصدر السلطان الأشرف برسباى أمره بهدم أحد دور العبادة بعد ما

تزايد فساد النصارى عنده في يوم معلوم من السنة . (٣)

ثم أمر السلطان برسباى في سنة ٨٤١ هـ بهدم دار عبادة أخرى لما أصبحت

النصارى تحج إليها في كل عام بمناسبة عيد الظهور بزعمهم ، وكان يحدث في ذلك اليوم

من المنكرات والفساد ما لا يوصف . (٤)

ولما كان بعض السلاطين المماليك يدرك معاناة المسلمين في بلاد الحبشة

تحت حكم النصارى ، لذلك سعى للضغط على النصارى في بلاده ، حتى يكون ذلك دافعا

لنصارى الحبشة لرفع أذاهم عن المسلمين ببلادهم ، ومن أولئك السلاطين الظاهر جقمق

الذى أمر بسجن بطرك^(٥) النصارى وعزله من منصبه ، وأمر بأنه لا يولى أحد منهم

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨٣/١٤ .

(٢) المصدر السابق ٢٤٨/١٤ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ١٧٥/٢ .

(٤) المصدر السابق ١٨٣/٢ ، ٢٢٣ ، ٢٨٦/٣ .

(٥) البيطريق - بكسر الباء - القائد من قواد الروم وهو معرب ، والجمع (بطارقة) .

الرازي : مختار الصحاح ٦٩ .

الاباذن السلطان ، وأنه من خالف ذلك انتقض عهده وحل دمه ، وكتبت من ذلك الأمر خمس نسخ ، احتفظ السلطان الظاهر جقمق بنسخة منها ، وأربع عند القضاة (١) ، وأصدر أمره أيضا بمنع النصارى واليهودى من مباشرة طب المسلمين (٢) ، وذلك فى سنة ٨٥٢ هـ .

وفى سنة ٨٥٦ هـ رسم السلطان الظاهر جقمق لوكيل بيت المال بأن يحضر ما عند النصارى من الرقيق ، حيث بلغه أن النصارى يشترون الاماء المسلمين ، ويستخدمونهم فى دورهم ، فشق ذلك على السلطان . (٣)

ويلاحظ مع كثرة هذه الأوامر الصادرة بالتضييق على اليهود والنصارى ، ألا أن كثيرا منها لا يعمل به ، وذلك بسبب سعي أهل الذمة بأموالهم لدى الأمراء المماليك وبعض المباشرين فى وظائف الدولة ليشفعوا لهم عند السلطان ، وبذلك تعود الأمور الى ما كانت عليه قبل صدور تلك الأوامر السلطانية . (٤)

ويمكن اجمال الوضع الاجتماعى لأهل الذمة فى هذا العصر فيما يلى :

- ١ - تعرضت طوائف من اليهود والنصارى لبعض المضايقه ، وفرضت الجزية عليهم (٥) فى مقابل حماية الدولة لهم ، وتزايدت شدة السلاطين المماليك مع هذه الطوائف كرد فعل على ما يلقيه المسلمون فى بلاد الحبشة ، وللموقف العسكرى بسين السلطنة المملوكية والقوى الصليبية ، يضاف الى ذلك حرص السلاطين المماليك

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٢٦٥ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥/٣٨٤ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٣٩٠ .

(٤) المحذر السابق ٢/٤١٣ .

(٥) وهى مبدأ اسلامي حيث تؤخذ منهم هذه المبالغ مقابل حماية الدولة الاسلاميه لهم وضمن سلامتهم ، مع بقائهم على ديانتهم .

على قمع المفسدين من أهل الذمة ، ولمحاولة الحد من غرورهم بعد أن أصبح من تولى منهم وظائف في الدولة يعامل المسلمين بأنفة وعزة نفس ، وتعالٍ على المسلمين . (١)

٢ - أعفى السلاطين المماليك رجال الدين النصارى الرجال منهم والنساء من دفع أية ضرائب ، وسمحوا لهم بزيارة الأماكن المقدسة - عندهم - بالقدس الشريف ، وشمل هذا العفو كل الرهبان حتى غير المصريين ، ومنحوا تسهيلات كثيرة بناء على أوامر تصدر من السلطان . (٢)

٣ - حاول بعض النصارى الانتقام مما أصاب بعض كنائسهم من الغلق والهدم ، فعمدوا الى اشعال النار في حركة غامضة مريبة في نواحي مختلفة من القاهرة ، وقد دمرت تلك الحرائق أحياء برمتها ، وانشغل الأمراء والعامّة باطفائها عدة أسابيع ، وكانت كلما خمدت النار في ناحية ، شبت في ناحية أخرى ، وشبت تورط النصارى في تلك الجريمة ، وفقدت مصر في تلك الحادثة الكثير من أحيائها الفخمة ومعاندها العلمية . (٣)

٤ - كان على أهل الذمة الالتزام ببعض القيود في اللباس ، فألزموا بلبس الغيار وهو غير لباس المسلمين ليسهل معرفتهم ، وفرض عليهم أن يميزوا أنفسهم بحليب من الحديد في رقابهم ، ومنعوا من ركوب الخيل ، وحمل السلاح ، وكان على المحتسب مراعاة التزامهم بذلك ، وفي حالة مخالفتهم لما اشترط عليهم وما أمروا به

(١) قاسم عبده : أهل الذمة في العصور الوسطى ٧٤ ، محمد عنان : مصر الإسلامية

٢٨ ، علي حسن : مصر في العصور الوسطى ٤٨٠ .

(٢) قاسم عبده : أهل الذمة في العصور الوسطى ٧٤ ، جاك تاجر : أقباط

ومسلمون ١٧٦ .

(٣) محمد عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المحرية ٢٨ ، والحرائق المشار اليها

وقعت في سنة ٧٢١ هـ .

تصدر الأوامر السلطانية لتذكيرهم بتلك القيود التي وضعت عليهم ، فكانت علامة على الذل والمهانة . (١)

٥ - دخلت طوائف من اليهود والنصارى في الاسلام ، وقد كانت هذه الفئة كبيرة نسبيا ، ولكن ساورت المسلمين الشكوك في صدق اسلام أولئك القوم الذين أطلق عليهم (المسالمة) ، وتوقف المسلمون في مدى اخلاص هؤلاء بسبب تصرفاتهم ، وما ظهر منهم من حرصهم على خدمة أتباع دينهم القديم ، والانتقام من المسلمين ، وحرصهم على تحقيق مصالحهم على حساب مصلحة المسلمين ، فكان اطلاق هذا اللقب عليهم تميزا لهم عن أهل الذمة الباقين على دينهم . (٢)

(١) قاسم عبده : أهل الذمة في العصور الوسطى ٧٥ .

(٢) علي حسن : مصر في العصور الوسطى ٤٨١ ، قاسم عبده : أهل الذمة في

العصور الوسطى ١٧١ - ١٧٣ .

المبحث الثالث

الناحية الاقتصادية

عاشت الخلافة العباسية أوضاعا اقتصادية مختلفة ، فتباين وضعها الاقتصادي

بين الاستقرار في فترة ، والتذبذب في فترات أخرى .

فوجد اقتصاد الخلافة في عرسلاطين المماليك البحرية شهد الاستقرار الاقتصادي ، بينما تدهورت الأوضاع الاقتصادية في عرسلاطين المماليك الجراكسة ، وكان العامل الاقتصادي الدعامة الكبرى للسلاطين البحرية ، في الوقت الذي كان فيه هذا العامل سببا لمأساة السلاطين الجراكسة . (١)

وقد اختلفت السياسة المالية في عصر السلاطين المماليك من سلطان لآخر :

أ - فمن السلاطين المماليك من حرص على واردات الدولة ، واهتم بانفاقها في المصلحة العامة لها .

ب - ومنهم من اجتهد في جمع الأموال لخزائن الدولة باثقال كاهل الرعية بالضرائب ، دون النظر الى شرعية تلك الضرائب طالما أنها تحقق للسلطان غايته . (٢)

وفيما يلي أشير الى أهم الموارد الأساسية لبيت المال في عصر الخلافة العباسية ، وهذه الموارد تنقسم الى قسمين :

أولا : الموارد الشرعية وتشمل الضرائب التالية :

١ - ضريبة الأرض أو الخراج ، وكانت تتفاوت هذه الضريبة من أرض لأخرى ، ووفقا لدرجة خصوبة الأرض من ناحية ، وزيادة المحصول أو نقصانه من ناحية أخرى ، وكانت هذه الضرائب تؤخذ من الوجه البحري (٣) ، بينما تؤخذ على أراضي

- (١) حمود النجيدى : النظام النقدي المملوكي ٤٥ .
 (٢) حمود النجيدى : الموارد المالية لمصر في عصر الدولة المملوكية الأولى ٣٩ .
 (٣) اشارة الى شمال الديار المصرية ، وكان مقسما الى عشرة أعمال أهمها : دمياط ، القليوبية ، الدقهلية ، المنوفية ٥٥٥ ولكل منها والي يعين من قبل السلطان .

الوجه القبلي^(١) عينا ، أى تؤخذ من غلة الأرض .^(٢) وهو ما يعبر عنه بالضريبة النوعية كالقمح ، والشعير ، والفلول ، والعدس ، فالوجه القبلي أكثر خراجه عينا (الفدان عليه من الانتاج عشرين أردبا) .

- ٢ - الزكاة : ويدفعها أصحاب الأموال للدولة أو يفرقونها بأنفسهم .
- ٣ - الجوالي : وهي الجزية المقررة على أهل الذمة نظير حماية الدولة لهم ، وتفرض هذه الضريبة على كل قادر بنسبة معينة ، وقد نقصت هذه الضريبة في عصر المماليك ، وتراوحت بين خمسة وعشرين درهما ، وخمسة دراهم على الفرد ، وكان لهذه الضريبة ناظر في الديار المصرية يوليه السلطان تلك الوظيفة ، أما خارج القاهرة فكان الوضع في جمعها بأن تكون جزية أهل الذمة في كل بلد لأميره أو متولييه .^(٣)
- ٤ - الموارد الحشرية : ويقصد بها الأموال التي يموت عنها أصحابها وليس لهم وارث ، ولهذه الأموال ناظر خاص بها يولي من قبل السلطان ، ويقوم بحمّل المتحصل منها الى بيت المال .
- ٥ - ما يتحصل من دار ضرب النقود : وكان يضرب بها ثلاثة أصناف هي : الذهب ، والفضة ، والنحاس ، ويقصد بهذه الضريبة ما يؤخذ من صاحب الذهب أو الفضة أو النحاس مقابل ضرب معدنه وتحويله الى دنانير أو دراهم أو فلوس بعد ضبط عيارها ، وكان بالديار المصرية داران لضرب العملة احدهما بالقاهرة ، والأخرى بالاسكندرية ، وأجرة كل ألف دينار تضرب بالدار ثلاثون ديناراً^{١/٤}، أما الفضة فأجرة ضرب كل ألف درهم منها أربعة عشر درهماً^{١/٤} .
- ٦ - ومن الموارد المالية للخلافة العباسية في عصر نفوذ السلطنة المملوكية الضريبة على

(١) إشارة الى جنوب الديار المصرية ، ويشمل ثمانية أعمال لكل منها والي يعين من قبل السلطان ، وأهمها : أسيوط ، بهنسا ، قوص ، الفيوم ، وغيرها .

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٢١٤ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٤٠٨ .

(٣) علي حسن : مصر في العصور الوسطى ٣٨٢ ، سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٢١٥ .

الجسور وهي على نوعين :

٣٦٨

- أ - الجسور السلطانية : وهي التي تقام على نهر النيل وفروعه ، وتتولى الدولة اقامتها وصيانتها .
ب - الجسور البلدية : وهي أصغر حجما من الجسور السلطانية وأكثر عددا ، وتقام على الطرق والزراعة ويتولى الفلاحون اقامتها وصيانتها ، ونفعها يعود على البلاد عامة .
٦ - أموال الثغور : وهي ما يؤخذ من التجار الواملين في البحر الى الديار المصرية ،

فكان يؤخذ الخمس عن كل ما يجلبه التجار من بضائع ، وربما زاد على الخمس فسي

بعض الأحيان ، ولم يسر السلاطين المماليك على نظام ثابت في تقدير هذه الرسوم

بل كانت تزيد وتنقص تشجيعا للتجارة .

٧ - المعادن المستخرجة من أرض الدولة : وقد احتكر السلاطين المماليك هذه المعادن

لشدة طلب الأوربيين عليها ، فكان السلاطين يبيعونها بأضعاف أثمانها ، ولييسر

لأحد أن يبيعه أو يشتريه سوى الديوان السلطاني ، ومتى وجد شيء منها مع أحد

التجار أو غيرهم يتم مصادرتة وحرمانه من الاستفادة من ثمنه .

٨ - مقرر رسم الجهاد: وهو ما كان يؤخذ من كل تاجر عند رحيل العساكر السلطانية

للقاتل خارج الديار المصرية .

٩ - غنائم الحرب وما يؤخذ من الأسرى من فدية مقابل اطلاق سراحهم ، أو ما تدفعه

المدن التي فتحت على أيدي الجيوش المملوكية ، ويتم تحديد تلك المبالغ باتفاق

خاص مع أهلها . (١)

١٠ - يخاف الى ذلك مجموعة من المكوس والضرائب التي تفرغ من حين لآخر ، فيفرضها

سلطان ويبطلها آخر ، وذلك حسب الظروف الاقتصادية التي تمر بها الدولة .

١١ - التجارة العالمية : أصبحت الموانيء المصرية نقطة التقاء للتجارة بين الشرق

والغرب في عصر الدولة المملوكية ، وكانت هي الطريق الرئيسي لتجارة التوابل

(١) سعيد عاشور : معر في عصر المماليك البحرية ٢١٥ - ٢١٢ ، عمر كحالة : مباحث

اجتماعية ١١٥ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٤٠٩ ، معر في المعصوم

الوسطى ٣٨٣ .

الشرقية الواردة من الهند في طريقها الى أوروبا^(١) ، وقد كانت هذه التجارة تدر على الدولة أرباحا طائلة ، ورغبة من السلاطين المماليك في زيادة أموالهم فرضوا المزيد من الضرائب على السلع والبضائع المارة ببلادهم ، واتبعوا سياسة الاحتكار لبعض الأصناف فارتفعت بذلك أثمان البضائع الشرقية ، وأمدهم ذلك الاحتكار بثروة مالية ظهر أثرها في حياتهم الخاصة والعامة ، يؤكد هذا أخبار ترفهم و اسرافهم وما حفلت به القصور السلطانية في عصور السلاطين المماليك من أثاث ورياش وغيرها .^(٢)

وكان في مقدمة الموانئ التجارية:

أ - ميناء جدة :

وقد حظي بمكانة هامة دينية واقتصادية ، فهو ميناء أم القرى مكة المكرمة ، وعن طريقه يصل حجاج بيت الله الحرام الذين يركبون البحر ، ومنه تزود بلاد الحجاز بالمؤن والبضائع من شتى بقاع العالم ، وغدت لجده أهمية تجارية وأصبحت مركزا من مراكز تجارة العالم في العصور الوسطى ، تلتقي فيه السفن الآتية من الهند بالسفن القادمة من مصر ، فكانت أغلب تلك السفن تفرغ حمولتها في ميناء جدة ثم تعود الى الهند ، وقد اهتم السلاطين المماليك بواردات هذا الميناء ، وخصصوا له ناظرا يتولى تحصيل تلك الواردات المالية وحملها الى الخزائن السلطانية .^(٣)

-
- (١) عبد الله الحبيد : المماليك الجراكسة في اليمن - مجلة البحث العلمي والدراسات الاسلامي - ع ١ ، س ١٣٩٨ هـ ، ص ١٦٥ . محمد صالح : تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة - مجلة الدارة ع ٢ ، س ١٤٠١ هـ ، ص ١٢٧ . عبد الله عنقاوي : دراسة عن كتاب شفاء الغرام - مجلة الفيصل ع ٣ ، س ١٣٩٧ هـ ص ٢٣ . فائق الصواف ومصطفى رمضان : أهمية ثغر جده - مجلة الدارة ع ٢ ، س ١٤٠١ هـ ص ١٩٩
- (٢) نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ١٣ ، جورج يانج : مصر من عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل ٢٤ . سونيا هاو : في طلب التوابل ٥ ، سعد عبد الحميد : الحياة الدينية في المدينة الاسلامية - مجلة عالم الفكر ، ع ١ ، س ١٩٨٠ م ص ٩٣ .
- (٣) عبد الله عنقاوي : دراسة عن كتاب شفاء الغرام ٢٤ ، أمين عبد الله : طرق الحج والتجارة العربية في العصر الاسلامي - مجلة الفيصل ع ١٨ ، س ١٣٩٨ هـ ص ٢٤ - ٢٥ .

ب - مينائى السويس^(١) والاسكندرية :

وهما من الموانئ المصرية التي زادت أهميتها من خلال حركة التجارة العالمية المارة بهما ، فكانت السفن التجارية تحمل البضائع من ميناء جدة الى مينائى السويس والاسكندرية لمواصلة خط سيرها باتجاه أوروبا بعد أن أخذت دولة السلاطين الضرائب المقررة على تلك السلع .^(٢)

ولكن هذا المورد التجارى الهام فقدته السلطنة المملوكية بعد أن تحولت طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب من حوض البحر الأبيض المتوسط الى سواحل المحيط الأطلسي بعد اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح ، فكسدت التجارة الخارجية ، وتراجعت موارد الدولة المالية نتيجة لذلك .^(٣)

ثانيا : الموارد المالية غير الشرعية :

ويقتصد بها الضرائب المتنوعة التي لا يوجد سند شرعي اعتمد عليه السلاطين المماليك في فرضها ، ولم تكن جميع المكوس في ذلك العصر من ابتكارهم ، بل كان بعضها موروثا عن العصور السابقة لهم .

ولم تكن تلك الضرائب على حال واحد طوال عصر المماليك ، فربما تطرف أحد همم في جمعها وزيادة قيمتها ، ثم يعقبه سلطان آخر تغلب عليه روح التخفيف عن الرعية فيلغى بعض تلك الضرائب أو معظمها^(٤) ، ومن هذه الضرائب غير المشروعة :

-
- (١) بليد على ساحل البحر الأحمر (القلزم) من نواحي مصر ، وكان ميناء أهل مصر السى مكة والمدينة . (الحموى : معجم البلدان ٢٨٦/٣) .
 - (٢) محمد صالح : تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة ١٢٧ ، جوزيف نسيم : دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ١٠١ - ١٠٢ .
 - (٣) علي حسن : معر في العصور الوسطى ٢٨٥ ، وكان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ م .
 - (٤) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحريذ ٢١٨ ، علي حسن : مصر في العصور الوسطى ٢٨٢ .

- ١ - المصادرات : وهي الاستيلاء على أموال الغير بغير حق بموجب أمر من السلطان ، وقد اشتهر عصر المماليك بهذه الظاهرة نظرا للتنافس الشديد بين السلاطين وكبار الأمراء المماليك من جهة ، وبين كبار الأمراء أنفسهم عند تعارض مصالحهم وطموحاتهم من جهة أخرى ، وأكثر الأوقات التي انتشرت فيها هذه الظاهرة عند خلع أحد السلاطين أو وفاته واعتلاء سلطان جديد لكرسي السلطنة ، فيصب جام غضبه على الأمراء أو رجال الدولة أو أصحاب الأموال . (١)
- ٢ - مكس ساحل الغلة : وهي الضريبة المفروضة على الغلات والاتجار فيها .
- ٣ - رسوم الولاية : وهي المبالغ التي يجمعها الولاة من عرفاء الأسواق .
- ٤ - مقرر السجنون : وهي مبالغ تؤخذ على كل من يدخل السجن ولو لحظة واحدة .
- ٥ - مقرر المراكب : وهو ما يؤخذ على كل مركب .
- ٦ - زكاة الدولة : وهو ما يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله ولو عدم ، وإذا مات يؤخذ المقرر من ورثته .
- ٧ - مقرر الأقباب : وهو ما يؤخذ من مزارعي قصب السكر .
- ٨ - مقرر البشارة : وهو ما يؤخذ إذا جاء من يبشر بفتح حصن أو مدينة أو قهر عدو ، فيجمع ذلك المقرر من الناس على قدر طبقاتهم ، ويجمع من ذلك مال كثير .
- ٩ - المكوس المفروضة على ممارسة بعض الأعمال الغير أخلاقية المنافية للدين الاسلامي الحنيف مثل الاتجار بصناعة الخمر وبيعها ، وبيوت البغاء وغيرها . (٢)

(١) حمود النجيدى : النظام النقدي المملوكي ٤٤٥ .

(٢) سعيد عاشور : مصرفي عصر المماليك البحرية ٢٩٢/١١ ، الصيرفي : انبأء

الهصر بأنباء العصر ٣٧ .

- ١٠ - ديوان البذل : فقد شاع في ذلك العصر دفع الأموال لخزائن السلطان سعياً لنيل وظيفة في الدولة ، وصار من له حاجة يأتي الى صاحب الديوان ويبدل ما له فيما يريد من الوظائف " (١) ، وقد انتشرت هذه الرشاوى وأصبحت من سحات هذا العصر .

ثالثاً : النفقات :

مما تقدم يظهر حجم موارد الدولة المالية التي كان لها الأثر الواضح في الناحية الاقتصادية للسلطنة المملوكية ، وقد استغل السلاطين المماليك تلك الأموال في الانفاق على النواحي التالية :

- ١ - دفع رواتب أرباب الوظائف بالدولة من الأمراء والوزراء والقضاة والولاة ، ورجال الدواوين من نظار وكتاب والنواب والعساكر السلطانية .
- ٢ - توزيع الهدايا والعطايا والهبات على العلماء والأدباء والأعيان .
- ٣ - الانفاق في وجوه الإصلاح وما تتطلبه البلاد من منشآت مثل بناء المساجد والمسدارس وغيرها .
- ٤ - الانفاق على تجهيز الجيوش وتزويدها بالسلاح ، وبناء الحصون والقلاع ، واتعداد السفن الحربية بمختلف أنواعها ، وقد تطلب هذا الجانب العسكري الأموال الكثيرة في ظل مواجهة السلاطين المماليك لأعدائهم من المغول والصليبيين . (٢)
- ٥ - أنفق السلاطين الجزء الأكبر من تلك الموارد المالية على شؤونهم الخاصة ومن ذلك :

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١/٢٩٢ ، الميرفي : انباء الهجر بأبناء العصر ٣٧ اليوسفي : نزهة الناظر في سيرة الناصر ٧٨ - ٧٩ ، ٢٧٢ .

(٢) سعيد عاشور : محرف في عصر المماليك البحرية ٢١٩ - ٢٢٠ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٤١١ - ٤١٢ .

- أ - شراء المماليك و تربيتهم والانفاق عليهم بسخاء ، حتى أن الدور السلطانية كانت تعج بأولئك المماليك الذين يأكلون أفخر الطعام ، ويلبسون أغلى الثياب ، بعد أن دفعت فيهم أغلى الأثمان . (١)
- ب - اهتم السلاطين المماليك ببناء القصور الفخمة التي استنزفت القدرات المالية للدولة لما احتوت عليه من سقوف مذهبة ، ونقوش مزخرفة ، وما يخلفه السلاطين خلفهم يدل على الثراء الذي عاشوا فيه . (٢)
- ج - اهتم السلاطين المماليك بتربية الخيل و دفعوا فيها أثمان باهظة ، وبلغ الأمر أن جعل ديوانا خاصا بتلك الخيول . (٣)
- د - تميّز عصر السلاطين المماليك بحفلاته الباذخة ، وموائده المتنوعة بتنوع المناسبات من زواج ، أو ختان مولود ، أو شفاء من مرض ، أو عودة من سفر . (٤)
- هـ - صرفت مبالغ على مجالس السلطان المملوكي ولهوه مع ندمائه ، وأنفق السلاطين المماليك بسخاء على أولئك الندماء . (٥)
- ويبين المقرئ هذا البلاء ويتحدث عن أسباب القحط و غلو الأسعار ، ويشير الى بعض الجوانب الاقتصادية للدولة الاسلامية في عصر السلاطين المماليك فيقول : " ٠٠٠ " ولما طال أمد هذا البلاء المبين ، وحلّ فيه بالخلق أنواع العذاب المهين ، ظن كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ، ولا مرّ في زمن شبهها ، وتجاوزوا الحد فقالوا :

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥٨/٩ .
 (٢) المصدر السابق ١٥١/٩ ، المقرئ : الخطط المقرئية ٢١٩/٢ .
 (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦٨/٩ - ١٧٠ .
 (٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٥١/١ ، ٤٥١ ، ٢٤٢/٣ ، العيني : عقود الجمان ١٥٥/١ .
 (٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥٠/١٠ .

لا يمكن زوالها ، ولا يكون أبداً عن الخلق انفعالها ، وذلك أنهم قوم لا يفقهون ، بأسباب الحوادث جاهلون ، ومع العوائد واقفون ، ومن روح الله آيسون

ومن تأمل هذا الحادث من بدايته الى نهايته ، وعرفه من أوله الى غايته ، علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد

ثم أشار الى واقع حال البلاد والعباد بقوله : . . . ان غائب ما يحدث من آفات سماوية كقصور جرى نهر النيل ، وعدم نزول المطر ، أو آفة تصيب الغلال من سمانم تحرقها ، أو رياح تهيئها ، أو جراد يأكلها ، وما شابه ذلك . . . عادة الله تعالى في الخلق اذا خالفوا أمره ، وأتوا محارمه ، أن يصيبهم بذلك جزاء بما قدمت أيديهم . . .

ويضيف مبينا الأسباب التي ساعدت على طول مدة تلك المحن بقوله : . . . وسبب

ذلك كله ثلاثة لا رابع لها :

السبب الأول :

وهو أصل هذا الفساد ولاية الخطط السلطانية ، والمناصب الدينية بالرشوة كالسوزارة والقضاء ، ونيابة الأقاليم ، وولاية الحسبة ، وسائر الأعمال ، بحيث لا يمكن التمويل السلي شيء منها الا بالمال الجزيل ، فَتَحَطَّى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ الى ما لم يكن يؤمله من الأعمال الجلييلة ، والولايات العظيمة .

السبب الثاني :

وهو غلاء الأطنان بسبب رفع وكلاء الأمراء الأجور على مستأجريها من الفلاحين ، مع تزايد كلفة الحرث والبذر والحصاد ، وكثرة نكايه الولاة والعمال ، واشتداد وطأتهم على أهل الغلخ المزارعين ، وكثرت المغارم فخربت معظم القرى ، وتعطلت الأراضي من الزراعة فقلت الغلال وغيرها . (١)

(١) المقريري : اغاثة الأمة بكشف الغمة ٤٣ ، ٤٧ .

السبب الثالث :

وهو الغش في ضرب الفلوس ، لأنه صار ما يشتري بد رهم هو ما كان يشتري من قبل بنصف الدرهم ، وكانت الفلوس مع ذلك لا يشتري بها شيء من الأمور الجليلة ، وإنما هي لنفقات البيوت ، ولأغراض ما يحتاج اليه من الخضر والبقول . (١)

ويبين المقريزي أوضاع الناس الاقتصادية حسب مراتبهم التي قسمها السبب

سبع مراتب :

- ١ - أهل الدولة ، الذين كثرت الأموال بأيديهم .
- ٢ - ميسير التجار ، وأولوا النعمة والترف .
- ٣ - أصحاب البز ، وأرباب المعاش الذين ينفق الواحد منهم ما اكتسبه فيما لا بد منه من الكلف ، وحسبه ألا يستدين لبقية حاجته .
- ٤ - أصحاب الفلاحة والحرث ، وقد هلك معظمهم لشدة السنين وتوالي المحسن بقله ربي الأرض .
- ٥ - أكثر الفقهاء وطلاب العلم ، ومن شابههم ممن له عقار ، أو جار معلوم من سلطان أو غيره ، فهم بين ميت أو مشتبه الموت لسوء ما حلّ به .
- ٦ - أرباب المهن ، والأجراء والبنائة ونحوهم ، فان أجورهم تضاغت تضاغفا كثيرا ، إلا أنه لم يبق منهم الا القليل لموت أكثرهم ، بحيث لم يوجد الواحد منهم إلا بعد تطلب وعناء .
- ٧ - أهل الخصامة والمسكنة ، وقد فنى معظمهم جوعا وبردا ، ولم يبق منهم إلا أقل من القليل . (٢)

(١) المقريزي : اغائة الأمة بكشف الغمة ٧٠ .

(٢) المصنوع السابـق ٧٥ .

ويمكن اجمال أبرز ملامح الناحية الاقتصادية في هذا العصر فيما يلي :

- ١ - أغرت كثرة الموارد المالية للدولة السلاطين المماليك ، فأسرفوا في انفاق أموال الدولة فيما لا فائدة فيه ، مثل بناء دور ، وشراء ممالك للسلطان ، وإنشاء منتزهات ، والحمول على ملذات (١) ، كان الهدف منها إبراز نفوذ الطبقة الحاكمة ، والرفع من هيبة الدولة . (٢)
 - ٢ - لم يقتصر الاسراف في الانفاق على السلاطين المماليك فقط ، وإنما تنافس في ذلك الأمراء والوزراء والكتاب والتجار ، فتسابقوا في تشييد القصور ، والتغنى في نقوشها وزخرفتها ، والمبالغة في أثاثها حتى عُدت مضرب الأمثال ومحورا لكثير من القصص التاريخية . (٣)
 - ٣ - انتشار الغش في نقود الدولة ، حتى وصل الأمر أن السلطان الظاهر برقوق لرغبته في ضبط ضرب العملة وأوزانها عمد الى نقل دار الضرب الى منزله ، ليشراف بنفسه على ضرب دراهم نقدية جديدة ذات وزن و عيار دقيقين ، ويلاحظ نتيجة ذلك هبوط قيمة تلك النقود فيذكر المقرئ ذلك بقوله : " ٠٠٠ وأما الفلوس فلا يشتري بها شيء من الأمور الجليلة ، وإنما هي لنفقات الدور ٠٠٠ " (٤) ، وقد اختلف تعامل السلاطين المماليك مع هذه الظاهرة ، فنجد شدة السلاطين البحرية
-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥٨/٩ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٠/١٠ ، ١٣٥/١٣
 - ابن اياس : بدائع الزهور ٣٥١/١ ، ٤٥١ ، ٣٨/٢ ، ٤٧ ، ٤٣/٣ ، ٤٢٩ ، ٣/١٥١ .
 - (٢) علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، عبد المنعم ماجد : رسوم دولة المماليك ٦٤/٢ ، حمود النجيدى : الموارد المالية لحصر ٤٠ .
 - (٣) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ١٢٣ ، الظاهر بيبرس ١٣ .
 - علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٤١٢ ، محمود سليم : عصر سلاطين المماليك ٣٤٧/٢ ، عبد الرحمن الراجعي : مصر في العصور الوسطى ٤٦٨ ، عبد الوهاسب عزام : مجالس السلطان الغورى ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٠ .
 - (٤) المقرئى : شذور العقود في ذكر النقود ٣٩ ، اغاثة الأمة بكشف الغمة ٧٠ .

في معاقبة من يغش في العملة ومحاسبتهم للقائمين على دور الضرب عند اختلال الأوزان النقدية ، بينما نجد تساهل السلاطين الجراكسة مع من يغش العملة . (١)

- ٤ - تذبذب أسعار النقود المملوكية بسبب فشو الغش فيها ، أو بسبب ضرب السلاطين المماليك لنقود جديدة في بداية ولايتهم ، وتسلمهم السلطنة ، أو لمحاولة القضاء على النقود المغشوشة التي أصبحت متداولة في أيدي الناس ، مع أن قيمتها الفعلية تقل عن قيمة النقود غير المغشوشة ، فكثيرا ما أمر السلاطين المماليك بتغيير قيمة النقد المتداول ، ويحصل من جراء ذلك خسارة مالية للناس عندما ينادى بنقص تلك القيمة إلى النصف (٢) ، بمعنى أن من بيده عشرة آلاف درهم على سبيل المثال ، أصبحت قيمتها بعد النداء خمسة آلاف فقط ، حتى أن السلطان الظاهر برقوق مات وللناس ثلاثة نقود يتعاملون بها ، " وظهرت أيضا مجموعات من النقود المختلفة ضربا تباعا لسلاطين لم يكن حظهم من الملك سوى الجلوس على كرسي السلطنة لفترة قصيرة ، ثم يتسلمه منهم غيرهم بعد هم " (٣)
- ٥ - انتشار التطفيف في الموازين ، والغش في السلع ، وفشو ذلك منكرا ، وتزايد طمع السوق لما جعلوا عليهم الرواتب الشهرية . (٤)

- (١) حمود النجيدى : النظام النقدي المملوكي ٤٩ ، عمر كحالة : مباحث اجتماعية في عالمي الغرب والاسلام ١١٦ .
- (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٨٤/١٤ ، ٩٩/١٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢٨/٢ ، ٧٨ ، ٢٩٤ ، ٣٣٦ ، ٢٠/٣ .
- (٣) محمد الحسيني : الكنى والألقاب على نقود المماليك بمصر والشام - مجلة المورد العدد الأول ، سنة ١٣٩٥ هـ ، ص ٥٥ - ٥٧ .
- (٤) السخاوى : التبر المسبوك ٧٧ ، المقرئى : اغاثة الأمة ٤٠ .

٦ - غلاء الأسعار لجشع و طمع التجار ، وفي مقدمتهم السلاطين والأمراء المماليك

الذين تعاطوا التجارة ، ورافق ذلك الارتفاع في الأسعار قلة المؤن والأرزاق لتكرار
حوادث القحط و قلة الأمطار .

٧ - حاول بعض السلاطين المماليك التدخل للحيلولة دون استفحال تلك الأزمات

الاقتصادية التي هددت استقرار المجتمع اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا .

٨ - أصدر بعض السلاطين أوامرهم بتحديد أسعار الغلال الأساسية لمنع أمحابها

من استغلال قلتها في رفع أسعارها لتحديد أرباح طائلة على حساب أصحاب الدخول

المتوسطة من الرعية ، على أن بعض السلاطين المماليك ممن امتهنوا التجارة

احتكروا بعض السلع وكانوا يحرمون على غيرهم بيعها ، فكانوا يتحكمون في

أسعارها ، واتبعوا سياسة تخزينها عند وفرتها ، ثم التكب فيها عند ندرتها

ببيعها بالسعر الذي يريدون .

٩ - أثرت تلك الأزمات الاقتصادية على أنشطة البيع والشراء ، فمع شدة بعض الأزمات

الاقتصادية التي عصفت بالدولة وبالبلاد تجمدت حركة البيع وتراجعت

أنشطة الرزق والتكسب فيها .

١٠ - انفراج تلك الأزمات الاقتصادية يعود بالدرجة الأولى إلى قوة شخمية السلطان

المملوكي وحسن تدبيره . و حكمته في مواجهة تلك الظروف العميقة ، فعند

استطاعته تحديد الأسعار ومواجهة أطماع الأمراء المماليك والتجار فإنه بذلك

يمنع حدوث الكثير من العواقب الوخيمة التي لا تحمد عقبائها ، وبذلك أصبح

السلطان المملوكي واستقرار أحوال البلاد والعباد في كفة . وأطماع التجار في

كفة أخرى ، ولا بد أن يعمل السلطان على ترجيح كفته ، وتقدّم المصلحة العامة على

(١) المصالح الفردية والأطماع الشخمية قبل أن تؤدي به وبملكه وبرعيته فيخسر ذلك كله .

(١) حياة الحجى : الأمير قوصون - المجلة العربية للعلوم الإنسانية ع ٢٢ ، ص ١٩٨٨ م ص ١٦ .

المبحث الرابع

الناحية العلمية

أثر العلماء

المسلمين

ازدهرت الحركة العلمية في عصر الخلافة العباسية بالديار المصرية والبلاد الشامية ازدهارا عظيما ، يدل على ذلك ما خلفه علماء ذلك العصر من مؤلفات عظيمة في مختلف العلوم . (١)

فبعد اجتياح جيوش المغول للمشرق الاسلامي وسقوط الخلافة العباسية في بغداد ، واحياء الخلافة العباسية في مصر ، غدت القاهرة محل سكن العلماء ، ومحط أنظار الرجال الفضلاء ، فانتقل كثير من علماء المشرق وبلاد الشام الى الديار المصرية ، حيث وجدوا البيئة الصالحة لممارسة نشاطهم ، وبسقوط مدينة بغداد واحياء الخلافة في مصر ، ورثت القاهرة بغداد وأصبحت مركز النشاط العلمي في العالم الاسلامي ، ومركزا للاسلام ، ومنزلا جديدا منيعا للخلافة . (٢)

ولما استقر العلماء شعروا بواجبهم بعد محنة بغداد ، فاجتهدوا في القيام به ، ووجهوا عنايتهم لخدمة العلوم الاسلامية ، وقد امتازت النهضة العلمية التي بلغت أوجها في هذا العصر بأمرين :

- ١ - صيانة التراث الاسلامي الذي كادت تعصف به أيدي المغول .
- ٢ - اجتهاد العلماء في المحافظة على ذلك التراث وصيانتته والعمل على تجديده فأسهموا بذلك في المحافظة على مظاهر مشرقة من نتاج الحضارة الاسلامية . (٣)

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٣٤١ ، مصر في عصر المماليك البحرية ١٨٩ ، أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ٤٠١ ، حسن الباشا : دراسات في تاريخ الحضارة ٣١ ، عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ٥٤٩ ، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ٣٧١ ، ٣٧٣ .

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٨٩ ، طه الطراونة : مملكة مفسد في عهد المماليك ٢٥٩ .

(٣) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ٢٥ ، محمود لاشين : دراسة تحليلية للدواوين - مجلة أم القرى ، العدد الثاني ، ص ٢٥١ .

ومما يؤكد وفرة النشاط العلمي في هذا العصر كثرة المدارس التي شيدتها السلاطين والأمراء المماليك ، تشجيعا للعلم والعلماء ، وقد ذكر عنها : " أنه لا يحيط بحمورها لكثرتها " (١) ، وإذا كان هذا فيما يتعلق بالمدارس ، فكيف بمن تولى التدريس فيها من العلماء ، ومن درس فيها من طلبة العلم والتلاميذ .

ويؤكد قوة الحركة العلمية في هذا العصر نشاط حركة الكتابة العلمية ونسخ الكتب وبيعها ، وذلك مجارة لازدهار حركة التأليف العلمية . (٢)

يضاف الى ذلك اهتمام السلاطين المماليك ببناء المساجد والمدارس التي تدرس بها العلوم الاسلامية ، وأوقفوا عليها الأوقاف الطائلة للنفقة على المدرسين بها وطلبة العلم (٣) ، وانتشر بناء المكاتب على نطاق واسع في هذا العصر وعرف منها نوعان :

النوع الأول :

المكاتب الأهلية أو الخاصة ، وهي التي كان يقيمها من وجدوا في أنفسهم القدرة على اتخاذ التعليم حرفة يتقوتون منها ، ويتم تعليم الصبيان فيها بأجر يُدفع لأصحابها .

(١) ابن بطوطة : الرحلة ١/٧٠ .

(٢) يحي ساعاتي : تجارة الكتب في الاسلام - مجلة العمور ، المجلد الأول : سنة ١٩٨٦ م ، ص ٧٧ ، عبد الكريم الأسعد : لمحات من النشاط العلمي في عصر المماليك - المجلة العربية ، العدد ١٠٤ ، السنة ١٤٠٦ هـ ، ص ٩١ . طارق الحمداني : التدوين التاريخي في العراق - المجلة العربية للعلوم الإنسانية - العدد ٢٩ ، السنة ١٩٨٨ م ، ص ١٧٩ . محمد كمال الدين علي : المكاتب ودورها في النهضة الفكرية - مجلة الدارة - العدد الأول ، السنة ١٤١٠ هـ ، ص ١٠٢ . محمد السيد : الأزهر جامعا وجامعة - مجلة الأزهر المجلد الرابع ، شعبان سنة ١٣٩٨ هـ ، ص ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٩٧ .

خالد زيادة : من المماليك الى العثمانيين - مجلة الاجتهاد - العدد الرابع السنة ١٩٨٩ م ، ص ١٧٠ - ١٧١ . مأمون الحناجرجي : المدارس في بيت المقدس - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - المجلد ٦٠ ، ص ١٤٠٥ هـ ص ١٥٣ . (٣) محمد سلام : الأدب في العصر المملوكي ١/١٦ ، صالح معتوق : بدر الدين العيني وأثره في علم الحديث ١٤ .

النوع الثاني :

المكاتب العامة : وهي التي كان يقيمها أصحاب النفوذ في الدولة من سلاطين وأمراء وأرباب وظائف وتجار وغيرهم من الأعيان ، ابتغاء مرضاة الله عز وجل وثوابه ، وكان التعليم فيها مكفولا للأيتام والفقراء الذين لم يملوا حد البلوغ ، ويخص لهم مبالغ نقدية لما يحتاجونه أثناء دراستهم من ألواح وأقلام ، ويقدر لهم من الكسوة ما يحتاجونه في الأعياد وغيرها . (١)

وفيما يتعلق بالتعليم في عصر المماليك فإنه لا توجد سياسة معينة ثابتة حرص السلاطين المماليك على تنفيذها للأسباب التالية :

- ١ - المماليك أنفسهم كانوا يربون تربية خاصة في الدور السلطانية ، حيث يتعلمون القراءة والكتابة ومبادئ في الحديث والفقه ، وبعد هذه المرحلة ينتقلون عند سن البلوغ الى التدرج على أعمال الفروسية ، واستخدام السلاح في القتال .
- ٢ - أما العامة من غير المماليك فكان أمامهم المكاتب ليتعلم الصغار والأحداث فيها ، ثم ينتقلون الى المدارس ، وهي أشبه بالمعاهد العلمية العالية ليتم فيها الكبار دراستهم . (٢)

أما مناهج التعليم في تلك المكاتب فكانت تدور حول القراءة والكتابة والتعليم القرآن ، والحديث ، وآداب الدين ، فضلا عن مبادئ الحساب وقواعد اللغة وبعض الشعر ،

(١) محمد كمال الدين علي : المكاتب ودورها في النهضة الفكرية والاجتماعية في مصر

المملوكية - مجلة الدارة - العدد الأول ، سنة ١٤١٠هـ ، ص ١٠٣ .

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٩٠ ، محمد خفاجي :

الأدب في مصر ٩٠ .

ويبدأ الأطفال بالكتاب في ألواح ثم ينتقلون بعد ذلك الى الكتابة بالمداد (١) ، فاذا بلغ الطفل الحلم وزالت عنه صفة اليتيم صرف من ذلك المكتب ليحل محله مستحق آخر .

أما التعليم العالي في عصر المماليك فكان محوره المدارس التي روعي فسي

تصميمها الأغراض التعليمية ، فتحوى على خزانات للكتب ، وماكن للطلبة ، أما العلوم الأساسية التي كانت تدرس في هذه المدارس فقد ارتبطت بأصول الدين كالفقه والحدِيث والتفسير ، ثم العلوم اللغوية كالنحو والحرف والبيان ، ثم يضاف الى ذلك الدراسات العقلية كالمنطق ، و العلوم العملية كالفلك و علم الهيئة والكيمياء و الطب ، وجميع هذه العلوم يقوم بتدريسها أساتذة مبرزون في فنهم . (٢)

وقد قامت الأوقاف بدور كبير في الناحية العلمية في عصر السلاطين المماليك

اذ كفلت لطلبة العلم حياة هادئة طيبة ورواتب شهرية ومخصصات سنوية تصرف لهم في المواسم والأعياد ، و حددت معظم تلك الأوقاف لطلبتها مقررات مختلفة من الطعام واللباس وغيرهما ، أما المدرسون والشيوخ فتقاضوا ما هو مقرر لهم من مرتب نقدي حسب شروط الواقف ، بالإضافة الى الأمانات العينية مثل الخبز واللحم التي تصرف لهم يوميا . (٣)

ونفسج عن هذه الرعاية للعلم والعلماء في هذا العصر وجود حركة علمية كان

من مظهرها كثرة العلماء في كل فرع من فروع الثقافة الاسلامية ، وضخامة ما ألفه هؤلاء ،

(١) المداد هو ما يكتب به . (الفيومي : المعباح المنير ٢٣٠) . وعن وظائف

المدرس وطريقة التدريس السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ٤٥ ، ١٠٥ ، ١٠٨ .

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٩١ - ١٩٢ ، محمد سلام :

الأدب في العصر المملوكي ١٦/١ . عاطف أباطة : المدارس الاسلامية - مجلة المنهل - العدد ٤٦٧ ، السنة ١٤٠٩ هـ ، ص ١٠١ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥٥٧/١٥ ، وللخائدة : سعيد عاشور : مصر

في عصر المماليك البحرية ١٩٥ - ١٩٦ .

العلماء الأفاضل من مؤلفات . (١)

وفيما يلي بيان لأهم أولئك العلماء الذين ظهوروا في هذه الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية ، وبعض العلوم الإسلامية التي برزوا فيها وذلك على سبيل المثال لا الحصر ، لأن الناحية العلمية في عصر الخلافة العباسية بمصر أكبر من أن يحيط بها مجلد واحد فضلا عن مبحث أو فصل وذلك لسببين :

- الأول : طول المدة الزمنية للخلافة العباسية بمصر حيث تجاوزت قرنين ونصف من الزمان .
- الثاني : سعة البلاد التي وقعت تحت الخلافة حيث شملت الديار المصرية ، والبلاد الشامية ، والأقطار الحجازية .

أولا : الموسوعات العلمية :

ظهر في عصر الخلافة العباسية بمصر طائفة من علماء الإسلام الذين جمعوا شتات العلوم ، فأقبلوا على مؤلفات من سبقهم بالشرح والتلخيص ، فظهر منهم نوابغ علماء الإسلام ، كانوا أصحاب الفضل في ضم شتات العلم والأدب في أسفار أشبه بدوائر المعارف الحديثة لما اشتملت عليه من مؤلفات متنوعة لعلوم مختلفة ، ونرى في ظهور أولئك العلماء الأفاضل فضل الله جل شأنه على هذه الأمة ، فقد هيا سبحانه من حين إلى حين أمثال أولئك العلماء الأعلام يجدون ما اندرس ويجهدون في رآب ما انمدع . (٢)

- (١) محمد خفاجي : الأدب في مصر ٩٠ ، محمد سلام : الأدب في العصر المملوكي ١٨/١ . محمد طه الجابري : صور من الحياة العلمية في مصر - مجلة الرسالة العدد ١٤٢ ، السنة ١٣٥٤ هـ ، ص ٤٦٧ . نادية صقر : دراسة مقارنة في كتب التراث - مجلة المورد - العدد الرابع ، السنة ١٩٨٥ م ، ص ١٥٠ .
- (٢) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ٤٠٤ ، عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ١٨٢ ، محمد سلام : الأدب في العصر المملوكي ٦٤ / ٢ . محمود سليم : عصر السلاطين المماليك ٨٥/٣ .

ومن علماء الاسلام في هذا العصر :

١ - شيخ الاسلام الامام تقي الدين محمد بن علي بن وهب القشيري الشافعي المعروف

بابن دقيق العيد (٦٢٥ - ٧٠٢ هـ) :

فقد ولد بساحل مدينة ينبع من أرض الحجاز ، ورحل في طلب الحدِيث^(١) ومنف فيه اسنادا ومنتنا مصنفات عديدة فريدة مفيدة ، وانتهت اليه رياسة العلم في زمنه ، وفاق أقرانه ، ورحل اليه الطلبة ، ودرس في أماكن كثيرة .

ولي القضاء بالديار المحرية في سنة ٦٩٥ هـ ، حاز السبق في معرفة الفقه والأسانيد والمتون ، كان غزير الفوائد كثير العلوم^(٢) ، كان من أذكيا زمانه ، واسع العلم كثير الكتب ، مديما للسهر ، مكبا على الاشتغال بالعلم ساكنا ورعا وقورا ، قل أن ترى العيون مثله .^(٣)

٢ - شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) :

نشأ من أرق بيوت العلم في الاسلام فكان أبوه عبد الحلیم من كبار فقهاء الحنابلة ، وكان جده عبد السلام من أئمة فقهاء الحنابلة ، وكان محدثا أموليا مفسرا . وحياة أبي العباس أحمد بن تيمية تعد مثلا للعالم المسلم كما ينبغي أن يكون من رحابة الأفق ، وسعة الاطلاع ، وحرية الفكر ، ودقة الحس ، وجرأة القلب ، وثبات الجنان ، مما ساعده لأن يكون علما بين المفسرين وحافظا بين المحدثين .^(٤)

(١) محمد عنان : مؤرخوا مصر الاسلامية ٧٦ .

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٥٤/١ ، التجيبي : استفاد الرحلة والاغتراب ١٦ .

ابن كثير : البداية والنهاية ٢٨/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤١٢/١ .
الحنبلي : الشهادة الزكية ٢٨ .

(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ ١٤٨٢/٤ ، العبر في خبر من غير ٦/٤ .

(٤) محمد البنا ومحمد عاشور : مقدمة تحقيق السياسة الشرعية في اصلاح الرأسي

والرعية ٤ .

وقد اهتم والده بتعليمه فأسمعه الحديث من جماعة كبار المحدثين في عصره ، ثم قرأ شيخ الاسلام بعد ذلك بنفسه الكثير ، وطلب الحديث ولازم السماع بنفسه مدة سنين ، وقل أن سمع شيئاً الا حفظه ، ثم اشتغل بالعلوم ، وكان ذكياً كثير المحفوظ ، فصار اماماً في التفسير وما يتعلق به ، عارفاً بالفقه ، فيقال أنه كان أعرف بفقهِ المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه ، وكان عالماً باختلاف العلماء ، عالماً في الأصول والفروع والنحو واللغة ، وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية ، وما قعد في مجلس ولا تكلم معه فاضل في فن من الفنون الا ظن أن ذلك الفن منه ، ورآه عارفاً به ، متقناً له ، وأما الحديث فكان حامل رايته حافظاً له مميزاً بين صحيحه وسقيمه ، عارفاً برجاله متضلعا من ذلك ، وله تصانيف كثيرة وتعاليق مفيدة في الأصول والفروع ، أثنى عليه وعلى علومه جماعة من علماء عصره ، مدحه محمد بن الزمكاني بقوله :

ماذا يقول الواصفون لهُ ومفاته جلّت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة هو بيننا أعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة أنوارها أربّت على الفجر (١)

وظهر شيخ الاسلام ابن تيمية في عصر غلب عليه التقليد جل نشاط أهله العلمي لا يعد وعن التعرف على تراث الماضين وجمعه وحفظه ، فكان من الطبيعي أن يكون أحمد بن تيمية فرداً في زمانه ، وأن يختلف أهل ذلك الزمان في شأنه ، فانقسموا بين متعصبين له وعليه ، وبعد أن نال من العلوم الحظ الأوفر أحس بمسئولية تجاهه

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٤٤١/١٤ - ١٤٢ ، الكتبي : فوات الوفيات ٧٤/١ .

الحنبلي : الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية ٢٣ ، ابن حبيب :

تذكرة النبيه ٢٠٥/١ ، عبد الرحمن الفريوائي : شيخ الاسلام ابن تيمية

وجهوده في الحديث وعلومه ٢٠ - ٢٤ .

أمتة الاسلامية ، فكانت حياته شاهد مدق على أنه كان داعية مملحا يترسّم
خطى السلف الصالح من هذه الأمة . (١)

وبعد أن لمس ما فيه طوائف من الأمة الاسلامية من فساد في أبواب العقيدة
والفقه والاجتماع والسياسة وعرف أن ذلك الداء انما هو بسبب وقوعهم في فتنة تأويل
نصوص الكتاب والسنة ، متأثرين بالفلسفة وعلم الكلام والمنطق والتصوف ، واطلع على
أحوال الفرق الخالية والمبتدعة ، فتوجه للرد عليهم فألف وأفتى ودرّس ، ولخص داء أهل
الأهواء في فهم الشريعة أنهم اما يستدلون بأدلة عامة ، أو ينقل باطل ، أو قياس
فاسد . (٢)

وشرع رحمه الله يبين للناس المنهج الصحيح الذي تؤخذ منه العقيدة
الاسلامية الصحيحة ، وتبنى عليه الأحكام ، ويرجع اليه عند التنازع والاختلاف ، ألا وهو
الرجوع الى الكتاب والسنة وتقدّمهما على غيرهما . (٣)

وقد قضى رحمه الله جُلّ حياته في جهاد أهل الباطل والبدع ببيانه الواضح
وقلمه السيل ، وامكاناته العقلية الهائلة ، وشجاعته النادرة ، فأنتج هذه الثروة العظيمة
من المؤلفات التي أعلى الله بها منار الحق ، ودفع بها الباطل (٤) ، ومن أعظم

(١) محمد عاشور : مقدمة تحقيق كتاب السياسة الشرعية ٧ ، عبد العزيز البدرى :

الاسلام بين العلماء والحكام ١٩٨٠ .

(٢) عبد الرحمن الفريوائي : شيخ الاسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث وعلومه ٩٠ .

(٣) عبد الله الشمان : موقف شيخ الاسلام ابن تيمية من الرافضة في منهج
السنة ٢٠ .

(٤) ربيع هادي مدخلي : منهج أهل السنة والجماعة في نقد الرجال

والكتب والطوائف ٦٩٠ .

تلك المؤلفات كتابه (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية) الذي ناضل فيه عن الحق وأهله ، ودحض به الباطل وفضحه . (١)

وتمكن شيخ الاسلام في ذلك الكتاب من الرد على ابن المطهر الحلبي (٢) ، وما أورده في كتابه (منهاج الكرامة في معرفة الامامة) من الشبه للطعن في المحابة رضي الله عنهم ، فكانت أجوبته وافية كافية للرد على تلك الطعون التي رُمي بها المحابة رضي الله عنهم . (٣)

وبعد أن أعلن شيخ الاسلام ابن تيمية موقفه من أصحاب الأهواء والبدع ، اجتمعوا للكيد له ، فتعرض لكثير من المحن والابتلاءات ، واتهم رحمه الله بالاعتماد الزائد على رأيه الشخصي ، ومعارضة جمهور الأمة . (٤)

وبلغ الأمر بأن سعى خصوم الشيخ ابن تيمية لدى السلاطين المماليك لاستصدار أوامر سلطانية تحذر الناس من أقوال شيخ الاسلام ابن تيمية وفتاويه ، ومن ذلك المرسوم السلطاني الذي أصدره السلطان الناصر محمد في سنة ٧٠٥هـ ، توعده فيه السلطان من يقول بقول ابن تيمية بعدم قبولهم في وظائف الدولة ، ولا يسمح لهم بالاقامة في بلاد السلطان ، وطلب السلطان من نائبه بدمشق بارسال ابن تيمية الى الديار المصرية للمناظرة ، فلما وصلها سجن بها ثم نقل الى سجن بئغر الاسكندرية حتى سنة ٧٠٩هـ . (٥)

-
- (١) عبد الله الغنيمان : مختصر منهاج السنة ٥/١ .
- (٢) حسن بن يوسف بن مطهر العراقي الشيعي ، شيخ الروافض بتلك النواحي ، له تصانيف كثيرة في الفقه والنحو والفلسفة والرفض .
- (٣) محمد بهجة البيطار : بين ابن المطهر الحلبي وبين ابن تيمية - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق - مجلد ٣١ ، سنة ١٣٧٥هـ ، ص ٢٧٠ ، ومجلة المنار - المجلد الثامن ٤١ - ٥٥ ، أنور الجندي : نوابغ الفكر الاسلامي ٣١١ .
- (٤) علاء الدين دمج : مقدمة تحقيق الرسالة القبرصية لشيخ الاسلام ابن تيمية ١٥ ، عبد القادر السندي : التصوف ١١٩ وما بعدها .
- (٥) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٦٩/١ ، ٢٦/٢ ، الذهبي : العبر ٨٤/٤ .

وتعددت المجالس التي عقدت بين شيخ الاسلام ابن تيمية وخصومه الذين استمالوا السلطة في مفهوم حتى كانت سنة ٧٢٠هـ حيث صدر المرسوم السلطاني بمنعه من الفتوى ، ثم اتبع ذلك بسجنه بقلعة دمشق ، فأقام خمسة شهور ونصّف ثم أفرج عنه . (١)

ولما أصدر شيخ الاسلام ابن تيمية فتواه في المنع من شد الرحال والسفر لزيارة قبور الأنبياء والملاحين ، أمر السلطان بحبسه في سنة ٧٢٦هـ ، وعزّر جماعة ممن أمحابه ، وحبس البعض الآخر ، وفي ذلك قال ابن حبيب :

ان كان أصبح شيخ العلم معتقلا من كيد قوم تناهوا في الذي نقلوا
لا تظهروا عجا فالسيف يدخل في سجن القراب نعم والرمح معتقل (٢)
وبقي شيخ الاسلام ابن تيمية بسجنه بقلعة دمشق حتى وفاته في سنة ٧٢٨هـ بعد أن طبق الأرض في عصره علما واصلاحا ، وملأ الكون مدعا بالحق وجهادا . (٣)

-
- (١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ١٦٠/٢ ، اليوسفي : نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ٤٣٢ ، محمد الداودي طبقات المفسرين ٤٩/١ .
- (٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه ١٧٢/٢ ، ابن تغرى بردى : الدليل الشافي ٦٥/١ النجوم الزاهرة ٢٧١/٩ .
- (٣) محمد البيطار : حياة شيخ الاسلام ابن تيمية ١٩ .
وللفائدة انظر الى : سعود العطيّشان : منهج ابن تيمية في الفقه ١٥٣ ، ١٧٧
ناجي الحضيرى : منهج شيخ الاسلام في الرد على المخالفين ٤٢ ، محمد ابراهيم الشيباني : أوراق من حياة شيخ الاسلام ١٦٩ ، ٢٠١ ، عبد الرحمن عبد الخالق : الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ٤٣٤ ، عبد المتعال المعيدى : القضايا الكبرى في الاسلام ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، صلاح الدين المنجد : مرسوم مملوكي بمخالفة عقيدة ابن تيمية - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق - جمادى الآخرة ١٣٧٧هـ ص ٢٦٠ ، ٢٦٩ .

٣ - أحمد بن عبد الوهاب البكري النويري (٦٧٧ - ٧٢٣ هـ) :

كان لطيف المعاني ، ناسخا ، مطبقا ، يكتب في اليوم ثلاثة كراريس ، كتب البخاري ثمانين مرات في كل مرة يقابله ويجلده ويبيع النسخة منه بألف ونحوه ، وقد جمع تاريخا في ثلاثين مجلدا ، وكان ينسخه ويبيعه أيضا بأزيد من ألف ، وبالجملة كان نادرا في وقته . (١)

صنف كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) جمع فيه فنون العلوم والأدب ، فتحدث في كتابه عن الكون ومحتوياته ، والانسان وما يتعلق به ، والحيوان والنبات ...

وقد خص لكل علم من تلك العلوم قسما خاصا به ، ثم قسمها الى أبواب وفصول وأخبار ووقائع وآثار .

وعندما تحدث عن التاريخ بين أهمية هذا العلم لكل من الملك والوزير والقائد والأمير والكاتب والمشير ، والغني والفقير ، والبادي والحاضر ، والمقيم والمسافر ...

ثم بين السبب الذي دعاه الى الكتابة في التاريخ فقال : " ... ولما رأيت غالب من أرخ في الملة الاسلامية وضع التاريخ على حكم السنين ومساقها لا الدول واتساقها ، علمت أن ذلك ربما قطع على المطالع لذة واقعة استحلاها وقضية استجلاها ، فانقضت أخبار السنة ولا استوعب تكملة فصولها ولا انتهى الى جملتها وتفصيلها ... " .

وأعلن منهجه في الكتابة التاريخية بقوله : " ... و رغبت مع ذلك في الاختصار دون الاقتصار ، وأوردت ما يحتاج الى ايراده من غير تكرار ولا اكثار ... " . (٢)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٧٢/١٤ ، ابن تغري بردي : الدليل الشافي ٥٨/١
ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٤٦/٢ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢٩٩/٩ .
البغدادي : هدية العارفين ١٠٨/١ .

(٢) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٥/١ ، ١/١٣ - ٣ .

٤ - محمد بن محمد بن سيد الناس (٦٧١ - ٧٣٤ هـ) :

الحافظ العلامة البارع ، سمع الكثير ، وأجاز له الرواية عنهم جماعة من المشايخ ، اشتغل بالعلم فبرع وساد على أقرانه في علوم شتى من الحديث والفقه والنحو ، وعلم السير والتواريخ ، وغير ذلك من الفنون ، جمع سيرة حسنة في أخبار النبي صلى الله عليه وسلم سماها (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير) ، وكتاب عن الصحابة بعنوان : (تحميل الامابة في تفضيل الصحابة) ، وشرح قطعة حسنة من جامع الترمذى سماها : (النفع الشذى في شرح جامع الترمذى) ، وقد حرّر وحرّ وأفاد وأجاد ، ولم يسلم من الانتقاد ... أثنى عليه ابن كثير بقوله : " ... وله الشعر الرائق الفائق والنثر الموافق ، والبلاغة التامة ، وحسن الترميف والتصنيف ، وجودة البديهة ، وحسن الطوية ، وله العقيدة السلفية الموضوعة على الآي والأخبار والآثار والاقتفاء بالآثار النبوية ، ولم يكن في مصر في مجموعه مثله في حفظ الأسانيد والمتون والعلل والفقه ... " . (١)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤ / ١٧٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٦ / ٩ ، ٣٠٣ ، الكتبي : فوات الوفيات ٣ / ٢٩٢ ، الحنبلي : الشهادة الزكية ٢٦ الحسيني : ذيل تذكرة الحفاظ ١٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب ١٠٨/٦ .

٥ - محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدمشقي (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ) :

الشيخ الحافظ ، مؤرخ الاسلام و شيخ المحدثين ، خاتمة الحفاظ ، وفرد الدهر القائم بأعباء هذه الصناعة ، كان عالما عاملا عارفا بالقراءات بارعا في فن الحديث ، قرأ وسمع وروى وكتب بخطه التمانيف المفيدة في الحديث والتاريخ وغير ذلك ، وقد ختم به شيوخ الحديث وحفاظه . (١)

وخير ما يوضح مكانة الذهبي العلمي واتجاهاته الفكرية هو دراسة آثاره الكثيرة التي خلفها والتي بلغت ٢١٤ مصنفا و عنوانا ، وبيان قيمتها العلمية مقارنة بمثيلاتها ، ومعرفة مدى اهتمام العلماء والدارسين بها في العصور التالية . (٢)

أما مكانة الذهبي العلمية عند علماء عصره فيوضحها أحد هم بقوله في مدحه والثناء عليه وعلى علمه :

مَا زِلْتُ بِالسَّمْعِ أَهْوَاكُمْ وَمَا ذُكِرْتُ
وَلَيْسَ مِنْ عَجَبٍ إِنْ مِلْتُ نَحْوَكُمْ
أَوْ صَافِكُمْ قَطُّ إِلَّا مِلْتُ مِنْ طَرَبِي
فَالنَّاسُ بِالطَّبَعِ قَدْ مَالُوا إِلَى الذَّهَبِيِّ (٣)

- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٦/١٤ ، الحسيني : ذيل تذكرة الحفاظ ٣٤ .
الكتبي : فوات الوفيات ٣/٣١٥ ، السلامي : الوفيات ٥٥/٢ ، ابن تغرى بردى :
الدليل الشافي ٥٩/١ ، السيوطي : ذيل طبقات الحفاظ ٣٤٧ ، ابن اياس : بدائع
الزهور ٥٠٠/١ ، الحنبلي : الشهادة الزكية ٣٨ .
(٢) بشار عواد معروف : الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الاسلام ١١١ ، ١٣٩ ، ٢١٤ .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٥٢١/١ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ١٠٦/٣ .
وللزيادة :
بشار عواد معروف : في تقديمه لكتاب سير أعلام النبلاء ٤٦ ، ١١٠ ، ١١٥ .

٦ - محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٥٧٥٢ هـ) :

الامام العلامة ، سمع الحديث ، واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة ، لا سيما علم التفسير والحديث ، لازم شيخ الاسلام ابن تيمية بعد عودته من الديار المصرية في سنة ٧١٢ هـ حتى وفاته ، فأخذ عنه علما جما مع ما سلف له من الاشتغال ، فصار فريدا في بابه في فنون كثيرة مع كثرة الطلب ليلا ونهارا .

وله من التصانيف الكبار والمغار شيء كثير ، وكتب بخطه الحسن شيئا كثيرا ، واقتنى من الكتب ما لا يتهاى لغيره تحصيل عشره من كتب السلف والخلف ، وبالجملة كان قليل النضير في مجموعته وأموره وأحواله . (١)

سار ابن القيم رحمه الله على منهج أستاذه ابن تيمية في تفسير وفهم القرآن وهو يقوم على ثلاثة أسس هي :

- ١ - تفسير القرآن بالقرآن ، فما أجمل في آية فصل في آية أخرى .
 - ٢ - السنة ، فان لم يجد في القرآن ما يفسر القرآن اتجه الى السنة الشريفة لأنها شارحة للقرآن .
 - ٣ - اذا لم يكن هناك تفسير في القرآن والسنة يرجع الى قول الصحابة رضي الله عنهم . (٢)
- وعاش رحمه الله مجامدا النعمة السنة المحمدية داعيا للتمسك بها ، ونبذ ما سواها من بدع المبتدعين الذين حاد بهم الأهواء عن طريق الجادة ، فكان لا يخشى في الله

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٦/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٤٩/١٠
السيوطي : بغية الوعاة ٦٢/١ . ابن اياس : بدائع الزهور ٥٤٠/١ . الحنبلي : الشهادة الزكية ٣٣ ، محمد الداودي طبقات المفسرين ٩٣/٢ .

(٢) أنور الجندي : نوابع الفكر الاسلامي ٤١٧ .

ملامة اللائمين ، ولا يمدده عن الدعوة الى الحق كثرة الحاقدين ، وكانت حياته حافلة بالبذل والعطاء في كل علم من علوم الشريعة الاسلامية ، فلم يدع بابا فيها الا طرقه ولا سيما الحديث وعلومه حيث أن جهوده قامت على نصوص الكتاب الكريم ، وما ثبت من السنة ، فبذل جهده لبيان الأحاديث الموضوعة التي اعتمد عليها أهل التعصب وأرباب البدع في ترويح باطلهم فوقف لهم يفضح أمرهم ويكشف كذبهم . (١)

(١) جمال عبد الحميد : ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة ٣ ، أحمد الخلف : منهج ابن القيم في الدعوة الى الله ٣٥ ، ٣٧١ . طاهر حموده : ابن قيم الجوزية وجهوده في الدرر اللغوى ٤٢ ، ٤٧ ، عبد الوهاب أبو سليمان : كتابة البحث العلمي ٢٧٧ .

٧ - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٠١ - ٧٧٤ هـ) :

المحدث الحافظ المؤرخ المفسر الفقيه ، من تصانيفه تفسير كبير للقرآن الكريم يقول عنه الشوكاني : " ٠٠٠ وهو من أحسن التفاسير ان لم يكن أحسنها " (١) ، و مؤلف مختصرا لكتاب (علوم الحديث) لابن الملاح ، ومنها (الفصول في سيرة الرسول) صلى الله عليه وسلم ، ومنها كتاب (جامع المسانيد) جمع فيه أحاديث الكتب الستة والمانيد الأربعة . (٢) وكتاب (التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل) وكتاب (الأحكام الصغرى) في الحديث ، و (الأحكام الكبرى) وهو شرح للحديث . (٣)

أثنى عليه الذهبي بقوله : " الامام الفقيه المحدث البار ثقة متفمن محدث متقن " . وقال أحمد بن حجر عنه : " كان كثير الاستحضار ، وسارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع به الناس بعد وفاته " . (٤)

وأما كتابه في التاريخ المسمى (البداية والنهاية) فقد بسط فيه الحديث عن أخبار الخلافة العباسية في مصر ، وتناول أخبار السلاطين المماليك منذ قيامها حتى سنة ٧٦٨ هـ آخر الحوادث التي أورد لها في نهاية كتابه ، وقد ساعد ابن كثير على التفصيل في تلك الحوادث قرب عهد به . ومنامرته للحوادث التي وقعت منذ بداية القرن الثامن الهجري حتى وفاته ، وقد عاش ابن كثير أيامه في دولة السلاطين المماليك الذين حكموا الديار المصرية والبلاد الشامية ، وكان يقدر فيهم روح الايمان والتفحية ، والحناس في الجهاد في سبيل الله ضد الأعداء في وقت لم يكن في الميدان لعدد ائمة أعداء الاسلام سواهم .

(١) الشوكاني : البدر الطالع ١٥٣/١ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٣٧٣/١ ، الداوودي ١١١/١ .

(٢) عمر كحالة : معجم المؤلفين ٢٨٣/٢ - ٢٨٤ ، محمد الزهبي التفسير والمفسرون ٢٤٢/١ .

(٣) أبو عبد الرحمن بن عقيل : ابن كثير وكتابه البداية والنهاية - مجلة الفيصل ، ع ٣٨ سنة ١٣٩٨ هـ ، ص ١١٧ .

(٤) السيوطي : ذيل طبقات الحفاظ ٢٦١ - ٢٦٢ . صالح الوعيل : جامع المسانيد والسنة ٨

٨ - عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون (٧٢٢ - ٨٠٨ هـ) :

العالم المؤرخ الاجتماعي ، ولد بتونس ونشأ بها ، وطلب العلم ، ثم انتقل الى الديار المصرية ، ووصل القاهرة في أول ذي القعدة من سنة ٧٨٤ هـ ، ولم يكد يحل بالقاهرة حتى أقبل عليه العلماء وطلبة العلم من كل صوب ، وجلس للتدريس بالجامع الأزهر ، فقرأ الفقه على مذهب الامام مالك . (١)

ولما وصل خبره الى السلطان الظاهر برقوق قرّبه وأكرمه وولّاه قضاء المالكية سنة ٧٨٦ هـ ، فقام بعمل القضاء خير قيام واشتهر أمره عالما وقاضيا ومدرسا ومؤرخا وأديبا ، وكثر المعجبون به وكثر أيضا عدد حصاده . (٢)

ويقول عن اجتهاده في العدل في الحكم بعد ولايته للقضاء : " أنه حاول اقامة العدل الصارم المنزه عن كل شائبة ، وقمع الفساد بحزم وشدة ، وسحق كل سعيــــــــــــــــة وغرض " .

ولم تكن ولاية ابن خلدون للقضاء حادثا عاديا فلم يكن من أهل الديار المصرية ، ومع هذا تقدم في نيل المناصب التي كانت دائما مطمع جمهرة من العلماء المقيمين بالقاهرة ، ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بتلك المناصب غيرهم ، وعلى هذا لم يمض سوى وقت قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية . (٣)

(١) محمد عنان : ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ٧٩ ، ابن خلدون في مصر - مجلة الرسالة ، الأعداد ٥ ، ٦ ، ٨ سنة ١٣٥١ هـ .

(٢) محمد جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام ٢٢٧ ، أنور الجندي : نوابغ الفكر الاسلامي ٣٦٠

(٣) محمد عنان : ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ٧٩ ، ابن خلدون : التعريــــــــــــــــف

بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ٢٧٣ - ٢٧٧ .

وعندما خرج ابن خلدون الى البلاد الشامية للقاء تيمورلنك وطال غيابه ، وشيعت الأخبار بهلاكه ، قُدّم بدلا عنه للوظيفة أحد القضاة المالكية ، فلما رجع ابن خلدون الى مصر أعاده السلطان لمنصب القضاء ثانية في شعبان سنة ٨٠٢ هـ ، وفي هذا يقول مبینسا ما تعرض له من الوشاية : " ٠٠٠ وقع الانكار عليّ ممن لا يدين للحق ، ولا يعطي النصفة من نفسه ، فسعوا عند السلطان في ولاية شخص من المالكية بذل في ذلك لساعة داخلوه قطعة من ماله ووجهها من الأغراض في قضائه ٠٠٠ " . (١)

بقي ابن خلدون بالقاهرة حتى وفاته فجأة ، وترك من المؤلفات (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) ، و (لباب المحصل في أصول الدين) ، و (شرح قصيدة ابن عبدون) ،^(٢) ومن شهرته بمقدمته ، وأنه أول من صنف وكتب في علم الاجتماع .

(١) والتر . ج . فيشل : لقاء ابن خلدون بتيمورلنك ٦٩ ، ٨٣ ، ٨٧ .
(٢) عمر كحالة : معجم المؤلفين ١٨٨/٥ ، التاريخ والجغرافيا في العصور الاسلامية ٦١ ، راشد البراوى : قادة الفكر الاسلامي ٤٨ ، أعمال مهرجان ابن خلدون - من منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية بالقاهرة ٤١ ، ٦٤ ، ٧٩ ، ٣٤٩ .

٩ - أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني المعروف بالمقريزي (٧٦٩ - ٨٤٥ هـ) :

العلامة وحيد الدهر ، كان عالما بارعا في الفقه والحديث ، حسن المذاكرة
صحيح النقل ، كان معظما عند الناس جدا (١) ، وهو المؤرخ الذي يعتبر كبير مؤرخي مصر
الاسلامية وزعيمهم بلا منازع ، وقد أهله لهذه الزعامة انتاجه الضخم الخصب ، ومؤلفاته
التي انقسمت الى نوعين :

- (١) كتب موسوعية كبيرة .
- (٢) كتب أوكتيبات صغيرة . (٢)

وساعده على نيل مركز الصدارة بين المؤرخين المصريين الطريقة التي سار عليها من حيث
الشمول والاحاطة ، وأسلوبه في تحليل الأحداث التاريخية وتفسيرها ، فكان ذلك امتدادا لمنهج
ابن خلدون في تفسيره للتاريخ وأحداثه ونظيرته للمجتمع (٣) ، حيث عاش في عصر أخذت
فيه مصر تتردد بين النهوض تارة ، والعتار أخرى ، ويسطع نجم مجتمعا تارة ، ويخبو
أخرى . (٤)

وقد تناول المقريزي في تاريخه كثيرا من حوادث عصره ، وكان يبحث عن الأنباء
جاعلا اياها مالا له ، ووفق في جمع وثائق ثمينة أحسن اختيارها ، فعدت أثرا زاخرا فاقت به
مؤلفاته جميع ما سواها ، وان كان أحمد المقريزي جامعا فقط لتلك الحوادث والأخبار ،

- (١) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢/٢٣٢ . ابن تغري بردى : النجوم
الزاهرة ١٢/٩٩ ، الدليل الشافي ١/٦٣ .
- (٢) جمال الدين الشيال : مقدمة تحقيق كتاب اتعاط الحنفا ١٣ ، البغدادى : هدية
العارفين ١/١٢٧ .
- (٣) راشد البراوى : قادة الفكر الاسلامي ١٠٦ ، عمر كحالة : التاريخ والجغرافيا
في العصور الاسلامية ٦٤ .
- (٤) محمد عنان : مؤرخوا مصر الاسلامية ٨٦ .

الآ أنه كان جامعاً موفقاً فيما جمع . (١)

واشتغل المقرئ بالعلوم التي كانت معروفة في عصره ، ومن مصنفاته (الموعظ
والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ، و (السلوك في معرفة دول الملوك) ، و (مجمع
الفوائد ومنبع الفوائد) ، و (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء) (٢) ،
وغيرها من الممنشآت .

(١) البارون كاراد وفو : مفكروا الاسلام ١٤٣ .

(٢) عمر كحالة : معجم المؤلفين ١١/٢ ، معجم مصنفى الكتب العربية ٤٩ .

سعيد عاشور : أضواء جديدة على المؤرخ أحمد المقرئ - مجلة عالم الفكر -

العدد الثاني ، السنة ١٩٨٣ م ، ص ١٦٦ .

١٠ - محمود بن أحمد بن موسى العيني الحنفي (٧٦٢ - ٨٥٥ هـ) :

قاضي القضاة الفقيه المؤرخ الذي بدأ طلب العلم ببلدته عينتاب^(١) ، ولم يكتف بما تلقاه على مشايخ بلده فدفعه طموحه الى الرحلة لطلب العلم ، فرحل الى حلب وبيت المقدس حتى وصل الى القاهرة ونزل بالمدرسة الظاهرية البرقوقية .

وبعد أن نال العيني حظا وافرا من العلم لازم الجمع والتصنيف والتدريس بالمدرسة المؤيدية ، بالإضافة الى ما يتعهد اليه من وظائف الدولة الهامة ، فقد ولي الحسبة بالقاهرة ، والقضاء . (٢)

وبرع العيني في الفقه والحديث والتاريخ ، ويظهر أثره في علم الحديث من خلال مؤلفاته التي صنّفها في ذلك الفن ومنها : (العلم الهيب في شرح الكلم الطيب) ، و (شرح سنن أبي داود) ، و (عمدة القارى في شرح البخارى) ، و (مباني الأخبار في شرح معاني الآثار) ، و (نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار) . (٣)

وأما المؤلفات التاريخية والأدبية فمنها : (مختصر تاريخ ابن عساكر) ، و (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان) ، و (طبقات الحنفية) ، و (طبقات الشعراء) . (٤)

ونظرا لمكانته العلمية فقد حظي بالتكريم والتقدير من السلطان الأشرف برسباي ورأى غاية العز والعظمة ، وكان نديم الأشرف برسباي لا ينقطع عنه ليلا أو نهارا ،

(١) قلعة حصينة بين حلب وانطاكية ، ويقال لها عين تاب ، وكانت تعرف بدلسوك ، وهي من أعمال مدينة حلب .

(الحموى : معجم البلدان ١٧٦/٤) .

(٢) صالح معتوق : بدر الدين العيني وأثره في علم الحديث ٦١ .

(٣) المرجع السابق ١٧٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٧٥/٢ .

وكان يقرأ للسلطان في كتب التاريخ وأيام الناس ، ويستغل جلوسه مع السلطان في تحبيبه الى فعل الخير ، والنظر في مصالح المسلمين ، ويمنعه من الوقوع في كثير من المظالم ، وأعلن الأشرف اعترافه بفضل ابن العيني عليه وعلى دولته أمام الملأ بقوله :

" لولا القاضي العيني ما حسن اسلامنا ، ولا عرفنا كيف نسير في المملكة " . (١)

١١ - أحمد بن علي بن محمد بن حجر الكناني العسقلاني الشافعي (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) :

شيخ الاسلام ، امام الحفاظ . فريد زمانه ، حامل لواء السنة في أوانه ، عمدة الوجود في التوهمة والتصحيح ، قاضي القضاة ، كان عالما فاضلا بارعا في العلوم ، محدثا ماهرا في الحديث ، لا يقاربه في علم الحديث أحد في عصره ، كان نادرة عصره في كل فن ، رحل الى الأقطار في طلب الحديث ، وانتشر ذكره في الآفاق وحسنت سيرته ، وكان متواضعا لين الجانب حن المحاضرة كثير البر والهدايا . (٢)

ان مكانة ابن حجر العلمية وسمو آدابه وأخلاقه جعلت العلماء من شيوخه وأقرانه وتلاميذه ومن بعدهم يكثرون من الثناء عليه ، ويشيدون برسوخ قدمه في العلم والفن . (٣)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١٠/١٥ . ابن اياس : بدائع الزهور ٢٩٢/٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥٣٣/١٥ ، الدليل الثاني ٦٤/١ ، محمد ابن فهد : لحظ الألفاظ ٣٢٦ . السيوطي : نظم العقيان في أعيان الأعيان ق ٣٠ ، ذيل طبقات الحفاظ ٣٨٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢٦٩/٢ . الشوكاني : البدر الطالع ٨٧/١ ، ٨٩ .

(٣) ربيع مدخلي : النكت على ابن الحلاج ٤٥ .

وقد كان رحمه الله عليها من أعلام الحديث والعلوم الدينية ، وكان مؤرخا في نفس الوقت ، وله تراث تاريخي قيم ، فقد اشتق صفات المؤرخ الثابت مع براعته كمحدث وبلغ الذروة في شئون الجرح والتعديل ، وتحقيق الرواية ونسبة الحديث . (١)

كانت حياته حافلة بالنشاط الواسع في خدمة العلم ورفع مناره ، والجهاد في نشره وإشاعته بمختلف السبل من تدريس واملاء وتأليف وفتاوى وغيرها مع ولايته للقضاء بالديار المصرية ، ذلك النشاط الذي استغرق ما يقرب من ستين عاما فأنجب خلالها جيلا من الأفاضل العلماء وسدّ بمؤلفاته فراغا كبيرا في المكتبة الاسلامية التي لا غنى لطلبة العلم عن الوقوف عليها والاستفادة منها .

وكان يوم موته رحمه الله عظيما على المسلمين فخرج مع جنازته الشيوخ وأرباب الدولة وجمع غفير من الناس ازدحموا في الصلاة عليه (٢) ، ورثاه الشهاب الحجازي بقميدة تضم أكثر من خمسين بيتا قال في مطلعها :

كُلُّ الْبَرِيَّةِ لِلْمَنِيَِّّةِ صَابِرَةٌ . . . وَقْفُولَهَا شَيْئًا فَشَيْئًا سَائِرَةٌ
وَالنَّفْسُ إِنْ رَضِيَتْ بِذَا رَبِّحَتْ وَأَنْ . . . لَمْ تَرْضَ كَانَتْ عِنْدَ ذَلِكَ خَاسِرَةٌ (٣)

١٢ - محمد بن عبد الرحمن السخاوي الشافعي (٨٢١ - ٩٠٢ هـ) :

الحافظ شمس الدين ، كان عالما فاضلا بارعا في الحديث (٤) احدى العبقريات

-
- (١) محمد عنان : مؤرخو مصر الاسلامية ١٠٥ ، عمر كحالة : معجم ممنفي الكتب العربية ٥١
(٢) ربيع مدخلي : النكت على كتاب ابن الملاح ٤٧ - ٤٨ .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٢٦٩ ، وانظر : محمد كرد علي : مجلة الرسالة العدد ٩٢ سنة ١٣٥٣ هـ ص ٥٣٤ ، مجلة المنار - المجلد الثامن ١٥٥ - ١٥٧ .
(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٣/٣٦١ .

التي تفتحت بالديار المصرية في القرن التاسع ، عند ما بدأت الحركة العلمية تميل إلى الضعف والسقم ، فكان ظهور السخاوي وتلميذه السيوطي في أواخر هذا القرن . (١)

ارتحل السخاوي طلباً للعلم إلى بلاد عديدة بالديار المصرية ، والبلاد الشامية حتى وصل إلى الحرمين فجاور بهما مدة ، وحصل على إجازات علمية من علماء عصره ، ثم رجع إلى القاهرة فاشتغل بتدريس الحديث في منزله ، ولازمه طلبة العلم في داره للقراءة عليه من تمانيفه وغيرها ، بحيث ختم عليه منهم ما يفوق الوصف ، وأخذ عنه من الخلائق من لا يحصى كثرة . (٢)

وتولى التدريس في أوقات مختلفة في أعظم مدارس القاهرة مثل المدرسة الظاهرية ، والمدرسة البرقوقية وغيرهما ، وتعدت شهرته حدود الديار المصرية ، وذاعت في أنحاء العالم الإسلامي ، ولا سيما في بلاد الشام والحجاز . (٣)

صنف كتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) ادراكاً منه لأهمية علم التاريخ ، وليرد على من يذم ذلك العلم وينتقص من قدره ، فألف ذلك الكتاب ليبين أهميته ويعدد فوائد تعلمه ومعرفته ، خاصة ما يتصل منها بأمور الدين الحنيف ، مثل معرفة الناسخ والمنسوخ عند تعارض الخبرين المتعارضين ، أو لمعرفة صدق الرواة من كذبهم فيما يروونه

(١) محمد عنان : السخاوي حياته وتراثه - مجلة الرسالة - العدد ١٠٣ ، سنة

١٣٥٤ هـ ص ١٠١١ ، عبد الله الشقاري : السخاوي مؤرخاً ٥٠٢ - ٥٠٣ .

(٢) محمد عثمان الخشت : مقدمة تحقيق الإعلان بالتوبيخ ٨ - ٩ .

(٣) محمد عنان : السخاوي حياته وتراثه - مجلة الرسالة - العدد ١٠٣ ، سنة

١٣٥٤ هـ ، ص ١٠١٣ ، مؤرخو مصر الإسلامية ١٢٥ .

واستشهد على ذلك بقول سفيان الثوري ٠٠٠٠ لما استعمل الرواة الكذب ، استعملنا

لهم التاريخ ٠٠٠٠

وقول حسان بن زيد ٠٠٠٠ لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ ، فيقال للشيخ : سنة كم ولدت ؟ فاذا أقر بمولده مع معرفتنا بوفاة الذي انتمى اليه عرفنا صدقه من كذبه ٠٠٠ (١)

وللسخاوي مؤلفات تاريخية عديدة منها (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع)

و (التبر المسبوك) ، و (التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة) ، بالإضافة الى

مصنّفات أخرى في الحديث ، والمصطلح ، والتفسير ، والتراجم ، والأدب ، والرحلات . (٢)

١٣ – عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي (٨٤٩ – ٩١١ هـ) :

الامام الحافظ جلال الدين ، كان عالما فاضلا بارعا في الحديث الشريف (٣) ،

خاتمة الأئمة والحفاظ بالديار المصرية ، ومن الصعب أن نخمه بعلم من العلوم لأنه ترك

كمًا هائلا من المؤلفات العلمية المختلفة . (٤)

وصل الى بلاد الشام ، والحجاز ، واليمن ، والهند ، والمغرب ، وجاب مدن

مصر في رحلاته المتعددة لطلب العلم منذ صغر سنه ، فلما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس

وخلا بنفسه منزويا عن أصحابه جميعا كأنه لا يعرف أحدا منهم فألف أكثر كتبه في تلك

الفترة ، وكان الأغنياء والأمراء يزورونه في مدة انقطاعه ويعرضون عليه الهدايا والأموال

(١) السخاوي : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ١١ ، ١٥ ، ٢١ ، ٢٣ .

(٢) الزركلي : الأعلام ١٩٤/٦ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٨٣/٤ ، البغدادى : هدية العرفين ٥٣٤/١ .

(٤) محمد عنان : مؤرخو مصر الاسلامية ١٤٢ ، عمر كحالة : التاريخ والجغرافيا في

العصور الاسلامية ١٤٤ .

فيرد لها ، و طلبه السلطان قايتباي مرارا فلم يحضر اليه ، وأرسل اليه هدايا فردها عليه ،
وبقي على ذلك حتى وفاته .

ولم يكتف السيوطي رحمه الله بعلم من العلوم ، بل ضرب في كل منها بحظ وافر ، يقول
عن نفسه في ذلك : « رزقت التبخر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ،
والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع » (١)

ويعتبر السيوطي من أغزر المؤلفين المسلمين إنتاجا ، فقد ألف في أغلب فنون
المعارف التي كانت شائعة في زمانه ، مثل علوم القرآن الكريم ، والتفسير ، والحديث ،
والتراجم ، والتاريخ ، واللغة (٢) ، وبلغت مؤلفاته ورسائله وشروحه سبعمائة وخمسة
وعشرين مؤلفا ، ويندر أن يخطر ببال القارىء موضوع دون أن يكون للامام السيوطي مشاركة
فيه فهو بلا ريب كاتب موسوعي . (٣)

وقدّم السيوطي بتحانيفه الكثيرة للفكر الاسلامي تراثا ضخما ، واذا عاب البعض
على السيوطي أنه نقل كثيرا مما كتبه السابقون ، فان له فضلا في ذلك ، وهو أن بعض ما نقله
قد فقد ولم يوجد الا في مؤلفات السيوطي ، وهذه خدمة كبيرة قدّمها المترفقون من كُتّاب
ذلك العصر الزاخر بألوان الحياة العلمية المزدهرة . (٤)

وبالإضافة الى اشتغال السيوطي بالتأليف فانه ولي بعض الأعمال الأخرى ، فتولى
التدريس بالمدسة الشيوخونية ، وتمدرر للافتاء بالنديار المصرية . . .

أما مؤلفاته فلا يتسع المجال لحصرها لتنوعها وكثرة عددها واختلاف حجمها ما بين الكتاب
الكبير والرسالة الصغيرة .

-
- (١) أنيس الأندونيسي : شرح ألفية الأثر للسيوطي ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٧٠ ، الزركلي :
الأعلام ٣٠١/٣ ، الذهبي التفسير والمفسرون ٢٥١/١ .
- (٢) محمد حمادة : سرقات الكتب في العصور الاسلامية - مجلة عالم الكتب ع ٤ ، س ١٤٠٢ هـ
ص ٧٠٩ .
- (٣) عبد العزيز المانع : اتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء للسيوطي - مجلة عالم الكتب
ع ١ ، س ١٤٠٢ هـ ص ٨٩ .
- (٤) بحوث ندوة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عن السيوطي
١٨ ، ٣٢ .

ثانيا : العلماء المسلمين الذين برزوا في بعض العلوم الاسلامية في هذا العصر :

أ - علم القراءات :

- ١٤ - محمد بن سليمان الشاطبي ، صاحب نظم الشاطبية في القراءات ، ت ٦٢٧ هـ . (١)
- ١٥ - شيخ القراء نور الدين علي بن الكفتي ، ت ٦٧٦ هـ . (٢)
- ١٦ - المقرئ الضابط أحمد بن محمد الحسني السبتي ، كان من أئمة مجودي كتاب الله العظيم ، القائمين على تعليمه خير قيام (٣) ، ت ٦٨٠ هـ .
- ١٧ - عز الدين أحمد بن ابراهيم الواسطي الشافعي ، أحد مشايخ الاسلام في الفقه والحدِيث والتفسير والقراءات (٤) ، ت ٦٩٢ هـ .
- ١٨ - اسماعيل بن أحمد القوسي الحنفي ، كان عالما ، فاضلا ، عارفا بالقراءات ، متمسداً لتدريس الطلبة بالجامع الطولوني (٥) ، ت ٧١٤ هـ .
- ١٩ - المقرئ محمد بن أحمد بن عبد الخالق المصري الشافعي ، قرأ عليه خلق كثير ، ورحلوا اليه ، وقصده الناس (٦) ، ت ٧١٥ هـ .
- ٢٠ - أحمد بن محمد بن جبارة المقدسي الحنبلي ، كان اماما ، عالما ، عارفا بالأصول ، والقراءات ، أقام بحمص ، ودمشق وحلب والقدس ، انتفع الطلبة بفوائده (٧) ت ٧٢٨ هـ .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٣٣/١ ، الجزري غاية النهاية ١٤٩/٢ .

(٢) المصدر السابق ٣٦٠/١ .

(٣) ابن القاضي : درة الحجال ٢٨/١ .

(٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ١٨٣/١ .

(٥) المصدر السابق ٦٨/٢ .

(٦) المصدر السابق ١٥١/٢ .

(٧) المصدر السابق ١٨٣/٢ .

- ٢١ - اسماعيل بن عثمان القرشي ، ولد بدمشق سنة ٦٢٣ هـ ، أخذ القراءات عن علماء عصره ، مات بالقاهرة سنة ٧٣٠ هـ . (١)
- ٢٢ - عبد الرحمن بن ابراهيم بن علي الزيلعي ، جمع القراءات السبع ، كان يُقَرِّب الطلبة ، وانتفعوا به (٢) ، ت ٧٣٢ هـ .
- ٢٣ - ابراهيم بن عمر بن ابراهيم ، كان شيخ القراء في زمانه (٣) ، ت ٧٣٢ هـ .
- ٢٤ - المقرئ ، محمد بن أحمد دمشقي ، كان اماما في القراءات ، تصدر للاقراء فانتفع الطلبة به (٤) ، مات بدمشق سنة ٧٤٢ هـ .
- ٢٥ - شيخ القراء أحمد بن أحمد بن الحسين ، كان اماما في القراءات ، تصدى للاقراء عدة سنين ، وانتفع الناس به ، ت ٧٥٠ هـ . (٥)
- ٢٦ - شيخ القراء محمد بن مسعود المالكي (٦) ، ت ٧٦٢ هـ .
- ٢٧ - اسماعيل بن محمد بن يوسف الكفتي ، شيخ القراءات ، كان اماما في القراءات ، تصدى للاقراء سنين ، وانتفع الناس به (٧) ، ت ٧٦٢ هـ .
- ٢٨ - محمد بن عبد الرحمن بن علي الشهير بابن الصائغ الحنفي ، كان اماما في القراءات وسمع الحديث وبرع في النحو ، درس بجامع ابن طولون ، ت ٧٧٧ هـ . (٨)

-
- (١) ابن القاضي : درة الحجال في أسماء الرجال ٢١٢/١ .
- (٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ٢٣٠/٢ .
- (٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢٤٨/١٠ ، الجزري غاية النهاية ٢١/١ .
- (٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٤٢/٣ .
- (٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢٤٨/١٠ .
- (٦) ابن اياس : بدائع الزهور ٥٨٦/١ .
- (٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢١/١١ .
- (٨) المصدر السابق ١٣٨/١١ .

- ٢٩ - أبو عبد الله محمد الحكرى ، كان فقيها ، بارعا في القراءات (١) ، ت ٧٧٩ هـ .
- ٣٠ - شيخ القراء فخر الدين عثمان بن إبراهيم بن أحمد البرماوى الشافعى (٢) ،
ت ٨١٦ هـ .
- ٣١ - محمد بن علي الزاتيني ، رئيس القراء في زمانه ، رحل اليه من الأقطار (٣) ،
ت ٨٢٥ هـ .
- ٣٢ - شيخ القراء محمد بن عبد الله الواسطي (٤) ، ت ٨٣٨ هـ .
- ٣٣ - شيخ القراء بمصر جعفر بن إبراهيم السنهورى الشافعى (٥) ، ت ٨٩٤ هـ .

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٠٦/١١ .
- (٢) المصدر السابق ١٢٢/١٤ .
- (٣) المصدر السابق ١١٤/١٥ .
- (٤) ابن اياس : بدائع الزهور ١٦١/٢ .
- (٥) المصدر السابق ٢٦٧/٣ .

ب - علم التفسير :

- ظهر في هذا العصر طائفة من العلماء اهتموا بتفسير آيات القرآن الكريم ، ومن هؤلاء :
- ٣٤ - العلامة عبد الرزاق بن رزق بن خلف ، الامام الحافظ المفسر ، صنّف تفسيراً حسناً يروى فيه بأسانيد ه ، وكان اماماً محدثاً فقيهاً ، ت ٦٦١ هـ . (١)
- ٣٥ - محمد بن سليمان بن الحسن البلخي الحنفي ، كان اماماً مفسراً ، صنّف كتاباً فسيّ تفسير القرآن الكريم ، جمع فيه خمسين مصنفاً من كتب التفسير ، ذكر فيه الاعراب ، وأسباب النزول ، والقراءات ، مات رحمه الله في سنة ٦٩٦ هـ . (٢)
- ٣٦ - محمد بن ابراهيم بن جماعة الكناني الشافعي ، كان اماماً عالماً بالتفسير والحدِيث والفقهِ ، مات بمصر في سنة ٧٣٢ هـ . (٣)
- ٣٧ - هبة الله بن عبد الرحيم بن ابراهيم الشافعي ، له مؤلفات ومصنّفات في الفقه والحدِيث والتفسير والقراءات ، والعروض (٤) ، ت ٧٣٨ هـ .
- ٣٨ - محمد بن علي بن عبد الواحد الشافعي المعروف بابن النقاش ، المحدث ، المفسر ، الواعظ ، مات في سنة ٧٦٣ هـ . (٥)
- ٣٩ - سعد بن محمد بن عبد الله الديري الحنفي ، برع في الفقه وأصوله ، كان آيةً من آيات الله في التفسير ، ت ٨٦٧ هـ . (٦)

-
- (١) السيوطي : طبقات المفسرين ق ١٢٥ .
- (٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢١٥/١ .
- (٣) الممدّر السابق ٢٣٦/٢ ، الداوودي طبقات المفسرين ٥٣/٢ .
- (٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٣١٥/٩ ، الداوودي طبقات المفسرين ٣٥٠/٢ .
- (٥) ابن اياس : بدائع الزهور ٥٨٩/١ .
- (٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٣١٩/١٦ .

انتشرت المذاهب الفقهية الأربعة في البلاد الواقعة تحت حكم السلاطين المماليك ، وقد ساعد على ذلك محاولة السلاطين القضاء على بقايا المذهب الشيعي بعد سقوط الدولة الفاطمية ، وبدأت أولى تلك الخطوات عندما أصدر السلطان الظاهر بيبرس أمره للرعية بالزمام باتباع المذاهب السنية الأربعة ، وتحريم اتباع ما عداها ، ثم أتبع ذلك بأن أمر بعدم قبول شهادة شاهد ، أو ترشيح لآحدى وظائف الخطابة أو الامامة أو التدريس ما لم يكن مقلدا لأحد المذاهب الأربعة الحنفي ، أو المالكي ، أو الشافعي ، أو الحنبلي .

وقد ساعدت تلك الخطوات على تقلص المذهب الشيعي ، وفي المقابل الاقبال على دراسة المذاهب الأربعة تعلمًا وتعليمًا ، فظهرت طائفة من علماء الاسلام الذين برعوا في تلك المذاهب تعليمًا وتصنيفًا وافتاءً ومنهم :

أولاً : الفقهاء الشافعية :

٤٠ - عبد العزيز بن عبد السلام بن القاسم الدمشقي الشافعي ، شيخ المذهب ، ومفيد أهله ، له مصنفات حسان منها التفسير ، القواعد الكبرى والصغرى ، كتاب الصلاة ، الفتاوى الموصلية ، وغير ذلك ، أفاد الطلبة ودرّس بعدة مدارس بدمشق ، ثم سافر الى مصر ودرّس بها وخطب وحكم ، وانتهت اليه رئاسة الشافعية ، توفي في سنة ٦٦٠ هـ . (١)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ / ٢٤٨ .

- ٤١ - يحيى بن شرف بن حسن بن حسين النووي الدمشقي الشافعي ، شيخ المذهب ، وكبير الفقهاء في زمانه ، اعتنى بطلب العلم ثم التصنيف ، فجمع شيئا كثيرا منها ما أكمله ، ومنها ما لم يكمله ، فمما كمل : شرح مسلم ، والمنهاج ، والأذكار ، والتبسيان ، وتهذيب الأسماء واللغات ، وطبقات الفقهاء ، توفي في ليلة أربع وعشرين من رجب من سنة ٦٧٦ هـ . (١)
- ٤٢ - هبة الله بن عبد الرحيم بن ابراهيم الشافعي ، له مؤلفات و مصنفات في الفقه والحديث والقراءات والتفسير والعروض ، ت ٧٣٨ هـ . (٢)
- ٤٣ - علي بن الحسين بن القاسم الشافعي ، كان اماما فقيها بارعا مصنفا ناثرا ، نظم كتاب الحاوي في الفقه ، و شرح المختصر لابن الحاجب . (٣)
- ٤٤ - محمود بن أبي القاسم بن أحمد الأصبهاني الشافعي ، كان عالما اماما في معرفة الأصول والفروع ، متعمدا للافتاء ، (٤) ، ت ٧٥٠ هـ .
- ٤٥ - محمود بن علي بن اسماعيل القونوي الشافعي ، كان فقيها مصنفا ، ومن مصنفاًه شرح ابن الحاجب في الأصول ، اعتراضات على شرح الحاوي . (٥)
- ٤٦ - العلامة علي بن عبد الكافي السبكي المصري الشافعي ، كان اماما عالما بالفقه والحديث والتفسير والنحو والأدب ، له مصنفات كثيرة الفائدة ، وفي شهرته ما يغني عن الاطناب في ذكره ، ت ٧٥٦ هـ . (٦)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٩٤/١٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٣٨/١ ، وحيد عبد السلام : علماء وأمرء ٧٠ .
- (٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٣١٥/٩ .
- (٣) المصدر السابق ٢٩٧/١٠ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٤٧/٣ .
- (٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ١٤١/٣ .
- (٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٣٢٧/١٠ .
- (٦) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٦٤/١٤ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٣١٩/١٠ .

- ٤٧ - ابراهيم بن اسحاق بن ابراهيم المناوي الشافعي ، كان فقيها عالما ، أفتى ودرس وشرح الفرائض ، مات في سنة ٧٥٧ هـ . (١)
- ٤٨ - عبد الرحيم بن الحسن بن علي الأسنائي الشافعي ، كان اماما بارعا ، مصنفا ، لسه مصنفات كثيرة مفيدة ، تصدر للتدريس بعدة مدارس ، ت ٧٧٢ هـ . (٢)
- ٤٩ - محمد بن عبد البر بن يحيى الشافعي ، كان امام وقته وعالم زمانه ، أفتى ودرّس وكتب وألّف ، ت ٧٧٧ هـ . (٣)
- ٥٠ - محمد بن عمر بن عبد الله الدنجاوي الشافعي ، كان عالما فاضلا عارفا بالفقه (٤) ت ٨٤٥ هـ .
- ٥١ - صالح بن عمر البلقيني الكناني الشافعي ، عالم الديار المصرية ، وكان اماما عالما فقيها ، درّس وأفتى وانتهت اليه رئاسة مذهبه في زمانه (٥) ، ت ٨٦٨ هـ .

ثانيا : الفقهاء الحنفية :

- ٥٢ - يوسف بن عمر بن حسان الحنفي ، كان رحلة الناس ، ت ٧٣١ هـ . (٦)
- ٥٣ - العلامة قوام الدين الفارابي الحنفي ، كان اماما عالما بارعا في الفقه واللغة العربية والحديث وأسماء الرجال وغير ذلك من العلوم ، تولى التدريس بمدسة الأمير مرغتمش . (٧)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٢٣/١٠ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ١٧/١ .
- (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١٤/١١ .
- (٣) المصدر السابق ١٣٦/١١ .
- (٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٣٢/٢ .
- (٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٣٣/١٦ .
- (٦) المصدر السابق ٢٨٧/٩ .
- (٧) المصدر السابق ٣٢٥/١٠ .

- ٥٤ - ابراهيم بن علي بن أحمد الدمشقي الحنفي ، كان اماما عالما علامة ، أفتى ودرّس له مصنّفات كثيرة منها : الفتاوى في الفقه ، الفوائد المنظومة في الفقه أيضا ، ومحظورات الاحرام ، ومناسك الحج . (١)
- ٥٥ - محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد السيواسي الحنفي ، الذي تقدّم على أقرانه وبرع في العلوم وتعدى لنشر العلم ، فانتفع به خلق كثير ، وكان علامة في الفقه والأصول والنحو والبيان ، وهو ممن تولى التدريس بمد رسة المنصور قلاوون . (٢)
- ٥٦ - عبد الله بن يوسف الزيلعي الحنفي ، كان فاضلا بارعا في الفقه والأصول والحد يث والنحو والعربية ، صنّف وكتب ، وأفتى ودرّس ، ت ٧٦٢ هـ . (٣)
- ٥٧ - عبد الله بن علي بن عثمان بن ابراهيم الحنفي ، برع في الفقه والأصول وتصدّى للافتاء والتدريس والاقراء سنين ، ت ٧٦٦ هـ . (٤)
- ٥٨ - أحمد بن علي بن أحمد البغدادي الحنفي ، كان اماما بارعا عالما ، نظم (الكنز) في الفقه ، و (السراجية) في الفرائض ، تعدى للافتاء والتدريس والاقراء . (٥)
- ٥٩ - العلاء بن محمد السيرامي الحنفي ، كان عالما بارعا أعجوبة زمانه في الفقه وفروعه وعلمي المعاني والبيان والأصول ، درّس وأفتى ببلاد العجم بمد بينة هراة وخوارزم حتى شاع ذكره ، فلما بنى السلطان الظاهر برقوق مدرسته أرسل يطلبه ، فلما قدم عليه وآله وظيفة شيخ الشيوخ بمد رسته ، ت ٧٩٠ هـ . (٦)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠/٣٢٦ .

(٢) السيوطي : بغية الوعاة ١/١٦٧ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١/١٠ .

(٤) المصدر السابق ١١/٩٩ .

(٥) المصدر السابق ١٠/٢٩٨ .

(٦) المصدر السابق ١١/٣١٧ .

- ٦٠ - يعقوب بن جلال الدين التبانى الحنفى ، كان فقيها بارعا في العربية والأصول وعلمي المعاني والبيان والعقليات ، أفتى ودرّس وصنّف ، ت ٨٢٧ هـ . (١)
- ٦١ - سراج الدين عمر بن علي بن فارس ، انتهت اليه رئاسة مذهب أبي حنيفة في عصره مع من كان في عصره من العلماء ، مات وقد صار المعول على فتواه بالديار المصرية بعد أن تصدر للافتاء والاقراء عدة سنين ، وانتفع به غالب الطلبة ، ت ٨٢٩ هـ . (٢)
- ٦٢ - زين الدين عبد الرحمن بن علي الحنفى ، علامة عصره في مذهبه . (٣)
- ٦٣ - يحيى بن محمد الأقسراى الحنفى ، كان اماما فاضلا عالما فقيها ، قائما في الحسب يخاشن الملوك والسلاطين ويغلظ عليهم في القول ، ولا يخش الآ الله ، كان بيده عدة تداريس ، طُلبَ ليلي القضاء غير مرة وهو يمتنع ، ت ٨٨٠ هـ . (٤)
- ٦٤ - محمد بن عبد الرحمن الديرى الحنفى ، كان عالما فاضلا دينًا خيرا ، من كبار علماء الحنفية ، ت ٩٠٨ هـ . (٥)

ثالثا : الفقهاء المالكية :

- ٦٥ - جمال الدين محمد بن سليمان بن يوسف الزواوى المالكي ، كان فقيها عالما عالمي الهمة ، محدثا بارعا ، أقام شعار مذهب مالك ، وحدث الناس بموطئه ، وبمحيح مسلم ، وبكتاب الشفا للقاضي عياض ، ت ٧١٧ هـ . (٦)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢١/١٥ .
- (٢) المصدر السابق ١٣٣/١٥ .
- (٣) ابن اياس : بدائع الزهور ١٤٢/٢ .
- (٤) المصدر السابق ١٠٧/٣ .
- (٥) المصدر السابق ٥٤/٤ .
- (٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٣٩/٩ ، ابن كثير : البدايئة والنهاية ٨٧/١٤ .

- ٦٦ - علي بن مخلوف بن ناهض المالكي النويري ، كان فقيها دينا خيرا ، ولسي القضاء بد يار مصر ثلاث و ثلاثين سنة ، ت ٧١٨ هـ . (١)
- ٦٧ - خليل بن عبد الرحمن بن محمد المالكي ، صاحب التمانيف في مذهبه ، انتهت اليه رئاسة مذهبه ، ولم يخلف بعده مثله . (٢)
- ٦٨ - خليل بن اسحاق الجندی المالكي ، كان فقيها مصنفا ، منّف كتاب (المختصر في فقه المالكية) ، ت ٧٦٦ هـ . (٣)
- ٦٩ - عبد الله بن مقداد بن اسماعيل المالكي ، كان اماما بارعا مدرسا ، مات والمعول على فتواه بمصر ، ت ٨٢١ هـ . (٤)
- ٧٠ - حسين بن علي بن سبع الأبو صيرى المالكي ، كان من أعيان المالكية في عصره ، ت ٨٣٨ هـ . (٥)
- ٧١ - أحمد بن محمد الدميرى المالكي ، كان فريدا عصره في المالكية ، ت ٨٤٢ هـ . (٦)
- ٧٢ - محمد بن علي النويرى العقيلي المالكي ، كان من أهل العلم والفضل ، ت ٨٤٢ هـ . (٧)
- ٧٣ - الشيخ حسن بن علي البهوتي المالكي ، كان من أعيان المالكية (٨) ، ت ٨٤٥ هـ .

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٤٢/٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٩٣/١٤ .
- (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٣٣/١٠ .
- (٣) المصدر السابق ٩٢/١١ .
- (٤) المصدر السابق ١٦٠/١٤ .
- (٥) ابن اياس : بدائع الزهور ١٦٠/٢ .
- (٦) المصدر السابق ١٩٩/٢ .
- (٧) المصدر السابق ٢١٥/٢ .
- (٨) المصدر السابق ٢٣٣/٢ .

٧٤ - العالم محمد البيجائي المغربي المالكي ، كان اماما في المعقول والمنقول ، والنحو وعلم المعاني ، والبيان ، والطب ، والحكمة ، وعلوم الأوائل ، وبالجملة كان نادرا من النوادر ، ت ٨٦٥ هـ . (١)

٧٥ - علي السويفي المالكي ، من أعيان المالكية ، تولّى الحسبة بالقاهرة ، والامامة بالسلطان . (٢)

٧٦ - برهان الدين ابراهيم الدميري ، من أعيان المالكية ، انتهت اليه رئاسة المالكية ، ت ٩١٣ هـ . (٣)

رابعا : الفقهاء الحنابلة :

٧٧ - محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد المقدسي ، اشتغل بالفقه وتفنن في علوم كثيرة ، وهو أول من ولي قضاء القضاة الحنابلة بالديار المصرية ، ت ٦٧٦ هـ . (٤)

٧٨ - شيخ الاسلام عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي ، كان من العلماء وأكثرهم ديانة وامامة في عصره ، عظيم القدر ، منقطع القرين ، عديم النظر ، ت ٦٨٢ هـ . (٥)

٧٩ - الامام العلامة عبد الحلیم بن عبد الله بن تيمية الحراني الحنبلي ، والد شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ، مفتي الفرق ، كان له فضيلة حسنة ، ولديه فضائل كثيرة ، كان له كرسي بجامع دمشق يتكلم عليه عن ظاهر قلبه ، وولي مشيخة مدرسة دار الحديث ، ت ٦٨٢ هـ . (٦)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣١١/١٦ .
 (٢) المصدر السابق ٣٥٤/١٦ ، السخاوى : الضوء اللامع ١٧٦/٥ .
 (٣) ابن اياس : بدائع الزهور : ١٢٦/٤ .
 (٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٩٣/١٣ .
 (٥) المصدر السابق ٣٢٠/١٣ .
 (٦) المصدر السابق ٢٢٠/١٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٨٥/١ .

- ٨٠ - الامام العلامة مفتي المسلمين زين الدين عثمان بن أسعد بن المنجي التنوخي ،
 شيخ الحنابلة وعالمهم ، سمع الحديث وثقته وبرع في فنون من العلم كثيرة من
 الأصول والفروع والعربية والتفسير وغير ذلك ، وانتهت اليه رئاسة المذهب ،
 جمع له بين الديانة والعلم والوجاهة وصحة الذهن والعقيدة والمناظرة ،
 ت ٦٩٥ هـ . (١)
- ٨١ - محمد بن أحمد المقدسي الحنبلي ، كان اماما عالما عاملا حبرا حافظا بارعا فسي
 الفقه والحديث ورجاله ، ت ٧٢٤ هـ . (٢)
- ٨٢ - شمس الدين محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي ، كان بارعا فاضلا متقنا في علوم
 كثيرة ولا سيما علم الفروع ، كان غاية في نقل مذهب الامام أحمد بن حنبل ، وجمع
 مصنفات كثيرة منها كتاب المقنع في نحو ثلاثين مجلدا ، وله غير ذلك من الفوائد
 والتعليقات ، ت ٧٦٣ هـ . (٣)
- ٨٣ - أحمد بن حسن بن عبد الله بن محمد بن قدامة المقدسي ، كان اماما عظيم القدر ،
 انتهت اليه رئاسة مذهبه ، صحب شيخ الاسلام ابن تيمية وسمع منه وتفقه به
 وبغيره ، يقول عن نفسه :
- نبيي أحمد وكذا امامي وشيخي أحمد كالبحر طامسي
 واسمي أحمد وبذاك أرجو شفاعة سيد الرسل الكرام (٤)
- ٨٤ - نصر الله بن أحمد بن محمد الششتري الحنبلي ، كان اماما عالما فقيها محدثا ،
 ت ٨١٢ هـ . (٥)
- ٨٥ - سالم المقدسي الحنبلي ، كان من فقهاء الحنابلة وخيارهم ، ت ٨٢٦ هـ . (٦)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٦٥/١٣ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٩/٣ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٨/١٤ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٠٨/١١ .

(٥) المصدر السابق ١٧٦/١٣ .

(٦) المصدر السابق ١١٨/١٥ .

د - علم الحديث :

أعد الله عزّ وجلّ لحفظ السنة المطهرة رجالاً أمدّهم بشتى المواهب العقلية والنفسية ، من الذكاء المتوقد ، والحفظ المستوعب ، والقدرة الهائلة على الاطلاع ممّا يبهر العقل ويستنفذ العجب ، ويجعل من المطلع على أخبارهم وأحوالهم ما يملأ قلبه يقيناً بأن هؤلاء العباقرة أعدوا هذا الإعداد لغاية سامية هي حفظ الدين الاسلامي الحنيف ، فكان من آثار هؤلاء العلماء العظاماء ما تزخر به المكتبات من مؤلفات قيمة مختلفة المناهج والمواضيع متحدة الغاية وهي خدمة السنة المطهرة . (١)

ومن هؤلاء العلماء الذين اهتموا بالحديث النبوي وعلومه تعلّموا وتعلّموا وتصنيفاً :

٨٦ - يحيى بن أبي المنصور الحرّاني الحنبلي ، كان عارفاً بالحديث وعلومه ، سمع وحديث وأفاد وانتفع الناس به وأخذوا عنه ، ت ٦٧٨ هـ . (٢)

٨٧ - محمد بن علي بن محمود الحمودي ، من أهل دمشق ، ومن مشايخ الحديث المشهورين ، سمع وروى الكثير بدمشق ، وديار مصر ، (٣) ت ٦٨٠ هـ .

٨٨ - أحمد بن عبد الله بن محمد الحلبي الشافعي المحدث ، سمع الكثير ، كان الشيخ محيي الدين النووي يثني عليه ، ويرسل اليه الصبيان ليقروا عليه في بيته لأمانته عنده وصيانتة وديانته ، ت ٦٨١ هـ . (٤)

(١) ربيع هادي مدخلي : النكت على كتاب ابن الصلاح ، المقدمة ٩ .

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٥٢/١ .

(٣) الممدر السابق ٧٠/١ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٣١٧/١٣ .

٨٩ - المسند أحمد بن هبة الله بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي ، من بيست

حديث ، سمع الحديث من علماء عصره وروى ، ت ٦٩٩ هـ . (١)

٩٠ - أحمد بن عبد القادر بن أحمد القيسي ، أقبل على سماع الحديث ونسخ الأجزاء

بعد كبر سنه فعابه بعض أهل زمانه ، فرد عليهم بقوله :

وَعَاب سَمَاعِي لِلْحَدِيثِ بُعِيدًا مَا كَبُرَتْ أَنْاسُ هَمِّ إِلَى الْعَيْبِ أَقْرَبِ
وَقَالُوا إِمَامَ فِي عُلُومِ كَثِيرَةٍ يَرُوحُ وَيَغْدُو سَامِعًا يَتَطَلَّبُ
فَقُلْتُ مَجِيبًا مَقَالَتِهِمْ وَقَسَدَ غَدَوْتُ لَجَهْلٍ مِنْهُمْ أَتَعْجَبُ
إِذَا اسْتَدْرَكَ الْإِنْسَانَ مَا فَاتَ مِنْ عِلْمِ فَلِلْحِزْمِ يُعْزَى لَا إِلَى الْجَهْلِ يَنْسَبُ

له تصانيف حسان منها : الجمع بين العباب والمحكم في اللغة ، وشرح الهداية

في الفقه ، وغيرها . (٢)

٩١ - خليل بن أبي بكر بن محمد المرآغي ، أحد الشيوخ المسندين ، كان يروى الحديث

بمصر . (٣)

٩٢ - عمر بن اسماعيل الفارقي ، أفتى ودرّس وأفاد ، اعترف أكابر عصره بفضلته ، لسه

مصنفات مفيدة . (٤)

٩٣ - علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي المعروف بابن النجار ، سمع

الكثير ورحل لطلب الحديث ، تفرد بروايات كثيرة لطول عمره ، وسمع منه خلق

كثير وجم غفير ، وكان متفرغا لذلك حتى كبر وضعف عن الحركة ،

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : ١٤/١٤ .

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٨٢/١ - ٨٣ .

(٣) المصدر السابق ٢٥٦/٢ .

(٤) المصدر السابق ١٣٢/١ .

له شعر حسن ومنه قوله :

تكررت السنون عليّ حتي بليت وصرت من سقط المتاع (١)
 وقلّ النفع عندي غير أني أعلل بالرواية والسماع
 فان يك خالما فله جزاء وان يك مالقا (٢) فالى ضياع (٣)

٩٤ - ابراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الواسطي الحنبلي ، تفرد بعلو الاسناد ، وكثرة الروايات . (٤)

٩٥ - أحمد بن محمد بن عبد الله الحنفي ، شيخ المحدثين بالديار المصرية ، اعتنى بأمر الحديث النبوي وطلبه ورجل الى البلاد ، ت ٦٩٦ هـ . (٥)

٩٦ - عبد السلام بن محمد البصري الحنبلي ، كان اماما قدوة محدثا ، جاور بالمدينة الشريفة خمسين سنة ، وكانت وفاته بها ، (٦) ت ٥٦٩٦ هـ .

٩٧ - محمد بن أبي بكر بن محمد القسطلاني المكي ، شيخ الحديث بالحرم الشريف ، ت ٧٠٤ هـ . (٧)

٩٨ - سليمان بن حمزة بن أحمد المقدسي الحنبلي ، المحدث مسند الشام في وقته ، سمع الحديث الكثير وتفقه وبرع ، وأفتى ودرّس وانتفع الناس به ، ت ٧١٥ هـ . (٨)

(١) المراد : ردىء المتاع .

(٢) مالمق : من ملق ، وهو من يعطي بلسانه ما ليس في قلبه .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٤٣/١٣ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ٤٤/١ .

(٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ١٦٢/١ .

(٥) المصدر السابق ٢٩٦/١ .

(٦) المصدر السابق ١٩٨/١ .

(٧) المصدر السابق ٢٦٤/١ .

(٨) ابن كثير : البداية والنهاية ٧٧/١٤ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ٧١/٢ .

٩٩ - المسند أحمد بن أبي طالب المعروف بابن الشحنة، مات وهو مسند الدنيا ، سمع

الناس عليه صحيح البخارى أكثر من سبعين مرة ، ت ٧٣٠ هـ . (١)

١٠٠ - يوسف بن عبد الرحمن القضاى المزى ، كان عالما علامة ، بارعا في علم الحديث

ومتونسه وأسانيده وعلله ورجاله ، له مصنفات عديدة منها : كتاب (تهذيب

الكمال) وهو في غاية الحسن في معناه ، ت ٧٤٢ هـ . (٢)

١٠١ - الحافظ مغلطاي الحنفي المصنف المحدث المشهور ، رحل وكتب وصنف ، من كتبه

شرح صحيح البخارى ، شرح سنن أبي داود ، ذيل على كتاب الضعفاء لابن الجوزى

رتب صحيح ابن حبان ، كان له اطلاع كبير ، وباع واسع في الحديث وعلومه ،

ت ٧٦٢ هـ . (٣)

١٠٢ - محمد بن ابراهيم بن محمد الأنصارى المقدسي ، كان مسند عصره ، ورحلة زمانه

في الحديث ، ت ٧٦٦ هـ . (٤)

١٠٣ - الحافظ الامام زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي الشافعي ، سمع الحديث

وارتحل لطلبه فحصل على الكثير منه لقوة ذكائه وتوقد ذهنه وسرعة حفظه ، أثنى

عليه علماء عصره ، رثاه تلميذه ابن حجر بقصيدة جاء فيها :

مُصاب لم ينفس للخنـاقِ أماد الدمع جار للمآقي

فيا أهل الشام ومصر فابكوا على عبد الرحيم بن العراقي

على الحبر الذي شهدت قـرون له بالانفراد على اتفـاق

ومن فتحت له قدما علوم نـدت عن غيره ذات انغلاق (٥)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٨١/٩ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٣/١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧٦/١٠ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٩/١١ .

(٤) المصدر السابق ٨٩/١١ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٢٩٥/٣ .

(٥) ابن حجر : انباء الغمر بأنباء العمر ١٧٣/٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم

الزاهرة ٢٠٤/١٤ ، السيوطي : ذيل طبقات الحفاظ ٣٧٠ ، السخاوى : الفسـوء

اللامع ١٧٦/٤ ، ربيع مدخلي : النكت على ابن الملاح ٣١ .

- ١٠٤ - العلامة المسند عبد الرحمن بن الطحان دمشقي الحنبلي ، كان علامة فسيحي الحديث ، ت ٨٤٥ هـ . (١)
- ١٠٥ - المسند أحمد بن محمد الذهبي دمشقي الحنبلي ، كان علامة في الحديث ، وأحد المسندين الثلاثة في عصره ، ت ٨٤٩ هـ . (٢)
- ١٠٦ - عز الدين عبد الرحيم بن محمد عبد الرحيم بن علي القاهري الحنفي ، مسند مصر في عصره ، صار رحلة زمانه ، ت ٨٥١ هـ . (٣)
- ١٠٧ - الحافظ عبد الرحمن بن أحمد القلقشندي ، ت ٨٦٨ هـ . (٤)
- ١٠٨ - الحافظ تقي الدين محمد بن محمد بن عبد الله ، محدث مكة ، ومسندها ، ت ٨٧١ هـ . (٥)
- ١٠٩ - محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن العز الشافعي القاهري ، مسند القاهرة ، ت ٨٨٩ هـ . (٦)
- ١١٠ - الحافظ المحدث فخر الدين عثمان الديمي شيخ الحديث ، كان عالما فاضلا محدثا فاضلا محدثنا دينا خيرا ، ت ٩٠٩ هـ . (٧)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢/ ٢٢٩ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٥٢ .

(٣) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ١٥/ ٥٢٤ ، السخاوى : التبر المسبوك ١٩٢ .

(٤) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ١٦/ ٣٥٤ ، السخاوى : الضوء اللامع ٤/ ٦٤ .

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ٢/ ٤٤٤ .

(٦) المصدر السابق ٣/ ٢٠٧ .

(٧) المصدر السابق ٤/ ٦٥ .

هـ - علم التاريخ :

اهتم المسلمون بعلم التاريخ و عنوا به عناية فائقة، ظهرت في مؤلفاتهم التاريخية التي وصلت اليها وهي كثيرة جدا ، وبعد ما اتسعت الدولة الاسلامية تنوعت المؤلفات التاريخية ، فمنهم من ألف في السير ، ومنهم من أرخ لدولة أو مدينة ، ومنهم من كتب في التاريخ العام ، ومنهم من صنّف في الطبقات ، الى غير ذلك من المصنّفات التاريخية . (١)

ومن المؤرخين الذين اهتموا بالكتابة التاريخية في هذا العصر :

١١١ - عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله الحلبي الحنفي ابن العديم ، كان اماما في فنون كثيرة ، صنّف لمدينة حلب تاريخا مفسّدا في أربعين مجلدا ، وكان جيد المعرفة بالحديث ، مات سنة ٦٦٠هـ بالديار المصرية . (٢)

١١٢ - المؤرخ عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الحافظ الفقيه المعروف بأبي شامة ، صاحب المصنّفات العديدة المفيدة ، له اختصار تاريخ دمشق في مجلدات كثيرة ، وكتاب الروضتين في الدولتين النورية والصلاحية ، وله الذيل عليه ، وله غير ذلك من الفوائد الحسان ، ت ٦٦٥هـ . (٣)

(١) أبوزيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ٣٦٣ ، عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ٥٥٨ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٩/١٣ .

(٣) المصدر السابق ٢٦٤/١٣ .

- ١١٣ - تاج الدين بن المحتسب المعروف بابن الساعي البغدادي ، سمع الحديث واعتنى بالتاريخ وجمع و صنف ، يقول ابن كثير عنه : " ٠٠٠ وله تاريخ كبير عندى أكثره ، ومصنّفات أخرى مفيدة ، وآخر ما صنّف كتاب في الزّهّاد " (١) . ت ٦٧٤ هـ .
- ١١٤ - شمس الدين أحمد بن محمد بن ابراهيم بن خلکان الأربلي الشافعي ، أحد الأئمّة الفضلاء والسادة العلماء والصدور الرؤساء ، وقد كان ينظم نظما حسنا رائقًا ، وكانت محاضراته في غاية الحسن ، وله التاريخ المفيد الذي رُسم بوفيات الأعيان من أبدع المصنّفات الذي لم يسبق لمثله ، وشهرته تغني عن تعريفه ، ت ٦٨١ هـ . (٢)
- ١١٥ - محيي الدين بن عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر السعدي ، كانت له مصنّفات منها : سيرة الملك الظاهر ، وله النظم الفائق ، والنثر الرائق ، ت ٦٩٢ هـ . (٣)
- ١١٦ - موسى بن محمد بن أحمد بن عبد الله اليونيني الحنبلي ، اختصر مرآة الزمّان لسبط بن جوزي ، و ذيل عليها ذيلًا حسنًا مرتبًا أفاد فيه وأجاد بعبارة حسنة سهلة بانصاف وستر ، وأتى فيه بأشياء حسنة وأشياء فائقة رائقة ، ت ٧٢٦ هـ . (٤)
- ١١٧ - اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن شاهنشاه بن أيوب ، كانت له فضائل كثيرة في علوم متعددة ، وله مصنّفات عديدة منها : تاريخ حافل في مجلدين كبيرين ، ت ٧٣٢ هـ . (٥)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٨٦/١٣ .
- (٢) الكتبي : فوات الوفيات ١١٠/١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣١٨/١٣ ، ابن القاضي : درة الحجال ٧/١ ، ابن تغري بردي : الدليل الشافي ٣٤/١ .
- (٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٥٤/١٣ ، موسوعة العلوم الاسلامية ١٢٩ .
- (٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣١/١٤ .
- (٥) المصدر السابق ١٦٦/١٤ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٢١/٢ .

- ١١٨ - القاسم بن محمد البرزالي ، مؤرخ الشام ، كتب تاريخا ذيل به على تاريخ شهاب الدين أبي شامة ، سمع الكثير على أزيد من ألف شيخ ، كان له خلق حسن ، قال عنه العلامة ابن تيمية : " . . . نقل البرزالي نقر في حجر . . . " ، ت ٧٣٩ هـ . (١)
- ١١٩ - المؤرخ شمس الدين محمد بن ابراهيم الجوزي ، جمع تاريخا حافلا استفاد منه الحافظ المزني ، كتب عنه واعتمد على نقله ، ت ٧٣٩ هـ . (٢)
- ١٢٠ - المؤرخ خليل بن أيبك الصفدي ، له مصنفات كثيرة في التاريخ منها : تاريخه المسمى الوافي بالوفيات ، وكتاب أعيان العصر في أعوان النصر ، ت ٧٦٤ هـ . (٣)
- ١٢١ - أحمد بن محمد بن عمر بن أحمد الحنفي الحلبي ، كان فقيها عارفا بالتاريخ والأدب ت ٧٦٥ هـ . (٤)
- ١٢٢ - محمد بن منكلي الناصري ، له كتاب (الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية) يبحث في فن القتال في البحر ، وكتاب (الأدلة الرسمية في التعابي الحربية) ، ت ٧٨٤ هـ . (٥)
- ١٢٣ - حسن بن عمر بن الحسن بن عمر الشافعي المعروف بابن حبيب ، له تصانيف مفيدة منها : كتاب (تاريخ دولة الترك) أنهاه حتى سنة سبع و سبعين و سبعمائة ، ذيل عليه ولده طاهر ، مات حسن بن عمر بن حبيب سنة ٧٧٩ هـ . (٦)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤/١٩٦ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٩/٣١٩ .
- (٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤/١٩٧ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢/٣٠١ .
- (٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١١/١٩ .
- (٤) المصدر السابق ١١/٨٤ .
- (٥) كوركيس عواد : مصادر التراث العسكري عند العرب ١/٣٦ .
- (٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١١/١٨٩ .

١٢٤ - ابراهيم بن محمد دقماق الظاهري ، صنف كتابا مفيدة منها : نزهة الأنام في تاريخ الاسلام ، والانتصار لواسطة عقد الأعمار ، وعقد الجواهر في سيرة الملك الظاهر ، ت ٨٠٩ هـ . (١)

١٢٥ - أحمد بن عبد الله القلقشندي الشافعي ، صنف كتاب (صبح الأعشى في صناعة الانشا) ت ٨٢١ هـ . (٢)

١٢٦ - محمد بن محمد النويري المالكي ، خطيب المسجد الحرام بمكة ، له مصنّفات كثيرة منها : (شرح الجامع الصحيح للبخارى) ، و (تاريخ الخلفاء) ، ت ٨٥٧ هـ . (٣)

١٢٧ - المؤرخ ابراهيم بن أحمد الباعوني الدمشقي الشافعي ، من آثاره كتاب (منحة اللبيب في سيرة الحبيب) ، ت ٨٧٠ هـ . (٤)

١٢٨ - المؤرخ برهان الدين ابراهيم بن عمر البقاعي ، له عدة مؤلفات في التاريخ ، ت ٨٨٥ هـ . (٥)

١٢٩ - يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله الظاهري ، مؤرخ بحاث من أهل القاهرة ، تفقه وقرأ الحديث وولع بالتاريخ ، وبرع في فنون الفروسية ، صنف كتابا تاريخية نفيسة منها : (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) ، و (المنهل الوافي والمستوفى بعد الوافي) ، و (الدليل الشافي على المنهل المافى) ،

(١) البغدادي : هدية العارفين ١٨/١ ، عمر كحالة : معجم مصنفى الكتب العربية ١٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥٠/١٤ ، البغدادي : هدية العارفين ١٢٢/١ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٢١٥/٢ ، البغدادي : هدية العارفين ١٩٩/٢ .

(٤) عمر كحالة : معجم مصنفى الكتب العربية في التاريخ والتراجم والجغرافيا والرحلات ٧

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ١٦٦/٣ ، البغدادي : هدية العارفين ٢١/١ .

و (مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة) ، و غيرها من كتب التاريخ والأدب ، ت ٨٧٤ هـ . (١)

١٣٠ - محمد بن أحمد بن اياس الحنفي ، مؤرخ مصرى من المماليك من تلاميذ المؤرخ جلال الدين السيوطي ، من مصنّفاته : التاريخ المسمى (بدائع الزهور في وقائع الدهور) نقل فيه تاريخ مصر من أول الخليقة الى عصره ، و سجل في كتابه الأحداث السياسية والتقلبات الادارية و بعض الأحوال الاجتماعية التي تنبئه القارىء الى كثير من خفايا الأحوال العامة للدولة ، و من كتبه أيضا : (نشق الأزهار فسي عجائب الأقطار) ، و (عقود الجمال في وقائع الزمان) ، و (مرج الزهور) ، و غيرها ، ت ٩٣٠ هـ . (٢)

-
- (١) عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ٨٦٤/٣ ، عمر كحالة : التاريخ والجغرافيا في العصور الاسلامية ١٤٤ ، الزركلي : الأعلام ٢٢/٨ .
- (٢) عمر كحالة : التاريخ والجغرافيا في العصور الاسلامية ١٤٤ ، عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ٩٣٤/٣ ، الزركلي : الأعلام ٥/٦ .

و - اللغة العربية :

١٣١ - محمد بن مكرم بن علي الأنصاري المصري ، كان مغري باختصار كتب الأدب المطولة ، جمع في اللغة كتابا سماه لسان العرب ، جمع فيه بين التهذيب والمحكم والصاح والجمهرة والنهاية وحاشية الصاح وغيرها من كتب اللغة والأدب ، وكان عارفا باللغة والنحو والتاريخ ، اختصر تاريخ دمشق ، ت ٧١١ هـ . (١)

١٣٢ - عمر بن مظفر بن عمر الوردى المصرى ، من أعيان علماء الشافعية ، كان اماما بارعا في الفقه والنحو والأدب ، ونظمه في الذروة العليا والطبقة القصوى ، صنّف شرح ألفية ابن مالك ، واللباب في علم الاعراب ، والبهجة في النحو ، وتذكرة الغريب في النحو نظما ، ت ٧٤٩ هـ . (٢)

١٣٣ - عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري الحنبلي النحوى الفاضل العلامة المشهور ، كان بارعا في عدة علوم لا سيما العربية ، فانه كان فارسها ومالك زمامها فاق الأقران فيها ، بل والشيوخ ، واشتهر في حياته وأقبل الناس عليه وتمسّد ر لنفع الطالبين ، صنّف عدّة مؤلفات منها : مغني اللبيب عن كتاب الأعراس ، والتوضيح على الألفية ، وشرح شذور الذهب ، وغيرها ٠٠٠ ت ٧٦١ هـ .
ومن نظمته قوله :

وَمَنْ يَصْطَبِرَ لِلْعِلْمِ يَظْفَرُ بِنَيْلِهِ وَمَنْ يَخْطُبُ الْحَسَنَاءَ يَصْبِرُ عَلَى الْبَذْلِ
وَمَنْ لَا يُذِلُّ النَّفْسَ فِي طَلْبِ الْعِلْمِ يَسِيرًا يَعِشُ دَهْرًا طَوِيلًا أَخَا ذُلِّ (٣)

- (١) السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ٢٤٨/١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٤٢/١ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٥٠/١٠ ، السيوطي : بغية الوعاة ٢٢٦/٢ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٣٦/١٠ ، السيوطي : بغية الوعاة ٦٨/٢ .

- ١٢٤ - عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عقيل ، نحويّ الديار المصرية ، تفرغ في العلوم ، كان اماماً في العربية والبيان ، له مصنّفات عدّة منها : شرح الألفية فسي النحو ، وشرح المساعد في التسهيل ، ت ٧٦٩ هـ . (١)
- ١٢٥ - محمد بن عبد الله بن يوسف بن هشام الأنماري النحووي ابن النحووي ، كان أوحسده عصره في تحقيق النحو ، تمدّد لاقراء النحو سنين وانتفع به جماعة من الطلبة ، ت ٧٩٩ هـ . (٢)
- ١٢٦ - محمد بن الحسن السيوطي ، كان عالماً بالعربية ماهراً فيها ، حسن التعليم لها ، عارفاً بعدة فنون ، انتفع به جماعة ، وكان يعلم بالأجرة ، ويقري كل بيت من الألفية بدرهم ، ت ٨٠٨ هـ . (٣)
- ١٢٧ - محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز بن جماعة ، الأستاذ العلامة المتفنن ، استأذ الزمان ، وفخر الأوان ، الجامع لأشنتات جميع العلوم ، قال فيه ابن حجر :
وكان من العلوم بحيث يقضى له في كل فن بالجميع
(٤)
له مصنّفات عديدة في التفسير ، واللغة ، والفقه ، والحديث ، والطب ، ت ٨١٩ هـ .
- ١٢٨ - محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم الفيروزآبادي ، ماهر في اللغة وفائق وظهرت فضائله وكثر الآخذون عنه ببلاد الشام ومصر ، صنّف في اللغة عدّة مؤلفات منها : القاموس المحيط ، والبلغة في تاريخ أئمة اللغة ،
-
- (١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١١/١٠٠ ، السيوطي : بغية الوعاة ٢/٤٧ .
- (٢) ، ، : ، ، ، ١٥٧/١٢ ، ، ، ، ١٤٨/٢ .
- (٣) السيوطي : بغية الوعاة ١/٩١ .
- (٤) المحمدر السابق ١/٦٣ .

ومقصود ذوى الألباب في علم الاعراب ، و صنف في موضوعات شتى في الفقه والأصول
والتفسير ، والطبقات وغيرها ، ت ٨١٦ هـ . (١)

١٣٩ - عمر بن سيف الدين القلمطاوى ، كان امام عصره في النحو والعربية والتصريف
ت ٨٥٦ هـ . (٢)

١٤٠ - يحيى بن صالح بن علي بن محمد العجيسي ، كان اماما في النحو ، والعربية ،
ومعرفة تاريخ الصحابة ، ت ٨٦٢ هـ . (٣)

١٤١ - محمد بن أحمد المحلى الشافعي ، كان اماما في اللغة العربية ، والبيان
والمعاني ، ت ٨٦٤ هـ . (٤)

(١) السيوطي : بغية الوعاة ٢٧٣/١ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٠/١٦ .

(٣) المصدر السابق ١٦/١٩٣ .

(٤) المصدر السابق ١٦/٢٠٩ .

ز - علم الطب :

وجد في الديار المصرية جماعة من الأطباء يعتبرون امتدادا لمن ظهر
قبل عصر الخلافة العباسية من كبار الأطباء في العصور الإسلامية السابقة لقيام الخلافة ثالثة بمصر،
وممن ظهر في هذا العصر :

١٤٢ - موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة المعروف بابن أبي أميعة ، له تاريخ
الأطباء في عدة مجلدات لطاف ، ت ٦٦٨ هـ . (١)

(٢)
١٤٣ - الطبيب محمد بن عباس بن أحمد ، عمل بالبيمارستان النورى بدمشق ، ت ٦٨٦ هـ .

١٤٤ - علاء الدين علي ابن النفيس شيخ الأطباء ، صاحب كتاب الموجز وشرح القانون ،
كان علامة عصره في الطب ، ت ٦٨٧ هـ . (٣)

١٤٥ - ابراهيم بن محمد بن طرخان الأنعارى الدمشقي ، شيخ الطب ، فاق على أقرانه ،
ومنّف الكتب المفيدة ، ت ٦٩٠ هـ . (٤)

١٤٦ - أحمد بن يوسف بن هلال الصفدى ، كان بارعا في الطب ، ت ٧٣٨ هـ . (٥)

١٤٧ - رئيس الأطباء بالديار المصرية والبلاد الشامية علم الدين ابراهيم بن الرشيد ،
ت ٧٣٨ هـ . (٦)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٧٢/١٣ .
(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه ١١٢/١ .
(٣) المصدر السابق : ١١٦/١ .
(٤) المصدر السابق : ١٤٦/١ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣١٧/٩ .
(٦) المصدر السابق : ٥٩/١٠ .

- ١٤٨ - جمال الدين ابراهيم بن أحمد المغربي ، رئيس الأطباء في زمانه ، ت ٧٤٢ هـ . (١)
- ١٤٩ - ضياء الدين بن البيطار ، كان علامة في الطب ، صنّف كتاب المفردات في الطب ، ت ٧٤٦ هـ . (٢)
- ١٥٠ - شمس الدين محمد بن الألفاني ، كان علامة في الطب ، ت ٧٤٩ هـ .
- ١٥١ - تاج الدين التبريزي .
- ١٥٢ - شمس الدين محمد بن الصغير . (٣)
- ١٥٣ - رئيس الأطباء علاء الدين علي بن عبد الواحد بن صغير ، ت ٧٩٦ هـ . (٤)
- ١٥٤ - رئيس الأطباء بالديار المصرية صدر الدين بديع بن نفيس التبريزي ، ت ٧٩٧ هـ . (٥)
- ١٥٥ - رئيس الطب ابراهيم بن خليل ، بعد وفاته عين السلطان المؤيد شيخ مكانه نظام الدين التبريزي الهمذاني ، فلما أشيع عنه عدم معرفته بالطب واجادة المهنة ، صرفه السلطان عن رئاسة الطب بالديار المصرية ، وقرر آخر بدلا عنه . (٦)
- ١٥٦ - رئيس الأطباء علم الدين سليمان بن جنيبة ، كان أبوه يهوديا ثم أسلم ، ونشأ سليمان هذا مسلما ، ت ٨٢٤ هـ . (٧)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥٩/١٠ .
- (٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٥٠٧/١ .
- (٣) المصدر السابق ٥٢٣/١ .
- (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤٠/١٢ .
- (٥) المصدر السابق ١٤٤/١٢ .
- (٦) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٤/٢ .
- (٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٣٥/١٤ .

- ١٥٧ - الطبيب الفقيه عمر بن منصور البهادري ، انتهت اليه الرئاسة في الطب ، مات ولم يخلف مثله في التقدم في علم الطب ، ت ٨٣٤ هـ . (١)
- ١٥٨ - رئيس الأطباء عبد اللطيف بن عبد الواحد بن العفيف ، ت ٨٨٢ هـ . (٢)
- ١٥٩ - رئيس الطب بركات السكندري ، كان عارفا بأمر الطب ، ت ٩١٥ هـ . (٣)
- ١٦٠ - رئيس الطب شمس الدين محمد القوصوني ، كان علامة في فن الطب ، فريد عصره في ذلك ، ت ٩١٧ هـ . (٤)
- ١٦١ - عبد القادر القطبي ، كان من أعيان الأطباء في زمنه ، ت ٩١٩ هـ . (٥)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥/١٧٢ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٣/١٢٣ .

(٣) المصدر السابق : ٤/١٧١ .

(٤) المصدر السابق : ٤/٢١٨ .

(٥) المصدر السابق : ٤/٣١١ .

ولزيادة الفائدة : ابن أبي أصيبعة : عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ، ٥٩٤ - ٥٩٨ ،
 زكريا هاشم : فخل الحضارة الاسلامية على العالم ٤٢٦ - ٤٢٧ ، عبد الرحمن زكي :
 بحوث في تاريخ الحضارة الاسلامية ١٢٤ - ١٢٥ ، تراث القاهرة العلمي في العصر
 الاسلامي ٥١ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ .

ثالثا : أثر المرأة في الناحية العلمية في هذا العصر :

أدت المرأة المسلمة في هذا العصر جهدا بارزا في الناحية العلمية دأرسة ومُدَّرسة لبنات جنسها بصفة خاصة ، واحتلت المرأة مكانة عالية في مجتمعها المسلم الذي قد رهسا وشمها برعايته وعنايته ، فأثبتت أنها أهل لتلك المكانة ولتلك الرعاية والعناية .

وكان أبرز ميدان وضع فيه نشاطها هو الميدان العلمي فأقبلت على تلقي العلم ، وحضرت المجالس العلمية ، وشاركت في سماع العلم في أمكنة منفردة خاصة بهـا بعيدة عن أعين الرجال . (١)

وقد ساعد على تلك الحركة العلمية انتشار تعليم البنات منذ الصغر ، وبلغت العناية بتعليمهن أن أحضر الكثير منهن للسماع في مجالس العلم في السنة الخامسة من العمر ، وكثير منهم كن من أقارب ذلك العالم أو المصنّف أو من أقارب بعض الرجال الذين حضروا تلك المجالس العلمية . (٢)

وكثيرا ما وردت في كتب التراجم عبارات تشير الى مشاركة المرأة في الناحية العلمية مثل : أنها سمعت عن علماء أجلاء ، وسمع عنها ، وروى عنها ، وقرأ عليها ، وأخذ عنها جملة من العلماء ، وهذه العبارات رغم تطابقها وتشابهها أحيانا فانها تدل دلالة واضحة على النشاط العلمي للمرأة خاصة وأن العبارة الواحدة مما سبق قيلت عن عشرات النساء ، الأمر الذي يثبت أن فائدتهن كانت كبيرة وأن عطاءهن كان غزيرا . (٣)

-
- (١) أحمد عدوان : المكانة العلمية والاجتماعية للمرأة في مصر في العصر المملوكي - مجلة العصور - العدد الأول ، السنة ١٩٨٩ م ، ص ١٤٥ .
- (٢) عبد الجليل عبد المهدي : المرأة في بلاد الشام في العصر المملوكي - مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد ٣٨ ، السنة ١٤١٠ هـ ، ص ٣٥ .
- (٣) أحمد عدوان : المكانة العلمية والاجتماعية للمرأة في مصر في العصر المملوكي - مجلة العصور - العدد الأول ، السنة ١٩٨٩ م ، ص ١٤٥ .

ويجد المطلاع على كتب التراجم أسماء عديدة لمن اشتغلن بالعلم والتعليم من نساء ذلك العصر ، فمثلا كتاب الضوء اللامع للسخاوي ترجم فيه لما يزيد عن ألف امرأة ، وهو عدد كبير لا يسعه كتاب واحد في حال الاسهاب والاطالة في الترجمة ، ولكن السخاوي لجأ الى الايجاز واهمال التفاصيل ، ومع ذلك الايجاز فقد أتى السخاوي بطائفة كبيرة من نساء عصره ، وعرض علينا من أحوالهن وجوهها مختلفة ، فمنهن المحدثثة العالمة ، والحافظة البارعة ، ومنهن الصالحة المنفقة ، ومنهن التقيّة الورعة ، ومنهن المحتسبة الصابرة . (١)

أما الحافظ ابن حجر فقد ترجم في كتابه (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) لألف وثلثمائة وثلاثة وأربعين ما بين رجل وامرأة ، وغلب على ابن حجر اهتمامه بالحدِيث وعلومه ، والعناية برجاله ونسائه ، ولذلك ذكر في كتابه ذلك العشرات من المحدثات ممن كن يروين الأحاديث النبوية . (٢)

وكانت أماكن التعليم التي تتلقى فيها المرأة تعليمها أو تُعلّم غيرها متنوعة ، فمنها المسجد ، والمنزل ، والمدسة ، وشارك عدد من نساء المسلمين في ذلك العصر في تأسيس تلك المراكز العلمية التي انتشرت في المدن ، ووقفن عليها الأوقاف للنفقة على من يتولى التدريس بها من فقهاء وعلماء وقرّاء . واتخذ أغلب من كن يقمن بالتدريس منازلهن أمكنة لتلك المهمة ، فكانت دورهم عامرة بالتلاوة وسماع العلم . (٣)

-
- (١) نعيمة المغربي : المرأة المسلمة في القرن التاسع للهجرة - مجلة الرسالة ، العدد ١٦٩ ، السنة ١٣٥٥ هـ ، ص ١٥٨٢ .
- (٢) محمد كرد علي : ابن حجر وكتابه الدرر الكامنة - مجلة الرسالة - العدد ٩٢ ، السنة ١٣٥٣ هـ ، ص ٥٣٤ .
- (٣) عبد الجليل عبد المهدي : المرأة في بلاد الشام في العصر المملوكي - مجلة مجمع اللغة العربية الأردني - العدد ٣٨ ، السنة ١٤١٠ هـ ، ص ٣٥ .

وفيما يلي بيان بأسماء بعض من اشتهروا بالعلم والتعليم في هذا العصر ، وكان

لهن أثر بارز في العلم والدين والبر والاحسان :

- ١ - أسماء بنت ابراهيم بن عرصة ، كانت تلقن النسوة القرءآن ، وتعلمهن العلم ، وكانت تجهد نفسها فيما يقربها الى الله . (١)
- ٢ - أسماء بنت أحمد بن الحسين الهكاري ، حدثت بالقاهرة . (٢)
- ٣ - آمنة بنت ابراهيم بن علي . (٣)
- ٤ - آمنة بنت أحمد بن زيد ، محدثة ذات برّ واحسان ، سمعت الحديث وأجازت للسخاوي وغيره . (٤)
- ٥ - أم محمد بنت عمر بن أسعد التنوخية ، روت صحيح البخاري ، وصارت رحلة زمانها ، ورحل اليها من الأقطار . (٥)
- ٦ - أم محمد بنت أحمد بن عمر بن شكر ، كانت رحلة زمانها ، ورحل اليها من الأقطار ، وصارت مسندة عصرها . (٦)
- ٧ - أم طالوت بنت ابراهيم بن مصري ، سمعت وحدثت . (٧)

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ١/٣٦٠ .

(٢) المصدر السابق ١/٣٦٠ .

(٣) عمر كحالة : أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام ١/٨ .

(٤) المرجع السابق ١/٨ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٩/٢٣٧ .

(٦) المصدر السابق : ٩/٢٥٨ .

(٧) السلامي : الوفيات ٢/٨٩ .

- ٨ - بركة بنت أحمد بن عبد الرحيم ، محدّثة ، أحضرت على الحافظ ابن الهيثمي ،
وحدّثت بما سمعت ، فسمع منها الفخلاء . (١)
- ٩ - جويرية بنت عبد الرحيم بن الحسين العراقي ، سمعت على والدها ، والحافظ
ابن الهيثمي . (٢)
- ١٠ - جويرية بنت أحمد بن الحسين الهكاري ، سمعت من علماء الحديث في عصرها ،
وحدّثت بمسموعاتها مرارا ، عمّرت فأكثرها عنها ، يقول عنها ابن حجر :
« سمع منها بعض مشايخنا وكثير من أقراننا » . (٣)
- ١١ - جويرة بنت أحمد بن أحمد الهكاري ، محدّثة انفردت برواية النسائي وغيره . (٤)
- ١٢ - خديجة بنت فخر الدين الكنجي ، سمعت وحدّثت هي وأختها ، وأبوهما . (٥)
- ١٣ - خديجة بنت عبد الرحمن المزني ، سمعت وحدّثت . (٦)
- ١٤ - دنيا بنت حسن بلبسان . (٧)
- ١٥ - رقية بنت محمد بن علي القشيري . (٨)
- ١٦ - رقية بنت مرشد العجمي . (٩)

(١) عمر كحالة : أعلام النساء ١٢٧/١ .

(٢) السيوطي : نظم العقيان في أعيان الأعيان ق ٧٤ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ٥٤٤/١ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢٢١/١١ .

(٥) السلامي : الوفيات ٢٤٩/١ .

(٦) ابن العراقي : الذيل على العبر ١٣٨/١ .

(٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ١٠٢/٢ .

(٨) الممدر السابق ١٠٢/٢ .

(٩) الممدر السابق ١٠٢/٢ .

- ١٧ - زينب بنت عبد الرحيم بن الحسين العراقي ، سمعت وحدثت . (١)
- ١٨ - زينب بنت عبد الرحمن بن محمد المقدسي ، سمعت وحدثت . (٢)
- ١٩ - زينب بنت عبد الله بن محمد الصالحية ، سمعت وأجاز لها جماعة ، وحدثت . (٣)
- ٢٠ - زينب بنت أحمد بن عمر بن سكر القدسية ، تفرّدت بأشياء من مسموعاتها . (٤)
- ٢١ - زينب بنت سليمان بن ابراهيم الأسعردى ، سمعت وحدثت اجازة عن جماعة ،
وتفرّدت بأشياء مما سمعت . (٥)
- ٢٢ - زينب بنت يحيى بن عز الدين بن عبد السلام ، سمعت وحدثت ، تفرّدت برواية
المعجم الصغير للطبراني ، كان فيها حب للرواية ، قرئ عليها في يوم موتها
عدّة أجزاء . (٦)
- ٢٣ - ست العلماء بنت أحمد ، كانت مشهورة بعمل المواعيد لالقاء المواعظ مع الديين
والخير والعبادة . (٧)
- ٢٤ - ستيتة بنت علي بن عبد الكافي السبكي ، سمعت وحدثت . (٨)
- ٢٥ - سارة بنت عبد العزيز بن محمد بن جماعة ، سمعت وحدثت . (٩)

(١) السيوطي : نظم العقيان في أعيان الأعيان ق ٧٧ .

(٢) السلامي : الوفيات ٢٧٣/١ .

(٣) المصدر السابق ٣٩٧/١ .

(٤) ابن فهد : لحظ الألفاظ ١٠١ .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ١١٩/٢ .

(٦) المصدر السابق : ١٢٢/٢ .

(٧) المصدر السابق : ١٢٧/٢ .

(٨) ابن العراقي : الذيل على العبر ٣٩٩/٢ .

(٩) المصدر السابق : ٨٤:١ .

- ٢٦ - صفية بنت أحمد بن أحمد بن عبيد الله بن قدامة ، محدثة سمعت صحيح مسلم
وحدّثت به . (١)
- ٢٧ - ضيفة بنت المحدّث محمد الكلابي ، سمعت وحدّثت ، وكانت تعظ النساء . (٢)
- ٢٨ - عائشة بنت ابراهيم ، محدثة حدّثت بما سمعت ، كانت تحفظ القرءآن وتلقنّه
للنساء ، وكانت عديمة النظر لكثرة عبادتها وحسن تأديتها للقرءآن ، تفضل في
ذلك على كثير من الرجال ، أقرأت عدة من النساء وختمن عليها وانتفعن بهنّ ،
وكانت زاهدة في الدنيا متقللة منها . (٣)
- ٢٩ - عائشة بنت اسماعيل بن ابراهيم بن الخباز ، سمعت وحدّثت ، سمع منها زين الدين
ابن العراقي . (٤)
- ٣٠ - فاطمة بنت ابراهيم بن داود بن نصر الهكاري ، محدثة حدّثت وسمع منها زين الدين
ابن العراقي . (٥)
- ٣١ - فاطمة بنت العز بن ابراهيم بن الخطيب المقدسية ، سمعت وحدّثت ، وتفردت
بالرواية عن كثير من علماء عصرها . (٦)
- ٣٢ - فاطمة بنت ابراهيم بن غنائم ، محدثة سمعت وحدّثت ، وممن سمع منها محمد بن
أحمد الذهبي ، ومحمد بن رافع السلامي . (٧)

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ٢٠٧/٢ .

(٢) المصدر السابق : ٢١٣/٢ .

(٣) المصدر السابق : ٢٣٥/٢ .

(٤) المصدر السابق : ٢٣٦/٢ .

(٥) المصدر السابق : ٢٢٠/٣ .

(٦) المصدر السابق : ٢٢٠/٣ .

(٧) المصدر السابق : ٢٢١/٣ .

- ٣٣ - فاطمة بنت أحمد بن محمد الحريري ، محدّثة حدّثت بالصحيح . (١)
- ٣٤ - فاطمة بنت أبي بكر بن محمد بن طرخان ، محدّثة سمعت و حدّثت ، سمع منها محمد الذهبي ، والقاسم البرزالي ، وحدثوا عنها . (٢)
- ٣٥ - فاطمة بنت عبد الرحمن بن الفراء ، محدّثة سمعت و حدّثت . (٣)
- ٣٦ - وجيبة بنت علي بن يحيى بن علي بن سلطان ، محدّثة سمعت و حدّثت ، كانت آخر من حدّثت عن بعض علماء عصرها . (٤)
- ٣٧ - وسناء بنت عبد الرحمن بن أحمد المقدسي ، محدّثة سمعت و حدّثت اجازة عمّن أخذت عنهم في الحديث . (٥)
- ٣٨ - كلثم بنت محمد بن محمود بن معبد ، محدّثة سمعت و حدّثت . (٦)
- ٣٩ - كمالية بنت أحمد بن عبد القادر الدمراوى ، محدّثة سمعت و حدّثت وأجاز لها جماعة من أهل العلم . (٧)
- ٤٠ - نخوة بنت محمد بن عبد القادر النصيبي ، محدّثة سمعت المستخرج على صحيح البخارى لأبي نعيم ، وتفرّدت بروايته عن يوسف بن خليل . (٨)

-
- (١) ابن حجر : الدرر الكامنة ٢٢١/٣ .
- (٢) المصدر السابق : ٢٢٣/٣ .
- (٣) المصدر السابق : ٢٢٣/٣ .
- (٤) المصدر السابق : ٤٠٦/٤ .
- (٥) المصدر السابق : ٤٠٧/٤ .
- (٦) المصدر السابق : ٢٦٨/٣ .
- (٧) المصدر السابق : ٢٦٩/٣ .
- (٨) المصدر السابق : ٣٨٩/٤ .

٤١ - نفيسة بنت ابراهيم بن سالم ، سمعت الحديث وحدثت ، وسمع منها طائفة من

أهل زمانها ، منهم : محمد بن أحمد الذهبي ، والقاسم البرزالي ، ومحمد بن رافع

السلامي ، وذكروها في معاجيمهم . (١)

فرحم الله هؤلاء العلماء ، وجزاهم خير الجزاء ، عما قدّموه خدمة لدينهم الحنيف وأمتهم

الاسلامية .

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ١/٣٩٧ .

وهذا هو بعض المراجع التي تناولت النواحي العلمية في هذا العصر :

عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ٣/٦٩٥ ، عمر كحالة : التاريخ والجغرافيا في العصور الاسلامية ١٣٦ ، عبد اللطيف حمزة : الحياة الفكرية في مصر ٢٢٨ وما بعدها ، محمد عنان : مؤرخو مصر الاسلامية ٨٦ ، أحمد الزيات : تاريخ الأدب العربي ٤٠٤ ، محمود سليم : عصر سلاطين العماليك ٣/٣٧ ، محمد زغلول : الأدب في العصر المملوكي ١/١٤٣ ، ابراهيم العدوي : التاريخ الاسلامي وآفاقه السياسية ٣٥٢ ، عبد الوهاب أبو سليمان : كتابة البحث العلمي ٢٧٢ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ١/٢٧٨ ، ٢٩٥ ، صلاح الدين المنجد : معجم المؤرخين الدمشقيين ١٥٩ ، معجم المؤلفين ٥/١٢٨ وغيره من الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، عمر كحالة : معجم مصنفى الكتب العربية ١٣ ، ١٦ ، ٤٦ ، ٥١ ، التاريخ والجغرافيا في العصور الاسلامية ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ . ابراهيم المشيخ : تاريخ أم القرى ومكانة المرأة العلمية فيها ١٨ ، ٧٩ ، ١٠٦ ، ١١٨ . أحمد عبد المجيد : الحركة العلمية في مصر ٨٥ ، ١٣٠ ، ١٧٠ ، طرفة العبيكان : الحياة العلمية في مكة ٤٩ ، ٦٥ ، ١٥١ ، مجموعة من المؤلفين : موسوعة العلوم الاسلامية ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٠ ، محمد توفيق : دور المرأة في الحركة العلمية - مجلة عالم الفكر - العدد الأول ، سنة ١٩٨٠ م ، نعيمة المغربي - مجلة الرسالة - العدد ١٦٩ ، ص ١٥٨٢ ، أحمد عدوان : المكانة العلمية للمرأة في مصر في العصر المملوكي - مجلة العصور ، العدد الأول ، سنة ١٩٨٩ م ، عبد الجليل عبد المهدي : مجلة مجمع اللغة العربية بالأردن : المرأة في بلاد الشام ، العدد ٣٨ ، سنة ١٤١٠ هـ

- • • • •
-
- عادل الألوسي : الربط الاسلامية - مجلة المورد ، العدد الثالث ،
سنة ١٩٧٩ م ، ص ٣٠ . عباس العزاوي : تاريخ علم الفلك - المجمع العلمي
العرب - شوال ١٣٧٢ هـ ، ص ٤٣٣ ، سعد عبد الحميد : ملاحظات عن مصر -
مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - المجلد الثامن ، سنة ١٩٥٤ م ، محمد
عبد الله عنان : مجلة الرسالة - العدد ١٠٧ ، سنة ١٣٥٤ هـ ، ص ١١٦٧ .

الفصل الثالث

الاملاحة الداخلية

في

ظل الخلافة العباسية

أصبح السلاطين المماليك أصحاب الحل والعقد في أمور الخلافة العباسية بالديار المصرية ، وذلك بناء على التفويض الذي كان الخليفة العباسي يمنحه عند تولية السلطان منصب السلطنة ، ولأجل رغبة السلطان في الاستقلال بالسلطة والانفراد بتدبير المملكة فإنه " حظر على الخليفة التدخل في أمور الدولة التي اعتبرها من حق السلطان وحده دون من سواه ، ولخوف السلطان المملوكي من عاقبة مشاركة الخليفة له في إدارة الدولة ، ولما قد يسببه ذلك التدخل من استئثار الخليفة بالسلطة والنفوذ إذا ما التفت الرعية من حوله ، لأنه الرئيس الأعلى لجماعة المسلمين " (١) ، فعمل السلطان على عزل الخليفة عن الرعية وجعله تحت ملاحظته ومراقبته ، ومُنِعَ الخلفاء في أوقات مختلفة من مجالسة الرعية أو الاقتراب منها لما لذلك من خطورة على السلطان ونفوذه ، وظلَّ السلطان المملوكي بناء على تفويض الخليفة العباسي له هو المباشر الفعلي في تدبير أمور الخلافة العباسية بعد أن حيل بين الخلفاء و القيام بتلك المهمة والاشراف على ما تحتاجه الدولة من إصلاحات .

وبعد أن أصبحت مقاليد الخلافة في أيدي السلاطين المماليك حرصوا على كسب ود الرعية من خلال الظهور بمظهر المحافظة على الدين الاسلامي والنسيرة عليه (٢) ، وحماية حوزته ، فهابوا العلماء وقربوهم ، واندفعوا الى أعمال البر من بناء المساجد والاهتمام بالحرمين الشريفين والعناية بطرق الحج الى الأماكن المقدسة في مكة ، واقامة المدارس ودور الأيتام ، وتعهدوا تلك الأعمال الخيرية بالمتابعة وتفقد أحوالها ، وتخصيص بعض أرباب الوظائف للقيام بأمرها ، وتعهدوا بالانفاق عليها من خلال رصد الأوقاف الكثيرة ليستفاد من ريعها لضمان استمرار قيام تلك المرافق الخيرية بدورها في

(١) علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢) محمود سليم : عصر سلاطين المماليك ٤١/١ .

خدمة الاسلام والعلم والتعليم والمجتمع في ذلك العصر .

وفيما يلي بيان لبعض جهود الخلفاء العباسيين والسلاطين المماليك واصلاحاتهم الداخلية :

أ - الاهتمام بالحرمين الشريفين بمكة والمدينة :

أولت الدولة الاسلامية التي وقعت مكة المكرمة والمدينة المنورة تحت حكمها اهتماما خاصا بهما ، نظرا للمكانة الدينية في قلوب المسلمين ، فالمسجد الحرام في الكعبة المشرفة التي يتجه اليها المسلمون في صلاتهم ، وتتوق نفوسهم للقرب منها والطواف بها ، فكانت مكة المكرمة محل اهتمام شديد من قبل المسلمين ، واهتمت بها الدولة الاسلامية التي تعاقبت على حكمها وتسابقت في العناية بها .

١ - مكة المكرمة :

يلاحظ أنه قبل قيام الخلافة العباسية ثانية بالديار المصرية وقبل عصر السلاطين المماليك عمّت الفوضى والاضطراب بلاد الحجاز ، بعد أن اشتد التنافس بين الأيوبيين بمصر والرسوليين باليمن^(١) ، وطمع كل منهما في السيطرة على بلاد الحجاز خاصة مكة والمدينة ، ومن مظاهر ذلك التنافس تدخل كل منهما في شئون إمارة مكة ، خاصة بعد أن تداول الحكم في إمارة مكة ولاية يد ينون بالولاء لأحد الطرفين المتنافسين ، ولجوء بعض أمراء مكة من الأشراف الى الدولة الرسولية باليمن طلبا للمساعدة العسكرية ، ولجوء آخرين منهم الى الأيوبيين مما زاد في حدة الصراع بين تلك القوى المتنازعة ، وعاد بالأثر السيئ على مكة وأهلها .^(٢)

(١) نسبة الى مؤسسها عمر بن علي بن رسول الذي حكم اليمن نيابة عن الأيوبيين بالشام ، ثم استقل عنهم وتلقب بالمنصور وخطب له بجميع أقطار اليمن سنة ٦٣٠ هـ (الأعلام للزركلي ٥/٥٦٠) .

(٢) محمد الطاسان : الوظائف الدينية بالمسجد الحرام في عهد دولة المماليك - مجلة

العصور ، المجلد الخامس ، سنة ١٩٩٠ م ، ص ٢٨٣ .

عائشة باقاسي : بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ٥٨ .

ولكن بعد قيام الخلافة العباسية بمصر أصبحت الأقطار الحجازية التي تشمل مكة والمدينة وينبع وما بينها ضمن حدود أراضي الخلافة التي يتولى ادارتها السلاطين المماليك ، وقد عاشت تلك المناطق فترات عميقة بسبب كثرة النزاعات بين الأشراف في مكة والمدينة وينبع ، ورغبة كل طرف منهم زيادة سلطانه وبسط نفوذه الى مناطق جديدة على حساب سلطان غيره من الأشراف ، يضاف الى ذلك تباين حال أولئك الأمراء فمنهم من أحسن في ولايته ، ومنهم من اشتغل عنها باللهو وكثرة المظالم . (١)

وقد ساعدت تلك الخلافات بين الأشراف على اضطراب الأحوال الداخلية لتلك المناطق ، وانعدام الأمن خاصة الطرق التي يسلكها الحجاج في طريقهم الى بيت الله الحرام ، واستلزم تردى الأوضاع الأمنية والادارية في مناطق مكة والمدينة وينبع وجده الى تدخل السلاطين المماليك فعليا في محاولة منهم للقضاء على تلك الفتن والنزاعات المتكررة بين الأشراف بالحجاز ، فينعم السلطان المملوكي على أحد الأشراف عند استقرار الأمور بنيابة الحجاز ، وقد تولى تلك النيابة حسن بن عجلان في سنة ٨١١هـ حيث ولاه السلطان الناصر فرج سلطنة الحجاز فمثل حكمه مكة والمدينة وينبع . (٢)

ومن مظاهر التدخل المملوكي في ادارة مكة والمدينة ارسالهم لجيش السلطنة الى تلك المناطق بين الحين والآخر اما لتولية أمير من الأشراف أو لعزل آخر منهم وحملة في القيود الى عاصمة الخلافة العباسية بالديار المصرية القاهرة ، وذلك حرصا منهم على استقرار الوضع الأمني بالأماكن المقدسة ، واهتماما منهم بالقضاء على أسباب تلك الاضطرابات الأمنية مهما تكبدوا من المتاعب لتحقيق تلك الغاية ، وقد تكررت تلك الحوادث خاصة في ظل التنافس بين أفراد البيت الواحد من أشراف مكة ، فمن ذلك :

(١) ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ٩٩ ، ١٦٣ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧٤/١٢ ، ١٣٥/١٥ .

أرسل السلطان الأشرف برسباي في سنة ٨٢٧هـ أحد قاداته ويدعى الأمير قرقماش الشعباني الى مكة للقبض على أميرها الشريف حسن بن عجلان ، وفي المقابل أرسل السلطان مع جيش السلطنة خلعة الامارة الى الشريف علي بن عثمان بن مغامس ، وقرره في أمرية مكة عوضا عن حسن بن عجلان . (١)

وفي سنة ٨٢٨هـ أحضر أمير مكة الشريف رميثة بن محمد بن عجلان الى الديار المصرية بمحبة الحاج عند عودته من مكة ، وقبض عليه بأمر من السلطان المملوكي برسباي، وأرسل الى السجن بالاسكندرية ، وبقي فيه حتى أفرج عنه بعد ذلك في سنة ٨٢٩هـ . (٢)

وفي سنة ٨٢٩هـ استحدث السلاطين المماليك نظام المشاركة في الحكم بمعنى أنه يشترك في حكم مكة أو المدينة أكثر من شخص من الأشراف ، أو أن تكون المشاركة بين أحد الأشراف وأحد الأمراء المماليك الذين يكلفهم السلطان المملوكي بالقيام بتلك المهمة ، ومن الأمثلة على ذلك :

تولي الأمير قرقماش الشعباني أمرية مكة بالمشاركة مع الشريف حسن بن عجلان . (٣)

وعندما رفض الشريف بركات تنفيذ أمر السلطان جقمق الظاهري بالحضور الى القاهرة في سنة ٨٤٥هـ حنق عليه وعزله وقرر مكانه أخاه عليا، وعين معه الأمير يشبك ومعه نحو خمسين مملوكا يسافرون صحبة أمير مكة الجد يد الشريف علي وقيموا بجواره (٤) ، وذلك في محاولة من السلطان جقمق تثبيت سلطة الشريف علي سياسيا ومعنويا وعسكريا من خلال

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٩٣/١٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٩٠/٢ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٩٥/٢ ، ١٠٢ .

(٣) المصدر السابق : ١٠٢/٢ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥ / ٣٤٩ ، ابن اياس : بدائع

الزهور ٢٣١/٢ .

ارساله لجنود السلطنة الى مكة لمواجهة ردة الفعل المحتملة من الشريف بركات بعد
عزله من منصبه .

ومن مظاهر تدخل السلاطين المماليك في الشؤون الداخلية لامارة مكة و مساعدتهم
على زيادة حدة الخلافات بين الأشراف الطامعين في الولاية وقوفهم مع أحد الأطراف
المتنافسة على الامارة ضد طرف آخر ، و تقديم الدعم المعنوي والمادي لطرف ضد آخر
مقابل مبالغ مالية تدفع للسلطان المملوكي ، ومن الأمثلة على ذلك :

في سنة ٨٢٨ هـ وصل الشريف بركات بن حسن بن عجلان الى الديار المصرية ،
فأكرمه السلطان الأشرف برسباي وأخلع عليه وقرره في أميرة مكة المشرفة عوفاً عن أبيه
حسن ، وقرّر عليه من المال في كل سنة خمسة وعشرون ألف دينار . . . (١)

وعندما ورد الخبر الى الديار المصرية بوفاة الشريف بركات بن حسن بن عجلان
في سنة ٨٥٩ هـ ، أقرّ الأشرف اينال ولده محمد في امارة مكة عوفاً عن والده بسفارة من الأمير
جاني الظاهري ، وتمّ أمر الشريف محمد في امارة مكة بعد أن تعهد بحمل خمسين الف دينار
للسلطان الأشرف اينال ، منها عاجلا عشرين الف ، وما بقي آجلا على دفعات متفرقة ،
هذا غير ما يدفعه الشريف محمد بن بركات لأرباب الدولة بالديار المصرية ، ولولم
السلطان وزوجته ، فان زوجة السلطان وولده صار لهما نصيب وافر مع السلطان في كل
هدية ورشوة . . . (٢)

وبلغ الأمر في ظل تلك النزاعات والخلافات بين أشراف مكة وبموجب نظام
المشاركة في حكم مكة المشرفة أن تولى الامارة فيها أربعة أشخاص في وقت واحد . . . (٣)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٠٥/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١٠٧/٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٩٣/١٦ .

(٣) العمامي : سمط النجوم العوالي ٢٥٠/٤ .

ومن مظاهر تدخل السلاطين المماليك في مكة المشرفة حرصهم على الاستفادة من الواردات المالية لميناء جدة التي تخضع اداريا لحكم أمير مكة ، فكان السلطان المملوكي يرسل التجريدة العسكرية لضبط الأمور بمكة ، ويرسل معهم أحد أعوانه ليأخذ الضرائب المقررة على المراكب التجارية الواردة من الهند الى ميناء جدة (١) ، وكانت أولى تلك المحاولات في سنة ٨٢٨ هـ .

فقد كان أشرف مكة يحرصون على بسط نفوذهم وسيطرتهم على التجارة الدولية التي كانت تمر بمدن الحجاز الساحلية ، للاستفادة من أموال العشور التي كانت تجبي من التجار الواصلين بتجاريتهم الى ميناء جدة ، فاهتم أمراء مكة بجده لقربها من مكة ، ولمركزها التجاري المرموق في التجارة الدولية ، فضلا عن أهميتها لأنها تمثل بوابة دخول الوافدين من مصر وافريقيا الى مكة المكرمة . (٢)

ثم أتبع السلاطين ذلك التدخل بفصل جدة عن إمارة مكة ، لأهميتها التجارية المتزايدة في تلك الفترة ، وأصبح لها نيابة مستقلة يعين فيها السلطان المملوكي أحد أعوانه ، ويأمر غيره بالنظر في واردات ميناء جدة المالية التي أخذت تتزايد للنشاط التجاري الذي أصبحت بسببه من المراكز التجارية الهامة على شاطئ البحر الأحمر .

وتكررت الأوامر السلطانية سنويا بارسال أحد الأمراء أو أرباب الوظائف بالدولة بالديار المصرية لمباشرة النظر في واردات ميناء جدة المالية (٣) ، وحرما من السلطان المملوكي على اصفاء الشرعية على أخذ تلك الأموال من التجار المارين بذلك الميناء كتب السلطان الأشرف برسباي سؤالا الى أهل العلم يقول فيه :

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٧١/١٤ .

(٢) ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة ١٧٤ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ١٣٧/٢ ، ١٤٥ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ .

" ٠٠٠ ان التجار كانوا يردون الى بندر عدن من بلاد اليمن فيُظلمون بأخذ أكثر أموالهم ، وأنهم رغبوا في القدوم الى بندر جدة ليحتتموا بالسلطان ، وسألوا أن يدفعوا عشر أموالهم ، فهل يجوز أخذ ذلك منهم ؟ فان السلطان يحتاج الى صرف مال كثير في عسكر يبعثه الى مكة في كل سنة .

فأصدر القضاة الأربعة فتواهم بجواز أخذه وصرفه في المصالح " . (١)

وبموجب هذه الفتوى التي حمل عليها السلطان المملوكي ضمن الاستفادة ممن الموارد المالية من خلال الحركة التجارية في ميناء جدة ، ولكنه عانى ممن كان يرسلهم لمباشرة جمع تلك المبالغ المالية من التجار بسبب حرصهم على الحصول على نسبة من تلك العائدات على حساب المصلحة العامة للدولة الإسلامية التي لأجلها أصدر القضاة الأربعة تلك الفتوى ، ومن الأمثلة على ذلك : في فترة سلطنة الظاهر جقمق العلائي أرسل الأمير تمرارز ليلي نيابة عنه ويتحدث في أمر الضرائب التي تؤخذ من التجار ، ثم بعد فترة جاءت الأخبار بأن الأمير تمرارز احتوى على نحو ثلاثين ألف دينار ونزل في مركب بحري وهرب باتجاه اليمن ، فلما بلغ السلطان ذلك الخبر انزعج وعين نائبا جديدا لمد ينة جدة ومينائها . (٢)

وهذه الحادثة تؤكد أهمية ميناء جدة في تلك الفترة حيث أن واردة المالية المتزايدة أغرت السلاطين المماليك بالتسمسك بالاشراف المباشر على ذلك الميناء ، كما أن تلك الواردات أطمعت من تولى مباشرة جمعها ممن كان محل ثقة السلاطين .

وقد نتج عن ذلك التدخل المملوكي في امارة مكة تزايد نفوذ السلطنة المملوكية خاصة مع بداية القرن الثامن الهجري ، فقد أخذ مخالفا شريف مكة يلجأون الى السلطان

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥/٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٢٨٥ .

المملوكي بالقاهرة عند اشتداد النزاع فيما بينهم فيولّي على مكة من يشاء منهم ويعزل من يشاء ، مما ترتب عليه فقدان الاشراف لسلطتهم على مكة ، واختلفت سياسة السلاطين المماليك تجاه أمراء مكة ، فتارة يؤيدوا أحد المتنازعين ضد خصمه ، وتارة أخرى يسعون للصلح فيما بينهم^(١) ، وإذا عجزوا عن الصلح فانهم لا يترددون في القبض على الطرفين المتنازعين وارسالهم الى سجون الديار المصرية ، وتولية أمير جديد على مكة قطعاً لأسباب الفتنة وحرصاً على استقرار الأوضاع الداخلية لامارة مكة المشرفة .^(٢)

يضاف الى ذلك الاستفادة المالية لخزائن السلطان المملوكي بعد تدخله فسي الامارة مكة ، فقد لزم السلاطين المماليك اشراف مكة بدفع مبالغ مالية في مقابل ولاية الامارة أو بقاءهم فيها ، وقد تراوحت تلك المبالغ ما بين عشرة آلاف دينار الى ثلاثين ألف دينار تحمل الى الخزائن السلطانية بالقاهرة سنوياً .^(٣)

أما نظام المشاركة بين الأشراف في حكم مكة المشرفة فقد كان له بعض النتائج

السيئة على الأوضاع الداخلية فيها ، ومن تلك النتائج :

- ١ - الاختلاف على السلطات التي ينبغي على المتشاركين في الامارة القيام بها ، مما أدى الى زيادة الخلافات بين كثير من الآباء والأبناء والأخوة الذين اشتركوا في حكم مكة في وقت واحد ، فحلّت العداوة والبغضاء محلّ علاقات الأخوة والمودة بين أفراد البيت الواحد ، ويؤكد هذا العمامي بقوله عن تلك المشاركة في حكم مكة : كيف ينتظم أمر الأملاك مع الاشتراك ؟؟؟ .

(١) ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ١٩٩ .

(٢) الخزرجي : المسجد المسبوك ٣٢٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٩٠/٢ ، ٩٥ ، ١٢٩ ،

٢٠٥ ، ٢٣٧ ، ٢٦٠ .

(٣) ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ٢٠٠ .

٢ - الاختلاف بين الأفراد المتشاركين في الامارة والحكم على توزيع ايرادات الامارة العالية ، مما أوجد النزاعات الحادة فيما بينهم على اقتسام الأموال التي جُمِعَت من الضرائب المأخوذة على السفن التجارية التي كانت ترسو في ميناء جدة التجارية . (١)

٣ - ترتب على وجود هذا النظام في الحكم عدم الاستقرار ، وكثرة الحروب ، وضياع هيبة الحكم من خلال الاعتداء على الحرمات بازهاق الأرواح ونهب الأموال في غمرة الخلافات بين المتشاركين في الحكم أو الطامعين في الامارة ، وعدم الاهتمام بالاصلاحات في بيت الله الحرام والمشاعر المقدسة بمكة وما حولها التي يقصدها الحجاج في كل عام ، وغدت تلك الأماكن ميادين للقتال والحروب بسين الأطراف المتنازعة .

٤ - زاد نفوذ السلاطين المماليك من خلال نظام المشاركة في الحكم ، فتدخل السلاطين المماليك في الشؤون الداخلية لامارة مكة التي أصبحت ولاية مثل سائر الولايات التابعة للسلاطين المماليك ، وأصبح تعيين الأمراء وعزلهم بيد السلاطين ، وتغيرت الحال ، فبعد أن كان السلطان المملوكي يعهد بالامارة لأحد الأشراف ويشترط عليه : تسبيل بيت الله الحرام للعكاف والباد ، وألا يؤخذ عنه حقيق ولا يمنع زائر في ليل ولا نهار ، وألا يتعرض لحاج أو لتاجر بظلم ، وأن تكون الخطبة والسكة للسلطان ، ولأمير مكة على ذلك مبلغ عشرون ألف درهم

تغير الوضع وأصبح أمراء مكة يقدمون الهدايا العينية والنقدية للسلاطين المماليك مقابل موافقتهم على ولايتهم الكاملة أو المشتركة على مكة المكرمة .

(١) أحمد زيلعي : نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة - مجلة الدارة ، العدد الثالث ، سنة ١٤٠٩ هـ ، ص ٨٠ .

٥ - نتج عن هذا النظام أن وليّ امارة مكة بعض الأشراف الضعاف الذين يفتقرون إلى الكفاءة في الحكم والادارة لا شيء ، سوى أنهم دفعوا أكثر من غيرهم ، أو لأنهم شددوا الرّحال إلى مصر وأقنعوا السلاطين بأنهم الأفضل والأحق من غيرهم بحكم مكة ، ونسبوا لغيرهم تهما واهيئة .

٦ - وقف السلاطين المماليك في بعض الأحيان موقف المتفرج على تلك الأحداث الدامية في مكة المشرفة ، وكانت لتلك المواقف السلبية من السلاطين وعدم تدخلهم لايقاف الصراعات بين الأشراف في مكة من الأسباب التي ساعدت على زيادة حدة الخلافات بين المتنازعين . (١)

ومما تقدم تظهر سياسة بعض السلاطين المماليك في الحفاظ على استقرار الأوضاع الداخلية بمكة ، فكان تدخلهم في شئون امارة مكة وما حولها بغرض احلال الأمن في ربوعها واستتباب النظام نظرا لمكانتها في نفوس المسلمين ، ولتزايد أعداد القادمين اليها من أرجاء المعمورة ، وكانت تلك الجهود المملوكية تحت نظر الخليفة العباسي بالقاهرة الذي فوّض السلطان فيها .

ومع حرص السلاطين المماليك على اصلاح الأوضاع الداخلية لامارة مكة ، فإنهم بذلوا جهودا كبيرة في العناية بالمسجد الحرام بمكة المشرفة ، وغيره من المشاعر المقدسة ، وأولوا تلك الأماكن اهتماما بالغاً وتعاهدوها بالرعاية وتفقد أحوالها ، ومن الأمثلة على ذلك الاهتمام :

(١) أحمد زيلعي : نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة في العصر المملوكي -

مجلة الدارة - العدد الثالث ، ص ٨١ - ٨٢ .

ريتشارد مورتييل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر

المملوكي ١٦٥ .

كسوة الكعبة المشرفة :

اهتم السلاطين المماليك بكسوة الكعبة المشرفة ، وأول من كساها من السلاطين المماليك بالديار المصرية الظاهر بيبرس ، وذلك ابتداء من سنة ٦٦١ هـ ، وكان الحال قبيل ذلك أن ملوك مصر واليمن يتعاقبون على كسوة الكعبة ، حتى تفرّدت مصر بالكسوة (١) ، وعند ارسال صاحب اليمن كسوة للكعبة فانها تكون تحت الكسوة المرسله من الديار المصرية ، وأصبحت الكسوة ترسل مرة في كل عام في وقت موسم الحج ، وتحمل من خزائن السلطان بالديار المصرية في حبة ركب الحاج ، ويتولى أمير الركب تسليمها الى أشرف مكسة لتوضع على الكعبة المشرفة بعد نزع الكسوة العتيقة من فوقها . (٢)

وكان السلطان المملوكي يكمل العجز المالي لحناعة كسوة الكعبة من ماله الخاص (٣) ، وحرما من السلطان المالح اسماعيل بن الناصر محمد على ايجاد مصدر مالي ثابت للانفاق على صناعة كسوة الكعبة : " وقف بعض أملاكه من قرى في ضواحي القاهرة للنفقة على صنع الكسوة " (٤) ، وذلك حتى لا تؤثر الأزمات الاقتصادية التي تمر بالدولة في بعض الأحيان على استمرار ذلك العمل الذي يتشرف السلاطين المماليك في القيام به من منطلق تشرفهم بخدمة الحرمين الشريفين أمام المسلمين .

-
- (١) أحمد عطار : الكعبة والكسوة ١٤٩ .
 (٢) ابن فضل الله : مسالك الأبحار في ممالك الأمصار ١٠٠/١ .
 (٣) أحمد عطار : الكعبة والكسوة ١٥٤ ، يوسف أحمد : المحمل والحج ٢٤٦ .
 (٤) السخاوي : التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ٦١/١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٥٠٥/١ .

الاهتمام ببناء الكعبة المشرفة :

أمر الناصر محمد بأن يعمل للكعبة الشريفة باب جديد من الخشب ، وصفّحه بالفضة عوضاً عن الحديد ، وبعد الانتهاء من عمله حمل الى مكة ، فلما قلع الباب العتيق أنعم بما كان عليه من الفضة على بني شيبه خدام البيت الشريف ، وكان الباب القديم قد وضع في خلافة المقتفي لأمر الله العباسي في سنة ٥٥٢هـ ، وحرصاً من السلطان الناصر محمد على الاهتمام بالمسجد الحرام فقد توجه بنفسه لحضور وضع الباب الجديد بحضرته ، ورافقه اثنان وسبعون من أمرائه وعدد الفين من المماليك السلطانية . (١)

وفي سلطنة الناصر حسن عمّل باب جديد للكعبة المشرفة ، وأرسل كسوة لها في سنة ٧٥٥هـ ، وأرسل السلطان أحد أمرائه الى الحجاز الشريف لاجراء الماء الى عرفة . (٢)

ولمّا أتى الحريق على نواحي المسجد الحرام سنة ٨٠٢هـ عيّن الناصر فرج بن برقوق الأمير بيسق الظاهري ليتوجه الى مكة للاشراف على عمارة المسجد الحرام ، وبعد انتهاء موسم حج سنة ٨٠٣هـ بقي الأمير بيسق بمكة وشرع في تنظيف الحرم من أكوام الحريق وكشف عن أساس المسجد ثم بناه ، وكملت هذه العمارة في أواخر شعبان سنة ٨٠٤هـ . (٣)

وعندما عاد ركب الحاج الى الديار المصرية في سنة ٨٢٢هـ حضر معهم أمير مكة وأحضر معه محضراً من أهل مكة يذكرون فيه أن حائطا من حيطان الكعبة الشريفة قد تشقق وآل الى السقوط ، فلما سمع السلطان ذلك أرسل خلف القضاة الأربعة للتشاور في أمر اصلاح ذلك الحائط . (٤)

-
- (١) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٦٢/١ - ٤٦٣ .
 (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧٥/١١ ، ١٧٠ ، الفاسي : شفاء الغرام ٣٢٣/١ ، ٣٢٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ .
 (٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٨/٢ .
 (٤) المصدر السابق : ٤٣/٢ .

واهتم السلطان الأشرف برسباى بالنواحي التنظيمية داخل المسجد الحرام بمكة والأمنية ، فمن ذلك أنه في سنة ٨٣٠ هـ أرسل أوامره الى متولي نظر المسجد الحرام وفيها : أمر برسباى بعدم تحويل المنبر في يوم الجمعة والعيد من مكانه والمآقه بجوار الكعبة كما كانت العادة عليه ، وأمر بأن يترك المنبر مكانه عند مقاسم ابراهيم عليه السلام ، وأن يخطب عليه الخليل في ذلك الموضع ، وأمر بمنع الباعة من بسط بخائضهم أيام موسم الحج داخل المسجد الحرام ، ومنع الناس من ضرب خيامهم داخل المسجد ، وأن تسد الأبواب التي تؤدي من البيوت المجاورة للحرم الى سطحه ، وأمر باغلاق أبواب الحرم بعد انقضاء موسم الحج ، ويفتح منها أربعة أبواب فقط لا غير ، فامتثل ناظر الحرم لتلك الأوامر ، وكان في ذلك غاية الاصلاح والتعظيم لبيت الله العتيق ، وازالة المساويء الحاصلة بالمسجد الحرام قبل صدور ذلك المنع السلطاني . (١)

ولما أخبر أمير ركب الحاج بعد عودته الى الديار المصرية في سنة ٨٣٨ هـ عن تساقط أجزاء من سقف الكعبة المشرفة ، أمر السلطان الأشرف برسباى الأمير سودون المحمدي بالتوجه الى مكة لعمارة ذلك الخراب فخرج في أثناء ذلك الشهر . (٢)

الاهتمام بوظائف المسجد الحرام بمكة :

ومن مظاهر اهتمام السلاطين المماليك بمكة المشرفة توجيه عنايتهم بالوظائف المتعلقة بشئون المسجد الحرام الدينية ، فخصصوا لخدمته والقيام بوظائفه عددا كبيرا من الموظفين (٣) ، ومن هذه الوظائف التي تكفل السلاطين المماليك بتقديم النفقة اللازمة لمن يقوم بها :

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤ / ٣١٠ - ٣١١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢ / ١١٧ .
 (٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٢ / ١٥٨ - ١٦٠ .
 (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥ / ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٤١ .

(١) الخطيب :

وهو أعلى أصحاب الوظائف الدينية بالمسجد الحرام ، وهو الذى يتولى القاء الخطبة في الجمعة والعيدين ، وخطبة يوم عرفة في موسم الحج ، ويؤم المصلين عند الكسوف أو الخسوف ، ولأهمية هذه الوظيفة فإنه لا بد أن يصدر قرار تعيين متوليها من السلطان المملوكي بالديار المصرية ، ولا يستطيع الخطيب المعين لتلك الوظيفة ممارسة عمله إلا بعد قراءة قرار تعيينه بالمسجد الحرام أمام جماعة من أعيان مكة وعلمائها ، ويصل مع قرار التعيين خلعة من السلطان المملوكي للخطيب ، ويبدأ الخطيب في ممارسة وظيفته بالمسجد الحرام من أول جمعة بعد قراءة قرار تعيينه خطيباً بالمسجد الحرام ، ويقوم الخطيب بالدعاء للخليفة العباسي بالديار المصرية ثم للسلطان المملوكي ، تم لشريف مكة ، وفي أحيان أخرى يضيف الى ذلك الدعاء لغيرهم من أمراء البلاد الإسلامية .

(٢) سادن الكعبة :

وهو الذى يتولى خدمة الكعبة المشرفة وفتح بابها واغلاقه ، ويتولى سادنة الكعبة بنوشيبة ، وقد وضعت هذه الأسرة نظاماً خاصاً بها لسدانة الكعبة المشرفة ، وهو أن كبيرهم يتولى تلك الوظيفة ، ولا توارث بينهم ، فلا يخلف الابن أباه في تلك الوظيفة ، وإنما يتولاها أكبرهم سنّاً .

وبالرغم من هذا النظام المتبع عند بني شيبه إلا أن تعيين السادن في تلك الوظيفة لا بد أن يصدر به قرار من السلطان المملوكي ، وذلك لقرار من اتفقت عليه بنوشيبة لتولية سادنة الكعبة ، وكذلك عزل السادن فإنه لا يتم إلا بقرار من السلطان ، ولا يكون ذلك إلا بعد ارتكاب السادن المعزول أمورا تسيء لوظيفته ، أو أمورا خاصة تعود للعلاقة بين السلطان المملوكي وذلك السادن . (١)

(١) محمد الطاسان : الوظائف الدينية والادارية بالمسجد الحرام — مجلة العمور —

(٣) المؤذنون :

وللمسجد الحرام بمكة جماعة من المؤذنين على عدد منائره ، فلكل منارة منها مؤذن يؤذن عليها ، وكان لهؤلاء المؤذنين رئيس يتولى الاشراف عليهم ومتابعه أدائهم لتلك المهمة الموكلة اليهم .

(٤) شيخ الحرم :

ومهمة صاحب هذه الوظيفة الاشراف الكامل على ما يحدث داخل المسجد الحرام من بناء أو ترميم أو إصلاحات ، بالإضافة الى الاشراف على جميع العاملين بالمسجد الحرام ، ويمد رقرار تعيين صاحب هذه الوظيفة من السلطان المملوكي ، وكان يختار لها أحد كبار علماء مكة ، إلا أنه في العصور المتأخرة من حكم المماليك تولّاها أشخاص ليسوا من ذوى الكفاءة العلمية وليسوا من أهل مكة ، وكانوا في الغالب من الأمراء المماليك الذين يرسلهم السلطان من الديار المصرية الى مكة لولاية هذه الوظيفة .

(٥) الفَرَّاش :

للمسجد الحرام عدد من الفَرَّاشين يقومون بالخدمة داخله ، ومن واجباتهم تنظيف المسجد الحرام ، والمحافظة على ما في مستودعات الحرم من زيت وشمع ، والمحافظة على جرار الشرب بالمسجد الحرام وميانتها والاهتمام بنظافتها ، ويرأس الفَرَّاشين بالمسجد الحرام رئيس يسمى بشيخ الفَرَّاشين أهم واجباته تنظيم العمل بينهم وتوزيعه عليهم ومراقبتهم في أداء ذلك العمل .

(٦) البَوَاب :

جعل لكل باب من أبواب المسجد الحرام بواباً خاصاً به ، فكان عدد البوابين تسعة عشر بواباً ، وتتلقى مهمة البواب في ملازمة باب المسجد المكلف به ليلاً ونهاراً ،

وألا يغيب عنه الآ للضرورة ، يتعهد ذلك الباب بالتنظيف ، والكنس ، والرش ، ويمنع الناس من الدخول للمسجد الحرام واتخاذ طريقا ، و حماية المسجد الحرام من دخول الحيوانات.

(٧) ناظر العمارة :

وهي وظيفة مؤقتة حيث كان السلطان يرسل أحد أمرائه للقيام بعمارة معينة بالمسجد الحرام ، وتنتهي مهمة ذلك الناظر بانتهاء المهمة التي كُلف بها ، وقدِمَ السى مكة من أجلها . (١)

(٨) الحُسبة :

كان السلطان المملوكي يرسل من يتولى نظر الحُسبة بمكة المشرفة ، (٢) وتتلخص مهمة متولي الحسبة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراقبة أحوال الناس بمكة ويعرف بـ (ناظر الحسبة) .
(٩) قيادة الجند :

وهي من الوظائف الأمنية التي اهتم بها السلطان المملوكي حرصا منه على استقرار الأمن بالأماكن المقدسة ، فكان يرسل أحد أمرائه ومعه مجموعة من العساكر السلطانية للمرابطة في مكة المشرفة حتى يرسل السلطان مجموعة أخرى تحل محلها . (٣)

(١) محمد الطاسان : الوظائف الدينية والادارية بالمسجد الحرام - مجلة

العصور - المجلد الخامس - سنة ١٩٩٠م ، ص ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٤/٤٥٥ .

(٣) المصدر السابق : ٣/٢٣٠ ، ٢٤٣ ، ٢٧٢ ، ١٠١/٤ .

٢ - العناية بالمدينة النبوية والمسجد الشريف :

أما المدينة النبوية فإنه لم يكن اهتمام السلاطين المماليك بها أقل من اهتمامهم بمكة المشرفة ، فوجهوا عنايتهم بالمسجد النبوي الشريف منذ بداية نفوذهم واعمالهم قيام دولتهم بالديار المصرية .

وكانت أولى تلك الجهود قيام السلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٥٩ هـ بتجديد يسد عمارة المسجد النبوي الشريف ، حيث جهّز الأموال اللازمة وأرسلها في صحبة علم الدين الغوري ليقوم بما يلزم من عمارة المسجد النبوي . (١)

وأرسل الملك الظاهر بيبرس منبرا للمسجد النبوي الشريف في سنة ٦٦٦ هـ ، وبقي هذا المنبر يخطب عليه حتى سنة ٧٩٧ هـ (٢) ، ثم أتبع ذلك بعد مدة بتجديد عمارة المسجد النبوي الشريف ، واستمر العمل فيه مدة أربع سنين (٣) . حيث كانت نهائية أعمال البناء في سنة ٦٦٨ هـ .

ومن مظاهر اهتمام السلاطين المماليك بالمسجد النبوي الشريف أوقف السلطان الحالح اسماعيل في سنة ٧٤٣ هـ بعض أملاكه وضياعه للنفقة على ستة عشر خادما كانوا يقومون بخدمة المسجد النبوي فزاد بذلك عدد الخدّام بالمسجد الى أربعين خادما ، وكان يتولى الاشراف عليهم شيخ الخدّام بالمسجد النبوي ، وعن ذلك يقول ابن تغري بردي : " لله دره فيما فعل ، وعلى هذا تحسد الملوك لا على غيره " . (٤)

-
- (١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ٨٩ ، ابن اياس : بدائع الزاهر ١/٣٤٠ .
- (٢) السمهودي : وفاء الوفاء ٢/٤٠٧ .
- (٣) ابن اياس : بدائع الزهور ١/٣٤٠ ، ٢/٣٣٠ ، الياضي : مرآة الجنان ٤/١٦١ .
- (٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٠/٨٥ ، ١٥/٥١٩ ، ٥٤١ .

وفي سنة ٨٢٠هـ أرسل السلطان المؤيد شيخ المحمودى منبرا للمسجد النبوى صنع بالبلاد الشامية . (١)

وهكذا لم يزل السلاطين المماليك يبذلون اهتمامهم بعمارة المسجد النبوى والعناية به ، ومن أعظمهم همة في هذا الشأن السلطان قايتباى فقد بلغه خبر الحريق الذى أصاب المسجد النبوى فأرسل في سنة ٨٨٦هـ زيادة على مائة عامل من البنائين والنجارين والنشاريين والدهانين والحجارين والنحاتين وغيرهم ، وجهز لهم المؤن من موانىء الدولة في الطور وينبع حتى تنقل الى المدينة الشريفة . (٢)

ثم أردف ذلك بارسال أكثر من ثلاثمائة من الصناع وغيرهم وحمل مائتي جمل ، وصارت المؤن متواصلة قل أن تنقطع برا أو بحرا ، وجهزت آلات العمارة في المراكب السى ميناى ينبع وأحضرت الأخشاب من نواحي المدينة ، ولما انتهت عمارة المسجد النبوى أوقف السلطان عدة أماكن بالديار المصرية لينفق منها على شئون المسجد الشريف بالمدينة . (٣)

وفي سنة ٨٨٨هـ عرض السلطان قايتباى المقصورة الجديدة التي صنعها للحجرة الشريفة بالمسجد النبوى ، وأمر بحملها الى المدينة ، فحملت على سبعين جملا وأرسلها مع ركب الحاج ، وأرسل السلطان مصحفا كبيرا حمل على جمل بمفرده ليوضع بالمسجد النبوى . ولما بلغ السلطان قايتباى المحمودى خبر سقوط صاعقة عظيمة على المسجد النبوى الشريف في سنة ٨٩٨هـ واحتراق جانب منه أمر باصلاح ما فسد من أمر المسجد الشريف . (٤)

(١) السهوى : وفاء الوفاء ٤٠٨/٢ .

(٢) المصدر السابق : ٦٣٩/٢ .

(٣) ابن الديبع : قرّة العيون ١٧٣/٢ ، السهوى : وفاء الوفاء ٦٤٠/٢ ، ٦٤٤ - ٦٤٥ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٠٤/٣ ، ٢٩٥ .

العناية بأهل الحرمين :

ومن مظاهر اهتمام السلاطين العماليك بالحرمين الشريفين العناية بأهلهم مسا والاحسان اليهم ، وتعهد هم بارسال الأتوات اليهم خاصة في أوقات القحط وقلة المـؤن ، وارسال المبالغ النقدية لتوزيعها على المحتاجين من المساكين والفقراء والمجاورين بالحرمين الشريفين ، واقامة بعض المرافق التي يستفيد منها أهل الحرمين ، فمن تلك الأعمال العظيمة: في فترة حكم السلطان الناصر محمد توجه الأمير سلاّر للحج ، فلداً وصل الى بلاد الحرمين فرّق في أهلها أموالا كثيرة ، وأغللا ، وثيابا ، تخرج عن حد الوصف ، حتى أنه لم يدع فقيرا بالحرمين .

ولقي أهل الحرمين مثل ذلك عندما أرسل السلطان الناصر محمد عن طريق البحر عشرين ألف اردب قمح لتفريقها على أهل مكة والمدينة . (١)

وعندما حج الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧١٨ هـ أقام في مكة أياما وفرّق على الفقراء نحو عشرين ألف دينار ، وأبطل أشياء كثيرة من المظالم والمكوس التي كانت تؤخذ منهم ، و دفع عوفاً عنها مبالغ مالية لأمير مكة ، ثم توجه الى المدينة الشريفة وفرّق على فقرائها كما فعل بمكة . (٢)

ومثله ابنه العالـح اسماعيل بن الناصر محمد ، فقد كان له مآثر كثيرة بمكة وأنشا بمكة رباطا (٣) في سنة ٧٤٦ هـ ، ولم يزل مثابرا على فعل الخير حتى توفي . (٤)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٩/٩ ، ١٠٥ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٥٠/١ .

(٣) الرباط : اسم لما يبني لسكنى الفقراء . (الفيومي : المصباح المنير ٢٣١) .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٩٦/١٠ ، الفاسي : شفاء الغرام ٣٣٤/١ .

ونقل عن السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد كثرة احسانه وبسره
بأهل مكة والمدينة . (١)

وفي سنة ٧٦٤هـ وفي محاولة من السلطان الأشرف شعبان بن حسين للتخفيف عن
أهالي الحرمين الشريفين ورفع بعض الضرائب التي أثقلتهم ، تحمل السلطان مبلغ مائتين
وستين ألف دينار تدفع من بيت المال لأميرى مكة والمدينة ليتوقفا عن أخذ تلك
الضرائب . (٢)

ولما حج السلطان قايتباي في سنة ٨٨٥هـ ورأى أهل المدينة في فاقة زائدة لعدم
الأقوات أعلن عزمه على فعل ما ينفع أهل المدينة لمواجهة تلك الفاقة ، وأخرج من ماله
الخاص المبالغ اللازمة لشراء ما يوقفه على الفقراء بالمدينة ليؤمن بذلك صنع الطعام في
كل يوم بالمدينة ليوزع على الفقراء ، وزاد على ذلك بأن فرّق نحو ستة آلاف دينار على أهل
المدينة ، ولما وصل الى مكة تصدق فيها بأكثر مما تصدق بالمدينة الشريفة . (٣)

وفي سنة ٨٨٩هـ أرسل السلطان قايتباي اثنين من أمرائه الى المدينة الشريفة
ليقوموا بتوزيع المؤن والأغذية التي رتبها السلطان لأهل المدينة . (٤)

وأوقف السلطان قايتباي في سنة ٩٠١هـ مجموعة من الدور والحوانيت بالقاهرة
لينفق من ريعها ما يشتري به المؤن والأقوات التي قرر توزيعها على أهل المدينة الشريفة
في كل سنة . (٥)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧٥/١١ ، الغساني : الذهب المسبوك ١٠٢ ، ١٠٥ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢٤/١١ ، ١١٣/١٢ ، ١١٥ .
(٣) ابن طولون : مفاكهة الخلان ٥/١ - ٦ ، السهوى : وفاء الوفاء ٧١٣/٢ .
(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٢١١/٣ .
(٥) المصدر السابق : ٣٢٩/٣ .

وكان لوصول هذه الأقوات والغلال أكبر الأثر في رفع الشدة عن أهالي الحرمين والتخفيف من المعاناة التي كانوا يلاقونها في أوقات القحط وقلة الأرزاق ، ويؤكد ذلك شعور السلاطين المماليك بعظم مكانة الحرمين ، وحرصهم على القيام بالواجب نحوهما ونحو أهلها .

ب - الاهتمام بالحج والحجاج :

واهتم السلاطين المماليك بالحج والحجاج من خلال حرصهم على تأمين الطرق التي يسلكها الحاج أمنيا ، وقمع وتأديب بعض القبائل العربية القاطنة على طريق الحج الى مكة عند تعرضها للحجاج بأذى ، وكان السلطان المملوكي يرسل الحملات العسكرية الى تلك القبائل التي تعتدى على الحجاج عند توجههم الى مكة أو عودتهم منها ، وذلك حرصاً منه على تسهيل أداء هذه الفريضة لرعيته أو لمن جاء من خارج مملكته من البلاد الاسلامية الأخرى المجاورة ، وليتفرغ أولئك الحجاج لما قدموا من أجله ، ولينفذهم من ابتزاز تلك القبائل التي كانت تمنعهم من الوصول الى مكة لا كمال نسكهم إلا بعد دفع مبالغ مالية يقررونها على ذلك الركب . (١)

وعند خروج ركب الحاج المصري الى مكة لأداء فريضة الحج يحدد السلطان المملوكي أمره بتأمين الحماية اللازمة لذلك الركب من العساكر السلطانية التي يكون واجبها حماية ذلك الركب منذ خروجه من الديار المصرية حتى عودته .

ولم يكن الأمر مقتضوا على الاهتمام بالنواحي الأمنية فقط ، بل اهتم السلاطين بتزويد القافلة بكل احتياجات المعيشة من مأكّل ومشرب ، فضلا عن توفير أصحاب الحسرف المختلفة التي يحتاج اليها ركب الحجاج في الحل والترحال ، ويرافق الركب جماعة من الأطباء

(١) ابن حجر : انباء الخمر بأبناء العمر ١٠/٥ ، ابن طولون : مفاكهة الخلان ١٦١/١ .

والمجبرين ، والأدلاء ، والأئمة ، والمؤذنين ، ومغسلي الموتى ، وغيرهم . (١)

واهتم السلاطين المماليك بعمل بعض الاصلاحات بالطرق التي يسلكها الحجاج

واقامة بعض المرافق التي تعينهم أثناء سيرهم الى مكة المشرفة ، ومن ذلك أمر السلطان

برسباى بحفر بئرين في عيون القصب (٢) من طريق مكة ، فكان مأوئهما جيدا عذبا وحصل

للحجاج بذلك العمل غاية النفع . (٣)

وأرسل الأشرف برسباى أهل المعرفة بالبناء لاصلاح الآبار وأماكن المياه

التي في طريق الحجاز ، فخفف بذلك من المعاناة التي كان يجدها من يسلك ذلك الطريق

لقلّة المياه ، حتى أنه كانت أعداد كبيرة من الحجاج تهلك في تلك الأماكن من شدة

العطش . (٤)

وأمر السلطان الأشرف برسباى بحفر بئر في طريق الحاج فعظّم بها النفع ، ثم

أتبع ذلك بإرسال أحد أمرائه لحفر بئرين بموضعين هما زعم ، وقيقاب (٥) ، وذلك لكثرة

عدد من يهلك في هذا الطريق من العطش فحمل النفع بهما للحجاج . (٦)

وأمر السلطان الظاهر جقمق أحد أمرائه بالسفر لاصلاح مناهل الحجاز وتأديب

الأعراب الذين يتعرضون للحجاج . (٧)

(١) محمد التهامي : الاصلاحات المملوكية في الأراضي الحجازية - مجلة الدارة - العدد

الأول ، سنة ١٤٠٥ هـ ، ص ٨٦ . محمد مرزوق : الناصر محمد بن قلاوون ١٥٣ - ١٥٤ ،

محمود عطا الله : نيابة غزة في العهد المملوكي ٨٧ - ٨٨ .

(٢) الحموي : معجم البلدان ١٨٠/٤ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ١٤٠/٢ ، ابن فهد : اتحاف الوري ٥٦٠/٣ .

(٤) ابن حجر : انباء الغمر بأنباء العمر ٢٢٧/٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١٣٧ / ٢

٥٢/٣ ، ١٤٤ .

(٥) الحموي : معجم البلدان ٤٢٣/٤ باسم قيقان .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٥٥/١٤ .

(٧) ابن حجر : انباء الغمر بأنباء العمر ١٠٦/٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٧٩/١٥

وأمر السلطان قايتباي بإجراء ماء احدى العيون الى عرفات ، فحمل بذلك العمل بعد الانتهاء منه غاية النفع لأهل مكة وحجاج بيت الله الحرام . (١)

واستمر ذلك الاهتمام بطريق الحج الى مكة المشرفة حتى آخر سلطنة المماليك ، وكان لتلك الأعمال الأثر الطيب على حجاج بيت الله الحرام ، فانه عندما رجع الحاج الى الديار المصرية أخبروا بما فعله السلطان قانموه الغورى من وجوه الخير خدمة للحجاج ، حيث أنشأ بالعقبة خانا فيه عدة حوامل لمن يمر به ، وأقام أبراجا لحماية الحجاج وجعل بها جماعة من العساكر السلطانية يقيمون بها سنة ثم يعودون الى مصر ، ويتوجه جماعة غيرهم للإقامة بتلك الأبراج .

وأضاف السلطان الغورى الى ذلك اصلاح طريق العقبة وسهل الأماكن المعبدة منه تسهيلا على المسافرين ، وأقام عدة أبراج للحماية من مناطق مختلفة من الطريق ، وأصلح عدة مناهل بطريق مكة ، وبني هناك أشياء كثيرة حصل بها غاية النفع . (٢)

وأتبع الغورى ذلك بأن أرسل الأمير خاير بك الى مكة وفي صحبته جماعة من البنائين ، والتجارين ، والمهندسين لبناء رباط ومارستان في مكة ، وأمره بأن يبني الحرم ويجرى عين ماء الى مكة . (٣)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٥٧/٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٥١/٤ - ١٥٢ .

(٣) المصدر السابق : ١٦٣/٤ ، ٣٤٦ ، ٩٥/٥ .

وانظر : مرآة الجنان ١٦١/٤ ، وفاء الوفاء ٧١٦/٢ ، ومرآة الحرمين ٢٣٥/١ ، ٢٥٣ ، ٤٥٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٧١ . أحمد السباعي : تاريخ مكة ٢٣٣/٢ ، ٢٩٤ .
حسين با سلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ .
يوسف أحمد : المحمل والحج ١٥١ - ١٥٢ ، ٢٤٣ ، سنينة قراة : مساجد ودول
أشار الكتاب الى المساجد في عصر السلاطين المماليك .

اهتم السلاطين المماليك ببناء المساجد والعناية بها والانفاق عليها ، وقد تغيرت حال تلك المساجد في عصر المماليك لاهتمامهم البالغ بفخامة البناء وجمال المظهر ، واهتموا بتزيينها بأنواع الزينة ، وأحدثوا بناء القباب العالية ، وتغالوا في نقوشها وزينتها . (١)

ونظرا لتوفر الامكانيات المادية فقد تزايدت أعداد تلك المساجد في ظل تنافس السلاطين والأمراء المماليك والأعيان والتجار على بنائها ، وقد ساعد ذلك على اتساع مساحة القاهرة في زمن السلاطين المماليك ، حيث انهم لم يتركوا قطعة أرض فضاء داخلها إلا وأقاموا عليها اما جامعا أو مدرسة .

وبلغ الأمر أنه بني في عهد الظاهر بيبرس وحده ما لم يبني في أيام من سبقه في حكم الديار المصرية من الأبنية والمساجد والدور ، وفيما يلي بيان بأهم جهود السلاطين في عمارة بيوت الله والعناية بها : (٢)

ففي سنة ٦٦٨ هـ انتهى العمل من جامع السلطان الظاهر بيبرس ، وقد أصرف عليه ما لا يحصى من المال الذي غنمه من قتاله للفرنج ، وجدّد عمارة مسجد قبة الصخرة ، وبيت المقدس ، والجامع الأزهر الذي أقام خرابا منذ أيام الحاكم بأمر الله العبيدي . (٣)

وفي سنة ٧٢٢ هـ كان الانتهاء من عمارة جامع الأمير قوصون الناصري بظاهر القاهرة . (٤)

-
- (١) علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٤٢ ، م . س . ديماندي : الفنون الاسلامية ١٥٠ .
 (٢) محمود علي : القاهرة مدينة الألف مؤذنة - مجلة الفيصل - العدد ١٣ ، سنة ١٣٩٨ هـ ، ص ٤٥ ، والعدد ١٩١ سنة ١٤١٣ ص ٦٧ ، محمد عابدين : جامع الملك الظاهر بيبرس - مجلة الأزهر ، العدد الأول ، سنة ١٣٧١ هـ ، ص ٦٥١ .
 محمد توفيق : المسجد والحياة في المدينة الاسلامية - مجلة عالم الفكر - العدد الأول ، المجلد ١١ ، سنة ١٩٨٠ م ، ص ١٧٥ .
 (٣) المقرئزي : الخطط المقرئزية ٤١٦/٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٩٢/٧ .
 (٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٠٢/٢ ، ٣٤/٣ .

وأكملت عمارة جامع المؤيد شيخ المحمودى في سنة ٨٢٠ هـ وأوقف عليه السلطان الأوقاف الجليلة ، وأخلع في ذلك اليوم على ما يقارب خمسمائة في مقدمتهم ناظر العمارة وجماعة من المهندسين وأرباب الصنائع ، وقد جاء ذلك الجامع في غاية الحسن ، وقال المؤيد شيخ في مجالسه أنه أنفق على بناء ذلك الجامع وما اشتراه من أوقاف نحو أربعمائة ألف دينار . (١)

وفي سنة ٨٤١ هـ انتهت عمارة الجامع الذى أنشأه السلطان الأشرف برسباى ، ورتب فيه السلطان اماما للصلوات الخمس ، وخطيبا ، وقرأء ، وأرباب الوظائف من المؤذنين وغيرهم . (٢)

وأمر السلطان الظاهر جقمق في سنة ٨٤٤ هـ بتجديد عمارة عدة جوامع بالقاهرة وظواهرها ، وجدد البعض الآخر منها على نفقة المحسنين وأعيان الديار المصرية . (٣)

وفي سنة ٨٧٤ هـ ابتدأ السلطان الأشرف قايتباى ببناء جامع ، وأمر في سلطنته باصلاح ما تهدم من جامع عمرو بن العاص وصرف لأجل ذلك خمسة آلاف دينار . (٤)

وفي سنة ٨٧٦ هـ توجه السلطان قايتباى للكشف على جامع عمرو بن العاص وأمر ببناء ما تهدم من سقوفه وحيطانه ، ثم توجه الى الجامع الأزهر وطلع على سطحه وأمر بترميم ما فسد من عمارته وصرف على ذلك نحو من عشرة آلاف دينار . (٥)

وفي سنة ٩٠٠ هـ انتهى العمل من تجديد عمارة الجامع الأزهر . وأنشأ الأشرف قايتباى عدة مساجد وجوامع بنواحي القاهرة . (٦)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٥/٢ - ٣٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨٥/١٥ - ٨٦ .

(٣) المصدر السابق ٣٤٨/١٥ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٩٩/٣ .

(٥) المصدر السابق : ١٢٤/٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٦) المصدر السابق ٣٢٩/٣ .

د - الاهتمام ببناء المدارس ودور العلم :

امتاز عصر السلاطين المماليك بالديار المصرية ، والبلاد الشامية ببناء المدارس ، وتوسع السلاطين المماليك في بناء المدارس ، فأنشئت العديد من المدارس التي درّس فيها كبار العلماء الذين زخر بهم ذلك العصر الذين نبغوا في مختلف العلوم الإسلامية . (١)

ويأتي في مقدمة تلك الحروح العلمية الجامع الأزهر الذي أنشأه الفاطميون لنشر مذهبهم من جهة ، وليقيموا به صلاة الجمعة فلا يفاجئوا أهل مصر في بداية فتحهم بخطبتهم التي كانوا يرددون فيها عبارة ٠٠٠٠ وصلى الله على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله ٠٠٠٠ وقد اكتمل بناء هذا الجامع في سنة ٣٦١ هـ ، ودّرس فيه المذهب الشيعي حتى انقراض الدولة الفاطمية . (٢)

وبعد قيام سلطان المماليك بالديار المصرية اهتموا بالأزهر عمارة وصيانة وتعاهد العلماء وطلبة العلم فيه ، وأمروا بأن تدرّس فيه مذاهب أهل السنة الفقهية فابتدى بالمذهب الشافعي ، ثم بقية المذاهب الأخرى تباعا . (٣)

وأول من اهتم بالجامع الأزهر من السلاطين المماليك الظاهر بيبرس ، فقد وجّه عنايته لنشر العلوم الإسلامية ، وأعاد للجامع الأزهر مكانته ، فصار الطلاب يهرعون اليه من أرجاء العالم الإسلامي . (٤)

-
- (١) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ٥٤٩ ، مصطفى رمضان : دور الأزهر في الحياة المصرية ٣٦ - ٣٨ .
- (٢) علي وافي : لمحة من تاريخ الأزهر ٤ ، محمد خفاجي : الأزهر في ألف عام ٣٨ .
- (٣) محمود أبو العينين : الجامع الأزهر ١٣ ، محمد عنان : تاريخ الجامع الأزهر ٢٤ .
- (٤) محمد خفاجي : الأزهر في ألف عام ٦٥ ، الأدب في مصر ٩٠ .
- (٤) محمد سرور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده ١٥٨ ، أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ١٥٠ .

ولم يقف الظاهر بيبرس عند ذلك ، بل شيّد المدارس العديدة وزوّدها بخيرة العلماء والفقهاء في ذلك العصر ، وفي مقدمة تلك المدارس المدرسة التي حملت اسمه وعُرِفَت بالمدرسة الظاهرية التي قعد لها طلبة العلم سبالد يار المصرية ومسّن خارجها (١) ، ويوضح أهمية اقامة تلك المدرسة في بداية عهد السلاطين المماليك ما قاله الشعراء الذين خلّدوا تلك الحادثة بما نظموه من الشعر ومن ذلك :

قول عمر الوراق :

عراق اليها شيق وشام	فشيدها للعلم مدرسة غدا
فليس يضاحي فما النظام نظام	فلا تذكرت يوما نظامية لها
فكل مليك غدا في يديه غلام	ولا تذكرن ملكا وبيبرس ملكا

وقال يوسف بن الخشاب :

فأفخر فان محلك الجوزاء	قصد الملوك حماك والخلفاء
مثل الملوك وجنده أمراء	أنت الذي امراه بين السورى
وتجملت بمد يحه الفصحاء	ملك تزينت الممالك باسمه
حلت بها العلماء والفضلاء	وترفعت لعلاه خير مدارس
باق له ولحاسد يه فناء	يبقى كما يبقى الزمان وملكه
رسل مناها العفو والاعفاء	كم للفرنج وللتتار ببابسه

وقال أبو الحسن الجزار :

ومن يتعاطى في الثواب وفي الثنا	ألا هكذا تبني المدارس من بسنى
بها اليوم في الدارين بلغ المنى	لقد ظهرت الظاهرة لملك همسه
فراقت قلوبا للأنام وأعيننا (٢)	تجمع فيها كل حسن مفسرق

(١) محمد خفاجى : الأدب في مصر ٩١ ، محمود أبو العينين : الجامع الأزهر نبذة

في تاريخه ٢٤ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ١٠٣ - ١٠٤ .

وقد كان لبناء المدارس وكثرتها خلال القرنين السابع والثامن أثر كبير على سير الدراسة في الجامع الأزهر ، فقد نافسته منافسة شريفة ، واجتذبت اليها طلاب العلم من كل صوب ، كما اجتذبت اليها أعلام الأساتذة ، وكانت تمتاز على الأزهر بجدتها ووفرة أوقافها ، يضاف الى ذلك استئثارها برعاية السلاطين والأمراء المماليك ، وكانت وظائف التدريس فيها مغرية تدر على شاغلها الجزاء الحسن ، ولذلك كان أعلام الأساتذة يؤثرون العمل فيها ، وكانت طائفة من علماء ذلك العصر يتنافسون على التدريس في تلك المدارس . (١)

وفيما يلي بيان لاهتمام السلاطين والأمراء المماليك بتلك المدارس التي قال عنها ابن بطوطة : " ... وأما المدارس بمصر فلا يُحيط أحد بحصرها لكثرتها... " (٢) فبالإضافة الى مدرسة الظاهر بيبرس أنشئت بعدها عدة مدارس ، ومنها عدة مدارس أمر المنصور قلاوون ببنائها في مدة حكمه للديار المصرية . (٣) ففي نهاية سنة ٧٠٣ هـ ابتدأ العمل في مدرسة السلطان الناصر محمد بن قلاوون . (٤) وفي سنة ٧٤٣ هـ أمر السلطان الصالح اسماعيل باختيار مدّرسين للمذاهب الأربعة ، ووقف عليهم الأوقاف لتأمين النفقة لهم . (٥)

(١) محمد عنان : تاريخ الجامع الأزهر ١١٥ - ١١٦ ، محمد خفاجي : الأدب في مصر ٩١ .

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار ٥٠/١ ، الظاهري : زبدة كشف الممالك ٣١ .

(٣) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ١٠٦/٩ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٤١٨/١ .

(٥) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ٨٦/١٠ ، ٩٦ .

وفي سنة ٧٥٢هـ بني الأمير شيخون العمري جامعاً وقرر فيه خطيباً ومدرباً للمذهب الحنفي ، وآخر للمذهب المالكي ، وخصّص لهم الرواتب مع غيرهم من أرباب الوظائف . (١)

وفي سنة ٧٥٨هـ شرع السلطان الناصر حسن بعمارة مدرسته التي عُرِّقت باسمه ، وهذه المدرسة لم يعمر مثلها في سائر الأقاليم ، أُرصد لعمارتها مبلغ عشرين ألف درهم في كل يوم في مدة تزيد على ثلاث سنين متوالية ، فاشتملت على جامع ، ومدارس أربعة لكل شيخ مذهب مدرسة تختص به ، بالإضافة إلى مساكن ومكتب لرعاية الأيتام ، فكانت هذه المدرسة عجيبة من عجائب الدنيا ، ولم يبني في ذلك العصر نظيرها . (٢)

وإذ رآها من السلطان الناصر حسن لأهمية علم الفرائض ، فقد أراد أن يبني مدرسة خامسة لتدريس ذلك العلم ، ولكن شئى عزمه عن ذلك قول الشيخ بهاء الدين السبكي للسلطان : الفرائض باب من أبواب الفقه فأعرض عن بنائها ، فحدث بعد ذلك وقسوع مسألة في الفرائض فأشكلت على الشيخ السبكي ، وأرسل يسأل عنها عند غيره من العلماء فردّ عليه الشيخ شمس الدين الكلّاي يقول له : أنت قلت أن الفرائض باب من أبواب الفقه فما لك لا تجيب عن ذلك ؟ ، فندم الشيخ السبكي على ما قاله للسلطان الناصر حسن وثنيه لعزمه ببناء مدرسة لعلم الفرائض . (٣)

وأنشأ السلطان الظاهر برقوق في سنة ٨٠١هـ مدرسته التي لم يعمر مثلها ، وجعل بها سبعة دروس لأهل العلم على المذاهب الأربعة ، وفي التفسير ، والقراءات ، والحدِيث ، وأتبع ذلك ببناء دار لتعليم أيتام المسلمين قراءة القرآن الكريم . (٤)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٦٩/١٠ ، المقرئى : الخطط المقرئية ٣١٢/٢ .
 (٢) الظاهري : زبدة كشف الممالك ٣١ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ٣١٦/٢ ، ٢٠٩/٣ ، ٢١٠ .
 ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٠٦/١٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٥٥٨/١ .
 (٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٥٥٩/١ ، ٥٦٠ .
 (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١٣/١٢ ، ١١٥ ، ٦٨/١٣ ، ١٢٠ .

وفي سنة ٨١٠ هـ أنشأ الناصر فرج مدرسته الناصرية التي استمر العمل في بنائها

نحو أربع سنين .

وفي سلطنة الأشرف برسباي أنشئت عدة مدارس حملت اسم السلطان الأشرف

وعرفت بالمدرسة الأشرفية ، وبنيت تلك المدارس بنواحي متفرقة من القاهرة (١) ،

وذلك بدءاً من سنة ٨٢٧ هـ .

وأنشئت في الفترة من ٨٤٤ - ٨٥٦ هـ عدة مدارس بالديار المصرية ، تولّى الانفاق

على عمارتها بعض الأمراء المماليك وكبار أرباب الوظائف في السلطنة المملوكية ، وحملت

تلك المدارس اسم من أنشأها وأنفق على عمارتها . (٢)

وفي سنة ٨٥٩ هـ أمر السلطان الأشرف اينال ببناء مدرسته واستمر العمل فيها

قراية عام ونصف العام ، فجاءت مدرسة حافلة لم يعمر مثلها ، ولما انتهى العمل حضر

افتتاح تلك المدرسة السلطان الأشرف اينال والقضاة الأربعة والأمراء والأعيان . (٣)

وفي سلطنة الأشرف قايتباي التي بدأت سنة ٨٧٢ هـ أنشئت عدة مدارس في نواحي

متفرقة من الأقاليم الواقعة تحت نفوذ السلطنة المملوكية ، فبنى السلطان مدرسة بمكة المشرفة

ومدرسة بالمدينة ، ومدرسة ببيت المقدس ، ومدرسة بغزة ، ومدرسة بدمشق ،

ومدرسة بثغر الاسكندرية ، ومدرسة بدمياط . (٤)

(١) ابن تغرى بردى : ٢٦٤/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١٤٢/٢ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٢٨/٢ ، ٢٦٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٩٧/١٦ ، ابن اياس : بدائع

الزهور ٣٢٣/٢ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٢٩/٣ .

وعلى هذا النهج سار أغلب السلاطين المماليك في الاهتمام ببناء المسد ارس
وتعاهد ها بالرعاية من خلال اختيار أفضل علماء العصر ليتولوا التدريس فيها والاشراف على
ادارة تلك الصروح العلمية ، ومن خلال التزامهم بالنفقة المالية لأرباب الوظائف فيها
و طلبه العلم بها .

ولم تكن تلك المدارس محصورة في بقعة معينة من أراضي السلطنة المملوكية ،
بل نراها انتشرت لتشمل أقاليم الخلافة العباسية التي يسيّر أمورها السلاطين المماليك ،
فأقيمت المدارس ودور العلم في الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية ،
مما ساعد على نشر العلم بين أفراد الأمة ، وازداد نشاط الحركة العلمية في ذلك
العصر ، وتكاملت في تلك الفترة الوسائل المعينة على طلب العلم من خلال وجود
علماء أفذاذ بذلوا أوقاتهم لنشر العلم الشرعي تعليما وتأليفا ، ووجد الطلبة علم
حرصوا على الاستفادة من علماء عصرهم ، ووجدت دور العلم من المساجد والمدارس التي
هيئت لتلك المهمة ، ثم وجد السلاطين والأمراء والأعيان الذين أنفقوا بسخاء لنشر العلم
واعانة العلماء على أداء رسالتهم في نشر العلم وتعليم الأمة .

وحرصا من السلاطين المماليك وغيرهم ممن أنشأ تلك المدارس على استمرارها
في أداء رسالتها في نشر العلم وتعليم الأمة ، اهتموا بنظام الأوقاف فمن خلاله يتم تأمين
الموارد المالية اللازمة للنفقة على تلك المدارس وغيرها من دور العلم .

وقد ساعد هذا النظام على زيادة النهضة العلمية في ذلك العصر ، وفي هذا
المعنى يقول ابن خلدون : " . . . ان أمراء الترك في دولتهم يخشون عادة سلطانهم
على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق والولاء ، ولما يخشى من معاطب الملك
ونكباته ، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ، ووقفوا عليها الأوقاف المغسلة ،
فكثرت الأوقاف لذلك ، وعظمت الغلات والفوائد ، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة
جرايتهم منها ، وارتحل الناس اليها في طلب العلم من العراق والمغرب ، ونفقت بها

أسواق العلوم ، وزخرت بحارها ، والله يخلق ما يشاء " . (١)

وساعد نظام الأوقاف على فتح أبواب العلم للفقراء ، اذ تكفلت تلك الأوقاف

بتدريسهم وتأمين الطعام والشراب والسكن والعلاج لأولئك الطلاب . (٢)

وكانت حجج تلك الأوقاف تهتم بذكر الأعيان الموقوفة مع وصفها وتحديد يد لها فسي

ايجاز ، وتعيين الجهات التي وقفت عليها ، وذكر شروط الواقف ، والمخصصات المالية

للموظائف الواردة في تلك الحجة ، ولتأكيد صحة ذلك الوقف عمد بعض السلاطين

المماليك لنقش حجة وقفه على ألواح من الرخام لصيانتها من التبديل أو التحريف . (٣)

(١) ابن خلدون : المقدمة ٤٢٤ - ٤٣٥ .

(٢) كامل العسلي : معاهد العلم في بيت المقدس ٢٣ .

(٣) أحمد دراج : حجة وقف الأشرف برسباي ١ - ٥٠ .

وللغائـدة :

علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٤٣ ، محمد خفاجي : الأدب في مصر ٩٢ - ٩٣ .

محمد كرد علي : الاسلام والحضارة ٢٩٧/٢ ، سليمان الحنفي : كنز الجواهر فسي

تاريخ الأزهر ٥٣ ، ٥٨ . أمين سامي : مصر من فجر التاريخ ١٦ . كامل العسلي :

معاهد العلم في بيت المقدس ٥٤ - ٢٩٣ . عبد القادر النعيمي : المدارس فسي

تاريخ المدارس ٩١/١ ، ٩٦ ، ٣٦٣ ، ٣/٢ ، ٢٣ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٥٠ .

عبد الفتاح قلنجي : حلب القديمة والحديثة ٩٦ ، حسن عبد الوهاب : مآذن

القاهرة ١٢٠ . خانقاه فرج بن برقوق ٢٨٩/١ ، ١٦٥/٢ ، ١٨٣ ، ٢٦٦ .

عبد الجليل عبد المهدي : المدارس في بيت المقدس ٣١٤ ، ٣٩٩ .

عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ٤١٨ ، ٤٣٤ ، الحلبي : نهر الذهب ٦٤ .

الحميني : منتخبات التواريخ لدمشق ٥١٤/٢ ، ٩٣٧/٣ ، ٩٦١ . عبد القادر بدران :

منادمة الأطلال ٢٤ ، ٧١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ابن شداد : الأعلام الخطيرة ٢٥٥/٢ ،

٢٦٠ ، ابن طولون : القلائد الجوهريّة ١٩٣/١ ، ٢٣٧ ، ٢٣٤/٢ ، نقولا يوسف :

تاريخ دمياط ١٩٠ ، حياة الحجّي : الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده

٥٠ ، ٥٢ ، ٥٧ - ٥٨ ، الأزهر تاريخه وتطوره - وزارة الأوقاف بمصر ١٥٢ ، ١٥٥ -

هـ - الاحسان للرعية :

اهتم أغلب السلاطين المماليك بالاحسان للرعية وتفقد أحوالهم في محاولة منهم للتوسعة عليهم والتخفيف من معاناتهم خاصة عند اشتداد الأزمات الاقتصادية التي كادت تعصف بالدولة في تلك الفترة ، وتكرر الأوبئة والأمراض مع القحط و قلة المؤن والأرزاق ،

ومن الأمثلة على ذلك الاهتمام وتلك العناية بالرعية في عصر السلاطين المماليك اهتمام السلطان الظاهر بيبرس ، وهو أول السلاطين المماليك بالديار المصرية بشئون الرعية فيقوم بتوزيع القمح عندما غلا سعره وقلّ وجوده ، ويقول في ذلك : " لو كان عندي غلة تكفي هذا العالم لفرقتها ... " . (١)

وعندما وقع الفناء والغلاء بالديار المصرية في سلطنة السلطان محمد بن قلاوون ومات في سنة ٧٣٦ هـ من الناس ما لا يحصى عددهم ، أمر السلطان أمراءه بفتح خزائن المؤن الخاصة بهم والبيع للناس بسعر منخفض ، ففرّج عن الناس ما كانوا فيه ، وكان السلطان الناصر محمد يتناوب مع أمراءه في بيع القمح للناس ، ففي شهر باع الأمراء الأردب من القمح بثلاثين درهما ، وفي الشهر الذي بعده باع السلطان الأردب بخمس وعشرين درهما ، وساعد ذلك التصرف على انحطاط الأسعار وسكن ما كان بالناس من اضطراب . (٢)

(١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ١٨٩ ، ابن شائع : حسن المناقب السرية ٣٤ - ٣٥ .

(٢) المقرئزي : اغاثة الأمة ٤٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٧١/١ .

وفي أيام الأشرف شعبان سنة ٧٧٦هـ وقع الغلاء لقلّة مياه النيل ، وارتفع سعر الأردب من القمح الى مائة وخمسين درهما ، وعزّت الأقوات وقلّ وجودها ، فمات الكثير من الجوع حتى امتلأت الطرقات ، وأعقب ذلك وباء مات فيه الكثير من الناس ، وكان السائل يطلب اللبابة ليشمها ويصيح حتى يموت ، فأمر السلطان الأشرف شعبان بجمع الفقراء وفرّقهم على الأمراء ومياسير التجار . (١)

وعندما اشتد الغلاء في سنة ٧٨٤هـ وقلّت الأقوات ، أمر السلطان الظاهر برقوسوق بعدم حبس أحد لدين عليه بسبب الغلاء وأفرج عن المحابيس . (٢)

ولمّا تكرّر القحط مع غلاء الأسعار في سنة ٧٩٥هـ أكثر السلطان برقوسوق الصدقة على الفقراء ، وتوزع المال عليهم ليتمكنوا من شراء ما يحتاجونه من أقوات . (٣)

وفي سنة ٨٠١هـ رسم السلطان الظاهر برقوسوق بتفرقة الأموال على الفقراء للتخفيف من معاناتهم عند غلاء الأسعار وقلّة الأقوات ، واجتمع من الفقراء خلق كثير ازدحموا للحصول على ما يعينهم على شراء الأقوات ، ومات من شدة الزحام أعداد كبيرة من الرجال والنساء ، وأمر الظاهر برقوسوق بأن يفرّق في كل يوم على الفقراء أربعين أردبا من القمح ، وخفّف عن الرعية بابطال الضرائب التي كانت تؤخذ منهم في مختلف أقاليم السلطنة . (٤)

وفي سلطنة السلطان المؤيد شيخ المحمودى أعطى أحد مماليكه مبلغا كبيرا من المال وأمره أن ينزل الى القاهرة ويفرّقه على الجوامع والمدارس ، فتوسع الناس بذلك ،

(١) المقرئى : اغاثة الأمة ٤٠ ، وتفصيل ذلك الوباء : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠/١٩٥ .

(٢) ابن حجر : انباء الغمر بانبياء العمر ٨٤/٢ .

(٣) المصدر السابق ٢٨٢/٣ ، ٤/٤ .

(٤) المقرئى : السلوك ٤٥٦/١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/٩١ ، ١٠٩ - ١١٠ .

وكثر الدعاء له ، ووقع هذا المال من الفقراء موقعا عظيما بسبب تزايد غلاء الأسعار فسي سنة ٨١٩ هـ بالقاهرة وضواحيها ، وأرسل المؤيد شيخ مملوكه الى المزارعين ليشتري له قمحا لتوزيعه بالقاهرة توسعة على الناس . (١)

ونجد السلطان الظاهر ططر الظاهري لا يقل عن سبقة من السلاطين المماليك اهتماما بالرعية والاحسان الى الفقراء ، وتعهدهم في مدة سلطنته بالاحسان والانعام (٢) فقد عرف عنه كثرة احسانه للرعية وتفقد ه لهم ، ومن الأمثلة على ذلك ما وقع منحه في سنة ٨٢٤ هـ .

وعندما وقع الغلاء بالديار المصرية في سنة ٨٢٩ هـ وعز وجود القمح ، وتزاحمت الناس في طلبه ، وعمّ الغلاء البلاد الشامية وما حولها ، واستمر الحال متزايدا في كل يوم وافتقر أكثر الأغنياء من الناس ، شرع السلطان الأشرف برسباي في جمع الفقراء وفسرّ عليهم الخبز في كل يوم مدة ذلك الغلاء . (٣)

وأمر السلطان قايتباي في سنة ٨٧٦ هـ أن يفرّق على الفقهاء والعلماء نفقة توسعة في رمضان لهم ولعيالهم ، واستمر ذلك في كل شهر رمضان مدة سلطنته . (٤)

ولما اشتد الغلاء بمصر ومات الكثير من الفقراء على الطرقات من شدة الجوع في سنة ٨٩٢ هـ ، فتح السلطان الأشرف قايتباي خزائنه ، وباع ارب القمح بخمسة دراهم أشرفية . (٥)

-
- (١) ابن حجر : ابناء الغمر بأبناء العمر ٢٠٤/٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤٠/١٤ ، ٤٣ ، ٧٩ .
- (٢) العيني : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ٢٢ .
- (٣) ابن اياس : بدائع الزهور ١٠٤/٢ .
- (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٧٦/١٦ ، ٣٨٤ .
- (٥) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٣٨/٣ . والأشرفية نسبة الى لقب الأشرف قايتباي ، وقد كانت النقود في ذلك العدم تشتهر باسم من ضربها من السلاطين .

واهتم السلطان قانصوه الغورى في مدة سلطنته التي بدأت في سنة ٩٠٦ هـ برعاية الفقراء والتصدق عليهم ، نظرا لشدة حاجتهم للمساعدة ، ففرق في أحد الأيام ثلاثة آلاف دينار ، ويوم فرق نحو أربعمائة دينار ، واهتم بتفقد أحوال الأيتام الذين يدرسون بمد رسته ببذل المال فيهم وتعهدهم بالزيارة بين الحين والآخر ، فمرة يفرق عليهم مالا ، وأخرى يقرر صرف كسوة لهم .

واهتم قانصوه الغورى بالاحسان لكبار السن من العجزة والأرامل ، فأظهر الاحسان اليهم ورد عليهم ما قطع عنهم من مرتبات ، وخصص للعجزة عشرين دينارا ، وللشيوخ الضعفاء عشرة دنانير ، وللأيتام دينارين لكل واحد . (١)

ومما تقدم تظهر تلك المعاناة التي مرّ بها عصر السلاطين المماليك من خلال ظاهرة غلاء الأسعار وقلة المؤن والأغذية ، وقد ساعد عدم الاستقرار السياسي في أغلب فترات عصر السلاطين على زيادة حدة تلك الأزمات التي حاول بعض السلاطين التخفيف من شدة وطئتها على الرعيّة .

ويمكن ارجاع أسباب تلك الأزمات الى ما يلي :

- ١ - الجفاف ، وعدم نزول الأمطار ، فتلفت بذلك المزروعات والمحاصيل ، وغلب الجفاف على الأراضي الزراعية في مختلف الأقاليم .
- ٢ - وقوع قحط وغلاء أسعار وقلة مؤن ومحاصيل في الحجاز وبلاد الشام ، وقد وم تجار من تلك الأقاليم الى الديار المصرية لشراء الغلال ، فزاد الطلب عليها وقلت من الأسواق مع ارتفاع أسعارها .
- ٣ - سوء ادارة أمور الخلافة في بعض عصور السلاطين في ظل الخلافات فيما بينهم ، خاصة بعد تولية مناصب الدولة ووظائفها لمن لا يستحقها .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٩٤/٤ ، ١٤١ ، ٢٣٦ ، ٢٨٦ ، ٢٢١ - ٢٢٢ ، ٣٢٦ ،

- ٤ - حرص بعض التجار والأمرء والأعيان على الاستفادة المادية من تلك الأزمات من خلال احتكارهم لبيع الغلال بعد تخزينهم لها في أوقات توفرها ، فاذا قلت من الأسواق وعزّ وجودها قاموا بالمناجرة فيها طمعا في الحصول على الأرباح الطائلة بتلك الطريقة .
- ٥ - طمع والي القاهرة من خلال فرضه على الفلاحين والباعة مبالغ مادية عن كسب ما يبيعونه ، فكفوا عن حمل محاصيلهم الزراعية وبضائعهم لبيعها في القاهرة - تباديا لتلك الضرائب الاجبارية .
- ٦ - عدم الاستقرار الأمني في نواحي البلاد المصرية ، فقد تزايدت اعتداءات القبائل العربية على الفلاحين و ما يحملونه من محاصيل التي كانت تذهب نهبا بين أيديهم .
- ٧ - تباين مواقف السلاطين المماليك من تلك الأزمات وعدم سيرهم على طريقة واحدة في مواجهتها ، فنجد بعضهم يبذل جهده للتخفيف عن الرعية في وقت غلاء الأسعار ، اما بتوزيع ما لديهم من غلال على الناس ، أو بيعه بأقل الأسعار للتخفيف عنهم ، ونجد البعض الآخر منهم يحاول الاستفادة المالية من تلك الأزمات من خلال بيعه للمحاصيل التي في خزائنه بأعلى الأسعار ، خاصة من امتهن التجارة من متأخري السلاطين . (١)

(١) حياة الحجى : الأوضاع الاقتصادية في حكم المؤيد شيخ : المجلة العربية للعلوم

و - الخدمات العامة :

اهتم السلاطين المماليك باقامة المنشآت العامة التي يستفيد من اقامتها بالدرجة الأولى الرعية ، ومن تلك المرافق التي حرص السلاطين على اقامتها :

في سنة ٦٦١ هـ أنشأ الظاهر بيبرس دار العدل (دار القضاء) ، وصار يجلس فيها لعرض العساكر السلطانية يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع ، ويجلس في تلك السدار للحكم بين الناس بحضور القضاة الأربعة . (١)

وأنشأ مكتبة جلييلة عرقت باسمه (المكتبة الظاهرية) وألحقها بمد رسته التي أنشأها في سنة ٦٦٢ هـ .

أما السلطان المنصور قلاوون فقد استطاع أن يخلد اسمه ضمن كبار السلاطين المماليك ، وذلك لما قام به من أعمال عظيمة ، فقد استغل موارد الدولة المالية في اقامة تلك المنشآت الهامة ، ومنها بناء المدرسة المنصورية ، ثم ألحق بها مكتبة حافلة اشتملت على خزانة كتب جلييلة في علوم التفسير ، والحديث ، والفقه ، واللغة ، والطب ، والأدب ، ورتب السلطان لخازنها مرتبا في كل شهر وعين له خمسة مساعدين وجعل لتلك المكتبة خدام وفرّاشين وبوابين . (٢)

ثم أضاف المنصور قلاوون في سنة ٦٨٣ هـ الى تلك المنشآت أهمها وهو المارستان المنصوري الذي قال عنه الرحالة ابن بطوطة بعد رؤيته له : " ... فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ... " . (٣)

-
- (١) عبد الرحمن زكي : قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار ٤٧ .
 (٢) عبد الرحمن زكي : القاهرة تاريخها وآثارها ١٣١ ، سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٩٨ .
 (٣) ابن بطوطة : تحفة النظار و غرائب الأمصار ٥٤ .

أما القلقشندی فقال عنه : " ٠٠٠ الجليل المقدار ، الجليل الأثار ، الجميل الإثار ، العظيم بناؤه ، وكثرة أوقافه ، وسعة انخافه ، وتنوع الأطباء ، والكحّالين ، والجراحية فيه " (١)

وخلّد الشعراء محاسن تلك المنشأة بما نخلّموه من الشعر بعد انتهاء العمل فيها
ومن ذلك قول أحدهم :

ومثذنة كالنجم تشرق في الدجى عليها هدى للعالمين ونور
فكم حسدتها في الكمال كواكب وغارت عليها في العلوبسدر
وقبة مارستان ليس لعللة عليه وان طال الزمان مرور

الى أن قال في مدح السلطان المنصور قلاوون :

وما تلك للسلطان الا سمادة يدوم له ذكر بها وأجور (٢)

وعن سبب بناء هذا المارستان فانه لما توجه المنصور قلاوون لقتال الروم في أيام الظاهر بيبرس أصابه مرض بد مشق فعالجه الأطباء بأدوية أخذت من المارستان الذي أقامه نور الدين زنكي ، فلما برى المنصور قلاوون من مرضه ذلك توجه حتى وقف على ذلك المارستان النوري ، فأعجب به ونذر ان أعطاه الله الحلك أن يبني مثله ، فلما ولي السلطنة وفّى بنذره . (٣)

ولما كمل البناء أوقف السلطان قلاوون على المارستان والمدسة التي بجواره، عدة ضياع وأملاك وبساتين وغير ذلك ، وجعل لها في كل يوم من الرواتب نحو ألف دينار . (٤)

(١) القلقشندی : صبح الأعشى ٣/٣٦٦ ، المقریزی : الخطط المقریزية ٢/٤٠٦ .

(٢) بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ١١١ - ١١٢ .

(٣) المقریزی : اللوك ١/٤٠٦ ، والمارستان كلمة يراد بها مكان العلاج للمرضى .

(٤) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأعمار ٢٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١/٣٥٣ .

وحرص السلطان في زيادة الأعيان الموقوفة على تلك المدرسة وذلك المارستان الطبي لادراكه بأهمية الخدمات الصحية التي يقدمها وعمومية هذه الخدمات لجميع الناس الأمر الذي يستلزم مورداً مالياً ثابتاً ومنتظماً . (١)

وقد حضر السلطان قلاوون افتتاح هذا المارستان في حفل كبير شارك فيه الأمراء والقضاة والعلماء ، وأعلن المنصور قلاوون أمام الملأ ان هذا المارستان لجميع المسلمين الصغير منهم والكبير ، الغني والفقير على حد سواء ، يتساوى الجميع في الانتفاع منه . (٢)

وتدل التجهيزات الداخلية لذلك المستشفى على تقدم الطب والعناية الطبية في عصر السلاطين المماليك ، فقد جهّز بالأسرّة والفرش والمخدات والأغطية ، وخصص لكل مريض به فرش كامل ، مع مسئولية ناظره على تأمين ما يحتاج اليه مستقبلاً ، وخصص أيضاً لكل مريض الأواني الخاصة بطعامه وشرابه .

ونصّت وثيقة الوقف على ضرورة صرف مراوح من الخوص ليستخدمها المرضى في تخفيف حرارة الصيف ، وخصص به أماكن للطبخ حيث يطبخ للمرضى ما يحتاجونه من الطعام ، ولكل مريض قائمة خاصة بطعامه حسب أوامر الطبيب المعالج له ، ولا يسمح للمريض بمغادرة المستشفى إلا بعد أن يشفى تماماً . (٣)

ويعمل في ذلك المستشفى فئات متعددة من الأطباء حسب الأقسام الطبية الموجودة فيه ، وهي قسم للعيون ، وقسم للجراحة ، وقسم للحميات ، وقسم للنساء ، وكان لكل فئة من هؤلاء الأطباء رئيس ينظم شئونها ، ويقوم بتقسيم العمل بين أفرادها

(١) حياة الحجي : البيمارستان المنصوري - مجلة العلوم العربية والانسانية - العدد

٢٩ ، سنة ١٩٨٨ م ، ص ١٢ .

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه = حجة وقف المنصور قلاوون ١/٣٠٣ - ٣٥٨ .

(٣) ابن حبيب : تذكرة النبيه ١/٣٠٣ ، ٣٦٤ - ٣٦٥ .

على مدى الليل والنهار ، ولا يسمح لأحد بممارسة العلاج الآ باذن من ذلك
الرئيس . (١)

ورتب فيه من يخدم المرضى من الرجال والنساء ، فيقومون بتنظيف أماكنهم
وغسل ثيابهم ، وقرر لهم في مقابل تلك الأعمال الرواتب السخية .

ولم تقتصر فائدة هذا المستشفى على خدمة المرضى النازلين به ، بل تعدت
ذلك لتشمل المرضى المقيمين في المنازل ، فرتب لهذه الطائفة من المرضى ما يحتاجون اليه
من أغذية وأشربة وأدوية ، وقد وصل عدد مرضى المنازل في بعض الأحيان ما يقارب مائتي
مريض ، يضاف الى ذلك خدمة المستشفى للمرضى الذين يحضرون اليه لطلب العلاج ،
فبعد الكشف عليهم من الطبيب المختص يعطوا ما يلزمهم من الدواء من غير حاجة للبقاء
في المستشفى وهو ما يطلق عليه الآن (العيادة الخارجية) . (٢)

وخصت في ذلك المستشفى طائفة من الأطباء لتحضير الأدوية الطبية ، وهيئت
به أماكن لحزن الحوامل التي تستخرج منها العقاقير الطبية من مختلف الأصناف في مخازن
خاصة لحفظ المواد الخام . (٣)

أما الهيئة الادارية للمستشفى فقد رتب فيه من الموظفين والأمناء المباشرين ما يكفي
للقيام بجميع وظائفه ، وأهمها أمناء المخازن الذين يقومون بشراء ما يحتاجه المستشفى
وتسجيل كافة المشتريات من غذاء ودواء ، ثم تحويل سندات الشراء الى الخزينة لسداد
قيمتها ، وتقوم الادارة المالية بذلك المرح الطبي بحرف مرتبات الموظفين والمباشرين ثم
يتم تدوينها في السجلات الخاصة بالايادات والمصروفات من حساب المستشفى .

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ١/٣٦٧ .

(٢) سعيد عاشور : محرفي عصر المماليك البحرية ٩٨ .

(٣) المرجع السابق : ٩٩ .

وخصّص بذلك المستشفى مكان لتدريس الطب حيث يقوم الأطباء بتدريس الطلاب الجديد في علم الطب ، وهذا يشبه الى حد كبير وضع كليات الطب الموجودة في المستشفيات الحديثة حيث يتاح لطلاب الكلية ممارسة المهنة في مستشفى الجامعة التي يدرسون فيها ، ولتطبيق ما درسه نظريا بالطريقة العملية تحت اشراف الأساتذة بتلك الكلية .

وقد هدف المنصور قلاوون من تدريس الطب الى تحقيق ما يطمح اليه من مقاصد أهمها :

- ١ - بذل الجهد في شفاء المرضى من آلامهم والتخفيف عنهم من معاناة المرض .
- ٢ - الاشراف على طلبة الطب و تقربهم من المهنة التي يرغبونها .
- ٣ - اعطاء الطلبة كل ما يعرف من علم ومعرفة من خلال تجربة من سبقهم في هذا العلم وذلك من أجل تخريج مجموعات جديدة من الأطباء في مختلف التخصصات ، ولايجاد الميادلة الذين يجيدون تحضير الدواء ، ولغرس روح البحث العلمي في نفوسهم للسعي وراء كل جديد في العلاج والدواء .

وقد اجتهد المنصور قلاوون في اقامة هذا المركز الطبي الذي يماثل في تنظيمه مستشفيات العصر الحديث حرصا منه على فعل الخير وتقديم الرعاية الطبية لرعيته ، وأنفق من ماله بسخاء ليضمن استمرار ذلك المركز الطبي في تقديم خدماته الطبية ، فكانت هذه المؤسسة الخيرية صفحة من صفحات الانجازات الحضارية في عصر السلاطين المماليك (١) ، وكان هذا المستشفى اللبنة الأولى التي أقام عليها الأوربيون مستشفياتهم ، فقد نقلوا هذه الفكرة الى بلادهم . (٢)

(١) حياة الحجي : البيمارستان المنصوري ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٩ .

(٢) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ١٠٩ .

وتظهر أهمية هذا الصرح الطبي وما أنشيء بعده على غراره في انتشار الأمراض والأوبئة وتكرر حدوث الطواعين بين الحين والآخر ، وفتكها بالناس ، ومما يؤكد شدة الحاجة لمثل تلك المنشآت الطبية لتخفيف المعاناة عن الرعية ، وكان لتلك الأمراض الأثر البالغ في المجتمع من خلال الأعداد التي هلكت في غمرتها ، وقد أشار مؤرخوا ذلك العصر الى تلك الحوادث وأعداد من هلك فيها على وجه التقريب ، وما أصاب البلاد والعباد بسببها ، وفعل الشعراء في أخبار تلك الطواعين التي اجتاحت البلاد الاسلامية ، ومما قاله السيوطي في طاعون سنة ٩١٠ هـ وكثرة من فنى فيه من الناس :

كم حلّ في دار فبدد شمل من	فيها فلا يجدون منه مهربا
يا رب لطفًا بالعباد فما لهم	رب سواك يقيهم المستعيبا
أنا اعترفنا بالذنوب فكلنا	عاصي مسيء للعذاب استوجبنا
لكن اذا قرنت عظيم ذنوبنا	بعظيم عفوك كان عفوك أغلبا
إن كان لا يرجوك الا محسن	في العالمين فمن يجير المذنبا (١)

ومن أعمال السلطان الناصر محمد تعميره خمسة أحياء جديدة خارج سور القاهرة في سنة ٧١٣ هـ ، فازدهرت عاصمة ملكه وزادت مساحتها .
 واهتم بأحوال الرعية ، فأعلن ابطال كثير من المظالم والضرائب التي كانت تؤخذ منهم بالديار المصرية والسواحل وغيرها .

وفي سنة ٧١٧ هـ أمر بإجراء ماء عين من بلدة الخليل الى القدس الشريف . فحصل بذل رفق للناس ، وحمل السلطان على الأدعية والأجور الحالحة بعمله ذلك . (٢)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٧٩/٤ .

ولم يذكرها السيوطي في تاريخه لأنه ينتهي بحوادث سنة ٩٠٣ هـ .

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٥٤ / ٢ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ١٤٢ .

وفي سلطنة الكامل شعبان أمر باصلاح أحوال البيمارستان المنصوري ، وأنشأ بجواره في سنة ٧٤٦ هـ سبيل ماء للتيسير على الناس للحصول عليه ، وأنشأ مكتبا لتعليم الأيتام من أبناء المسلمين القراءة ، وزاد في الأوقاف الموقوفة على تلك المرافق . (١)

واهتم الناصر حسن في سنة ٧٤٨ هـ ببناء الجسور على المياه ليسهل عبور الناس من فوقها ، وكانت عملية بناء تلك الجسور تتم عن طريق بناء مراكب بحرية ثم تحميلها بالحجارة الكبيرة حتى تغرق وتصبح تلك المراكب بعضها فوق بعض على هيئة جدار وسط الماء ، فتم في سلطنة الناصر بناء جسرين أغرق في بنائهما ألف مركب محملة بالحجارة وبلغت تكلفة ذلك العمل أربعمئة ألف دينار . (٢)

وفي سنة ٨٠١ هـ أمر السلطان الظاهر برقوق ببناء جسر على نهر الأردن بلغ طولـه مائة وعشرين ذراعا في عرض عشرين ذراعا .

وبنى بالديار المصرية دارا يقرأ فيها أيتام المسلمين القرآن الكريم (٣) ، وبلغ من اهتمام السلاطين بالأيتام أن أنشأوا ديوانا خاصا بهم يقوم بتفقد أحوالهم وتقديرهم الرعاية لهم ، ففي سنة ٨٠٨ هـ أنشأ السلطان الناصر فرج بن برقوق مارستانا حمل اسمـه فعرب بالمارستان الناصري .

وأتبع ذلك السلطان المؤيد شيخ المحمودى ببناء مارستانا جديدا استمر العمل فيه قرابة أربع سنوات ، وبدأ ذلك المستشفى في استقبال المرضى بعد الفراغ من عمارتـه في سنة ٨٢٤ هـ ، وأنشأ المؤيد سبيلا ليؤمن الماء المالح لسكان القاهرة .

وأمر السلطان المؤيد شيخ باباطال الضرائب التي كانت تؤخذ على الفاكية ، ونقش ذلك

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠/١٢٦ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ١/٥٢٢ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/١١٣ ، ١١٥ .

(٤) تقدم ص (٤٧٩) .

الأمر السلطاني على حجر من الرخام وضع على باب جامع السلطان المؤيد^(١) حرماً منسباً
على التقيد بما ورد في ذلك الأمر السلطاني .

واهتم السلاطين المماليك بنظافة الشوارع وتعاهدوا بالميانة ، وإزالة ما يكون
بها من أذى يؤذى من يمرّ بها ، ومن ذلك أمر الأشرف برسباي في سنة ٨٢٩ هـ بالنداء في
القاهرة بقطع ما ارتفع من الطرقات ، فشرع الناس في حمل التراب من تلك الطرقات .^(٢)
وفي سنة ٨٦٢ هـ أمر السلطان الظاهر جقمق والي الشرطة بإصلاح الطرقات وتنظيفها
وتنظيف البيوت المطلّة عليها .^(٣)

وفي سلطنة الأشرف إينال أمر بهدم ما كان ببعض نواحي القاهرة من الأملاك التي
كانت تضيّق الطريق على المارين بها ، فهدمت من يومها .^(٤)

وأمر السلطان الأشرف قايتباي في سنة ٨٨١ هـ ببناء مغسل للموتى ، فحصل به
غاية النفع لأجل تجهيز الموتى ولا سيما الغرباء الذين كانوا يقيمون بالقاهرة .^(٥)

ثم أمر السلطان أيضا بتوسيع الطرقات والشوارع ، وشرع في سنة ٨٨٢ هـ بهدم
ما وضع في الأسواق والشوارع بغير طريق شرعي من أبنية وحوانيت ورواشين وغير ذلك ،
واستمر الهدم حتى دخلت السنة التي بعدها ، فحصل بذلك نفع في توسيع الطرقات ،
ولكن حصل لجماعة من الناس الضرر بسبب الهدم^(٦) ، وليت السلطان أعطى أولئك

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٦/٢ ، ٣٨ ، ٦٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٠٤/٢ .

(٣) السخاوي : التبر المسبوك ٢٦ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٤٦/٢ .

(٥) المصدر السابق : ١٢٦/٣ .

(٦) المصدر السابق : ١٢٧/٣ .

المتضررين بعض المال تعويضا لهم عما نزل بهم من ضرر في مقابل المصلحة العامة التي تحققت بفضل ذلك العمل .

وأمر السلطان الأشرف قايتباي باصلاح أبواب الجوامع والمساجد وجلاء رخامها وتبييض حيطانها ، وتبييض حيطان الدكاكين ووجوه المنازل التي تطل على الشوارع ، وكلف أحد أمرائه بأن يكون مسئولا عن انجاز تلك المهمة ، فصار يستحث الناس على سرعة دهان البيوت بالبياض . (١)

واستمر السلاطين المماليك في تقديم تلك الخدمات للرعية حتى آخر السلاطين قانصوه الغوري ، ففي سنة ٩٠٩ هـ بنى دارا للحكم ، وبنى بجوارها حوضا وساقية لماء الشرب ، وأمر بعمارة مغسل للأموات ، وبنى ميضأة للوضوء ، وغير ذلك مما ينتفع به ، وأمر السلطان قانصوه على عمارة تلك المرافق نحو ثمانين ألف دينار . (٢)

وأمر السلطان قانصوه الغوري بأن ينادى في القاهرة بأن أصحاب الدكاكين قاطبة يقطعون قدر ذراع من الطرقات التي أمامهم بسبب ارتفاعها جدا . (٣)

وبنى السلطان قانصوه في سنة ٩١٠ هـ مغسلا للأموات ، فحمل به للناس غاية النفع . (٤)

وهكذا نرى السلطان الغوري مع تزايد المخاطر بالسلطنة المملوكية عند اعتلائه لكرسي السلطنة ، إلا أنه لم يغفل الاهتمام بتلك المرافق واقامة تلك المراكز التي تقسدهم الخدمة التي كانت الرعية بحاجة اليها ، ويؤكد ذلك ما رده ابن اياس عند ذكره لتلك المنشآت من حصول النفع بعد اقامتها ، ولهج الرعية بالدعاء لمن تفقد أحواله

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٣٨/٣ .

(٢) المصدر السابق : ٥٦/٤ .

(٣) المصدر السابق : ٥٩/٤ .

(٤) المصدر السابق : ٧٦/٤ .

من السلاطين المماليك ، وأقام لهم بعض المصالح التي عادت عليهم بالنفع سواء إقامة مدارس ، أو مستشفيات ، أو بناء جسور ، وإصلاح طرق ، أو تخفيف معاناتهم بالغناء ما كان يجبي منهم من فرائض أثقلت كواهلهم .

ز - حفظ الأمن :

يضاف الى ذلك الاهتمام بالنواحي الأمنية ، وترتيب من يتفقد الشوارع بالليل ومعاينة المخالف ممن يوجد يسير ليلا لغير سبب ، والاهتمام بإضاءة الشوارع ليلا ، ومراقبة الأسواق ، وتشديد الحراسة حولها لحمايتها من اعتداء اللصوص^(١) ، كما اهتم السلاطين المماليك بحماية المدن الاسلامية الواقعة تحت نفوذهم من محاولات الهجوم عليها من خلال بناء الأسوار العالية الحصينة ، وإقامة أبراج المراقبة ، وتعاهد تلك الحصون والأبراج بالاصلاح والصيانة^(٢) حرماً على سلامة أهلها من اعتداءات المعتدين ، خاصة الثغور في البلاد الشامية والسواحل بالبلاد المصرية التي زادت الأطماع في احتلالها في أواخر عهد السلاطين المماليك .

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٣١٨ - ٣١٩ .

(٢) الغزى : نهر الذهب في تاريخ حلب ٣ ، ١٩ ، ٢١ .

وأنظر: المقرئى : الخطط المقرئية ٣٨١/١ ، ٣٨٣ ، ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمتار ٤٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ . عبد الرحمن زكي : القاهرة - تاريخها وآثارها ١٠٨ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، قلعة مصر : ٢١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، قلعة صلاح الدين ١٤٥ - ١٤٦ ، الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار ٣٢/١ ، عبد المنعم ماجد : ١٠٩ . محمود سليم : عصر سلاطين المماليك ٢٩/١ ، ٤١ ، جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ٣٣٩/١ ، ٣٤٨ ، ٣٧٩ . زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ٣٣٤ ، ٣٤٣ ، سعيد عبد الحميد : الحياة الدينية في المدينة الاسلامية - مجلة عالم الفكر - العدد الأول ، المجلد ١١ ، سنة ١٩٨٠ م ، ص ١٠٩ . محمد كمال : الخوانك والتكايا والرباطات في القاهرة - مجلة الأزهر ، العدد الثالث ، سنة ١٣٩٧ هـ ص ٤٥٢ ، محمد عبد الله عنان : مجلة الرسالة - العدد ٢٢٢ ، ص ١٣٥٦ هـ ، ص ١٦٠٦ . علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ٤٤٢ وما بعدها .

ح - الاهتمام بالزراعة :

اهتم السلاطين المماليك بالديار المصرية والبلاد الشامية بالزراعة اهتماما كبيرا ، فقد كانت الزراعة في تلك العصور الحرفة الأولى لغالبية السكان ، والمورد الأول الذي عاش عليه معظم الأهالي .

وقد قُسمت الأراضي الزراعية بالديار المصرية اقطاعات للسلطان المملوكي والأمراء المماليك ، والعساكر السلطانية بعد أن قسمت الى أربعة وعشرين قيراطا^(١) ، اختصّ السلطان بأربعة قراريط ، وللأمراء عشرة ، وما تبقى كان من نصيب العساكر السلطانية .^(٢)

وحرصا من السلاطين المماليك على الاستفادة القصوى من الأراضي الزراعية ، فقد قيست ومسحت أكثر من مرة ، وهو ما عرف بعملية الروك ، والمراد به : " القيام بدراسة مساحة للأراضي الزراعية تشمل مساحتها ، وكثافة السكان بها ، ونتاج المحصول بها ، وأهميتها الاقتصادية ، وبعد الانتهاء من ذلك المسح الميداني يتم إعادة توزيع الاقطاعات على الأمراء والأجناد من جديد " .^(٣)

وأشتهر في عصر المماليك الروك الحسامي الذي أجره السلطان حسام الدين لاجين سنة ٦٩٧ هـ ، والروك الناصري الذي أجره السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ ، وعلل سبب قيام الناصر محمد بذلك الى أنه هدف الى تقوية سلطانه ونفوذ ه في الدولة

(١) انظر أصل الكلمة واستخدمها في الحساب . (الفيومي : المصباح المنير ١٥٦/٢) .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٧٣ ، مصر في عصر المماليك البحرية ١٩٧ .

(٣) حياة الحجى : التقسيم الادارى في مصر زمن المماليك - المجلة العربية للعلوم الانسانية - العدد ٣٨ ، سنة ١٩٩٠ م ص ١٣ .

من خلال اضعاف سلطة كبار الأمراء المماليك عن طريق تقليص اقطاعاتهم مساحة وانتاجها فتضعف قوتهم الاقتصادية ، تقوية سلطته بزيادة الاقطاعات السلطانية . (١)

أما الدافع للسلطان حسام الدين للقيام بتلك العملية فهو ملاحظته أن الأمراء يأخذون كثيرا من اقطاعات الأجناد ولا يدفعون عنها الحقوق والمقررات للدواوين السلطانية مما جعل تلك الأراضي الزراعية مغنما لأولئك الأمراء وأعوانهم ومستخدميهم ، فعند ذلك ندب السلطان حسام الدين لاجين جماعة من الكتّاب وعين عليهم رئيسا ليقوموا بروك الأراضي الزراعية بالديار المصرية من جديد . (٢)

وكانت الزراعة هي المورد الاقتصادي الذي يُموّل خزانة الدولة ، وكانت الأرض هي المرادو المادي الذي يحظى به الأمراء المماليك والعساكر السلطانية مقابل خدماتهم العسكرية في جيش السلطنة المملوكية ، فكانت سلطنة المماليك اقطاعية ولكن طبيعياً الاقطاع الموجود لا تقوم على أساس ملكية الأرض لمن قطعت له وتوارث ملكها ، بل على ما توفره من أموال لخزائن الدولة عن طريق جباية الضرائب على المحاصيل الزراعية . (٣)

وقد اختلفت القيمة الزراعية لتلك الأراضي لاختلاف درجة خصوبتها وتنوع ما يزرع فيها من محاصيل زراعية ، فالأرض الخصبة التي تصلح لزراعة القمح والكتان كانت قيمة غلتها تساوي أربعين درهما ، ثم تتناقص هذه القيمة تبعا لخصوبة الأرض وما يزرع فيها . (٤)

(١) حياة الحججي : التقسيم الإداري في مصر زمن المماليك - المجلة العربية للعلوم

الإنسانية - العدد ٣٨ ، سنة ١٩٩٠ م ، ص ١٧ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٧٤ .

(٣) حياة الحججي : التقسيم الإداري في زمن المماليك ٣٠ .

(٤) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك ١٩٨ .

أما أهم الحاصلات الزراعية في مصر في ذلك العصر ، فمنها القمح الذي كان محصوله في بعض الأحيان يفيض عن حاجة البلاد ، وعند ذلك كان السلاطين المماليك يمسدون البلاد الشامية والأقطار الحجازية بمقادير وفيرة منه ، وفي بعض الأحيان عمد السلاطين الى تشييد مخازن تُخزن بها الغلات ، ولا يسمح بفتحها الا في حالة الضرورة القسوى في شدة القحط والمجاعة ، ومن الحاصلات الزراعية في مصر الكتان الذي يعد من أهمّ مزروعات مصر في عصر المماليك ، وكانت تصدر كميات كبيرة منه الى كثير من البلاد المجاورة واشتهرت مصر أيضا بزراعة قصب السكر بالانافة الى أنواع الفواكه والخضروات لسدّ حاجة السوق المحلية . (١)

وتفوقت البلاد الشامية ، وخاصة دمشق على مصر في زراعة الفواكه ، ونقلت أنواع الفواكه والخضروات من دمشق الى القاهرة ، وتم الاستعانة بفلاحين من البلاد الشامية لزراعة تلك الأشجار في بساتين مصر الخاصة ومزارعها . (٢)

واستفادت السلطنة المملوكية من وفرة الانتاج الزراعي من خلال جباية ضريبة الخراج لخزائن الدولة ، فقد أدت الأراضي الزراعية الضريبة الخراجية المقررة عليها ، واختلفت تلك الضريبة باختلاف البلاد ، فكان أكثر خراج الوجه القبلي عينا يؤخذ من القمح ، والشعير، والفول، والعدس، ونحوها من المحاصيل الزراعية ، وكان يؤخذ في الغالب عن خراج كل فدان من هذه الأصناف ضريبة تتراوح ما بين إردبين الى ثلاثة ، أما الوجه البحري فكانت غالب خراج بلاده نقدا ، وليس فيه من خراج بلاده عينا الا القليل . (٣)

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٧٦ .

(٢) صلاح الدين المنجد : جوانب من تفوق الشام على مصر في العصر المملوكي - مجلة

المنهل - العدد ٤٤١ ، سنة ١٤٠٦ هـ ، ص ٣٤٦ .

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٧٧ ، مصر في عصر المماليك

البحرية ١٩٨ .

وحرصا من السلاطين المماليك على الاستفادة من تلك الموارد المالية من خلال

الضرائب المفروضة على المحاصيل الزراعية ، فقد اهتموا بالزراعة في محاولة منهم لزيادة الانتاج الذي تزيد معه العائدات المالية لخزينة الدولة ، فاهتم السلاطين بإنشاء الجسور وهي نوعان :

الجسور السلطانية : وهي الجسور التي يعود نفعها على بلاد كثيرة ، وهذه تعمّر في كل

سنة من الديوان السلطاني بالوجهين القبلي والبحري .

والجسور البلدية أو المحلية : وهي التي يعود نفعها على أهل ناحية من النواحي ، فيقوم

بعمارة هذا النوع من أقطعوا البلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم ، وينفق على

عمارتها من أموال البلاد التابع لها ذلك الجسر . (١)

وقد بلغ من عناية السلاطين المماليك بتلك الجسور أنهم كانوا يرسلون في كل

سنة عددا من الأمراء المماليك الى مختلف أقاليم الديار المصرية لعمارة تلك الجسور ،

ويعبّر عن الأمير منهم باسم كاشف الجسور ، وكان للجسور مهندسون يقومون بخدمة الكاشف

في عمارة الجسور التي كلف بالوقوف عليها ومعرفة حالتها ، فاذا عاد الأمراء المتعينون

لتلك المهمة الى الديار المصرية أخلع عليهم السلطان المملوكي تقديرا منه للعمل الذي

قاموا به ، وبلغ الأمر ببعض السلاطين المماليك أنهم كانوا يخرجون بأنفسهم للكشف على

تلك الجسور وتفقد مراقب الزراعة وأحوال المزارعين . وفي مقدمة هؤلاء السلاطين الناصر

محمد بن قلاوون . (٢)

ومن الأمثلة على اهتمام السلاطين المماليك بالزراعة والعناية بها السلطان

الناصر محمد بن قلاوون الذي اهتم بعمارة الجسور بأرض مصر ، وندب جماعة من الأمراء

(١) علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٤١٤ ، سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك

البحرية ١٩٨ .

(٢) علي حسن : مصر في العصور الوسطى ٣٨٤ ، سعيد عاشور : العمر المماليكي في

مصر والشام ٢٧٦ .

المماليك لعمارة تلك الجسور و الترع بالأقاليم المصرية ، واهتم السلطان أيضا ببناء القناطر التي يتم عن طريقها إيصال المياه ونقلها من الأراضي المنخفضة الى الأراضي الزراعية المرتفعة ، وانتشرت تلك القناطر في ذلك العصر كوسيلة لتحسين وسائل الري . (١)

فقد أمر السلطان الناصر محمد بحفر خليج الاسكندرية في سنة ٧١٠هـ ، فعمل فيه أربعون ألف رجل ، واستفاد من هذا العمل المزارعون و عمّرت حول ذلك الخليج القرى و زادت مساحة الأراضي الزراعية على جانبي ذلك الخليج . (٢)

وفي سلطنة المؤيد شيخ المحمودى أمر في سنة ٨١٨ هـ بحفر ما تجدد من الرمال في مجرى النيل في محاولة منه لزيادة عمقه لتزداد بذلك كمية المياه في ذلك المجرى وليستفيد منها المزارعون لأطول مدة ممكنة في ري محاصيلهم الزراعية . (٣)

ونادى منادى السلطان المؤيد شيخ للناس قاطبة يطلب منهم أن يخرجوا لحفر قناة مائية لتكون شبه خليج مائي يجرى صيفا وشتاء ، فعمل الجميع في حفر ذلك الخليج وحملوا التراب في القفاف على رؤوسهم ، وخرج كل أمير في أهل حارته ، وعين السلطان المؤيد شيخ لكل أمير مكان يحفره . (٤)

وأمر المؤيد شيخ المحمودى في سنة ٨٢٢ هـ بتجديد عمارة بعض القناطر وأصرف على ذلك نحو خمسة عشر ألف دينار . (٥)

وفي سنة ٨٨٣ هـ توجه السلطان الأشرف قايتباى للكشف بنفسه على القناطر التي أمر

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٩/٩ - ٤٠ .

(٢) المصدر السابق : ٢١٨/٩ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ١٩/٢ .

(٤) المصدر السابق : ٢١/٢ .

(٥) المصدر السابق : ٤٤/٢ .

بانشائها ، وكانت قد تهدمت فأمر ف عليها جملة من الأموال حتى جد دها . (١)

وأرسل السلطان قايتباي أحد أمرائه ومعه جملة من البنائين ، والمهندسين لتجديد عمارة بعض القناطر ، وأنفق على ذلك نحو سبعة آلاف دينار . وتدارك السلطان هذه القناطر قبل سقوطها . (٢)

ومع هذا الاهتمام بالزراعة من قبل السلاطين المماليك ، إلا أنه كانت هناك بعض السلبات التي أثرت على ازدهار الناحية الزراعية في بعض الفترات من حكم السلاطين المماليك الذين فوضهم الخلفاء في إدارة أمور الخلافة العباسية بالديار المصرية ومنها :

١ - تقصير بعض السلاطين المماليك وعدم اهتمامهم بمصالح المزارعين خاصة في غمرة الخلافات والنزاعات المتكررة بين طوائف المماليك ، وقد سبب ذلك الإهمال الضرر للمزارعين ولمزارعهم خاصة عند فيضان مياه نهر النيل وزيادة مياهه مفرطة ، فقد حصل الضرر للمزارعين لعدم تعاهد الدولة لقنوات الري باستمرار ، وعدم انشاء سواقي إضافية على ضفتي النيل لتسهيل مجرى المياه الفائضة لأكثر مساحة من الأرض . (٣)

٢ - لجوء بعض السلاطين المماليك عند قلة الأموال من خزائن الدولة إلى نظام الإقطاع فيأخذ السلطان البلدة العظيمة وينعم بها على جماعة من الأمراء المماليك ، وتارة ينعم بها على عدد كبير من العساكر السلطانية وعل في بعض الأوقات إلى خمسين مملوكا ، ولما أتى ذلك النظام الإقطاعي على أراضي الديار المصرية انتقل السلطان إلى ضياع البلاد الشامية ففرق منها على أمراء الديار المصرية وأجنادهم ما شاء الله أن يفرق . (٤)

-
- (١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٥٠/٢ .
 (٢) المعدر السابق : ٢٤٠/٣ .
 (٣) حياة الحجى : الأحوال الداخلية في سلطنة الأشرف شعبان - مجلة عالم النكر ، العدد الثالث ، المجلد ١٤ ، سنة ١٩٨٣ م ، ص ٢٠٢ .
 (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٥٨/١٦ .

- ٣ - تراجع مستوى الفلاح المعيشي الذي أصبح مربوطا بتلك الأرض يفني حياته في خدمتها ، وليس له من خيراتها الا القليل ، فمحصولات الأراضي الزراعية كانت في الغالب نهبا موزعا بين السلاطين والأمراء المماليك ، في حين لم يبق للفلاحين سوى العمل ودفع الأموال المقررة عليهم وهم صاغرون . (١)
- ٤ - اهمال كثير من المقطعين للأراضي الزراعية التي أقطعت لهم ، وتوجههم الى مجالات أخرى تدر عليهم إيرادات مالية فورية مثل مزاولة الأعمال التجارية .
- ٥ - غلاء الأراضي الزراعية مع عدم استثمارها مما أدى الى قلة انتاجية تلك الأراضي ومن ثم اهمالها وعدم استثمارها زراعيًا .
- ٦ - فساد السياسة التي سار عليها بعض الولاة وعمال الأقاليم وأصحاب الاقطاعات وهي سياسة الظلم والجور وارهاق المزارعين بالمزيد من الضرائب المتنوعة بتنوع المحاصيل الزراعية .
- ٧ - الفتن والاضطرابات السياسية التي حدثت بين السلاطين المماليك وكبار الأمراء أو بين الدولة المملوكية والقبائل العربية في الأقاليم التي انتشرت فيها تلك القبائل . (٢)

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٩٩ ، العصر المماليكي في مصر والشام ٢٧٨ ، أمين سامي : تقويم النيل ١٢٤/١ ، ١٢٧ ، ابراهيم العدوي : مصر والشرق العربي درع الاسلام ١٤١ . سامح فهمي : القيم النقدية في الوثائق المملوكية ١٣ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ٤١٤ .

(٢) حمود النجيدى : النظام النقدي المملوكي ٤٤٦ .

ط - زيادة الثروة الحيوانية :

وبالإضافة الى الثروة الزراعية عني السلاطين المماليك بالثروة الحيوانية ، فأكثرها من جلب الأنواع الممتازة منها من خارج حدود أقاليم السلطنة المملوكية ، وزادت أعداد المواشي من خلال قيام بعض السلاطين باقامة حظائر لتربيتها والعناية بها . (١)

ي - الاهتمام بالصناعة :

أما الصناعة فقد ازدهرت في عصر السلاطين المماليك نتيجة لكثرة الموارد المالية للدولة ، وقد احتلت الصناعات الحربية مكانا بارزا في النشاط الصناعي لسلطنة المماليك ، فقد وجد بالقاهرة في ذلك العصر سوق كبير اسمه سوق السلاح ذخر بالأسلحة المتنوعة وبالصناعات التي كانوا يصنعونها ، بالإضافة الى صناعة بناء السفن الحربية المختلفة .

أما الصناعات المدنية فكانت عديدة وعلى جانب كبير من الرقي في ذلك العصر ، ومن أهمها صناعة المنسوجات المتنوعة حتى غدت لمصر في ذلك العصر شهرة خاصة في صناعة أنواع من المنسوجات التي امتازت بدقة الصناعة وثبات الألوان ، وجودة الخامة ، ومتانة النسيج ، يضاف الى ذلك انتشار صناعة المعادن ، وصناعة الزجاج ، والمصنوعات الخشبية ذات الزخارف والنقوش ، والمصنوعات الجلدية التي كان لها شأن كبير في عصر المماليك . (٢)

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ١٩٨ ، العصر المماليكي في مصر والشام ٢٧٧ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٧٨ - ٢٨٣ .

وأنظر :

جمال محرز : الرنوك المملوكية - مجلة المقتطف - العدد الخامس ، سنة ١٣٦٠ هـ ، ص ٤٦٢ . أحمد عبد الرزاق : مشكاة مملوكية - مجلة المؤرخ - العدد ٢٦ ، السنة ١٤ ، ص ١٩٥ ، ٢٠٢ . محمود الجبوري : جماليات الخط والزخرفة العربية - مجلة المورد - العدد الثاني ، سنة ١٩٨٠ م ، ص ٦٣ . شريف موسى : تاريخ فن العمارة الاسلامية - مجلة المورد - العدد الثالث ، سنة ١٩٧٦ ص ٩ .

الباب الثالث

العلاقات الخارجية في ظل الخلافة العباسية

وفيه الفصول التالية:

الفصل الاول: حركة الجهاد ضد المغول

الفصل الثاني: حركة الجهاد ضد الصليبيين

الفصل الثالث: العلاقات مع الدول الاسلامية

تمّ اعلان قيام الخلافة العباسية ثانية في الديار المصرية والبلاد الاسلامية تمرّ
 بظروف عصيبة ، فمن جهة الشرق اجتاح المغول مدينة بغداد ، وقتلوا آخر الخلفاء ،
 العباسيين المستعصم بالله ببغداد في سنة ٦٥٦ هـ ، وزادت أطماعهم في التقدم نحو
 مدن اسلامية أخرى ببلاد الشام ، ثم التوجه نحو مصر ، ومن جهة الشمال ظل للقوى
 الصليبية نفوذ في بعض المدن والسواحل الشامية مثل طرابلس ، وأنطاكية ، وعكا ،
 وغيرها من البلاد التي أصبح الوجود الصليبي فيها يمثل خطورة على الخلافة العباسية
 والدولة الاسلامية الناشئة حديثا في مصر ، ونفوذها الممتد حتى بلاد الشام
 وموانئها البحرية على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

وفي ظل هذه الأخطار المحيطة بالخلافة العباسية اجتهد الخليفة
 المستنصر بالله في مدافعة جيوش المغول عن ديار الاسلام بعد مبايعته بالخلافة في مصر ،
 وقاد أولى الحملات العسكرية لقتالهم ، أما السلطان الظاهر بيبرس فقد توجه نحو
 بلاد الشام في أولى خطواته لتحريرها من الوجود الصليبي ببعض مدنها وسواحلها ،
 وهكذا تعاون الخليفة العباسي والسلطان المملوكي على حماية البلاد الاسلامية
 اذ راكا منها لخطورة التهاون أو التهاون في مواجهة الأطماع المغولية والصليبية
 بالبلاد الاسلامية .

وبعد فترة وجيزة من قيام الخلافة العباسية بمصر تولى السلاطين المماليك
 مهمة مواجهة جيوش المغول والصليبيين عسكريا ، وأصبح للسلطان المملوكي حق التصرف
 بحرية تامة في تدبير أمور الخلافة العباسية بمصر سواء من الناحية الداخلية
 أو الخارجية ، وذلك بناء على التفويض الذي كان يمنحه الخلفاء للسلاطين بتدبير
 شئون الخلافة بدون الرجوع الى الخليفة العباسي ، وبموجب ذلك التفويض أصبح
 السلاطين يجهزون الجيوش لقتال المغول والصليبيين ويرسلون كبار الأمراء والقادة
 الى ثغور الخلافة في مصر والشام ، وكان السلطان المملوكي يخرج بنفسه لقيادة

العساكر السلطانية محطبا معه الخليفة العباسي لقتال أعداء المسلمين من منغول و صليبيين في محاولة منه لرفع الروح المعنوية للجيش الاسلامي ، وحثهم على الدفاع عن ديار الاسلام ، و حماية الخلافة الاسلامية التي التفت من حولها جموع المسلمين تعلن السمع و الطاعة للخليفة العباسي ، و تسعى لخدمته ، و فيما يلي الحديث عن أبرز ملامح العلاقات الخارجية في ظل الخلافة العباسية بالديار المصرية و البلاد الشامية :

الفصل الأول

حركة الجهاد ضد المغول

يطلق لفظ المغول على احدى القبائل التي كانت تجاور الصين و تقطن الأقاليم الممتدة من أواسط آسيا الى الجنوب الشرقي من أوروبا ، وقد قضت تلك القبائل جل وقتها في رعي الماشية و المنازعات فيما بينها التي نتج عنها تزايد حملات النهب و السلب و اعتداء القوي من تلك القبائل على الضعيف منها .

وقد ظهر أحد أفراد تلك القبيلة المغولية ويدعى (تيموجين) الذي استطاع توحيد تلك القبائل تحت قيادته ، ولما تولى رئاسة كل القبائل المغولية سعى لمــــدد نفوذه باتجاه الصين حتى احتل بكين و أخضعها للحكم المغولي . (١)

وبعد أن حقق جنكيز خان (تيموجين) انتصاره في الصين ، اتجه نحو الدولة الخوارزمية ، و بعد عدة حملات عسكرية تمكن من الاستيلاء على أراضي الدولة الخوارزمية في سنة ٦١٨ هـ بعد فرار السلطان محمد خوارزم شاه على اثر الهزائم التي تعرض لها أمام الجيوش المغولية ، و مات طريدا شريدا ، و تولى الأمر من بعده ابنه السلطان جلال الدين الذي لم يكن يملك من القوة ما يـدفع به ذلك الخطر المغولي الداهم ، و بذل جلال الدين جهده للدفاع عن ملكه ، و لكن الغلبة كانت لجيش المغول ، و بذلك انتهت المقاومة الخوارزمية التي كانت بمثابة خط الدفاع الأول عن البلاد الاسلاميــــة . (١)

ثم استمر القائد المغولي في جهوده لتوسعة سلطانه و نفوذه باتجاه البلاد الاسلامية حتى آخر أيام ملكه و قبل وفاته في سنة ٦٢٤ هـ قسم دولته المترامية الأطراف بين أبنائه الأربعة وهم (تولى) ، (جنطاي) ، (أوجيداي) ، (جوجي) أمــــنــــر الأبناء الذي كان من نصيبه الأراضي الواقعة قرب بحر قزوين ، فأقام هناك دولــــة

(١) أحمد سليمان : المغول و المماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيــــســــبرس

عرفت باسم دولة مغول القفجاق ، أو القبيلة الذهبية نسبة الى اللون الذهبي الذي
اشتهرت به مخيماتها ومعسكراتها . (١)

وأما أوجيداي (أوكتاي) بن جنكيز خان فقد بدأ بعد انتخابه خانا أعظم
للمغول في استكمال **اطماع** والده فاتجهت جيوش المغول الى ثلاثة مياد بين هسي :
ايران ، والصين ، وأوروبا . (٢)

وبعد أن تم تقسيم الجيوش المغولية لقعد تلك المياد بين الثلاثة تنافست
قياداتها في تحقيق نتائج عسكرية حاسمة لارضاء خان المغول الأعظم أوجيداي (أوكتاي)
فتقدم الجيش المكلف بالبلاد الاسلامية نحو ايران ، وتكررت هجمات المغول على
أطراف العراق منذ عام ٦٢٣ هـ ، وهزموا جيش الخلافة العباسية الذي عجز عن مواجهة
الزحف المغولي باتجاه بغداد ، فوقعت بأيدي المغول على يد القائد المغولي
هولاكو خان وقواته في سنة ٦٥٦ هـ ، حيث أحاط ببغداد من جميع الجهات بما يقرب
من مائة وخمسين ألف مقاتل ، وقضى على الخلافة العباسية في بغداد . (٣)

وباستيلاء هولاكو على بغداد زادت أطماعه في التقدم نحو بلاد الشام
والديار المصرية خاصة بعد تحالفه مع صاحب أرمينيا (٤) الملك هيتوم ، فتقدمت جيوش

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٢٦ .

(٢) أحمد سليمان : المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس ٢٨ .

(٣) المصدر السابق ٣٠ ، ٣٥ ، ٤١ .

(٤) اسم لمقع عظيم واسع في جهة الشمال ، سميت بذلك نسبة الى أرمينا بن لنطابن

نوح عليه السلام ، تتكون مملكة أرمينيا من ثمانية عشر ألف قرية .

(ياقوت الحموي : معجم البلدان ١٥٩/١) .

المغول بقيادة هولا كونحو الشام في سنة ٦٥٧ هـ ، فاستولى على حران والرهبان وميافارقين (١) ، وشد د من حصاره على المدن الهامة الرئيسية وفي مقدمتها مدينة حلب ، عند ذلك أحس صاحب دمشق الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي بخطورة الموقف فبعث رسوله الى صاحب مصر السلطان المنصور بن المعز التركماني يستنجد به على قتال المغول ويخبره بأنهم قد اقترب قد ومهم الى الشام ، فعقد الأمير سيف الدين قطز مجلسا مع كبار أمراء الديار المصرية بحضور المنصور بن المعز والقضاة والعلماء ، للتشاور فيما ينبغي اتخاذه من تدابير لمواجهة المغول . (٢)

ثم لم يلبث الأمير سيف الدين قطز أن قبض على ابن استاذ المنصور علي ، وتولى السلطنة مكانه وسمى نفسه بالملك المظفر ، " وكان هذامن رحمة الله بالمسلمين ، فان الله جعل على يديه كسر التتار ، وبان عذره في عزله للمنصور عند ما اعتذر للفقهاء والقضاة فانه قال لهم : " لا بد للناس من سلطان قاهر يقاتل عن المسلمين عدوهم ، وهذا - أي السلطان المنصور - صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة " . (٣)

وفي الواقع أن المظفر قطز قد أظهر دهاء وحنكة في ذلك العمل الذي أقدم عليه ، وعمد الى تحقيق غايته وهي توحيد كلمة المسلمين في مواجهة المغول ، وقد نجح في ذلك نجاحا ملحوظا ، وكان عليه بعد أن تولى السلطنة أن يرضي كبار الأمراء الذين خشوا من زيادة نفوذه بعد أن أعلنوا احتجاجهم على عزل السلطان المنصور بن المعز التركماني ، فسعى قطز الى تهدئتهم وطمأنهم بقوله : اني ما قصدت الا أن نجتمع على قتال التتار ، ولا يتأتى ذلك بغير ملك ، فاذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم

(١) أشهر مدينة بديار بكر ، فتحت عنوة على يد خالد بن الوليد في خلافة عمر بن

الخطاب رضي الله عنه ، وقيل : فتحت صلحا على خمسين ألف دينار على كل

محتلم أربعة دنانير . (الحموي : معجم البلدان ٢٣٥/٥) .

(٢) ابن كثير : ابلداية والنهاية ٢٢٨/١٣ .

(٣) الممدر السابق ٢٢٩/١٣ .

أقيموا في السلطنة من شئتم ، فلما سكت غضب الأمراء ، واطمأنوا لكلامه قبض على الذين يشك في ولائهم له (١) . ولعله قصد من وراء ذلك العمل الحرص على حماية الجبهة الداخلية لدولة الخلافة من التمدع وهي في مواجهة عدو لدود قصد أراضيتها ليهلك الحرث والنسل ، وسيطر بعد ذلك على ديار الاسلام والمسلمين .

وفي غمرة استعدادات المظفر قطز وأمراه للخروج لقتال المغول، جاءت الأخبار في مطلع سنة ٦٥٨ هـ بوصول هولاءكو وجنوده الى دمشق وحصاره لها بعد أخذه لمدينة حلب وقتله لأهلها وتخريبه لدورها ونهبه وأتباعه لأموالها ، وبعد حصار شديد لدمشق وقعت بأيدي المغول فأصابها من الخراب مثل ما أصاب حلب قبلها . (٢)

وفي ظل تلك التطورات العسكرية المتلاحقة تأكد المظفر قطز أن المغول عازمون على دخول الديار المصرية بعد أن تمهد ملكهم بالشام بالاستيلاء على حلب ودمشق ، فرأى أن يبادرهم قبل أن يبادروه ، فبرز اليهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه ، فخرج بعساكره بعد أن اجتمعت الكلمة عليه حتى انتهى الى الشام واستيقظ له عسكر المغول الذين تركهم قائد هم هولاءكو خان وعاد الى بلاده وعين عليهم أحد أمراه ويدعى (كتبغا نوبين) الذي أمر على مناجزة المظفر قطز ، فالتقى الجمعان على عين جالوت في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، فاقتتلوا قتالا عظيما ، فكانت النصره ولله الحمد للاسلام وأهله ، فهزم المغول وقتل قائد هم كتبغا نوبين وأسر جماعة منهم ، واتبعهم الجيش الاسلامي يقتلونهم في كل موضع ، وقاد فرق المطاردة العسكرية للمغول القائد الأمير بيبرس البندقدارى ، وساروا خلفهم حتى حلب (٣) ، ومنها

(١) أحمد سليمان : المغول والمماليك ٥٧ ، السيد الباز العريني : المغول ٢٦١ .

(٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ٢٠٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٢/١٣ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٣/١٣ - ٢٣٥ .

انطلقوا نحو مدينة دمشق فأخرجوا من كان فيها من المغول ، فعادت تلك المناطق تحت حكم المسلمين بعد أن استطاع الأمراء المماليك القضاء على النفوذ المغولي فيها وتحريرها من أيديهم .

وحاولت فلول المنهزمين من المغول إعادة تنظيم صفوفها لاحتواء الهزيمة التي حلت بهم في موقعة عين جالوت والثأر من العساكر الإسلامية ، فلما بلغ هولاكو خان " ما جرى على جيشه من المسلمين أرسل أعدادا كثيرة من الجنود المغول الذين كانوا في صحبته ليستعيدوا الشام من أيدي المسلمين ، فحيل بينهم وبين ما يشتهون ، فرجعوا خائبين خاسرين ، فقد نهض لهم الهزبر الكاسر ، والسيف الباتر ، المملك الظاهر بيبرس ، فقد م دمشق وأرسل العساكر في كل وجه لحفظ الثغور والمعاقل بالأسلحة ، فلم يقدر التتار على الدنو إليه ، ووجدوا الدولة قد تغيرت ، والسواعد قد شمرت ، وعناية الله بالشام وأهله قد حملت ورحمته بهم قد نزلت ، فعند ذلك نكمت شياطينهم على أعقابهم ، وكروا راجعين القهقري ، والحمد لله الذي بنعمته تتم ^(١)المالحات .

لقد كانت معركة عين جالوت هي أول صدام بين المغول والسلاطين المماليك ، وترتب عليه نتائج بالغة الأهمية على كل القوى السياسية والعسكرية ، ليس فقط في الشرق الإسلامي ، بل حتى في الغرب الأوروبي أيضا ، وتبددت مقولة " أن المغول قوم لا يهزمون " التي استغلها المغول كثيرا في اخافة خصومهم ، فيستسلمون لهم ويدخلون في طاعتهم ^(٢).

وبعد ذلك الانتصار العسكري أضحت سلطنة المماليك التي هيمنت على الخلافة العباسية بالديار المصرية والبلاد الشامية ، أقوى سلطة في البلاد الإسلامية

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/٢٣٦ .

(٢) أحمد سليمان : المغول والمماليك ص ٦٨ .

لمدة تزيد على القرنين من الزمان ، وفي المقابل تدعى أمر النصارى الذين ساندوا هولاكو في زحفه على البلاد الإسلامية ، وأظهروا ما تكنه صدورهم من عداوة للإسلام والمسلمين عندما احتل جيش المغول مدينتي حلب ودمشق ، وتبذل مشروع التحالف المغولي الصليبي ضد الإسلام بظهور القوة المملوكية الإسلامية الجديدة التي هزمت المغول في معركة عين جالوت ، ثم بذلت جهدها فيما بعد في تطهير البلاد الشامية من التواجد الصليبي ، وترتب أيضا على انتصار المسلمين في عين جالوت منع الخطر (١) عن الديار المصرية ،

وبعد إعلان قيام سلطنة المماليك بالديار المصرية والبلاد الشامية على يد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى سنة ٦٥٩ هـ ، بدأ في إصلاح أوضاع السلطنة داخليا والقضاء على المخالفين لسلطنته من كبار الأمراء المماليك ، فعمد إلى إخماد تلك الفتن ليتفرغ لمواجهة الخطر المغولي الذي استمر في تهديده للبلاد الشامية والديار المصرية ، ورأى أنه لا بد من كسر شوكة مغول فارس وإذلالهم ، والانتقام منهم دفاعا عن ديار الإسلام التي ما زالت تتعرض لهجمات متكررة على أيدي الجيوش المغولية التي رجعت إلى ما وراء نهر الفرات في تراجع مؤقت دون أن تفقد الأمل في العودة إلى الهجوم من جديد على ديار الإسلام كلما سنحت لها الفرصة لذلك . (٢)

(١) السيد العريني : المغول ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٣٩ ، علي حسن : تاريخ

المماليك البحرية ١٤١ .

استعداد الظاهر بيبرس لمواجهة المغول :

بدأ السلطان الظاهر بيبرس أولى خطواته في مواجهة مغول فارس بالتحالف مع مغول القفجاق (القبيلة الذهبية) الذي أعلن قائد هم الأمير بركة خان الدخول في الإسلام وتبعه أفراد قبيلته ، وقد أقدم الظاهر بيبرس على ذلك التحالف في محاولة منه لضرب تحالف مغول فارس الذين يقودهم هولاء كوخان مع النصاري .

وقد كان العداء لمغول فارس هو المحور الأساسي الذي دار حوله التحالف بين الطرفين : المماليك ، ومغول القبيلة الذهبية . وحافظ الظاهر بيبرس على العلاقات الودية بينه وبين مغول القبيلة الذهبية وبذلك أصبح التحالف مع مغول القفجاق يمثل ركنا تقليديا من أركان سياسة سلطنة المماليك بمصر والشام في ظل الخلافة العباسية ، وزادت بعد تلك المصاهرة قوة العلاقات بين الطرفين ، ومما يؤكد ذلك المكاتبات المتبادلة بينهما والهدايا التي حملتها وفود وُرسل أحدهم الطرفين إلى الطرف الآخر ، وقاد بركة خان عساكره لقتال هولاء كوخان بتوجيه من الظاهر بيبرس . (١)

أما مغول فارس فقد أدرك الظاهر بيبرس أن الصراع معهم لم ينته بانتصار عين جالوت ، وأن الحرب بين الجانبين سوف تستمر زمنا طويلا ، فاستعد من أجل ذلك الصراع ببناء قوة عسكرية ضخمة وصلت إلى حوالي أربعين ألف فارس ، واهتم بشراء الخيول وتربيتها لاستخدامها في حروبه ، وساعد تنظيم الظاهر بيبرس لعساكره

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٥٤/١٣ ، ٢٥٦ ، سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٢٦ - ٢٢٧ ، مصر في عصر المماليك البحرية

قد وم أعداد كبيرة من مغول القفجاق بعد اسلامهم ، فنالوا تشجيع الظاهر بيبرس وأحسن استقبالهم ، وأصبحوا من جملة العساكر السلطانية (١) ، وقد استمرت العلاقة الممتازة بين السلاطين المماليك وبين من جاء بعد الأمير بركة خان من زعماء مغول القفجاق . (٢)

وقبل أن يتوجه السلطان الظاهر بيبرس لقتال المغول بدأ بتنفيذ سياسته بتشديد الضغط على النصارى في بلاد الشام لتقليل دورهم في الصراع بينه وبين قادة مغول فارس ، وقام لأجل ذلك بخطوتين :

احدهما : ارسال الحملات العسكرية المتتابة ضد المراكز الصليبية في بلاد الشام .

والثانية : عقد اتفاقيات مع الدول الأوروبية لضمان حيادها ومنعها من ارسال المساعدات

العسكرية للصليبيين ، ولم يجد الظاهر بيبرس صعوبة في عقد تلك الاتفاقيات

لمرور البضائع التجارية عبر الموانئ المصرية ، وهي في طريقها الى أوروبا .

وسائل دفاعية :

وأتبع ذلك بتجهيز جبهات القتال للمعارك الحاسمة القادمة فجنّد عشائر القبائل العربية على حدود الفرات ومنحهم الهدايا والأموال وحثهم على قتال المغول ، وكلفهم بحراسة مناطق حدود الخلافة العباسية وسلطنة المماليك الشرقية مع العراق ، فتواصلت هجمات تلك القبائل العربية حتى وصلت أبواب بغداد ، وأمر الظاهر بيبرس باحراق المروج التي كان من عادة هولاء النزول فيها للترهة ، وأمر بيبرس بعمارة القلاع التي خربها المغول وزودها بالمؤن والذخيرة ، فأقام بذلك خطاً دفاعياً محمناً من شرق الأردن حتى حمص . (٣)

(١) أحمد سليمان : المغول والمماليك ٧٨ ، محمد دهمان : ولاية دمشق ٤٨ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٢٨ ، مصر في عصر المماليك

البحرية ٤٢ .

(٣) أحمد سليمان : المغول والمماليك ٧٩ - ٨٣ .

وأمر السلطان الظاهر بيبرس ببناء مناور في الجهة الشرقية المواجهة للمغول ، واتخذت مواقع على رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلا ، ويثار فيها الدخان نهسارا ، وانتشرت هذه المواقع في أقصى حدود دولته ، فضمن الظاهر بيبرس بذلك وصول أخبار تحركات المغول أولا بأول ، وصار ما يستجد منها على الفرات صباحا يصل الى قلعة الجبل مساء ، وما يحدث مساء يصل للقلعة السلطانية صباحا ، واهتم الظاهر بيبرس بتجديد القلاع و شحنها بالمؤن والسلاح حتى تتحمل الحصار لمدة عشر سنوات كي تظل شوكة في جانب المغول .

هذا فضلا عن اهتمام الظاهر بيبرس الذي كان لديه جهاز على درجة عالية من الكفاءة يقوم بجمع الأخبار عن هولاء كوخان وعساكره أولا بأول من مناطق مختلفة ، وما يؤكد قوة ذلك الجهاز العسكري أنه عندما أرسل هولاء كوجاسوسين من قبله الى القاهرة أسرع عيون ومصادر الظاهر بيبرس بإخباره باسميهما وصفاتهما ، فتم القبض عليهما بمجرد وصولهما الى دمياط ، ووجد بحوزتهما كتابا من هولاء كوالي أحد الأمراء المماليك في مصر يرتبته في عصيان الظاهر بيبرس . (١)

جهاد المستنصر بالله العباسي للمغول :

قاد الخليفة العباسي أحمد المستنصر بالله أول الحملات لجهاد المغول ، فبعد اتمام اجراءات مبايعته بالخلافة العباسية بالديار المصرية أراد أن يسترد ملك الخلافة بالعراق ، فطلب في سنة ٦٥٩ هـ من السلطان الظاهر بيبرس أن يجهزه الى بغداد ، فرتب له ما ينبغي من الجند والأعوان ، وسار السلطان معه حتى وصل الى دمشق ، فقد خرج الظاهر بيبرس للقضاء على عصيان بعض الأمراء المماليك والنواب

(١) محمد دهمان : ولاية دمشق في عهد المماليك ٥٦ - ٥٧ .

ببلاد الشام الذين أعلنوا العميان وخرجوا عن الطاعة . (١)

وبعد وصولهما دمشق جهز السلطان بيبرس الخليفة المستنصر بالله الى بغداد وانفق عليه وعلى من معه من الأجناد ، ثم سار الخليفة العباسي المستنصر بالله يرافقه صاحب الموصل ، وتقدم الخليفة نحو بلدة عانة (٢) ، فالتقى بأحد أفراد البيست العباسي وهو الأمير أحمد بن أبي علي القبي في سبعمائة من أهل تلك البلاد ، فجاء أحمد وبايع المستنصر بالله ودخل في طاعته فتسلم الخليفة منه بلدة عانة .

ثم توجه الخليفة المستنصر بالله الى هيت (٣) فحاصرها حتى دخلها ، وتقدم بجيشه حتى وصل الأنبار (٤) ، فلما وصل خبره الى أمير المغول قرابغا الذي استنابسه هولاء كو خان خرج لملاقاة الخليفة العباسي وقتاله ، والتقى الجانبان في الرابع من محرم سنة ٦٦٠ هـ ، وكانت الجولة الأولى لصالح الخليفة حيث انكسر جيش المغول

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٥/١٣ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء

١٦٩ / ٢٣ .

(٢) بلدة مشهورة تشرف على الفرات ، أقام الخليفة العباسي القائم بأمر الله بها

سنة كاملة بعيداً عن عاصمة ملكه بغداد بعد أن أخرجه منها البساسيري

سنة ٤٥١ هـ .

(٣) الحموي : معجم البلدان ٧٢/٤ ، و (القزويني : آثار البلاد

وأخبار العباد ٤١٨) .

(٤) سميت بذلك لأنها في هوة من الأرض ، وهي بلدة على الفرات من نواحي بغداد

ذات نخل كثير وخيرات واسعة .

(الحموي : معجم البلدان ٤٢٠/٥) .

(٤) مدينة على نهر الفرات في غرب بغداد بعشرة فراسخ ، جدد بناءها أبو العباس

السفاح أول خلفاء بني العباس ، وبنى بها قصورا ، وأقام بها الى أن مات .

(ياقوت الحموي : معجم البلدان ٢٥٧/١) .

ووقع معظمهم في نهر الفرات ، ثم لم يلبث أن خرج كمين من جيش المغول فأحاط بالخليفة المستنصر بالله ومن معه فقاتل الخليفة حتى قتل ، ونجا جماعة ممن كان معه ومنهم الأمير أحمد العباسي الذي بويع بالخلافة العباسية بعد مقتل المستنصر بالله الذي لم يعلم له خبر ولا وقف له على أثر ، فمن الناس من يقول أنه قتل تحت الليل فسي أثناء المعركة ، ومنهم من يقول أنه نجا بنفسه وهو مجروح مع طائفة من العرب فأقسام عند هم أياما ومات . (١)

ويظهر من هذه المحاولة التي قام بها الخليفة المستنصر بالله علو همته وحرصه على استعادة ملك الخلافة العباسية بالعراق ، فلم يكن حريصا على الجاه أو المنصب ولم يركن لحياة القصور بعد مبايعته بالخلافة بالديار المصرية ، فخرج بنفسه لقتال مغول فارس واستعادة البلاد الإسلامية التي وقعت تحت أيديهم وانقاذ أهل تلك البلاد من الظلم الذي نزل بهم على أيدي جيوش المغول .

أطماع المغول في فترة خلافة الحاكم بأمر الله :

لم تنقطع الأطماع المغولية باحتلال بلاد الشام ومصر بمقتل الخليفة العباسي المستنصر بالله ، فقد ظلت فكرة الغزو العسكري المغولي لبلاد الشام والوصول إلى الديار المصرية أمنية يسعى قادة المغول لتحقيقها منذ أن هزمت قواتهم على يد المماليك في موقعة عين جالوت ، ومنذ أن أسس هولاكو خان دولة مغول فارس لم يتوقف أبناؤه عن بذل المحاولات العديدة من أجل تحقيق تلك الغاية . (٢)

(١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ١١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٦/١٣
الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٧١/٢٣ ، المقرئ : الخطط المقرئية ٢٤٢/٢
ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ٢٠١ / ٧ ، ابن إياس : بدائع
الزهور ٣١٩ / ١ .

(٢) أحمد سليمان : المغول والمماليك في عهد بني قلاوون - المقدمة .

وقد وقف الخلفاء والسلاطين المماليك لتلك المحاولات المغولية بشدة ، وحزم ، بعد أن فوّضهم الخلفاء في تصريف أمور الخلافة العباسية لجيوش المغول التي كانت تهاجم المدن الاسلامية بأطراف الشام بين الحين والآخر ، ولخوف المغول من مواجهة العسكرية مع الجيوش الاسلامية فقد اعتمدوا على أسلوب الكرّ والفرّ ، فكانوا يستغلون خروج السلاطين المماليك لقتال الملبيين فيتوجهون الى مدن الاسلام فيحاصرونها ويعملون السيف في أهلها ، فاذا بلغهم تحرك العساكر الاسلامية لقتالهم جمعوا فلولهم وعادوا محملين بالغنائم الى المناطق التي قد موا منها هربا من مواجهة جيوش المسلمين التي خرجت لقتالهم وتأديبهم .

فمن ذلك أنه في خلافة الحاكم بأمر الله العباسي وصلت أخبار اعتداءات جيوش المغول على مدينة حمص في سنة ٦٧١ هـ ، فجهّز السلطان الظاهر بيبرس عسكريا كثيفا وأرسله الى ناحية الفرات لطرد المغول الذين أغاروا على بلدة البيرة^(١) وحاصروها ثم خرج بنفسه خلفهم ، فلما سمع المغول بقرب قدوم ذلك الجيش فروا قبل وصوله ، وأمر الظاهر بيبرس بعمارة ما خرب من بلدة البيرة وامتدادها بكل ما تحتاج اليه من عدد وآلات لمقاومة أي حصار قد يفرضه عليها المغول في المستقبل .

وقد كانت تلك الحملات العسكرية التي قادها الظاهر بيبرس محل تقدير الشعوب الاسلامية ، فقد أثنى الشعراء على شجاعة الظاهر بيبرس واقتحامه لنهر الفرات في مطاردته لفلول المغول ، فقال محمود الكاتب مادحا السلطان بيبرس :
 خضت الفرات بعسكر أفضى به . . . موج الفرات كما أتى الآسار
 حملتك أمواج الفرات ومن رأى . . . بحرا سواك تقله الأنهار
 وتقطعت فرقا ولم يك طودها . . . اذ ذاك الآ جيشك الجرار^(٢)

(١) بلدة بين حلب والثغور الرومية .

() ياقوت الحموي : معجم البلدان ٥٢٦/١ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٧٨/١٣ - ٢٧٩ ، العيني : عقد الجمان ١٥٧/١ ، ١٦٢

وفي سنة ٦٧٤ هـ أعاد المغول الكرة في حصار البيرة ، فنزلوا عليها في ثلاثين ألف مقاتل ، خمسة عشر ألفا من المغول ، وخمسة عشر ألفا من الروم ، يقودهم ابغا خان فلما علم الظاهر بيبرس بأمرهم ، أمر العساكر بالاستعداد ، وانفق فيهم ستمائة ألف دينار ، ثم ركب سريعا قاصدا البيرة ، وفي أثناء الطريق بلغه رحيل المغول ، فتوجه الى دمشق . (١)

ومن خلال هذه المحاولة يظهر قوة التحالف بين مغول فارس والصليبيين ضد الدولة الاسلامية التي واجهت عداء هاتين القوتين من خلال الحملات العسكرية المشتركة بينهما ضد بلاد الاسلام .

وبعد وفاة الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦ هـ ، تولى السلطنة ابنه الملك السعيد بعهد من أبيه ، وقد اختلفت كلمة الأمراء المماليك في سلطنته بسبب انشغاله عن السلطنة فعزلوه من السلطة وولوا مكانه في سنة ٦٧٨ هـ أخاه العادل سلامش وهو ابن سبع سنين ، ثم اتفقت كلمة الأمراء على خلعه أيضا وتولية السلطنة للمنصور قلاوون ، غير أن ذلك التصرف لم يقبل به بعض الأمراء بالبلاد الشامية خاصة الأمير سنقر الأشقر الذي كان يرى أنه أولى بالسلطنة من المنصور قلاوون ، فأرسل المنصور قلاوون جيشا كثيفا لقتال سنقر ومن معه من العساكر الشامية وذلك في سنة ٦٧٩ هـ .

وحاول المغول استغلال تلك الفتنة بين أمراء المسلمين لصالحهم ، فقد مروا الى حلب عندما علموا بتفرق الكلمة فيما بينهم فدخلوها ، فقتلوا خلقا كثيرا من أهلها ونهبوا شيئا كثيرا ، وظنوا أن عساكر سنقر ستكون معهم ضد السلطان المنصور قلاوون فوجدوا الأمر بخلاف ذلك ، فقد كتب المنصور الى الأمير سنقر يخبره أن المغول قد

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٨٤/١٣ ، الدوادار : زبدة الفكرة ١٢٧ .

أقبلوا على المسلمين والمملحة أن نتفق عليهم لئلا يهلك المسلمون بيننا وبينهم ،
فانهم اذا ملكوا البلاد لم يدعوا منا أحدا ، فكتب اليه سنقر بالسمع والطاعة ، وبرز
بجيشه خارج دمشق ليكون على الأهبة متى طُلبَ أجاب لقتال المغول ، ثم جاءت الأخبار
برجوع المغول عن حلب الى بلادهم لما بلغهم من اتفاق كلمة المسلمين ، فرح المسلمون
بذلك ، وعاد المنصور قلاوون الى مصر بعد أن خرج بجيشه في محاولة منه لتخفيف
الوطأة عن أهل الشام . (١)

لقد كان لهذه الفتنة الداخلية التي تعرضت لها الخلافة العباسية في المدة
الواقعة من وفاة الظاهر بيبرس وقيام المنصور قلاوون في السلطنة أثرها في تشجيع مغول
فارس على معاودة تهديد الدولة الإسلامية ، ولكن السلطان المنصور أثبت أنه لا يقل
عن سلفيه المظفر قطز والظاهر بيبرس في همته لقتال المغول مما جعلهم يسرعون في
مغادرة حلب محملين كعادتهم بالأسلاب والأنهاب . (٢)

ثم لم يلبث أن أعاد المغول في سنة ٦٨٠ هـ الاستعدادات للهجوم على حلب
فلما بلغ السلطان المنصور قلاوون ذلك استعد لقتالهم وخرج بجيشه حتى وصل الى حمص ،
واجتمعت عليه العساكر التي طلبها نجدة من أمراء ونواب الشام ، وتقدمت جموع
المغول في مائة ألف أو يزيدون ، فالتقى الجمعان قرب حمص ، فاستظهر المغول أول
النهار وأوقعوا بالمسلمين مقتلة عظيمة ، ثم أعاد السلطان ومن معه من الأمراء بالكرة على
المغول فكسروهم بحول الله وقوته وأنقسم عسكر المغول بعد مقتل قائد هــ

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٨/١٣ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ١ / ٥٩٠ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٥٩/٧ ، العيني : عقد الجمان
٢٢٣/١ ، ٢٢٥ .

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٤٣ - ٤٤ ، أحمد سليمان :
المغول والمماليك ١٣ .

منكوتمر بن هولاء كوالى قسامين ، فأرسل المنصور قلاوون فى آثارهم من يتبعهم يقتل منهم ويأسر ، وكانوا فى أسوأ حال وأتعسه يُتخطفون من كل جانب ، حتى وصلوا الى نهر الفرات فغرق أكثرهم ، ومن سلم منهم طُرِدَ عن البلاد حتى أراح الله منهم الناس . (١)

وعاد السلطان قلاوون بعد هذه الموقعة الى الديار المصرية ، وأسرى المغول تسير بين يديه ، بعد أن أوقع بهم هزيمة لا تقل فى أهميتها عن الهزيمة السابقة للمغول فى عين جالوت ، وكان الفضل فى ذلك الانتصار - بعد الله عز وجل - للقوة العسكرية الضاربة التى أنشأها الظاهر بيبرس أثناء سلطنته التى دامت قرابة سبعة عشر عاماً (٢) ، فقد سخر السلطان قلاوون تلك القوة العسكرية لحماية دولة الاسلام من الطامعين فيها .

وبعد موقعة حمص هلك خان المغول ابغا بن هولاء كوا بعد سماعه بأخبار انتصارات جيش المسلمين على أخيه منكوتمر ، حيث ساءه ما جرى عليهم ومات غمًا وحرنا ، وتولى ملك المغول من بعده ولده أحمد . (٣)

وبولاية أحمد بن ابغا ملك المغول حدث ما يُبشّر بتحسّن العلاقات بين الخلافة العباسية والسلاطين المماليك من جهة ، ومغول فارس من جهة ثانية ، فقد كان أحمد قبل ولايته يعتنق الديانة الفهرانية، ثم أسلم وغيّر اسمه من (تكودار) الى أحمد وذلك فى سنة ٦٨١ هـ ، وأرسل بعد ولايته الى الملك المنصور قلاوون كتابا يعلن فيه رغبته فى خدمة الاسلام والذود عنه ، والاحتفاظ بالعلاقات الطيبة مع جيرانه المسلمين ،

-
- (١) ابن حبيب : تذكرة النبىه ٦٣/١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣١٢/١٣ المقريزى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٣٠١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٥١/١ .
- (٢) أحمد سليمان : المغول والمماليك ١٩ .
- (٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٣١٤/١٣ ، ابن عبد الظاهر : السروض الزاهر ١٦ .

ومما جاء في ذلك الكتاب قوله : فقد وجب التمسك بالعروة الوثقى ، و سلوك الطريق المثلى ، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد وبذل الاخلاص ، بحيث تعمر تلك الممالك وتيك البلاد ، وتسكن الفتن النائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهوان

وردّ السلطان المنصور قلاوون عليه برسالة مشابهة مرحبا باتحاد كلمة المسلمين ، وقطع أسباب العداوة والحروب بينهما بقوله : لأنه لو كُف العداوان من هنالك ، وخُلي لملوك الاسلام مآلهم من ممالك ، سكنت الدماء ، وحُقنت الدماء (١)

ولكن اعتناق أحمد تكودار للاسلام ومحاولته لنشره من خلال بناء المساجد والمدارس ، وجهوده في تحويل قبائل المغول الى الدخول في الاسلام ، أثارت النقمة عليه من الأمراء المغول بزعامة ابن أخيه أرغون بن بغا بن هولاكو خان ، ودبروا عليه مؤامرة إنتهت بقتله في سنة ٦٨٣ هـ ، وتولى أرغون مكانه في حكم مغول فارس ، وبادت دولة أحمد ، وقامت دولة أرغون . (٢)

وبتسلم السلطان أرغون ملك المغول بدأ في اضهاد المسلمين من أفراد قبيلته ، و طردهم من وظائفهم في الدولة المغولية ، وأعلن أرغون الذي اعتنق الديانة البوذية معاداته للاسلام ومناصرة النصارى ، حتى أن احدى زوجاته التي كانت مسيحية الديانة استغلت زوجها في تحريضه ضد الاسلام والمسلمين ، فبلغ سوء العلاقة بين الخلافة والسلطنة المملوكية والمغول مبلغا خطيرا مرة أخرى بعد أن سار أرغون على نفس سياسة

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٤٥ ، على حسن : تاريخ

المماليك البحرية ١٤٢ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٢١/١٣ ، المقرئ : السلوك

ج ١ ق ٣ ص ٧١٤ .

من سبقه من حكام مغول فارس ، وأعلن عن عزمه على إستيلاء بلاد الشام وبيت المقدس ، وأدرك أنه لابد لتحقيق ذلك من الاستعانة بالقوى الأوروبية النصرانية للقيام بعمل مشترك ضد السلاطين المماليك بوصفهم حماة للإسلام والمسلمين ، وللمثأر من المماليك الذين ألحقوا الهزائم المنكرة بمن سبقه من زعماء المغول ، ولكن أرغسون فشل في السفارات التي أرسلها الى القوى النصرانية الأوروبية ، وهلك قبل أن يحقق ما سعى اليه ، وكان هلاكه في سنة ٦٩٠ هـ .

بعد وفاة أرغون عيّن قادة المغول أخاه (جيخا تو) خلفا له ، ولم يكن جيخا تو مؤهلا للحكم لضعفه وولعه باللهو ، مع تدهور أحوال الدولة المغولية الاقتصادية ، فكانت خزائن الدولة خالية ، وحاول أعوان جيخا تو اصلاح أوضاع الدولة ، ولكن دون جدوى فقد ظل حكم جيخا تو مهزوزا ضعيفا لسوء سيرته ، فلم يستقر له الملك ، ولم يلبث أن قتل على أيدي أتباعه في سنة ٦٩٤ هـ .

ثم حل محله في ملك المغول السلطان بايدو (بيدو) وسار في مدة حكمه القصيرة على نفس سياسة من سبقه في مناصرة النصارى ضد المسلمين ، وبعد ثمانية أشهر من حكمه ثار عليه غازان وطارده حتى قتله . (١)

الخلافة العباسية والقائد المغولي غازان :

تولى الملك غازان (قازان) ابن أرغون ملك مغول فارس ، وكان قد أسلم قبل توليه بأربعة أشهر ، وبإسلامه دخل زعماء المغول وأكثرهم في الإسلام ، ونشر الذهب والفضة على رؤوس الناس يوم إسلامه وتسمى بمحمود ، وخرّب كنائس كثيرة ، وضرب على أتباع الديانة النصرانية الجزية ، وردّ مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد . (٢)

- (١) أحمد سليمان : المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون ٢٧ ، ٣٣ ، ٣٥ ، السيد الباز العربي : المغول ٣٠٣ - ٣٠٤ ، سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٤٥ .
- (٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ / ٣٦٠ ، المقرئ : السلوك ج ٤ ق ٣ ص ٨٥٤ .

ونتج عن اسلام غازان انتصار الطائفة المسلمة من مغول فارس انتصارا ساحقا على الطوائف النصرانية التي وجدت الدعم والتأييد من كل ملوك المغول قبل غازان ، يضاف الى ذلك ازدياد عدد من يدخل في الدين الاسلامي من أفراد المغول ، فبعد اسلام غازان وتوليه الملك أعلن ما يقارب ثمانين ألف مغولي من كبار أتباعه دخولهم في الاسلام ، فأصبح المسلمون هم الأقوى نفوذا في الدولة بعد أن جعل غازان الاسلام هو الدين الرسمي للدولة ، وشروعه في اتخاذ التدابير اللازمة التي تتفق مع الوضع الجديد في دولته . (١)

وكان من المتوقع بعد اسلام غازان أن تتغير العلاقات مع الخلافة العباسية والسلطين المماليك الى الأفضل ، غير أن اسلامه لم يصرفه عن مواصلة سياسة أسلافه ، لأنه لم ينس أنه من سلالة جنكيز خان ، فسعى لاعادة وحدة الدولة المغولية من خلال التوسع على حساب أراضي دولة الخلافة العباسية في البلاد الشامية . (٢)

وقد ساعده على المسارعة في التقدم نحو بلاد الشام أحد الأمراء المماليك ويدعى قفجق الذي هرب من ظلم نائب السلطان بالبلاد الشامية منكوتر ، حيث أخذ قفجق عياله وماله وخرج في سنة ٦٩٧ هـ من دمشق وأقام عند غازان ، وأخذ يحسن له الزحف على بلاد السلطان المملوكي لاجين ، وكشف له أحوال البلاد ، وأنه لا يوجد من يقف في طريقه أو يمنعه من أخذها ، فجمع غازان من العساكر المغولية ما يقارب مائتي ألف مقاتل مستغلا صغرى السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون ، واختلاف كلمة كبار الأمراء المماليك بالديار المصرية . (٣)

-
- (١) أحمد سليمان : المغول والمماليك ٣٦ ، محمد حمادة : دراسة وثقوية للتاريخ الاسلامي ٣٤٨ .
 (٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٤٦ ، على حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٤٥ .
 (٣) المقرئى : السلوك ج ٤ ق ٣ ص ٨٥٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١/٣٩٧ ، ٤٠٣ .

وسار الأمراء الفارين من نائب دمشق منكوتمر في مقدمة جيش المنسول
رد الجميل الخان غازان الذي أكرمهم وأحسن ضيافتهم ، وأغدق عليهم الأموال والهدايا
بعد وصولهم اليه ، وفي مدة اقامتهم عنده .

وبعد أن أكمل غازان استعداداته للتوجه لبلاد الشام سار بجيشه قاصدا
حلب ، وخاف الناس من وصوله خوفا شديدا ، ورحلوا الى دمشق ، ولما تواترت الأخبار
بوصول القائد غازان الى أطراف البلاد الشامية خرج السلطان الناصر محمد قاصدا الشام
فمرّ بغزة قبل وصوله دمشق ، وفرح أهل دمشق بقدمه فخرجوا للقاءه وزينوا البلد
وأكثروا من الدعاء له في ذلك الوقت العصيب الذي تمر به البلاد الاسلامية .

وفي سنة ٦٩٩ هـ خرج السلطان الناصر محمد لملاقاة غازان وجيشه ، فالتقى
الجمعان عند وادي الخزندار فهزم جيش المسلمين ، وولى السلطان هاربا ، وقتل جماعة
من الأمراء ومن العساكر خلق كثير ، وتراجعت العساكر المصرية على أعقابها حتى
اجتازت دمشق في طريقها الى الديار المصرية .

وأصبح أهل دمشق في خوف شديد على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، فاجتمع
أعيانها بحضور شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية فاتفقوا على المسير الى غازان لملاقاته
قبل دخوله دمشق وأخذ الأمان منه لأهل دمشق ، فلما اجتمعوا به كلمه شيخ الاسلام
كلما قويا شديدا فيه مصلحة عظيمة ، عاد نفعها على المسلمين حيث أصدر غازان أمره
باعطاء أهل دمشق الأمان وقُرِيءَ على الناس ذلك العهد ليسكن روعهم .

ولكن الجيوش المغولية نقضت ذلك الأمان بما أقدمت عليه من أعمال السلب
والنهب في أطراف مدينة دمشق بعد أن عجزوا عن أخذ قلعتها الحصينة ، ونسزل
بالمسلمين البلاء الشديد من جراء أعمال القتل والسبي والتخريب ، بالإضافة الى
المصادرات والعقوبات التي أصابت أهل دمشق بالليل والنهار حتى أعلن غازان عزمه

على الرحيل الى العراق بعد أن ترك له نوابا ببلاد الشام في مقدمتهم الأمير قفجق مع ستين ألف من الجنود المغولية ، ونادى قبل رحيله أنه سوف يعود الى دمشق في زمن الخريف ليدخل الى الديار المصرية ، وحمل غازان عند رحيله ما يقارب أربعمئة ألف دينار ، فضلا عن الأموال التي أخذها الأمراء المغول من أهل دمشق . (١)

وقد كافأ غازان الأمراء المماليك الذين فرّوا اليه واشتركوا معه ضد السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتعيينهم نوابا له في المدن الشامية تحت قيادة القائد المغولي قتلوشاه ، وقام الأمير قفجق بتحليف القضاة والأعيان بدمشق على المناصب للسلطنة المحمودية - غازان - فحلفوا له على ذلك خوفا منه .

وبعد عودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى الديار المصرية شرع منذ وصوله في اعداد جيشه من جديد ، وبدأ بجمع الأموال من التجار والأعيان والعامّة ، حيث فرض عليهم دفع مبالغ لخزانة الدولة تتراوح ما بين عشرة دنانير ومائة دينار ، فلما اجتمعت عنده الأموال أنفقها في شراء الخيول والرماح والسيوف ، ثم خرج الناصر محمد في قوة عسكرية قاصدا دمشق ، وفي طريقه اليها خرج الأمير قفجق للقاءه وطلب العفو منه فعفا عنه ، وسارت العساكر السلطانية حتى وصلت الى الساحل ثم رجعت الى الديار المصرية لكثرة الأمطار والأحوال أثناء الطريق وتعدّد السير معها الى بلاد الشام . (٢)

(١) بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ١٥٦ - ١٥٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية

١٤/٨ - ١١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٠٥/١ - ٤٠٦ ، ابن حبيب : تذكرة

النبية ٢٢٤/٢ .

وانظر: أحمد سليمان : المغول والمماليك ٣٨ ، محمد دهمان : ولاية

دمشق ١٤٣ ، سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٤٦ ، على حسن :

تاريخ المماليك البحرية ١٤٠ .

(٢) المنصوري : التحفة الملوكية ١٦٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٤/١٥ .

أما دمشق فقد كانت مضطربة الأحوال بعد أن وصل إلى أهلها أنباء عن قصد المغول لبلاد الشام من جديد ، وأنهم عازمون في هذه المرة أن يدخلوا مصر ، فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفا على ضعفهم ، وطاشت عقولهم وألبابهم ، وشرع الناس في الهرب إلى بلاد مصر وغيرها .

وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أثر بالغ في تثبيت أهل الشام وبقائهم فيها ، فقد جلس رحمه الله بمجلسه بالجامع وحرّض الناس على القتال ، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك ، ونهى عن الإسراع في الفرار ، ورغب في انفاق الأموال في الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم ، وذكر لهم أن ما ينفق في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيرا ، وأوجب جهاد المغول حتما في هذه الكرة ، وتابع المجالس في ذلك .

ولم يقف شيخ الإسلام عند ذلك ، فعندما تأخر وصول السلطان الناصر محمد ابن قلاوون طلب منه الأمراء أن يسافر إلى مصر يستحث السلطان على المجيء إلى البلاد الشامية لحمايتها من محاولة غازان لاحتلالها ، واستحثهم شيخ الإسلام على تجهيز العساكر إلى الشام إن كان لهم به حاجة ، وقال لهم فيما قال : إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمائته أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن ، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام بعد أن قال شيخ الإسلام ابن تيمية للسلطان الناصر وأعوانه : " لو قدر انكم لستم حكّام الشام ولا ملوكه ، واستنصركم أهله ، وجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكّامه وسلاطينه ، وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم ؟ ... " (١)

وأقام شيخ الإسلام ابن تيمية بالديار المصرية ثمانية أيام ، ولم يزل بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون وأعوانه يحثهم على الخروج إلى البلاد الشامية لقتال المغول حتى أجابوه إلى ما طلبه منهم .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤/١٧ ، المقرئ : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٧ .

وفي غمرة استعدادات العساكر المصرية للسفر الى البلاد الشامية ، حاول غازان الحصول على مساعدات من بعض الدول الأوروبية ، فقد أرسل رسله الى ملكسبي انجلترا ، وفرنسا ، والى حاكم قبرص ، يناشدهم مؤازرته ضد السلطنة المملوكية ، غير أن هذه السفارات رجعت بغير نتيجة ، حيث لم تنفذ تلك الدول النصرانية الاتفاقيات التي تم بينهم وبين غازان بالهجوم المشترك على أراضي الخلافة العباسية في وقت واحد . ونتيجة لفشل تلك المحاولة انتقل غازان الى مهادنة السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون ، فأرسل بعثة مغولية في سنة ٧٠٠ هـ تحمل رسالة يطلب فيها الصلح ، مع التهديد بالحرب اذا حاول السلطان استعادة نفوذه في نواحي حلب ونهر الفرات ، فردّ الناصر على غازان بكتاب عاب عليه سوء سلوكه تجاه المسلمين في دمشق وغيرها ، وأكد له استعداداته لعقد الصلح اذا أثبت غازان حسن نيته وعدل عن سياسته العدائية تجاه الدولة الاسلامية ، ولكن هذه المراسلات لم تخفف من حدة الخلاف بين الطرفين ، فعاد المغول يهددون البلاد الشامية من جديد . (١)

وأخذ القان غازان يخطط من جديد لحملة عسكرية كبيرة على البلاد الشامية وقويت الأخبار بعزم المغول على دخول بلاد الشام فانزعج أهلها لذلك ، ولتأخر مجيء العساكر المصرية حتى تزايد خوف الناس ، وارتحل كثير منهم ، ولم يسكن أهل حلب وحماة (٢) ويطمئنوا الا بعد وصول طلائع العساكر المصرية بقيادة بعض الأمراء المماليك ، أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فتأخر ببقية الجيش .

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٤٧ ، أحمد سليمان : المغول والمماليك ٥٥ .

(٢) مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات ، واسعة الرقعة ، حفلة الأسواق ، فتحها أبو عبيدة عامر بن الجراح صلحا سنة ١٧ هـ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما .

(ياقوت الحموي : معجم البلدان ٢/٢٠٠) .

وفي تلك الأثناء اهتم شيخ الاسلام ابن تيمية بجمع كلمة الأمراء والنواب بحمص ، وحماة ، وحلب ، استعداد الوصول السلطان الناصر محمد الذي يرافقه الخليفة العباسي المستكفي بالله ، وكان شيخ الاسلام يحلّف الأمراء جميعا على مقاتلة العدو ، وعندما تردد بعض الناس في قتال غازان وجنده ، سألوا شيخ الاسلام عن قتالهم لأنهم يظهرون الاسلام وليسوا بغاة على الامام لأنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه ؟ فقال الشيخ رحمه الله في جوابه على ذلك السؤال : " وهؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية (رضي الله عنهما) ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما . (المغول) يزعمون أنهم أحق باقامة الحق من المسلمين ، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم ، وهم (المغول) متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة " ، فتفطن العلماء والناس لذلك ، وكان شيخ الاسلام يقول للناس : اذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني ، فشجع الناس في قتال المغول وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد . (١)

المستكفي بالله سليمان وأطماع قائد المغول غازان :

وبعد وصول السلطان الناصر محمد بن قلاوون اجتمعت العساكر المصرية والشامية لقتال جيوش المغول ، وأخذ شيخ الاسلام ابن تيمية يحرض السلطان والأمراء والعساكر على القتال ، ويبشرهم بنصر الله ، وأفتى الناس بالفطرة مدة قتالهم ، وأفطر هو أيضا ، وكان يدور على الأمراء والأجناد فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن افطارهم لينتقوا على القتال أفضل ، فيأكل الناس ، وكان يستشهد بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم في عام الفتح . (٢)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٥/١٤ ، المقرئ : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣١ .

(٢) ابن تيمية : الرسالة القبرصية ص ١٤ .

وفي ٢ رمضان سنة ٧٠٢ هـ دارت رحى المعركة والتحم الجيشان ، وجرت
خطوب عظيمة في تلك الموقعة ظهر فيها صدق العزم على قتال أعداء الدين ، واستظهر
المسلمون على المغول في نهار ذلك اليوم ، فلما جاء الليل أحساط بهم
المسلمون يحرسونهم من الهرب ويرمونهم عن قوس واحدة الى وقت الفجر ، فقتل منهم
ما لا يعلم عدده إلا الله عز وجل ، وجعلوا يجيئون بهم في الحبال فتضرب أعناقهم ،
وكانوا يتساقطون في الأودية والمهالك ، وغرق جماعة منهم أثناء رجوعهم هاربين في
نهر الفرات بسبب الظلام ، ومن حاول الهرب منهم سارت خلفه الأجناد الإسلامية ،
فمنهم من قتل ، ومنهم من أسر ، ومن سلم من ذلك هلك في الطرقات من شدة الجوع
والعطش ، وفي وصف حالهم قال أحد شعراء الاسلام :

مشوا متساقطين الأعداء فيهم . . . لأرجلهم برؤوسهم عشار

إذا فاتوا السيوف تناولتهم . . . بأسياف من العرش القفار (١)

وكانت هزيمة المغول بهذه الموقعة في مرج الصفر من الأسباب التي ساعدت على
انحسار المغول وتراجعهم الى العراق ، وقد أدرك السلطان الناصر محمد ومن معه
أهمية تلك الموقعة ، وما يترتب على هزيمة المسلمين فيها من ضياع البلاد الشامية
وتهديد مركز الخلافة العباسية بالديار المصرية ، وتسلط غازان وجنوده على
لمسلمين وديارهم في ظل أطماعه التي لا حدود لها .

(١) بيجرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ٣٧٥ ، ابن كثير : البداية

والنهاية ٢٧/١٤ - ٢٨ ، المقرئزي : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٢ ، ابن حبيب :

تذكرة النبيه ٢٤٧/١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤١٤/١ ، وانظر:

أحمد سليمان : المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون ٥٨ ،

محمد دهمان : ولاية دمشق ١٣١ .

وبعد هذا الانتصار كتب السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى القان غازان يطلب منه الجلاء عن بلاد العراق فوراً لاعادتها الى حكم الخلافة العباسية ، وخييره بين الدخول الى خراسان سريعاً أو الخروج عن العراق سريعاً . . . (١)

وأحسن غازان بذل الهزيمة على الرغم من أنه لم يشترك في المعركة بل ظل يرقب نتائجها من بعيد خشية من استغلال أعدائه مغول القبيلة الذهبية غيابته في الهجوم على بلاده ، يضاف الى ذلك وفاته بعد قليل من أثر هزيمة جنده في مرج الصفر ، فقد أصيب بنزيف حتى مات بغيظه وهو يعد لحملة جديدة لقتال المسلمين والثأر من هزيمته بمرج الصفر . (٢)

الخلافة العباسية وأطماع خدائندا المغولي :

في سنة ٧٠٣ هـ تولى الحكم في دولة مغول فارس بعد وفاة غازان أخوه خرابندا (خدائندا) ، فبادر الى مراسلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون لاعادة العلاقات الودية بين الطرفين ، ولكن نظراً لخدائندا الى الخلافة العباسية ولزعامة السلاطين المماليك لم تلبث أن تغيرت خاصة بعد اعتناقه للدين الاسلامي وتركه للديانة النصرانية ، وكان اعتناقه للمذهب الشيعي من الأسباب التي زادت من حنقه على الاسلام وأهل السنة بالديار المصرية والبلاد الشامية ، فعاد خدائندا للسير على نفس سياسة أسلافه زعماء مغول فارس العدائية ضد الخلافة العباسية والسلاطين المماليك ، وحاول خدائندا التحالف مع ملوك الغرب النصراني رغم علمه بعدم جدوى ذلك التحالف . (٣)

-
- (١) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٤٨ ، محمد دهمان : ولاية دمشق ١٣٤٠
 (٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٤٨ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٦٠ ، المنصوري : التحفة الملوكية ١٧٤ ، ويذكر ابن كثير وابن اياس أنه مات مسموماً ٣١/١٤ ، ٤١٨/١ .
 (٣) علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٦١ ، أحمد سليمان : المغول والمماليك ٦٢

يضاف الى ذلك فرار اثنين من كبار أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون

الى أولجاتيو خدا بندا ، فلما وصلا اليه قللا من هيبة دولة الخلافة العباسية في نظره ،
وحسنا له غزو بلاد الشام، فوجه خدا بندا عدة حملات عسكرية الى المدن الشامية في
خلافة المستكفي بالله سليمان العباسي ومنها :

في سنة ٧٠٧ هـ جاءت الأخبار بأن المغول قد تحركوا نحو حلب ، فلما تحقق السلطان
الناصر محمد بن قلاوون من ذلك ، أرسل جماعة من الأمراء ليتوجهوا الى حلب و يقيموا
بها للدفاع عنها ، غير أن المغول لم يتمكنوا من تحقيق ما قدموا لأجله ورجعوا الى
بلادهم بعد أن دبّت الخلافات فيما بينهم . (١)

وفي سنة ٧١١ هـ هاجمت جيوش المغول بأمر من خدا بندا أطراف البلاد الشامية واحتلت
مدينة الرحبة (٢) ، ثم انسحبت عنها سريعا عندما علمت باستعدادات العساكر
السلطانية التي خرجت لقتالها ، وعن ذلك الاستعداد والتيقظ من السلطان الناصر
محمد ، يقول المنصوري : " ... فله در هذا الاحتفال الذي يحفظ الثغور والحصون
ويتيقظ اذا غفت العيون ... " . (٣)

وفي سنة ٧١٢ هـ حضر رسول نائب حلب وأخبر بأن جيوش المغول قد تحركت على البلاد
الشامية بقيادة خدا بندا بن أرغون ، فلما تحقق الناصر محمد من ذلك خرج بنفسه
قاصدا حلب ، فلما وصل الى غزة جاءت الأخبار بأن المغول تسامعوا بمجيء السلطان الناصر محمد
فخافوا من لقائه ورحلوا عن البلاد . (٤)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٤٠٦/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٢٠/١ .
(٢) قرية على بعد مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج اذا أرادوا السفر الى مكة .
(الحموي : معجم البلدان ٣/٢٢) .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٦٥/١٤ ، المنصوري : التحفة الملوكية ٢٣٥ .
(٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٤٥/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٦٩ / ١٤
ابن اياس : بدائع الزهور ٤٤٢/١ .

وحاول خدا بندا في سنة ٧١٦ هـ منازعة السلطان الناصر محمد بن قلاوون في شرف السيادة على مكة المشرفة ، فعند ما أعلن أمير مكة حميضة بن أبي نمي الحسيني الملقب بعز الدين ، مخالفة الناصر محمد وقطع الخطبة باسمه في مكة ، أرسل السلطان الناصر محمد حملة عسكرية لتأديب حميضة الذي هرب الى فارس سنة ٧١٦ هـ ، وعرض على خدا بندا اقامة الخطبة له بمكة في مقابل مساعدته عسكرياً ضد الناصر محمد بن قلاوون ، فجهز خدا بندا فرقة عسكرية من الجيش المغولي تقدر بأربعة آلاف فارس لمساعدة الشريف حميضة ، ومن جهة ثانية أخذ في الاستعداد للهجوم على البلاد الشامية ليضمن تشتيت قوات السلطان الناصر محمد في القتال على أكثر من جبهة عسكرية ، ولكن وفاة الملك خدا بندا حالت دون تحقيق تلك الرغبة ، وعاد حميضة الى مكة خائباً وفي صحبته أمير من كبار رافضة المغول ويدعى أبو طالب الدغندي ، جمع لحميضة أموالاً كثيرة ليقيم بها الرفض في بلاد الحجاز . (١)

وعند وفاة خدا بندا بن أرغون وصلت العلاقات بين الخلافة العباسية التي يدبر أمرها السلطان الناصر محمد ودولة مغول فارس الى درجة سيئة في ظل أطماع خدا بندا في الاستيلاء على البلاد الشامية والقضاء على الخلافة العباسية وعلى نفوذ السلاطين المماليك من خلال محاولة اسقاط الخلافة العباسية بالديار المصرية . (٢)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٧٩/١٤ - ٨٠ ، المقرئزي : السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٤٧ ،

عمر بن فهد : اتحاف الوري بأخبار أم القرى ١٥٥/٣ ، محمد الفاسي : العقود الثمين ٢٣٢/٤ ترجمة رقم ١٠٨٣ .

(٢) علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٦٢ ، أحمد سليمان : المغول والمماليك ٧٣ .

ثم تولى ملك العراق وخراسان وعراق العجم والروم وأذربيجان والبلاد الأرمينية وديار بكر بعد وفاة خدابندا ابنه أبو سعيد ، وفي ولايته تحسنت العلاقات بين دولسة الخلافة ومغول فارس ، حيث عقدت هدنة بين الطرفين ، فقد سعى أبو سعيد في الصلح مع الخليفة العباسي والسلطان الناصر محمد بن قلاوون نتيجة للأوضاع السيئة داخل دولسة مغول فارس بعد أن اشتدت الخلافات بين كبار الأمراء المغول وأبي سعيد ، وأصبح السلطان المملوكي يخاطب ملك المغول من موقف القوة بعد أن توافدت الرسل الى القاهرة تخطب ود السلطان الناصر محمد ، حتى عقد ذلك الصلح الذي كان نقطة تحول كبرى في تاريخ العلاقات بين الخلافة العباسية وسلطنة المماليك بالديار المصرية من جهة ، ومغول فارس من جهة أخرى ، وأخذت الرغبة في التفاهم تغلب على العلاقات بين الطرفين . (١)

وقد تم في ذلك الصلح بين الطرفين الاتفاق على الشروط التي قدمها أبو سعيد وهي : عدم دخول الفداوية (٢) الى بلاد أبي سعيد ، وأن من يذهب من الديار المصرية الى فارس لا يطلبه السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والمقصود بذلك الأمراء المماليك الذين لجأوا الى بلاد أبي سعيد الذين حاول السلطان المملوكي التخلص منهم بالتعاون مع الفداوية ، وأن من يفد الى مصر من أمراء المغول لا يعود الى فارس إلا برضاه ، وأن يكف السلطان الناصر محمد عن ارسال العرب والتركمان لشن الغارات على الأراضي الخاضعة لمغول فارس ، وأن تكون الطرق بين الدولتين مفتوحة ، فتسير تجارة كل دولة الى أراضي

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٤٩٠ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٦٣ ، شفيق جاسر : محاولات التحالف بين المغول والمليبيين في القرنين السابع والثامن الهجريين - مجلة الجامعة الاسلامية - العدد ٧٥ ، ٧٦ ، سنة ١٤٠٧ هـ ص ١٣٢ .

(٢) الفداوية : كلمة تطلق على طوائف من الاسماعيلية بنواحي فارس ، وكانوا يستغلون في تنفيذ بعض الأعمال التي يخاطرون فيها بأنفسهم مقابل مبالغ مالية تعطى لهم .

الدولة الأخرى ، وأن يسير ركب الحجاج من العراق الى الحجاز في كل عام ، وقد أخذت شروط ذلك الصلح طريقها الى التنفيذ ، ومنذ ذلك الحين زال الخطر المغولي - مؤقتا - عن دولة الخلافة ، وظلت الديار المصرية والبلاد الشامية بمأمن من غارات المغول حتى وفاة أبي سعيد في سنة ٧٣٦ هـ . (١)

وبعد وفاة أبي سعيد بن خدا بندا بن أرغون لم تقم لمغول فارس قائمة ، بل اختلفوا وتفرقوا شذرا مذر (٢) ، وبدأ الضعف يدب في جسد دولة المغول بفارس والعراق ، فاضطربت أحوالها ، وانقسمت على نفسها ، وسيطرت عليها الفتن والقلاقل دون أن يستطيع أحد من ملوكها الذين تعاقبوا على حكمها أن يعيدها الى سيرتها الأولى ، ونشبت الاضطرابات الداخلية ، وأصبحت دولة مغول فارس والعراق مقسمة الى دويلات صغيرة تتنازع فيما بينها ، وسعى بعض حكام تلك الدويلات المغولية المتنافسة الى التحالف مع السلطان المملوكي بالديار المصرية ، وتوالت وفودهم الى مصر طلبا للمساعدة المملوكية التي أصبحت من وجهة نظر كبار الأمراء والقادة المغول هي القوة الوحيدة التي يمكن الاستعانة بها للتغلب على خصومهم . (٣)

الخلافة العباسية وأطماع تيمورلنك :

توقف الخطر المغولي على بلاد الشام مؤقتا في ظل تفكك دولة مغول فارس بعد وفاة أبي سعيد ، ثم تجدد الخطر المغولي مرة أخرى في نهاية القرن الثامن الهجري عند ما

-
- (١) علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٦٣ ، أحمد سليمان : المغول والمماليك ٧٨ - ٧٩ .
 (٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤/١٨٣ ، المقرئ : السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤١٨ .
 (٣) أحمد سليمان : المغول والمماليك ٨٨ - ٨٩ ، سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٤٩ .

برز أحد زعماء المغول ويدعى تيمورلنك الذي ظهر بظموحه الشديد للسيطرة على العالم الإسلامي فأخذ في حشد قواته لهذا الغرض ، وبدأ يستعد للتقدم للبلاد الشامية ومنها للديار المصرية ، خاصة بعد أن استطاع الاستيلاء على إقليم ما وراء النهر وأسس له امبراطورية كبيرة في تلك النواحي ، سعى من خلالها لجعل نفسه حاكماً على العالم بأسره . (١)

ففي خلافة الخليفة العباسي المتوكل على الله ظهرت خطورة تيمورلنك على الخلافة العباسية والبلاد الإسلامية الواقعة تحت سلطانها " حيث بدأ تيمورلنك في وضع خطة تهدف الى اقامة امبراطورية مغولية كبرى على غرار الامبراطورية الساسانية أقامها جنكيز خان ، ومن أجل تحقيق ذلك الهدف امتد نشاط تيمورلنك العسكري فاستطاع اخضاع بلاد فارس كلها ، وفي سنة ٧٩٥ هـ تمكن من احتلال بغداد بعد أن فرّ حاكمها أحمد بن أويس الى الديار المصرية قاصداً طلب مساعدة السلطان الظاهر برقوق " . (٢)

ولما تواترت الأخبار بتحركات تيمورلنك وما فعله ببغداد وأهلها ، أمر السلطان الظاهر برقوق بعقد مجلس للتشاور فيما ينبغي فعله لمواجهة ذلك الخطر الذي يهدد الدولة الإسلامية ، وحضر ذلك الاجتماع الخليفة العباسي والقضاة الأربعة وأعيان العلماء والأمراء ، فلما تكامل المجلس تكلم السلطان مع الخليفة في أمر تيمورلنك والاستعداد لقتاله ، ونظراً لقلّة الأموال في الخزائن ، فقد أراد الظاهر برقوق الاستعانة بأموال الأوقاف للاستفادة منها في التجهيز لقتال المغول ، وبين السلطان صعوبة

(١) عماد الدين خليل : الامارات الأرتقية في الجزيرة والشام ٣٨٠ ، محمد حمادة : دراسة وثيقة للتاريخ الإسلامي ٣٥١ ، فايد عاشور : العلاقات السياسية بين المغول والمماليك ٢٦ ، السيد فرج : تيمورلنك قاهر العالم ٩ .
(٢) أحمد سليمان : تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة ١٦ ، محمد دهمان : ولاية دمشق ٢٧٦ .

أوضاع الدولة ، فالخزائن خالية من الأموال ، والعدو زاحف على البلاد ، وان لم يخرج
العسكر بسرعة وصل تيمور لنك بجنوده الى البلاد الشامية ، ووقع في ذلك المجلس
جدال عظيم ، وفي غمرة جمع الأموال من التجار والناس جاءت الأخبار برجوع تيمور لنك
الى بلاده ، فسكن اضطراب الناس ، وأمر السلطان باعادة ما أخذ من الناس من أموال .^(١)

وكان من الأفضل للسلطان الظاهر برقوق الاستفادة من تلك الأموال التي جمعت
في تجهيز العساكر السلطانية استعداداً لأي طارئ ، في ظل تلك الظروف التي تمر بها
الدولة الإسلامية خاصة وأن الخزائن خالية من الأموال ، وحتى لا يضطر السلطان برقوق
لجمع الأموال مرة ثانية بحجة الاستعداد لقتال تيمور لنك ، فيذهب من الوقت الشيء
الكثير في جمع الأموال ، ثم التجهيز للسفر للبلاد الشامية ، ويكون ذلك الوقت في صالح
تيمور لنك و جنوده الذين عاثوا في ديار الاسلام فساداً .

وبعد وصول تيمور لنك الى تلك المرحلة صار الصدام بينه وبين الخلافة
العباسية وسلطنة المماليك أمراً قريب الحدوث ، فقد أرسل الى الظاهر برقوق رسالة
تحتوي كثيراً من التهديد والترغيب ، وطلب في تلك الرسالة عقد معاهدة صداقة بين
الطرفين ، وتسهيل التجارة بينهما ، وطلب من السلطان برقوق تسليم أحمد بن أويس
الذي لجأ الى السلطان المملوكي هرباً من بطش تيمور لنك و جنوده بعد أن احتلوا
مدينة بغداد .

وأدرك السلطان الظاهر برقوق خطورة القوة المغولية الجديدة النامية من
الشرق ، ورأى أن في تسليم أحمد بن أويس لتيمور لنك اهانة لمقام الخليفة والخلافة
العباسية وللسلطنة المملوكية بأسرها ، ولذلك رفض تلك المطالب التي عرضها

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٤٧/١١ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥٠٢ .
الشوكاني : البدر الطالع ١٧٣/١ ، ابن اياس : بدائع الزهور .

تيمور لنك وأمر بحبس رسل تيمور لنك ، وأخذ يستعد للحرب وقاتل مغول فارس ، وبدأ في عقد اتفاقيات مع القبائل التركمانية وملوك بني عثمان لمد ذلك الخطر الجديد . (١)

وقد تأجل الصدام العسكري بين السلطان الظاهر برقوق وتيمور لنك بعض الوقت لعدة عوامل أهمها : انشغال تيمور لنك بتوطيد ملكه وزيادة نفوذه باتجاه الهند ، وقد استغل الظاهر برقوق غياب تيمور لنك في الهند ، فكتب لأحمد بن أوبيس تقليدا بأن يكون نائبا للسلطان في بغداد وزوده بالمال والعتاد والأمراء والجنود المماليك ، وخرج برقوق مع أحمد بن أوبيس إلى البلاد الشامية حتى وصل دمشق ، ومن هناك توجه ابن أوبيس إلى مقر ملكه ببغداد في أول شعبان سنة ٧٩٦ هـ . (٢)

ومكث السلطان الظاهر برقوق بدمشق بعد رحيل أحمد بن أوبيس أياما ينتظر ما يحدث من تيمور لنك أثناء عودته إلى بلاده ، فلما استقر ملك المغول في عاصمة ملكه سمرقند^(٣) رجع الظاهر برقوق إلى الديار المصرية ، وقد كان السلطان المملوكي حريصا على لقاء تيمور لنك عسكريا ، ولكن قائد المغول لم يجسر على القدوم إلى البلاد الشامية مخافة من الظاهر برقوق الذي تأسف على عدم لقائه لتيمور لنك . (٤)

(١) أحمد سليمان : تيمور لنك ودولة المماليك الجراكسة ١٧ ، سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٥٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥٦/١٢ - ٥٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢٦٥/٣

(٣) بفتح أوله وثانيه ، يقال لها بالعربية : سُمران ، فتحها القائد قتيبة بن مسلم الباهلي سنة ٨٧ هـ .

(٤) (الحموى : معجم البلدان ١٣ / ٢٤٨) .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢ / ٦١ ، ابن اياس : بدائع الزهور

الزهور ٢٦٩ / ٣ .

وقد استطاع الظاهر برقوق بعد اعادته لأحمد بن أوبس الى مقر ملكه في بغداد أن يمد نفوذ الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية الى العراق بعد أن أصبح ابن أوبس نائبا للخليفة العباسي ، وللظاهر برقوق في بغداد ، وتابعا للخلافة العباسية والسلطنة المماليك ، ف ضرب السكة باسم الظاهر برقوق ، وقد أضفى هذا الوضع الجدي مكانة كبيرة - في ظل الخلافة العباسية - لسلطنة المماليك قبل وفاة الظاهر برقوق سنة ٨٠١ هـ . (١)

وقد غضب تيمور لنك من مساعدة الظاهر برقوق لأحمد بن أوبس وأرسل كتابا اشتمل على التهديد والتخويف ، فردّ عليه الظاهر برقوق بكتاب آخر يردّ فيه على مزاعم تيمور لنك وافتراءاته . (٢)

وبعد وفاة الظاهر برقوق خلفه في منصب السلطنة ابنه الناصر فرج ، وكان لا يزال في العاشرة من عمره ، فكانت تلك فرصة سانحة لكبار الأمراء المماليك الذين سعوا للوصول الى منصب السلطنة ، فبدأت المنازعات والمنافسات بينهم ، الأمر الذي جعل السلطان الناصر فرج يزهّد في منصبه ويهرب من القلعة السلطانية ، فبايع الأمراء أخاه عبد العزيز ، وزادت حدة الخلافات بين الأمراء المماليك وانقسموا الى طائفتين احداهما مع فرج بن برقوق ، والأخرى مع أخيه عبد العزيز ، حتى استقر الأمر على عودة الناصر فرج الى السلطنة مرة ثانية .

وفي غمرة تلك الاضطرابات والفتن تقدم السلطان العثماني بايزيد الأول الذي كان حليفا للظاهر برقوق ، واستولى على مدينة ملطية التي كانت داخلية ضمن أراضي الخلافة العباسية ، وذلك في سنة ٨٠١ هـ ، أما تيمور لنك فقد توجه نحو المدن الشامية

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٥٩ ، أحمد سليمان : تيمورلنك

ودولة المماليك الجراكسة ١٩ .

(٢) نص كتاب تيمورلنك وردّ الظاهر عليه في كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى

ووصلت قواته الى أطراف الشام ، ووجه انذارا للخلافة العباسية والسلاطين المماليك
يطلب منهم تسليمه مدينة حلب ، فلم يستجب المماليك لذلك الانذار .

وتجمعت الجيوش من نيبات الشام ، وكتب أهل الشام يطلبون النجدة من
السلطان الناصر فرج (١) . وعن ذلك التخاذل يقول ابن تغرى بردى مبينا أثر تلك

الخلافت الداخلية على الجبهة الخارجية للخلافة العباسية في ظل تسلط القوى
المملوكية بمقاليد الخلافة : " . . . ولم يتأهب أحد من الأمراء المصريين لقتاله

(تيمور لنك) ولا التفت الى ذلك ، بل كان جُلّ قعد كل أحد منهم ما يوصله السى
(٢)

السلطنة بمصر وابعاد غيره عنها ، ثم يدع الدنيا بعد ذلك تنقلب ظهرا لبطن . . . " .

ولم يلتفت الناصر فرج وكبار الأمراء المماليك الى رسل السلطان بايزيد الأول

العثماني التي حملت كتابا للسلطان المملوكي يتضمن الحث على اجتماع الكلمة ، أن يكونا
بدأوا حدة على قتال الطاغية تيمور لنك ليستريح الاسلام والمسلمون منه ، وأخذ يلحّ
في كتابه على اجتماع الكلمة ، فلم يلتفت أحد الى كلامه . (٣)

وكان ينبغي على السلطان الناصر فرج بن برقوق ، والأمراء المماليك استغلال

تلك الدعوة التي دعاهم فيها السلطان العثماني بايزيد (٤) الى الاجتماع واتحاد

الكلمة لمواجهة الخطر الذي أصبح يتهدد المسلمين في أراضي كل منهما ، ولكن أمراء

مصر المماليك أجابوا على ذلك الطلب بقولهم عن السلطان العثماني بايزيد :

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٦٠ ، أحمد سليمان : تيمور لنك

ودولة المماليك ٢١ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢١٨/١٢ .

(٣) المصدر السابق ١٢ : ٢١٧ .

(٤) السلطان بايزيد العثماني ، ولد في سنة ٧٦١هـ ، تولى الملك بعد وفاة والده

السلطان مراد خان العثماني في سنة ٧٩١هـ ، باتفاق من أركان الدولة في زمانه

وكانت نهايته بوفاته أسيرا لدى قائد المغول تيمور لنك .

(محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ١٣٧) .

«... الآن صار صاحبنا ، وعندما مات استاذنا الملك الظاهر برقوق مشي على بلادنا وأخذ ملطية وهي من أعمالنا ، فليس هولنا بصاحب ، يقاتل هو عن بلاده ، ونحن نقاتل عن بلادنا ورعيتنا » ، فكتب بمعنى ذلك ردًا للسلطان بايزيد .

وقفي موقف هؤلاء الأمراء المماليك الكثير من الغرور والاستعلاء والاعتداد بالنفس ، وظهر خطأ ذلك الموقف المملوكي بعد حين ، ويؤكد هذا ما نقله ابن تغرى بردى عن الأمير اسنباى الظاهري الذي أسره تيمورلنك وحظي عنده ، يقول اسنباى نقلًا عن تيمورلنك ما معناه : «... انه لقي عساكر كثيرة وحاربها فلم ير فيها مثل عسكر مصر وعسكر ابن عثمان ، غير أن عسكر مصر كان عسكرا عظيما ، ولكن ليس له من يقوم بتدبير أمره لصغر سن السلطان الناصر فرج ، وعدم معرفة من كان حوله ممن الأمراء المماليك بالحروب » .

أما ابن عثمان فقد كان صاحب رأي وتدبير واقدام ، لكنه لم يكن له من العساكر من يقوم بنصرته ...

ثم يضيف ابن تغرى بردى : قلت : «لهذا كانت المصلحة تقتضي الصلح مع بايزيد بن عثمان ، فانه كان يصير للعساكر المصرية من يدبرها ، ويصير لابن عثمان عساكر مصر مع عساكره عونا ، فلا يقوى تيمورلنك على مدافعتهم» . (١)

وبعد أن أتم تيمورلنك استعداداته العسكرية بدأ في شن حملته ضد بغداد ، فاحتلها بعد فرار السلطان أحمد بن أويس إلى السلطان العثماني بايزيد خصم تيمورلنك ، وعند ما طلب تيمورلنك من بايزيد تسليمه أحمد بن أويس رفض ذلك الطلب في عبارات أغضبت تيمورلنك فأسرّها في نفسه وأجل الردّ عليها إلى ما بعد

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢١٧/١٢ .

الانتهاء من معركته مع السلطان المملوكي ، فقد رأى أن الأفضل له القضاء على القوة التي تهدده من الخلف في حالة توجهه لحرب السلطان العثماني ، وهذه القوة هي القوة المملوكية بالديار المصرية والبلاد الشامية . (١)

تهديد تيمور لنك لأراضي الخلافة العباسية :

وفي سنة ٨٠٣ هـ بدأ تيمور لنك زحفه على البلاد الشامية ، فلما تواترت الأخبار عن تحركاته استدعى السلطان الناصر فرج الخليفة العباسي المتوكل على الله والقضاة الأربعة والأمراء وأعيان الدولة ، وكان قصده بهذا الاجتماع عقد المشاورة في أمر تيمور لنك من جهة ، وإيجاد الدعم المالي اللازم لقتاله من جهة ثانية لحاجة السلطان للأموال للنفقة على العساكر السلطانية فقال له القضاة :

" أنتم أصحاب الأمر والنهي وليس لكم معارض فيه ، وإن كان القمد الفتوى في ذلك فلا يجوز أخذ مال أحد . . . " ، وطال الكلام في ذلك المجلس حتى استقر الرأي على إرسال أحد الأمراء المماليك لكشف أخبار تيمور لنك وتجهيز العساكر بالبلاد الشامية لقتاله .

ويلاحظ من خلال ذلك المجلس عجز الخليفة العباسي المتوكل على الله ومعه السلطان الناصر فرج عن البت في الأمور الهامة لصغر سنه وقلة خبرته وتجربته في مثل هذه المواقف العصبية التي تستلزم سرعة اتخاذ قرار يحفظ للخلافة العباسية وللدولة هيبتها ، ويلاحظ أيضا عدم وجود الناصح الأمين من رجال الدولة الذين يحرصون على المصلحة العامة للدولة الإسلامية ممن يسعون لجمع الكلمة ، وعن ذلك اتخذ ليقول ابن تغري بردى : " ووقع التخاذيل والتقاعد لاختلاف الكلمة وكثرة الآراء " . (٢)

(١) أحمد سليمان : تيمور لنك ودولة المماليك الجراكسة ٢٣ .

(٢) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ١٢/٢١٨ .

وقسي ظل ذلك التكاثر واصل تيمور لنك تقدمه نحو البلاد الشامية فأخذ بلدة بهسنا^(١) ، وأصبح أهل المدن الشامية في حال لا يعلمه إلا الله مما داخلهم من الرعب والخوف ، وقصد كل واحد منهم أن يرحل من بلده ، ولكن حاكم ذلك البلد يمنعهم من ذلك ويعددهم الخليفة العباسي والسلطان الناصر فرج للدفاع عنهم^(٢) .

ثم تقدم تيمور لنك إلى عينتاب^(٣) فأحرق جنوده ضياعها ، وقتلوا معظم سكانها ، ومنها اتجه نحو مدينة حلب فحرب مخيمه أمام أسوارها في أوائل ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ ، وبعث إلى نائب الشام الأمير سودون برسالة ذكر فيها أنه يريد قصد الديار المصرية ليضرب بها السكة باسمه ثم يرجع ، وطلب من الأمير سودون أن يرسل إليه المقبوض عليهم من أمرائه المغول في دولة الظاهر برقوق ، وإن لم يفرج عنهم تصير دماء المسلمين في ذمتكم ، فلم يلتفت سودون إلى كلامه ، وأمر بقتل رسول تيمور لنك^(٤) .

وعمد تيمور لنك إلى استخدام الدهاء والحيل في خطواته العسكرية ، فحاول بذر أسباب الشقاق في صفوف نواب البلاد الشامية الذين اجتمعوا لقتاله وهم : الأمير دمرداش المحمدي نائب حلب ، والأمير سودون نائب دمشق ، والأمير شيخ المحمودي نائب طرابلس^(٥) ، والأمير دقماق المحمدي نائب حماة ، والأمير الطنبغا العثماني

-
- (١) قلعة حمينة قرب مرعش ، وتتبع بهسنا أعمال مدينة حلب .
 (ياقوت الحموي : معجم البلدان ٥١٦/١) .
- (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢١٩/١٢ .
- (٣) قلعة حمينة بين حلب وأنطاكية ، تتبع أعمال حلب .
 (ياقوت الحموي : معجم البلدان ١٧٦/٤) .
- (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٢٠/١٢ .
- (٥) مدينة على شاطئ البحر المتوسط ، فتحت سنة ٢٣ هـ على يد القائد عمرو بن العاص رضي الله عنه ، اشتهرت بكثرة الثمار والخيرات والبساتين الجليلة .
 (ياقوت الحموي : معجم البلدان ٢٤/٤) .

نائب مفد (١) ، والأمير عمر الطحان نائب غزة •

ومع اجتماع هؤلاء الأمراء كل بعساكره العظيمة ، إلا أن الكلمة متفرقة ، والعزائم محلولة لعدم وجود السلطان الناصر فرج وكبار الأمراء المماليك • (٢)

فاجتهد تيمور لنك في تفريق كلمة هؤلاء الأمراء الذين اجتمعوا لقتاله قبل وصول الخليفة العباسي والسلطان الناصر فرج ، وبقية العساكر السلطانية ، فأرسل تيمور لنك رسولا من قبله الى نائب حلب يعده باستمراره في نيابة حلب ، بشرط أنه يقبض على نائب دمشق الأمير سون الذي قتل سفير تيمور لنك الذي توجه اليه من قبل ، فلم يكن من نائب حلب إلا أن رفض تلك العروض ، وفي المقابل أخذ رسول تيمور لنك الى بقية الأمراء والنواب ، فلما وقف بين أيديهم أنكر ذلك الرسول تحريضه لدمرداش المحمدي نائب حلب للقبض على نائب دمشق سون ، وأراد الوقعة بين الأمراء ، فاتهم نائب حلب بأنه كاتب تيمور لنك يستدعيه للنزول على حلب لأنه ليس بها من يدافع عنها •

ولما انكشفت تلك الحيلة التي قعد تيمور لنك بها الايقاع بين العساكر الشامية وتفريق اجتماعها فده ، اجتمع الأمراء واتفقوا على قتال تيمور لنك والخروج للقاءه بعد أن يئسوا من مجيء السلطان الناصر فرج والعساكر المصرية لعلمهم بعدم رأى مدبري مملكة مصر من الأمراء ، ولصغر سن السلطان وقد فات الأمر وهم في قلعة بالنسبة لعساكر تيمور لنك • (٣)

(١) مدينة في جبال عاملة المطللة على مدينة حمص ، وهي من جبال لبنان •

(الحموى : معجم البلدان ٤١٢/٣) •

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ١٤٠/٢ •

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٢١/١٢ •

وخرجت قوات الأمراء المماليك واشتبكت مع تيمور لنك وقواته ، وقاتل الأمراء قتالا شديدا ، وأبلوا بلاء عظيمًا ، ولكن كانت المعركة لصالح تيمور لنك وعساكره وولت العساكر الشامية منهزمة الى مدينة حلب ، وركب أصحاب تيمور لنك خلفهم يتبعونهم حتى اقتحموا مدينة حلب . (١)

ولما دخل تيمور لنك وجنوده مدينة حلب أعملوا السيف في أهلها وأخذوا في سلب الأموال والاعتداء على الحرمات وهدم البيوت واحرق المساجد ، ورحل تيمور لنك وجنوده من حلب بعد أن أقام بها شهراً فتركها خالية من سكانها وسار منها قاصداً مدينة دمشق .

وفي طريقه اليها مرّ بمدينة حماة التي استولى عليها ابنه ميران شاه وفعل فيها مثلما فعل أبوه من قبل في مدينة حلب ، وخذع أهل حماة بأن أعطاهم الآمان على أن يسلموا له المدينة ، فلما وافقوا على ذلك أعمل فيهم السيف ، ثم قصد حمص ، وبعلبك ، ووصلت قواته الى صيدا . (٢)

واهتزت الديار المصرية لأنباء الهزيمة التي نزلت بأمراء ونواب البلاد الشامية (٣) ، ونظرا لما اتسم به موقف السلطان الناصر فرج والأمراء المماليك من ضعف وتخاذل بالرغم من الخطر الذي أصبح يتهددهم وينذر بإزالة دولتهم ، خرج قاضي القضاة عمر البلقيني مع غيره من القضاة فنادى في الناس يحثهم على الجهاد قائلا :

" الجهاد في سبيل الله تعالى لقتال عدوكم تيمور لنك ، فانه أخذ البلاد ووصل السى

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٢١/١٢ ، المقرئى : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٢

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٢٥/١٢ - ٢٢٦ ، الغزى : نهر الذهب في

تاريخ حلب ١٦١/١ .

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٦١ ، أحمد سليمان : تيمور لنك

ودولة المماليك ٢٧ .

حلب ، وقتل الأطفال على صدور الأمهات ، وأخرب الجوامع والمساجد والديور ، وأنه قاصدكم ليخرب بلادكم ، ويقتل رجالكم " . فاضطربت القاهرة لذلك واشتد جزع الناس ، وكثر بكاءهم ، وانطلقت الألسنة بالوقيعه في رجال الدولة وأعيانها . (١)

وبعد أسبوع من ذلك النداء الذي استنفر فيه قاضي القضاة الشيخ عمير

البلقيني الناس للخروج للجهاد في سبيل الله ، شعر السلطان الناصر فرج بخطر الموقف ، وأمر العساكر السلطانية بالاستعداد للسفر الى البلاد الشاميه لقتال تيمورلنك الذي تمكن من البلاد الشاميه ، وأمر السلطان الناصر فرج أمراء القبائل العربية بمساعدته بالفرسان واعانته بما يحتاجه من الخيول والجمال ، (٢) وقد استغرقت تلك الاستعدادات مدة طويلة من الزمن قاربت نحو ثلاثة أشهر منذ بداية زحف تيمورلنك على مدن البلاد الشاميه واستيلائه عليها الواحدة تلو الأخرى في ظل تقاعس السلطان الناصر فرج عن الخروج لنجدة أهل تلك البلاد وحماية الخلافة العباسية وملكه من أطماع تيمورلنك الذي يخطط للاستيلاء على البلاد الشاميه ثم اسقاط الخلافة العباسية التي يقوم بأمرها السلاطين المماليك .

وفي الأول من شهر ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ خرج السلطان الناصر فرج من القاهرة ومعه الخليفة العباسي المتوكل على الله محمد ، والأمراء المماليك ، والعساكر السلطانية والقضاة ، ومع شدة تلك الظروف والأحوال العميية التي كانت تمر بها الدولة الاسلاميه فان الخلافات والنزاعات بين السلطان المملوكي والأمراء المماليك لم تنقطع حتى في أحلك الظروف ، فعند خروج السلطان الناصر فرج ومن معه للقاء عدوهم

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٢٨/١٢ ، المقريزي : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ١٠٢٧

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٣٠/١٢ ، الغزى : نهر الذهب

تيمور لنك زادت حدة الخلافات واثارة الشك وارتباب بعضهم في بعض و اتهام طائفة منهم لأخرى بالخيانة والتآمر على الخلافة العباسية و نفوذ السلطنة المملوكية ، والتعاون مع أعدائها المغول (١).

وقبل وصول الناصر فرج الى دمشق، حاول تيمور لنك احتلالها فأرسل الى نائبها

يدعوه الى تسليم المدينة، وتوعده في حالة عدم استجابته لذلك الطلب ، فاضطرب سكان دمشق خاصة بعد سماع قصص التعذيب و التنكيل التي أذاعها الهاربون من المدن الشامية الأخرى التي استولى عليها تيمور لنك قبل توجهه نحو مدينة دمشق . (٢)

ثم وصل السلطان الناصر فرج ، والخليفة العباسي المتوكل على الله محمد الى دمشق في السادس من جمادى الأولى من سنة ٨٠٣ هـ ، وكان لدخوله يوم مهول من كثرة بكاء الناس وابتهاهم الى الله بنصرته .

وبعد وصوله لدمشق تهيأ السلطان للقاء تيمور لنك ، وأسفرت المناوشات الأولى بين الجانبين عن هزيمة كبيرة لمقدمة جيش المغول ، إلا أن تيمور لنك تدارك الأمر ونصب كميناً لقوات السلطان الناصر فرج أسفر عن مقتل عدد كبير منها ، ولم يتمكن تيمور لنك في ذلك الوقت من اقتحام مدينة دمشق ، ولما ظهر عجزه عنها بعث الى الناصر فرج في طلب الصلح ، وارسال أحد أعوانه ويدعى أطمش ، وبعث تيمور لنك للسلطان فرج ما عنده من الأسرى المسلمين ممن قبض عليهم في وقعة حلب ، فلم يقبل الأمراء المماليك بعقد الصلح مع تيمور لنك ، فنشب القتال بين الجانبين ثانية ، فعاد تيمور لنك وأرسل رسولا آخر في طلب الصلح من الناصر فرج، فأبى كبار الأمراء المماليك من الموافقة على ذلك الطلب . (٣)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/٢٢٩ ، ٢٣١ ، المقرئى : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٩
(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٦١ ، أحمد سليمان : تيمور لنك ودولة المماليك ٣٢ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/٢٣٥ ، المقرئى : ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٠ .

وبينما كان تيمور لنك في غاية الاجتهاد لأخذ مدينة دمشق ، بلغه ما بين السلطان الناصر فرج ، والأمراء المماليك من اختلاف وتشاحن على الوظائف وتركهم لأمر تيمور لنك ، كأنه لم يكن ، فزاد من اجتهاده في الاستيلاء على دمشق بعد أن كان قد عزم على الرحيل عنها لعجزه عن احتلالها . (١)

وحرص تيمور لنك على زيادة حدة الخلاف بين السلطان الناصر فرج والأمراء المماليك ، فاستخدم أساليب الدهاء ونشر الشائعات لخداع الناصر فرج والأمراء المماليك ، فأرسل خمسة من رجاله وبثهم بين العساكر فأشاعوا بأن نصف جيش تيمور لنك عازم على الدخول في طاعة السلطان الناصر فرج ، وأن ملك قبرص سيقدم المساعدة للسلطان الناصر فرج ، ثم أردفوا ذلك باشاعة جديدة مفادها أن تيمور لنك راحل عن دمشق وأن أمره الى تلاشي بسبب الاختلاف بينه وبين ابن أخته .

وكان لتلك الشائعات الأثر السيء على الناصر فرج وأمرائه وجنوده ، فقد دب الانقسام في صفوفهم وتفرقت كلمتهم ، فرأى فريق منهم مواصلة قتال تيمور لنك ، وظن ذلك الفريق أن تيمور لنك قد طلب الصلح لعجزه عن قتالهم ، في حين رأى فريق آخر الاستجابة لطلب قائد المغول في وقف القتال ، ونتيجة لذلك الانقسام في الرأي فسان فريقا ثالثا قد أيقن بحلول الهزيمة وقرب زوال دولة الناصر فرج ، فبادر ذلك الفريق بالانسحاب من ميدان المعركة . (٢)

ثم كانت الاشاعة التي قضت على البقية الباقية من حمار الأجناد المماليك لقتال تيمور لنك ، فقد انتشر أن الأمراء الذين اختفوا من معسكر السلطان الناصر فرج

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٣٦/١٢ ، الجوهري : نزهة النفوس والأبدان ٨٢/٢ .

(٢) أحمد سليمان : تيمور لنك ودولة المماليك الجراكسة ٣٣ ، أكرم العسليبي : تيمور لنك ١٠٧ .

قد توجهوا الى الديار المصرية ليولوا السلطنة الأمير لاجين الجركسي ، فعظم ذلك الخبر على مدبري المملكة ، وكان ذلك عند هم أهم من أمر تيمور لنك ، واتفقوا فيما بينهم على أخذ السلطان الناصر فرج والعودة الى الديار المصرية ، فتم ذلك ليلاً على حين غفلة في الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى من سنة ٨٠٣ هـ ، وتركوا العساكر والرعية من المسلمين غنماً بلا راع ، وتركوا دمشق أكلة لتيمور لنك وجنوده .^(١)

وبعد ما أسرع السلطان الناصر فرج بالعودة الى الديار المصرية لتدارك أمر السلطنة في القاهرة ، تبعه العساكر المصرية والأعيان ، فخرجوا على أثره طوائف طوائف فدخلوا مصر في أسوأ حال من شدة المشي والجوع ، حيث نهبت بعض القبائل العربية العساكر المصرية أثناء عودتها الى القاهرة ، وسلبوا ما معهم من أسلحة وأموال وأمتعة ، وقد تركت تلك القوات دمشق بعد مغادرتها لها بدون قيادة تنظم أمورها أو قوات كافية للدفاع عنها من أطماع تيمور لنك وجنوده .^(٢)

أما أهل دمشق فقد بقوا بمفردهم أمام جيوش المغول ، وفقدوا ما كانوا يرجونه من نصره الخليفة العباسي المتوكل على الله محمد ، ومساعدة السلطان الناصر فرج ، فتهياً أهل دمشق للقتال ونادوا بالجهاد ، وثبتوا لتيمور لنك وجنوده عند ما زحف على دمشق ونجحوا في صد هجومه عليها ، فلما أعيا المغول أمر دمشق وعجزوا عن دخول المدينة وأخذها ، وعلموا أن الأمر يطول عليهم ، عمد تيمور لنك الى خديعة أهل دمشق والتحايل عليهم لأجل الاستيلاء عليها ، فأرسل رسلاً وصاحوا بالمسلمين من تحت سورها بأن تيمور لنك يريد المصلح فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدثه الأمير في ذلك الأمر .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/٢٣٧ ، المقرئى : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٤ .
 (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/٢٣٧ ، المقرئى : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٩ .

وانطلقت تلك الحيلة على أهل دمشق واستد رحبهم تيمور لنك حتى أمنوا جانبه فغدر بهم ، وأخذ دمشق وحلّ بأهلها من البلاء على أيدي المغول أعظم مما حلّ بأهل حلب ، واستمر العذاب والأذى قرابة تسعة عشر يوما ، أهلك فيها تيمور لنك وأمرائه وجنوده الحرث والنسل ، وتركوا مدينة دمشق أطلالا بالية ، ورسوما خالية^(١) ،

وقبل مغادرة تيمور لنك لمدينة دمشق قاموا بحلب ومنها إلى عاصمة ملكه سمرقند ، أخذ أكبر قدر من أموالها بما فرضه على سكانها من ضرائب ومكوس ألزمهم بدفعها بين الحين والآخر في مدة إقامته بها ، يضاف إلى ذلك أنه قسّم أحياء المدينة على أمرائه وجنوده الذين أطلقوا أيديهم في أموال الناس وأملاكهم ، وحاول ابن خلدون التخفيف من معاناة أهل دمشق ورفع ما نزل بهم من الأذى ، فتوجه بنفسه للقاء تيمور لنك للشفاعة لديه في إطلاق بعض الأسرى من أهل دمشق ، وقبل خروج تيمور لنك وجنوده أضرمت النار في كثير من الجوامع والدور ، وهلك معظم سكان دمشق التي رحل عنها تيمور لنك مصطحبا معه أصحاب المهن والعمال المهرة الذين حفلت بهم دمشق رغبة منه في الاستفادة منهم في عمارة عاصمة ملكه سمرقند .^(٢)

أما السلطان الناصر فرج فبعد رجوعه إلى الديار المصرية أخذ في التجهيز للسفر ثانية إلى دمشق لقتال تيمور لنك ، ولقلة الأموال في خزائن الدولة ولحاجة السلطان الناصر فرج إليها في تجهيز العساكر السلطانية ، فقد طلب من التجار إعانتته بالمال على سبيل القرض من جهة ، وسعى بواسطة عماله من مصادرة حواصل الناس

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٣٩/١٢ - ٢٤٥ ، المقرئى : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ ، ابن عربشاه : عجائب المقدور ١٧١ ، الشوكاني : البدر الطالع ١٧٧/١ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المالكي في مصر والشام ١٦١ ، أحمد سليمان : تيمور لنك ودولة المماليك ٣٦ - ٣٧ .

من جهة ثانية ، فصار عماله يكسبون الدور و الحواصل في الليل ، فان وجدوا صاحبها أخذوا نصف ما فيها من النقد وغيره ، وان لم يجدوا صاحب المال أخذوه جميعا . (١)

واجتهد الناصر فرج في جمع أكبر عدد من الفرسان لأنه يتوقع معركة جديدة فاصلة بينه وبين تيمور لنك ، فأرسل الى مشايخ القبائل العربية بالديار المصرية يطلب مساعدته في قتال تيمور لنك ، فحضر ما يقارب عشرة آلاف فارس من أفراد تلك القبائل ، فأنفق عليهم السلطان الأموال ليتجهزوا لقتال تيمور لنك . (٢)

وفي الخامس من شعبان سنة ٨٠٣ هـ أمر الناصر فرج الأمراء المعيّنين للسفر الى دمشق بالخروج بمن معهم من العساكر السلطانية الى ظاهر القاهرة استعدادا للسير الى البلاد الشامية بعد اكتمال أعدادهم ، وفي غمرة تلك الاستعدادات قدم نائيب طرابلس الأمير شيخ المحمودى فارا من أسر تيمور لنك ومخبرا برحيله الى بلاده ، فرسم السلطان بابطال سفر العساكر السلطانية . (٣)

وكان من المناسب ارسال تلك الحملة العسكرية الى البلاد الشامية ، وان زال سبب ارسالها من وجهة نظر السلطان الناصر فرج ، لما في ذلك من التخفيف عن معاناة أهل دمشق وغيرها من البلاد التي تعرضت لأذى مغول فارس الذين قادهم تيمور لنك لتخريب ديار الاسلام ، خاصة بعد تخاذل السلطان المملوكي والأمراء المماليك وعجزهم عن مساعدة اخوانهم في البلاد الشامية الذين تحملوا وطأة اعتداءات المغول المتكررة مع وصول أخبار أفعال تيمور لنك وجنوده الى أسماع السلطان المملوكي وأمرائه ، فضلا عن أن السلطان الناصر فرج لم يستعد للسفر مع هذه الحملة العسكرية التي اجتهد

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٤٨/١٢ ، المقرئى : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥٢

(٢) " : " ، ٢٥١/١٢ ، " : " ، ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥٣

(٣) " : " ، ٢٥٢/١٢ ، " : " ، ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥٧

في تجهيزها خوفاً منه على انتقال منصب السلطنة الى غيره من الأمراء المماليك و خلعسه منها ، و مثله كبار الأمراء المماليك فانهم لم يتجهزوا للسفر مع بقية العساكر السلطانية حرماً منهم على وظائفهم و محاولة من البعض لاغتنام فرصة غياب السلطان في حالة سفره الى البلاد الشامية للوثوب على السلطنة أو وظائفها الهامة التي كثر الطامعون في الوصول اليها ، فهؤلاء الأمراء قدّموا المصالح الشخصية على المصلحة العليا للدولة الاسلامية في أحلك الظروف و أصعبها ، وهي تواجه عدوً وادوا حرصاً على اجتثاثها من أصلها مستغلاً تفرق كلمة قادتها .

و غادر تيمور لنك البلاد الشامية قاصداً بلادها في شعبان سنة ٨٠٣هـ ، فلمّا وصل اليها استقر بها سنة واحدة ، ثم قصد قتال السلطان العثماني بايزيد ، فتقدم كل منهما لقتال الآخر ، فحملت بينهما مقتلة عظيمة انكسر فيها السلطان بايزيد و وقع في أسر تيمور لنك ، و تفرق شمل العساكر العثمانية ، و أخذ تيمور لنك ما يلي أطراف الشام من البلاد العثمانية ، ثم رجع تيمور لنك الى بلادها و معه السلطان بايزيد الأول العثماني معتقلاً ، فمات في اعتقاله بتاريخ ١٥ شعبان من سنة ٨٠٥هـ . (١)

واستمر تيمور لنك محاولاً تحقيق ما كان يردده من قوله : " لا بد أن أملك الأرض و أقتل ملوك الدنيا " ، فتوجه نحو بلاد الهند حتى غلب عليها ، و مات وهو في طريقه لأخذ بلاد الصين في السابع عشر من شهر شعبان سنة ٨٠٧هـ ، فتعرضت دولتها الواسعة للتمزق و الانقسام بسبب النزاع بين أبنائه من بعده ، و بذلك خفت حدة خطر المغول على البلاد الاسلامية و تخلّصت الخلافة العباسية و سلطنة المماليك من عدو خطير أو شك على الاطاحة بهما و القضاء على نفوذهما . (٢)

-
- (١) ابن عربشاه : عجائب المقدور ٢٥٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٥٦/١٢
الجوهري : نزهة النفوس والأبدان ١٥٩/٢ ، الشوكاني : البدر الطالع ١٧٩/١ .
- (٢) سعيد عاشور : العصر المماليك في مصر و الشام ١٦١ ، أحمد سليمان : تيمور لنك ودولة المماليك ٣٩ .

ومما تقدم تظهر ملامح العلاقة بين الخلافة العباسية بمصر ، وقبائل المغول
فبينما توطدت العلاقات الحسنة بين الخلافة العباسية والسلطين المماليك وبين
دولة مغول القفجاق ، نجد تأثر تلك العلاقة مع دولة مغول فارس التي توالى فسي
حكمها قيادات مغولية سارت على مبدأ إعادة الخلافة العباسية بالديار المصرية،
والعمل على اسقاطها، والقضاء على نفوذ السلطين المماليك الذين يتولون تدبير
أمر الخلافة العباسية بتفويض من الخليفة العباسي .

أما بالنسبة لموقف الخلفاء والسلطين المماليك من الأطماع المغولية فسي
البلاد الاسلامية فقد تفاوتت مواقف الخلفاء العباسيين والسلطين المماليك قوة وضعفا
وحماسا وتقاعسا ، فظهر بعض الخلفاء والسلطين الذين استطاعوا بفضل الله دحر
المغول وصد حملاتهم المتتابة على البلاد الشامية وأذاقوهم طعم الهزائم المتكررة
التي سعى قادة مغول فارس للثأر لها ، بينما ظهر في فترات لاحقة بعض الخلفاء
والسلطين الذين أكثروا من التسوية في مواجهة أطماع المغول ، وغلب عليهم التخاذل
مما مكن المغول من الاستيلاء على بعض المدن الاسلامية الهامة ، ويؤكد هذا أن
تيمور لنك قصد حلب في سنة ٧٩٨ هـ ، ثم رجع عنها خائفا من السلطان الظاهر برقوق ،
بل انه لما علم بموت الظاهر برقوق فرح بذلك ، وتوقع أنه ظفر بمملكته فتوجه
على عجل الى البلاد الشامية ... (١)

ومن خلال حملات مغول فارس ضد البلاد الاسلامية في الشام التي تقع تحت
حكم الخلافة العباسية ، ظهر حرص قادتهم على اسقاط الخلافة العباسية في القاهرة ،
خاصة القائد المغولي تيمور لنك ، فقد كان يرافقه في تلك الحملات العسكرية أحسد
أفراد البيت العباسي الذي كان يطالب بمنصب الخلافة العباسية ويدعي أحقيته

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٢٦١/١٢ ، ٢٧٠ .

بذلك المنصب ، ويؤكد هذا ابن خلدون الذي ذهب لمقابلة القائد المغولي —
 تيمور لنك ومناظرة ذلك العباسي الذي أعلن موقفه من الخليفة العباسي والخلافة
 العباسية القائمة بالديار المصرية بقوله : " ان الأمر لبني العباس ما بقيت الدنيا ،
 واني أحق من صاحب المنصب الآن بمصر لأن آباي الذين ورثتهم كانوا قد استحقوه ،
 وصارت الخلافة الى هذا بغير مستند ... " . (١)

وموقف هذا العباسي من الخليفة المتوكل على الله ، والخلافة العباسية بمصر
 يثير الريبة والشك حوله ، فقد ساعد تيمور لنك في تحقيق أطماعه وأحلامه بملك الأرض
 واحتلال البلاد الشامية وجهوده التي لم تتوقف للوصول الى الديار المصرية لاسقاط
 الخلافة العباسية في القاهرة ، وقد يكون هذا العباسي على فرض صحة نسبه لبني العباس
 محرّفا لتيمور لنك للمضي في اجتياح البلاد الاسلامية والسيطرة عليها .

وقد استطاع القائد المغولي تيمور لنك من اقامة مملكة مترامية الأطراف
 معتمدا على أسلوب العدوان والتوسع على حساب البلاد المجاورة له ، وبعد اخافة
 أهلها واستخدام البطش والظلم والاستبداد في معاملته لهم بعد استيلائه على بلادهم ،
 فمنع بتلك الأعمال الوحشية دعاية كان لها الأثر السيء ، على خصومه الذين سعوا لتلافي
 مواجهته عسكريا فزاد ذلك من عدوانه وغروره بعد أن هاب من قصد بلادهم من الاقدام
 عليه والدفاع عن أنفسهم وأعراضهم وأموالهم .

ولعدم التعاون بين السلاطين المماليك والسلاطين العثمانيين تمكن القائد
 المغولي تيمور لنك من الانفراد بكل قوة منهما على حدة حتى قضى عليها ، فبدأ بالقوة
 المملوكية فاستطاع هزيمتها في أكثر من موقعة ، وتهيبت من الاقدام لقتاله ، وانشغلت

(١) والتر ج . فيشيل : لقاء ابن خلدون وتيمور لنك ، ٦٩ ، ٧٨ — ٧٩ .

السلطنة المملوكية بالتجهز للموقعة الفاملة حتى رحل تيمور لنك عن البلاد الشامية بعد أن عاث فيها وأعوانه فسادا ، ثم انتقل الى قتال السلطان العثماني بايزيد فهزمه في موقعة عسكرية هامة قرب مدينة أنقرة (١) ، وأسره وأخذ معه معتقلا الى عاصمة ملكه سمرقند ، وكان من الممكن تغيير موازين القوى عند اجتماع كلمة المماليك والعثمانيين لقتال العد والمشارك الذي أعلن عزمه على القضاء على نفوذهم واحتلال بلادهم ، واقامة مملكته على أنقاض دولتهم التي أصبح يغير عليها بين الحين والآخر لتحقيق تلك الغاية .

ونجد أن القائد المغولي تيمور لنك قد استفاد فائدة كبيرة من الخلافات والنزاعات التي نشبت بين السلاطين المماليك من جهة والأمراء المماليك من جهة ثانية ، فساعدت تلك الصراعات التي عصفت بالخلافة العباسية وسلطنة المماليك في أحلك الظروف وأصعبها ، تيمور لنك على الاستيلاء على أهم المدن بالبلاد الشامية الواحدة تلو الأخرى ، مع عجز أهلها عن الدفاع عن أنفسهم وتباطيء الخليفة العباسي والسلطان الناصر فرج والعساكر المصرية في نجدة اخوانهم ومساعدتهم عسكريا في دفع أذى تيمور لنك وجنوده عنهم .

وقد سعى تيمور لنك لزيادة حدة تلك الخلافات من خلال اعتماده على أسلوب نشر الشائعات الكاذبة واستخدام المكر والحيل لخداع خصومه ، فساعد ذلك الأسلوب على تفريق كلمة خصومه ، وتوهين قواهم العسكرية وتخاذل العساكر السلطانية

(١) مدينة في مملكة الروم كانت تسمى (انكورية) ، فتحها الخليفة العباسي

المعتصم بالله وهو في طريقه لقتال أهل عمورية ، وفيهما قال أبو تمام :
لما رأته أختها بالأمس قد خربت . . . كان الخراب لها أعدى من الجرب
(الحموي : معجم البلدان ١/٢٧١ - ٢٧٢) . وانظر : محمد عبد الله عنان :
بين تيمور لنك وبايزيد - مجلة الرسالة ، العدد ٢٤٣ ، ص ٣٢٧ ، السنة
السادسة .

وغيرها عن قتاله حتى يد همهم على حين غرة وهم عنه غافلون بعد اطلاق الشائعات المتواترة عن رحيله وعودته الى بلاده ، أو اعلانه اعطاء الأمان لمن يحاصره ، فاذا صدقوا تلك المقولة أو الشائعة هجم عليهم ونشر الخراب والدمار في البلد الذي يقع تحت يده ، وأعمل وجنوده السيف في أهله .

وحاول مغول فارس التحالف مع أعداء الخلافة والسلاطين المماليك خاصة القوى الصليبية في أطراف البلاد الشامية والقوى النصرانية في أوروبا ، فأرسل قادة المغول الوفود المتتابة الى أوروبا لطلب المساعدة العسكرية في قتال المماليك وللحصول على المساعدة المالية ، وقد باءت تلك المحاولات بالفشل بعد اعتناق بعض القبائل المغولية للإسلام ، في الوقت الذي كانت القوى النصرانية تبذل جهدها من أجل تحويل المغول الوثنيين الى اعتناق الديانة النصرانية ، وقد حاول بعض قادة المغول بفارس استمالة الدول الأوروبية باعلانه اعتناق الديانة النصرانية ، أو زواجه من نصرانية ليكسب بذلك ودّ تلك الدول ، وليحصل على الدعم المعنوي والمادي للقضاء على الدولة الإسلامية التي تحكم الديار المصرية والبلاد الشامية وهي الخلافة العباسية .

وقد تباطأت تلك الدول في نصره المغول وتنفيذ ما وعدت به من مساعدة " لأنها لم تقتنع بوجود قوة عسكرية يمكنها أن تحقق ما عجزت عنه الحملات الصليبية طيلة قرنين من الزمان وهو الاستيلاء على بيت المقدس واستعادته من أيدي المسلمين بصفة نهائية ، ولذلك اكتفى الغرب الأوروبي بتقديم الوعود الكاذبة لقادة المغول بهدف اذكاء روح العداة بين الجانبين المغولي والمملوكي " (١) .

وبالنسبة للسلاطين المماليك فقد استطاعت أسرة المنصور قلاوون ومن جاء بعده من أبنائه أن تدير الصراع مع المغول والصليبيين بمهارة ، فنجحت هذه الأسرة

(١) أحمد سليمان : تيمور لنگ ودولة المماليك الجراكسة ٩٤ ، نظير سعداوى : الحرب والسلام ١١٨ .

في الحاق الهزائم العديدة بملوك مغول فارس وتبديد أحلامهم في الاستيلاء على بلاد الشام بالإضافة الى القضاء نهائيا على الكيانات المملوكية التي كانت متواجدة ببلاد الشام وسعى سلاطين بني قلاوون للاستفادة من حالة العداء القائمة بين حلفائهم مغول القفجاق ، وأعدائهم مغول فارس ، وحرصوا على توطيد تلك العلاقة وتدعيم العلاقات الودية مع خانات مغول القفجاق بعد تزايد أعداد الداخلين في الاسلام من أفراد تلك القبيلة ، وتوافد أعداد منهم للانضمام الى جيش السلطنة المملوكية^(١) ، وذلك تحت ظل الخلافة العباسية .

ويظهر الأثر السيء للإدارة الاقتصادية للخلافة العباسية في ظل نفوذ السلاطين المماليك أثناء الاستعدادات العسكرية لقتال المغول ، فقد عجز أولئك السلاطين عن الاستفادة من موارد الدولة المالية وانفاقها بما يخدم المجهود العسكري في ظل اعتداءات ملوك المغول ضد البلاد الاسلامية ، ففي غمرة الحملات العسكرية

(١) أحمد سليمان : المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون ٩٥٠ . وانظر : ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ٢٨٨ - ٢٨٩ ، ٢٩٨ ، المنصوري : التحفة المملوكية ٩١ ، ١٠١ . ابن حجر : انباء الغمر بأنباء العمر ١٣٨/٤ ، ابن عربشاه : عجائب المقدور ١٠٧ ، ١٢٥ . الداوار : زبدة الفكرة ١٢٧ ، ٣١٦ ، ٣٧٥ . الشوكاني : البدر الطالع ١٧٣/١ . أكرم العسلي : تيمورلنك ١٢٣ ، عماد الدين خليل : دراسات تاريخية ٢٨ ، ٣٥ . محمد حمادة : دراسة وثيقة للتاريخ ٣٥١ ، عبد الحليم عويس : دراسة لسقوط ثلاثين دولة ١٣١ . عبد الله الشراوي : تحفة الناظرين ١١٣ . عمر رضا كحالة : العالم الاسلامي ١١٨ ، اسماعيل ياغي : تاريخ العالم الاسلامي ١٣ ، نظير سعداوي : الحرب والسلام ١١٨ . علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٤٤ ، فتحية النبراوي : العلاقات السياسية الاسلامية ٢٧٩ ، محمد عنان : مصر الاسلامية ١٥٣ ، محمود شبكة : دولة المماليك في مصر - مجلة الأزهر - العدد ٣ ، سنة ١٣٩٢ هـ ص ٢٦٥ - ، محمد العبيد : فدثيون في تاريخنا - مجلة العرب - العدد ١٢ سنة ١٣٩٠ هـ ص ١٠٦٨ ، محمد فريد بك : مواكب سلاطين مصر ، مجلة الرسالة ، العدد ١٣٩ ، سنة ١٣٥٤ هـ ، ص ٣٢٥ ، محمد الحصري : منتخبات التواريخ لدمشق ١٩٤/١ ، ١٩٨ .

المغولية كانت خزائن الدولة خالية من الأموال اللازمة للانفاق على تجهيز العساكر السلطانية ، وعمد السلطان المملوكي الى الاقتراض من التجار وأخذ أموال الناس بالقوة وعن غير وجه حق ، فكثرت الدعاء عليه وعلى عماله في وقت كان السلطان في أحوج ما يكون الى كسب ود الرعية ورفع الروح المعنوية لعساكره وجنوده ، وهو يتجهز لقتال المغول ، والحصول على تأييد الرعية له بوقوفهم الى جانبه باظهار طاعته والدعاء له بالنصر على الأعداء ، فكانت الجبهة الداخلية في ظل ذلك الوضع مفككة العرى مما أثر في الروح المعنوية للعساكر السلطانية التي كانت تنرد عن القتال على الجبهة الخارجية لتصد أطماع المغول عن البلاد الاسلامية في الشام ومصر ، متعذرة في أحيان كثيرة بعدم أخذها بالنفقة اللازمة للاستعداد للقتال .

* * * * *

الفصل الثاني

حركة الجهاد ضد الصليبيين

تعرضت البلاد الاسلامية مع بداية القرن الخامس الهجرى لحملات عسكرية صليبية استمدت جذورها من عداوة الدول الصليبية للإسلام والمسلمين خاصة بعد توغل الفتوحات الاسلامية في أراضي الممالك المسيحية في الدول الأوروبية ، مثل أسبانيا وجنوب فرنسا وغيرها ، وقد ساعد على قوة تلك الحملات وتتابعها على البلاد الاسلامية الرغبة في القضاء على الاسلام وقوة المسلمين العسكرية التي أصبحت تهدد بقية تلك الممالك الأوروبية ، ثم الطمع في استغلال خيرات البلاد الاسلامية والاستيلاء على ما بيد المسلمين من ممتلكات والسيطرة على البلاد الاسلامية من خلال اقامة أمارات صليبية مستقلة في الشرق الاسلامي . (١)

ومع بداية وصول تلك الحملات الصليبية الى ديار الاسلام حاول المسلمون التصدي لها ، ولكن جبهتهم الداخلية كانت لا تقوى على الوقوف بوجه هذا السيل الجارف من جموع الصليبيين ، فاتسمت المقاومة الاسلامية بالضعف في بعض الأحيان مما مكن أولئك النصارى من اقامة أربع أمارات صليبية في بلاد الشام في ظل انقسام الممالك الاسلامية وتفريق كلمة حكامها ، وانشغال بعضهم بقتال البعض الآخر ، ومع ذلك استمر المسلمون في مقاومة الغزاة طيلة القرن الخامس الهجرى وحتى النصف الثاني من القرن السادس الهجرى مع سعيهم لتقوية الجبهة الداخلية لمواجهة تلك الاعتداءات والأطماع الصليبية . (٢)

وبعد قيام سلطنة المماليك وفي ظل التبعية للخلافة العباسية بالديار المصرية واجه السلاطين المماليك عند فجر دلتهم التي أقاموها خطر المغول ، ونجحوا في مواجهة هذا الخطر والتغلب عليه وحماية الديار المصرية والبلاد الشامية من شـهـره ،

(١) علي الخربوطلي : مصر العربية الاسلامية منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني

٢٦٠ - ٢٦١ .

(٢) خاشع المعافيدى : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٧٥ .

ثم واجه السلاطين الخطر النصراني وهو خطر آخر كان ينبغي عليهم مواجهته بنفس روح الشجاعة وقوة التميم التي واجهوا بها الخطر الأول ، وتظهر أوجه الشبه بين الخطرين المغولي والصليبي في أنهما متفقان على أن لهما عدو مشترك واحد هو الاسلام والمسلمين في الشرق الاسلامي ، ومع أن المغول في دولة فارس كانوا وثنيني الديانة ، إلا أن الميول المسيحية لا يمكن اخفاؤها في سياسة تلك الدولة ، فضلا عن أن بعض قسوى النصارى حرصت على استغلال قوة المغول في القضاء على الكيان الاسلامي بالاضافة الى الاتصالات بين المغول من ناحية والقوى المسيحية ، وفي أوروبا من ناحية ثانية ، وما يؤكد الميول المغولية نحو النصارى في الشام أن رجال هولاء كوخان كانوا كلما استولوا على مدينة من مدن الشام الاسلامية مثل حلب أو دمشق أسرفوا في اظهاد أهلها المسلمين وامتهان مساجدهم ، وفي المقابل اعتنوا بتأمين العناصر النصرانية وحمايتها وعدم التعرض لها واحترام دور عبادتها . (١)

أوجه الشبه بين الخطر المغولي والخطر الصليبي :

تظهر أوجه الشبه بين الخطرين المغولي والصليبي في أن كلاهما كان خطرا خارجيا لم ينبع من داخل البلاد الاسلامية ، وإنما أتى على شكل حملات عسكرية خطيرة ليدهم المسلمين والبلاد الاسلامية ، فالمغول قدموا من أقصى الشرق ، والصليبيون قدموا من أقصى الغرب ، والجميع أرادوا أن يتخذوا من البلاد الاسلامية مستقرا ومقاما لهم ، مما جعل المسلمين في تلك الفترة يحسون بمرارة قاسية عند ما رأوا أنفسهم بين شقي رحى عظيمة تريد أن تسحقهم وتقضي على كياناتهم .

أما أوجه الخلاف بين الخطرين المغولي والصليبي فيلاحظ أن الأخير منهما

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٥٣٠ .

أعمق جذورا وأقدم عمرا من التحدي المغولي ، فبينما كان الخطر المغولي من النوع الداهم المفاجيء ، الذي لا يرتبط إلا بالرغبة في الملك والتوسع والسلب والنهب وسفك الدماء والتدمير ، نجد الخطر الصليبي على البلاد الإسلامية يرتبط بأصول قديمة ، ترجع الى حركة الفتح الإسلامي ، ويتخذ هذا الخطر عدوانية متأصلة يخفي وراءها أغراضا أخرى دينية وسياسية واقتصادية وغيرها .

وليس معنى هذا أن الصليبيين كانوا أقل خطرا على المسلمين من المغول الذين كانت حملاتهم أشد عنفا وبدت أكثر قسوة ، ولكن ينبغي أن نعلم أن الخطر الصليبي كان أقرب - لقربه جغرافيا - الى قلب العالم الإسلامي من الخطر المغولي . ولكن قرب مركز الحركة الصليبية من بلاد المسلمين هو الذي جعل الخطر الصليبي يتخذ شكل حملات مستقلة تخرج بين حين وآخر من الغرب قاصدة بلاد المسلمين فتكون هذه الحملات المتتابة أشبه بالدماء الجديدة التي تخرج من القلب لتغذي الأطراف وتبعث فيها أسباب الحيوية والنشاط ، وساعدت تلك الحملات على بقاء الإمارات الصليبية في بلاد الشام لأطول فترة ممكنة ، لأنها وجدت القوة التي تغذيها بين الحين والآخر وتحقق لها البقاء ، أما المغول في فارس والعراق فمهما يقال عن قوتهم فانهم باستقرارهم في تلك البلدان البعيدة عن مراكزهم الأولى التي قدموا منها أضعف من الصلات بينهم وبينها ، ولم يجدوا الدماء الجديدة التي تحيي فيهم أصولهم الأولى المغولية ، فتعرضوا تدريجيا للذبول والانحلال والذوبان البطيء .

وعلى هذا لا ينبغي أن نقلل من خطر الصليبيين بالقياس الى الخطر المغولي ، فقد قامت الخلافة العباسية في مصر وظهرت سلطنة المماليك والمليبيون يحتلون جزءا من أراضي مصر فضلا عن أمارات قوية أسسوها في بلاد الشام ، ودول نصرانية مستقلة تجاوزت معهم في أرمنية وقبرص ، وكانت تلك الإمارات الصليبية في البلاد الشامية

صورة دائمة تعبر عن الخطر الأوروبي على الإسلام ، وتعتمد في تهديداتها الدائم لبلاد المسلمين على قواعد قريبة وثابتة ^(١) ، تم انشاؤها في هيئة امارات نصرانية في مدن اسلامية هامة ببلاد الشام على أعين القوى المسيحية في أوروبا .

وادراكا من السلاطين المماليك الذين تولوا القيادة العسكرية لجيوش الخلافة العباسية لخطورة الموقف أظهروا ثباتا كبيرا في مواجهة الخطر الصليبي لا يقل عن ثباتهم في مواجهة الخطر المغولي ، ونجحوا في التغلب على الخطر الصليبي نجاحا لا يقل عن نجاحهم في التغلب على الخطر المغولي ، بل ربما فاقه ، وذلك لأن المماليك هم أصحاب الفضل - بعد الله عز وجل - في اقتلاع جذور الخطر الصليبي من بلاد الشام وطرد الصليبيين نهائيا من تلك البلاد ، وقد اضطر المماليك الى قتال الصليبيين في نفس الوقت الذي كانوا يقاتلون فيه المغول ،

وبانتصار المماليك على المغول في عين جالوت أمكن للمماليك أن يتغلبوا على أكبر خطرين واجها سلطنتهم الناشئة ، وهما خطر المغول ، وخطر الأيوبيين الذين عارضوا قيام نفوذ للمماليك في مصر بعد مقتل المنز أيبك ، وبذلك أصبح المماليك سادة مصر والشام وحققوا لأنفسهم من المجد ما أضفى عليهم قسطا كبيرا من الأهمية ، ونوعا من الشرعية ، وما دام أن المماليك قد ورثوا الأيوبيين في ملك الشام ومصر كان من الطبيعي أن يرثوا عنهم سياستهم في جهاد الصليبيين وتقويض دعائم ملكهم بالبلاد الشامية ، وإذا كان الأجل لم يمهل المظفر قطز بطل عين جالوت حتى يبدأ في قتال الصليبيين ، فإن الظاهر بيبرس استطاع أن يسهم بسهم وافر في جهاد الصليبيين ^(٢) والتمهيد لطردهم من بلاد الشام بالكلية على أيدي من جاء بعده من السلاطين المماليك .

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٥٣ - ٥٥ .

(٢) المرجع السابق : ٥٥ ، ٥٨ .

وقد تولى الظاهر بيبرس السلطنة المملوكية بالديار المصرية والبلاد الشامية سنة ٦٥٨ هـ بعد مدة وجيزة من رحيل الحملة الصليبية التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع الذي فشل في تغيير الأوضاع السياسية في فلسطين وتدمير مركز الصليبيين فيها ، وان كان قد استطاع باقامته هناك أن يرفع الروح المعنوية للصليبيين في الشام بعد أن انقطعت عنهم الامدادات العسكرية من أوروبا ، وقد أعقب فشل تلك الحملة فترة سكون بين المسلمين والصليبيين . (١)

ثم بعد تولي الظاهر بيبرس السلطنة في الفترة (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ) استطاع أن يثبت أنه من أقدر الحكام وأقواهم وأبعدهم نظرا ، وأثبت مقدرته الكبيرة في إدارة شؤون الخلافة الداخلية ثم التصدي بحزم للصليبيين ، وذلك لأن محاربتهم لا تأتي بالعمل البطولي الارتجالي وحده ، بل لابد من قوة ايمان ورغبة في الجهاد في سبيل الله والتضحية بالنفس والمال واجتماع الكلمة واتحاد الصفوف، وتقوية بناء الجبهة الداخلية أولا ، ثم باعداد العدة ثانيا " . (٢)

تنظيم الجبهة الداخلية لدولة الخلافة :

بدأ الظاهر بيبرس باصلاح الأوضاع الداخلية للخلافة العباسية بالديار المصرية حتى ينطلق بعد ذلك الى خطوته التالية لحماية ديار الاسلام من أطماع الصليبيين ، ففي مجال السياسة الداخلية عمد أولا الى القضاء على الاضطرابات الداخلية وتصفية المخالفين لحكمه الذين احتجوا على مقتل المظفر قطز ، وفي مقدمتهم الأمير سنجر الحلبي الذي أعلن نفسه سلطانا على دمشق وراسل الأمراء والنواب في البلاد الشامية بوجوب

(١) علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٧٩ ، أحمد العبادي : قيام دولة

المماليك الأولى ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٦٠ ، خاشع المعاضدي : تاريخ

الوطن العربي والغزو الصليبي ٢٣٠ .

الدخول في طاعته مما دفع الظاهر بيبرس الى ارسال حملة عسكرية قضت على عميان الأمير سنجر الحلبي واعادة دمشق الى طاعته .

واهتم الظاهر بيبرس ثانيا بتأمين وصول قواته الى البلاد الشامية من خلال السيطرة على المناطق الممتدة بين مصر والشام وجعلها تابعة لحكمه ، ثم أتبع ذلك بتحسين الثغور وأطراف البلاد ، و عمارة القلاع و الحصون التي خربها المغول ببلاد الشام ، مع تزويدها بالرجال والسلاح من مصر وبعض المدن الشامية الأخرى . (١)

أما الأوضاع الخارجية ، فقد لاحظ الظاهر بيبرس محاولات التقارب والتحالف بين القوى الصليبية و المغول التي تؤكد حرص الصليبيين على تحقيق أحد أمرين :

١ - اما دفع المغول للاستمرار في ميدان قتال المسلمين لتخف بذلك الوطأة عليهم من جهة ، ويتم اضعاف شوكة المسلمين وقوتهم العسكرية من جهة ثانية .

٢ - أو ايجاد تحالف صليبي مغولي بعد النصر العظيم الذي تحقق للمسلمين على المغول في عين جالوت ثم طردهم من بلاد الشام ، مما يزيد من التضييق على الصليبيين بالشام بعد أن أصبحت سلطنة المماليك تضم الديار المصرية و البلاد الشامية . (٢)

وظهرت للسلطان الظاهر بيبرس الشواهد على تعاون الصليبيين مع المغول ضد المسلمين ، ومن ذلك أنه عندما عزم السلطان على قتال المغول واخراجهم من حلب جهّز حملة عسكرية للقيام بتلك المهمة ، فلما وصلت العساكر السلطانية الى مدينة غزة سارع الصليبيون الى مكاتبة المغول يخبرونهم بقدم تلك الحملة المملوكية ، وينذرونهم قبل وصولها اليهم ، فرحل المغول عن حلب مسرعين في ربيع الأول سنة ٦٥٩ هـ . (٣)

(١) خاشع المعاضيدى : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٢) عبد الله الغامدى : جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين ١٥٦ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٣/١٤ .

وفي سنة ٦٦٣ هـ كاتب الصليبيون قادة المغول يخبرونهم بضعف الاستعدادات الإسلامية وتفترق العساكر السلطانية ، ترغيباً لهم على انتهاز تلك الفرصة ومهاجمة البلاد الإسلامية بالشام ، فاستجاب المغول لذلك . (١)

وبهذا أصبح الصليبيون يتعاونون مع مغول فارس ضد الخلافة العباسية وسلطنة المماليك بالديار المصرية والبلاد الشامية ، ويعملون أدلاء لجيوشهم المغيرة على البلاد الشامية ، وقد ساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافي في الشام الذي أتاح لهم معرفة تحركات العساكر المصرية والشامية واحاطة المغول علماً بها ، مما سهل إفشال خطط المسلمين في بعض الأحيان ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل نجد بعض الإمارات الصليبية قد سمحت لعدد من الحملات المغولية بالنزول في حصونها من باب التعاون العسكري والدفاع المشترك ضد المسلمين ، وقد كانت تلك الحركة الماكرة من جانب الصليبيين في البلاد الشامية من الأسباب التي دفعت السلطان الظاهر بيبرس وخلفاؤه باتباع سياسة الحزم والشدة مع الوجود النصارى بالبلاد الشامية إذ عَزَزَ عليهم أن يكونوا مُرَاقِبِينَ من الصليبيين لحساب المغول . (٢)

معاهدات ومحالفات :

على الصعيد الخارجي أثبت الظاهر بيبرس بعد نظر وذكاء منقطع النظير عند ما بدأ بتقوية مركزه سياسياً ضد الصليبيين منذ سنة ٦٥٨ هـ بإبرام سلسلة من المعاهدات والاتفاقات الودية مع الملوك المجاورين لمملكته وغير المجاورين لها . (٣)

فعلى سبيل المثال بدأ بمغول القفجاق فكاتب زعيمهم بركة خان الذي اعتنق الإسلام واشتهر بعدائه لمغول فارس يحرضه على قتال الكفار بعد دخوله في الإسلام ،

(١) شافع بن علي : حسن المناقب السرية ٨٧ - ٨٨ .

(٢) أحمد العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٣) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٦١ .

فاستجاب بركة خان لما طلب منه، وقاد جيوشه لقتال هولاء كو خان ، وبذلك حقق السلطان الظاهر بيبرس هدفه المنشود باشغال هولاء كو عن التحالف مع التتار ضد من جهة ، وزاد من حدة الاضطراب الذي عم بلاد المغول بسبب ذلك الصراع المرير من جهة ثانية ، مما أدى الى هروب جماعات مغولية الى الديار المصرية وبلاد الشامية بعد ما سمعوه عن تسامح المسلمين و حسن معاملتهم للوافدين عليهم ، فشجع ذلك بعض الأمراء المغول للانفصال عن زعيمهم هولاء كو خان مما أثر في قوته العسكرية ، وكان السلطان الظاهر بيبرس يصد ر تعليماته الى نوابه باكرام الوافدين و تقد يسم كل ما يحتاجون اليه و انزالهم في دور بنيت لهم ، ثم اتباع ذلك باعطائهم الاقطاعات ، وقد حقق بيبرس بتعاونه مع بركة خان نصرا على هولاء كو ظهر واضحا في تلك الجموع المغولية الوافدة على سلطنة المماليك ، فالمصادر التي أوردت أنباء و صول هذه الوفود التي كانت تصل على فترات متقطعة و بأعداد ضخمة لم تشر الى أنهم من عند بركة خان المغولي زعيم القبيلة الذهبية ، بل و صفتهم بعبارة المستأمنين المغول ، وهذا الوصف يؤكد أن هذه الجموع المغولية التي جاءت مستأمنة هي من مغول فارس أتباع هولاء كو خان ، و إلا لما كانوا وصفوا بالمستأمنين في ظل العلاقات الجيدة بين الخلافة العباسية و سلطنة المماليك و مغول القبيلة الذهبية . (١)

وبعد تحالف الظاهر بيبرس مع مغول القبيلة الذهبية اهتم بعقد معاهدات مع القوى النصرانية المجاورة للسلطنة ، فاتصل بالامبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني الذي كان حريصا هو الآخر على التحالف مع السلطان الظاهر بيبرس و تقديم المساعدة له ، وفي الواقع أن كلا من الظاهر بيبرس و الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني كان حريصا على التقارب من الآخر ، فالسلطان المملوكي الظاهر بيبرس الذي تمكن بتحالفه مع

(١) عبد الله الغامدي : جهاد المماليك ضد المغول و الحلبيين ١٥٧ - ١٥٩ .

خان القفجاق (بركة) من الحد من خطورة قيام حلف مغولي صليبي ضد دولته ، كان يخاف نتيجة لذلك أن يقدم الصليبيون في سواحل البلاد الشامية على استرضاء الامبراطور البيزنطي ، وعقد تحالف معه ضد سلطنة المماليك ، لذا كان عليه أن يبادر الى اجراء اتصالاته مع البيزنطيين لمنع احتمال قيام ذلك الحلف الجديد ، وفي الوقت نفسه كان الامبراطور البيزنطي يحرص هو الآخر أشد الحرص على مصادقة السلطان الظاهر بيبرس لاشتراكهما معا في عداوة الصليبيين بالبلاد الشامية ، فضلا عن أن الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني كان يتعرض بين آونة وأخرى لغارات مغول القبيلة الذهبية ، فكان يرى أن مصادقته للسلطان المملوكي الظاهر بيبرس حليف بركة خان هو السبيل الوحيد لكف مغول القفجاق عن مهاجمة بلاده ، فقد كاتب الامبراطور البيزنطي الظاهر بيبرس أكثر من مرة يطلب منه التوسط لدى بركة خان حتى يوقف غاراته على بلاده بناء على معاهدة المداقة بين الامبراطورية البيزنطية والسلطنة المملوكية .

وبالإضافة الى تلك المعاهدة عقدت معاهدات واتفاقات مع سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، ومع (مانفرد) ملك صقلية ، ومع الملك (شارل) صاحب مرسليليا ، و(الفونسو العاشر) ملك قشتالة الأسبانية ، وتبودلت السفارات والهدايا والمكاتبات بين السلطان الظاهر بيبرس وأولئك الحكام والملوك ، وعند التساؤل عن السبب الذي دفع ملوك تلك الدول الى خطب ودّ الظاهر بيبرس مع ما عرف عنه من عداوة لأبناء جلدتهم الصليبيين في البلاد الشامية ، نجد أن الأوضاع الداخلية في تلك الممالك والمشاكل والخلافات التي كانت سائدة بين حكامها هي التي دفعتهم الى عقد تلك الاتفاقات والمعاهدات قاصدين بذلك استرضاء الظاهر بيبرس بطريقة غير مباشرة لمنعه عن مهاجمة بقايسا الامارات الصليبية ببلاد الشام بعد أن أدركوا عجزهم عن تقديم أية مساعدة لها ، وعليه يمكن القول أن تلك المعاهدات التي أبرمت بين الظاهر بيبرس وملوك الدول المجاورة للخلافة وللسلطنة من الشرق والغرب جنبت الخلافة والمماليك خطرا كان يتهددهما

من جراء تلك المحاولات التي بذلها منول فارس لعقد حلف مغولي صليبي ضد هما ،
وأصبح الظاهر بيبرس ودولته في وضع أفضل بعد أن استطاع الحد من النشاط المغولي
ضد دولته في الشرق باشغالهم في حروب داخلية ، وحرمانه للتصاريخ ببلاد الشام
من الحصول على أية مساعدة خارجية مما مكّنه من توزيع جهاده على الجبهتين المغولية
والصليبية . (١)

وعن مدى التزام تلك الأطراف التي عقد معها السلطان الظاهر بيبرس تلك
المعاهدات والاتفاقات نجد الامبراطور البيزنطي (ميخائيل الثاني) استمر في اتباع
السياسة التقليدية التي اتبعتها الدولة البيزنطية تجاه الصليبيين وهي سياسة العداء
والحذر ، أما ملك صقلية فقد تعهد للسلطان الظاهر بيبرس بعرقلة سير أي حملة
صليبية جديدة من أوروبا ، وتنبيه حليفه السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عن أي نشاط
صليبي يظهر في أوروبا بهدف مساعدة الصليبيين في البلاد الشامية ، أما الأمير بركة خان
ملك مغول القبيلة الذهبية فكان العدو واللذود لمغول فارس ، وفي استطاعته أن
يهددهم تهديدا يحول دون قيامهم بمساعدة الصليبيين مساعدة فعلية .
ومثل هذا يمكن أن يقال عن دولة السلاجقة بآسيا الصغرى ، لأن تهديد هؤلاء
السلاجقة لمغول فارس من ناحية ، وللمملكة أرمنية من ناحية أخرى كان أعظم ما يمكن
أن يقدمه حليف لبيبرس أثناء حربه مع البقايا النورانية بالبلاد الشامية التي حاولت
المحافظة على وجودها واستمرار احتلالها لبعض المدن بالشام .

وبعد أن تغلب الظاهر بيبرس على المشاكل الداخلية والخارجية التي
واجهته أخذ يتفرغ لقتال الصليبيين ، والحقيقة التي تواجهنا من نشاطه ضد أعداء
الاسلام في تلك الحقبة أنه يصعب وضع خط فاصل بين حروبه ضد المغول وحروبه ضد

(١) عبد الله الغامدي : جهاد المماليك ضد المغول الصليبيين ١٦٠ - ١٦١ .

المليبيين ، فكثيرا ما كان الظاهر بيبرس يخرج على رأس جيوشه من مصر لمحاربة أحد الخصمين فيحارب الآخر منهما ، أو يحارب الاثنين معا في بعض الأحيان ، وإذا كنا لاحظنا أن حروب السلطان الظاهر بيبرس ضد المغول امتازت بالقوة والشجاعة والمثابرة ، فإننا يجب أن نذكر في نفس الوقت أن حروبه ضد المليبيين كانت أكثر استمرارا وأوسع نطاقا ، وأشد عنفا من حروبه ضد المغول . (١)

ويلاحظ أن الحروب مع المغول كانت مؤقتة متقطعة ، تأتي في أوقات متباعدة نسبيا ، وذلك عندما يجرؤ المغول على مهاجمة بلاد الشام ، وطالما ظل المغول قابعين في نواحي فارس والعراق ، ولا يبدؤون بالهجوم على أطراف دولة الخلافة في الشام لم يحاول السلاطين المماليك أن يهاجموهم ، أما الخطر المليبي ، فكان من نوع آخر ، لأن المليبيين كانوا عند قيام دولة الخلافة منتشرين في بلاد الشام من الشمال والجنوب عن طريق العديد من الحصون والقلاع التي أقاموها داخل البلاد وقرب الساحل ، أو عن طريق المدن الشامية التي ظلوا يسيطرون عليها ويتحكمون فيها ، وهكذا صار الاحتكاك بين المسلمين والمليبيين بالشام مباشرا ، ومتصل الحلقات ، ومتكرر الوقوع ، ولذلك كان السلاطين المماليك أكثر احساسا بالخطر المليبي منهم بالخطر المغولي الذي لم يحسوا به إلا وقت خروج المغول من بلادهم لمهاجمة أطراف البلاد الشامية ومحاولة التوغل فيها . (٢)

ويظهر من هذا أن الخلافة العباسية في مصر واجهت في بعض الأحيان أطماع المغول من جهة ، والمليبيون من جهة أخرى في وقت واحد ، مما ضاعف من خطورة تلك التحركات المتزامنة على أراضي الخلافة العباسية بمصر والشام .

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٦١ - ٦٢ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٥٩ .

في أوائل سنة ٦٥٩ هـ بدأ السلطان الظاهر بيبرس بوجه حملاته العسكرية الحربية ضد الصليبيين ، ووضع لنفسه مخططا خارجيا ضخما ، كانت أبرز أهدافه حماية البلاد الإسلامية من خطر المغول ، والقضاء على الصليبيين وطردهم من ديار الإسلام (١) ، وبدأ جهودهم بمراجعة مواقف الصليبيين من المعاهدات التي عقدوها معهم " حيث هادنهم حسب سؤالهم ، فوجد أنهم لم يقفوا عند شروط الهدنة واعتمدوا أمورا تقضي بفسخها ومنها : عدم انفاذ أسارى المسلمين الذين بأيديهم ، وقيامهم ببناء أسوار على مدينة أرسوف (٢) ، وكان من شروط الهدنة ألا يجدوا بناء ، ثم قيام الصليبيين بالتعرض لرسول السلطان الظاهر بيبرس المسييرين إلى قبرص " . (٣)

ثم أتبع السلطان الظاهر بيبرس ذلك بالقيام بحملات عسكرية خاطفة على مراكز تجمع القوى الصليبية بنواحي البلاد الشامية ، قاد بعض تلك الحملات بنفسه ، وأرسل كبار قادته لقيادة البعض الآخر منها ، وكانت تلك المناوشات الحربية على جبهات متعددة وقعت في وقت واحد ، وكان الظاهر بيبرس يتفقد قواته ويتنقل بين معسكراتها ويوزعها توزيعا عسكريا خافيا ، ونتج عن تلك التحركات العسكرية تحطيم معنويات الصليبيين في بلاد الشام واحساسهم بالخطر الذي بات يتهددهم من الظاهر بيبرس مما دفعهم للمصارعة بإرسال الوفود لمقابلة السلطان الظاهر بيبرس وتجديد المعاهدات السابقة التي نقضوها ، فقابل الظاهر بيبرس وفود الصليبيين بمنتهى الشدة

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٦٢ ، الأيوبيون والمماليك ٢٣٥ .

(٢) مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية وياغا .

(الحموى : معجم البلدان ١٥١/١) .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥٦/١١ ، المقرئ : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ٤٨٤

شافع بن علي : حسن المناقب السرية ٥٧ ، ابن عبد الظاهر : سيرة

الملك الظاهر ١٧٩ .

مما يدل على تصميمه على استخدام مبدأ القتال في تصفية الوجود الصليبي بالبلاد الإسلامية . (١)

واستمر السلطان الظاهر بيبرس في شن حملاته الحربية ضد الصليبيين التي كانت في مجموعها سلسلة متصلة الحلقات من الانتصارات العظيمة التي أظهرت السلطان بيبرس في صورة بطل دائم الحركة بين الديار المصرية ، والبلاد الشامية منذ استلامه مقاليد السلطنة ، فاهتم باستئصال شأفة الصليبيين من بلاد الشام ، لأنه كان يعتبرهم دخلاء عليها ، إذ لا سلامة للدولة الإسلامية مع وجودهم ، وعقد العزم على تنفيذ مخططه بحزم وقوة لاخراجهم من بلاد الإسلام ، فكان عهد نقطة تحول في تاريخ جهاد المسلمين للصليبيين . (٢)

فلم يخل عام من الأعوام العشرة من بداية حكمه وتسلمه السلطنة المملوكية إلا وكان يشن فيه حربا على الوجود الصليبي بالشام ، ويسترد أرضا من الأراضي الإسلامية الباقية في أيديهم . (٣)

الجهاد في عهد الحاكم بأمر الله :

خرج الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٢ هـ بعساكره ، فقصد بلاد الساحل لقتال الصليبيين ، فاستولى على قيسارية^(٤) وتسلم قلعتها وهدمها ، ثم انتقل الى مدينة

-
- (١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٥٩ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٧٩ ، أحمد العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ٢٢٣ ، خاشع المعاضدي : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢٣٤ .
- (٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٦٢ ، عبد الله الغامدي : جهاد المماليك ١٦٢ .
- (٣) شفيق جاسر : المماليك البحرية وقضاؤهم على الصليبيين في الشام : مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، العدد ٧٥ ، سنة ١٤٠٧ هـ ، ص ١٢٩ .
- (٤) بلد على ساحل بحر الشام ، تعد من أعمال فلسطين ، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام ، فتحت عنوة في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه . (الحموي : معجم البلدان ٤/٤٢١) .

أرسوف ففتحها وقتل من بها من المحاربين الحليبيين بعد أن حاصرها قرابة أربعين
 يزما ، ومنها انتقل الى يافا (١) ، و عثليت (٢) فاستعادهما من أيدي الحليبيين (٣) ،
 ثم قعد السلطان الظاهر بيبرس مدينة عكا ، غير أنه لم يستطع أن يحررها من الوجود
 الحليبي نظرا لمساعدة ملك قبرص للمدافعين عنها وامدادهم بأسطول ضخم شمل
 كل قوة قبرص البحرية ، ولذلك تركها الظاهر بيبرس وعاد الى الديار المصرية . (٤)

وقد أقلقت أنباء انتصارات الظاهر بيبرس الامارات الحليبية ، ورغب بعضها
 في عقد صلح معه ، ولكنه رفض ذلك وآثر الاستمرار في قتال الحليبيين حتى يقضي عليهم،
 (٥)

-
- (١) مدينة على ساحل بحر الشام ، من أعمال فلسطين ، افتتحها صلاح الدين الأيوبي
 سنة ٥٨٣ هـ . (الحموى : معجم البلدان ٤٢٦/٥) .
- (٢) اسم لحصن بسواحل الشام ، ويعرف بالحصن الأحمر ، كان فيما فتحه
 الناصر يوسف بن أيوب سنة ٥٨٣ هـ .
 (الحموى : معجم البلدان ٨٥/٤) .
- (٣) الحريري : الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين ١٠١ - ١٠٢ ، ابن
 عبد الظاهر : الروض الزاهر ٢٩٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ / ٢٥٨ ،
 ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٣٨/٧ .
- (٤) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٦٢ ، خاشع المعاضيدى : تاريخ
 الوطن العربي والغزو الحليبي ٢٣٤ .
- (٥) على حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٨٠ ، أحمد العبادى : قيام دولة
 المماليك الأولى ٢٢٣ .

واهتم الظاهر بيبرس بالقضاء على العناصر الصليبية التي عاونت المغول في قتالهم للمسلمين وتخريب بلادهم ، وعلى رأسهم ملك أرمينيا (هيثوم) الأول ، الذي تحالف مع المغول بشكل مباشر ، وأمدهم بفرقة من جنوده لقتال المسلمين بالشام ، ومثله صاحب أنطاكية (بو هيمنند) السادس الذي تحالف مع مغول فارس على قتال المسلمين . (١)

ثم قاد السلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ هـ العساكر السلطانية وتوجه نحو مدينة صفد فأحاط بها ، ولم يزل بها حتى افتتحها ونزل أهلها على حكمه ، وتسلم البلد فقتل المقاتلة وسبى الذرية واستعادها من الفرنج قهرا ، وكان الظاهر بيبرس في نفسه منهم شبيها كثيرا ، فقد أرسلوا إليه يطلبون الأمان ، فأجلس الظاهر بيبرس على سرير مملكته الأمير سيف الدين درمون ، فجاءت رسل أهل صفد وقد موا إليه الهدايا وانصرفوا وهم لا يشعرون أن الذي أعطاهم العهد بالأمان إنما هو الأمير وليس الظاهر بيبرس ، والحرب خدعة وأمكن الله الظاهر بيبرس منهم فأمر بضرب رقابهم عن آخرهم جزاء لهم على ما فعلوه بالمسلمين من الأفاعيل ، ثم بعث الظاهر بيبرس سرايا يمينا وشمالا ، فاستولى المسلمون على حصون كثيرة تقارب عشرين حصنا ، وأسروا قريبا من ألف أسير ، وغنموا شيئا كثيرا . (٢)

وزاد نشاط الظاهر بيبرس في إزالة القواعد الصليبية ببلاد الشام خاصة المناطق الساحلية ، وفي مقدمتها مدينة صفد التي وصف الظاهر بيبرس بعد استيلائه عليها بالغمرة من قبل القوى الصليبية بالبلاد الشامية ، فقد أغضبها تزايد حملات الظاهر بيبرس وتساقط المدن والقلاع والحصون التي كانت بأيدي الصليبيين

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٦٠ ، خاشع المعاضيدى : تاريخ

الوطن العربي ٢٣٥ .

(٢) بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية في الدولة التركية ٥٥ ، شافع بن علي :

حسن المناقب السرية ٥٧ .

الواحدة تلو الأخرى ، ولا مجال للكلام هنا عن الغنم مع أناس مثل هؤلاء القوم الذين كان الغدر هو شيمتهم على مدى تاريخهم الطويل في حرب الاسلام والمسلمين ، وحسبنا أن نتصفح أخبارهم لنجد أمثلة مشابهة كثيرة في هذا الشأن . (١)

وأظهر الظاهر بيبرس الغضب لله ولرسوله ، وعزم على الأخذ بشار المسلمين الذين وقع عليهم ظلم تلك القوى الصليبية بالبلاد الشامية ، ومن ذلك أنه لما استولى على مدينة صفد أخبره بعض من كان فيها من أسرى المسلمين بأن سبب أسرهم أن أهل قرية تدعى (قارا) كانوا يأخذونهم فيحملونهم الى الفرنج فيبيعونهم منهم ، فعند ذلك ركب الظاهر بيبرس قاصدا أهل تلك القرية فأوقع بهم بأسا شديدا وقتل منهم خلقا كثيرا ، وأسر منهم ، أخذا بشار المسلمين جزاءه الله خيرا . (٢)

تأديب ملك أرمينيا :

أراد السلطان الظاهر بيبرس تأديب الأرمن في مملكة أرمينيا الصغرى الذين تحالف ملكهم هيثوم الأول مع مغول فارس بشكل مباشر وأمدهم بفرقة من قواته لحرب المسلمين بالشام ، فوجه الظاهر بيبرس العساكر السلطانية في جيش هائل بقيادة الأمير قلاوون ، فجاس الجيش الاسلامي خلال الديار وفتحوا مدينة سيس (٣) عنوة ، وأسروا ابن ملكها وقتلوا أخاه ، وأخذوا بشار الاسلام وأهله منهم ، فانهم كانوا أضر شيء على المسلمين عند قدم المغول لأخذ مدينة حلب ، ثم كانوا بعد ذلك يغيرون على بلاد المسلمين مساعدة لهولا كوخان ، وعاد الظاهر بيبرس الى الديار المصرية بعد

(١) العبادي : قيام دولة المماليك ٢٢٣ ، يوسف غوانمة : التاريخ الاسلامي لشرقي الأردن ٦٣ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٦١/١٣ .

(٣) ويقال لها سيسة ، وهي من أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس ، وبها مسكن سلطان تلك الناحية من بلاد الأرمن .
(الحموي : معجم البلدان ٢٩٧/٣) .

أن ترك من الأسرى والمغانم ما لا يحصى بالبلاد الشامية ، وسعى صاحب سيس في دفع الغدية لانقاذ ابنه من الأسر ، فكان ردّ الظاهر بيبرس بقوله : لا نغاديه الآ بأسير لنا عند المغول يقال له : سنقر الأشقر ، فذهب ملك الأرمن هيثوم الأول الى ملك المغول فتذلل له وتمسكن وخضع له حتى أطلق ذلك الأمير المملوكي ، فلما وصل الى الظاهر بيبرس أطلق ابن صاحب سيس ، يضاف الى ذلك أن ملك أرمينية تنازل للظاهر بيبرس عن العديد من الحصون المهمة والقلاع التي كانت بأيدي الأرمن ، وعادت العساكر الى الديار المصرية وهي في غاية العز والنصر . (١)

وقد نتج عن هذه الحملة العسكرية ضد مملكة أرمينا تخريب عاصمتها سيس ، وخسارة تلك المملكة لدورها في الأحداث في بلاد الشام . (٢)

ولم يستقر المقام بالسلطان الظاهر بيبرس اذ كان دائب الحركة والتنقل في أرجاء سلطنته الفسيحة يتفقد أحوالها ويعمل على حمايتها من الأخطار التي تحيط بها ، ولم يهدأ له بال بعد أن صرف معظم جهده لقتال أعداء المسلمين من المغول والصليبيين (٣) ، ونجده في رجب سنة ٦٦٥ هـ يعود الى البلاد الشامية ففرح أهل البلاد بقده ومه فرحا كثيرا ، فتوجه نحو صدد فأمر بحفر خندق حول قلعتها ، وعمل بنفسه في حفر ذلك الخندق ، ثم أمر بعمارة أسوار صدد واصلاح ما خرب من قلعتها (٤) ،

-
- (١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ٢٦٩ ، المنصوري : التحفة الملوكية ٥٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٦٢/٣ ، ابن اياس : بدائش الزهور ٣٢٥/١ .
- (٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٦٢ ، المعاضدي : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢٣٥ .
- (٣) يوسف غوانمة : التاريخ السياسي لشرقي الأردن ٦٣ ، عبد الله الغامدي : جهاد المماليك ضد المغول ١٧٠ .
- (٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٦٢/١٣ - ٢٦٣ .

وهدف من ذلك لاتخاذ تلك القلعة نقطة انطلاق للقوات الاسلامية في أعماله العسكرية المقبلة ضد المواقع الصليبية بالبلاد الشامية . (١)

وفي شهر جمادى الآخرة من سنة ٦٦٦ هـ خرج الظاهر بيبرس من الديار المصرية فنزل على مدينة يافا بغتة ، فأخذها عنوة ، وقد سلم اليه أهلها قلعتها صلحاً ، فأجلاهم منها الى عكا ، ثم سار منها قاصداً حصن الشقيف (٢) ، وفي بعض الطريق قبض على حامل البريد من أهل عكا الى أهل الشقيف يعلمونهم بقدم السلطان الظاهر بيبرس نحوهم ويأمرونهم بتحسين البلد ، والمبادرة الى اصلاح الأماكن التي يخشى على البلد منها ، ففهم السلطان الظاهر بيبرس كيف يأخذ البلد ، وعرف من أين تؤكل الكتف بعد أن عرف نقاط الضعف حول ذلك الحصن ، وزاد السلطان الظاهر بيبرس على ذلك بأن قصد بذر أسباب الخلاف بين أهل الشقيف قبل وصوله اليهم ، فاستدعى من فوره رجلا من الفرنج فأمره أن يكتب بدله كتابا على السنة أهل عكا الى أهل الشقيف يحذر فيه الملك من الوزير ، والوزير من الملك ، ويرمي ايقاع الخلاف بينهم ، فلما وصل اليهم ذلك الكتاب أوقع الله الخلاف بينهم بحوله وقوته ، وجاءهم السلطان الظاهر بيبرس فحاصرهم حتى سلموه الحصن وأخرجهم منه الى صور ، ثم توجه الى طرابلس فشن غارة عليها . (٣)

وأمام تلك الضربات العسكرية المتتالية التي وجهها الظاهر بيبرس للقوى الصليبية بالبلاد الشامية ، قدّمت الرسل لمقابلة الظاهر بيبرس تعتذراً عما سلف منها

-
- (١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ٦٧ ، حامد غنيم : الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ١٤٢/٣ .
- (٢) اسم لقلعة حصينة جدا في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق .
(الحموي : معجم البلدان ٢٥٦/٢) .
- (٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٦٥/١٣ ، ابن اياس : بدائشع الزهور ١/٢٣٠ ، ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ٢٩٢ ، المنصوري : التحفة الملوكية ٦٢ .

وتطلب الصلح معه ، وقد استغل الظاهر بيبرس ذلك الموقف لصالحه ، واتبع سياسة ناجحة في تعامله مع تلك القوى الحاكمة على الاسلام والمسلمين ، وذلك أنه لم يرفض طلبها جميعها في عقد الصلح معه حتى لا تتكفل ضده ، وفي نفس الوقت لم يجبرها جميعا الى ما طلبت من الصلح ، وإنما اختار أن يعقد الصلح مع بعضها دون البعض الآخر حتى يتمكن من القضاء عليها واحدة بعد أخرى .

يضاف الى هذا أن السلطان الظاهر بيبرس من خلال عقده لتلك المعاهدات مع القوى الصليبية في البلاد الشامية إنما هو تفضلا عليها حيث أصبحت الدولة الاسلامية تتحدث من منطلق القوة والعزة ، بينما القوى الصليبية آلت الى الضعف والاستكانة بعد ما أصبح الظاهر بيبرس يكتب ما يريد من شروط في نصوص تلك المعاهدات . (١)

فتح أنطاكية :

توج السلطان الظاهر بيبرس أعماله الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على مدينة أنطاكية (٢) التي كانت عاصمة أقوى الامارات الصليبية ببلاد الشام ، وقد أراد السلطان بيبرس القضاء على خطر تلك المدينة على المسلمين بعد تحالفها مع المغول ضد المسلمين فكانت بذلك التحالف تشكل خطرا على الدولة الاسلامية ، ولما سمع حاكم انطاكية بقدم الجيوش الاسلامية أرسل الى الظاهر بيبرس يطلب الأمان ، وشرطوا بعض الشروط ، فأبى أن يجيبهم الى ذلك ، وسمح على حصارها . (٣)

(١) عبد الله الغامدي : جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين ١٨٢ .

(٢) ثغر من ثغور بلاد الشام ، افتتحها أبو عبيدة عامر بن الجراح .

(الحموي : معجم البلدان ٢٦٦/١) .

(٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ٣٠٧ ، الداوار : زبدة الفكر في تاريخ

الهجرة ١٣٥ ، المنصوري : التحفة الملوكية ٦٣ ، ابن كثير : البداية

والنهاية ٢٦٦/١٣ .

وقسم الظاهر ببيبرس قواته الى ثلاث فرق ، ووزعها حول المدينة ليحسبكم حصارها ، وليمنع وصول أى مساعدة اليها من البر أو البحر ، وتولى السلطان الظاهر ببيبرس قيادة القوة الرئيسية بنفسه ، وأخذ في مهاجمة المدينة حتى سقطت بأيدي المسلمين في الرابع عشر من شهر رمضان سنة ٦٦٦ هـ ، فكان بذلك نصرا عظيما فرح له المسلمون على حين ارتجفت البقايا الصليبية في هذه الضربة العسكرية العنيفة . (١)

وقد غنم المسلمون من انطاكية أشياء كثيرة ، ووجد من أسارى المسلمين من أهل حلب خلقا كثيرا ، فقد كان صاحبها ويدعى الأغريريس من أشد الناس أذية للمسلمين خاصة بعدما وقعت مدينة حلب في أيدي المغول ، وفر أهلها منها ، فانتقم الله منه بمن أقامه للاسلام ناصرا وللحليب داما كاسرا ولله الحمد والمنة . (٢)

كان سقوط انطاكية حدثا مهما في تاريخ الحروب الصليبية ، نظرا لكون امارة انطاكية من الامارات الصليبية المهمة في بلاد الشام ، وكانت ثاني امارة أسسها الصليبيون في ديار الاسلام ، فجاء استيلاء المسلمين عليها دليلا على انهيار ذلك البناء الضخم الذي أقامه الصليبيون بالشام (٣) ، وكان تحرير مدينة انطاكية بداية النهاية للمالك الصليبية ، اذ انقطعت صلة الصليبيين في طرابلس و عكا بأرمينية الصغرى وبذلك غدت مصالحهم في الشام مهددة تهديدا مباشرا ، ولم يبق أمام الظاهر ببيبرس سوى مملكة قبرص الصليبية التي اتحدت مع مملكة طرابلس و عكا تحت ملك (هيو) الثالث الذي باشر حكمه بعقد هدنة مع الظاهر ببيبرس حتى يتمكن خلالها من الحصول

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٦٢ ، المعاضيدى : تاريخ

الوطن العربي والغزو الصليبي ٢٣٥ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/٢٦٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١/٣٣٠ .

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٦٢ ، مصر في عصر المماليك

البحرية ٦٣ .

على مساعدات عسكرية من الغرب الأوروبي . (١)

وحاول ملك قبرص (هيو الثالث) استغلال الهدنة التي عقدها معه الظاهر بيبرس في تقوية جبهة الصليبيين بالشام استعدادا للهجوم على القوات الإسلامية ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس لم يكن يحترم الهدنة التي كان يعقدها مع الصليبيين بسين الحين والآخربعدنقضهم لشروطها ، فما أن استقامت له الأمور حتى عاد مسرعا إلى البلاد الشامية ليباشر بنفسه قيادة الجيش ضد آخر معاقل الصليبيين بالشام وهم طرابلس وعكا . (٢)

فقد جاءت الأخبار بأن أهل عكا ضربوا رقاب من في أيديهم من أسرى المسلمين، فعند ذلك أمر السلطان الظاهر بيبرس بضرب أعناق من كان في يده من أسرى أهل عكا فضربت رقابهم في صبيحة واحدة ، وكانوا قريبا من مائتي أسير ، ثم خرج بالعساكر السلطانية قاصدا دمشق ، ومنها توجه لقتال الصليبيين في مواضع مختلفة من بلاد الشام، فافتتح عدة أماكن واستعادها من أيديهم اما عنوة أو صلحا (٣) ، وفي مدة إقامة السلطان لحصار حصن الأكراد جاءته الأخبار بأن صاحب جزيرة قبرص قد ركب بجيشه إلى عكا لينصر أهلها خوفا من قدوم الظاهر بيبرس ، فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة فبعث جيشا كثيفا عن طريق البحر ليأخذوا جزيرة قبرص في غيبة صاحبها عنها ، فسارت المراكب مسرعة فلما قاربت المدينة جاءتها ريح قاصف فصد م بعض المراكب بعضا فغرق من العساكر المسلمة خلق كثير وأسر منهم قرابة ألف وثمانمائة ، وقد حاول الظاهر بيبرس القضاء على محاولات ملك قبرص لتوحيد القوى الصليبية ضد المسلمين ، وتأديب الفرنج الذين يتعرضون للسفن الإسلامية عند مرورها بجزيرة قبرص .

(١) المعاضدي : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢٣٥ ، على حسن : تاريخ

المماليك البحرية ١٨١ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٦٣ ، مصر في عصر المماليك

البحرية ٦٣ ، حسين أمين : الحروب الصليبية ٢٢٧ ، فتحية النبراوي : العلاقات

السياسية الإسلامية ٢٢٨ .

(٣) من هذه المواضع صافيتا ، المجدل ، حصن الأكراد ، طرسوس ، المرقب ، عكار ،

بانياس ، وغيرها .

ثم انتقل الظاهر بيبرس لحصار حصن عكا فسأله أهلها الأمان على ألا يتعرض لهم فأجابهم الى ذلك ، وتسلم الحصن في يوم عيد الفطر ، وكان الحصن شديد الضرر عسلى المسلمين ، ثم سار الظاهر بيبرس نحو طرابلس فأرسل اليه صاحبها يقول له : ما مراد السلطان من هذه الأرض ؟ فقال : جئت لأرعى زروعكم وأخرب بلادكم ، ثم أعود لحصارك في العام الآتي ، فأرسل يستعطفه ويطلب منه المصالحة ووضع الحرب بينهم عشرين سنين ، فأجابه الظاهر بيبرس الى ذلك . (١)

القضاء على معاقل الاسماعيلية (٢) بالشام :

ومن المكاسب التي تحققت للظاهر بيبرس أثناء تلك الحملات العسكرية القضاء على معاقل الاسماعيلية الباطنية ، خاصة بعد أن قبض على زعيمهم وأودعه السجن بالقاهرة ، فبعد عودته من طرابلس أرسل اليه الاسماعيلية يستعطفونه على والدهم الذى سجنه الظاهر بيبرس بالقاهرة ، فرد عليهم السلطان بخدعة أنزلتهم من قلاعهم بقوله : انزلوا فخذوا اقطاعات بالقاهرة ، وتسلموا بأباكم ، فلما نزلوا أمر بحبسهم بالقاهرة وجعل له نائبا بذلك الحصن الذى يعرف بالعليقة . (٣)

ويظهر من هذا أن جهود الظاهر بيبرس لم تقتصر على قتال الصليبيين فقط فقد أدرك أن طائفة الاسماعيلية تقف عقبة في سبيل تحقيق أهدافه ضد الصليبيين بالشام ، وشرع في تأديب تلك الطائفة التي قامت بدور خطير في تاريخ الشام

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٧٤/١٣ .

(٢) الاسماعيلية : احدى الفرق الباطنية ، وسميت بذلك نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق الذى يعتقدون امامته .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٧٤/١٣ .

في عصر الحروب الصليبية ، ولم يقتنع الظاهر ببيرس بأن يجعل الباطنية يد فعون له الأموال منذ سنة ٦٦٥ هـ بعد أن كانوا يد فعونها للقوى الصليبية ببلاد الشام ، وأخذ يستولي على قلاع أتباع تلك الطائفة واحدة بعد أخرى . (١)

ومنذ سنة ٦٦٩ هـ توقفت الحملات العسكرية ضد المعقل الصليبية ببلاد الشام التي لم يبق منها سوى طرابلس وعكا ، حيث دخلت في هدنة مع السلطان الظاهر ببيرس ، الذي وجه جهوده لقتال المنول ، ومع ذلك فانه لم يتوقف عن الاستعدادات العسكرية لقتال الصليبيين في أي لحظة متوقعة ، فكان كثير التفقد للقلاع والحصون والشغور بالبلاد المصرية والشامية لتكون على أهبة الاستعداد لمواجهة أي اعتداء ، محتمل على البلاد الاسلامية ، وعن ذلك النشاط الحربي للظاهر ببيرس أثنى عليه الشاعر بقوله :

يوما بمصر ، ويوما بالشام . . . ويوما بالفرات ويوما بقرى حلب (٢)

وقال الآخر في مدح الظاهر ببيرس وجهاده لأعداء الاسلام :

بينما تراه في الحجاز اذا به . . . في الشام للحج الشريف يقدر

وتراه في حلب يدبر أمرها . . . وتراه في مصر يذب ويحرس

وتراه في حج عليه عباءة . . . وتراه في غزو عليه الأطلس (٣)

وحرصا من الظاهر ببيرس على استمرار حركة الجهاد ضد القوى الصليبية ببلاد الاسلام نجد أنه اشترط في الهدنة التي عقدها مع امارة طرابلس الصليبية لمدة عشر سنوات أن موت أحد الطرفين المتعاقدين يكفي لنقض تلك الهدنة والغائها ، مما يدل على أن الظاهر ببيرس لم يرض بتلك الهدنة أصلا من ناحية ، وتوجيه منه لمن جاء بعسده

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٦٣ ، مصر في عصر المماليك

البحرية ٦٣ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٢٢/١ .

(٣) المنصوري : التحفة الملوكية ٦٧ .

من ناحية ثانية ، فسواء مات الظاهر بيبرس أولا ، أم صاحب طرابلس ، فالنتيجة هسي
نقض تلك الهدنة ، " يضاف الى هذا أن الظاهر بيبرس كان مند سا بين أعضاء الوفد
الذي كان يتفاوض مع صاحب طرابلس بعد تنكره في زي مملوك عادي، لكي يطلع بنفسه
على مواطن الضعف والقوة في تحصينات تلك المدينة، تمهيدا لفتحها فيما بعد " . (١)

ولم يستطع الظاهر بيبرس أن يظل سا كنا في مدة تلك الهدنة ، فغزا مواقع
من مملكة أرمينية الصغرى بالاضافة الى نواحي اذنه ، وأغار على بلاد سلاجقة الروم
التي كانت تقع تحت حماية مغول فارس ، واستطاع أن يهزم الجيش المغولي قبل وفاته
في موقعة أيلستين ، وهكذا قضى الظاهر بيبرس مدة حكمه في جهاد المغول من ناحية
وجهاد المليبيين من ناحية أخرى . (٢)

ونجد السلطان الظاهر بيبرس تمكن بنجاح من تنفيذ خطته الرامية الى
ضرب مغول فارس وحلفائهم من القوى الصليبية في بلاد الشام وأرمينية الصغرى ،
واستطاع بذلك تأمين حدود الخلافة العباسية من الأخطار التي كانت تحدق بها من
تلك الجهات ، ومات بعد أن وضع الأسس المحيطة لمن أتى بعده من السلاطين
المماليك في جهاد أعدائهم من مغول وصليبيين ، فأنزلوا بالمليبيين ضربات متلاحقة
لم يفيقوا منها حتى تم طردهم نهائيا من البلاد الشامية . (٣)

(١) خاشع المعاضيدى : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢٣٧ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٦٤ ، مصر في عصر المماليك
البحرية ٦٦ . وتفاصيل تلك الأعمال العسكرية في : ابن كثير : البداية
والنهاية ٢٨٣/١٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ .

(٣) عبد الله الغامدى : جهاد المماليك ضد المغول والمليبيين ٢٢٢ .

وبعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس تولى السلطنة ابنه الملك السعيد سنة ٦٧٦ هـ ، وهو ابن عشرين سنة ، ثم بعده بسنتين تولى السلطنة أخوه الملك العادل في سنة ٦٧٨ هـ وهو ابن سبع سنين ، ولم يستطع أحد منهما أن يبقى في السلطنة مدة طويلة ، فبالرغم من أن الظاهر بيبرس من الأمراء المماليك الذين لم يقتنعوا بمبدأ وراثته الملك ، إلا أن غريزة الأبوة غلبت عليه فأراد أن يورث سلطنة المماليك لأبنائه من بعده ، ولكن تلك الرغبة لم يكتب لها الاستمرار في ظل النزاعات والخلافات بين كبار الأمراء المماليك خاصة من أظهر المخالفة للسلطان السعيد بن الظاهر بيبرس ، وظلت العلاقة بين الطرفين تهدأ حيناً ، وتسوء أحياناً ، حتى انتهى الأمر بخلعه من السلطنة ، ثم وقع الاتفاق على سلطنة العادل سلامش بن الظاهر بيبرس ، ولكن صغر سنه لم يكن ليؤهله ليبقى في منصبه ، حيث اتفق الأمراء على خلعهم ومبايعته قلاوون الألفي بالسلطنة في سنة ٦٧٨ هـ . (١)

وَصِفَ قلاوون بالقدرة السياسية بالإضافة إلى ما وهبه الله من الدهاء والحنكة والشجاعة والجرأة ، فبعد أن تسلم المنصور قلاوون السلطنة سعى لإصلاح أوضاع الدولة الداخلية ، وتثبيت ملكه ، وإعادة جمع الكلمة بين الأمراء والنواب بالبلاد الشامية بعد القضاء على بعض الأمراء الذين أعلنوا مخالفته وعميانته وعدم اعترافهم بأحققيته في منصب السلطنة ، وأنهم أولى بها منه . (٢)

وفي غمرة انشغال السلطان المنصور قلاوون بتلك الفتن الداخلية ، تمدد لأطماع المغول في البلاد الإسلامية ، وتمكن من صدهم عنها بعد أن أوقع بهم هزائماً

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٦٥ - ٦٦ ، علي حسن : تاريخ

المماليك البحرية ١٨١ .

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٦٦ ، العصر المماليكي في مصر

والشام ٦٧ - ٦٨ . المعاضيدى : تاريخ الوطن العربي والغزو المليبي ٢٢٧ ،

يوسف غوانمة : التاريخ الساسي لشرقي الأردن ٨٨ .

متلاحقة ، أما الحلبيين فإنه آثر الهدنة معهم حتى يعيد تنظيم صفوفه ، فعقد مهادنات مؤقتة مع ما بقي من قوى صليبية بالبلاد الشامية ، وقد هدف من ذلك إلى أمرين وهما :

١ - التفرغ للقضاء على منافسيه من كبار الأمراء المماليك .

٢ - صد الهجمات المغولية عن البلاد الإسلامية مع فصل الحلبيين بالشام عن مغول فارس والعراق ليضمن عدم التعاون بينهما ضده .

ولم يجد السلطان قلاوون بدا من عقد تلك المعاهدات فقد كان مضطرا إليها في ظل مواجهته لعدوين هما المغول والحلبيين ، يطمع كل منهما في استغلال اضطراب الوضع الداخلي للخلافة العباسية وسلطنة المماليك لصالحه . (١)

ولم يكن في نية المنصور قلاوون أن يحترم شروط الهدنة مع الحلبيين لعلمه بجهودهم الحثيثة لنقضها بدليل أنه بدأ يعد العدة لجهادهم ، واستطاع أن يخذلهم بمثل تلك الاتفاقيات التي عقدها معهم ، فمرر عليهم الحيلة بقبوله الموافقة على مهادنات ذات أمد طويل حتى يستغل بعض مدتها للاعداد لهم والهجوم عليهم ، بعد ما يرى منهم أية محاولة لنقض شروط الهدنة التي عقدت بين الطرفين . (٢)

ومما يؤكد حرص السلطان المنصور قلاوون على السير على نهج الظاهر بيبرس في جهاد أعداء الإسلام والمسلمين ، أنه لم ينتظر اكتمال مدة الهدنة مع الحلبيين ، فبعد أربع سنين ، وفي المحرم من سنة ٦٨٤ هـ خرج قلاوون بالعساكر المصرية ثم اجتمعت إليه العساكر الشامية ، فنزل على حصن المرقب ففتحه ، وفرح المسلمون بذلك الفتح لأن هذا الحصن كان في بقاءه بأيدي الحلبيين مخرة على المسلمين ، ولم يتفق فتحه

(١) المعاضدي : تاريخ الوطن العربي والفتوح الحلبي ٢٣٩ .

(٢) المنصوري : التحفة الملوكية ١٢٠ ، المقرئزي : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٤٠ .

لأحد من ملوك الاسلام قبله ، واستولى المنصور قلاوون على مواضع و حصون أخرى واستنقذ خلقا كثيرا من أسارى المسلمين الذين كانوا عند الصليبيين . (١)

وفي مطلع سنة ٦٦٨ هـ توجه المنصور قلاوون نحو مدينة طرابلس بعد أن نقض أهلها الهدنة التي بينهم وبين المسلمين بتعرضهم لقافلة تجارية ، وأسرههم لتجار مسلمين في سنة ٦٨٧ هـ ، فعند ما علم السلطان قلاوون بذلك كتب الى نائبه بالشام يحثه على التجهز لقتال أهل طرابلس ويبين له ما أقدموا عليه من نقض العهد بقوله : " ٠٠٠ ان الفرنج بطرابلس نقضوا العهد وأخذوا جماعة من التجار وغيرهم وصار بأيديهم عدة أسرى من المسلمين .

وكانوا قد بعثوا اليه - قلاوون - وصالحوه على ألا يتركوا عندهم أسيرا ، ولا يتعرضوا لتاجر ، ولا يقطعوا الطريق على مسافر ٠٠٠ " . (٢)

فلما وصل السلطان قلاوون الى طرابلس حاصرها حصارا شديدا حتى ضاق الأمر على أهلها بعد حصارها قرابة شهر ، فلما فُتِحَتْ وقع أهلها ضحايا القتل أو الغرق في البحر أو الأسر ، وأخذت منها الحواصل والذخائر ، وأمر المنصور بهدم البلد بما فيها من العماثر والدور والأسوار الحصينة التي كانت عليها ، وأن يبني بلدة غيرها أمكن منها وأحسن على بعد ميل من طرابلس القديمة ، ففعل ذلك ، وبذلك الفتح استعاد قلاوون طرابلس بعد أن بقيت بأيدي الصليبيين مائة وخمس وثمانون سنة (٣) ، تخللها نقضهم للعديد من العهود والمواثيق ، ووجد منهم المسلمون ألوانا من الظلم من قتل وسبي وسلب .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٢٣/١٣ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ٩٦/١ .

(٢) المنصوري : التحفة الملوكية ١٢٠ ، المقریزی : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٤٠ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٣٢/٢٣ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ١٢٢/١ .

لم يبق بأيدي الصليبيين بعد سقوط مدينة طرابلس سوى مدينة عكا التي كانت أمنع المعاقل الصليبية ، فأخذ يستعد لحماها نظرا لأنها كانت المركز الرئيسي لمملكة بيت المقدس الصليبية ، واستغل السلطان قلاوون أنباء وصول حملة صليبية إيطالية إلى عكا للقيام بتحرير عكا من الوجود الصليبي ، فقد أراد هؤلاء الصليبيون الحد من أن يعبروا عن حماسهم الديني ضد المسلمين فور وصولهم إلى بلاد الشام فاعتدوا على المسلمين في ناحية عكا وقتلوا عددا من التجار المسلمين داخل عكا ذاتها . (١)

و غضب المنصور قلاوون غضبا شديدا ، وحلف أن ينتقم للتجار المسلمين ، ووجد السلطان أن الفرصة قد سحبت لاستئصال الصليبيين من عكا ، وقد حاول أهلها تهدئة غضب المنصور قلاوون وتطبيب خاطره بان ادعوا أن الذين قتلوا التجار المسلمين كانوا من الفرنج الغرب وأن ذلك العمل لم يكن برضاهم ، غير أن السلطان لم يلتفت إليهم وأمر العساكر السلطانية بالتجهز للحرب ، وأرسل إلى نوابه بالبلاد الشام بالاستعداد للقتال وطلب من كل قرية أن تشارك في تلك الحملة بامدادها بعدد من الرجال كل منها على حسب قدرتها . (٢)

غير أن المنية عاجلت المنصور قلاوون في تلك الحملة العسكرية ، ففي غمرة الاستعدادات للسفر لفتح عكا وتحريرها من أيدي الصليبيين كانت وفاة المنصور فسي

-
- (١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٧٠ ، مصر في عصر المماليك البحرية ٦٨ .
- (٢) حسين أمين : الحروب الصليبية ٢٢٨ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٨١ ، المعاضيدى : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢٤٩ ، يوسف غوانمة : التاريخ السياسي لشرق الأردن ١١٧ .

السادس من ذي القعدة من سنة ٦٨٩ هـ ، بعد أن خرج بنفسه في معسكر الجيش الاسلامي بظاهر مدينة القاهرة . (١)

ولم تكن وفاة المنصور قلاوون لتنقذ مدينة عكا من مصيرها المحتوم بعد أن سقطت الامارات الصليبية قبلها بأيدي المسلمين بقيادة الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون، وذلك لأن السلطان الأشرف خليل صمم على تنفيذ مشروع أبيه بشأن مدينة عكا ، فما أن استلم الحكم بالديار المصرية و البلاد الشامية حتى بادر باكمال الاستعدادات العسكرية التي بدأها والده قلاوون ، وأضاف الى ذلك بأن حشد ما استطاع حشده من الرجال والعتاد تمهيدا للقضاء على آخر معقل من معاقل الصليبيين ببلاد الشام (٢) ، ولاقت تلك الاستعدادات التأييد من الخليفة العباسي الذي كان له جهد بارز في تشجيع تلك الحملات العسكرية ضد الصليبيين في بلاد الشام ، ولحرصه على تطهير تلك البلاد من وجودهم واستعادتها من أيديهم .

وعندما أدرك الصليبيون بعكا أن الخطر بات محققا بهم ، سعى أمراؤهم في التوسل الى السلطان الأشرف خليل بأن أرسلوا اليه رسلاهم يطلبون منه العفو ، فلم يقبل منهم ما اعتذروا به ، ولم يقبل عقد هدنة بين الجانبين ، لأنه لم يكن أقل حماسا من أبيه في قتال الصليبيين ، وازالة الوجود الصليبي من البلاد الاسلامية ، لا سيما وأن هذا الوجود لم يعد يمثل أي قوة بعد سقوط العديد من المدن الصليبية على يد الظاهر بيبرس وقلاوون ، فأمر بالقبض على رسلهم عكا وايداعهم السجن كرد حاسم على مطالبهم وتعبير واضح على نواياه التالية تجاه تلك المدينة . (٣)

(١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ٣١٠ ، تشریف الأيام والعصور ١٧٧ ، شافع بن علي : حسن المناقب السرية ٥٨ ، المنصوري : التحفة الملوكية ١٢٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣٣٥/١٣ .

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٦٨ ، المعاضدي : تاريخ الوطن العربي والنفوذ الصليبي ٢٤٩ .

(٣) بسام العسلي : الظاهر بيبرس ١١٦ ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام ٣٦٨ ، يوسف غوانمة : التاريخ السياسي لشرق الأردن ١١٩ ، المعاضدي : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢٥٠ .

وبعد أن أعد الأشرف خليل من العدة ما لم يسبق أن حشده المماليك قبله في حملاتهم ضد الصليبيين نادى المنادى للجهاد في سبيل الله لغزاة أهل عكا ، فخرجت أعداد كبيرة من المسلمين من عامة و علماء للجهاد في سبيل الله ، وسار السلطان خليل بالعساكر المصرية حتى وصل إلى دمشق ، فاجتمعت عليه عساكر الشام فسار الجميع لحصار عكا ، واجتهدوا في التضييق على أهلها ، ومع شدة الوقت والعسر والضيق الذي لقيه المسلمون ، إلا أن السلطان الأشرف صمم على فتح تلك المدينة ، وطلع المسلمون على الأسوار ، فولت الفرنج عند ذلك الأدبار ، وركبوا هاربين في مراكب التجار ، وقتل منهم عدد لا يعلمه إلا الله ، وغنم المسلمون من الامتعة والبضائع شيئا كثيرا ، ثم أمر السلطان بهدم أسوار المدينة وتخريبها بحيث لا ينتفع بها بعد ذلك ، وتوجهت العساكر السلطانية إلى بقية المدن الساحلية فتسلمها الأشرف خليل وفي مقدمتها صور ، وصيدا ، فاستوثق الساحل للمسلمين ، وتنظف من الكافرين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين . (١)

وقد حاولت القوى الصليبية الحيلولة دون سقوط عكا بأيدي المسلمين حيث قدم ملك قبرص ومعه المؤمن والامدادات نجدة لأهل عكا الذين فرحوا بقدمه فرحا كبيرا ، وتشجعوا على المقاومة والثبات بعد أن بلغ عدد قوات الصليبيين داخل عكا قرابة أربعين ألفا من الفرسان والمشاة ، ولكن تلك المقاومة لم تستمر بعد أن اختلفت كلمة تلك الجموع الصليبية نتيجة للخلافات التي نشبت بينهم مما دفع ملك قبرص (هنرى) الثاني للانسحاب بقواته إلى جزيرته ، فكان لذلك الوقع السيء في نفوس

(١) المنصوري : التحفة الملوكية ١٢٦ ، الحريري : الاعلام والتبيين ١٠٦ ، شافع ابن علي : حسن المناقب السرية ٥٨ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ١٣٧/١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٩/١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥/٨ - ٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢٦٦/١ .

المدافعين عن المدينة ، وزاد حالهم سوءاً اشتداد حصار ما يقارب ٢٥٠ ألف مقاتل مسلم لعكا ، فلم تلبث أن سقطت بأيدي المسلمين في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى سنة ٦٩٠ هـ . (١)

وبفتح مدينة عكا زال نفوذ الصليبيين بالبلاد الشامية ، وانتهى أمر تلك الجموع الصليبية ، وعادت بلاد الشام لحكم دولة الاسلام ، وقد أثنى شعراء الاسلام على تلك الفتوحات الاسلامية التي خُتِمَتْ بفتح عكا ، ومدحوا أولئك السلاطين وجهودهم في صد أعداء الاسلام والمسلمين عن البلاد الاسلامية ، فمن ذلك قولهم عن يوم فتح عكا :

الحمد لله زالت دولة الصليب	وعزّ بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت	رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب
لم يبق من بعدها للكفران خربت	في البحر والبر ما ينجى سوى الهرب
أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم	وكم لله من رضا في ذلك الغضب
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك فمنا	عسى يقوم به ذو الشعر والأدب (٢)

وقال آخر في مدح الأشرف خليل بن قلاوون :

لقد فتحت حصونا طامها رجعت	للناس عنها الملوك الصّيد في خجل
أنت الذي لم تدع للكفر من بلد	ياؤى اليه ولا للدين من أمـسـل
مدت عن الصيد لا تلوى ولم تطل	الا وهام منها الى وصل ولم تصل
كم قد دعيتها ملوك الأرض راغبة	فلم تجب أحدا منهم ولم تصل
حتى أمرت فأمت وهي طائعة	بعد الإباء لأمر منك ممثـل

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٧٣ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٨١ ، أكرم العلي : خليل بن قلاوون ٢٧ ، عبد الله الغامدي : جهاد المماليك للمغول والصليبيين ٢٧٢ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٤٢/١٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٣٦٦/١ ، الكتبي : فوات الوفيات ٣٠٨/١ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ١٣٨/١ .

ما زال غيرك فيها طامعا وعلى يدك قد كان هذا الفتح في الأزل
 صدمتها بجيوش لو صدمت بها شُمُ الجبال أزالتها ولم تنزل
 أمست خرابا وأضحى أهلها رمما وسطرت لها يد الأنام في المثل
 هدمت ما شيدوا ، فرقت ما جمعوا نقضت ما أبرموه غير محتفل
 وعند ما أصبحت قفرا منازلهم من السواحل بعد الأهل في عطل
 رحلت عنها ولكن قد أقيمت بها من خوف بأسك جيشا غير مرتحل (١)

ولكن طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام بعد فتح عكا لا يعني نهاية الحروب الصليبية، واندثار الفكرة الصليبية التي أرادت السيطرة على البلاد الإسلامية في الشام ، وذلك لأن الصليبيين لم يرضوا بالخاتمة التي انتهت اليها معاركهم مع السلاطين المماليك واعتبروا أن سلطنة المماليك بمصر والشام هي سبب الهزائم والنكبات التي لحقت بهم (٢) ، وقد لجأت طوائف من الصليبيين نحو جزيرة أرواد (٣) ، وتحصنوا بها وأخذوا يغيرون على سكان المدن الساحلية الإسلامية (٤) ، واستمروا في محاولاتهم لاستعادة ما فقدوه من مواقع بالبلاد الشامية ، ولكن السلطان الأشرف خليل

(١) المنصوري : التحفة الملوكية ١٢٨ - ١٢٩ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ١٤٠/١ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٧٤ ، مصر في عصر المماليك البحرية ٦٩ - ٧٠ .

(٣) جزيرة على البحر الأبيض المتوسط ، غزاها المسلمون في خلافة معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه سنة ٥٤ هـ ، وتم فتحها على يد جنساده ابن أبي أمية .

(الحموي : معجم البلدان ١٦٢/١) .

(٤) علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٨٢ ، مصر في العصور الوسطى

كان مستعدا لمد تلك المحاولات ، ومن ذلك :

توجه السلطان خليل بالعساكر السلطانية لفتح قلعة الروم ، وتم له ذلك فسي رجب من سنة ٦٩١ هـ فبعد أن حاصرها قرابة ثلاثين يوما ، وقّع صاحب القلعة ، وخلق من رؤوس أصحابه في أسر السلطان الأشرف خليل ، فقدم بهم الى دمشق . (١)

وفي شهر جمادى الآخرة سنة ٦٩٢ هـ تجهز الأشرف خليل لقتال أهل سيس ، فلما علم صاحب تلك الناحية بما عزم عليه السلطان الأشرف من قصد بلاده أرسل رسـله يطلبون الصلح على بذل ما يرغب فيه السلطان من أموال ، فوقع الصلح على تسليم بعض المواقع الحصينة التابعة لبلاد سيس ، ومنها مرعش ، وبهسنا ، وتل حمدون ، وكانت هي أكبر بلادهم وأحسنها وأحصنها . (٢)

وظل الأشرف خليل في جهوده لحماية البلاد الاسلامية من اعتداءات الصليبيين فكان يتنقل بين أراضي الخلافة العباسية في الديار المصرية والبلاد الشامية ، حفظا للبلاد وتحصينا للثغور ، حتى وفاته في المحرم من سنة ٦٦٣ هـ وهو في طريقه لتفقد الاسكندرية بعدما بلغته بعض الأخبار عن تحركات صليبية قاصدة ذلك الشرف ، وبموت الأشرف خليل تألم الناس لفقد هـ وأعظموا قتله على أيدي أمرائه ومماليكه ، وكان قبل موته عزم على قتال المغول واسترجاع العراق من أيديهم ، واستعد لذلك ونادى به في بلاده ، وبنهاية ملكه لم يترك للفرنج بديار الاسلام معلما ولا حجرا . (٣)

-
- (١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٤٦/١٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور
٠ ٣٧٠ / ١
- (٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه ١ / ١٦٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية
٠ ٣٥١ / ١٣
- (٣) المنصوري : التحفة الملوكية ١٣٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية
٠ ٣٥٤ / ١٣

حركة الجهاد في خلافة المستكفي بالله سليمان :

تولى السلطنة الناصر محمد بن المنصور قلاوون في سنة ٦٩٣ هـ للمرة الأولى وفي مدة سلطنته كثرت الخلافات و النزاعات بين الأمراء المماليك (١) حتى كانت سلطنته الثانية في سنة ٦٩٨ هـ ، وفيها اهتم بقتال مغول فارس الذين قادهم قازان نحو البلاد الشامية ، ومع ذلك لم يغفل الناصر محمد عن تحركات الحلبيين بالسواحل الشامية ، حيث أرسل المراكب من الديار المصرية في البحر سنة ٧٠٢ هـ ، وأردفهم بجيوش طرابلس نحو جزيرة أورداد ، وكانت من أضرّ الأماكن على أهل السواحل ، ففتحت ولله الحمد ، وقتلوا من أهلها قريبا من ألفين ، واسروا قريبا من خمسمائة ، وكان فتحها من تمام فتح السواحل ، وأراح الله المسلمين من شر أهلها . (٢)

وفي ثاني عشر رمضان سنة ٧٠٣ هـ أرسل السلطان الناصر محمد ثلاثة آلاف من العساكر المصرية ، ثم انضم اليهم ألفان من دمشق ، فساروا الى حلب ، ثم افترقوا الى فرقتين ، احدهما سارت نحو ملطية (٣) ، وقلعة الروم ، والأخرى سارت نحو تل حمدون فتسلموه عنوة بعد حصار طويل ، ووقع صاحب سيس هدنة تحدد فيها حدود كل من الطرفين ، وأن يعجل صاحب سيس حمل سنتين من المبلغ الذي تم الاتفاق عليه في تلك الهدنة ، ورجعت العساكر الى دمشق مؤيد بين منصورين بعد ما قتلوا من الأرمن خلقا من أمرائهم ورؤسائهم ، ثم توجهت العساكر المصرية الى مصر . (٤)

-
- (١) تولى السلطنة بعد خلع الناصر محمد كل من : كتبغا المنصوري ، ولاجين المنصوري .
 (٢) المنصوري : التحفة الملوكية ١٦٣ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٥٣/١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢/١٤ .
 (٣) بفتح أوله وثانيه ، بلدة من بلاد الروم ، فتحت في عصر الخليفة المنصور العباسي سنة ١٤٠ هـ ، وأمر ببنائها واسكان الناس بها .
 (الحموي : معجم البلدان ١٩٣/٥) .
 (٤) المنصوري : التحفة الملوكية ١٧٤ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٥٧/١
 ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠/١٤ .

ثم عادت الخلافات بين السلطان الناصر محمد والأمراء المماليك من جديد فأثرت على النشاط المملوكي في جهاد الصليبيين والمغول ، حيث خلع الناصر محمد من السلطنة ، ثم أعيد اليها للمرة الثالثة في سنة ٧٠٩ هـ ، فعاد من جديد ينظم أحوال الدولة الداخلية ، فلما استقرت الدولة وهدأت الفتن ، أرسل نائبه بدمشق نحو ملطية ، فحاصر من بها من الأرمن ، وعندما اشتد عليهم الحصار ورأوا عين الغلب طلبوا منه الأمان مقابل تسليم المدينة ، ففتحت بالأمان ، وغنم منها مغانم كثيرة . (١)

وفي مستهل ربيع الآخر سنة ٧١٧ هـ أرسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون حملة عسكرية نحو آمد (٢) ، فلما وصلت العساكر السلطانية تلك المدينة حاصرتها ، فطلب أهلها الأمان ، فأعطاهم عسكر السلطان ما طلبوا ، وملكوها من غير قتال ، وعين الناصر محمد بها نائبا عليها من قبله . (٣)

وعندما نقض الأرمن بمدينة سيس العهد الذي بينهم وبين الناصر محمد أرسل السلطان الجيوش الاسلامية التي قاربت نحو عشرين ألفا ، فدخلوا بلاد الأرمن حتى وصلوا الى سيس فحاصروها وضيقوا على أهلها وأحرقوا دارملكها ، فلما اشتد الحصار طلب أهلها الأمان فملكها العسكر ، وأقام قائد العساكر السلطانية نائبا للسلطان الناصر محمد بها ، ورجعت العساكر وهي في غاية النصر في سنة ٧٢٠ هـ . (٤)

-
- (١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٦٥/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٧٥/١٤
ابن اياس : بدائع الزهور ٤٤٦/١ .
- (٢) الحموي : معجم البلدان ٢٥١/١ .
- (٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٨٤/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٤٩/١ .
- (٤) ابن كثير : ، ، ، ٩٩/١٤ ، ابن اياس : ، ، ، ٤٥١/١ .

وبعد عودة العساكر السلطانية الى بلاد الشام ، رجع الأرمن الى اعـسـلان
العميان ، وأخرجوا من كان بها من قبل السلطان الناصر محمد ، فلما بلغ السلطان الخبر
أرسل العساكر المصرية وانضمت اليها العساكر الشامية ، فلما وصلوا سيس حاصروها
أشد المحاصرة حتى فتحوها بالسيف ، وانتزعوها من أيدي الأرمن وطردوهم منها
وغنموا منها غنائم كثيرة جدا ، وعاد نائب السلطان الناصر محمد اليها في ربيع الأول
سنة ٧٢٢ هـ . (١)

ثم جاءت الأخبار في سنة ٧٢٥ هـ بأن الأرمن أعلنوا العميان على السلطان
الناصر محمد ، وطردوا من كان بها من المسلمين ، فرسم الناصر محمد لنائب حلب بأن
يتوجه الى بلاد سيس ، وصحبته العساكر الحلبية ، فلما وصلها حاصر من بها من
الأرمن ، وأسر جماعة منهم ، وأحرق الضياع التي حول المدينة ، فثار الأرمن الذين كانوا
بقلعة اياس على المسلمين وحشروهم في خندق ، ثم أحرقوه بمن فيه من المسلمين ،
وكانوا نحو ألفين ما بين رجال ونساء وصبيان ، فلما وصل هذا الخبر السلطان غضب
لذلك واضطرب (٢) ، فقد بلغ عدد من قتل من المسلمين ألفا ما بين رجل وامرأة
وصبي ، وذلك في يوم عيد الفطر المبارك .

ولما ظهرت علامات الغضب على الناصر محمد من تصرفات الأرمن ضد
المسلمين وأخبار أفعالهم التي وصلت للسلطان في ليلة عيد النحر ، دخل عليه الشاعر
محمود بن الشهاب فأنشده أبياتا يحرضه على قتال أعداء الاسلام والمسلمين ومنها قوله :

أيا ملك الاسلام وابن مليكهم — ومن أيد الرحمن بالنصر جنده

ومن جيشه ملء الفضاء وأنسه — ليهزم جيش الكفر بالله وحده

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ١٥٢/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٠٥/١٤

ابن اياس : بدائع الزهور ٤٧١/١ .

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٦٧/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٨٨/١٤ ،

ابن اياس : بدائع الزهور ٤٧١/١ .

أتاك بعييد النحر سعدك مخبرا لنا أن عيد النصر يأتيك بعده

فصل لرب الناس وانحر فبعد هـا ستنحر من يد عو مع الله نده

فعند ذلك أمر السلطان الناصر محمد العساكر السلطانية بالتجهز للسفر الى سييس لتأديب الأرمن على ما فعلوه بالمسلمين ، فلما وصلت العساكر حاصرت سييس وما حولها من القلاع والحصون ، وعند ما اشتد الحصار على الأرمن نزلوا على تسليمها للمسلمين مقابل الأمان على أنفسهم ، فلما تسلما المسلمون هد موهاقي سنة ٧٣٧ هـ . (١)

وبعد القضاء على الوجود الصليبي ببلاد الشام وتحرير البلاد الاسلامية من أيدي الصليبيين ، لجأت طوائف منهم الى جزيرة قبرص (٢) ، واتخذوها مركزا ينطلقون منه للاعتداء على الموانئ الاسلامية والسفن التجارية ، ولتهديد تجارة المسلمين ، وأسر التجار المسلمين ، والعودة بهم الى الجزيرة مما جعل من الصعب على المسلمين اقتفاء آثارهم والقبض عليهم (٣) ، ومن ذلك أنه عندما اشتد وباء الطاعون وكثر الفناء في أهل قبرص جمعوا من بأيديهم من أسرى المسلمين وقتلوهم جميعا ، وعللوا ذلك العمل الذي يؤكد عدوتهم للاسلام والمسلمين بأنهم يخشون من تملك أولئك الأسرى المسلمين للجزيرة بعد موت أهلها بالطاعون الذي انتشر بملك الجزيرة في سنة ٧٤٩ هـ . (٤)

-
- (١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٦٧/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٤ / ١٨٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٤٧١/١ .
- (٢) ويقال : قبرس ، وهي كلمة رومية تطلق على جزيرة في بحر الروم ، وهي بأيديهم قبل فتحها . (الحموي : معجم البلدان ٣٠٥/٤) .
- (٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٦٤ ، مصر في عصر المماليك البحرية ٧٠ .
- (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠ / ١٩٨ .

وفي سنة ٧٥٧ هـ حاول المليبيون الاستيلاء على بعض المدن الإسلامية من خلال قيامهم بمهاجمة أكثر من موقع في وقت واحد ، فقد امت سبعة مراكب لقصد مدينة صدد فقتلوا طائفة من أهلها ، ونهبوا شيئاً كثيراً ، وأسروا بعض المسلمين ، وقصد تمدى لهم أهل المدينة فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وكسروا مركبا من مراكبهم ، ورجع المليبيون بما غنموا من الأمتعة والأسارى الى جزيرة في البحر تلقاء مدينة صيدا .

وجاء الخبر بعد ذلك باحاطة الفرنج بمدينة بانياس ومحاصرتهم لها ، وقتلهم خلقاً كثيراً من أهلها ، وعند ما علم نائب حلب بذلك توجه في جيش كثيف لقتالهم . (١)

ثم ورد الى ساحل البحر طائفة من الفرنج لحصار مدينة طرابلس ، فأفسدوا في تلك النواحي ، وتخطفوا جماعة من المسلمين وأسروهم ، فأرسل اليهم نائب السلطان الناصر حسن من تحدث معهم ، وبذل لهم جملة من المال في فكاك الأسرى حتى استنقذهم من أيديهم .

ولما تزايدت شدة تلك الحملات المليبية التي استغلت الأوضاع الداخلية للدولة الإسلامية ، وكثرت الاضطرابات بين السلاطين والأمراء المماليك بعد مقتل الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١ هـ ، وفي سلطنة الناصر حسن أمر العساكر السلطانية بالتأهب لقتال الفرنج وصد هم عن البلاد الإسلامية ، وأصدر مرسوما في الحث على الجهاد نصره للدين الحنيف ، جاء فيه قوله : " . . . واطلبوا أعداء الله برا وبحرا ، وقسموا فيهم الفتكات قتلا وأسرا ، واتخذوا الخيام مساكنا ، واجعلوا ظهور الخيل لكم مواطنا ، ولا تخشوا من جمعهم الآيل الى التفريق ، وحشد هم الذي عما قليل انشاء الله في البحر غريق ، ولا تعبأوا بسفنهم البحرية ، فان سفنكم الخيل المخلوقة من الرياح ، ولا تنظروا

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤/٢٦٧ .

الى مجاد يفهم الخشبية ، فان مجاد يفكم السيوف والرماح ، فاقلعوا قلوبهم ، وشتتوا
جموعهم ، ونكسوا صليبهم المنصوب ، وبادروا الى حرب حزبهم المغلوب ، واهجروا في
ذات الله طيب المنام ، واهتموا بما يعلي كلمة الاسلام ، والسلام ، وليرفعنكم الله الى
منازل التمكين والتميز " . (١) * وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *
- آية ٤٠ من سورة الحج - .

ولما عاد الأرمن للهجوم على مدينة سيس ، واستولوا على نواحي طرسوس
والمصيصة في سنة ٧٦٠ هـ ، أرسل السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد اليهم نائيب
حلب ، فلما وصل اليهم حاصرهم عدة أيام ، فطلبوا منه الأمان على أن يسلموا له القلاع
التي استولوا عليها ويرحلوا منها ، فلما أجابهم الى ذلك الطلب وخرجوا منها اختار
عليها نائبا للسلطان الناصر حسن باذنه . (٢)

وفي سنة ٧٦٧ هـ استغل الصليبيون خلوتهم الاسكندرية من المجاهديين
وحماة الدين ، فقدوا عن طريق البحر في سبعين مركبا من المراكب البحرية المختلفة
الأنواع ، وحاول أهل المدينة التصدي لهم قبل وصول العساكر السلطانية من القاهرة
لنجدتهم ، وتمكن الفرنج من تملك المدينة لضعف المدافعين عنها ، فلما دخلوها
عاثوا فيها فسادا مدة خمسة أيام ، حيث كانوا يقتلون الرجال ويأسرون النساء والأطفال ،
ويأخذون الأموال .

ولما بلغ السلطان الأشرف شعبان ما فعله الفرنج بالاسكندرية ، أمر العساكر
بالتأهب والاستعداد للسفر اليها لقتالهم ، ولكنه لم يقع بينهما قتال ، لأن الفرنج
أقلعت عندما أحست بمجيء العساكر السلطانية ، فرجعوا وقد أسروا خلقا كثيرا

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ١٩٨/٣ - ١٩٩ .

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٣٠/٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٥٦٨/١ .

من المسلمين يحلون أربعة آلاف، سمع لهم من العويل والبكاء والشكوى والجأ إلى الله والاستغاثة به ما قطع الأكباد ، وذرقت له العميون ، وأصم الأسماع .

وأصدر السلطان الأشرف شعبان مرسوماً لنائب السلطنة بالشام يأمره بالقبض على النصارى ، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم لعمارة ما خرب من مدينة الإسكندرية ، ولعمارة مراكب لغزو الفرنج عليها . (١)

ومما قيل في تلك النازلة التي أصابت المسلمين بالإسكندرية :

ألا في سبيل الله ما حلّ بالثغر	على فرقة الإسلام من عمبة الكفر
أتاها من الفرنج سبعون مركباً	وضاقت بها الغربان في البر والبحر
وصير منها أزرق البحر أسوداً	بنو الأصفر الباغون بالبيض والسمر
أقاموا على التثليث فيها ثلاثة	كمعبودهم في النهب والقتل والأسر

خطورة جزيرة قبرص على الموانئ الإسلامية :

بعد هذه الحادثة بدأ السلطان الأشرف شعبان في الاستعداد لفتح جزيرة قبرص ، فقد أصبحت مصدراً لتهديد أمن المدن والثغور الإسلامية بالديار المصرية والبلاد الشامية ، فأمر الأشرف شعبان في شهر ربيع الأول سنة ٧٦٧ هـ بعمل المراكب البحرية لغزو قبرص ، وقتال الفرنج ، وأمر نائبه بدمشق بتجهيز القطّاعين والنّاريين

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٨٨/٣ - ٢٨٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣٢٨/١٤ .

وقد اعترض ابن كثير على ذلك المرسوم السلطاني لعدم جوازه شرعاً وقال : أنه لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد فوق ما يبذلونه من الجزية ، مستي ما كانوا باقين على الذمة يؤدون الجزية ملتزمين بالذلة والصفار .
(البداية والنهاية ٣٢٩/١٤) .

(٢) جمع غراب ، ويقال : أغرّبة ، وهي من المراكب الحربية .

ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢٨٨/٣ .

من دمشق الى الغابة التي بقرب مدينة بيروت ، وأن يشرع في عمل تلك المراكب في آخر يوم من ذلك الشهر ، واهتم الأشرف شعبان بالعساكر السلطانية ، فأصدر أمره فسي شهر جمادى الأولى من نفس السنة بأن يجعل للأمير من اقطاعه النصف خاصاً له ، والنصف الآخر يكون لأجناده ، فحصل بهذا رفق عظيم بالجند وعدل كثير ، وأمر الأجناد بالاستعداد والتجهز ، وأن يحرسوا على السبق والرمي ، وأن يكونوا مستعدين متى استنفروا نفروا لقتال الفرنج . . . (١)

ولم يقتصر الاستعداد لقتال الصليبيين على العساكر السلطانية فقط ، فقد كان العامة أيضا في شوق للجهاد في سبيل الله وتقديماً لأرواحهم رخيصة في سبيل نصرة الدين الحنيف واعلاء شأنه ، وبيؤكد ذلك الحماس الشديد لدى المسلمين والمشاركة للخروج عند الاعلان عن اقتراب مراكب بحرية من المدن الاسلامية ، فمن ذلك انه نودي في الثالث من شهر صفر سنة ٧٦٨ هـ بدمشق ألا يتخلف أحد من الأجناد عن السفر الى بيروت ، فاجتمع الناس لذلك وبادروا الى حمل السلاح ، وخرج خلق من الناس متطوعين ، وألقى خطيب يوم الجمعة خطبة حث فيها الناس على الجهاد وحرصهم على القتال ، فلما كان آخر النهار رجع الناس الى منازلهم بعد أن تأكدوا من خبر تلك المراكب ، وأنها مراكب تجار لا مراكب قتال ، فطابت قلوب الناس ، ولكن ظهر منهم استعداد عظيم للجهاد ، ولله الحمد . (٢)

وفي شهر ربيع الأول سنة ٧٦٨ هـ قدمت سبعة مراكب للتجار الفرنج للاسكندرية فباعوا واشتروا ، وبلغ نائب السلطان أن أحد تلك المراكب السبعة لصاحب قبرص ،

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤/٣٣٠ ، ٣٣٣ .

(٢) المصدر السابق ١٤/٣٣٧ .

فأرسل الى التجار يطلب منهم تسليم ذلك المركب فامتنعوا و باد روا الى مراكبهم ، فأرسل في آثارهم ست مراكب مشحونة بالمقاتلة ، فالتقوا مع الفرنج في البحر ، فقتل من الفريقين خلق **وممن** الفرنج أكثر و هربوا فارين بما معهم من البضائع . (١)

ولما قدم الفرنج لقمم أخذ مدينة بانياس على ساحل البحر الشامي خرج نائب حلب في أول المحرم سنة ٧٦٩ هـ بالعساكر الحلبية لقتالهم ، فلما تواتر قسدهم العساكر الاسلامية من القلاع وغيرها ، وأحاطوا بالفرنج رجعوا الى البحر منهزمين ، فأدركهم العسكر وأخذوا منهم بعض الأسرى ، وأقاموا بها حتى يئسوا من عودتهم **ثانية** . (٢)

وفي أواخر الشهر قصد الفرنج مدينة طرابلس في مائة وثلاثين قطعة ممن المراكب البحرية ، وفي صحبتهم صاحب قبرص ، وصاحب رودس في عشرين ألف فارس مستعدين للقتال ، وكان قد ومهم في غياب نائبها وغالب العساكر عنها ، فاشتتم الفرنج غيبتهم وخرجوا الى الساحل فالتقوا بعسكر المسلمين وهم نحو ستمائة ، واشتدت الحرب بينهم ، ودخلت طائفة من الفرنج الى المدينة فنهبوا بعض البيوت والأسواق ، فلما بلغت أخبارهم ما حولهم من المسلمين جاءوا نجدة للمسلمين بطرابلس ، وحصل بينهم وبين الفرنج عدة وقعات ، فلما عاينوا الغلب نكصوا على أعقابهم وانهزموا الى جهة البحر . (٣)

ومن خلال هذه الحملة الصليبية على مدينة طرابلس نجد ملوك قبرص استغلوا موقع جزيرتهم المواجهة للشواطئ ، الاسلامية بمصر والشام في القيام بعدة هجمات عنيفة

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٣٨/١٤ .

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه ٣١١/٣ .

(٣) المصدر السابق ٣١٢/٣ .

على الموانئ الإسلامية ، واستغلوا ذلك الموقع الهام في شن حرب على التجار الأوربيين الذين ظلوا يتعاملون تجارياً مع المسلمين ، فكانت السفن القبرصية تتعرض بالتجار في طريق ذهابهم وإيابهم في محاولة من ملوك قبرص لتهديد التجارة الإسلامية .

وكان استرداد مدينة عكا في سنة ٦٩٠ هـ قد جعل من قبرص جسر الزاوية في المشروعات الصليبية ، فغدا ملوكها في صراع مباشر للمسلمين وناصبوهم العداوة ، ويؤكد ذلك أن تلك الجزيرة فتحت أبوابها للفارين من الصليبيين من بلاد الشام بعد تحريرها من الوجود الصليبي ، فنزح هؤلاء إلى تلك الجزيرة بعد أن رحب بهم ملكها هنري الثاني ووجد فيهم أداة صالحة استغلها لتنفيذ سياسته العدوانية تجاه المسلمين ، وتقدم بمشاريع عسكرية وتجارية لملوك أوروبا كان الهدف منها أضعاف سلطة المماليك تمهيداً للقضاء عليها واحتلال أراضيها . (١)

ويأتي في مقدمة هؤلاء الملوك القبارصة (بطرس الأول لوز جنان) الذي جعل من نفسه البطل المدافع عن المسيحية والفكرة الصليبية ، فكرس جهوده طوال مدة ملكه لخدمة الغرض الصليبي وحرب المسلمين ، وقاد تلك الحملة التي هاجمت مدينة الاسكندرية سنة ٧٩٦ هـ بعد أن استغرقت مدة اعداده لها قرابة ثلاث سنوات ، واختار مدينة الاسكندرية ذات الموقع الحربي الخطير والمركز التجاري الفريد ليوجه إليها ضربته العسكرية .

وحاولت سلطة المماليك الرد على تلك الاعتداءات ببعض حملات الاغارة على جزيرة قبرص، ولكنها لم تتخذ شكلاً غزواً شاملاً للجزيرة بهدف احتلالها ، وذلك لأن السلطان الأشرف شعبان عندما تولى السلطنة كان في الحادية عشرة من عمره، وكانت

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر ١٦٤ ، مصر في عصر المماليك البحرية ٧٠ عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية ٣٠٩ ، يوسف غوانمة : تاريخ نياضة بيت المقدس ١٦ ، على محمود : الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ٢٣٠ .

السلطة الفعلية وتدبير السلطنة بيد الأمير يلبغا الخاصكي الذي ناصبه كبار الأمراء المماليك
العداوة ، فاضطربت أحوال الخلافة من الناحية الداخلية بسبب كثرة النزاعات بين
الأمراء المماليك مما أضعف السلطنة المملوكية عن الرد على تلك الحملات العسكرية
المنطلقة من جزيرة قبرص . (١)

وقد ساعد على تمادي شر أولئك الحلبيين انشغال كثير من السلاطين
بعد تلك الفتن والنزاعات الداخلية باعادة اصلاح أحوال الدولة من جهة ، ومواجهة
زحف المغول على البلاد الشامية وأطماعهم بالديار المصرية من جهة ثانية ، فقد
نشطت الحملات الصليبية قاصدة المدن والموانئ الإسلامية في الشام ومصر في ظل
انشغال السلاطين المماليك بحدّ حملة تيمور لنك مع نهاية القرن الثامن الهجري .

ومن تلك الحملات الصليبية في سنة ٧٩٨ هـ قصد ملك قبرص مدينة طرابلس
بالشام مرتين ، وظل ملك قبرص يواصل نشاطه الصليبي ضد الدولة الإسلامية حتى مقتله
في أوائل سنة ٨٠٠ هـ ، وبذلك انتهت حياة ملك أوروبي أراد أن يعيد الحماسة السي
الحملات الصليبية ويعيدها الى سيرتها الأولى في مطلع القرن الخامس الهجري . (٢)

ولم تنقطع غارات القبارصة على الموانئ الإسلامية التابعة لدولة الخلافة
العباسية بمصر والشام جاءت الأخبار بهجوم الفرنج على ثغر الاسكندرية مما اضطر غالب
أهلها للرحيل عنها خوفا على أنفسهم من القتل أو الوقوع أسرى في أيدي الفرنج .
وكثير تعرض الفرنج للسفن التجارية بسواحل المسلمين ، وأخذوا مركبا للتجار
من ميناء الاسكندرية فيه بضائع بنحو مائة ألف دينار ، وذلك في سنة ٨٢٦ هـ . (٣)

-
- (١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٦٤ ، مصر في عصر المماليك
البحرية ٧٢ ، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ٢٨٣ .
(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٦٥ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٥٠/١٤ ، ابن اياس : بدائع
الزهور ٢٨/٢ .

ولما اشتدت تلك الاعتداءات في سلطنة الأشرف برسباي ، اتخذ عدّة اجراءات لحماية السواحل من وصول الفرنج اليها ، وندب عددا من الأمراء الى تلك السواحل بعد ما ترددت الأخبار بحركتهم نحو السواحل الاسلامية وتعرضهم للمسافرين والتجار . (١)

ولم تجدد محاولات السلطان الأشرف برسباي في عقد معاهدة مع ملك قبرص (جانوس) لضمان عدم التعدي على متاجر المسلمين وسفنهم ، إذ ظن جانوس أن حرص سلطنة المماليك على عقد ذلك الصلح لا يعني سوى ضعف سلطان المماليك وتخوفه من مواجهته عسكريا . (٢)

ثم تعادى الفرنج في اعتداءاتهم في سنة ٨٢٧ هـ حيث وردت الأخبار بأخذهم لمركبين من مراكب المسلمين بثغر دمياط ، فيهما بضائع كثيرة وعدة أناس يزيدون على مائة ، وبأن ملك قبرص (جانوس) استولى على سفينة محملة بالهدايا أرسلها الأشرف برسباي الى السلطان مراد العثماني مما زاد من غضب السلطان الأشرف برسباي ، فأصدر أمره بإيقاع الحوطة على أموال التجار الفرنج ببلاد الشام والاسكندرية ودمياط ، والختم عليها ، ومنعهم من السفر الى بلادهم حتى يرد الفرنج ما أخذوه من المسلمين وقد سعى بعض رجال الدولة لدى الأشرف برسباي في اطلاق سراح أولئك التجار والسماح لهم بالعودة الى بلادهم ، فلم يقبل ذلك ، وأخذ يُعدّ العدة ويبتجهمز لقتالهم . (٣)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٥٥/١٤ ، ابن ايباس : بدائع الزهور ٨٨/٢ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٦٥ ، نظير سعداوى : الحرب

والسلام زمن العدوان الصليبي ١٦٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٦٦/١٤ ، ابن ايباس : بدائع الزهور ٩٧/٢ .

فتح جزيرة قبرص في خلافة المعتضد بالله داود :
 ~~~~~

بدأ الأشرف برسباي جهوده الفعلية لغزو قبرص من خلال تأمين الحماية اللازمة للسفن التجارية أثناء تنقلها بين موانئ دولة الخلافة بالديار المصرية ، والبلاد الشامية ، فقد وَجَّه عدة مراكب بحرية حربية من النيل بعد أن جهزها بما تحتاجه من المقاتلة والأسلحة ، و خرج في تلك الحملة العسكرية جملة من العساكر السلطانية ، و جماعة من المتطوعة ، وأمرهم السلطان الأشرف برسباي أن يسيروا في البحر حتى يصلوا طرابلس ، ويأخذوا من سواحل الشام عدة مراكب بحرية فيها المقاتلة من البلاد الشامية ، ثم مواصلة السير في مياه البحر المالح ( الأبيض المتوسط ) لعلمهم يجدون من يتعرض للسفن من الفرنج ، وكان خروج تلك الحملة في التاسع من شهر رمضان سنة ٨٢٧ هـ ، وعادت في العشرين من شهر ذي القعدة من نفس السنة وهي محملة بالأسرى والغنائم . (١)

وفي مطلع شهر المحرم سنة ٨٢٨ هـ شُرِعَ في بناء عدة مراكب لغزو بلاد الفرنج واستمر العمل في تلك المراكب كل يوم ، وتابع السلطان برسباي العمل فيها بنفسه فكان يتفقد سير العمل فيها من حين لآخر ، وأمر السلطان ببناء الأبراج على ساحل البحر و شحنها بالأسلحة والمقاتلة ، فانتفع بها المسلمون غاية النفع ، وذلك لأن الفرنج كانوا يُقبلون في مراكبهم نهارا إلى البر فينزلون ويتخطفون من المسلمين من غير أن يمنعهم أحد (٢) ، فكانت تلك الأبراج نقاط مراقبة للسواحل الإسلامية .

ثم عيّن السلطان برسباي جماعة من الأمراء المماليك ، وألزم كل منهم بسأن يجهز عشرة من مماليكه للخروج إلى قبرص ، وأمر بسرعة انجاز العمل في المراكب

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٦٨/١٤ - ٢٦٩ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٩٨/٢

(٢) ابن تغرى بردى : " " ، ٢٧٢/١٤ .

البحرية التي أمر ببنائها للجهاد في سبيل الله ، وأمر بالنداء في الناس : ممن أراد الجهاد فليحضر لأخذ نفقته ، فلما وزع النفقة عليهم بعث نحو ثلاثمائة فارس عن طريق البر الى طرابلس لتحمل من هناك في المراكب البحرية ليستفاد منها في قتال أهل قبرص عند نزول العساكر السلطانية الى ساحل الجزيرة . (١)

وقد كانت هذه الحملة في حقيقة الأمر حملة استكشافية غرضها معرفة الأماكن التي يقدم منها أولئك النفر من القراصنة الذين يتعرضون للمسلمين ، كما أنها أعطت الأشرف برسباي فكرة واضحة عن نقاط القوة والضعف في تلك الجزيرة ، وللتأكد من موقف ملكها من أعمال القرصنة التي تقع بالقرب من جزيرته . (٢)

وفي شهر رمضان سنة ٨٢٨ هـ سارت الحملة العسكرية باتجاه قبرص ، وانضم الى المراكب الحربية خلائق من العساكر الشامية ، وجماعة كبيرة من المتطوعة للجهاد في سبيل الله ، فلما وصلوا الماغوصة<sup>(٣)</sup> ظهر من صاحبها طاعة السلطان الأشرف برسباي ، وأخبرهم باستعداد صاحب قبرص لقتالهم فاستعدوا وأخذوا حذرهم ، فلما وصلوا الى قبرص شنوا عليها الغارة تلو الغارة ، وقتلوا من أهلها وأسروا وغنموا منهم ، وواقعوا مراكب الفرنج حول الجزيرة وقاتلوهم قتالا شديدا حتى من الله بنصره على المسلمين ، ثم عادت تلك المراكب الاسلامية في أواخر شهر شوال من نفس السنة ، وهي تحمل الغنائم المختلفة ، ومن الأسرى ما يقارب ١٠٦٠ أسيرا ، ولما عرض أولئك

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٧٦/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٩٨/٢ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٦٥ ، سعاد ماهر :

البحرية الاسلامية ٣٥٣ .

(٣) ويقال لها : فيما غوسا / فاما غوستا ، وهي من المدن الهامة والمرافق المشهورة

بجزيرة قبرص في شرقي البحر الأبيض المتوسط . (أطلس العالم الصحيح ص ٦٩) .

الأسرى وتلك الغنائم على السلطان الأشرف برسباي رسم ببيع الأسرى بشرط ألا يُفَرَّق بين الآباء والأولاد ، ولا بين القريب وقريبه ، وأنفق السلطان الأشرف برسباي ما تحصل من أثمانهم على المجاهدين الذين خرجوا في تلك الغزاة . (١)

**ولما لَمْ تتوقف أعمال الفرنج ضد المدن الاسلامية، وعودتهم الى التعرض للسفن التجارية التي تحمل بضائع التجار المسلمين قرب السواحل الشامية ، زاد حماس السلطان الأشرف برسباي لأخذ جزيرة قبرص من خلال ارسال حملة عسكرية ثانية ، فأمر برسباي بزيادة عدد مراكب الأسطول البحري الحربي ، وكان يتفقد سير العمل في بناء تلك السفن كل يوم ، فلما اكتملت الاستعدادات خرجت العساكر السلطانية من القاهرة في رجب سنة ٨٢٩ هـ قاصدة الاسكندرية ودمياط ، وفي طريقهم صادفوا أربع قطع بحرية من مراكب الفرنج قاصدة ثغر الاسكندرية ، فلما رأوا كثرة مراكب المسلمين ولوا الأدبار هاربين ، أما العساكر الاسلامية ، فقد واصلت سيرها باتجاه قبرص . (٢)**

**وقبل الهجوم على الجزيرة بعث الأمراء الى صاحب قبرص رسالة على يـد رسوله اليهم يدعونه للدخول تحت طاعة السلطان الأشرف برسباي ، فلما وقف (جانيوس) على تلك الرسالة أعلن رفضه لما عُرض عليه ، فعند ذلك تهيأ الأمراء للقتال في سبيل الله ، وأخذوا في تنظيم العساكر الاسلامية التي قاربت خمسة آلاف مقاتل حملتهم نحو مائة سفينة . (٣)**

**ثم هاجم المسلمون الجزيرة وأخذوها من أيدي الفرنج بعد هزيمتهم في الموقعة العسكرية التي شاركت فيها قوات قدمت من دول أوروبا نجدة لملك قبرص في**

(١) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ٢٨١/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١٠١/٢ .

(٢) ، ، : ، ، ، ٢٩٤/١٤ ، ، ، ، ، ، ١٠٦/٢ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ١٠٧/٢ .

أربعة عشر مركبا مشحونة بالسلاح والمقاتلة ، وقد كانت هذه النصره على غير القياس النظري فان عسكر الاسلام كانوا فئة قليلة ، وصاحب قبرص جاءتته نجدة كثيرة من ملوك الفرنج الذين حولته ، فكانت النصره للمسلمين بعد أن يسر الله هزيمة تلك الجموع الصليبية ، وأعز الاسلام وأهله ، وخذل الكفر وأهله بهذا النصر العظيم . (١)

وعادت العساكر السلطانية يوم عيد الفطر من سنة ٨٢٩ هـ ، فكان لدخولهم القاهرة يوم مشهود ، وأسار الأسرى القبارصة في مقدمة العساكر المنصورة ، وفي مقدمة الأسرى الملك جانيوس صاحب قبرص وولده الذي حاول النجاة بنفسه بعد ما رأى ما حل بعساكره وهم يدافعون عن الجزيرة ، فدخل الأسرى وهم في القيود ودخل صحبتهم الغنائم التي غنموها على رؤوس الحماليين . (٢)

ثم أمر السلطان الأشرف برسباي بسجن صاحب قبرص وولده ومن معهما من أعيان الفرنج ، وبقي ملك قبرص في السجن حتى اشترى نفسه من السلطان برسباي ، فقد طلب السلطان المملوكي دفع مبلغ خمسمائة ألف دينار يفتدى بها جانيوس نفسه والآن أمر الأشرف برسباي بقتله ، فترددت الرسائل بينهما حتى تقرر أن يحمل ملك قبرص مائتي ألف دينار منها مائة ألف معجلة ، ومائة ألف اذا رجع جانيوس الى بلاده ، وأن يحمل في كل سنة مبلغ عشرين ألف دينار بالاضافة الى أنواع من الهدايا الفاخرة والثياب مقابل أن يكون جانيوس نائبا للسلطان بقبرص ، فلما انعقد الصلح بينهما على ذلك أطلقه السلطان الأشرف برسباي من السجن في شهر ربيع الأول سنة ٨٣٠ هـ .

وبعد ذلك الصلح أذن برسباي لملك قبرص بالعودة الى بلاده واستمرت قبرص من يومئذ بيد المسلمين يحمل أهلها الجزية كل سنة الى سلطان مصر ، وكانت غزوة

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٩٤/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١٠٧/٢ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ١٠٨/٢ .

قبرص من الغزوات المشهورة ارتفعت بهامكانة السلطان الأشرف برسباي بسين الملوك ، وعظم قدره بما وقع له من هذه النصره . (١)

وبفتح جزيرة قبرص وخضوعها لتبعية الخلافة العباسية ، والسلطنة المملوكية ،

يكون السلطان الأشرف برسباي قد حقق نصرا كبيرا للخلافة ولسلطنة المماليك ، مما أضفى عليه وعلى حكمه أهمية كبرى . (٢)

وقد جعل ذلك الانتماء السلطان الأشرف برسباي يفكر في غزو

جزيرة أخرى وهي جزيرة رودس (٣) التي أصبحت مركزا هاما في شرق البحر المتوسط ،

بعد أن استولى عليها فرسان الاستبارية واتخذوها قاعدة لنشاطهم وأعمالهم ضد المسلمين، حيث لم يكن هؤلاء الفرسان أقل حماسا من ملوك قبرص في قتال المسلمين، والاعتداء على السفن التجارية التي يملكها المسلمون في عرض البحر . (٤)

#### غزو جزيرة رودس :

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بعد فتح قبرص أحس الفرسان الاستبارية بجزيرة رودس بالخطر الذي يسات

يحدق بهم عقب نجاح المماليك في هزيمة ملك قبرص والاستيلاء على الجزيرة ، فأرسل

صاحب رودس رسولا لمقابلة الأشرف برسباي ، فلما وقف بين يدي السلطان

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٠٤/١٤ ، ٣٠٦ ، ابن اياس : بدائع

الزهور ١٠٩/٢ .

(٢) سعيد عاشور : العمر المماليكي في مصر والشام ١٦٩ ، أحمد دراج : المماليك

والفرنج ٩ .

(٣) جزيرة في البحر الأبيض المتوسط ، تعد من الثغور الشامية ، فتحها جنادة بن

أبي أمية عنوة في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، بينها وبينها وبين

جزيرة قبرص قرابة عشرين ميلا .

( أبو الفداء : تقويم البلدان ١٧٨ ) .

(٤) سعيد عاشور : العمر المماليكي في مصر والشام ١٧٠ ، أحمد دراج :

المماليك والفرنج ٣٣ .

ذكر أن مُرسله يطلب الأمان من السلطان، ويطلب منه عدم تجهيز العساكر الاسلامية اليه على أن يقوم للسلطان الأشرف بما يطلب منه . (١)

لم ينس الأشرف برسباي موقف أهل جزيرة رودس من الاسلام والمسلمين، ولو طال به المقام لغزا تلك الجزيرة حيث وافته المنية في سنة ٨٤١ هـ ، وتولى السلطنة المملوكية بعده ابنه يوسف ، فبقي في منصبه قرابة ثمانية أشهر ، ثم خلع بعد أن غلب على مقاليد الأمور في الدولة الظاهر جقمق العلائي الذي بُوع بالسلطنة في سنة ٨٤٣ هـ .

وفي هذه الأثناء لم تتوقف غارات القراصنة الفرنج عن شواطئ مصر والشام مما يَظهِر أن أولئك القراصنة قد اتخذوا جزيرة رودس قاعدة لهم بعد أن سقطت أرمينيا الصغرى وجزيرة قبرص ، وكانت تلك الحملات تعود أذراجها مسرعة بعد أن تقوم بهجوم خاطف على احدى المدن الساحلية فتنهب وتُدَمِّر ، وقد أشارت تلك الاعتداءات غضب السلطان الظاهر جقمق فعقد العزم على غزو رودس . (٢)

ومما شجع الظاهر جقمق العلائي على غزو جزيرة رودس أن السلطان العثماني مراد الثاني سمع بمحاولات لضم فرسان الاسبتارية بتلك الجزيرة الى الحلف المسيحي الكبير الذي أوشك أن يتكون في أوروبا لشن حرب صليبية كبرى ضد الدولة العثمانية ، فقام السلطان العثماني بِحَسْبِ الظاهر جقمق على غزو رودس لشغل الاسبتارية عن الانضمام الى ذلك الحلف الصليبي . (٣)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٠٦/١٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢٣٣/٢ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٧٠ ، أنور زقلمة : المماليك في مصر ٦٧ .

وعن أخبار تلك الاعتداءات راجع : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٢٩/١٤ ، ٣٣٤ .

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٧٠ .

وفي محرم سنة ٨٤٤ هـ بدأ الظاهر جقمق بتجهيز العساكر السلطانية لغزو الفرنج في رودس ، وبعد أن اكتمل الاستعداد خرجت الحملة العسكرية في خمسة عشر مركبا في شهر ربيع الأول سنة ٨٤٤ هـ ، وبعد وصولهم لساحل الجزيرة وقعت بينهم وبين المدافعين عنها مناوشات خفيفة ، ثم عادوا الى الديار المصرية ، فلما طلعتوا لمقابلة السلطان الظاهر جقمق أعلموه بأنه لم يكن لهم طاقة بأهل رودس الذين استعدوا لقتالهم ، وكانت عودة العساكر السلطانية في الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى من نفس السنة . (١)

ثم جهّز السلطان الظاهر جقمق حملة ثانية لغزو رودس في صفر سنة ٨٤٧ هـ ، عين فيها جماعة من كبار الأمراء المماليك ومعهم العساكر السلطانية وعدد كبير من المتطوعة ، فلما وصلوا الجزيرة هبّت عليهم رياح عاصفة أغرقت بعض المراكب ، وقاسى الغزاة في تلك الحملة معاناة شديدة حتى اجتمعوا بعد جهد كبير ، ووقع بينهم وبين أهل رودس موقعة شديدة قتل فيها من العساكر السلطانية جماعة كثيرة تزيد على مائة ، وجرح أكثر من خمسمائة ورجع البقية . (٢)

وقد كانت هذه الحملة أكثر توفيقا من التي قبلها ، حيث دمرت بعض الحصون والأبراج الساحلية في رودس ، واضطرت للرجوع للديار المصرية لشدة العواصف التي هبت في تلك الأثناء . (٣)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٤٢/١٥ - ٣٤٣ ، ابن اياس : بدائع

الزهور ٢٣٤/٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٥٢/١٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢٣٨/٢ .

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٧١ .



وفي المحرم من سنة ٨٤٨ هـ أمر السلطان الظاهر جقمق بعمارة مراكب بحرية لغزورودس ، وأخذ في تجهيز حملة عسكرية عظيمة عيّن لقيادتها الأمير اينال العلاني وصحبه جماعة من كبار الأمراء المماليك ، وزيد في عدد العساكر السلطانية التي خرجت في هذه الحملة التي تعد ثالث حملة للظاهر جقمق لغزو جزيرة رودس . (١)

وبعد أن اتجهت هذه الحملة صوب الجزيرة حاصرتها نحو من أربعين يوماً ، وبالرغم مما أبداه الغزاة المسلمون من شجاعة نادرة في جهاد الاستتارية فأنهم توقفوا عن الاستمرار في القتال لمقاومة المدافعين عن الجزيرة من الفرسان الاستتارية ، هذا فضلاً عن المساعدات التي تلقوها من العالم المسيحي الغربي، وعند ذلك رأى قائد الحملة العودة إلى مصر حرصاً على سلامة العساكر الإسلامية بعد مقتل أعداد منهم، لعدم التكافؤ بين الجانبين ، ثم لم يلبث أن عقد الملح بمين السلطان جقمق وحاكم رودس بعد أن تعهد الاستتارية بعدم الاعتداء على السفن التجارية الإسلامية . (٢)

وبعد ذلك الملح هدأت الاعتداءات الفسرج على السواحل الإسلامية المدة الباقية من سلطنة الظاهر جقمق حتى وفاته سنة ٨٥٧ هـ ، فولي السلطنة من بعده ابنه عثمان الذي لم يستطع البقاء في منصبه أكثر من شهر ونصف ، فتولى السلطنة الأشرف اينال في ثامن شهر ربيع الأول سنة ٨٥٧ هـ .

وفي سلطنة الأشرف اينال مات حاكم جزيرة قبرص (جوان بن جانيوس) سنة ٨٦٢ هـ ، وبعد موته ملك أهل قبرص عليهم ابنته مع وجود ابنه (جاكم) ، فبعث الأشرف اينال

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٥٩/١٥ ، ابن اياس : بدائع

الزهور ٢٤١/٢ - ٢٤٢ .

(٢) سعيد عاشور : العمر المماليكي في مصر والشام ١٧٢ .





ثم استقر أمر السلطان الأشرف اينال على تولية جاكم بن جوان حُكم جزيرة قبرص، وأرسل معه حملة عسكرية لتنفيذ ذلك الأمر واستلام المال الذي قرره السلطان على جاكم ، فلما رجعت تلك الحملة الى الجزيرة واقعوا أهل شرينه (١) ، وحاصروا قلعتها بعد فرار صاحبها الى حاكم رودس تستنجد به ، وقد استطاعت العساكر السلطانية من الظفر بعدة مراكب قدمت نجدة لملكة شرينه ، وأسر ما يقارب مائة ممن كان عليها ، وأرسل قائد الحملة الأمير جاني بك يستحث السلطان في ارسال نجدة له من العساكر السلطانية قبل مجيء الفرنج الجنوبية (٢) نجدة لأهل شرينه . (٣)

وتوفي السلطان الأشرف اينال قبل أن تخرج الحملة التي أراد ارسالها نجدة للقوات المملوكية التي أرسلت لمعاونة ملك قبرص جاكم ، وتولى السلطنة من بعده ابنه أحمد ، فلم تطل مدته في السلطنة حيث خُلع بعد أربعة أشهر من ولايته ، وتولسى السلطنة الظاهر خشقدم الناصري في سنة ٨٦٥ هـ ، فاهتم بأمر جزيرة قبرص وسعى لتأييد الملك جاكم ، وأرسل حملة عسكرية لمساعدته في صد هجوم الفرنج الذين يعارضون تنصيبه ملكا على الجزيرة . (٤)

- 
- (١) يذكر ابن اياس أن اسمها سرينة ، ولم أجد هـا فيما وقفت عليه من مراجع بهذين الاسمين ، ولعلها تكون جزيرة سردانية ، وهي في شرق القسطنطينية .  
(تقويم البلدان ١٩٤ ، الروض المعطار ٣١٤) .
- (٢) نسبة الى مدينة جنوى الايطالية .
- (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦ / ٢٢٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢٧٢/٢ .
- (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦ / ٢٦١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ٢ / ٣٨٦ .

ثم تتابعت الحملات العسكرية قاصدة جزيرة قبرص في محاولة من السلطان الظاهر خشقدم ابقاء تلك الجزيرة تابعة لسلطنة المماليك ، غير أن قائد آخر تلك الحملات الأمير جانم أساء التصرف بعد وصوله للجزيرة ، فقد وصل الى الديار المصرية قاصد ملك قبرص جاكم ، وأخبر السلطان أن جاكم أخذ مدينة الماغوصة وقلعتها من أعدائه الفرنج وأنه سلمها للأمير جاني بك المقيم بجزيرة قبرص بمن معه من العساكر السلطانية ، وبعد تسلمه للمدينة أساء السيرة في أهلها ، واعتدى عليهم ، فشق ذلك على أعيان المدينة وتوجهوا للقاء الأمير جاني بك وقالوا له : نحن سلمناكم البلد بالأمان ، وقد حلفتم لنا أنكم ألا تفعلوا معنا بعد أخذها الآكل خير وأنتم مسلمون ، فما هذا الحال ؟

فلم يلتفت جاني بك الى كلامهم ، واستمر فيما هو عليه ، فأرسل أهل الماغوصة الى جاكم ملك قبرص فعرفوه الخبر ، فحاول مع الأمير المملوكي ونهاه عن أفعاله فلم يستمع لرساله فركب جاكم من نيقوسية بنفسه ، فلما جاء الى جاني بك كلمه فلم يلتفت اليه ، وبلغ به الأمر بخرب ملك قبرص الملك جاكم ، فسقط مغشيا عليه ، فلما رأت الفرنج ذلك مدت أيديها الى الأمير جاني بك ومن معه من المسلمين فقتلوه وقتلوا معه خمسة وعشرين من العساكر السلطانية ، واستولى جاكم على مدينة الماغوصة ، وأعلن أنه نائب للسلطان المملوكي بها ، وذلك في سنة ٨٦٨ هـ ، وشيئا فشيئا ضعف النفوذ المملوكي على جزيرة قبرص ، وأصبح حاكمها يتراخى في ارسال الجزية المقررة عليه في كل سنة لسلطنة المماليك .<sup>(١)</sup>

وبعد تلك الحادثة عادت العساكر السلطانية الى الديار المصرية ، وانشغل السلاطين المماليك بالفتن والمؤامرات التي نشبت بتدبير من الأمراء المماليك الطامعين في السلطنة ، حيث مات الظاهر خشقدم في سنة ٨٧٢ هـ ، فبويع بعده في السلطنة الظاهر يلباي ، فخلع بعد مبايعته بالسلطنة بشهرين ، ثم بويع من بعده الظاهر تمر بغيا ،

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٦/٢٨٥ - ٢٨٦ ، ابن اياس : بدائع

فخلع بعد شهرين أيضا ، فتسلم منصب السلطنة بالديار المصرية والبلاد الشامية السلطان الأشرف قايتباي في شهر رجب سنة ٨٧٢ هـ .

وفي ظل تلك الخلافات والمراعات بين طوائف الأمراء والأجناد المماليسك عادت أعمال القرصنة والاعتداء على السواحل في البلاد المصرية والشامية ، فتعرضت سواحل الاسكندرية ودمياط لاعتداءات أولئك الفرنج الذين أخذوا في التماذي في عمليات نهب السفن التجارية ، والقبض على من يجدونه من المسلمين ، والرجوع بهم معهم أسرى الى الأماكن التي قدموا منها . (١)

ومن الأمثلة على ذلك التماذي قيام الفرنج بالتحايل على التجار المسلمين بالاسكندرية حتى أسروهم ، ومن جملة التجار المأسورين تجار السلطان الأشرف قايتباي ، فلما أسروهم خرجوا بهم من الاسكندرية الى بلاد الفرنج ، فاضطربت الأحوال بمدينة الاسكندرية ، ولما علم السلطان بالخبر أمر نائب ثغر الاسكندرية بالقبض على جميع التجار الفرنج الذين كانوا بالاسكندرية ، فتم ذلك وضيَّق عليهم وأودعهم في الحديد ، وألزمهم بأن يكتبوا ملوك الفرنج بما جرى عليهم ٠٠٠ وانتهى الأمر بأن اشترى التجار الذين أسروا أنفسهم من ملوك الفرنج بمال لهم مقدار ٠٠٠ . (٢)

وفي محاولة من السلطان قايتباي للحد من أعمال أولئك القراصنة الفرنج ، أمر ببناء برج وقلعة من ميناء الاسكندرية ، وجعل بذلك البرج وبتلك القلعة مقعدا يطل على البحر يرى من فوقه مراكب الفرنج وهي على بعد مسيرة يوم ، وشنن القلعة بالحوامل والأسلحة ، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به دائما ، وأجرى عليهم الرواتب في كل شهر ، وذلك حتى لا تطرق مراكب الفرنج الثغر على حين غفلة ، وفي ثغر دمياط أمر

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٧٥/٣ ، ٧٩ ، ٨٩ .

(٢) المرجع السابق ١١٤/٣ .

السلطان بوضع سلسلة على مدخل الثغر فحمل بها النفع لطردها مراكب الفرنج الكبار ، وكان السلطان قايتباي يتفقد العمل في تلك المرافق بنفسه ، حيث سافر الى الاسكندرية أكثر من مرة لتفقد سير العمل ، أنفق على بنائها زيادة على مائة ألف دينار ، وأوقف عليها الأوقاف الجليلة . (١)

وفي سلطنة الأشرف قايتباي فتحت جبهة جديدة جنوب أراضي الخلافة العباسية وأصبح لزاما على السلطنة المملوكية القتال على تلك الجبهة و حمايتها ، فبعد أن كانت تحرشات الصليبيين من شمال السلطنة المملوكية نواحي البحر الأبيض المتوسط خاصة جزيرتا قبرص ، ورودس ، ظهرت حملات صليبية تتحرش بالسلطنة المملوكية من جنوب السلطنة نواحي الهند والبحر الأحمر ، وكانت تلك الجبهة الجديدة " تنفيذا للمشروعات الصليبية التي دعت الى ضرورة القضاء على دولة الخلافة بالديار المصرية والبلاد الشامية ، اما عن طريق حرب سافرة تجند فيها الجيوش الصليبية وتعباً الأساطيل البحرية والبرية ، أو عن طريق محاربة سلطنة المماليك في أعظم موارد ثروتها وقوتها وهي التجارة الدولية التي تمرّ عبر أراضي السلطنة المملوكية من الجنوب الى الشمال أو العكس " . (٢)

وقد اشتدت حدة الهجمة الصليبية الجديدة مع بداية سلطنة الأشرف قانصوه الغوري سنة ٩٠٦ هـ ، حيث ظهر الخطر الكبير الذي أصبح يهدد مصالح البلاد بعد وصول مراكب البرتغاليين الى سواحل الهند ، وصاروا يقطعون الطريق على التجار المسلمين ويأخذون كل سفينة غصبا مما هدد مركز السلطنة المملوكية الاقتماد على كطريق رئيسي للتجارة بين الشرق الأقصى والغرب الأوروبي ، واعلان بانتقال زمام التجارة من أيدي المماليك الى أيدي البرتغاليين . (٣)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور : ١٥٦/٣ .

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ٧٠ ، وانظر : عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية ٤٥٨ ، أحمد مختار العبادي وعبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ٢٤٧ .

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٧٨ ، طارق الحمداني : القوي البحرية العربية و دورها في مواجهة البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي في بداية القرن العاشر - مجلة الدارة ، العدد ٤ ، سنة ١٤٠٥ هـ ، ص ١٠٦ .

### التحركات البحرية البرتغالية حول السواحل الاسلامية :

شرع البرتغاليون بعد وصولهم الى السواحل الهندية في بناء القلاع والحصون لبسط سيطرتهم العسكرية والتجارية على تلك الموانئ ، وحمل البرتغاليون فسي توجهم الى تلك المناطق الروح الصليبية الحاقد ة على الاسلام والمسلمين ، يؤكد ذلك الخطاب الذي ألقاه القائد البرتغالي (البوكرك ) وهو يوجه جنوده لاحتلال الموانئ الاسلامية بالسواحل الهندية بقوله : ان أجل خدمة لخضد شوكة الاسلام بحيث لا تقوم له قائمة بعد اليوم هي في عملنا هذا ، واننا اذا انتزعنا تجارة البهارات من يد العرب فان الدمار سيحل بالقاهرة ومكة ... (١)

وبعد أن وصلت أخبار اعتداءات الفرنج على السفن الاسلامية وهي تحمل الحجاج من الهند الى الأماكن المقدسة بالحجاز ، وتعرضهم للسفن التجارية ، بدأ السلطان قانصوه الغوري في اتخاذ التدابير اللازمة لوقف تلك الاعتداءات .

فقد لجأ قانصوه الغوري الى الأساليب السياسية ، فوجه نداء الى البابا يطلب منه منع البرتغاليين والأسبان من التعرض للمسلمين بسوء ، ويبد وأن القوى الأوروبية لم تتأثر بذلك التهديد ، مع أن قانصوه لمح لتلك القوى بأنه سيهدم الأماكن المقدسة المسيحية ان لم يكف البرتغاليون عن تهديد الأماكن المقدسة الاسلامية في الحجاز . (٢)

ولما تزايدت حوادث اعتداء الفرنج على السواحل الاسلامية بالهند ، أرسل السلطان مظفر شاه سلطان(كجرات) يطلب من قانصوه الغوري ارسال العسدد والآلات

(١) جميل المصري : حاضر العالم الاسلامي وقضايه المعاصرة ١ / ٧٠ ، ٧١ ، نعيم فهمي : طرق التجارة الدولية ١٣ ، أحمد مختار العبادي ، وعبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ٢٥٣ ، محمود الشاذلي : المسألة الشرقية ٣٨ .  
(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٧٨ ، علي الخربوطلي : مصر العربية الاسلامية ٣١٧ .

والمدافع لدفع ضرر الفرنج عن المسلمين ، ووصل رسول السلطان عبد الوهاب الظاهري يطلب من السلطان قانصوه الغوري نجدته لكثرة ضرر الفرنج في بحر اليمن ، وضعسف المسلمين هناك و عجزهم عن مقاومتهم لعدم معرفتهم بالقتال في البحر . (١)

فأخذ السلطان يعد العدة لارسال الحملة العسكرية الأولى للرد على اعتداءات الفرنج بسواحل الهند ، وقد خرجت تلك الحملة في جمادى الآخرة سنة ٩١١ هـ ، وأرسل قانصوه الغوري في صحبة العساكر السلطانية جماعة كثيرة من البنائين و النجارين ، لبناء الأبراج التي أمر السلطان بإنشائها حول مدينة جده ، وقد جهز لهم السلطان عدة مراكب مشحونة بالسلاح والذاد ، وبعد وصولهم الى جده في صفر سنة ٩١٢ هـ ، شرع قائد العساكر السلطانية حسين الكردي في بناء عدة أبراج على ساحل جده . (٢)

كانت خطة السلطان الغوري لحماية الثغور الاسلامية على البحر الأحمر تعتمد على بناء الاستحكامات الحربية بعد وصولهم الى تلك الموانئ ، فبدأوا بميناء جده ثم بقية الموانئ على ساحل البحر حتى البلاد اليمنية ، وقد استطاعت تلك الحملة العسكرية الوقوف على أحوال تلك الموانئ منذ خروجهم من السويس ، حتى عدن ، وتقدير ما تحتاجه من مباني يستفاد منها للدفاع عنها و حمايتها من الاعتداءات المليبيسة . (٣)

ولم تمنع تلك التحركات البحرية المملوكية اعتداءات البرتغاليين حيث كثر اذاهم ببحر الهند ، مما دفع قائد العساكر السلطانية الأمير حسين الكردي يسرع

- 
- (١) ابن الديبع : الفضل المزيدي على بغية المستفيد ٦٣ - ٦٤ ، النهرواني : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ١١١ .  
 (٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٨٤/٤ - ٨٦ ، ابن الديبع : الفضل المزيدي على بغية المستفيد ٦٦ .  
 (٣) عبد القدوس الأنماري : تاريخ مدينة جده ٧٠ ، طارق الحمداني : القسوى البحرية العربية ١٤٤ .

في التجهز للسفر الى ميناء عدن بعد بدء العمل في أبراج وسور مدينة جدة ، وقد تزايدت أعداد مراكب الفرنج في بحر الحجاز ( البحر الأحمر ) حتى بلغت عشرين مركباً ، وصاروا يقطعون الطريق على مراكب التجار القادمين من الهند ، ويعتمدون تنفيذ تلك الاعتداءات في الأماكن المخيفة من البحر فيأخذون ما معهم من أرزاق ، وقد أدت أعمال القرصنة تلك الى ندرة وجود الأرزاق في مصر وغيرها من بلاد الخلافة بفرض ما يشبه الحصار الاقتصادي على البلاد الاسلامية في الجزيرة العربية والديار المصرية والبلاد الشامية وذلك في سنة ٩١٢ هـ . (١)

واستمر السلطان قانصوه الغوري في اكمال الاستعدادات لمواجهة الصليبيين فبعد ارساله لحملة عسكرية لحماية الموانئ الاسلامية بساحل البحر الأحمر، تابع الأشرف على أعمال البناء في الديار المصرية لعمل مراكب بحرية حربية والاهتمام بتأميم ما تحتاجه العساكر السلطانية من السلاح ، وكان السلطان يحضر بنفسه استعراض ما تم انجازه من تلك المراكب في نهر النيل ، ويقف على التجارب الأولية لاستخدام المدافع التي أمر السلطان بصناعتها للاستفادة منها في مواجهة الصليبيين ، وأصبحت موانئ الاسكندرية ودمياط والسويس أشبه بالموانع الحربية تمد الجيش الإسلامي بما يحتاجه من عدة وعتاد . (٢)

وفي شعبان سنة ٩١٤ هـ وصلت الأخبار بأن العسكر الذي توجه نحو بلاد الهند بقيادة الأمير حسين الكردي قد انتصر على الفرنج الذين كانوا يتعرضون للسفن التي تحمل الحجاج والتجارة الى البلاد الاسلامية ، وأنه غنم منهم غنائم كثيرة ، وطلب

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٠٩/٤ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ابن الديبع : قسرة العيون ٢١١/٢ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ١٤٢/٤ - ١٤٣ ، ١٩٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٨٨ .



قائد العساكر السلطانية بارسال نجدة له ليتقوى بها على قتال من بقي بتلك النواحي  
من الفرنج . (١)

وقبل نهاية هذه السنة هزمَ الأمير تمر باي الفرنج الذين كانوا يتعرفون  
للسواحل ، وأخذ مركبهم ، وأسر منهم سبعة وعشرين ، وأرسلهم في ذلك المركب إلى  
السلطان قانموه بالديار الحميرية . (٢)

ومما تقدم يظهر أن الجولة الأولى من المواجهة بين دولة الخلفاء  
والبرتغاليين كانت في صالح العساكر الإسلامية في أول الأمر ، ولكن لم يلبث أن ثار  
البرتغاليون لأنفسهم من الهزيمة الأولى في العام التالي ، حيث جاءت الأخبار في شهر  
مفر سنة ٩١٥ هـ بهزيمة العساكر السلطانية هزيمة منكرة ، وأن البرتغاليين أباد وهم  
عن آخرهم ونهبوا ما في مراكبهم في موقعة ( ديو ) قرب السواحل الهندية ، ولما سمع  
السلطان قانموه ذلك الخبر تنكد له . (٣)

ومع الوقع السيء لتلك الهزيمة التي تعرضت لها العساكر السلطانية  
بالسواحل الهندية ، فإن السلطان قانموه الغوري لم يتوقف عن محاولة القضاء على  
أولئك الصليبيين ، وصمم على إرسال حملة عسكرية ثانية، وبدأ في بناء مراكب حربية  
جديدة، وأرسل حملة عسكرية عن طريق ميناء الإسكندرية لاحتضار الأخشاب اللازمة لبناء  
تلك المراكب ، وقد التقت تلك الحملة السلطانية بمراكب للفرنج في عرض البحر  
كانت تعترض السفن التجارية ، فانتصرت عليهم ، وغنمت ما كان معهم في تلك المراكب  
وهي أشياء كثيرة بنحو مائة ألف دينار، بالإضافة إلى أسر طائفة منهم بلغ عددهم خمسون  
أسيراً . (٤)

- 
- (١) ابن اياس : بدائع الزهور : ١٤٢/٤ .  
(٢) المصدر السابق ١٤٦/٤ .  
(٣) المصدر السابق ١٥٦/٤ .  
(٤) المصدر السابق ١٦٣/٤ - ١٦٤ ، ١٨٥ .

تزايد الأخطار التي تحدق بالخلافة العباسية :

وفي سنة ٩١٦ هـ زادت حدة اعتداءات المليبيين من ناحية شمال الخلافة العباسية فقد خرج الفرنج على العساكر السلطانية التي يقودها الأمير محمد بيك فقاتلوه ومن معه حتى قُتِلَ ومعه بعض جنده، وأخذوا ما كان معه من المراكب المشحونة بالسلاح وآلة الحرب ، وكانت نحواً من ثمانية عشر مركباً ، فلما بلغ ذلك الخبر السلطان قانصوه تنكد الى الغاية لسماعه وامتنع عن الأكل يومين ، وقد تزايد شر الفرنج وكثر تعرضهم للناس في البحر الرومي ( الأبيض المتوسط ) والبحر الهندي ، واضطرب الأمر على السلطان قانصوه الغوري بتزايد تلك الاعتداءات من الشمال والجنوب خاصة مع بداية خلافة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين بالديار المصرية .

ومما يؤكد احساس قانصوه بالخطر الذي بات يتهدد الدولة الإسلامية أنه عزم بنفسه السفر الى ثغر الاسكندرية ليتفقد خوفه من قدام الفرنج على حين غفلة ، ولكن أحد الأمراء المماليك منعه من السفر وسافر بدلاً عن السلطان الى الاسكندرية . (١)

أما جنوب الخلافة العباسية فقد وصلت رسل ملوك الهند ومعهم مكاتبات للخليفة

وللسلطان الغوري يطلبون سرعة تجهيز حملة عسكرية الى جهات الهند بسبب تعبث الفرنج هناك وتزايد طمعهم في أخذ البلاد بعد هزيمة عسكر السلطان الغوري ، ولم تشر المصادر الى دور ملوك الهند المسلمين في مواجهة الفرنج مما يدل على أنهم وقفوا في انتظار مساعدة الخلافة والسلطنة المملوكية ينتظرون وصول عساكرها اليهم ، ولعل الغوري أراد أن يحثهم على عمل شيء لمواجهة أعدائهم فهم أقرب من الغوري

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٩٢/٤ - ١٩٣ .

مما يساعد في اختصار كثير من الجهد والوقت لبعده المسافة بين الهند ومصر ، فأرسل اليهم كتبا يطلب منهم أن يكونوا عوناً للسلطان في قتال الفرنج الذين كثر فسادهم وتزايدت أعداد مراكبهم . (١)

ولم يتوقف قانصوه الغوري عن مواصلة الاستعدادات العسكرية لمواجهة الفرنج خاصة بعد وصول أخبار تقدمهم نحو السواحل الإسلامية في مضيق البحر الأحمر، وعقد السلطان مجلساً مع كبار الأمراء المماليك للتشاور في أمر الفرنج الذين تسلطوا على جهات اليمن ، فاستمر ذلك الاجتماع من بعد صلاة الجمعة حتى العصر ووقع فيه بعض الجدل بين السلطان والأمراء حول من يسافر منهم في الحملة العسكرية التي أراد السلطان قانصوه إرسالها لحماية البلاد الإسلامية على ساحل البحر الأحمر ، وأعلن بعد ذلك الاجتماع أن السلطان عين أربع حملات عسكرية تخرج من الديار المصرية لجهات معلومة حددها السلطان . (٢)

#### تخاذل العساكر السلطانية :

وعندما أصدر السلطان قانصوه الغوري أمره للعساكر بسرعة الخروج والسفر امتنعوا عن تنفيذ ما أمروا به بحجة عدم إعطائهم النفقة اللازمة للسفر ، ثم جلس السلطان في اليوم التالي لعرض العساكر السلطانية المعيّنين للسفر، فلم يطلع أحد منهم في ذلك اليوم وردوا عليه بقولهم : ناسف بلا نفقة؟ موت جوعاً وعطشاً في البراري ، فتنكد السلطان في ذلك اليوم لما سمع من مقاتلهم تلك . (٣)

وبعد شهرين أعاد السلطان الغوري إصدار الأمر للعساكر السلطانية بالسفر إلى السويس لأجل حفظ المراكب التي بُنيت هناك ، فقالوا : ما ناسف بلا نفقة ، وكان

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٨٥/٤ .

(٢) المصدر السابق ٣٠٨/٤ .

(٣) المصدر السابق ٣١١/٤ .

موقف تلك العساكر السلطانية في وقت استطاعت مراكب الفرنج من احتلال أجزاء من سواحل اليمن مثل عدن ، وكمران ، وأصبح لهم شبه قاعدة عسكرية مكونة من عشرين مركبا بحريا تسيطر على تلك السواحل وذلك في سنة ٩١٩ هـ . (١)

**وأمام امتناع أولئك العساكر عن السفر واشترائهم أخذ النفقة من السلطان الغورى لم يجد بدا من السفر بنفسه الى السويس ، وأمر ببطان سفر أولئك المماليك بعد تخاذلهم عن السفر لمدة شهر من صدور أمر السلطان الغورى لهم بالسفر ، ويظهر عجز السلطان قانصوه عن اتخاذ تدبير حاسم تجاه أولئك العساكر المخالفين لأمره فسي أشد الظروف التي تمر بها الدولة الاسلامية ، وتوجه السلطان في أواخر محرم سنة ٩٢٠ هـ ليكشف عن المراكب البحرية التي بُنيت بالسويس وكان عددها قريبا من عشرين مركبا ، وأمر بانزال المراكب التي انتهى العمل فيها الى البحر بحضوره ، وقد رت تكاليف انشاء تلك المراكب بنحو أربعمئة ألف دينار ، وبعد اقامة السلطان بالسويس ثلاثة أيام رجع الى القاهرة . (٢)**

**ومع اهتمام السلطان قانصوه الغورى بالشغور الشمالية للدولة الاسلامية ، فإنه لم ينس الاهتمام بالسواحل الجنوبية من أراضي الخلافة العباسية ، ففي الأول من محرم سنة ٩٢١ هـ عرض السلطان الغورى العساكر السلطانية وأمرهم بالاستعداد للسفر في ربيع الأول الى الهند ، ووعدهم بزيادة الأعطيات ان هم بيضوا وجوههم في هذه الحملة . (٣)**

**ولم تتمكن تلك الحملة من الخروج في الموعد المحدد لها سلفا ، فأمر السلطان الغورى بالعرض ثانية للعساكر السلطانية وعددهم ستمائة مملوك ، وأنفق عليهم**

(١) ابن اياس : بدائع الزهور : ٣٣١/٤ ، ٣٣٧ .

(٢) المصدر السابق ٤٣٠/٤ .

(٣) المصدر السابق : ٤٣٦/٤ ، ٤٥٨ - ٤٦٠ .

نفقة السفر لكل مملوك خمسين ديناراً ، وأعفى جماعة منهم ممن اشتكى ضعفاً في جسده وأعلن لهم بحريج القول : بأن الذى لا يطيق السفر في البحر يعلمني بذلك فأعفيسه من السفر ، وطلب ممن اعتذر عن السفر إعادة النفقة التي أخذها ولا يسافر .

وبعد أن تكامل استعداد تلك الحملة خرجت من القاهرة إلى السويس ، ومنها إلى الهند ، وعين السلطان الغورى لقيادة تلك الحملة الأمير سلمان العثماني ، وبلغ إجمالي عدد العساكر السلطانية التي خرجت في تلك الحملة نحو ستة آلاف . (١)

### نهاية الصراع :

لم تحقق تلك الحملة المملوكية الغاية التي أرسلت من أجلها بسبب اختلاف كلمة قائدها سلمان العثماني مع أحد الأمراء المماليك وهو حسين الكردي الذي كان يتولى نيابة السلطان الغورى على مدينة جدة ، وأثر ذلك الخلاف على العساكر السلطانية حيث انضم إلى كل منهما طائفة من العسكر ، وشارك كل منهما بمن معه إلى جهة من جهات الهند ، يضاف إلى ذلك مقاتلة حسين الكردي لحاجب اليمن عامر بن عبد الوهاب ، واستيلاء المماليك على اليمن ، وغرق كثير من تلك المراكب البحرية بما عليها من آلات وسلاح . (٢)

ولم يستطع السلطان الغورى مواصلة جهوده في صد الفرنج لانشغاله بالخطر الجديد الذي أصبح يتهدد الخلافة العباسية ونفوذها بتقدم السلطان سليم العثماني نحو البلاد الشامية والديار المصرية ، فكانت الفرصة السانحة للفرنج للانقضاض على ما تبقى من وحدات الأسطول البحري الإسلامي بعد انشغال السلطان عنها بما دفعه

(١) ابن اياس : ٤٦٧/٤ .

(٢) المصدر السابق ١١٥/٥ ، ٢٠٣ ، النهرواني : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ١١٤ ابن الديبع : الفضل المزيد ٦٨ - ٦٩ ، قرّة العيون ٢٢٢/٢ ، الصفوى : مفاوة الزمان ق ٥٧ .

العثمانيين عن الشام ومصر . (١)

وعندما نشب الخلاف بين السلطان قانصوه الغورى والسلطان سليم العثماني تنفّس الصليبيون - وخاصة البرتغاليين - الصعداء ، لأنهم كانوا يخشون من اجتماع كلمة السلاطين المماليك والعثمانيين - وهم أبناء دين واحد - واتحادهم سويًا لقتال العدو الذى يتربص بهم الدوائر وهم الصليبيون من برتغاليين وغيرهم .

وحرصا من البرتغاليين على الاستعداد لمثل ذلك الاحتمال أجروا اتصالات مع القوى المعادية للإسلام والمسلمين ، وللمماليك والعثمانيين ، فكان التقارب بين البرتغاليين والدولة الصفوية في ايران في سنة ٩١٩ هـ ، والتقارب البرتغالي مع الحبشة في سنة ٩٢٠ هـ . (٢)

- 
- (١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٧٩ ، جمال الدين الشيبان :
- مجمع تاريخ دمياط ٤٢ ، ٥٥ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ١٤٨ ، عبد العزيز العبيدى : التجارة والملاحة في البحر الأحمر ١٧٧ ، سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ١٣٣ ، نوال الصيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر ٩٧ .
- (٢) محمد عنان : كان لمصر أسطول - مجلة الرسالة ، العدد ٢١٤ ، سنة ١٣٥٦ هـ ، ص ١٢٨٨ ، ١٣٢٤ . ابراهيم أحمد : بدايات التوجه العثماني نحو منطقة الخليج - مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٤٣ ، سنة ١٤١٠ هـ ، ص ٢٦ - ٢٧ . وانظر : نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ٣٧٢ ، جمال الشيبان : دراسات في تاريخ الحضارة ١٠٦ - ١٠٧ ، أتربي أبو العز : الدر المنتخب في تاريخ المصريين والعرب ١٨/٢ ، محمد عنان : مصر الاسلامية ١٦٤ ، ١٦٦ ، عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة صيدا ١٥١ ، ١٥٧ ، جوزيف نسيم : العدو وان الصليبي على مصر ٢٨٣ ، العدو وان الصليبي على بلاد الشام ٢٥٦ ، مصطفى رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث ٧٤ - ٧٥ ، ٨٠ ، محمد كرد علي : خطط الشام ٢٥٤/١ ، ١١٢/٢ ، حامد غنيم : الجبهة الاسلامية في عصر الحروب

وفي غمرة انشغال السلطان قانموه الغوري بقتال السلطان سليم العثماني تمكن البرتغاليون من احكام السيطرة على السواحل الهندية ، واغلاق مدخل البحر الأحمر في وجه التجارة الاسلامية مع الهند خاصة بعد ايجادهم لممر بحري جديد عن طريق رأس الرجاء الصالح ، فانقلب الميزان التجاري لصالح التجارة الأوروبية مع الهند ، واستغلت تلك القوى الصليبية ذلك الاكتشاف في تضيق الخناق على السلطنة المملوكية في ظل صراعها العسكري مع السلطان العثماني ، ومكنت تلك القوى وجودها في الموانئ الاسلامية بالهند وسواحل البحر الأحمر الشرقية والغربية بهدف استخدام العامل الاقتصادي في القضاء على سلطنة المماليك التي وقفت في وجه الأطماع الصليبية في البلاد الاسلامية .

---

== الصليبية ٢/٢١٢ ، ٢٢٣ ، جوزيف نسيم : دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ٧٨ ، ٨٣ ، ١٠٣ ، محمود شبكة : دولة المماليك في مصر - مجلة الأزهر ، العدد ٣ ، سنة ١٣٩٢ هـ ، ص ٢٦٥ ، فائق الصواف : أهمية شجر جده ، مجلة الدارة ، العدد ٢ ، سنة ١٤٠١ هـ ، ص ١٩٩ ، يوسف فضل : الصراع حول البحر الأحمر ، مجلة الدارة ، العدد ٣ ، سنة ١٤٠٣ هـ ، ص ١١٣ ، ١١٩ ، محمد العبد : فدائيون في تاريخنا ، مجلة العرب ، العدد ١٢ سنة ١٣٩٠ هـ ، ص ١٠٦٨ ، محمد العوفي : الحركة الصليبية ، مجلة كلية العلوم الاجتماعية ، العدد ٨ ، سنة ١٤٠٤ هـ ، ص ١٥ ، ١٩ ، عبدالله الحبيد : المماليك الجراكسة في اليمن ، مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي ، العدد ١ ، سنة ١٣٩٨ هـ ، ص ١٦٥ ، عزيز سوريال عطية : دراسة نقدية لكتاب الامام للنويري ، مجلة عالم الفكر ، العدد ٢ ، سنة ١٩٨٣ م ، ص ١٣١ ، علي حسن : مصر في العصور الوسطى ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، تاريخ المماليك البحرية ١٨٢ ، نوال الصيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ١٠٤ - ١٠٥ ، محمد صالح ضرار : تاريخ سواكن والبحر الأحمر ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٢ .

## الفصل الثالث

العلاقات مع الدول الإسلامية





قامت سلطنة المماليك في ظل الخلافة العباسية ، لترث الدولة الأيوبية في ملكها الواسع ، ونفوذها العريض ، وقد انشغلت سلطنة المماليك بعد اعلان قيامها بالنزاعات الداخلية فترة من الوقت ، حيث اجتهد السلطان الظاهر بيبرس بتثبيت أركان السلطنة وتوطيد دعائم ملكه .

وبعد قضاء الظاهر بيبرس على النزاعات الداخلية وتخلصه من مخالفيه انشغل بجهاد المغول والملبيين ، وبذلك تعاضمت قوتها بعد أن استطاعت أن تثبت أنها أعظم قوة في البلاد الاسلامية من المحيط الى الخليج ، فنظر اليها حكام وملوك وشعوب البلاد الاسلامية نظرة اكرام واجلال ، في حين نظرت اليها القوى الأخرى المعادية للإسلام والمسلمين نظرة خوف واحتراز بعد تنامي قوة هذه السلطنة (١) ، خاصة بعد أن حملت اسم الخلافة العباسية واستظلت بظلها .

ويكفي سلطنة المماليك فخرا أنها استطاعت أن تواجه الأخطار الخارجية التي هددت الدولة الاسلامية في شجاعة وقوة بأس ، فقد حمت البلاد الشامية والمصرية من خطر الزحف المغولي ، ثم طردت الملبيين كلية من أرض الشام بعد أن دامت الامارات الملية تسيطر على بعض المدن والسواحل الشامية لمئتين من السنين ، ولم تتوقف سلطنة المماليك عند طردهم فقط ، بل لاحقتهم في مراكز تواجدهم نواحي أرمينية الصغرى وجزيرة قبرص وجزيرة رودس ، ومما زاد في هيبة السلطنة المملوكية نجاحها في احياء الخلافة العباسية في مصر بعد سقوطها في بغداد على أيدي المغول ، فقد جعل ذلك العمل للسلطين المماليك ولسلطنتهم مكانة مرموقة في العالم الاسلامي أجمع بوصفهم حماة للخليفة والخلافة العباسية المتمتعين بنيل شرف بيعتها وحمايتها .

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٢٥ ، علي السليمان : العلاقات

الحجازية المصرية زمن المماليك ١٣ .

وهكذا غدت القاهرة العاصمة الجديدة للخلافة العباسية بالديار المصرية  
**محط** أنظار الأعداء والأعداء جميعاً ، فكان الأعداء يطلبون تأييد هـا  
وينشدون مساعدتها ، أما الأعداء فكانوا يسعون لملاطفتها ومسالمتها أو مهادنتها  
لاتقاء بطشها وهي في أوج قوتها سياسياً وعسكرياً .

يضاف الى ذلك تردد السفراء والتجار على القاهرة بين الفينة والأخرى يبغون  
عقد اتفاقية تجارية أو تخفيف ضريبة أو الغاء مكس ، وبذلك شهدت القاهرة نشاطاً  
دبلوماسياً ضخماً في عصر سلطنة المماليك في ظل الخلافة العباسية ، وصارت مركزاً  
لشبكة واسعة في العلاقات الخارجية مع الدول المديقة وغير المديقة (١) ، وفيما يلي  
ألقى الضوء على ملامح العلاقات بين الخلافة العباسية وبعض الدول والأممات  
الإسلامية في ذلك العصر :

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٢٥ - ٢٢٦ .

علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٣٩ .

## أولا : بلاد الحجاز :

تطلع السلاطين المماليك الى السيطرة على بلاد الحرمين الشريفين كمظهر مكمّل لسيطرتهم على أجزاء واسعة من العالم الاسلامي ، وحرص السلاطين على بسط نفوذهم الديني والسياسي أسوة بما كان عليه الوضع منذ أيام الطولونيين ، فقد كان شرفا عظيما ودعامة كبرى لكل حاكم مسلم أن يظهر أمام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها باسم حامي الحرمين والمدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة . (١)

ومنذ قيام سلطنة المماليك في ظل الخلافة العباسية بالديار المصرية والسلاطين المماليك يبذلون اهتماما خاصا بالحجاز ، وعناية كبرى بشئونه ، ولم يقتصر ذلك الاهتمام وتلك العناية بعمارة الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ، والقيام على شئونهما ، بل امتدت الى محاولة بسط نفوذهم على الحجاز ، وبالتالي سيحسب ذلك النفوذ المملوكي لصالح الخلافة العباسية التي يشرفها ضم منطقة الحرمين لأراضي ومناطق نفوذها .

وقد أتاحت الخلافات بين أشرف الحجاز فرمة طيبة لسلاطين المماليك لبسط نفوذهم على تلك الأماكن ، ففي بداية سلطنة الظاهر بيبرس قدم الى القاهرة الشريف مالك بن شيحة يشكو الى السلطان من أن الشريف جماز أمير المدينة حرمه من المشاركة في الإمرة على المدينة التي كانت مناصفة بين والديهما ، وهكذا وجد الظاهر بيبرس هذه الفرصة للتدخل في الشئون الداخلية لأمانة المدينة النبوية ، فكتب رسالة الى الشريف جماز يطلب منه اشراك الشريف مالك في إمارة المدينة ، فلما وصل ذلك الكتاب الى الشريف جماز امتثل ما ورد فيه .

(١) علي السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ١٧ .  
سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٢٩ .

وفي سنة ٦٦٧ هـ وقع الخلاف بين الشريف نجم الدين أبي نمي ، وبين عمه وشريكه

في الإمارة على مكة الشريف ادريس ، فانتهز السلطان الظاهر بيبرس تلك الفرصة لتسوية النزاع بينهما وتأكيده سلطانة عليهما جميعا ، فرتب لهما عشرين ألف درهم كل سنة بشرط ألا يجمعوا من أحد مكوسا ، وألا يمنعوا أحدا من زيارة البيت الحرام ، وألا يتعرضوا لتاجر ، وأهم من هذا فان السلطان اشترط على أميري مكة أن يُخطبَ باسمه في الحرم ، وأن تُضربَ السكة باسمه ، وذلك مما يضمن له السيادة الفعلية على الحجاز ، وبعد أن وافقا على ما اشترط عليهما كتب الظاهر بيبرس لهما تقليدا بإمارة مكة . (١)

وقد واجه الظاهر بيبرس بعض الصعوبات في محاولته لبسط سيطرة الخلافة

العباسية على الحجاز أهمها :

١ - دولة الرسوليين في اليمن ( ٦٢٦ - ٨٥٨ هـ ) التي كانت مصدر قلق للسلطنة

والخلافة بحكم قربها من الحجاز ، ولأنها كانت لا تقل عن المماليك طموحا

ورغبة في التوسع ومد نفوذها إلى الحرمين بمكة والمدينة ، كمظهر من مظاهر

المهابة الدينية ، والسياسية .

٢ - وثاني الصعوبات الصراع الداخلي بين أمراء مكة والمدينة من جهة ، والأشراف

في كل مدينة فيما بينهم من جهة ثانية ، وقد كان الأشراف بأنفسهم أن يسيطروا

عليهم السلاطين المماليك أو الرسوليين ، بيد أنهم لم يستطيعوا أن يوحدوا

صفوفهم فدعمهم ، ودفع بهم الصراع على الإمارة إلى الاستعانة بالسلاطين المماليك

حيناً أو حكام اليمن حيناً آخر ، مما أدى إلى تذبذب ولائهم بين أنفسهم

والدولتين .

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٣٠ ، علي حسن : تاريخ

المماليك البحرية ١٧٦ . ولمعرفة تفاصيل أخبار الخلاف بين أولئك الأمراء ،

على إمارة مكة ، راجع : تقي الدين محمد الفاسي في كتابه العقد الثمين

٢٧٨/٣ ، ترجمة ٧٤٣ .

٣ - وثالث هذه الصعوبات المواجهة بين السلاطين المماليك والمغول من جهة والصليبيين من جهة ، فقد أدى ذلك الى انشغال السلطان الظاهر بيبرس عن اكمال مشروعه في بسط نفوذه على الحجاز في أقل مدة ممكنة . (١)

يضاف الى ذلك بُعد مكة والمدينة عن القاهرة عاصمة الخلافة العباسية مما تعذر معه اشراف السلاطين على مجريات الأمور في مكة ، واخضاع أمرائها للخليفة وللسلطان المملوكي في كثير من الأحيان ، فرأى المماليك توجيه حملات عسكرية الى الديار الحجازية غير أنها كانت تستلزم المزيد من النفقات المالية التي تعجز خزائن الدولة عن الوفاء بها في ظل الأزمات الاقتصادية التي مرت بها الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية ، وحيال ذلك كان اشراف مكة والمدينة يترددون على القاهرة يبحثون السلطان المملوكي على سرعة مساعدتهم ضد خصومهم .

ولم تستقر الأوضاع لسلطنة المماليك في الحجاز بعد انقضاء مدة سلطنة الظاهر بيبرس، إذ استمرت الخلافات بين الأشراف في مكة والمدينة تثير مشاكل عديدة في وجه السلاطين المماليك ، حتى بلغ الأمر ببعضهم أن فرّ الى (أولجا يتو) خان مغول فارس يطلب منه مساعدته على خصومه من أهل بيته اشراف مكة . (٢)

ففي سنة ٧١٦ هـ كاتب الشريف حميضة بن أبي نمي ملك المغول (خدا بنسدا) يطلب منه جيشا لغزو مكة ، وسعى جماعة من أعيان رافضة المغول لحث الملك خدا بنسدا على ذلك ، وعقدوا العزم على أخذ مكة واقامة حميضة في امارتها وأنهم ينقلون الشيخين أبي بكر الصديق ، وعمر الفاروق (رضي الله عنهما) من جوار النبي صلى الله عليه وسلم . (٣)

(١) علي السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ٢٨ .  
 (٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٣٠ .  
 (٣) عمر بن فهد : اتحاف الوري بأخبار أم القرى ١٥٥/٣ ، الفاسي : العقدا الثمين ٢٣٩/٣ .

وفي سلطنة الظاهر برقوق العثماني طرأت تغييرات على العلاقة بين مركز الخلافة العباسية في مصر وأشرف الحجاز ، فبالإضافة الى الطابع الديني للعلاقة بين الطرفين ، قوى الطابع الاقتصادي التجاري ، فلم يهتم الظاهر برقوق ومن بعده من السلاطين المماليك بمن يتولى أمانة مكة وأهليته لذلك المنصب ، بقدر الاهتمام بأمن شواطئ جدة وينبع وطرق القوافل التي تخترق الديار الحجازية بعدما احتكر السلاطين تعاطي التجارة .

مما أثر في العلاقات المصرية الحجازية ، حيث مارت الرشوة عاملا هاما من عوامل تولية أو عزل أمير مكة ، فصار دفع الأموال للسلطان المملوكي شرطا هاما من شروط التولية وسببا هاما من أسباب العزل ، فتولى أمانة مكة الأغنياء من الأشراف بعد بذل المسال الوفير للسلطان وتقديم الهدايا السنوية ، ثم انتقلت عدوى دفع الرشوى الى أمير مكة فأصبح الشريف من أمراء مكة يتنازل عن الأمانة لشريف آخر مقابل مبلغ من المال . (١)

**أما الطريقة التي سار عليها السلاطين في عزل أمير مكة فهي استدعائه الى الديار المصرية ، لذا فقد كان كل أمير من هؤلاء عندما يُستدعى الى القاهرة يسترجع في ذاكرته الأحداث القريبة الماضية ، وهل يدل شيء منها على غضب السلطان المملوكي الذي طلب حضوره ؟**

فان لم يلحظ شيئا من ذلك مضى في طريقه الى مصر ووجد الاستقبال والاكرام من السلطان ، وأما ان كان السلطان قد غضب عليه فأهون ما يمكن أن يلقاه عزله من الأمانة وتولية غيره من أشراف مكة ، وقد يُصدر السلطان أمره بسجن الأمير المعزول في الديار المصرية فترة تطول أو تقصر حسبما تقتضيه سياسة السلطنة المملوكية ، ويمكن للسلطان

(١) علي السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ٤٢ - ٤٣ .

المملوكي استخدم ذلك الأمير المعزول في المستقبل لتهديد الأمير الجديد إذا حاول عصيان أوامر ذلك السلطان . (١)

وهكذا ظلت مكة تعصف بها الاضطرابات العديدة ، الأمر الذي جعل السلاطين المماليك يتدخلون في كثير من الأحيان لاقرار الأمن والنظام ، واعادة الاستقرار الى تلك الأماكن المقدسة بتولية أمير وعزل آخر ، أو ارسال بعض العساكر السلطانية من الديار المصرية الى مكة لاستعادة ما فقدته من أمن واستقرار ، أو استغلال بعض السلاطين المماليك فرصة توجيههم الى مكة لأداء فريضة الحج للعمل على حل المشاكل الداخلية التي يعاني منها أهل الحرمين (٢) نتيجة لتلك الصراعات والخلافات بين المتنافسين على منصب الامارة بهما .

---

(١) علي السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ٥٥ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٣٢ .



ثانيا : بلاد اليمن :

مممممممممممممممممممممم

بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، وقيام الظاهر بيبرس باعادتها في القاهرة ، أصبح السلطان بيبرس بموجب تقليد الخليفة العباسي المستنصر بالله له صاحب الحق الشرعي في حكم البلاد التي نحر عليها التقليد ، ومن بينها اليمن ، حيث منح الخليفة العباسي المستنصر بالله للظاهر بيبرس حق الولاية على الديار المصرية والبلاد الشامية ، والديار البكرية<sup>(١)</sup> ، والحجازية ، واليمنية ، والجزيرة<sup>(٢)</sup> الفراتية<sup>(٣)</sup> . وبموجب هذا التقليد الذي حصل عليه الظاهر بيبرس من الخليفة العباسي حرص ملوك اليمن على تحسين علاقاتهم مع السلاطين المماليك في مصر خاصة بعد ما تمكن السلطان الظاهر بيبرس من الصمود أمام جيوش المغول ، وتحقيقه لانتصارات ساحقة على القوى المعادية للإسلام والمسلمين وفي مقدمتهم الحلبيين ، مما أكسب السلطان المملوكي التقدير والاحترام من ملوك اليمن<sup>(٤)</sup> .

- 
- (١) هي : بلاد واسعة كبيرة تنسب الى بكر بن وائل ، وهي الآن المنطقة الواقعة بين جنوب تركيا وشمال العراق ، والنسبة اليها الديار بكرى .  
( الحموى : معجم البلدان ٢ / ٤٩٤ ) .
- (٢) وتعرف بالجزيرة ، وبينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، ويحيط بها نهر دجلة من جميع الجهات بما يشبه الهلال الآ جهة واحدة ، حفر فيها خندق وأجرى فيه الماء . ( الحموى : معجم البلدان ٢ / ١٢٨ ) .
- (٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٣٢ ، محمد عبدالعال أحمد : بنو رسول ، وبنو طاهر ٣٩٥ .
- (٤) أحمد العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ١٦٨ ، محمد عبدالعال أحمد : بنو رسول وبنو طاهر ٣٩٦ .

ومما يؤكد ذلك أنه عندما حج المظفر يوسف الرسولي سنة ٦٥٩هـ، وأراد الوقوف بعرفة قال له أحد أمراءه : هلا أطلعت أعلامك يا مولانا السلطان قبل أعلام المصريين ؟ فرد عليه المظفر مستنكرا : أتراني أؤخر أعلام ملك كسر التتار بالأمس وأقدم أعلامي لأجل حضوري ؟ ثم مضى في حجه ... (١)

واستمرت تلك العلاقة الطيبة من خلال تبادل المكاتبات وارسال الهدايا بين الدولتين ، وتجاوزت ذلك عندما أصدر كل من الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون عهد الأمان للدولة الرسولية ، مع تعهد السلاطين المماليك بعدم التعرض للبلاد الواقعة تحت حكم المظفر يوسف الرسولي خاصة بعد أن أصبح اسم سلطان المماليك واسم الخليفة العباسي في القاهرة يذكران في الخطبة على منابر اليمن ، وينقشان على السكة المتداولة في البلاد اليمنية ، وكان هذان الأمران من أهم مظاهر السيادة العباسية والمملوكية على تلك البلاد . (٢)

يضاف الى ذلك أن السلاطين المماليك في مصر في غمرة جهادهم للمغول والصليبيين كانوا يحرصون على ارسال الرسل الى اليمن ليخبروا أهلها بما أحرزوه من انتصارات باهرة رفعت شأن الاسلام والمسلمين أمام أعدائهم ، وفي المقابل لم يترك المظفر يوسف الرسولي تلك الانتصارات المملوكية على المغول والصليبيين تمر دون أن يبعث رسله يحملون رسائل التهاني والفرح بتلك الانتصارات (٣) ، الى الخليفة العباسي والسلطان المملوكي بالديار المصرية .

- 
- (١) الخزرجي : العقد اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ١٣٤/١ - ١٣٥ .  
 (٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٣٣ ، علي حسن : مصر فسي العصور الوسطى ٢٧٦ ، محمد عبدالعال : بنورسول وبنوطاهر ٣٩٧ ، عبدالعزيز السعيدى : العلاقات الخارجية لدولة المماليك الأولى ٣٥ .  
 (٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٣٣ ، محمد عبدالعال : بنورسول وبنوطاهر ٣٩٩ .

غير أن العلاقات الودية التي سادت العلاقة بين الخلافة والرسوليين انتابها التوتر بعد ما تولى ملك اليمن المؤيد هزبر الدين داود الرسولي ، الذي لم يتبسط سياسة أسلافه من ملوك اليمن في الولاء للخليفة العباسي والسلاطين المماليك (١) ، فأظهر داود المخالفة للسلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون في سنة ٥٧٠٦ هـ ، ومنع ما كان يرسله في كل سنة من الهدايا ، فعز ذلك على السلطان الناصر محمد فعيّن حملة عسكرية تتوجه الى اليمن ، وشرع في بناء مراكب بحرية للعساكر السلطانية المتوجهة الى اليمن ، فلما دخل الشتاء بطل أمر تلك الحملة العسكرية . (٢)

يضاف الى ذلك أن بعض العلماء والقضاء أقنعوا السلطان الناصر محمد بضرورة الكتابة للمؤيد داود الرسولي أولاً ، وتأجيل ارسال الحملة العسكرية حتى تعود الرسائل من اليمن ، إضافة الى هذا الاضطراب الذي عانت منه الديار المصرية من جراء تنازل الناصر محمد عن السلطنة وتولية غيره من السلاطين المماليك ، ثم عودة الناصر محمد مرة ثانية ، وخلعه منها ، ثم عودته للمرة الثالثة ، وهكذا حالت تلك الاضطرابات الداخلية دون تنفيذ العمل العسكري الذي عزم عليه الناصر محمد . (٣)

وتدخل الخليفة العباسي المستكفي بالله سليمان بن أحمد في تلك الأثناء بإرساله كتاباً مسهباً يعد بمثابة انذار من الخليفة العباسي لملك اليمن الذي قطع ما كان يرسله سنوياً من الهدية الى الأبواب الشريفة بالديار المصرية ، وقطع ما كان يرسله من غلال للبيت الحرام بمكة ، مع عدم ذكره لاسم الخليفة والسلطان على منابر

(١) علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٧٣ ، مصر في العصور الوسطى ٢٧٧

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤١٩/١ .

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٣٣ ، محمد عبدالعال :

بورسول وبنو طاهر ٤٠٤ .

اليمن ، وَخَتَمَ الخليفة كتابه ذلك بقوله : " وان أبى حالك إلا أن استمررت في غيك واستمررت مرعى بغيك ، فقد منعناك من التصرف في البلاد والنظر في أحكام العباد ، حتى تطأ خيلنا العتاق مشمخرات حصونك ، وتعجل حينئذ ساعة منونك ، وما علمناك غير ما علمه قلبك ، ولا فهمناك غير ما حدسه لُبُّك ، ولا تكن كالصغير يزيد ه كثررة التحريك نوما ، ولا ممن غره الامهال يوما فيوما ، أعلمناك ذلك فاعمل بمقتضاه موفقا ان شاء الله تعالى ... " . (١)

ومع مطلع سلطنة الناصر محمد للمرة الثالثة عادت العلاقة الطيبة بسين الخلافة العباسية التي يدبر أمورها السلاطين المماليك ، وصاحب اليمن خاصة ، بعد أن أحس المؤيد الرسولي بقوة نفوذ الناصر محمد ، وأصبحت رسل صاحب اليمن تتردد بين الحين والآخر على الديار المصرية حاملة الخلع والهدايا معلنة الطاعة للخلافة العباسية وللسلطان الناصر محمد المملوكي في مدة ولاية داود على اليمن . (٢)

وبعد وفاة المؤيد داود تولى ملك اليمن ابنه علي الذي شهدت مدة ولايته كثرة الاضطرابات الداخلية التي أتاحت للسلاطين المماليك فرصة دائمة للتدخل بين الحين والآخر في شئون اليمن ، ففي سنة ٧٢٤ هـ نازع المجاهد علي عمه المنصور أيوب واستولى على أكثر البلاد اليمنية ، فلم يجد المجاهد علي بدا من مكاتبة السلطان الناصر محمد يطلب منه المساعدة العسكرية لاستعادة ملكه ، ولكن الناصر محمد اعتذر عن تلبية ذلك الطلب بسبب تفرق العساكر المصرية في نواحي السلطنة المملوكية ، ووعد بتقديم المساعدة عندما تسنح الظروف بذلك .

(١) القلقشندی : صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، ٤٢٤/٦ ، ٤٢٦ ، ٧٢/٨ ، ٧٦ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الأمور ٤٤١/١ .

ثم في سنة ٧٢٥ هـ أعاد المجاهد سيف الدين علي الرسولي طلب المساعدة من السلطان الناصر محمد ، لمواجهة عصيان ابن عمه عبد الله بن المنصور ، فأرسل الناصر محمد من العساكر السلطانية نحو أُلْفِي فارس تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب ، فساروا حتى اجتمعوا بماحب اليمن وألبسوه خلع السلطان الناصر محمد ، ولم تطل اقامتهم باليمن ، حيث رجعت الحملة الى الديار المصرية في شهر ذى القعدة من نفس العام .

وتوقف المصادر عن امدادنا بمعلومات عن العلاقات المملوكية الرسولية بسبب انشغال السلاطين المماليك بقتال مغول فارس وصد هم عن ديار الاسلام ، حتى كانت سنة ٧٢٠ هـ حيث توترت العلاقات بين الدولتين بسبب تعرض علي الرسولي للهدايا الهندية المرسله الى الخليفة العباسي المستكفي بالله وللسلطان الناصر حسن ، واستيلائه عليها وقتله للرسول الهندي ، ثم قيامه بارسال بعض تلك الهدية للناصر حسن ، وظل التوتر يسود العلاقات بين الجانبين لاطمئنان المجاهد الرسولي بعد القضاء على منافسه ابن عمه الظاهر عبد الله ، واستقرار أمر اليمن بيده دون منافس ، وتصوره أنه ليس في مقدور السلطان المملوكي غزو اليمن في ظل انشغاله بحروب المغول والفرنج ، وأذ اطمأن المجاهد الى ذلك توقف عن ارسال الهدايا التي اعتاد سلاطين بني رسول ارسالها الى مصر ، وعمل في نفس الوقت على توثيق علاقاته مع أشراف مكة فأغدق عليهم الأموال وأصبح اسمه يذكر في الخطبة بمكة بعد اسم السلطان المملوكي (١)

وفي سنة ٧٥١ هـ وعند ما توجه ركب الحاج المصري للحج تلك السنة ، وبعد وصوله مكة وشروعه في الصعود الى عرفات، وقع بين أمير ركب الحاج المصري وبين الملك المجاهد صاحب اليمن الذي حج في تلك السنة أيضا خلاف ، فتحاربا وهما

(١) محمد عبدالعال : بنو رسول وبنو طاهر ٤٢١ - ٤٢٢ .

حول جبل عرفات ، وانهزم صاحب اليمن وأسر ووضع في الحديد وخرج به من مكة وأتى به الى القاهرة لمعرفة ما تقضي به الآراء الشريفة . (١)

ولما طلع أمير ركب الحاج الى القلعة السلطانية عرّض المجاهد علي الرسولي على السلطان الناصر حسن فعند ما مثل بين يديه أمر بنزع قيوده وأطلقه ورسم لسه بالعودة الى بلاده ، وأرسل معه الأمير قشتمر المنصوري ليوصله الى مكة ، ولما خرج المجاهد عائدا الى بلاده ووصل الى ينبع وثب ومن معه بالأمير المملوكي قشتمر المنصوري وأراد قتله ، ولكن أمير ينبع قبض على الملك المجاهد ووضع في الحديد وسلمه ثانية الى الأمير المملوكي فرجع به الى الديار المصرية ، فلما علم السلطان الناصر حسن بما أقدم عليه المجاهد تغير خاطره عليه، وأرسله مقيدا الى سجن الاسكندرية واحتاط على أملاكه ، وبقي في سجنه حتى شفع فيه الأمراء لدى السلطان الصالح بن قلاوون فأطلق سراحه وأعادته الى بلاده . (٢)

وبعد هذه الحادثة عادت العلاقات الودية بين الخلافة والسلطنة من جهة ، والرسوليين من جهة ثانية ، فبمجرد وصول المجاهد علي الى بلاده بادر بالكتابة الى السلطان المملوكي الصالح بن قلاوون وارسال الهدايا مع ابنه أحمد بن المجاهد الذي أقام بالقاهرة أربعة أشهر ، ثم عاد الى بلاده ، وتتابعت هدايا المجاهد علي الى السلاطين المماليك حتى نهاية عهده حيث حرص المجاهد علي بقاء العلاقات الودية مع الديار المصرية من خلال إدارة السلاطين المماليك ، وعلى نفس النهج سار ابنه الأفضل عباس حيث استمر في ارسال الوفود والهدايا الى الخلفاء العباسيين

(١) القلقشندی : صبح الأعشى ٣٢/٥ ، ابن تغرى بردی : النجوم الزاهرة ٢٢٦/١٠  
ابن ایاس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٥٣٦/١ ، الخزرجي : العقود  
اللؤلؤية ٨٣/٢ .

(٢) ابن ایاس : بدائع الزهور ٥٣٧/١ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ٨٩/٢ .

## والسلاطين المماليك . (١)

وفي بداية عهد الظاهر برقوق العثماني أول السلاطين المماليك الجراكسة كانت العلاقات العباسية الرسولية يسودها الوثام والود ، وكانت مصر في تلك الفترة تحرص على تنمية العلاقات الطيبة مع ملوك بني رسول من أجل تسهيل حركة التجارة التي تعبر البحر الأحمر قادمة من البلاد الهندية ، واستمرت العلاقات الحسنة بين اليمن ومصر بعد وفاة الظاهر برقوق من خلال تبادل المكاتبات والوفود التي تصل كل بلد منهما قادمة من البلد الآخر حاملة معها الهدايا المتنوعة . (٢)

**واستمر بنو رسول في الحكم حتى سنة ٨٥٨ هـ ، حيث استطاع بنو طاهر الذين كانوا نوابا لبني رسول في حكم عدن استغلال الظروف السيئة التي كانت تمر بها دولة بني رسول ، فتمكنوا من الاستيلاء على حكم اليمن من بعدهم ، وقد انتهج سلاطين الدولة الطاهرية سياسة انطوائية في بداية حكمهم تجنباً للدخول في صراعات خارجية في وقت كانوا يحتاجون فيه الى مضاعفة الجهود والاهتمام بتوطيد دعائم دولتهم الجديدة وتحقيق سيادتهم الكاملة على اليمن .**

**وقد اهتم بنو طاهر بالناحية التجارية اهتماما عظيما ، فعملوا على زيادة النشاط التجاري في مدينة عدن لارتباط ذلك بتقوية دولتهم الناشئة ، فكلما زاد اقبال السفن على ميناء تلك المدينة كلما حقق ذلك عائداً أكبر يمكنهم استغلاله**

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٣٤ ، محمد عبد العال : بنو رسول وبنو طاهر ٤٢٧ ، ٤٢٩ .

وللأمثلة على تلك العلاقة انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١٣/١١  
ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٧٥٢/١ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ١٣٥/٢ ، ١٥٢ ، ١٥٤ .

(٢) محمد عبد العال : بنو رسول وبنو طاهر ٤٢٣ - ٤٢٤ ، علي حسن : مصرفي العصور الوسطى ٢٧٧ .

وللأمثلة على تلك الوفود انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ٧٢ / ٨ ، ٧٦ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ٢٨٢/٢ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ - ٣٠٧ .

في تثبيت قواعد دولتهم الجديدة . (١)

وقد شهدت الدولة الطاهرية بعد قيامها ظهور العديد من المعارضين لحكمها في نواحي البلاد اليمنية ، وما أن انتهى سلاطين بني طاهر من اخضاع البلاد مرة ثانية لنفوذهم حتى وصلت طلائع البرتغاليين الى الموانيء في سواحل الهند واليمن ، وتمكنوا بحملاتهم البحرية الضخمة المتواصلة من الاستيلاء على عدد كبير من الموانيء والجزر في المحيط الهندي ، وفرض الحصار على التجارة بين الهند والبحر الأحمر (٢) .

وحاول عامر بن عبد الوهاب الطاهري ( ٨٩٤ - ٩٢٣ هـ ) مواجهة البرتغاليين من خلال طلب المساعدة العسكرية من السلاطين المماليك ، فبدأ السلطان قانصوه الغوري في الاستعداد لتلبية ذلك النداء الذي بعث به حاكم اليمن ، وأرسل الأمير حسين الكردي ليقود الجيش المملوكي الذي أرسله لحماية الموانيء الاسلامية في سواحل البحر الأحمر حتى اليمن ، غير أن تلك المحاولات لم يكتب لها النجاح لعدم تعاون عامر بن عبد الوهاب مع تلك الحملة المملوكية ووقوع القتال بين الجانبين ، مما دفع حسين الكردي لترك المهمة التي أرسل من أجلها وهي قتال البرتغاليين، ودخوله في معارك مع حاكم اليمن وأعوانه ، ثم استيلائه على اليمن واخضاعه لسلطنة المماليك قبل سقوطها بأيدي الجيوش العثمانية التي قادها السلطان سليم العثماني باتجاه البلاد الشامية والديار المصرية .

(١) محمد عبد العال : بنورسول وبنوطاهر ٤٦١ ، ٤٦٤ .

(٢) المرجع السابق ٤٨٨ .



من الدول الإسلامية التي ارتبطت بعلاقة ودية مع الخلافة العباسية بالديار المصرية وله هندوستان ، وقد قدأت العلاقة بين الطرفين عند ما كتب محمد بن تغلق - الذي استطاع توطيد دعائم ملكه - إلى الخليفة العباسي المستكفي بالله العباسي سنة ٧٢٦ هـ يطلب منه اعطائه تقليدًا بولايته على البلاد التي تحت يده ، فأجاب الخليفة إلى ما طلب ، ولما عمله تقليد الخليفة العباسي بعث سلطان الهند للخليفة بالكثير من الهدايا النفيسة ، وأمر بذكر اسم الخليفة على المنابر بدولته ، ونقش اسم الخليفة على السكة ، والدعاء له . (١)

وبعد وفاة محمد بن تغلق تولى ملك الهند فيروز شاه الثالث ، وحرص على اتباع نفس السياسة ، فأرسل إلى الخليفة العباسي المعتضد بالله في سنة ٧٥٧ هـ يطلب اعطاءه تفويضا بولاية الهند ، فأجاب الخليفة إلى ذلك ، وأرسل إليه التفويض الذي طلبه . (٢)

وفي سنة ٨١٤ هـ بعث ملك الهند غياث الدين أعظم شاه إلى الخليفة العباسي المستعين بالله يطلب منه اعطائه تقليدًا بحكم ما تحت يده ، وأرسل للخليفة العباسي مالا . (٣)

وفي خلافة داود المعتضد بالله أرسل سلطان (بنجاله) من بلاد الهند ويدعى أبو المظفر ، يعلن إسلامه ، واقامته لشعائر الإسلام ، ويطلب من الخليفة العباسي اعطائه تقليدًا بولاية الهند ، فبعث إليه الخليفة بذلك التقليد مع الخلعة والتشريف

- 
- (١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٣٤ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٦٤ ، عبد الرحمن عبد التواب : قايتباي المحمودي ١٧٤ ، أحمد رمضان : الخلافة في الحضارة الإسلامية ١٢٣ - ١٢٤ .
- (٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٣٥ ، علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٦٧ .
- (٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٥٠٨ .

مع بعض الأشراف ، فلما وصلت اليه لبسها ، وذلك في سنة ٨٢٨ هـ . (١)

وفي خلافة المستنجد بالله يوسف ، حضر قاصد صاحب الهند الملك غياث الدين الى الديار المصرية في سنة ٨٧٦ هـ ، ومعه هدية للخليفة العباسي ، وأرسل ملك الهند يطلب من الخليفة تقليدا على اقليم الهند عوضا عما كان قبله من ملوك الهند ، فكتب له الخليفة المستنجد بالله تقليدا بما سأل .

وفي سنة ٨٨٤ هـ حضر قاصد بعض ملوك الهند في صحبة نائب السلطان المملوكي على ميناء جده ، وقدم ذلك القاصد هدية حافلة للسلطان الأشرف قايتباي المحمودي . (٢)

وهكذا أخذت تتردد وفود ملك الهند على عاصمة الخلافة العباسية القاهرة اما لأخذ تقليد من الخليفة العباسي بولاية ما تحت يده من البلاد الهندية ، أو لتوطيد العلاقة الودية مع الخليفة العباسي والسلاطين المماليك ، وقد استمرت تلك الوفود تتوافد على القاهرة حتى خلافة المتوكل على الله محمد بن يعقوب آخر الخلفاء العباسيين بالديار المصرية . (٣)

وقد ساعد على توثيق العلاقات الودية بين مصر والهند الحركة التجارية التي كانت تمر عبر أراضي الخلافة العباسية قادمة من الهند باتجاه الدول الأوروبية ، ونشأ في ظل تلك الحركة التجارية نشاط تجاري بين مصر والهند ، فكانت مصر تستورد منها جميع المنتجات اللازمة لها مثل الحنطة ، والحمص ، والسهم ، وجوز الهند ، وغيرها ، في حين كانت تستورد الهند من مصر كثيرا من الغلات وفي مقدمتها القطن ، وبذلك زادت أهمية سواحل كل من الدولتين مصر والهند ، وعظم شأنها ، فقد كانت مدينة

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١١٣/١٥ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٦٥/٣ ، ١٥٨ .

(٣) المصدر السابق ٢١٢/٣ ، ٢٨٧/٤ .

الاسكندرية لأهميتها التجارية تسمى في ذلك العصر بمخزن العالم ، ولم يكن يماثلها  
 إلا الموانيء التجارية ببلاد الهند . (١)

ولما تعرضت الممالح التجارية المشتركة بين سلطنة المماليك في ظل الخلافة  
 العباسية ومملكة الهند للخطر في ظل الأطماع البرتغالية في الموانيء الإسلامية بسواحل  
 الهند والبحر الأحمر ، تعاونت الدولتان على صد ذلك الخطر ، ولضعف ملوك الهند  
 عن مواجهة الخطر البرتغالي بمفردهم ، فقد استعانوا بسلطنة المماليك لمساعدتهم ضد  
 البرتغاليين ، فكانت وفود ورسائل ملوك الهند تصل تباعا الى السلطان المملوكي بالديار  
 المصرية تخبره عن التحركات العدائية للسفن البرتغالية تجاه البلاد الإسلامية ، والحركة  
 التجارية التي تمر بسواحل الهند قاصدة الديار المصرية عبر البحر الأحمر ، ولم يكن أمام  
 السلطان المملوكي قانصوه الغوري بدا من اجابة ذلك النداء ، فأخذ يُعيد العساكر  
 السلطانية ويأمر ببناء المراكب البحرية مع تأمين ما يلزمها من سلاح لمواجهة الصليبيين  
 وأطماعهم في البلاد الإسلامية .

ومن هذا تتضح لنا ملامح العلاقة بين الخلافة العباسية والهند ، فقد  
 استطاعت سلطنة المماليك أيام قوتها و ذروة مجدها في ظل الخلافة العباسية بالديار  
 المصرية أن تحقق لنفسها من اتساع النفوذ وهيبة السلطان ما جعل حكام السند ول  
 الإسلامية حتى بلاد الهند شرقا ، يخطبون ودها ويسعون لكسب تأييدها . (٢)

(١) علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٣٥ .

رابعاً : بلاد المغرب :

~~~~~

ارتبطت الدول الإسلامية بالمغرب و شمال افريقية بالخلافة العباسية وسلطنة المماليك بالديار المصرية بعلاقات قوية أدت اليها رابطة الدين الإسلامي الحنيف من جهة ، ورابطة الخلافة والجوار وتقارب الحدود بينهما من جهة ثانية ، ورابطة الخطر المشترك الذي هدد العالم الإسلامي من جانب الغرب الأوروبي من جهة ثالثة ، ثم رابطة الحج نظراً لأن مصر تقع على الطريق الرئيسي الذي يوصل حجاج المغرب الى أرض الحجاز من جهة رابعة ، ومن تلك الدول والامارات التي ظهرت في المغرب و شمال افريقية :

١ - الدولة الحفصية في تونس (٥٥٤ هـ - ٩٩٠ هـ) .

٢ - دولة بني زيان بتلمسان (٦٢٧ - ٩٦٢ هـ) .

٣ - ودولة بني مرين بفاس (٥٤٠ - ٩٦١ هـ) .

وقد تفاوتت علاقة الخلافة العباسية في ظل سلطنة المماليك مع تلك الدول فظهر التوتر في العلاقة بين السلاطين المماليك والدولة الحفصية بعد أن اتخذ أبو عبد الله الحفصي لقب الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين ، مما حدا بالظاهر بيبرس الى المسارعة في مبايعة أحمد المستنصر بالله العباسي بالخلافة العباسية بالديار المصرية لعدم اعترافه بشرعية خلافة أبي عبد الله الحفصي .

أما علاقة الخلافة العباسية ببني زيان و بني مرين

فيلاحظ أنها تأثرت بما كان من صداقة بين سلطنة المماليك و بني مرين في فاس ، في الوقت الذي ساءت فيه العلاقات بين دولتي بني زيان و بني مرين .^(١)

والواقع أن الزيانيين تطلعوا في أول الأمر الى السلاطين المماليك للحصول على

تأييدهم ضد أطماع بني مرين ، ولكن سلاطين المماليك في مصر كانوا على درجة كبيرة

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٢٣٥ .

من بُعد النظر جعلتهم يدركون أن بني مرين هم أضخم قوة في بلاد المغرب ، فحرموا على اظهار الودّ نحوهم واكتساب صداقتهم ، الأمر الذي أدى الى ظهور عداوة بني زيان لسلطنة المماليك^(١) في ظل الخلافة العباسية بالديار المصرية .

وفي سلطنة الناصر محمد بن قلاوون خطب له على المنابر ببلاد المغرب ، فقد جاء صاحب افريقية أبو يحيى زكريا اللحياني الى الديار المصرية ، فلما وقف بين يدي الناصر محمد قال له : أرسل معي عسكرا الى افريقية ، فاذا فتحت المدينة وملكتها التزمت للسلطان أن أقيم نفسي بها نائبا عنه ، فعين السلطان الناصر معه حملة عسكرية بها نحو مائة مملوك يقودهم أحد الأمراء المماليك ، فلما توجهوا الى افريقية تسامع بهم أهل تلك النواحي ، فالتف عليهم جماعة من العربان والمغاربة ، فعظم أمر أبو يحيى ، ومشى على غالب بلاد تونس حتى فتحها وطرده من كان بها من ملوك المغرب ودخلها ومن حوله العساكر المصرية ، فلما استقر بها خطب باسم الملك الناصر محمد ابن قلاوون على منابرها ، وأقام بها ، أمّا العساكر المصرية فقد رجعت الى القاهرة بعد انتهاء مهمتها وذلك في سنة ٧١١ هـ . (٢)

وتدخل السلطان الناصر محمد ثانية في الخلاف الذي وقع بين بني زيان وبني مرين ، فتمكن السلطان المملوكي في سنة ٧٢٨ هـ من ترجيح كفة بني مرين على خصومهم ، وبذلك بسطوا سيادتهم على مناطق تلمسان ، وكتب السلطان علي المريني يُخبر الناصر محمد بما تحقق له من نصر على خصومه ، فرد عليه الناصر محمد بن قلاوون مؤيدا ومهنئا ، وهكذا يبداً ولنا كيف نظر سلاطين المماليك في مصر الى بني مرين نظرة احترام واجلال ، بوصفهم أكبر قوة في المغرب العربي ، مما أدى الى توطيد العلاقة الحسنة بين الجانبين .

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٣٥ ، ٢٢٨ - ٢٣٩ ، علي حسن :

تاريخ المماليك البحرية ١٧٨ ، مصر في العصور الوسطى ٢٧٨ ، عبد الرحمن عبد التواب : قايتباي المحمودي ١٧٣ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤٤٠/١ .

والواقع أن مظاهر العلاقات الوثيقة التي ربطت مصر بالمغرب في أواخر العصور الوسطى بوجه عام ، وفي عصر نفوذ سلاطين المماليك بوجه خاص ، عديدة ومتنوعة ، ومن هذه المظاهر حرص السلاطين المماليك على ارسال البشائر الى المغرب كلما أحرزوا انتصارا على أعداء المسلمين في الشرق من مغول و صليبيين ، وكان ملوك المغرب ينظرون الى سلطنة المماليك التي تستظل بظل الخلافة العباسية صاحبة السلطة الشرعية ، نظرة أمل بوصفهم حماة للخلافة العباسية والعالم الاسلامي ضد الأخطار التي تهددته من جهة المشرق ، وكانوا يسارعون بارسال التهنئة الى الخلفاء والسلاطين المماليك عقب كل انتصار أحرزوه على أعدائهم ، ووقف ملوك المغرب الاسلامي موقف المترقب لسير الأحداث عندما دهم خطر مغول فارس ديار الاسلام أيام هولاكو خان ثم تيمور لنگ . (١)

وكانت الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية - في ظل الخلافة - تراقبان مجريات الأحداث في بلاد المغرب من خلال الأخبار التي تصلها مع الوفود القاديين من تلك النواحي ، خاصة بعد المعارك والحروب التي نشبت بين ملوك المغرب بسبب اختلافهم فيما بينهم . (٢)

وفي غمرة تلك الخلافات التي نشبت بين ملوك المغرب دهم الفرنج على دولة بني الأحمر في غرناطة (٣) ، ولم يجد صاحبها الغالب بالله محمد بن الأحمر بدا من ارسال رسوله للسلطنة المملوكية بالديار المصرية طلبا للمساعدة العسكرية ،

-
- (١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٤٩ - ٢٤٠ .
 (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٩٤/١٠ ، ١٦٣/١٤ ، ١٩٢/١٥ . ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٥٣٦/١ ، ٥٨٦ ، ٥٩٠ - ٥٩١ ، ١٣/٢ ، ٥٨ ، ٢٢٢ ، ٣٢١ ، ٣٨٨ .
 (٣) من أقدم مدن الأندلس . ومعنى غرناطة : رمانة ، بلسان عجم الأندلس . سميت بذلك لحسنها .
 (الحموى : معجم البلدان ١٩٥/٤) .

فجهز السلطان الظاهر جقمق مع ذلك الرسول السلاح وغيره ، وذلك في سنة

٨٤٤ هـ . (١)

ثم بعد مدة جاءت الأخبار من بلاد الأندلس بما حصل من نزاع بين ملوك

غرناطة حيث تنازع الملك كل من المستعين بالله بن الأحمر ووالده ، وجرى بينهما

أمور يطول شرحها ، واستمرت الحروب بينهما مدة طويلة ، حتى توفي المستعين بالله

سنة ٨٦٩ هـ . (٢)

وفي سنة ٨٨٧ هـ عادت النزاعات ثانية بين ملوك بني الأحمر ، وجرت بينهم

أمور يطول شرحها ، وآل الأمر بعد تلك الخلافات لخروج الأندلس عن المسلمين وملكها

الفرنج ، وانتشرت الخلافات والفتن لتشمل بلاد المغرب بعد النزاع الذي وقع بين

صاحب تونس وصاحب فاس في سنة ٨٩٠ هـ . (٣)

وعاد رسول صاحب الأندلس إلى الديار المصرية في سنة ٨٩٢ هـ وعلى يده

مكاتبة يطلب فيها من السلطان المملوكي الأشرف قايتباي إرسال العساكر السلطانية

لتعينه على قتال الفرنج ، لأنهم أشرفوا على أخذ مدينة غرناطة لشدة حصارهم لها ،

فلما سمع السلطان ذلك اقتضى رأيته أن يبعث إلى رجال الدين النصارى بكنيسة القيامة

بالقدس بأن يرسلوا على يد أحد هم كتابا إلى ملك الفرنج ليقوم بمكاتبة صاحب قشتالة

بأن يرفع حصاره عن أهل غرناطة ، ويكف عن قتالهم ويرحل عنهم ، وتوعده عند عدم

القيام بذلك بالقبض على النصارى بالقدس ومنع جميع طوائف النصارى من دخول

كنيسة القيامة وبعد إرسال تلك الرسالة لم يستفد منها المسلمون بشيء ، حيث

سقطت مدينة غرناطة بعد ذلك بأيدي الفرنج .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢/٢٢٧ .

(٢) المصدر السابق ٢/٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٣) أخبار تلك الوقائع والحوادث في : بدائع الزهور ٣/١٩٩ ، ٢١٨ - ٢١٩ ، ٢٣٣ ،

ونظروا لعدم وصول أى مساعدة للمسلمين في الأندلس ، فقد تساقطت المدن الإسلامية الواحدة بعد الأخرى بأيدي ملوك الفرنج الذين اجتمعوا لحرب الإسلام والمسلمين في تلك البلاد ، حتى سقطت غرناطة في سنة ٨٩٧ هـ ، وكانت هذه الواقعة من أعظم الوقائع المهولة في الإسلام . (١)

ولم يتوقف ملوك الفرنج عند اخراج المسلمين من الأندلس ، بل تابعوا جهودهم في القضاء على الوجود الإسلامي في بلاد المغرب ، وحاول صاحب تلمسان الوقوف في وجه الأطماع الحليبية في البلاد الإسلامية بالمغرب ، فاستطاع استعادة مدينة طرابلس الغرب من أيديهم في سنة ٩١٦ هـ ، وطردهم منها ، ولما وصلت أخبار تلك الانتصارات الى الخليفة العباسي بالقاهرة وللسلطان قانصوه الغوري ، سُـرُوا بها ، وشاركهم الناس قاطبة الفرح بذلك النصر . (٢)

ومضى صاحب تلمسان في مطاردة جموع الفرنج ومحاولة استخلاص ما استولوا عليه من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين في الأندلس ، وجاءت الأخبار في سنة ٩١٧ هـ بانتصاره على الفرنج في موقعة عظيمة قتل فيها من أعداء المسلمين قرابة سبعة آلاف وأسر منهم جماعة كثيرة ، وأرسل من جملة الغنائم عدة أنواع من السلاح واثنين من الأسرى الفرنج عليهم آلة الحرب هدية للسلطان الغوري ، فشكر له السلطان ذلك وسُرَّ بذلك الانتصار . (٣)

ومع وصول أنباء تلك الانتصارات للسلطان الغوري فإنه لم يبادر الى مسـدِّ يد العون والمساعدة العسكرية لصاحب تلمسان الذي ظل يقاتل جموع الفرنج بمفرده

(١) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢/٢٤٥ ، ٢٥٣ ، ٢٩٢ ، ٤٤٨ .

(٢) المصدر السابق ٤/١٩١ .

(٣) المصدر السابق ٤/٢١٨ .

مع شدة حاجته لدعم الخلافة والسلطنة المملوكية التي كانوا يؤملون منها تقديم
العون عند اشتداد الحاجة للمساعدة وهم ينظرون اليها نظرة احترام وتقدير بوصفها
تؤوى في عاصمتها الخليفة العباسي ، مما يوضح على عاتقها حماية العالم الاسلامي
من الأخطار التي تهدد كيانه ، ولا يعفي انشغال السلطان المملوكي بمدافع
البرتغاليين في سواحل البحر الأحمر عن مهمة نصرته المسلمين في الأندلس وبلاد
المغرب ، وتقديم العون العسكري لهم ، فهم على شغور من شغور الاسلام يخشى
على المسلمين من دخول أعدائهم منه ، فتتحقق بذلك أطماعهم في البلاد الاسلامية ،
وسيكون للدعم العسكري للمسلمين في المغرب الأثر المعنوي الذي يدفعهم
لمواصلة جهاد جموع الفرنج الذين استغلوا تفرق كلمة القوى الاسلامية بالأندلس
والمغرب ، فأخذوا يعدون العدة للقضاء على تلك الدول الاسلامية واحداً
بعد الأخرى .

خامسا : امارة ذى الغادر التركمانية :

~~~~~

بلغت الدولة الاسلامية في عصر سلطنة المماليك تحت ظل الخلافة العباسية ، أقصى اتساع لها ، فامتدت حدودها الشمالية حتى شمال سوريا وأعلى الفرات ، وعاشت في الأطراف الشمالية لسلطنة المماليك جماعات من شعوب مختلفة مثل الأكراد والتركمان ربطتهم بالخلافة العباسية و بسلطنة المماليك علاقات متقلبة بين الخضوع والتبعية حيناً ، و إعلان العصيان والخروج عن طاعة الخليفة العباسي والسلطان المملوكي أحيانا أخرى . (١)

وتعتبر امارة ذى الغادر التركمانية أولى الإمارات التي اتسعت مساحة نفوذها حول مرعش ، واتخذت الأبلستين عاصمة لها ، وظلت علاقات الود قائمة بين السلاطين المماليك منذ نشأت تلك الامارة حتى سلطنة المؤيد شيخ المحمودي ، حيث اشتد تهديدها للخلافة والسلطنة ، وانضم الى تلك الامارة دويلات أقامها بعض قادة القبائل التركمانية ، مثل دولة بني رمضان ، ودولة بني قرمان ، ودولة الشاة البيضاء ( آف قيونلو ) ، ودولة الشاة السوداء (٢) ( قراقيونلو ) ، وكان من اللازم أن تكون هذه الإمارات التركمانية تابعة لسلطنة المماليك بالديار المصرية والبلاد الشامية ، ولكن الحاصل فعلا هو أنها لم تظل على ولائها للخلفاء العباسيين والسلاطين المماليك ، وانما دأبت على استغلال الظروف للخروج عن سلطة الخلافة ونفوذ المماليك ، بل ومهاجمة أراضيها مما سبب لدولة الخلافة و لسلطنة المماليك كثيرا من المتاعب على حدودها الشمالية .

- 
- (١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٥١ ، عبد الرحمن عبد التواب : قايتباي المحمودي ١٣٧٠ .
- (٢) سميت بذلك نسبة الى صورة الشاة السوداء والبيضاء التي كانت توضع على أعلام كل قبيلة منهما .
- (\*) الأبلستين : يقال لها أبلستين – بالفتح ثم الضم ولام مضمومة أيضا والسين المهملة ساكنة – وهي مدينة مشهورة ببلاد الروم . ( الحموي : معجم البلدان : ١/٥٧ ) .

وقد استغلت تلك القبائل التركمانية الأوضاع الداخلية لسلطنة المماليك عندما كثرت القلاقل والفتن داخل سلطنة المماليك ، وظهر بعض الضعف والعجز عن الاحتفاظ بهيبتها والدفاع عن كيانها ضد الأخطار الخارجية التي تهددتها وبخاصة الزحف المغولي الذي قاده تيمور لنك على البلاد الشامية . (١)

وعانت الحدود الشمالية لدولة الخلافة العباسية و سلطنة المماليك كتحسيرا، في ظل الخلافات والنزاعات التي كانت تنشب بين الحين والآخر بين تلك الإمارات التركمانية ، وحرص كل إمارة منها على مد نفوذها، وزيادة رقعة سلطانها على حساب الإمارة الأخرى المجاورة لها . (٢)

وعندما اشتدت حركات القبائل التركمانية على الحدود الشمالية لسلطنة المماليك ، كان السلطان المؤيد شيخ محمودي يراقب تلك التحركات ، وسعى للقضاء على المخالفين له من خلال ارسال الحملات العسكرية نحو تلك القبائل لاختفائها لطاعته، ولم يتردد في التدخل في النزاعات التي نشبت بين زعماء تلك القبائل، وتولية إمارتها من يتعهد بالسمع والطاعة للخلافة وللسلطان المملوكي ، وعدم الاعتداء على أطراف السلطنة المملوكية . (٣)

وفي سلطنة الأشرف برسباي هاجم عثمان قرايلوك زعيم قبيلة الشاة البيضاء التركمانية حدود سلطنة المماليك الشمالية وتوغل داخل أراضي السلطنة بتحريض من شاه رخ بن تيمور لنك ، فلما وصلت أخبار ذلك الاعتداء التركماني للسلطان برسباي نادى في القاهرة بخروج العساكر السلطانية ، وأخذ في أسباب الاستعداد بعسده أن أعلن قرايلوك عزمه على أخذ مدينة حلب . (٤)

- 
- (١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٥١ ، عبد الرحمن عبد التواب : قايتباي المحمودى ١٣٩٠ .  
 (٢) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ١٠/٢ ، ١٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .  
 (٣) المصدر السابق ٥١/٢ .  
 (٤) المصدر السابق ٥٥/٢ .

ومع أن الحرب التي شنها السلطان برسباى ضد قرايلوك ، انتهت بالصلح بينهما ، وتعهد زعيم قبيلة الشاة البيضاء بأن يكون تابعا مخلصا لسلطان المماليك ، إلا أنه كان ينكث دائما بوعوده ، ولا يفي بالعهود التي يقطعها على نفسه ، الأمر الذي سبب للخلافة وللمماليك متاعب كثيرة ، ولم يلبث برسباى أن استغل الخلاف الذي ظهر بين دولتي الشاة البيضاء والسوداء ، فأعلن تأييده للأخيرة ، وقد انتهى ذلك النزاع بمقتل قرايلوك زعيم قبيلة الشاة البيضاء التركمانية ، وفرح السلطان بذلك ، وأمر باقامة الزينات في القاهرة ابتهاجا بالخلاص من ألدّ خصومه . (١)

وبعد أن تولى السلطنة الظاهر جقمق ، هدأ التوتر الذي شهدته العلاقات بين السلطنة المملوكية وامارة ذى الغادر التركمانية ، حيث قدّم الأمير ناصر الدين محمد بن ذى الغادر في سنة ٨٤٣ هـ للديار المصرية فأكرمه السلطان وأنزله في مكان خصص له ، وأجرى عليه من النفقة ما يكفيه ، وتزوج السلطان بابنة ناصر الدين وتدعى نفيسة ، وبعد تلك المماهرة تحسنت العلاقة بين الجانبين وتوافدت رسل كل منهما الى الآخر حاملة الهدايا الثمينة . (٢)

وبعد نهاية سلطنة الظاهر جقمق سنة ٨٥٧ هـ عادت العلاقات بين السلاطين المماليك وأمراء القبائل التركمانية للتوتر حينا ، والهدوء حينا آخر ، وتدخل بعض السلاطين المماليك في النزاعات التي نشبت بين زعماء تلك القبائل التركمانية من حين لآخر .

وفي سنة ٨٥٩ هـ بدأت المتاعب التي سببتها دول التركمان للخلافة العباسية وللسلطنة المملوكية تتزايد حدتها ، وذلك بسبب ظهور قوة سلاطين آل عثمان

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٥٣ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢٢٣/٢ - ٢٢٤ .

وتدخلهم في شئون الامارات ، فقد تقدم السلطان محمد الفاتح الى امارة ذى الغادر ، فأرسل أميرها ابراهيم بن قرمان مستنجداً بالسلطان المملوكي الأشرف اينال ويشكو اليه ما وقع من محمد الفاتح ، فما اكرث السلطان اينال بذلك ، ورد على ابن قرمان بجواب هين ولم يكرم قاصده ، فمضى غير راض ، فكان ذلك سبباً لعصيان ابراهيم بن قرمان للسلطان المملوكي . (١)

**وفي سنة ٨٧٠ هـ** عاد السلطان محمد بن عثمان للتدخل في شئون الامارة التركمانية ، فقد أرسل الى السلطان الظاهر خشقدم يسأله أن يولي شاه سوار بن ذى الغادر الامارة في مدينة ابليستين ، فلما وصل رسول ابن عثمان وجد السلطان خشقدم قد ولي شاه بضاع بن ذى الغادر ذلك المنصب ، فشق ذلك على ابن عثمان وأرسل جماعة من عساكره الى شاه سوار ليقاتل بهم الأمير شاه بضاع ، ويملك منه ابليستين فلما بلغ السلطان المملوكي أنباء تلك العساكر العثمانية التي وصلت الأطراف الشمالية للأراضي الخلافة العباسية ، اضطربت أحواله وقلق من تلك الأخبار ، وعين حملة عسكرية تسافر لحماية البلاد الحلبية ، ثم جاءت الأخبار بأن شاه سوار استظهر على شاه بضاع وملك منه ابليستين ، فأهمل السلطان خشقدم أمر خروج العساكر السلطانية حتى يرى ما يكون من شاه سوار . (٢)

وبعد أربعة أشهر من تولي شاه سوار الامارة ، هرب من ابليستين لعدم قبول أهلها لامارته عليهم ، فأرسل السلطان خشقدم الى عمه رستم وقرره مكانه فسي الامارة ، وصرف ذلك المنصب عن حليفه السابق شاه بضاع لانهما السلطان له بالتقدير لكونه لم يقاتل شاه سوار ، ثم عاد السلطان خشقدم بإرسال العساكر السلطانية

(١) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣٢٢/٢ .

(٢) المصدر السابق ٤٣٧/٢ .

الى الامارة التركمانية للمساعدة في تنصيب شاه بضاع أميرا عليها ، و صرف عمه  
رستم عنها ، وحث نواب البلاد الشامية بالخروج لقتال شاه سوار الذي خرج عن  
طاعة السلطنة المملوكية . (١)

ثم أخذ شاه سوار يتمادي في استخفافه بالخلافة العباسية و بسلطنة المماليك ،  
والتعدى على حدودها ومهاجمة أطرافها ، فضلا عن اعتدائه على الدولة التركمانية  
المخالفة لسلطنة المماليك ، وهي دولة بني رمضان ، ورغبة من السلطان قايتباي في  
القضاء على عصيان شاه سوار أرسل حملة عسكرية في سنة ٨٧٢ هـ فيها نحو عشرين أميرا  
وما يزيد على ألف من العساكر السلطانية ، غير أن تلك الحملة لم تحقق الانتصار  
الذي كان يريده الأشرف قايتباي حيث تعرضت للهزيمة من شاه سوار ومن التفّ حوله  
من القبائل التركمانية . (٢)

وبدأ السلطان قايتباي في سنة ٨٧٢ هـ يعدّ العدة لتجهيز حملة عسكرية ثانية  
لقتال شاه سوار ، وتعرضت تلك الحملة للهزيمة أيضا ، وبعد مقتل الكثير من الأمراء  
المماليك عاد من نجا من العساكر السلطانية الى الديار المصرية في أسوأ حال . (٣)

واستمر شاه سوار في تهديده لأطراف دولة الخلافة العباسية و نفوذ السلاطين  
وعجزت الجيوش المملوكية من القضاء عليه حتى سنة ٨٧٦ هـ ، حيث استطاع الأمير  
يشبك الدوادار هزيمة شاه سوار، والقبض عليه واحضاره مقيدا للديار المصرية، وقرر  
مكانه أخاه شاه بضاع في امرة الابلستين . (٤)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢/٤٤٠ ، ٤٤٩ .

(٢) المصدر السابق ٣/٧ ، ٩ ، ١٢ .

(٣) المصدر السابق ٣ / ٤٣ .

(٤) المصدر السابق ٣/٦٩ ، ٧٤ .

**ومع القضاء على فتنة شاه سوار واستعادة أراضى الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية التي وقعت تحت يده مدة عميانه ، فان سلطنة المماليك استمرت تعانسي الكثير من المتاعب من جانب تلك الامارة التركمانية ، خاصة بعد وفاة شاه بخاع وتولي علاء الدولة مهام تلك الامارة من بعده في سنة ٨٨٥ هـ ، وذلك لأن علاء الدولة وقع تحت تأثير العثمانيين وتحريضهم له ، وان كان تفوق الجيوش المملوكية في تلك الفترة جعل علاء الدولة التركماني يلزم جانب الحرص والحذر في تعامله مع سلطنة المماليك ويتودد اليها . (١)**

**وبعد تخلص الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية من فتنة شاه سوار التركماني ، ظهر لها خصم آخر وهو حسن الطويل زعيم قبيلة الشاة البيضاء التركمانية ، فقد استغل الصراع بين السلاطين المماليك وشاه سوار ، فأغار على نواحي مدينة حلب ووصلت جيوشه الى الرها ، وبعد مقتل شاه سوار حاول حسن الطويل اثاره أخيه شاه بخاع ضد الخلافة العباسية و سلطنة المماليك .**

**وعندما أحسّ السلطان قايتباي المحمودى بخطورة تحركات حسن الطويل على دولة الخلافة ونفوذ السلطنة المملوكية عند ما جمع من العساكر التركمانية ما لا يحصى ، عيّن حملة عسكرية بقيادة الأمير يشبك الدوادار ، وفيها نحو ألفين من العساكر السلطانية لحماية حلب من أطماع حسن الطويل ، فخرجت تلك الحملة في سنة ٨٧٧ هـ . (٢)**

**وبلغ الأمر الى حد مكاتبة حسن الطويل لملوك الفرنج يطلب منهم أن يكونوا عوناً له على قتال العساكر المصرية والدولة العثمانية ، وكُشفت الخطة التي اقترحها**

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٥٥ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٨٠/٣ - ٨١ .

حسن الطويل ، وهي قيام ملوك الفرنج بالهجوم على ابن عثمان و سلطان مصر من البحر ،  
ويمشي هو عليهما من البر . (١)

وحاول حسن الطويل منازعة الخلفاء العباسيين و السلاطين المماليك فسي  
سيادتهم على الديار الحجازية في ظل الخلافة العباسية ، فعندما قدم ركب الحجاج العراقي  
بقصد الحج سنة ٨٧٧ هـ تعمّد أمير الركب مضايقة قضاة المدينة ليخطبوا على منسبر  
المسجد النبوي باسم الملك العادل حسن الطويل خادم الحرمين الشريفين ، ولما خرج  
الركب العراقي من المدينة قاصدا مكة ، كاتب أهل المدينة أمير مكة الشريف محمد بن  
بركات بما وقع في المدينة ، ووصلت تلك المكاتبة الى مكة قبل وصول ركب الحجاج العراقي ،  
فخرج أمير مكة لملاقاتهم قبل دخولهم البلد الحرام ، فقبض على أمير الركب العراقي  
وجماعة من أعيانهم وقيدهم ليعث بهم الى السلطان قايتباي المحمودي ، وأطلق بقيسة  
الحجاج ولم يتعرض لهم بأذى . (٢)

ثم أرسل حسن الطويل قاصده الى السلطان قايتباي ومعه مكاتبة تتضمن الاعتذار  
عما كان منه ، وأن ذلك لم يكن باختياره . فأكرم السلطان المملوكي ذلك القاصد وأظهر  
العفو عما جرى من حسن الطويل . (٣)

ويظهر أن حسن الطويل وجد أنه لا فائدة من قتال السلطان قايتباي ، خاصة  
بعد أن أيد السلطان العثماني جهود قايتباي في قتال الزعيم التركماني ، إضافة إلى أن  
ابن عثمان أخذ يهاجم حدود دولة حسن الطويل منذ سنة ٨٧٨ هـ .

ثم لم يلبث حسن الطويل أن مات في سنة ٨٨٣ هـ ، وتولى زعامة قبيلة الشاة البيضاء  
التركمانية من بعده ابنه خليل الذي لم يكن أقل عنادا من والده ، واستمر في مخالفة

(١) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٨٦/٣ - ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ٩٠/٣ .

(٣) المصدر السابق ٩٥/٣ .



السلطان المملوكي قايتباي وهزم العساكر السلطانية التي أرسلت لقتاله، وبقي على عصيانه لسلطنة المماليك حتى مقتله سنة ٨٨٤ هـ على أيدي بعض أمرائه ، فلما مات خليفته ولي الأمر من بعده أخوه يعقوب . (١)

وفي فترة امارة يعقوب بن حسن الطويل ، تحسنت العلاقات بين الخلافة العباسية و سلطنة المماليك ، و قبيلة الشاة البيضاء التركمانية ، غير أنه ظهر مخالف آخر للخلافة و للسلطنة المملوكية ، وهو علي دولات بن ذي الغادر ، الذي أخذ يعتدي على أطراف حدود الخلافة منذ سنة ٨٨٨ هـ ، وقد عجزت العساكر السلطانية عن القضاء عليه ، نظرا للمساعدة العسكرية التي أمده بها ابن عثمان ، ومنذ هذا التاريخ بدأ تحرك السلطان العثماني على أراضي الخلافة العباسية و مضايقة السلطنة المملوكية من خلال استغلال عصيان علي دولات ضد السلطان المملوكي قايتباي . (٢)

ثم كانت الفرصة السانحة التي استغلها السلطان سليم العثماني ، فقد اضطربت مملكة حسن الطويل بسبب الخلافات التي نشبت بين أبنائه منذ سنة ٨٩٧ هـ ، مما ساعد السلطان العثماني على الاستيلاء على أراضي القبائل التركمانية ، والتوجه منها نحو البلاد الشامية ، تمهيدا لأخذ الأراضي الواقعة تحت نفوذ الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية بالديار المصرية . (٣)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ١٤٩/٣ ، ١٦١ .

(٢) المصدر السابق : ٢٠٣/٣ ، ٢٠٦ ، ٢١١ .

(٣) المصدر السابق : ٢٦٨/٣ ، ٢٨٦ ، ٤١١ .

تمكن شاه اسماعيل الصفوي من احتلال ممالك العجم ، ومن جملة البلاد التي وقعت تحت يده تبريز ، وأذربيجان ، وخراسان ، وفارس ، والعراق ، وينتمي شاه الصفوي الى أسرة يُعد أعيانها من مشايخ المتصوفة الذين يعتقد هم الملوك ويعظمهم الناس ويقفون عند هم في زواياهم .

وبدأت شهرة هذه الأسرة برجل يدعى جنيد الذي كانت له زاوية في نواحي أذربيجان ، فلما كثر أتباعه خاف منه صاحب أذربيجان فأخرجه هو وأتباعه ، ثم لم يلبث أن قتله بعد ذلك ، وبعد وفاة جنيد اجتمع أتباعه على ولده حيدر ، فقويت شوكته لكثرة أتباعه وأصبح كأحد السلاطين ، واستطاع أن يستولي على أذربيجان بعد أن قتل صاحبها شروان ، وسعى حيدر الى زيادة نفوذه حول أذربيجان بعد أن اعتمد على شدة البطش بأهل تلك النواحي ، فكان يقتل من يظفر به ، وما نهبه من الأموال يقسمه بين أصحابه ، ولا يأخذ منه شيء ، وقد ملك بذلك الأسلوب في توزيع الأموال بين أتباعه قلوبهم ، وأطاعوه طاعة عمياء ، فكانوا يسجدون له ويأتمرون بأمره ، وبالغوا في تعظيمه فكانوا يعتقدون فيه الألوهية .

ثم لم يلبث حيدر أن مات وخلفه ولده اسماعيل الذي سار على نفس أسلوب والده في حب سفك الدماء ، فنتج عن بطش شاه اسماعيل الصفوي ازهاق أرواح أعداد كبيرة ، فذكر أنه قتل من الناس زيادة على ألف ألف نفس ، ولم يعهد في الجاهلية ولا في الاسلام من قتل النفوس مثل ما قتله هذا الصفوي ، ومن جملة أولئك القتلى أعظم العلماء ، فانه لم يبق من أهل العلم أحد في بلاد العجم ، وأحرق جميع كتبهم ومصاحفهم ، وكان شديد الرفض . (١)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١١٨/٤ ، الشوكاني : البدر الطالع ٢٧٠/١ - ٢٧١ .

وبعد أن وطّد شاه اسماعيل بن حيدر بن جنيد الصفوي ملكه في أذربيجان وما حولها ، أصبح على مقربة من الحدود المشتركة بين الخلافة و سلطنة المماليك بالديار المصرية والسلطان بايزيد العثماني ، وأخذ الصفوي يتحرش بالديار ولتين من خلال اعتدائه بين الحين والآخر على أراضي أحدهما المتاخمة لحدود مملكته ، مستغلا الظروف الحرجة التي تمر بها الخلافة و سلطنة المماليك في ظل الأطماع الملبية في البلاد الإسلامية ، وانشغال السلطان المملوكي قانصوه الغوري بأعداد العساكر السلطانية وبناء المراكب البحرية ، وصناعة السلاح ، للاستعانة بها في صد اعتداءات السفن البرتغالية على السواحل الإسلامية في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، حيث كان الخطر يهدد الخلافة العباسية و سلطنة المماليك من الشمال والجنوب .

**وفي ظل انشغال السلطان المملوكي قانصوه الغوري بتجهيز العساكر السلطانية للسفر إلى الهند عبر البحر الأحمر ، جاءت الأخبار من نائب السلطان بمدينة حلب في سنة ٩١٣ هـ بأن شاه اسماعيل الصفوي تحرك على بلاد السلطان ، ووصلت أوائل عساكره إلى ملطية فلما بلغ ذلك الخبر السلطان تنكد إلى الغاية ، وجمع الأمراء للتشاور في أمر الصفوي ، فأشار الأمراء على السلطان الغوري بأن يرسل إليه تجريدة ، فأجابهم إلى ذلك وأرسل حملة عسكرية خرج فيها جماعة من الأمراء ، ومن العساكر السلطانية نحو ألف وخمسة مائة . (١)**

**وأما نائب حلب فإنه لم ينتظر حتى تصل العساكر السلطانية من الديار المصرية ، فقد قاتل العساكر الصفوية التي أغارت على حدود السلطنة المملوكية وهزمهم ، ورجعوا نحو بلادهم مهزومين مكسورين ، وأرسل نائب حلب علي بن دولت قاصده إلى السلطان الغوري ومعه بعض رؤوس من قتلهم من أمراء شاه الصفوي ، فلما عرضت تلك الرؤوس على السلطان سر بهذا الانتصار ، وأمر أن تعلق تلك الرؤوس على أحد أبواب القلعة السلطانية . (٢)**

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١١٨/٤ .

(٢) المصدر السابق ١٢٢/٤ .

وكان لتلك الهزيمة أثرها السيء على شاه الصفوى ، حيث أرسل قاصده الى السلطان الغورى وعلى يده مكاتبة يذكر فيها أن الذى وقع من عسكره في دخولهم الى أطراف بلاد السلطان لم يكن على علمه ولا أذن به . فأكرم السلطان قاصده الغورى ذلك القاصد الصفوى . (١)

ومما يرد على شاه اسماعيل الصفوى في دعواه بأن ذلك الهجوم كان بدون علمه هو وجود كبار أمرائه في تلك الحملة العسكرية الصفوية التي أغارت على حدود الخلافة العباسية الشمالية الشرقية ، والذين حملت رؤوسهم بعد قتلهم الى السلطان الغورى بالديار المصرية وهي حجة دامغة ترد على تنصل الصفوى عن مسئوليته عن ذلك الهجوم على أراضي الخلافة العباسية ببلاد الشام .

يضاف الى ذلك أن شاه الصفوى عاد بعد سنة على وجه التقريب لجهوده العدوانية تجاه البلاد المجاورة لدولته ، فقد هاجم متملك مدينة بغداد ويدعى مراد خان ابن يعقوب الطويل ، حيث زحف على بلاده ، ولما خرج مراد خان لقتال الصفوى خذلته عساكره البغدادية وانضمت الى العساكر الصفوية ، فلما رأى تلك الخيانة من عساكره هرب ودخل الى بلاد السلطان الغورى . (٢)

وأرسل صاحب بغداد مراد خان قاصده الى السلطان الغورى ، فوصل الديار المصرية في التاسع من شهر رمضان سنة ٩١٤ هـ ، فلما التقى القاصد بالسلطان طلب منه المساعدة العسكرية حتى يحارب اسماعيل الصفوى ، وبقي هذا القاصد بالديار المصرية حتى شهر ذى القعدة حيث أذن له السلطان بالسفر الى بلاده ، ولم يوافق السلطان على إرسال العساكر السلطانية الى العراق لمقاتلة اسماعيل الصفوى . (٣)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٤٣/٤ .

(٢) المصدر السابق ١٤٣/٤ .

(٣) المصدر السابق ١٤٣/٤ - ١٤٦ .

وقد يعود سبب عدم موافقة السلطان الغوري على ارسال العساكر السلطانية الى العراق الانتصار الذي حققه نائب حلب على العساكر الصفوية ، وهزيمة تلك العساكر واعتماد السلطان قانصوه الغوري على العساكر الحلبية في صد أي محاولة أخرى من قبل الصفويين للاعتداء على أراضي الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية ، يخاف الى ذلك حاجة السلطان الى العساكر السلطانية في ظل استعداداته لقتال الصليبيين الذين أخذوا يهاجمون سواحل الخلافة في البحر الأحمر والبحر الأبيض ، مما يستلزم حشد أكبر قدر من تلك العساكر السلطانية بالديار المصرية والبلاد الشامية لمواجهة ذلك الخطر الذي يحسدق بالخلافة العباسية ونفوذ السلاطين المماليك .

**ومرة أخرى عاد شاه اسماعيل الصفوي لمهاجمة الأراضي العباسية في سنة ٩١٦ هـ ،** حيث أغارت عساكره على بلدة البيرة ونهبوها ، وفي محاولة من السلطان قانصوه الغوري لوقف تلك الاعتداءات الصفوية على بلاده أرسل قاصده لمقابلة شاه الصفوي . (١)

**وفي سنة ٩١٦ هـ** ظهرت بادرة خطيرة في العلاقات بين الخلافة العباسية وسلطنة المماليك من جهة ، والدولة الصفوية من جهة ثانية ، فقد قبض نائب البيرة على جماعة من أتباع الصفوي ، وفي أيديهم مكاتبات من شاه اسماعيل الى بعض ملوك الفرنج يطلب منهم أن يكونوا معه عوناً على السلطان المملوكي قانصوه الغوري ، وعرض عليهم مهاجمة السلطنة المملوكية من جهة البحر ، ويهاجمها هو من جهة البر ، ولما وقف نائب البيرة على تلك المكاتبة بعث بها وبمن يحملها من طرف الصفوي الى السلطان الغوري . (٢)

**وحاول** شاه اسماعيل الصفوي تهديد السلطان قانصوه الغوري ، ففي مطلع سنة ٩١٧ هـ حضر قاصده الى الديار المصرية ومعه رأس أحد ملوك المغول وهو أوزبك خان الذي

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٨٤/٤ .

(٢) المصدر السابق ١٩١/٤ .

كان محالفا للسلطنة المملوكية ، وظل مدة حياته منشغلا بقتال شاه اسماعيل الصفوي ،  
 مما أشغل الأخير عن التوغل في أراضي السلطنة المملوكية ، والدولة العثمانية ، وبوفاء  
 أزبك خان زادت مخاوف السلطان الغوري من زحف اسماعيل الصفوي على أراضي الخلافة  
 العباسية والسلطنة المملوكية . (١)

وقد أرسل شاه اسماعيل مع قاصده رسالة للسلطان الغوري ختمها ببيتين من الشعر  
 يهدده بها ، ويتهم بالسلطان الغوري ، ويُعرض به لاشتغاله بغرس أنواع كثيرة من  
 الأشجار في ميدان القلعة السلطانية ، وهما قوله :

السيف والخنجر ربحاننا      أف على النرجس والآس  
 مدامن دم أعدائنا      وكأسنا جمجمة الرأس

فلما علم شعراء مصر بأمر هذين البيتين انبروا للرد على اسماعيل الصفوي بالقمائد التي  
 أعجبت السلطان قانصوه الغوري ، ومما اختاره منها قول صفي الدين الحلبي :

ولي فرس للخير بالخير ملجس      ولي فرس للشرب بالشرب مرج  
 فمن رام تقويمي فاني مقوم      ومن رام تعويجي فاني معوج

ووكّل السلطان الغوري بقاصد اسماعيل الصفوي جماعة من خاصة المماليك يقومون بمراقبته  
 ويمنعون الناس من الدخول اليه ، ولا يمكنون ذلك القاصد ومرافقيه من الخروج إلى  
 الأسواق أو الاجتماع بأحد من الناس ، وبقي ذلك الرسول الصفوي مدة شهرين بالديار  
 المصرية حيث سمح له بعد ذلك بالسفر والعودة إلى بلاده . (٢)

ولم يكتف الصفوي بتهديد الخلافة العباسية ونفوذ السلطان المملوكي فقط ، بل  
 أرسل إلى السلطان سليم العثماني رسالة يتوعده فيها ويتهدده بأخذ بلاده ، وختم رسالته

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٠٧/٤ ، ٢١٩ .

(٢) المصدر السابق : ٢٢١/٤ ، ٢٣٠ .

ببيتين من الشعر يقول فيهما :

نحن أناس قد غدا شأننا      حب علي بن أبي طالب  
يعيبنا الناس على حبــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــه      فلعنة الله على العائيب

فلما وصلت رسالة الصفوى للسلطان سليم العثماني رد عليه بقوله :

ما عيبكم هذا ، ولكنــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــه      بغض الذي لقب بالماحسب  
كذبتم عليه وعلى ابنتــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــه      فلعنة الله على الكاذب (١)

وعاد اسماعيل الصفوى من جديد لمهاجمة السلطنة المملوكية في سنة ٩١٨ هـ من جهة ،  
وارسال رسله للسلطان الغورى يتوعده من جهة ثانية ، حتى جاءت الأخبار من نائب حلب  
بهزيمة الصفوى على يد بعض أعدائه من المغول ، وفُقد الصفوى بعد هزيمته ومقتل  
ما يقارب ثلاثين ألفاً من العساكر الصفوية ، وذلك في الشهر الرابع من سنة ٩١٩ هـ . (٢)

وقد كانت تلك الهزيمة التي مُني بها شاه اسماعيل الصفوى تمهيداً للقضاء  
عليه وعلى شره ، فقد سار اليه السلطان سليم العثماني في مطلع سنة ٩٢٠ هـ لقتاله ، ولما  
وصلت أخبار تحركات ابن عثمان للديار المصرية ، اجتمع السلطان قانصوه الغورى بكبار  
الأمراء المماليك للتشاور في موقف السلطنة المملوكية من القتال بين السلطان العثماني  
واسماعيل الصفوى ، ووقع الاتفاق بينهم على ارسال العساكر السلطانية من الديار المصرية  
الى حلب حتى يظهر ما يكون بين ابن عثمان والصفوى ، على ألا يدخل العسكر المصرى بين  
الفريقين حتى يبدو من أحدهما التقدم نحو حدود السلطنة ، وتبقى العساكر المصرية  
بحلب لحمايتها من العدو . (٣)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٢١/٤ .

(٢) المصدر السابق : ٢٥٧/٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٣١١ .

(٣) المصدر السابق : ٣٧٦/٤ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ .

وبعد ذلك الانتصار العثماني على الصفويين مَلَكَ السلطان سليم غالب البلاد التي كانت تحت يد اسماعيل الصفوي ، وخطب له على منابرها ، وقبل عودته الى بلاده جعل على تلك البلاد التي ملكها نوابا له من أمرائه . (١)

وبعد إنتصار السلطان العثماني على اسماعيل الصفوي ، بدأ السلطان قانصوه الغوري والأمراء المماليك يتخوفون على نفوذ السلطنة المملوكية من شدة سطوة ابن عثمان ، ومع وصول قاصد ابن عثمان الى الديار المصرية ، مخبرا بانتصار السلطان سليم على اسماعيل الصفوي ، و اظهار السلطان قانصوه الغوري سروره وفرحه بذلك الانتصار ، إلا أنه لم يأمر باظهار الزينة في القاهرة كعادته عند علمه بالانتصارات السابقة ، فقد بدأ يحسّ بخطورة ذلك الانتصار العثماني على الخلافة العباسية ونفوذ المماليك ، وقد أخفى السلطان الغوري ذلك الشعور عن رجال دولته حرصا منه على تماسكهم ، ولرفع الروح المعنوية لهم استعداد لقادم الأيام ، وعمد الى ترضية قاصد ابن عثمان ، فأهدى اليه ، ولم يرسل هدية الى السلطان سليم العثماني ، بل اكتفى بارسال كتاب يهنئه بذلك الانتصار على اسماعيل الصفوي . (٢)

وحاول شاه اسماعيل الصفوي استعادة ملكه من أيدي العساكر العثمانية ، فجمع عساكر سنة ٩٢٢ هـ واستعان ببقايا المغول في نواحي العراق ، إلا أن تلك المحاولة لم يكتب لها النجاح ، حيث هُزِمَ الصفوي مرة ثانية من السلطان سليم العثماني الذي تقدم نحو البلاد الشامية بعد أن ملك العراق ، وتأكّد السلطان قانصوه الغوري من زحف العساكر العثمانية على أراضي الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية بالبلاد الشامية . (٣)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٠٣/٤ .

(٢) المصدر السابق : ٣٩٣/٤ .

(٣) المصدر السابق : ٤٠٤/٤ .



## سابعاً : الدولة العثمانية :

بدأت العلاقات بين الخلافة العباسية والعثمانيين بداية طيبة ، فكانت أتمّ ما يكون صفاء ، فلم يحدث بين الدولتين عداء لعدم تضارب مصالحهما ، ولبعد حدود الدولتين عن بعضهما ، ولعدم وجود أطماع لأي منهما في أراضي الآخر ، لا سيما وأن الدولة العثمانية قد وجهت جهودها العسكرية ضد القوى المسيحية المجاورة لها ، وهو عمل قوبل بالارتياح الكبير من جانب الخلفاء والسلاطين المماليك وغيرهم من القوى الإسلامية .

وأما السلاطين المماليك فقد انشغلوا بقتال المغول من ناحية الشرق ، والطليبيين من ناحية الغرب ، وقد زاد من ذلك الشعور الودي المتبادل بين المماليك والعثمانيين تعرض الدولتين لخطر واحد مشترك أصبح يهدد وجودهما جميعاً ، مما حتم ضرورة الاتصال والتعاون بينهما لمواجهة ذلك الخطر . (١)

فقد أرسل السلطان العثماني مراد الأول في سنة ٧٩٠ هـ سفارة الى السلطان المملوكي الظاهر برقوق ، تحمل اليه هدية ، وتحذره من تحركات تيمور لنك نحو الخلافة ، مما يهدد السلطنتين المملوكية والعثمانية ، وقد أكرم الظاهر برقوق وفادة رسل السلطان العثماني ، وأظهر استعداداً للتضامن مع السلطان مراد لعداء أي عدوان لقائد مغول فارس تيمور لنك ، وشبه العلاقة بين سلطنته والدولة العثمانية بروحين في جسد ، وساعدين في عقد ، غير أنه لم يستطع أن يكتفم مخاوفه من أطماع العثمانيين وخطورتهم على بلاده

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٥٦ ، أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر ٤ ، عبد المنعم ماجد : طومان باي ١٠٥ ، عبد الرحمن عبد التواب : قايتباي المحمودي ١٦٦ ، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ٤٨ ، علي الخربوطلي : مصر العربية الإسلامية ٣٢٨ ، محمود الشرقاوي : مصر في القرن الثامن عشر ٦ .

فقال لأمرائه : اني لا أخاف منه - تيمور لنك - فان كل أحد سوف يساعدني عليه ،  
وانما أخاف من ابن عثمان . (١)

ولم تلبث الأحداث التالية أن أثبتت صدق ظنون السلطان الظاهر برقوق ،  
اذ أغار السلطان بايزيد الأول في سنة ٧٩٤ هـ على مدينة قيصريّة ، وقبض على صاحبها  
الذي كان مشمولا بحماية سلطنة المماليك ، ونظرا لتخوف السلطان بايزيد من خطر  
تيمور لنك الذي أخذ يزداد اقترابا من حدود دولته ، فقد سارع الى اصلاح العلاقة  
مع السلطان المملوكي الظاهر برقوق ، ويعتذر له عما حدث ، وأرسل له هدية ثمينة ،  
ويبدو أن بايزيد العثماني لم يجد له حليفا قويا يساعده على دفع خطر تيمور لنك  
سوى سلطنة المماليك ، فأرسل الى الظاهر برقوق يحذره من خطر المغول ويعلن أنه وضع  
تحت تصرف السلطان برقوق مائتي ألف فارس ليستعين بهم على قتال تيمور لنك . (٢)

وفي سنة ٧٩٧ هـ أرسل السلطان بايزيد العثماني الى الخليفة العباسي محمد  
المتوكل على الله يطلب منه اعطاءه تفويضا شرعيا بحكم البلاد التي تحت يده ، وقد وقف  
السلطان الظاهر برقوق موقف المتحفظ من ذلك الطلب . (٣)

على أن تلك العلاقة الطيبة التي سادت بين الخلافة العباسية وسلطنة المماليك  
من جهة ، وسلطنة العثمانيين من جهة ثانية ، لم تستمر بعد وفاة الظاهر برقوق ، وذلك  
بسبب أطماع السلطان بايزيد في أراضي الخلافة العباسية ، ونفوذ السلطنة ، فقد أغار  
على المناطق الواقعة تحت حماية سلطنة المماليك مثل ملطية ، ودارنده ، وذلك في  
سنة ٨٠٣ هـ ، ثم أرسل السلطان بايزيد يطلب من الناصر فرج التحالف معه ضد

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٥٦ - ٢٥٧ ، أحمد متولي : الفتح  
العثماني ٥ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٥٧ ، صفوح خير : مدينة دمشق ١٧٣

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٥٧ .

تيمور لنك الذي بدأ في مهاجمة حد ود الدولتين ، وكرد فعل على ذلك التصرف العثماني عارض الأمراء المماليك التحالف مع العثمانيين . (١)

**ولا شك** في أن ذلك الهجوم العثماني على سيادة سلطنة المماليك في ظل الخلافة كان سببا لمعارضة الأمراء المماليك ، فذلك العمل كافيا في حد ذاته لتحذير السلطنة المملوكية من نوايا ابن عثمان ، وان كان خطر تيمور لنك ظل يدفع العثمانيين دفعا إلى الحرص على كسب ود المماليك بمصر ، بدليل تلك الرسالة التي بعثها بايزيد للسلطان الناصر فرج ، ولكن كبار الأمراء المماليك رفضوا مخالفة ابن عثمان وأرسلوا إليه يذكرونه بعد وانه على أطراف بلادهم ، فكانت الفرصة السانحة التي استغلها تيمور لنك لينزل ضربته بكل من القوتين الكبيرتين كل منهما على انفراد بعد اختلافهما فسزحف على سلطنة المماليك وهزم العساكر السلطانية قرب دمشق في سنة ٨٠٢ هـ ، ثم هزم السلطان بايزيد هزيمة منكرة قرب مدينة أنقرة سنة ٨٠٥ هـ ، واستطاع تيمور لنك القبض على بايزيد والرجوع به الى بلاده حيث بقي في أسره حتى وفاته في سمرقند .

**وبعد وفاة** تيمور لنك سنة ٨٠٨ هـ وتفكك دولته ، أتاح ذلك فرصة لسلطنة المماليك ولسلطنة العثمانيين للتخلص من آثار الهزيمة التي تعرض لها كل منهما ، وتجددت العلاقات الودية بينهما في سلطنة المؤيد شيخ محمودى ، حيث تبودلت الرسائل الودية بين السلطنتين مدة ملك السلطان مراد الثاني العثماني . (٢)

**وفي بداية** سلطنة الأشرف برسباى أرسل السلطان مراد الثاني العثماني قاصده إلى الديار المصرية لتهنئته بالسلطنة ومعه هدية ، ورد الأشرف برسباى بهدية للسلطان العثماني

(١) أحمد متولي : الفتح العثماني لمصر والشام ٩ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٥٨ - ٢٥٩ .

و عند ما حاول الأشرف برسباى فتح جزيرة قبرص أرسل اليه مراد الثاني في سنة ٨٢٩ هـ يشفع في أهل قبرص ألا يغزوهم السلطان المملوكي ، فلم يلتفت السلطان الى شفاعته ابن عثمان ، وأخذ في اكمال تجهيز العساكر السلطانية لفتح قبرص . (١)

ولم يذكر الممدر التاريخي هل كانت الشفاعة العثمانية في أهل قبرص بسعى منهم أولا ؟ ، وأحسن الأشرف برسباى في عدم الالتفات الى ما طلبه السلطان مراد الثاني ، وذلك لأن قبرص أصبحت منطلقا للهجمات المليبية على السواحل الاسلامية في الديار المصرية والبلاد الشامية ، واشتدت وطأة تلك الاعتداءات على الدولة الاسلامية ، ولو كانت تلك الاعتداءات على الأراضي العثمانية لما قبل السلطان مراد شفاعته أحد فيمن اعتدى على أراضيه وحدود مملكته .

ثم لم تلبث أن ساءت العلاقة بين السلطان برسباى والسلطان مراد ، وذلك في سنة ٨٢٧ هـ عند ما وصل الى القاهرة الأمير سليمان العثماني وأخته فاطمة فرارا من بطش السلطان مراد العثماني ، وعند ما طلب مراد الثاني اعادتهما اليه رفض برسباى ذلك الطلب خوفا عليهما من القتل ، ثم تزوج الأشرف برسباى من أخت الأمير سليمان العثماني التي لجأت الى حماية السلطان الأشرف برسباى .

وفي سلطنة الظاهر جقمق تحسنت العلاقات بين الخلافة والسلطنة المملوكية من جهة ، والسلطنة العثمانية من جهة ثانية ، وتبودلت الرسل والهدايا بين الجانبين ، فنتيجة لغزوات السلطان العثماني وانتصاراته على أعدائه في أوروبا أرسل قاصده الى الظاهر جقمق في سنة ٨٤٨ هـ بهدية حاقلية ، وبعث اليه بعدد ممن وقعوا في الأسر ، فلما وقف الأسرى بين يدي السلطان جقمق عرض عليهم الدخول في الاسلام فأسلموا عن آخرهم بدون اكراه . (٢)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٨٧/١٤ ، ٣١٨ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٥٢/٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ .

وعندما بلغ السلطان جقمق وفاة السلطان مراد العثماني ومبايعة ولده محمد من بعده بالملك ، أرسل في سنة ٨٥٥ هـ قاصده من الديار المصرية ليهنيء السلطان محمد ويعزيه في وفاة والده . (١)

**وفي سلطنة الأشرف اينال العلائي توطدت العلاقات الودية بين الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية من ناحية ، والسلطنة العثمانية من ناحية أخرى ، فبعد ما استطاع السلطان العثماني محمد الثاني فتح مدينة القسطنطينية في سنة ٨٥٧ هـ ، أمر السلطان اينال باظهار الفرح بذلك الانتصار في القاهرة ، فزينت الأسواق والشوارع والمآذن عدّة أيام .**

ثم ساءت العلاقات بين المماليك والعثمانيين في سلطنة الظاهر خشقدم الناصري ، فقد وصل الى الديار المصرية قاصد ابن عثمان ، فلما سعد القلعة ووقف بين يدي السلطان ، لم يقبل الأرض على جاري العادة من القمّاد ، فحنق منه السلطان ، ثم لما قرأ الظاهر خشقدم مكاتبة ابن عثمان لم يجد بها الألقاب التي جرت العادة بذكرها لاطهار الاحترام للسلطان المملوكي ، فازداد حنقه وكاد يفتك بالقاصد . فمنعه الأمراء من ذلك ، وكان هذا سببا لوقوع العداوة بين سلطان مصر وابن عثمان حتى دولة الأشرف قايتباي . (٢)

**وزاد من سوء العلاقة بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين تدخل السلطان محمد الثاني في شئون الامارات التركمانية في أطراف الحدود الشمالية للخلافة والسلطنة المملوكية ، وقد كانت تلك الامارات خاضعة لحماية الخلافة والسلطنة المملوكية ، فقد تدخل ابن عثمان في الصراع الذي نشب بين أبناء قبيلة ذي الغادر التركمانية ،**

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٢٨٨ ، ٢٩٠ .

(٢) المصدر السابق : ٤/٤٢٠ .

والصراع الذي نشب بين أبناء قرمان ، فوقف مؤيدا لأحد الأطراف المتنازعة  
ضد الآخر في سنة ٨٦٩ هـ . (١)

وفي سنة ٨٧٠ هـ أرسل السلطان محمد الثاني العثماني يسأل الظاهر خشقدم  
أن يولي شاه سوار بن ذى الغادر الامارة في الأبلستين ، فلما وصل قاصد ابن عثمان  
لديار المصرية وجد أن الظاهر خشقدم قد عين شاه بضاع بن ذى الغادر ، فشق  
ذلك العمل على ابن عثمان وأرسل عددا من العساكر العثمانية لمساعدة شاه سوار  
لمحاربة شاه بضاع ، وليملك منه مدينة الأبلستين . (٢)

وقد أنذر ذلك التدخل العثماني في شئون امارة ابن قرمان ، وامارة  
ذى الغادر الخلافة العباسية بالديار المصرية ، والسلطنة المملوكية من تطلع الدولة  
العثمانية الى بسط سيطرتها على تلك الامارات ، وبصدام مقبل بين المماليك  
والعثمانيين ، وقد ظهر الخلاف بينهما في هذه الفترة بقيام كل دولة منهما بمساعدة  
بعض الأطراف المتنافسة على الحكم في الامارات التركمانية ، فكانت الدولة  
العثمانية مثلا تساعد أميرا منافسا للأمير الذي تسانده السلطنة المملوكية . (٣)

وعندما تولى الأشرف قايتباي السلطنة بالديار المصرية والبلاد الشامية في سنة ٨٧٢ هـ  
زادت العلاقات بينه وبين العثمانيين سوءا ، وذلك بسبب تدخل السلطان العثماني  
في الشئون الداخلية لامارة ذى الغادر التركمانية من جهة ، يضاف الى ذلك وصول

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٤/٤٣٧ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٦٠ ، محمد الراقد : الغزو  
العثماني لمصر ٥٢ - ٥٣ ، ابراهيم العدوي : تاريخ العالم الاسلامي ٢٦١ ،  
أحمد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر ٣٣ ، عبد الرحمن عبد التواب :  
قايتباي المحمودي ١٦٧ ، عبد المنعم ماجد : طومان باي ١٠٦ .

الأمير (جم) إلى الديار المصرية ومعه أمه وزوجته بعد خلافه مع أخيه السلطان بايزيد الثاني بسبب الملك ، فاضطر الأمير العثماني للجوء إلى حماية الخلافة العباسية بمصر ونفوذ السلطان قايتباي وطمعاً في مساعدته العسكرية . (١)

ويظهر خطأ السلطان المملوكي قايتباي في تأييد العنصر الضعيف في الصراع العثماني وهو الأمير (جم) ضد العنصر القوي وهو بايزيد الذي نجح في تولي السلطنة العثمانية ، وقد شجع الأمراء المماليك السلطان قايتباي على مد يد العون للأمير جم على أساس أن ذلك في مصلحة سلطنة المماليك ، فلما حمل الأمير جم على عون السلطان قايتباي عاد إلى بلاده لقتال أخيه بايزيد ، ولكن كانت نهاية ذلك الصراع هزيمة الأمير جم وفراره إلى جزيرة رودس بحثاً عن ملجأ جديد له . (٢)

وشهدت العلاقة بين السلطان قايتباي والسلطان بايزيد بعض التحسن في سنتي ٨٧٧ ، ٨٧٩ هـ ، فبعد فرار أحد الأمراء المماليك ويدعى اينال الحكيم إلى السلطان بايزيد ، كتب رسالة إلى السلطان قايتباي يشفع في ذلك الأمير المملوكي الذي لجأ إليه ، فقبل قايتباي تلك الشفاعة ، وساعد على تحسن العلاقة بينهما في هذه الفترة اشتداد خطورة حسن الطويل التركماني على كلا السلطنتين المملوكية والعثمانية ، حيث تبادل سلطان كل منهما إرسال قاصده إلى الآخر رغبة في توثيق عرى المودة بينهما ، خاصة بعد مكاتبة حسن الطويل للفرنج يطلب منهم معاونته على قتال السلاطين المماليك والعثمانيين . (٣)

- 
- (١) ابن اياس : بدائع الزهور ٧/٣ ، ٩ ، ١٢ ، ١٨٥ ، ١٩٢ ، ١٩٦ .  
 (٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ٢٦٠ ، عبد المنعم ماجد : طومان باي ١٠٧ ، أحمد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر ١٣٤ ، محمد الراقد : الغزو العثماني لمصر ٥٥ .  
 (٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٨٦/٣ - ٨٧ ، ٩٨ - ٩٩ .

وفي مطلع سنة ٨٨٨ هـ عادت العلاقة بين سلطنة المماليك والعثمانيين للتوتر من جديد ، وذلك بسبب عصيان الأمير التركماني علي دولات (علاء الدولة) للسلطان قايتباي واعتدائه على أراضي الخلافة العباسية وتوغله فيها بعد أن أمده السلطان بايزيد بعساكر كثيرة ، وأخذ قايتباي حذره من تلك الاعتداءات فأرسل حملة عسكرية من الديار المصرية لحماية حلب من اعتداءات التركمانيين في رجب سنة ٨٨٨ هـ ثم أتبعها بحملة ثانية في المحرم سنة ٨٨٩ هـ ، ثم حملة ثالثة في ربيع الأول من نفس السنة . (١)

وفي محاولة من السلطان الأشرف قايتباي لوقف ذلك التوتر في العلاقات مع الدولة العثمانية عقد مجلسا للتشاور في أمر ابن عثمان، وتعصبه لعلي دولات التركماني، ومساعدته العسكرية له ضد السلطنة المملوكية ، فأشار الأمراء على السلطان بأن يرسل إليه هدية لتزول هذه الوحشة من بينهما ، فانصاع السلطان لذلك الرأي ، وأرسل الأمير جاني بك بهدية حافلة للسلطان العثماني في شهر صفر من سنة ٨٩٠ هـ . (٢)

#### الخلافة العباسي يتوسط بين المماليك والعثمانيين :

سعى الخليفة العباسي عبد العزيز المتوكل على الله للملح بين الجانبين وذلك بإرسال كتاب للسلطان العثماني يذكر فيه أنه قلده ما يفتحه الله عليه من بلاد الكفار ، وحثه على تخميد هذه الفتنة التي قد قويت بينه وبين السلطان الأشرف قايتباي (٢) ، وذلك حرصا من الخليفة العباسي على وحدة كلمة المسلمين واجتماعهم لمواجهة أعدائهم الذين يتربصون بالمماليك والعثمانيين لايقاع الفتنة بينهم .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٣ ، ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) المصدر السابق : ٢١٥/٣ .



ومن الناحية العسكرية فقد استطاعت العساكر السلطانية هزيمة الزعيم التركماني علي دولات ومن معه من العساكر العثمانية ، غير أن تلك الانتصارات لم يكن لها نتيجة سوى إيغار صدر السلطان العثماني، وتحريك رغبة الانتقام من السلاطين المماليك عنده ، ولم تنفع الهدايا التي بعثها الأشرف قايتباي ولا وساطة الخليفة العباسي بينهما ، فعاد ابن عثمان لمهاجمة أطراف بلاد الخلافة ونفوذ السلطان المملوكي ، ولما أحسّ قايتباي بخطورة تلك الاعتداءات أعلن النفير في العساكر السلطانية للاستعداد للسفر لحماية الحدود الشمالية للخلافة وللسلطنة المملوكية .<sup>(١)</sup>

وفي غمرة تلك الاستعدادات المملوكية رجع الأمير جاني بك من عند ابن عثمان ، فلما طلع لمقابلة السلطان قايتباي خلا به على انفراد وأخبره عن أحوال ابن عثمان ، وأنه غير راجع عن أذاه للسلطنة المملوكية ، وأنه لم يجد منه اقبالاً ولا أكرامه ، وأنه غير ناصح للسلطان قايتباي ، وكان رجوع الأمير جاني بك في شهر ذي القعدة من سنة ٨٩٠ هـ .<sup>(٢)</sup>

وبعد ما تأكد السلطان قايتباي من نوايا ابن عثمان تجاه الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية بما شاهده ذلك الأمير المملوكي ، أخذ يستعد للحسم العسكري بين الطرفين بعد أن فشلت الجهود السلمية التي بذلها الخليفة العباسي المتوكل على الله ، الذي سعى للصلح بين المماليك والعثمانيين ، لما في ذلك من المصلحة العليا للأمة الإسلامية.

**وقد** كان السلطان قايتباي مكرها على حمل سلاحه ضد ابن عثمان ، ولكنه وجد نفسه مضطرا للدفاع عن نفسه وملكه ، ومما يؤكد عدم

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٣/٢١٨ - ٢٢٠ .

(٢) المصدر السابق : ٣/٢٢١ .

رغبته في تلك المواجهة العسكرية حالته النفسية في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ السلطنة المملوكية ، وما أصابه من ضيق ، وتغيّره على أعوانه وخواصه . (١)

وبدأت المواجهة العسكرية المملوكية العثمانية في صفر سنة ٨٩١ هـ عندما التقت العساكر المصرية بعسكر ابن عثمان الذي بلغ قرابة أربعين ألف ، وقصد انتصرت العساكر السلطانية على العثمانية ، وقبض على الأمير أحمد بك ، وكان من أجلّ أمراء ابن عثمان ، فوضع القيد في يده ، وأرسل إلى السلطان قايتباي بالقاهرة . (٢)

وفي سنة ٨٩٢ هـ عاد السلطان بايزيد العثماني بتجهيز عساكره للهجوم على البلاد الواقعة تحت نفوذ السلطان قايتباي وتقدم فيها ، فلما بلغ ذلك السلطان المملوكي اضطربت أحواله وأرسل العساكر السلطانية لملاقاة ابن عثمان ، ولم يعتمد السلطان بايزيد على الهجوم البري فقط ، فقد أرسل عدد ستين مركبا بحرياً مشحونة بالمقاتلين وآلة السلاح ، ولكن تلك الحملة تعرضت لرياح عاصفة أغرقتها ، ومن سلم من الغرق من العساكر العثمانية وقع بأيدي عساكر المماليك . (٣)

واستمرت العساكر السلطانية في مدافعة العساكر العثمانية ، وتعسدت الوقعات بينهما ، وكانت نتائج تلك المعارك في صالح المماليك حيث أجبروا عساكر ابن عثمان على التراجع ، ثم حاصروهم في بلدة أذنه<sup>(٤)</sup> التي وقعت بأيديهم مدة ثلاثة أشهر ، فلما اشتد الحصار على العساكر العثمانية سلموا تلك البلدة للعساكر السلطانية . (٥)

- 
- (١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٣١/٣ - ٢٣٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢ .  
 (٢) المصدر السابق : ٢٢٦/٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ .  
 (٣) المصدر السابق : ٢٥٠/٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ .  
 (٤) أذنة - بفتح أوله وثانيه - بلدة من الثغور قرب المصيصة ، بنيت في سنة ٢٤١ هـ بأمر صالح بن علي العباسي وبنى بها هارون الرشيد قصراً له في حياة والده المهدي .  
 (الحموي : معجم البلدان ١٣٢/١) .  
 (٥) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٥٧/٣ .

وبعد تلك الانتصارات المملوكية أخذت عساكر السلطان قايتباي تعود الى القاهرة منسحبة من تلك الحملة العسكرية بدون اذن من أميرها ، ولا اذن من السلطان قايتباي يسمح لها بالعودة الى الديار المصرية ، وكانت فرصة سانحة استغلها العثمانيون ، فلما بلغهم رجوع العسكر المصري طمعوا في أخذ البلاد الشامسية ، وأخذوا يستعدون لأخذ مدينة حلب ، ولما أحسّ نائبها بالخطر أرسل الى السلطان قايتباي يطلب منه ارسال العساكر السلطانية بسرعة لحفظ المدينة . (١)

وفي غمرة الصراع العسكري المملوكي العثماني ، قدم الى الديار المصرية قاصد من عند الوزير العثماني داود باشا يشير على قايتباي أن يبعث قاصدا من طرفه الى السلطان بايزيد لعلّ يكون بينهما الصلح ، فكان ردّ السلطان قايتباي على ذلك العرض : " اذا أطلق ابن عثمان التجار المماليك الذين عنده وبعث مفاتيح القلاع التي أخذها ، كاتبناه في أمر الصلح ، وأرسلنا اليه قاصدا " . (٢)

ونرى هنا السلطان قايتباي يسعى في الصلح مع ابن عثمان ، ويقبل وساطة ذلك الوزير العثماني ، ومما يؤكد رغبته في الصلح اشتراطه على السلطان بايزيد شرطين لا مشقة فيهما على ابن عثمان ، وما ذلك الا لحرص السلطان المملوكي على حقن دماء المسلمين ، وقطعه لأسباب الفرقة والعداوة بين القوتين ، لمعرفته بالنتائج السيئة على الأمة الاسلامية في ظل استمرار ذلك الخلاف بين الطرفين .

ولكن ابن عثمان مضى في مهاجمة أطراف الخلافة العباسية ، فأعاد السلطان قايتباي مشاوره أمراءه فيما ينبغي فعله ، فاتفق الجميع على تجهيز حملة عسكرية ، غير أنه وقع بعد ذلك الاجتماع بعض الخلاف بين السلطان وبعض الأمراء المماليك ،

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٢٦٥ .

(٢) المصدر السابق : ٢/٢٦٦ .

وقام الأشرف قايتباي غاضبا وهو يقول : " أترك لكم السلطنة وأمضي الى مكة ،  
فما زال به الأمراء يتلطفونه حتى هدأ ، وأمر بصرف النفقة اللازمة لتلك العساكر  
السلطانية التي أمرت بالسفر وعدد دهم ثلاثة آلاف " . (١)

**وزاد في معاناة السلطان قايتباي تمرد تلك العساكر السلطانية ، فبعث**  
سفرها الى الأطراف الشمالية للخلافة في الشهر الرابع من سنة ٨٩٥ هـ ، أخذوا يعودون  
للديار المصرية ويطالبون السلطان بالسماح لهم بالرجوع الى القاهرة ، فلما علم السلطان  
بذلك تنكد وأرسل أوامره للأمراء بالاقامة في حلب ، فما سمعوا منه شيئا ، ودخلوا  
الشام في طريقهم الى القاهرة ، وبعد أن كان من قدم منهم يدخل اليها خفية عن  
السلطان ، ما هي الا أيام حتى أصبحوا يدخلونها علانية ، ثم بعد عودتهم أصبحوا  
مصدرا للفتن والاضطراب لاجبار السلطان قايتباي على اعطائهم النفقة ، فأقسم السلطان  
بالله العظيم أنهم ان طلبوا منه نفقة ليترك السلطنة ويتوجه تحت الليل الى  
مكة ليقيم فيها . (٢)

وفي هذه الفترة من تاريخ الخلافة العباسية في مصر وسلطنة المماليك ، أصبح  
السلطان قايتباي يعاني من اضطراب أوضاع الدولة الخارجية من خلال عزم ابن عثمان  
على التقدم لأخذ بلاده واضطراب الأوضاع الداخلية من خلال ازدياد فتن الأمراء  
المماليك والعساكر السلطانية ، الذين لم يصبح للسلطان عليهم نفوذ ولا كلمة تطاع ،  
فبدل أن يكونوا عوناً للسلطان في مواجهة الأخطار التي تحيط بالدولة ، أصبحوا  
عبئا ثقيلا على كاهل السلطان حتى أزهده ذلك الوضع في منصبه وملكه ، وأخذ هؤلاء  
المماليك يطالبون بالحقوق المالية التي لهم ، وينسون تقديم الحقوق الواجبة عليهم  
نحو السلطان ، وقبله الخليفة والخلافة العباسية التي أصبح سلاطين المماليك بمثابة  
الحماة لها بعد قيامها ثانية بين ظهرانيتهم في عاصمة ملكهم القاهرة .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٧٠/٣ .

(٢) المصدر السابق : ٢٧٦/٣ .

ثم حدث تطور في العلاقة بين سلطنة المماليك و السلطنة العثمانية ، وذلك أنه في شهر جمادى الآخرة من سنة ٨٩٦ هـ قدم الى الديار المصرية قاصد من عند السلطان العثماني ، فلما معد الى القلعة السلطانية أكرمه السلطان قايتباي ، وقد أحضر ذلك القاصد على يده مفاتيح القلاع التي كان ابن عثمان قد استولى عليها فلمها الى السلطان قايتباي ، ورداً على ذلك أطلق قايتباي سراح عدد من الأمراء العثمانيين الذين وقعوا في الأسر في المعارك السابقة بين الجانبين ، وأحسن اليهم قايتباي وكساهم ، وتبذرت الرسل و المكاتبات والهدايا بين السلطنة المملوكية والسلطنة العثمانية .<sup>(١)</sup>

وبعد وفاة السلطان الأشرف قايتباي في ذى القعدة من سنة ٩٠١ هـ ، تعاقب على منصب السلطنة عدد من السلاطين المماليك وهم : محمد بن قايتباي حتى سنة ٩٠٤ هـ ، ثم الظاهر قانصوه الأشرفي حتى سنة ٩٠٥ هـ ، ثم العادل طومان الأشرفي حتى سنة ٩٠٦ هـ ، ثم قانصوه الغوري . وقد شهدت العلاقة بين الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية والدولة العثمانية في ظل تلك الفترة الاستقرار ، وتبادل المراسلات والوفود بين الجانبين .<sup>(٢)</sup>

وفي صدر سلطنة قانصوه الغوري استمرت العلاقة الودية بين السلطان المملوكي وابن عثمان ، ووصل رسل كل منهما الى الآخر يحطون المكاتبات والهدايا المتبادلة .<sup>(٣)</sup>

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢/٢٨٢ ، ٣١٦ .

(٢) المصدر السابق ٣/٣٧٧ - ٣٧٨ ، ٣٨٧ ، ٤٢٦ .

(٣) المصدر السابق ٤/٤٦ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ١٠٧ ، ١١٨ - ١١٩ ، ١٢٣ .

واستمرت تلك العلاقة الجيدة بين الدولتين ، ففي مطلع سنة ٩١٥ هـ وصل الى دمياط أحد أبناء السلطان بايزيد الثاني ويدعى قرقد ( قور قود ) ، فلما تحقق السلطان قانصوه الغوري من ذلك أرسل أحد أمرائه لملاقاته ، وأرسل المراكب ليجي ، فيها ابن عثمان ، وما أبقى من اكرامه ممكن ، وذلك حرصا منه على استمرار العلاقات الودية بين الجانبين .

ولما وصل الضيف العثماني الى القاهرة ، أوصى السلطان قانصوه باحضار جميع ما يحتاج اليه ، وكان سبب مجيء قرقد ابن أبي يزيد أنه حصل بينه وبين والده حظ نفس ، فأتى الى السلطان الغوري ليصلح بينهما ، وقد بقي قرقد بالقاهرة حتى شهر ربيع الثاني سنة ٩١٦ هـ . (١)

وقد أظهر السلطان الأشرف قانصوه الغوري الاحترام والتقدير لابن السلطان العثماني ، فمن مظاهر ذلك التقدير قبول السلطان لشفاعة قرقد في الأمير أربك المكحل الذي نفاه السلطان الى دمياط ، فأمر السلطان بعودة ذلك الأمير الى القاهرة ، ومن مظاهر الاحترام لابن السلطان العثماني اصدار السلطان قانصوه تعليماته بأن يرتب لابن السلطان العثماني في كل شهر ألفي دينار مدة اقامته بمصر . (٢)

ثم زادت العلاقة بين السلطان المملوكي والسلطان العثماني متانة وقوة في ظل الأخطار التي أصبحت تهدد الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية من الناحية الجنوبية ، حيث اشتدت أطماع البرتغاليين في البلاد الاسلامية ، واجتهد السلطان الغوري في الدفاع عن ديار الاسلام من خلال اعداد العدة اللازمة لمواجهة تلك الأطماع البرتغالية ، فمن ذلك أنه أرسل رسوله الى ابن عثمان في سنة ٩١٦ هـ ليشتري له أخشابا

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٤/١٥٢ ، ١٥٤ .

(٢) المصدر السابق : ٤/١٥٧ ، ١٦٧ .

وحديدا وبارودا ليستعين به على بناء المراكب البحرية لقتال البرتغاليين ،  
ولمّا علم السلطان بايزيد الثاني بصعوبة الظروف التي تمر بها السلطنة المملوكية  
خاصة من الناحية الاقتصادية ردّ المال الذي أحضره رسول قانموه الغوري ، وأعلن أنه  
سيتحمل تكاليف ما يحتاجه السلطان الغوري من عتاد عسكري ، ممّا يؤكد قوة العلاقة  
بين الدولتين في هذه الفترة العميقة . (١)

**ولمّا أكمل السلطان بايزيد تأمين ما يحتاجه السلطان الغوري ، أرسل**  
ذلك في مراكب بحرية وصلت الى الديار المصرية وهي محملة بأنواع السلاح ،  
ولم يقف السلطان العثماني عند ذلك فحسب ، بل أرسل قاصده الى السلطان المملوكي  
ليطمئن على وصول تلك المراكب واستلام الغوري لها فيها ، وذلك بعد شهر من  
وصول المراكب العثمانية في شهر ذي القعدة من سنة ٩١٦ هـ . (٢)

**واستمرت تلك العلاقة الطيبة حتى وفاة السلطان بايزيد الثاني في سنة**  
٩١٨ هـ حيث حضر قاصده قبل موته الى الديار المصرية مخبراً أن الملك العثماني  
قد ضعف ، ونزل عن الملك لأصغر أولاده الذي يسمى سليم شاه ، وأنه صار مملوكاً  
لما كان بيد والده من البلاد عوضاً عنه .

**ولمّا تأكد الخبر بوفاة السلطان بايزيد حزن عليه السلطان قانموه الغوري**  
وأظهر الأسف على فقدته ، وأمر بالحلا عليه صلاة الميت الغائب في جوامع القاهرة ،  
كما أظهر الناس الحزن على وفاته لما عرف عنه من الجهاد في سبيل الله ، وقمعه  
لأعداء الاسلام والمسلمين . (٣)

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٩٦/٤ .  
(٢) المصدر السابق : ٢٠١/٤ ، ٢٠٣ .  
(٣) المصدر السابق : ٢٦٩/٤ - ٢٧٠ .

وفي أول شهر ذي القعدة سنة ٩١٨ هـ ، وصل الى الديار المصرية أحد أولاد الأمير أحمد بك بن بايزيد ويدعى سليمان ، فلما حضر أكرمه السلطان قانصوه النورى ، وعن سبب مجيء هذا الضيف العثماني الى الديار المصرية ، فقد ذكر أن والده أحمد فرّ من أخيه السلطان سليم الذى تولى مملكة ابن عثمان بعد وفاة والده ، فتوجه أحمد عند شاه اسماعيل الصفوى ، وحضر ابنه سليمان الى الديار المصرية طلبا لحماية السلطان قانصوه النورى ، فلم ينشرح صدر السلطان المملوكي لذلك وخشي مما يأتي فيما بعد . (١)

وقد ساعد السلطان بايزيد على ذلك النزاع الذى نشب بين أبنائه من بعده ، لأنه قبل موته قسّم مملكته بين أولاده الثلاثة ، أحمد ، وقرقد ، وسليم ، وقد غضب أصغرهم وهو ابنه سليم الذى تميّز من بين اخوته بشدة البأس ، ولم يكن في قلبه رحمة ، لا يهتم غير نفسه ، فتآمر على والده مع كبار العساكر العثمانية حتى أجبره على التنازل له عن الملك ، ثم حارب أخاه الأكبر أحمد الذى هرب من مواجهة أخيه ومثله قرقد ، أما أبناء أحمد فهربوا الى السلطنة المملوكية طلبا للحمايتها من بطش عمهم السلطان سليم ، وكانوا ثلاثة أخوة : سليمان ، وعلاء الدين ، وقاسم ، فوصلوا الى القاهرة في ذي القعدة سنة ٩١٨ هـ . (٢)

وقد بادر السلطان قانصوه النورى الى ارسال قاصده الى السلطان سليم العثماني ليهنئه بالملك ، وليعمل على توطيد العلاقات الودية بين الجانبين . (٣)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٨٩/٤ .

(٢) عبد المنعم ماجد : طومان باى ١١٠ ، محمد الراقد : الغزو العثماني

لمصر ١٢٥ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٨٩/٤ .



**ولم تطل** مدة اقامة ابني أحمد بن با يزيد العثماني ، سليمان ، وعلاء الدين بالديار المصرية بسبب وفاتهما ، ففي شهر صفر سنة ٩١٩ هـ مات سليمان بن أحمد بسك ابن با يزيد بالطاعون ، ثم في ربيع الأول من نفس السنة مات علاء الدين ، ودفنا بالقاهرة ، وحضر السلطان قانصوه الغوري الصلاة عليهما . (١)

**أما السلطان** سليم العثماني فقد جاءت أخباره الى الديار المصرية حاملة أنباء خلافه مع أخيه قرقند ، وقتله له ، ثم الحاق أخيه أحمد به ، وقتله لجماعة من وزراء الدولة العثمانية ، واضطراب أحوال السلطنة العثمانية بعد تلك الحوادث حتى خشي عليها من أعدائها الفرنج ، بعد أن فني أكثر أولاد ابن عثمان على يـد واحد منهم . (٢)

**وفي ظل** انشغال السلطان سليم العثماني بقتال الفرنج و اسماعيل الصفوي أرسل قاصده في ربيع الأول سنة ٩٢٠ هـ الى السلطان قانصوه الغوري ، وذكر السلطان سليم في ذلك الكتاب أنه يقصد السير لقتال اسماعيل الصفوي، ويطلب أن يكون قانصوه معه في قتاله للصفوي ، وترددت الرسائل بعد ذلك بين السلطان سليم وقانصوه الغوري، تحمل المكاتبات والهدايا بينهما حتى نهاية تلك السنة . (٣)

**وفي مطلع** سنة ٩٢١ هـ ظهرت نوايا السلطان سليم العثماني تجاه الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية ، وأخذ يتطلع الى احتلال أراضي السلطنة المملوكية، بعد أن اشتد الخلاف بينه وبين السلطان قانصوه الغوري ، وزاد من حدة الخلاف بينهما مهاجمة السلطان سليم للأصير علي دولات التركماني الذي كان حليفا للسلطنة

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٩١/٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ .

(٢) المصدر السابق : ٣٠٦/٤ .

(٣) المصدر السابق : ٣٧٣/٤ ، ٣٧٥ - ٣٧٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ .

المملوكية والقضاء على دولته ، بعد أن وقف ذلك الأمير التركماني في صف اسماعيل المغموي ضد السلطان سليم ، يضاف الى ذلك هروب أحد الأمراء المماليك ويدعى خشقدم الى ابن عثمان ، فلما استقر عنده شرع يحط من قدر سيده قانصوه الغوري عند ابن عثمان ، ويخبره ببعض أفعاله ، وأطلعته على أعداد العساكر السلطانية بالديار المصرية ، وحسن له أن يمشي على بلاد السلطان الغوري ، وسهل عليه ذلك الأمر ، فعند ذلك زادت رغبة ابن عثمان في ملك مصر وبلاد الشام .

هذا بالإضافة الى أن السلطان سليم العثماني عند ما توجه لقتال اسماعيل المغموي قبض على الأمير جانم الخاصكي قاصد السلطان الغوري أثناء توجهه الى ملك المغول في تلك النواحي لاستخلاص بعض الأسرى المسلمين عنده ، وأخذ ابن عثمان الهدايا التي أرسلها الغوري مع قاصده ، وهم بقتل ذلك القاصد المملوكي أكثر من مرة حتى شفع فيه بعض وزرائه .

فلما رجع جانم الخاصكي الى السلطان قانصوه، أخبره بما وقف عليه من استعدادات السلطان سليم العثماني لأخذ البلاد الشامية ثم المصرية ، وأنه جهّز مراكب بحرية لتسير الى الموانئ المصرية في أثناء هجومه على البلاد الشامية ، وعند ذلك جمع السلطان قانصوه الأمراء ، للتشاور في أمر ابن عثمان ، وتعاهد الجميع أن يكونوا كلمة واحدة لا يخرجوا عن طاعة السلطان ظاهرا وباطنا ، وحلف لهم السلطان الغوري أيضا . (١)

ونادى السلطان الغوري للعساكر السلطانية بأن يكونوا على يقظة ، ولما علم بعزم السلطان سليم الهجوم على الاسكندرية ، توجه بنفسه لتفقد أحوال تلك المدينة ، وأمر بعد وصوله اليها ببناء سور على شاطئ البحر ، وأرسل البنائين

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٧١/٤ .

للعمل في ذلك السور، وانجازه قبل أن يطرقهم ابن عثمان على حين غفلة ، و—ع—  
السلطان الى القاهرة بعد تفقد السواحل المصرية الهامة التي أعلن ابن عثمان أنه  
سوف يهاجمها عن طريق البحر . (١)

ومضى ابن عثمان في عزمه على أخذ البلاد الشامية والمصرية ، وأعلن ذلك  
صراحة متحد يا الخلافة العباسية و السلطنة المملوكية ، فعند ما أرسل اليه نائب حلب  
قاصده في شوال سنة ٩٢١ هـ يطلب منه إعادة ما أخذه من بلاد علي د ولات التركمانسي  
كان ردّه : « ما أخذت هذه القلاع الآ بالسيف وما أرد هم الآ بالسيف » ، وأعلن أنه سيتوجه  
نحو مدينة حلب ، وأن نفسه تحدّثه بأخذ مصر ، فلما سمع قانصوه الغوري كلام ابن عثمان  
وما عزم عليه تنكّد و جمع كبار الأمراء للتشاور في أمر ابن عثمان ، فلما عقد المجلس  
قال لهم من جملة كلامه : ٠٠٠ وان ابن عثمان متحرك علينا ، ولا بدّ من خروج  
تجريدة عن قريب ٠٠٠ و ذكر لهم أن هذه الحملة العسكرية حاسمة ، فاما نصر أو موت ،  
وقال لهم : ما يبقى وراءكم التفاتة اذا سافرتم في هذه التجريـسـدة ، ونظرا  
لتهاون العساكر السلطانية، ولعدم احساسها بخطورة الموقف القادم مع ابن عثمان،  
فقد كان السلطان مع ذلك يأخذ بخواطرهم، ويحاول ارضاءهم بكل ممكن، حرصا منه على  
كسب ودّ أولئك الجنود المماليك . (٢)

و عمل الغوري على الاستفادة من القبائل التركمانية في أطراف الخلافة الشمالية  
التي وقعت تحت احتلال السلطان سليم العثماني ، وذلك من خلال مساعدته لزعيم تلك  
القبائل علي د ولات الذي لجأ وأعوانه وأقاربه الى الديار المصرية بعد هزيمة  
السلطان سليم لهم في شهر رمضان من سنة ٩٢١ هـ ، فقد أرسل السلطان الغوري الى

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٤/٤٧٣ - ٤٧٦ .

(٢) المصدر السابق : ٤/٤٨٣ ، ٧/٥ ، ١٣ .

أولئك التركمانيين مبلغ ثمانية آلاف دينار ليستعدوا بها على قتال ابن عثمان وقال لهم : " اخرجوا قبل خروج العساكر السلطانية ، فأجمعوا عساكرهم من التركمان الى أن أحضرنا والعسكر " . (١)

واستمرت معاناة السلطان الغوري مع العساكر السلطانية ، فقد نادى السلطان في الثاني من شهر صفر سنة ٩٢٢ هـ ، بعرض العساكر استعدادا للسفر الى البلاد الشامية ، وألا يتأخر عن ذلك العرض أحد من العسكر ، فلما سمعوا ذلك النداء السلطاني اضطربت أحوالهم . (٢)

ومن ذلك الموقف المتخاذل للعساكر السلطانية مع شدة حاجة الدولة لخدماتهم العسكرية يظهر عدم رغبة بعضهم في الجهاد أو قتال الأعداء ، فانهم ما ان يسمعون منادى السلطان ينادى بالاستعداد للسفر والخروج في حملة عسكرية ، الا وتضطرب حالهم رغبة في القعود بعد أن ركنوا الى الترف والدعة ، وانقطاعهم لفترة طويلة عن الخروج للجهاد في سبيل الله ، نتيجة لتوقف الأعمال الجهادية في أواخر عصور السلطنة المملوكية ، وكأن المتأخرين من السلاطين المماليك قنعوا بما تحقق من انتصارات سابقة على أعداء الاسلام والمسلمين من مغول و صليبيين على أيدي من سبقهم من السلاطين المماليك .

وحرصا من السلطان الغوري على حشد الطاقة العسكرية للسلطنة المملوكية للمشاركة في الدفاع عنها ، جلس بالميدان السلطاني وألزم كل أمير من الأمراء المماليك أن يبقى عنده ما يحتاجه فقط من ممتلكاته ، وما زاد عن ذلك يأخذه السلطان الغوري ليشارك معه في الدفاع عن البلاد الشامية ، فحمل السلطان على اعداد اضافية

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٤/٥ .

(٢) المصدر السابق : ١٥/٥ .

من ممالك هؤلاء الأمراء ، استعان بهم على تقوية جيش الخلافة والسلطنة  
ضد خصومهما .

ولأنه لا غنى للسلطان المملوكي عن كل من يقدر على حمل السلاح ويحسن استخدامه ،  
فقد نادى في ربيع الأول من سنة ٩٢٢ هـ على المماليك الذين قطع السلطان أعطياتهم  
بأن يطلعوا للميدان ، فالذى يصلح للسفر يكتبه السلطان ليسافر معه ويعيد اليه  
ما قطع عنه ، فلما عرضهم السلطان اختار عدد منهم ووزعهم على نيابات السلطنة  
المختلفة، ليتولوا المحافظة على الأمن في النواحي التي أرسلوا إليها أثناء غيبة الخليفة  
العباسي والسلطان الغوري عن الديار المصرية . (١)

**وقبل سفر الغوري الى البلاد الشامية جاءه قاصد نائب الشام الأمير سيباى**  
ومعه رسالة للسلطان يقول فيها : " يا مولانا السلطان ، أن البلاد الشامية  
مغلية (٢) ، والزرع في الأرض لم يُحصد ، ولا ثمَّ عد ومتحرك ، فلا يُتعب السلطان  
نفسه ولا يسافر ، وان كان ثمَّ عد ومتحرك فنحن كفاية " ، فلم يلتفت السلطان الى  
كلامه ، واستمر في استعداداته للسفر الى حلب (٣) ، ويظهر من ذلك اعتداد السلطان  
قائموه برأيه ، وعدم الرجوع عنه لما فيه مصلحة للدولة ، وعدم ثقته في الآخرين  
وان كانوا من رجال دولته المقربين اليه .

**ثم جاءت رسالة من نائب حلب الأمير خاير بك يطمئن فيها السلطان الغوري**  
ويخبره أنه مخدوع فيما لديه من أخبار عن استعدادات السلطان سليم العثماني ، لأن تلك  
الاستعدادات إنما قَصِدَ بها حرب اسماعيل الصفوي ، وقد كانت تلك الرسالة التي بعث

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٤/٥ .

(٢) يقصد بذلك غلاء الأسعار مع قلة الأقوات ، وذلك سيزيد في معاناة السلطان  
قائموه الغوري ومن معه وأهل الشام .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٦/٥ ، ٣٧ .

بها خاير بك محاولة منه لتخدير قانصوه النورى ، وثنيه عن الخروج الى البلاد الشامية لملاقاة ابن عثمان ، وستكشف الأحداث فيما بعد عن خيانة خاير بك هذا ، اذ أنه في الواقع كان متصلاً بالعثمانيين منذ وقت مبكر ، وقام بدور خطير في تسهيل مهمة العثمانيين في احتلال بلاد الشام ، ولكي يُحسن نائب حلب خاير بك أكله وبتة، أخذ يروى للسلطان النورى تاريخ العداوة والحرب بين العثمانيين والصفويين . (١)

ولكن السلطان النورى لم يأخذ بكلام الأمير خاير بك نائب حلب ، ولا بكلام نائب الشام الأمير سيباى ، ومضى في استعداداته للخروج الى البلاد الشامية ، لأن ذلك هو الأحوط له حفاظاً على سلطنته ، وخرج من القاهرة في منتصف شهر ربيع الثاني سنة ٩٢٢ هـ ، واصطحب معه الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله ، ومن المماليك السلطانية نحو خمسة آلاف ، ومن مماليك الأمراء نحو ألف . (٢)

وقبل تحرك السلطان من المعسكر الذى أقامه للعساكر السلطانية بظاهر القاهرة ، جاءت للسلطان قانصوه رسالة ثانية من نائب حلب خاير بك ، يذكر فيها أن السلطان سليم العثماني أرسل قاصده الى حلب ومعه كتاب لقانصوه ٠٠٠ فلما استلم السلطان الكتاب وقرأ ما فيه وجد عبارات حسنة ورقيقة ، منها قول ابن عثمان مخاطباً قانصوه : " أنت والدي ، وأسألك الدعاء ، وما زحفت على بلاد علي دولات الآبائك ، وانه كان باغياً عليّ ، وهو الذى أثار الفتنة القديمة بين والدي (بايزيد) والسلطان قايتباى ، حتى جرى بينهما ما جرى ، وكان قتله عين الصواب ، وأما سوار الذى ولي مكانه ٠٠٠ فان حسن ببالكم أن تبقيه على بلاد أبيه أو تولوا غيره ، فالأمر راجع اليكم في ذلك ، وأن البلاد التى أخذتها من علي دولات أعيدها لكم ، وجميع

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٨١ - ١٨٢ ، محمد الراقد :

الغزوالعثماني لمصر ١٤٨٠ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٢/٥ ، ٤٤ .

ما يريد ه السلطان فعلناه . . . " .

ثم أحضر السلطان قانصوه الأَمراءَ وأخبرهم بما جاء في الكتاب ، وانشرحت صد ورهم  
لذلك ، واستبشروا بأمر الحلح . . . ولكن كان هذا كله حيلة و خداعا من ابن عثمان  
للخليفة العباسي وللسلطان قانصوه ، حتى يبلغ بذلك مقاصده . (١)

**ومرة أخرى لم ينخدع السلطان قانصوه الغوري بتلك الحيلة ، فلم يمض على**  
تسلمه رسالة السلطان سليم العثماني يومان حتى خرج يقود العساكر السلطانية  
باتجاه البلاد الشامية . (٢)

**ولحق بالسلطان الغوري بعد خروجه من القاهرة أحد العثمانيين ، وهو ابن**  
أخي السلطان سليم ، ويدعى قاسم بن أحمد بن بايزيد ، وقد حاول السلطان قانصوه  
استغلال هذا الصبي في صراعه مع ابن عثمان من خلال استمالة العساكر العثمانية  
معه ضد عمه سليم ، فيأتون لمبايعة قاسم هذا اذا عَلِموا بأمره ، وأنه موجود لدى  
السلطان قانصوه الغوري ، غير أن تلك المحاولة لم يكتب لها النجاح ، ولم يظهر لذلك  
نتيجة ولا أفاد منه الغوري شيئا . (٣)

**ثم سار السلطان الغوري حتى وصل الى غزة فأقام بها خمسة أيام ، ثم رحل عنها**  
الى دمشق ، وبقي فيها تسعة أيام ، ثم رحل الى حمص ومنها الى حماة ، ثم وصل  
حلب في العاشر من شهر جمادى الآخرة من سنة ٩٢٢ هـ . (٤)

**وبعد وصوله الى حلب حاول السلطان سليم خداعه ، فأرسل قناده اليه ،**  
وهما أحد قناته وأمير من أمرائه ، فلما حضرا بين يديه شرع يعاتبهما في أفعال  
ابن عثمان ، وأخذ له لبلاد علي دولات التركماني ، فقالا للسلطان الغوري :

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٥/٥ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٨٢ ، عبد المنعم ماجسد :  
طومان باي ١٢٢ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٤٩/٥ .

(٤) المصدر السابق : ٥٣/٥ - ٥٤ : ٦٠ .

نحن فوّض اليّنا استاذنا الأمر وقال : مهما اختاره السلطان الغوري ، افعلوا به

ولا تشاوراني .

ثم يعقب ابن اياس بقوله : . . . وكل هذا حيل و خداع حتى يبطل همة السلطان الغوري عن القتال ويثني عزمه عن ذلك ، وظهر مصداق ذلك فيما بعد . . .

ومن جملة مخادعة ابن عثمان للسلطان الغوري أنه أرسل يطلب منه سُكراً و حَـلوى ، فأمر السلطان بارسال ما طلب ابن عثمان ، وأخرج أحد قصاد ابن عثمان للغوري وهو القاضي ركن الدين فتاوى العلماء في بلادهم بقتل شاه اسماعيل الصفوي ، وفي ضمن رسالة ابن عثمان للغوري طلب منه عدم الدخول بينه وبين الصفوي وقال : . . . فانسني ما أرجع عنه حتى أقطعه من على وجه الأرض ، فلا تدخل بيننا في شيء من أمر الصلح ، وأظهر أنه قاصد نحو اسماعيل الصفوي ليحاربه ، والأمر بخلاف ذلك ، وأرسل ابن عثمان هدية حافلة الى السلطان الغوري مع قاصد يه . (١)

ثم بادر السلطان الغوري بارسال الأمير مغلباي قاصدا الى ابن عثمان ليسعى في أمر الصلح بينهما ، ولم يطمئن الغوري لجانب السلطان سليم ، فأمر الأمراء المماليك بالاجتماع بميدان قلعة حلب ، فلما حضروا حلفهم جميعا ألا يخونوا ، ولا يغدروا به في ساعة الشدة ، مما يدل دلالة واضحة على أن الغوري توقع الشر من السلطان سليم العثماني . (٢)

ومما يؤكد ذلك الاحساس أنه جاءت الأخبار بقبض السلطان سليم على قاصد الغوري الأمير مغلباي ، وأنه قيده بالحديد ، وفي المقابل نجد الغوري يحسن السي

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٦٠/٥ - ٦١ .

(٢) المصدر السابق ٦١/٥ ، ابن زنبيل : آخرة المماليك ٥٠ ، سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٨٣ ، محمد الراقد : الغزو العثماني لمصر ١٦٠ .



قاصد ي ابن عثمان ويجزل لهم العطايا ، ويأذن لهما في العودة قبل أن يحضر قاصده من عند ابن عثمان ، ويظهر للغوري من أمر ابن عثمان ما يعتمد عليه .

**ولحرص السلطان الغوري على عقد الملح مع السلطان سليم ، ولعدم رغبته في القتال ، أرسل أحد أمرائه الى ابن عثمان وصحبه هدية حافلة بنحو عشرة آلاف دينار ، وقبل وصول ذلك القاصد وهو الأمير كرتباي الى معسكر ابن عثمان ، بلغه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح الذي عرضه عليه قاصد الغوري الأول الأمير مغلباي ، وأنه همّ بقتل ذلك القاصد المملوكي لولا شفاعته وزرائه فيه ، وزيادة على ذلك تقدمت العساكر العثمانية نحو بلاد الشام ، فأخذت عينتاب ومطية وغيرهما من الأماكن والقلاع ، فلما عاد كرتباي أخبر الخليفة العباسي والسلطان الغوري بتلك الحوادث فكانت سببا لاضطرابهما واضطراب العساكر قاطبة . (١)**

**وزاد من اضطراب السلطان والعساكر السلطانية رجوع القاصد المملوكي الأمير مغلباي من عند السلطان سليم ، واعلانه أن السلطان العثماني أبى من الصلح ، وأمره له أن يبلغ قاصده الغوري رسالة شفوية وهي : قل لأستاذك يلاقيني على مرج دابق (٢) . . . . ، وأخبر مغلباي بما قاساه من ابن عثمان مما لا خير فيه ، وعند ذلك أيقن الغوري بوقوع القتال مع ابن عثمان ، وأنه لم يعد هناك مجال للصلح بينهما ، خاصة بعد أن حدد المكان الذي اختاره للموقعة العسكرية القادمة ، وأمر الغوري بالنداء للعساكر السلطانية بالرحيل من حلب ، وأمر نوابه بالبلاد الشامية بالخروج مع عساكرهم الى مرج دابق . (٣)**

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٦٤/٥ .

(٢) بالفتح ثم السكون ، وهي الأرض الواسعة ، فيها نبت كثير ، تمرج فيها الدواب أي تذهب وتجي ، تبعد عن حلب أربعة فراسخ .

( الحموي : معجم البلدان ٤١٦/٢ ، ١٠٠/٥ ) .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ٦٨/٥ ، ٨٤ .

ثم في سنة ٩٧٢هـ كانت الموقعة الحاسمة ، فبعد توجه السلطان الغوري الى مرج دابق ، ففي صباح يوم الأحد خامس عشرين رجب دهمته العساكر العثمانية ، فأخذ يرتب عساكره وينظم صفوف جيشه بنفسه ، وقسم جيشه الى : القلب ، وفيه السلطان الغوري ، ويقف خلفه ضمن العساكر السلطانية قاسم بن أحمد بن بايزيد العثماني ، وميمنة ، ويقودها نائب الشام الأمير سيباي ومعه الخليفة العباسي المتوكل على الله محمد بن يعقوب ، وميسرة ، ويقودها نائب حلب الأمير خاير بك .

وقد بدأت المعركة لصالح السلطان الغوري ، حيث انكسرت العساكر العثمانية ، وهَمَّ ابن عثمان بالهروب ، أو طلب الأمان بعدما قُتل من عساكره خلق كثير، ولكن ذلك التفوق المملوكي لم يستمر نتيجة للتخاذل الذي دبَّ بين صفوف العساكر المملوكية ، فقد انتشرت مقولة على لسان السلطان يدعوا فيها مماليكه الجلبان الذين اشتراهم بماله الى عدم القتال وجعل المماليك الآخرين يتحملون وحدهم مسئولية القتال ، مما جعلهم يستاءون من السلطان الغوري السذي أراد أن يجعلهم وقودا لتلك المعركة ، ويحتفظ بمماليكه سالمين معافين ، وقد نتج عن ذلك الموقف السلطاني ، أو تلك الاشاعة التي راجت بين العساكر السلطانية توقف طوائف كبيرة منهم عن القتال ، وفرار طوائف أخرى ، يضاف الى ذلك مقتل نائب الشام الأمير سيباي ، فتراجعت الميمنة ، وانهزم من كان فيها ، ثم انهزام الميسرة وهروب قائدها الأمير خاير بك . (١)

وبعد تلك التطورات في ميدان القتال ، بقي السلطان الغوري وحده في الميدان مع طائفة قليلة من عساكره ، وأخذ يستنجد بمماليكه الذين أراد المحافظة على سلامتهم ، ويقول لهم هذا وقت المروءة ، قاتلوا وعلي رضاكم ، فلم يسمع له أحد ،

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٦٩/٥ - ٧٠ .

وصاروا ينسحبون من حوله شيئاً فشيئاً ، وصار ما يجد له معيناً ولا ناصرًا ، فلما اضطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ، أخذ أحد الأمراء الراية المملوكية قبل سقوطها فأخفاها وقال للغوري : ان عسكر ابن عثمان قد أدركنا ، فأنج بنفسك واهرب الى حلب ، فلما تحقق الغوري من ذلك تأثر وكانت نهايته بسقوطه عن فرسه ، فمكث قليلاً فخرجت روحه .

ولما انتشر خبر موت السلطان الغوري زحف عسكر ابن عثمان على بقية الأمراء المماليك فقتلوا جماعة منهم ، واستمرت تلك الموقعة من طلوع الشمس الى ما بعد الظهر ، وقتل فيها من عسكر الغوري وعسكر ابن عثمان ما لا يحصى عدده . (١)

وبعد تلك المعركة الحاسمة في تاريخ العلاقة بين الخلافة العباسية وسلطنة المماليك من جهة ، والدولة العثمانية من جهة ثانية ، رجع من بقي من الأمراء المماليك والعساكر السلطانية الى حلب ، وأرادوا دخولها ، فوثب عليهم أهلها وقاتلوا جماعة منهم ، وأخذوا سلاحهم وخيولهم ، وجرى عليهم منهم قريباً مما جرى لهم من عسكر ابن عثمان ، وكان ذلك بسبب حظ نفس و غضب من أهل حلب على العساكر السلطانية ، بسبب ما حصل منهم تجاه حلب وأهلها عند ما أرسلهم السلطان الغوري اليها لحمايتها أثناء القتال بين ابن عثمان و اسماعيل الصفوي ، فوقع من العساكر السلطانية بحق أهل حلب ما لا خير فيه ، وحصل منهم للناس غاية الضرر والفساد . (٢)

ثم تقدم السلطان سليم بعساكره ، وجلس في خيام السلطان الغوري ، واحتوى على ما فيها ، وتحول بعد ذلك عن مرج دابق ودخل حلب من غير معانع ، ثم توجه

(١) ابن اياس : بدائع الزهور : ٧١/٥ ، ٧٥ .

(٢) المصدر السابق : ٤٢٢/٤ ، ٧٣/٥ .

الى دمشق ونادى فيها للناس بالأمان والاطمئنان . (١)

**أما الديار المصرية** ، فقد تم اختيار الأمير طومان باى الناصرى ليلي السلطنة بعد وفاة السلطان الغورى ، فبويغ بالسلطنة في رابع عشر شهر رمضان سنة ٩٢٢ هـ وبدأ في الاستعداد لقتال السلطان سليم العثماني ، فنادى للعسكر الذى كان مقيما بمصر ولم يخرج صحبة قانصوه الغورى ، يطلب منهم الاستعداد لقتال العساكر العثمانية قبل دخولها الديار المصرية . (٢)

ومع نهاية شهر رمضان جاءت الأخبار بعزم السلطان سليم التقدم نحو الديار المصرية بعد تملكه دمشق ، فاضطربت الأحوال بالقاهرة ، وصارت الناس في خوف بسبب ذلك الخبر وقالوا : لم يبق بعد أخذ الشام إلا مصر ، وعزم بعضهم على الهروب الى جهة الصعيد ، وتكّسد السلطان طومان باى والأمراء والناس قاطبة ، ولا سيما كانت تلك الليلة هي ليلة عيد الفطر ، والناس ما زال جرحهم طرى بسبب موت السلطان قانصوه الغورى ، وهزيمة العساكر السلطانية في موقعة مرج دابق .

**واهتم السلطان طومان باى بالنواحي الأمنية** عندما بلغه أن جماعة من التجار في القاهرة يكاتبون ابن عثمان بما يقع بالديار المصرية ، فأمر بالقبض عليهم وسجنهم ، ولما بلغه أن جماعة يقصدون قتل قاسم بن أحمد بن بايزيد العثماني ، خاف عليه وأمره بالسكن في القلعة السلطانية هو ومن معه من العثمانيين الذين لجأوا الى الديار المصرية هربا من السلطان سليم العثماني ، ورتب طومان باى لقاسم ما يكفيه في كل يوم هو وجماعته . (٣)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٧٤/٥ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق : ١٠٧/٥ - ١٠٨ .

(٣) المصدر السابق : ١١١/٥ ، ١١٦ .

ولما بدأ السلطان سليم تحركاته باتجاه فلسطين ، أرسل نائب غزة يقول  
 للسلطان طوماى باى : أدركونا بالعسكر قبل أن يملك ابن عثمان مدينة غزة ، فَتَعَجَزُوا  
 فِي خَلَاصِ الْبِلَادِ مِنْ يَدَيْهِ ، وَلَكِنْ تَأَخَّرَ الْمُسَاعَدَةُ الْعَسْكَرِيَّةُ الَّتِي طَلَبَهَا نَائِبُ غَزَّةِ  
 سَاعِدٍ عَلَى سَقُوطِهَا فِي أَيْدِي الْعُثْمَانِيِّينَ ، خَاصَّةً وَأَنْ بَعْضَ الْمَمَالِيكِ مِنْ دَاخِلِ تِلْكَ  
 الْمَدِينَةِ كَانُوا يُكَاتِبُونَ السُّلْطَانَ سَلِيمَ ، وَيُطَمَعُونَهُ فِي أَخْذِهَا لِعَدَمِ وَجُودِ قُوَّاتٍ كَافِيَّةٍ  
 تَدَافِعُ عَنْهَا . (١)

وبعد سقوط غزة وردت الأخبار بأن ابن عثمان خُطِبَ له على منابر العراق  
 والشام ، وأنه شرع في بناء سور وأبراج حول دمشق ، ليحول بينها وبين محاولة المماليك  
 استعادتها منه، وأعلن السلطان سليم العثماني مراحة أنه لن يرجع الى بلاده حتى  
 يملك مصر . (٢)

ثم في ثامن عشر ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ توجه السلطان سليم بعساكره قاصدا  
 الديار المصرية ، وعمد الى تقسيم جيشه الى فرقتين ، احدهما تجيء الى الديار المصرية  
 عبر الطريق المعروف بالدرب السلطاني ، والثانية تتوجه الى مصر من طريق آخر بعيدا  
 عن الانظار .

فلما بلغ ذلك الخبر السلطان طومان باى أرسل خلف الأمراء المماليك للتشاور  
 فيما ينبغي فعله ، واتفق الرأي على الخروج لملاقاة ابن عثمان قبل دخوله القاهرة ،  
 وأمر السلطان طومان باى الأمراء أن يستعدوا للخروج بسرعة ، وأن يكونوا على يقظة  
 من أمرهم . (٣)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١١٨/٥ - ١٢٠ ، ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٤/٥ .

(٣) المصدر السابق : ١٣٦/٥ .

ومع اجتهاد السلطان طومان باي ، وحماسه في الاستعداد لصعد ابن عثمان  
عن الديار المصرية ، وحثه للأمرء على سرعة التجهز والاستعداد للسفر ، إلا أن  
العساكر السلطانية عادت للتخاذل مرة ثانية في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها  
الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية بحجة عدم أخذهم النفقة اللازمة للسفر ، فلما  
أعطاهم السلطان ما يستطيعه من نفقة في ظل تلك الظروف ، لم يقبلوا بما أعطاهم ،  
وتركوا السلطان وحده في ميدان العرض بالقلعة السلطانية ، وأعلنوا أنهم لن يخرجوا معه  
حتى يعطي كل واحد منهم مائة دينار . (١)

أما كبار الأمرء المماليك فعمد بعضهم للاعتذار عن السفر مع السلطان ، مما  
أوقع الخلاف بين السلطان وكبار أمرائه ، فأثرت تلك الخلافات على معنويات بقيّة  
العساكر السلطانية . (٢)

وفي ظل ذلك التخاذل من كبار الأمرء المماليك، والمساومة على القتال مسن  
العساكر السلطانية ، كان ردّ السلطان طومان باي عليهم بقوله : " ٠٠٠ اخرجوا قاتلوا  
عن أنفسكم وأولادكم ونسائكم ، فان بيت المال لم يبق فيه لا دينار ولا درهم ، وأنا واحد  
منكم ، ان خرجتم خرجت معكم ، وان قعدتم قعدت معكم " . (٣)

واستغل السلطان سليم العثماني الناحية النفسية في حربه للسلطان طومان باي  
آخر السلاطين المماليك ، وذلك من خلال ارسال قاصده بالهدايا من جهة ، ومن جهة  
ثانية يكثر من نشر أعوانه داخل الديار المصرية، ليبثوا الشائعات المغرضة الموهنة  
لمغوف المماليك ، ولينقلوا اليه أخبار الاستعدادات المملوكية وأحوال الديار المصرية،  
فقد حضر قاصده الى طومان باي في سابع عشر شهر ذي القعدة من سنة ٩٢٢ هـ ، فأمر

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١١٦/٥ ، ١١٨ - ١١٩ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٠/٥ - ١٢١ .

(٣) المصدر السابق : ١٢١/٥ - ١٢٢ .

السلطان بسجنه ، ثم أمر بالقبض على رجل يدعى عبد البر بن محاسن ، الذي شرع في الحديث بإطْنا ب عن القوة العسكرية للسلطان سليم وأمر بسجنه ، ثم أمر بالقبض على العربسان الذين أتوا بالقاصد العثماني الى القاهرة من طُرق خفية دون أن يشعر بهم أحد حتى دخلوا به مدينة القاهرة .

**وحفاظا** على الناحية الأمنية داخل القاهرة ، ولقطع الطريق على الذين يحاولون جمع معلومات عن أوضاع الخلافة من أعوان ابن عثمان ، أمر السلطان بالنداء في القاهرة بعدم ايواء أي غريب ، وان من أوى عنده غريبا من جماعة ابن عثمان شنق من غير معاودة ، وقد دفع السلطان لذلك النداء بسبب انتشار أخبار عن قدوم أربعين من أتباع السلطان سليم مع قاصده الى السلطان طومان باي ، وأنهم اختفوا في القاهرة .

**ولما وقف** السلطان طومان باي على المكاتبات التي حملها قاصد ابن عثمان وجد فيها الترغيب في الدخول في طاعته ، والترهيب من مخالفته ، وتوعد السلطان طومان باي وعساكره بأنواع الأذى في حال مخالفته ، وعدم الأذعان لما طلبه منهم بعد أن تولى السلطنة بموت السلطان الغوري ومبايعة الخليفة العباسي والقضاة الأربعة له بذلك لأنهم ما زالوا في الأسر عنده .

**ثم أتبع** ذلك نائب حلب خاير بك الذي دخل تحت طاعة ابن عثمان ، وقام بدوره في خداع الأمراء المماليك ، فأرسل الى أعيانهم كتباً يرغبهم في الدخول تحت طاعة ابن عثمان ، وأنه اذا دخل الديار المصرية سوف يبقي كل أحد ممن دخل في طاعته على وظيفته ورزقه ، وقد أثرت تلك الرسائل فيمن استلمها ، فأضعفت ولائهم للخلافة العباسية ولسلطنة المماليك ، حيث جاءهم خاير بك من جانب الجاه والهنصب والحظوظ الدنيوية التي مال اليها كبار الأمراء المماليك . (١)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٢٤/٥ - ١٢٥ ، ١٤١ .

وبعد معاناة طويلة في الاستعدادات العسكرية خرج السلطان طومان باي بالعساكر السلطانية الى المعسكر الذي أقامه خارج القاهرة ، حيث لم يلبث أن وصلت الأخبار باقتراب السلطان سليم العثماني ، فلما تحقق طومان باي من ذلك أراد السير للقاءه قبل وصوله اليهم ، ولكن الأمراء المماليك لم يُمكنوه من ذلك ، وفي ذلك يقول ابن اياس : " ٠٠٠ ولولا قاهم لكان عين الصواب ، فان غالب العسكر العثماني مشاة على أقدامهم ، من حين خرجوا من الشام وهم في غاية التعب ، فربما كسرهم السلطان طومان باي قبل أن يجدوا المأكل والمشرب والراحة من التعب " . (١)

**وأمر السلطان طومان باي العساكر أن يباتوا على ظهور الخيل وهم لابسون آلة الحرب ، ولا ينامون إلا بالنوبة ، خوفا من هجمة تحت الليل من العساكر العثمانية ، فلما أصبح يوم الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ ، أخذ السلطان طومان باي في تنظيم العساكر التي اجتمعت في ذلك الموضع ، وكانت نحو عشرين ألفا ، وكانت له همة عالية في ذلك الاستعداد خشية من أن يكون قتال في ذلك اليوم . (٢)**

فلما كان اليوم التالي كانت الوقعة المهولة ، والكائنة العظيمة التي تذهل عند سماعها العقول ، حيث تقدم الجيشان ، ووقعت بينهما مقتلة ، فقد أحاطت العساكر العثمانية بالعسكر المصري ، فلم تكن إلا ساعة يسيرة حتى انهزمت العساكر المصرية ، وثبت السلطان طومان باي يقاتل ومعه نفر قليل من المماليك ، فلما تكاثرت عليه العساكر العثمانية ، وخاف على نفسه من الوقوع في أسر ابن عثمان ، انسحب من ميدان القتال .

ومرة أخرى تساعد العساكر السلطانية على هزيمة السلطان المملوكي بهروبها من ميدان المعركة ، وعدم ثباتهم مع السلطان طومان باي ، واكمال القتال بسبب تخاذلهم

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٤٢/٥ .

(٢) المصدر السابق : ١٤٢/٥ ، ١٤٤ .



عن أداء واجبهـم في مثل هذه الظروف العميـبة التي تمرّ بها الخلافة العباسيـة  
والسلطنة المملوكية في مصر .

وبعد انهزام العساكر السلطانية ، واختفاء السلطان طومان باي ، توجهت  
طوائف من العساكر العثمانية الى القاهرة فملكوها بالسيف ، ونشروا الرعب بين الناس  
في ذلك اليوم ، فكانوا ينهبون ما يلوح لهم ، وعمدوا الى السجن فأخرجوا من كان فيها  
من الأسرى العثمانيين وغيرهم ، وتوجهوا لبيوت كبار الأمراء المماليك فأخذوا ما فيها  
من الحواصل ، قال الشيخ الزيتوني يبيّن حال القاهرة في ذلك اليوم :

نَبِكِي عَلَى مِصْرَ وَسَكَانَهَا      قَدْ خَرِبْتَ أَرْكَانَهَا الْعَامِرَةَ  
وَأَصْبَحْتَ بِالذَّلِّ مَقْهُورَةً      مِنْ بَعْدِ مَا كَانَتْ هِيَ الْقَاهِرَةَ (١)

وفي اليوم الثلاثين من شهر ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ نودي بالأمان والاطمئنان بالقاهرة ،  
الآن بعض العساكر العثمانية لم تمتثل لذلك الأمر السلطاني ، فصاروا يعتدون على أموال  
الناس وبيوتهم بحجة البحث عن المماليك الجراكسة ،

ومع مطلع سنة ٩٢٣ هـ حُطِبَ باسم السلطان سليم على منابر الديار المصريـة  
فكان الخطباء يدعون له في خطبهم بقولهم : " وانصر اللهم السلطان ابن السلطان  
مالك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين  
الملك المظفر سليم شاه . . . " .

ومما قاله ابن اياس في ختام حديثه عن هذه السنة ( ٩٢٢ هـ ) :

خُتِمَ الْعَامَ بِحَسْرَةٍ وَكُدْرٍ      وَحَمَلٌ لِلنَّاسِ غَايِبَةُ الْغُرْرِ  
وَأَتَاهُمْ حَادِثٌ مِنْ رَبِّهِمْ      فَكَانَ هَذَا بِقَضَاءٍ وَقُدْرٍ (٢)

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٤٦/٥ - ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق : ١٤٨/٥ .

وفي ثالث المحرم سنة ٩٢٣ هـ دخل السلطان سليم الى القاهرة وأمامه الخليفة

العباسي محمد المتوكل على الله ، والقضاة الذين وقعوا في الأسر عقب هزيمة السلطان

قانسوه الغورى في مرج دابق . (١)

أما السلطان طومان باى آخر السلاطين المماليك ، فقد أخذ يجمع العساكر السلطانية

في محاولة منه لقتال السلطان سليم العثماني ، واستعادة السلطنة ثانية ، فهجم بمن معه

في رابع المحرم من هذه السنة بعد صلاة العشاء على السلطان سليم ، فاضطربت أحواله السي

الغاية ، وظن أنه مأخوذ لا محالة ، ووقع السيف في جنوده تحت جناح الليل ، واستمر

القتال حتى طلوع الفجر ، ومع ذلك التفوق الذي تحقق للعساكر السلطانية على العساكر

العثمانية ، فانهم أخذوا يختفون مع طلوع النهار خوفا من بطش العثمانية ، فأفشلوا محاولة

طومان باى لاستعادة السلطنة ، وعن ذلك يقول ابن اياس : " ٠٠٠ وصاروا يختفون خوفا

من القتال ، ودخل الرعب في قلوبهم من العساكر العثمانية ، وما بقي يخرج منها ٠٠٠ " . (٢)

ونتج عن تلك المحاولة أن حُطِبَ للسلطان طومان باى على منابر القاهرة ،

واستمر في قتاله لابن عثمان حتى تفرق من حوله من العساكر السلطانية ، واختفوا في

بيوتهم ، فبقي بمفرده في نفر قليل من المماليك ، فلما رأى عَيْن الغلب ، خرج من

القاهرة صبيحة يوم السبت ثامن محرم سنة ٩٢٣ هـ ، فاستغل بعض عساكر ابن عثمان ذلك

الموقف ، فأعملوا السيف بحجة البحث عن العساكر السلطانية . (٣)

وحاول السلطان سليم التحايل على السلطان طومان باى ، فأرسل اليه رسالة

يعرض عليه فيها أن يكون نائبا له على الديار المصرية مقابل الأمان وتسليم نفسه ، وذلك

في محاولة من السلطان سليم لافشال جهود طومان باى في العودة الى السلطنة ، ومحاولته

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٤٩/٥ .

(٢) المصدر السابق ١٥٤/٥ .

(٣) المصدر السابق : ١٦٠/٥ - ١٦٤ .

جمع كلمة الخليفة العباسي المتوكل على الله والأمراء المماليك وأعيان الناس لقتال ابن عثمان ، واستخلاص البلاد من يده ، وكان ردّ طومان باي على ذلك العرض العثماني بقوله للسلطان سليم : " ٠٠٠ ان كنت تريد أن أجعل الخطبة والسكة باسمك ، وأكون نائبا عنك بمصر ، وأحمل لك من خراج مصر حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا في كل سنة ، فأرحل عن مصر أنت وعسرك ، ومن دماء المسلمين بيننا ٠٠٠ " . (١)

**فلما وقف السلطان سليم على ردّ طومان باي ، أرسل خلف أمير المؤمنين الخليفة العباسي المتوكل على الله ، والقضاة الأربعة ، ليسعوا في الصلح بين الجانبين ، ولكن تلك المحاولة لم تنجح ، بسبب هجوم العربان على الوفد الذي سعى للمصالحة ، فنجح ممثل الخليفة العباسي من القتل ، وقتل قاصد ابن عثمان ومن معه من العثمانية ، فلما بلغ السلطان سليم خبر تلك الحادثة ، أمر بقتل جماعة من كبار الأمراء الذين بسجس القلعة ممن أسرهم في قتاله للسلطان الغوري وطومان باي ، فزادت بذلك الهوة بينهما ، وانتقض أمر ذلك الصلح .**

**وعاد طومان باي في سادس ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ لقتال السلطان سليم ، وحصلت بينهما موقعة كانت الجولة الأولى فيها لصالح السلطان طومان باي ، ثم عادت العساكر العثمانية فهزمته ومن معه من المماليك في الجولة الثانية . (٢)**

**وبهزيمة طومان باي تلك انتهت محاولاته لاستعادة السلطنة بالديار المصرية ، فقد اختفى عند حسن بن مرعي شيخ العربان بالبحيرة ، ولجأ اليه يطلب حمايته ، غير أن الأمير حسن غدر به ، فبعد أن حلف له أنه لا يخونه ولا يغدر به ، أرسل الي السلطان سليم يخبره بوجود طومان باي لديه ، فأرسل السلطان العثماني عساكره فقبضوا على**

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٦٢/٥ - ١٦٨ ، ١٧٠ .

(٢) المصدر السابق : ١٧١/٥ - ١٧٦ .

طومان باي ، و حملوه الى القاهرة ، حيث لم يلبث أن أمر السلطان سليم بقتله . (١)

وبذلك استتب الوضع بالديار المصرية لصالح السلطان سليم العثماني بعد القضاء على مخالفه ، وأعلن عزمه على العودة الى بلاده ، و طلب من الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله ، الاستعداد للسفر معه ، وأمر أعيان الديار المصرية بالسفر أيضا ، وذلك في شهر شعبان من سنة ٩٢٣ هـ (٢) ، و برحيل الخليفة العباسي من القاهرة انتهت بذلك فترة الخلافة العباسية بالديار المصرية ، وخضعت تلك البلاد مع غيرها من أنحاء العالم الاسلامي لسيادة الدولة العثمانية . (٣)

و بعد استعراض العلاقات الخارجية للخلافة العباسية بالديار المصرية مع الدول والامارات الاسلامية التي عاصرت فترة الخلافة ، نجد تفاوت تلك العلاقات من مكان لآخر ، فكانت تلك العلاقات تتحسن فترة من الزمن ، ثم تعود للتوتر في زمن آخر .

وبينما نجد مظاهر احترام وتقدير الخليفة العباسي من بعض ممالك الاسلام كالهند ، وبلاد المغرب ، نجد العداوة من بعض القوى التي سعت لمنازعة الخليفة العباسي بالديار المصرية مثل دولة بني رسول ، والدولة الصفوية بايران ، خاصة عندما حاول السلطان الرسولي بسط نفوذه على بلاد الحجاز والأماكن المقدسة بمكة والمدينة .

- 
- (١) ابن اياس : بدائع الزهور ١٧٦/٥ ، ابن زنبيل : آخرة المماليك ١٤٢ - ١٤٣ .
- (٢) ابن اياس : بدائع الزهور ٢٢٩ / ٥ ، ٢٣٢ ، الجزيري : الدرر الفرائد ٧٩٩ / ٢ .
- (٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٩٠ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ٩٦ ، ١٩٤ .

وتوثقت العلاقات بين الخلافة العباسية والدولة العثمانية في بدايتها ،  
ثم بدأت تعصف بها الخلافات التي وقعت بين بعض السلاطين المماليك الذين تولوا  
تصريف أمور الخلافة العباسية وتدبير شئونها بتفويض من الخليفة العباسي ، وبعض  
سلاطين بني عثمان من حين لآخر ، حتى كانت الفترة التي تولى فيها قانصوه  
الغوري السلطنة بالديار المصرية والبلاد الشامية ، حيث اشتد الخلاف بين الطرفين .  
وكانت النهاية بتوجه السلطان سليم الى أراضي الخلافة ، والقضاء على نفوذ  
السلطنة المملوكية بالبلاد الشامية والديار المصرية ، وضمه لتلك الأراضي مع غيرها  
من البلاد الاسلامية لنفوذ وسلطانه الذي أخذ في الاتساع والتعاظم شيئاً فشيئاً على  
حساب غيره من الدول والامارات الاسلامية .

ويمكن ارجاع أسباب ذلك الخلاف بين السلاطين المماليك والعثمانيين الى  
تدخل كل طرف منهما في الشئون الداخلية للآخر ، فمن ذلك مناصرة السلطان العثماني  
لعصيان قبائل ذي القادر للخلافة العباسية وسلطانها ، ومن ذلك أيضاً محاولة بعض  
السلاطين المماليك تأييد بعض المخالفين من أفراد البيت العثماني ضد السلطان في تلك  
البلاد ، وفي المقابل سعى السلطان العثماني لمحاولة استجذاب كبار الأمراء المماليك  
الهاربين من القاهرة ، فكانوا عوناً له ضد الخلافة والسلطان المملوكي وساعدوه في طريقه  
نحو البلاد الشامية ، ثم الديار المصرية التي وقعت بأيدي الجيوش العثمانية التي قادها  
السلطان سليم العثماني ، فكانت حالات اللجوء السياسي بين أفراد الجانبين من الأسباب  
التي زادت من حدة العداوة بينهما . (١)

(١) أحمد دحلان : الفتوحات الاسلامية ١٤٤ - ١٤٥ ، عبد المنعم ماجد : طومان بساي ١٧٨ .

وللزيادة : محمد الراقد : الغزو العثماني لمصر ١٨٢ ، الحميني : منتخبات التواريخ

لدمشق ٢٣٦/١ - ٢٣٧ ، عمر رضا كحالة : العالم الاسلامي ١١٨ ، حكيم أمين : قيام

دولة المماليك ١٤٨ ، أحمد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر ٤٠ ، ٧٥

وقد تنبه خلفاء بني العباس بالديار المصرية الى خطورة تلك المواجهة بسين  
 المماليك والعثمانيين ، وسعوا في الصلح بين تلك القوتين العظيمنتين ، حيث انهما  
 بمثابة الجناحين لدولة الاسلام ، وفي اتفاقهما واتحادهما قوة للاسلام وعز للمسلمين ، ولكن  
 تلك المحاولات وان نجحت في اخماد الفتنة في بعض الأحيان ، إلا أنها عجزت في المرحلة  
 الأخيرة في تحقيق المصالحة والوفاق مع ادراك الخليفة العباسي المتوكل على الله محمد بن  
 يعقوب بن عبد العزيز ، لخطورة ذلك الصراع والنتائج الوخيمة المترتبة على استمراره ،  
 وفي مقدمتها ضعف دولة الاسلام وتفرقها ، ثم سقوط الخلافة العباسية وضياع هيبتها تبعاً  
 لذلك ، ونتيجة لذلك النزاع بين السلاطين المماليك والسلاطين العثمانيين .

---

== ابراهيم العدوي : تاريخ العالم الاسلامي ٢٦١ - ٢٦٢ ، مصر والشرق العربي ١٧٦ ،  
 محمود الشرقاوي : مصر في القرن الثامن عشر ٨ ، ١٠ ، عبد العزيز نوار : تاريخ  
 الشعوب الاسلامية ٨٨ ، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ،  
 محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ١٤٢ ، ١٤٥ ، عبد المنعم  
 الدسوقي : تاريخ مصر الحديث ٢٠ ، عبد الرحمن عبد التواب : قايتباي المحمودي  
 ١٧١ ، أورخان علي : السلطان عبد الحميد الثاني ٢١ ، علي حسون : تاريخ  
 الدولة العثمانية ٥٠ ، أحمد عبد الغني : أوضح الاشارات ٧٤٣ ، علي حسن : مصر  
 في العصور الوسطى ٢٨٧ ، سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٩١ ،  
 فوزي جرجس : دراسات في تاريخ مصر السياسي ١٠ ، محمود ثابت : المسألة  
 الشرقية ٤٨ ، طارق الحمداني : علاقات المماليك السياسية ، المجلة العربية  
 للعلوم الانسانية ، العدد ١٧ ، سنة ١٩٨٥ م ، ص ١٥٥ . المصفاي المرسي : الدولة  
 العثمانية والولايات العربية ، مجلة الدارة ، العدد ٤ ، سنة ١٤٠٣ هـ ، ص ٧٤ .  
 محمد الأنصاري : قراءة جديدة في تاريخ الجبرتي ، المجلة العربية للعلوم الانسانية  
 العدد ٣١ ، سنة ١٩٨٨ م ، ص ١٣ ، عاطف فؤاد : المؤرخ المصري عبد الرحمن  
 الجبرتي ، مجلة العلوم الاجتماعية ، جامعة الكويت ، العدد ١ ، سنة ١٩٧٩ م ، ص ٦٤  
 عبد الرحيم عبد الرحمن : دراسة قانون نامة ، المجلة التاريخية للدراسات العثمانية  
 العدد ١ ، سنة ١٩٩٠ م ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ ، عفاف السيد : تاريخ مختصر لمصر  
 الحديثة ، العدد ٤ ، مجلد ١٩ ، سنة ١٩٨٩ م ، ص ٢٥٨ .

**الذماتمة**

**وفيها**

**اهم نتائج البحث**

### بسم الله الرحمن الرحيم

بعد أن منّ الله تعالى عليّ - بفضلته وتوفيقه - الانتهاء من اعداد هذا البحث الذي تناولت فيه ( تاريخ الخلافة العباسية في عصر المماليك في الفترة الزمنية من ٦٥٩ هـ الى ٩٢٢ هـ ) ، هذه خاتمة البحث ، وأهم النتائج التي ظهرت من خلال هذه الدراسة .

- اجتمعت عدة عوامل داخلية وخارجية أدت مجتمعة الى سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ على أيدي المغول ، بعد أن عجزت الخلافة في صدهم عن ديار الاسلام منذ بداية ظهور أطماعهم في البلاد الاسلامية مع مطلع القرن السابع الهجري ، وذلك في ظل ضعف الخليفة العباسي ، وعدم اهتمامه بمد أولئك الأعداء عن بلاد الاسلام ، واستبدال بعض القيادات بالخلافة في بغداد .

- بعد سقوط الخلافة في بغداد أضحى العالم الاسلامي بدون خليفة يتولى قيادة الأمة الاسلامية ، وهذا وضع غير طبيعي بالنسبة لتاريخ هذه الأمة المسلمة ، فبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانتقاله الى الرفيق الأعلى ، التفت الأمة حول أبي بكر الصديق رضي الله عنه خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين ، وهكذا لما تمت مدة الخلافة الراشدة تولى الخلافة من بعدهم بنو أمية ، ثم بنو العباس ، وعليه فان شغور منصب الخلافة بعد سقوط بغداد ، لم يدم وقتاً طويلاً ، حيث تم الاعلان عن قيام الخلافة العباسية ثانية في الديار المصرية بعد أن لجأ أفراد من البيت العباسي اليها هرباً من بطش الجيوش المغولية التي قادها هولاء كوخان .

- تمت مبايعة أول الخلفاء العباسيين في مصر المستنصر بالله أحمد في سنة ٦٥٩ هـ على يد السلطان الظاهر بيبرس ، الذي أدرك خطورة الموقف الذي تمر به



الأمة الإسلامية من جرّاء أطماع المغول في الشام ومصر بعد سقوط بغداد في أيديهم ، وبمبايعة الظاهر بيبرس للمستنصر بالله استطاع جمع أكبر عدد من المسلمين حول الخليفة والخلافة العباسية في مصر ، فعادت بذلك في الأمة روح التضحية والحماس للجهاد في سبيل الله ، فتم بحمد الله صدّ المغول عن الشام ومصر ، ثم طرد الملبين بعد أن اجتمعت كلمة المسلمين واتحدت صفوفهم في مواجهة عدوهم ، فساعد إعلان الخلافة ومبايعة الخليفة المستنصر بالله على زيادة الروح المعنوية في نفوس الأمة المسلمة ، ودفعها الى بذل المزيد من ضروب التضحية والفداء ، تلبية لنداء الجهاد وحماية للدين الحنيف والأعراض المسلمة من أن يصيبها مثل ما أصاب بغداد سنة ٦٥٦ هـ .

- لمنصب الخلافة مكانة عظيمة في الاسلام ، يظهر هذا جليا من خلال حرص الأمة الإسلامية على وجود الخليفة الذي يتولى تدبير أمورهم ، ونجد أنه ما ان شغرت منصب الخلافة في بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، الا وبادر أمراء المماليك بنصب الخليفة ثانية بمصر ومبايعته والدخول في طاعته ، ثم تبعهم أفراد الأمة باعلان السمع والطاعة للخليفة العباسي بمركز الخلافة الجديد بالقاهرة ، وكان وجود الخليفة العباسي وبقائه في منصبه من علامات وحدة الدولة وقوتها ، حيث اهتم السلطان بالخليفة ، والتفت الرعية من حوله .

- حرص السلاطين المماليك بعد احياء الخلافة العباسية ثانية في الديار المصرية على استمرار ذلك المنصب ، والظهور أمام الرعية بمظهر الاحترام والتقدير لذلك المنصب ، ولمن شغله ، لأن بقاء الخليفة في منصبه مما يزيد في حظوظ السلطان للبقاء في السلطنة والملك أطول مدة ممكنة ، لأنه لا يمكن مبايعة السلطان بالسلطنة الا بوجود الخليفة العباسي ، والعكس ، فلا يتم الأمر لأحد هما الا بوجود الآخر مما أوجد ازدواجية بين منصب الخليفة ومنصب السلطان في بداية الخلافة في مصر ،

ثم تفرّد السلطان بأمر الخلافة والسلطنة بعد ذلك ، وقد جاء ذلك التفرد بالادارة بناء على تفويض من الخليفة العباسي الذي يُنظر اليه على أنه صاحب السلطنة الشرعية .

- تعاقب الخلفاء العباسيون في تولي الخلافة بالديار المصرية ، غير أنهم لم يكن لهم دور نشط ، وأثر فعال مؤثر على مجريات الأحداث المتعلقة بالخلافة والدولة الآ في نطاق ضيق محدود ، وبما يسمح به السلطان المملوكي الذي أصبح هو القائد الفعلي للدولة ، ولم يبق للخليفة من الخلافة إلا الاسم بعد أن فوّض للسلطان المملوكي حق ادارة أمور الخلافة ، وهذا التفويض مشابه لما وقع للخلافة في بغداد في بعض الفترات عند ما استبد البويهيون والسلاجقة بالسلطة والأمر والنهي من دون الخليفة العباسي في بغداد .

- أظهر أغلب السلاطين المماليك المودة للخليفة وكسب رضاه، وتعاهد به بالزيارة، واستقباله بالقصر السلطاني عند طلوعه للسلام على السلطان المملوكي ، ووقعت لبعض الخلفاء مضايقات وحجّر من السلاطين المماليك ، اما بسبب الخوف من ازدياد نفوذ الخليفة العباسي بين رجال الدولة والأعيان والرعية ، مما يهدد منصب السلطان وملكه ، أو بسبب سعاية مغرضة من طامع في الخلافة من بني العباس ، أو طامع في السلطنة من الأمراء المماليك .

- ظهر جليا الأثر السيء لأسلوب التفويض الذي اتبعه الخلفاء مع السلاطين المماليك ، حيث جعل ذلك الأسلوب الخليفة العباسي بالديار المصرية يعيش في عزلة عن رعيته لا يملك حق التصرف في دولته ، وبينما تنازل الخليفة عن حقه لادارة أمور الخلافة ، نجد السلطان المملوكي يتمسك بحقوقه في السلطنة ويقضي على كل من يحاول سلبه ذلك الحق الذي ناله بفضل من الله عز وجل ، ثم بفضل وجود الخليفة بمصر .

- تساوى بعض الخلفاء العباسيين في الديار المصرية مع أسلافهم في بغداد ، وذلك في ظل سياسة التسلط والاستبداد التي ظهرت من بعض السلاطين المماليك ، فعانى خلفاء الديار المصرية في ظل الحجر والتضييق عليهم قريبا من معاناة خلفاء بغداد في ظل استبداد القادة الأتراك ثم الأمراء البويهيين ، ثم السلاجقة ، غير أنها لم تصل الى حد القتل أو سمل العيون ، كما حصل لأسلافهم في بغداد ، وغاية الأمر هو خلع الخليفة من منصبه أو نفيه دون التعرض له بالاهانة أو الضرب أو لأمواله بالسلب .

- تساوى الخلفاء العباسيين بالديار المصرية مع كثير من السلاطين المماليك الذين تولوا منصب السلطنة ، خاصة الذين تولوها وهم صغار السن بناء على رغبة من أبائهم ، فكما أنه لم يكن للخليفة العباسي من الخلافة إلا الاسم ، فكذلك السلطان المملوكي صغير السن لم يكن له من السلطنة إلا الاسم فقط، بعد أن استبد بالأمر من دونه الوصي عليه من كبار الأمراء المماليك الذي اختاره أحد السلاطين المماليك ليتولى حماية ابنه، وليضمن بواسطته بقاء ابنه في منصب السلطنة من بعده أطول فترة ممكنة ، ولكن ذلك الأمل لم يتحقق ، حيث كان الوصي على السلطان أول الطامعين في منصب السلطنة .

- حظي الخليفة العباسي بالديار المصرية في أغلب فترة الخلافة بالتقدير والاحترام والجلال والاحترام ، وبينما تهاوى الكثير من السلاطين المماليك من مناصبهم ونفوذهم بقي الخليفة العباسي مبعلا موقرا في منصب الخلافة ، وكان الخليفة بعيدا عن تلك الصراعات التي ظهرت في أحيان كثيرة بين القوى المملوكية المتصارعة فيما بينها ، والمتنافسة على مناصب النفوذ في السلطنة ، ويشهد لهذا طول الفترات التي مكثها الخلفاء في منصب الخلافة ، ومن الأمثلة على ذلك : خلافة الحاكم بأمر الله ( ٤٠ سنة ) ، وخلافة المستكفي بالله ( ٣٩ سنة ) ، وخلافة المعتضد بالله ( ٣٠ سنة ) وخلافة المستنجد بالله ( ٢٥ سنة ) .

– في ظل وجود الخليفة العباسي بالقاهرة خضعت الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية خضوعاً كلياً للخلافة العباسية التي تولى تدبيرها وتصريف شئونها السلاطين المماليك، بعد أن أنابهم الخلفاء وفوضوهم للقيام بتلك المهمة عند مبايعتهم بالسلطنة ، وبذلك تحققت لهم السيادة على مساحة واسعة من بلاد الإسلام لفترة طويلة ، ما كانت لتدوم لولا فضل الله ، ثم وجود الخلافة وبقاء الخليفة بمصر .

– استمدت السلطنة المملوكية بالديار المصرية والبلاد الشامية الصفة الشرعية ونفوذها على تلك النواحي ببقاء منصب الخلافة العباسية بمصر، ووجود الخليفة العباسي بين ظهرائي السلاطين المماليك ، وعليه كان الخليفة في منصبه أمام أعين السلاطين وكبار الأمراء المماليك ورعيّة الخلافة العباسية .

– حظيت الخلافة العباسية بالديار المصرية بمكانة خاصة عند الحكام المسلمين في أغلب البلاد الإسلامية ، مما يبيّن أهمية الخليفة ومنصب الخلافة لدى المسلمين، فكان يخطب ودّ الخليفة في شرق وشمال العالم الإسلامي الذي يحكمه سلاطين بني عثمان ، إلى جنوبه الذي يحكمه ملوك الهند وأمراء اليمن ، وغربه الذي قامت فيه دول إسلامية مثل دولة بني مرين ، فكانت وفود أولئك الملوك والأمراء تتوافد على القاهرة – عاصمة الخلافة العباسية – بين الحين والآخر لطلب الحصول على تفويض من الخليفة العباسي يخولهم شرعياً لحكم ما تحت أيديهم من بلاد الإسلام .

– اهتم السلاطين المماليك باصطحاب الخلفاء العباسيين معهم أثناء سفرهم خارج الديار المصرية ، خاصة عند خروجهم في قيادة العساكر السلطانية لقتال المنغول أو الملبين ، وذلك حرصاً على رفع معنويات الجيش المملوكي الذي يرى الخليفة يقاتل معه بجوار قائد السلطان المملوكي ، على أن بعض السلاطين كان لا يأمن على نفسه ولا يضمن بقاءه في منصبه في حالة تركه للخليفة العباسي خلفه بالقاهرة .

وذلك لكثرة الطامعين في السلطنة من كبار الأمراء المماليك ، وان كان من أقرب الناس الى السلطان ، فلا بد للوائب على كرسى السلطنة من الحصول على شرعية ذلك العمل الذي أقدم عليه ، ولا يكون ذلك إلا بالحصول على مبايعة الخليفة العباسي له بالسلطنة .

- لم يكن للخليفة العباسي أى جهد في اختيار من يتولى منصب السلطنة بالديار المصرية والبلاد الشامية ، أو ترشيح أحد الأمراء المماليك ممن يستحقون ذلك المنصب ، وإنما يتولى ذلك المنصب أقوى الأمراء المماليك ممن تُدع عن له الغالبية منهم بالسمع والطاعة ، ويُبدون موافقتهم ورضاهم عن جلوسه على كرسى السلطنة ، ثم بعد اتفاق الأمراء المماليك يُؤتى بالخليفة العباسي ليبايعه بالسلطنة بشهادة القضاة الأربعة على ذلك ، وكان بإمكان السلاطين المماليك خلع الخليفة العباسي من منصبه، بينما لا يجرؤ الخليفة على مخالفة السلطان المملوكي ، فضلا عن أن يتعرض له بخلع من المنصب إلا بعد طلب الأمراء المماليك من الخليفة عزل السلطان ومبايعة غيره بالسلطنة .

- تدخل بعض السلاطين في أحقية بعض الخلفاء في الخلافة العباسية ، وحاولوا منعهم من تولي ذلك المنصب وان كان معه عهد من والده ، أو ممن سبقه في ذلك المنصب من الخلفاء يَعهد اليه بأن يكون خليفة للمسلمين من بعده ، ومن الأمثلة على ذلك حال الخليفة العباسي المستكفي بالله سليمان ، مع الناصر محمد بن قلاوون ، ومع الواثق بالله ابراهيم أيضا ، والمتوكل على الله مع الظاهر برقوق ، وموقف المؤيد شيخ من الخليفة المستعين ، وموقف السلطان قانصوه الغوري مع الخليفة العباسي المستكفي بالله وتوليته الخلافة لابنه محمد المتوكل على الله .

- جمع الخليفة العباسي المستعين بالله بين الخلافة والسلطنة بالديار المصرية وهذا لم يتحقق لأحد من الخلفاء قبله ولا بعده ، وكانت ولايته للسلطنة إنما هي حل مؤقت في ظل طمع المؤيد شيخ ونوروز الحافظي في السلطنة ، فلما هدأت الأوضاع

استطاع المؤيد شيخ شيئا فشيئا سحب السلطات من الخليفة، حتى استعاد منه منصب السلطنة ، ثم خلع من الخلافة بعد ذلك وانفرد بتدبير الدولة .

- عاش أغلب الخلفاء العباسيين في ضيق مالي يعتمدون في نفقتهم على ما يحصل لهم من اشرافهم على مشهد السيدة نفيسة من الشموع والزيت ، وما يحصل لهم في كل شهر من الصندوق الذي في ذلك المشهد حيث كان الناس يضعون نذرهم في ذلك الصندوق ، يضاف الى ذلك ما يحصل لهم من خلع وأموال عند اعتلاء أحد السلاطين كرسي السلطنة . فكان يعطى الخليفة بعض الحال يعرف برسم المبايعة .

- عمفت الخلافات بين السلاطين والأمراء المماليك بالأوضاع الداخلية لدولة الخلافة العباسية بالديار المصرية ، وقدّم كثير من أولئك الأمراء مصالحهم الشخصية، وأطماعهم في المناصب الوظائف الهامة في الدولة ، والحرص على الحصول على السلطنة على المصلحة العامة للدولة الإسلامية في أخرج الظروف وأصعبها ، فمن ذلك مقتل المظفر قطز بعد الانتصار العظيم في موقعة عين جالوت ، وقتل الأشرف خليل بعد انتصاره على الصليبيين، وتحريره لآخر معاقلم بالبلاد الشامية ، مدينة عكا ، وذلك في سنة ٦٩٠ هـ .

- ففي ظل الصراعات بين كبار الأمراء المماليك وحرصهم على بسط نفوذهم على الدولة ، فشل السلاطين المماليك في ترسيخ نظام الوراثة بين المماليك ، فكان بعض السلاطين يعهد بالسلطنة من بعده لأحد أبنائه، ويجعل أقرب الأمراء المماليك وأحبهم اليه وأشد هم طاعة له وميا على ذلك النصبي ، ولكن ذلك الوصي الذي عُهد إليه بتدبير أمور الخلافة العباسية والسلطنة لا يلبث إلا مدة قصيرة فيعلن خلع ذلك السلطان المغير ، ثم يحل مكانه في السلطنة .

- تأثرت السلطنة المملوكية بكثرة أعداد المماليك الذين أُسرف السلاطين والأمراء في شرائهم والاهتمام بتربيتهم للاستفادة منهم في منازعاتهم مع خصومهم ، فأصبحت تلك

الأعداد من المماليك طوائف ذات ميول شتى، تدّين بالولاء لسيدها وتعادى خصومه وتتقلب أهواؤهم ، وتتغير مواقفهم في بعض الأحيان فيخذلون من يعتمد عليهم ، بالإضافة الى ضعف ولائهم للخليفة والسلطان في العصور المتأخرة من عهد الخلافة العباسية بمصر ، فكانوا مصدرًا للفتن ، وسببًا لنشر الذعر والخوف بين الرعية باعتداءاتهم على أرواحهم وأموالهم مع عجز السلطان المملوكي على القضاء عليهم، ومنعهم من التعرض لغيرهم .

- حاول السلاطين المماليك منع انتشار عقائد وآراء الرافضة في البلاد الواقعة تحت نفوذ الخلافة العباسية بالديار المصرية ، ويظهر ذلك جليًا من خلال الزام السلطان الظاهر ببيرس القضاة والفقهاء بالعمل بالمذاهب الفقهية الأربعة ( الحنفي ، المالكي ، والشافعي ، والحنبلي ) ، وسير السلاطين من بعده على ذلك النهج من خلال اختيار قاضي من كل مذهب يتولى الافتاء بموجب أقوال علماء ذلك المذهب وأدلتهم الشرعية التي اعتمدوا عليها ، وبذلك الأسلوب تم التضييق على المخالفين لأهل السنة والجماعة ، والحد من انتشار العقائد الباطلة وفي مقدمتها عقائد الرافضة .

- تأثرت الناحية الدينية في عصر الخلافة العباسية بالديار المصرية ببعض الظواهر التي انتشرت في ذلك العصر مثل سيطرة المذاهب الفقهية الأربعة ، وتعصب أتباع كل مذهب منها لمذاهبهم ، وانتشار التصوف والصوفية وما أحدثوه للناس من بدع في العبادات والأذكار ، ولقلة علمهم بالدين غلا السلاطين والأمراء والأعيان والعامّة في تعظيم من يسمون بالأولياء ومشايخ الطرق الذين عبّد لهم الجهال ، وتعلقت قلوبهم بهم ، فطلبوا منهم ما لا يقدر عليه إلا الله الخالق عز وجل .

- عانت الخلافة العباسية في الديار المصرية من أزمات خانقة في ظل جهل كثير من السلاطين المماليك لأسس إدارة الدولة واقتصاديا ، وكان هؤلاء السلاطين سببًا في كثير من تلك الأزمات الاقتصادية من خلال الثقة في بعض رجال الدولة الذين يستغلون

مناصبهم في نهب أموال الدولة قبل الاستغناء عنهم ، واستبد بهم بغيرهم في تلك الوظائف التي يطمع فيها الطامعون ، بالإضافة الى الغش في العملة واختلاف سعر صرفها من حين لآخر ، وما ينتج عن ذلك التغيير من خسارة للتجار والعامّة .

– شهدت البلاد الاسلامية في مصر والشام والحجاز وغيرها نهضة علمية مزدهرة، فلم تتأثر الناحية العلمية بالأوضاع الداخلية المضطربة في كثير من الأحيان في ظل النزاعات بين السلاطين والأمراء المماليك ، وظهر في هذا العصر طائفة كبيرة من علماء الاسلام في مختلف العلوم ، وعملوا في الافتاء والتدريس والتصنيف والرد على الفرق والطوائف الضالة ، فكان ذلك الازدهار العلمي في ذلك العصر الذي تشهد له غزارة مؤلفات علمائه الأفاضل الذين عملوا في هدوء لخدمة الدين الحنيف، والأمة الاسلامية من خلال مؤلفاتهم العلمية التي تعددت وتنوعت لتشمل العلوم الاسلامية ، إضافة الى اشتغالهم بالتعليم في المساجد والمدارس العامة والخاصة .

– ظهرت ملامح الطبقة من الناحية الاجتماعية في هذا العصر من خلال استئثار السلاطين والأمراء بالمناصب في الدولة ، والجاه في الحياة العامة ، وفي المقابل بقاء طوائف من العامة بمعزل عن المشاركة في وظائف الدولة ، مع انشغال العدد الأكبر من الرعية في العمل لدى أصحاب النفوذ والأعيان في ظل تغلغل النظام الاقطاعي في السلطنة المملوكية ، فكان لصاحب الاقطاع المَغْنَم ، ولمن يعمل عنده المَغْرَم ، لأنه في كثير من الأحيان لا يجد ما يسد حاجته بعد أن أفنى عمره في العمل في ذلك الإقطاع .

– مع اهتمام السلاطين المماليك بجهاد أعداء المسلمين من مغول وصليبيين ، فانهم لم يهتموا بالأوضاع الداخلية للخلافة ، وقاموا بالعديد من الإصلاحات الداخلية وكان في مقدمة اهتماماتهم : العناية بعمارة الحرمين الشريفين بمكة والمدينية ، وتعاهد هما بالخدمة والرعاية ، والاهتمام بطرق الحج التي يسلكها الحجاج عند توجههم الى مكة لأداء فريضة الحج ، مع انشاء بعض المرافق العامة التي يحصل بها النفع



للحجاج في مكة وفي المشاعر المقدسة الأخرى المرتبطة بالحج ، مما يؤكد حماسهم نحو الالتزام بالدين الاسلامي الحنيف، ورغبتهم في خدمته من خلال تلك الاصلاحات بالحرمين الشريفين، وغيرهما من الأماكن المقدسة .

- **قدّم السلاطين المماليك في ظل الخلافة العباسية بالقاهرة العديد من الخدمات الهامة التي لا يستغني عنها الناس ، فاهتموا ببناء المدارس و دور التعليم ، واهتموا ببناء دور العلاج التي تقوم بتقديم الخدمة العلاجية للمرضى بدون مقابل ، وحرصا من السلاطين المماليك على استمرار أداء تلك المرافق لخدماتها على الوجه المطلوب فقد أوقفت عليها الأوقاف التي يستفاد من ريعها للانفاق على تلك المرافق العامة ، وحتى لا تتأثر بالأزمات الاقتصادية التي كانت تمر بالخلافة العباسية والسلطنة المملوكية من حين لآخر ، فُضِمْنَا بواسطة تلك الأوقاف موردا ثابتا يُنفق منه على تلك المصالح الهامة عند الحاجة ، ولم يكتف السلطان المملوكي بذلك ، بل اختار - في أغلب الأحيان - من يثق فيه ليتولى النظر على تلك المرافق وضبط سير العمل فيها والاشراف على الواردات والنفقات، وتدوين ذلك في سجلات خاصة يُرجع اليها عند الحاجة .**

- بعد سقوط بغداد بأيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ كانت الأمة الاسلامية بحاجة الى قيادة تهتم بالناحية العسكرية لمواجهة الأخطار التي أهدت بها في ظل هجمات مغول فارس من جهة ، وأطماع الصليبيين من جهة ثانية ، فكان السلاطين المماليك خير من يقوم بتلك المهمة في ذلك العصر ، لأنهم القوة الاسلامية الوحيدة التي استطاعت بفضل الله - هزيمة المغول في عين جالوت ، فنظرت اليها باقي القوى الاسلامية نظرة تقدير واحترام بعد أن حققت ما عجز عنه الآخرون ، واستطاعت أن تصد جيوش المغول عن البلاد الاسلامية بالشام ومصر ، وايقاف زحفها من خلال الهزائم المنكرة التي أنزلتها العساكر الاسلامية بقيادات المغول التي أعلنت العداوة للإسلام والمسلمين .

- سيطرت الروح الدينية والرغبة في الحصول على أجر المجاهدين في سبيل الله على جهود الخلفاء العباسيين والسلاطين المماليك في صدّ أعداء المسلمين ، ووضع حد لأطماع مغول فارس والقوى المليبية في بلاد المسلمين ، فكان الحماس الديني، والحرص على نصرته الدين الاسلامي الحنيف، والدفاع عنه والمحافظة على الحرمات هو المحرك لجهود خلفاء بني العباس والسلاطين بالديار المصرية والبلاد الشامية ، وهو الموجه لنشاطهم العسكري على جبهات القتال .

- وقف السلاطين المماليك في وجه الأطماع المغولية في البلاد الاسلامية بشدة وحزم ، فقد حاول مغول فارس التآمر لهزيمتهم في عين جالوت ، وأعلن قادتهم أنهم سيأخذون الشام ، ثم ينتقلون الى مصر لاسقاط الخلافة العباسية والقضاء على نفوذ المماليك ، ومع اعلان قادة مغول فارس لاسلامهم ، إلا أن أقوالهم وأفعالهم تعارض الدين الحنيف ، وما حدث للمسلمين في بلاد الشام وخاصة حلب ودمشق وغيرها ، خير دليل على كذبهم في تلك الدعوى ، وأن النزعة الهولوكية وحب الزعامة والسيطرة والملك ما زالت تجرى في عروق قادة مغول فارس من أمثال غازان وتيمور لنك .

- حاول قادة مغول فارس التحالف مع القوى المليبية في الشام أو القسوى المسيحية الأخرى في الدول الأوروبية، طمعا في القضاء على الخلافة العباسية والسلطنة المماليك ، ووضع قادة المغول خطة للهجوم على البلاد الاسلامية بحيث يهاجمها المغول من الشرق ، والحليبيون من الغرب ، وقد حاول كز من المغول والحليبيين استغلال أحدهما للآخر ضد الاسلام والمسلمين .

- توطدت العلاقة الودية بين الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية ، ومغول القبيلة الذهبية التي اعتنق قادتها الاسلام ، ورأوا بعد اسلامهم أنه لا بدّ من جهاد الكفار ، فبدأوا بمغول فارس مما حدّ من خطورة هجماتهم على البلاد الاسلامية في الشام وكان قادة مغول القبيلة الذهبية ينقلون أخبار التحركات والاستعدادات التي يقوم

مغول فارس استعدادا للهجوم على البلاد الشامية، مما مكن السلاطين المماليك لأخذ  
الحيطة والاستعداد المبكر لملاقاة مغول فارس قبل مواصلة تقدمهم إلى بقية المدن  
الشامية ، ولتلافي خطرهم على البلاد الإسلامية قبل استفحاله .

- أكمل السلاطين المماليك ما بدأه صلاح الدين الأيوبي ، وعماد الدين زنكي  
من جهاد الصليبيين ، فبدأ الظاهر بيبرس تلك المهمة ثم أكملها الأشرف خليل  
عندما طرد الصليبيين من بلاد الشام نهائيا سنة ٦٩٠ هـ باستيلائه على مدينة عكا  
بعد تحريرها من الوجود الصليبي ، فاستطاع إعادة تلك المدينة لحكم المسلمين بعد  
إخراجه للصليبيين وطردهم منها .

- اتخذ الصليبيون الذين أخرجوا من بلاد الإسلام جزيرة قبرص مركزا لمواصلة  
اعتداءاتهم على المدن الساحلية في البلاد الشامية والديار المصرية ، وقاموا بأعمال  
قطع الطريق على السفن التجارية الإسلامية ثم محاولة احتلال مدينة الإسكندرية  
ومدينة طرابلس الشام ، فكان لزاما على السلطان برسباي أن يوقف تلك الاعتداءات ،  
فأرسل حملات عسكرية لفتح جزيرة قبرص ، فلما تم له ذلك أخضع أهلها لطاعته ، وأصبح  
حاكم الجزيرة بمثابة نائب للسلطان المملوكي .

- حاولت القوى الصليبية في عصر الخلافة العباسية بالديار المصرية استخدام  
سلاح جديد للقضاء على الدولة الإسلامية ، فلم تكتف بال سلاح الحربي الذي يحمّله  
الجندي في ميدان المعركة ، بل حرصت على استخدام الاقتصاد كسلاح فعال في حسم  
المواجهة من الدولة الإسلامية ، فعمدت إلى تضيق الخناق على التجارة الإسلامية  
مع الهند على وجه الخصوص من خلال فرض حصار اقتصادي على الموانئ الإسلامية في  
سواحل الهند والبحر الأحمر ، في محاولة منهم لتقليل الموارد المالية للخلافة العباسية  
بمصر، حتى لا تستعين بها في الاستعداد العسكري لمواجهة أعدائها الذين يتربصون بها  
من الشمال والجنوب تمهيدا للانقضاض عليها .

- حاول السلطان قانصوه الغورى حماية الموانىء الاسلامية في سواحل الهند ومدخل البحر الأحمر ، فقد أدرك منذ بداية توليه السلطنة خطورة الموقف الذى تمر به الخلافة ، فأرسل الحملات العسكرية لاقامة القلاع والحصون على سواحل البحر الأحمر ، بعد أن بلغته أخبار تقدم البرتغاليين نحو مدخل البحر الأحمر ، تمهيدا للسيطرة عليه عسكريا .

- كانت الجولة الأولى من الصراع العسكرى بين المسلمين والفرنج لمالصح المسلمين ، حيث تمكن الأسطول البحرى الاسلامى من هزيمة البرتغاليين قرب السواحل الهندية ، ثم كانت الجولة الثانية بهزيمة الأسطول الاسلامى في معركة (ديو) البحرية سنة ٩١٤ هـ ، ومع تلك الهزيمة لم يتوقف السلطان قانصوه الغورى عن الاستعداد من جديد لمنازلة بحرية أخرى مع البرتغاليين ، فأخذ في اكمال الاستعدادات العسكرية وبناء المراكب البحرية وصناعة السلاح في موانىء الاسكندرية ودمياط والسويس ، حتى انتهى العمل في أسرع وقت ، وأمر تلك الحملة بسرعة السفر الى سواحل البحر الأحمر حتى اليمن ، لتأمين الحماية لها من اعتداءات الصليبيين .

- لم تحقق الحملة العسكرية التي أرسلها قانصوه الغورى الى سواحل البحر الأحمر بقيادة الأمير حسين الكردى ما كان يطمع فيه من صد السفن البرتغالية ، نظرا للفتنة التي وقعت بينه وبين صاحب اليمن عامر بن عبد الوهاب الطاهرى ، وانشغال حسين الكردى بقتاله ، ثم احتلاله لليمن وتركه للمهمة التي أرسل الى سواحل اليمن من أجلها ، فكانت فرصة سانحة استغلها البرتغاليون للقضاء على ما بقى من الأسطول الاسلامى ، ومن سَلِمَ من أفراد تلك الحملة عاد الى الديار المصرية في أسوأ حال .

- كانت الحدود الشمالية لسلطنة المماليك في ظل الخلافة العباسية بالد ييسار المصرية مناطق مخطربة باستمرار ، حيث عمفت بها الخلافات بين السلاطين المماليك والقبائل التركمانية التي كانت تدخل تحت طاعة السلطان المملوكى فترة ، ثم يعلن

قادتها العميان والخروج عن الطاعة لفترة أخرى ، فكانت تلك المناطق مصدرا للنزاع بين تلك القوى المتنازعة على أحقية السيادة عليها .

- اشتد الصراع بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية على أطراف أراضي الخلافة والسلطنة المملوكية ، الأمر الذي جعل السلطان المملوكي في اضطراب دائم لنتائج ذلك الصراع ، لتأكد أنه المنتصر منهما لا بد أن يتوجه نحو أراضي الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية للقضاء عليها ، وأخذ بلادها وبسط نفوذه عليها .

- بلغت خطورة الدولة الصفوية على الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية من خلال التحالف الذي عقده اسماعيل الصفوي مع الفرنج للقضاء على سلطنة المماليك، بحيث يقوم الصفويون بمهاجمتها من البر من ناحية العراق شرقا ، ويقوم الفرنج بمهاجمتها من ناحية البحر غربا .

- مرت العلاقة بين العثمانيين والخلافة العباسية وسلطنة المماليك بمراحل مختلفة ، فكانت تتحسن في حين وتتوتر في أحيان أخرى ، حتى كانت سلطنة السلطان الغوري حيث بدأت العلاقة بين الجانبين جيدة في ظل الأخطار التي تحيط بهما من أطماع الصفويين واعتداءات الفرنج على أطراف كل منهما .

- توترت العلاقة بين السلطان سليم العثماني والسلطان قانصوه الغوري في آخر أيام السلطنة المملوكية ، ومع حرص السلطان قانصوه الغوري على المصالح بين الجانبين إلا أن جهود الخليفة العباسي الذي سعى للمصالح بينهما حرصا على مصلحة الأمة الإسلامية وحفاظا على قوتها لم يكتب لها النجاح .

- ساعد على زيادة حدة الخلاف بين السلطان سليم العثماني والسلطان قانصوه الغوري تدخل الدولة العثمانية في إمارة ذي القادر التركمانية الموالية للمماليك، ومحاولته لفرض من يريد لتولي حكم تلك الإمارة ، ثم بعض العثمانيين الذين لجأوا إلى سلطنة المماليك هربا من السلطان سليم العثماني ، ورفض المماليك إعادة أولئك

اللاجئين اليها و الذين احتّموا بها ، ثم بعض الأمراء المماليك الذين خانوا السلطان المملوكي قانصوه الغوري ، و طَمَعُوا السلطان سليم العثماني في أخذ البلاد الشامية و الديار المصرية ، و التشرّف بخدمة الأقطار الحجازية ، و في مقدمتهم خاير بك ، و جان بردى الغزالي .

- انتهى الصراع العثماني المملوكي بمقتل السلطان قانصوه الغوري في موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ ، ثم عجز آخر السلاطين المماليك طومان باي عن حماية الديار المصرية من الوقوع بأيدي العثمانيين ، و انتهاء محاولاته بالقبض عليه و قتله ، فدانت الديار المصرية و البلاد الشامية لحكم الدولة العثمانية ، و دخلت مع غيرها من البلاد الاسلامية تحت حكم السلطان سليم العثماني و كان ذلك في مطلع شهر المحرم من سنة ٩٢٣ هـ .

# **الفهارس**

## **وتشمل**

**فهرس الآيات**

**فهرس الأحاديث**

**فهرس الأعلام**

**فهرس البلدان**

**فهرس الأشعار**

**فهرس الموضوعات**

( فهرس الآيات القرآنية الكريمة )



## رقمها الصفحة

## الآية

## ( سورة البقرة )

ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى ..... ١٢٠ ٩٠

## ( سورة آل عمران )

قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني ..... ٣٢٤ ٣٢٤

ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ..... ٣٢٤/٥٠ ٨٥

واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ..... ٣٤٢ ١٠٣

كنتم خير أمة أخرجت للناس ... ٣٤٢ ١١٠

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ... ٩١/٩٠ ١١٨

## ( سورة النساء )

يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ... ١٢٠ ٥٩

## ( سورة المائدة )

اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ... ٣٢٥/٥٠ ٣

لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ... ٩١ ٨٢

## ( سورة الأنفال )

يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ... ١٢ ٢٧

وان يريدوا أن يخذعوك ... ٣٤٣ ٦٣ ، ٦٢

## ( سورة الحج )

ولينصرن الله من ينصره ..... ٥٨٩ ٤٠

## ( سورة الأحزاب )

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ... ٣٤٤ ٢١

( فهرس الأحاديث النبوية الشريفة )

| المفحسة  | طرف الحديث                              |
|----------|-----------------------------------------|
| ٣٢٤      | اسمعوا وأطيعوا وان تأمّر عليكم ...      |
| ٣٤٤      | انصر أخاك .....                         |
| ٣٤٣      | حق المسلم على المسلم ...                |
| ٣٤٣      | الدين النصيحة .....                     |
| ١٢٠      | السمع والطاعة على المسلم فيما أحب ..... |
| ٣٤٤      | كل المسلم على المسلم حرام .....         |
| ١٢٠ / ١٢ | كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ...       |
| ٣٤٣      | مثل المؤمنين في توادهم ...              |
| ٣٤٣      | المسلم أخو المسلم                       |
| ٣٤٣      | المسلم للمسلم كالبنيان ...              |
| ٣٤٤      | من نفس عن مؤمن كربة ...                 |



( فهرس الأعلام )

| المفحة                | الاسم                              |
|-----------------------|------------------------------------|
|                       | ( أ )                              |
| ٦٥ / ٦٣               | ابراهيم بن عبد الله بن الحسن       |
| ٦٤٨                   | ابراهيم بن قرمان                   |
| ٢٤٣ / ١٤٠             | ابراهيم بن محمد ( الواصل بالله )   |
| ٧٠                    | ابراهيم بن محمد بن يحيى            |
| ٦٧                    | ابراهيم بن موسى بن جعفر            |
| ٥١٢ / ٥١١             | ابغا بن هولاء كـو                  |
| ٥٣٢ / ٥٣٠ / ٥٢٩ / ٥٢٧ | أحمد بن أويس                       |
| ٢١٤                   | أحمد بن اينال ( السلطان )          |
| ٢٦ / ٢٤ / ٢٣ / ٢٢     | أحمد بن بويه                       |
| ٥١٨ / ٥١٦ / ٣٨٢       | أحمد بن تيمية                      |
| ٥٤                    | أحمد بن جعفر ( المعتمد على الله )  |
| ٣٨٩ / ١٥٦             | أحمد بن حجر العسقلاني              |
| ٤٥ / ٤٤ / ٤٣          | أحمد بن الحسن                      |
| ٢٢٧ / ١٣٦             | أحمد بن الحسن ( الحاكم بأمر الله ) |
| ٣٢٦ / ١٦              | أحمد بن حنبل الشيباني              |
| ٢٤٥ / ١٤١             | أحمد بن سليمان ( المستكفي بالله )  |
| ٢٠٨                   | أحمد بن شيخ ( السلطان )            |
| ١٢٤ / ١٢٣ / ٦٩        | أحمد بن طولون                      |
| ١٩٣                   | أحمد بن محمد ( السلطان )           |
| ٦٩                    | أحمد بن محمد بن عبد الله           |
| ٢٢٣ / ١٣٤ / ١٣٢ / ١٢٦ | أحمد بن محمد ( المستنصر بالله )    |
| ٦٣٩ / ٦٢٨ / ٥٦٢ / ٤٩٦ |                                    |
| ٣٩٥                   | أحمد المقرئ                        |

| المفحة                                      | الاسم                                  |
|---------------------------------------------|----------------------------------------|
| ٣٨٧                                         | أحمد النوبيري                          |
| ٥١٣ / ٥١٢                                   | أحمد بن هولاء كو                       |
| ٨٥/٧٩/٧٨/٤٨/٤٦/٣٠                           | أرسلان البساسيري                       |
| ٤٢/٤١                                       | أرسلان السلجوقي                        |
| ٥١٤/٥١٣                                     | أرغون بن ابغا بن هولاء كو              |
| ٤٨                                          | أرمانوس                                |
| ٦٥٦                                         | أزبك خان المغولي                       |
| ٦٧٣                                         | أزبك المكحل ( الأمير )                 |
| ٨٦/٦٨٣/٦٨٠/٦٧٧/٦٧٦ /٦٧٥/٦٥٩/٦٥٨/٦٥٦/٦٥٤/٦٥٣ | اسماعيل بن حيدر الصفوي                 |
| ٣٩٢                                         | اسماعيل بن كثير                        |
| ٤٦٨/٤٥٩/٤٥٧/٤٥١/١٩٣                         | اسماعيل بن محمد ( السلطان )            |
| ٦٩                                          | اسماعيل بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الله |
| ٥٣٢                                         | اسنباي الظاهري                         |
| ٢٠٠                                         | اسندمر الناصري                         |
| ٦٣٦                                         | أعظم شاه ( السلطان )                   |
| ٩٤/٨٧/٤٩/٤٨                                 | ألب أرسلان                             |
| ١٠٠                                         | أوكتاي بن جنكيز خان                    |
| ١٤٥                                         | أيبك البدرى                            |
| ٥٥٤/١٨٠/١٧٧/١٧٦/١٧٥                         | أيبك التركماني ( السلطان عز الدين )    |
| ١٩٣                                         | ايد غمش الناصري                        |
| ٦٦٦                                         | اينال الحكيم                           |
| ٦٦٤/٦٤٨/٦٠٣/٤٨٥/٤٨١/٤٧٠/٤٤٥/٢١٣/٢١٢/١٥٧     | اينال العلائي                          |
| ٢٠١/٢٠٠                                     | اينبك البدرى                           |
| ١٧٥/١٧٤/١٧٣                                 | أيوب بن محمد ( السلطان الصالح )        |
| ( ب )                                       |                                        |
| ٥٢/٥                                        | بابك الخرمي                            |
| ٥١٤                                         | بيدو ( الملك )                         |





## المفحة

## الاسم

|                  |                           |
|------------------|---------------------------|
| ٢٠٩              | جاني بك الصوفي ( الأمير ) |
| ٥٩٩/٥٩٨/٥٩٦/٥٩٥  | جانيوس ( الملك )          |
| ٤٩٨/١٠٠/٨٠       | جلال الدين الخوارزمي      |
| ٦٢٣              | جماز ( الشريف )           |
| ٦٦٦              | جم العثماني ( الأمير )    |
| ٤٩٨/١٠٠/٩٩/٩٨/٩٧ | جنكيز خان                 |
| ٦٥٣              | جنيد الحفوي               |
| ٦٠٦/٦٠٥/٦٠٤      | جوان جانيوس ( الملك )     |
| ٥١٤              | جيخاتو بن ابغا            |

## ( ح )

|                                         |                                   |
|-----------------------------------------|-----------------------------------|
| ٢٠٣/٢٠٢/٢٠١                             | حاجي بن شعبان ( السلطان )         |
| ١٩٥/١٩٤                                 | حاجي بن محمد ( السلطان )          |
| ١٩                                      | حامد بن العباس                    |
| ٢٢                                      | الحسن بن بويه                     |
| ٥٧                                      | الحسن بن زكرويه                   |
| ٦٨                                      | الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل   |
| ٦١/٦٠                                   | الحسن بن الصباح                   |
| ٦٦٦/٦٥١/٦٥٠                             | حسن الطويل التركماني              |
| ٤٤٤                                     | حسن بن عجلان ( الشريف )           |
| ٦٣٣/٥٨٩/٤٨٤/٤٦٩/٤٥٢/١٩٩/١٩٨/١٩٧/١٩٦/١٩٥ | حسن بن محمد ( السلطان )           |
| ٦٩٥/٦٩٤                                 | حسن بن مرعي ( شيخ العربان )       |
| ٤٣/٤٢                                   | الحسن بن يوسف المستضيء            |
| ٦٩                                      | الحسين بن أحمد بن اسماعيل بن محمد |
| ٧٧                                      | الحسين بن أحمد القرمطي            |
| ٥٥                                      | حسين الأهوازي                     |
| ٧٠                                      | الحسين بن جعفر العلوي             |
| ٥٦/٥٥                                   | الحسين بن حوشب                    |

| المفحة                            | الاسم                             |
|-----------------------------------|-----------------------------------|
| ٦٥                                | الحسين بن علي بن الحسن            |
| ٦٣٥/٦١٧/٦١٠                       | حسين الكردي ( الأمير )            |
| ٦٨                                | الحسين بن محمد بن حمزة            |
| ٥                                 | حماد بن عجرد                      |
| ٥٦/٥٥                             | حمدان بن الأشعث                   |
| ٢٨٦/٢١٢/١٥٧                       | حمزة بن محمد ( القائم بأمر الله ) |
| ٦٢٥/٥٢٤                           | حميضة بن أبي نمي ( الشريف )       |
| ٣٢٥                               | أبو حنيفة النعمان بن المنذر       |
| ٦٥٣                               | حيدر بن جنيد                      |
| ( خ )                             |                                   |
| ٦٩٠ / ٦٨٥ / ٦٨١ / ٦٨٠ / ٢١٦ / ٢١٥ | خاير بك ( الأمير )                |
| ٦٢٥ / ٥٢٤ / ٥٢٣ / ٥٢٢             | خدا بندا بن أرغون ( الملك )       |
| ٦٦٤ / ٦٤٨ / ٦٠٦ / ٢١٥ / ٢١٤       | خشقدم الناصري ( السلطان )         |
| ٦٥٢ / ٦٥١                         | خليل بن حسن الطويل ( الأمير )     |
| ٥٨٢/٥٨٠/٥٧٩ / ١٨٥ / ١٨٤           | خليل بن قلاوون ( السلطان )        |
| ٨٠                                | خوارزم شاه                        |
| ( د )                             |                                   |
| ٦٧٠                               | داود باشا ( الوزير )              |
| ٦٣٠                               | داود الرسولي ( السلطان )          |
| ٦٣٦/٥٩٦/٢٧٧/١٥٤                   | داود بن محمد ( المعتضد بالله )    |
| ٨١/٨٠/٣٤                          | دبيس بن صدقة                      |
| ٥٣٤                               | دقماق الحمدي ( الأمير )           |
| ٥٣٤                               | دمرداش الحمدي ( الأمير )          |
| ( ر )                             |                                   |
| ٤٤٤                               | رميثة بن محمد بن عجلان ( الشريف ) |

## المفحة

## الاسم

## ( ز )

|             |                                     |
|-------------|-------------------------------------|
| ٥٦          | زكرويه بن مهرويه                    |
| ٢٦١/١٤٨/١٤٥ | زكريا بن ابراهيم ( المستعصم بالله ) |
| ٦٤٠         | زكريا اللحياني ( الأمير )           |

## ( س )

|                                         |                                    |
|-----------------------------------------|------------------------------------|
| ٥٢٥                                     | أبوسعيد بن خدا نبدا ( الملك )      |
| ٥٧٥/٥١٠/١٨٢/١٨١                         | سلامش بن بيبرس ( السلطان )         |
| ٦١٨/٦١٧                                 | سلمان العثماني ( الأمير )          |
| ٦٧٦/٦٧٥                                 | سليمان بن أحمد العثماني ( الأمير ) |
| ٦٣٦/٦٣٢/٦٣١/٦٣٠/٥٢٣/٥٢٢/٢٣٦/١٣٨         | سليمان بن أحمد ( المستكفي بالله )  |
| ٦٦٣                                     | سليمان العثماني ( الأمير )         |
| ٢٨٥/١٥٦                                 | سليمان بن محمد ( المستكفي بالله )  |
| ٦٧٧/٦٥٩/٦٥٨/٦٥٢/٦١٩/٦١٨/٦١٧/٢٢٠/٢١٩/١٦٣ | سليم العثماني ( السلطان )          |

٦٩٤/٦٩٢/٦٨٨/٦٨٦/٦٨٣/٦٨٠

٨٧

سنجر السلجوقي

٥٦٧/٥١٠/١٨٢

سنقر الأشقر

٥٣٤/٤٥٢

سودون الحمدي ( الأمير )

٦٨٥/٦٨٠

سيباي الظاهري ( الأمير )

## ( ش )

٦٤٩/٦٤٨

شاه بنخا ( الأمير )

٦٤٦

شاه رخ بن تيمور بنك

٦٤٩/٦٤٨

شاه سوار ( الأمير )

٣٨١/٥٨١/٢٨١/٨١

شجرة الدر

٥٩٤ / ٥٨٩ / ٤٨٤ / ٣٧٣ / ٤٦٠ / ٢٠٠

شعبان بن حسن ( السلطان )

١٩٤

شعبان بن محمد ( السلطان )

٢٠١/٢٠٧/٢٠٧/٢٧٧/٨٥٣/٥٤٣/٣٨٣/٣٧٣/٣٥٠/٥٣٤/٤٦٦/٢٠٦

شيخ محمودي ( السلطان )

١٦٢

| الاسم                                    | المفحة                                  |
|------------------------------------------|-----------------------------------------|
| شيخون العمري ( الأمير )                  | ٤٦٩/١٩٧                                 |
| ( ص )                                    |                                         |
| مالح بن عبد القدوس البصري                | ٥                                       |
| مالح بن محمد ( السلطان )                 | ١٩٧/١٩٦                                 |
| مرغتمش ( الأمير )                        | ١٩٨/١٩٧                                 |
| ( ط )                                    |                                         |
| طراباي ( الأمير )                        | ٢٠٩                                     |
| ططر الظاهري ( السلطان )                  | ٤٧٥/٢٠٨                                 |
| طنرل                                     | ١٢٥/٤٥/٤٤/٤٣                            |
| طلحة بن جعفر ( الموفق بالله )            | ٥٤                                      |
| طومان باي الأشرفي ( السلطان )            | ٢١٨                                     |
| طومان باي الناصري                        | ٦١٩ / ٢٢٠ / ٦٨٧ / ٦٨٨ / ٦٩٠ / ٦٩٣ / ٦٩٤ |
| طيبغا الطويل ( الأمير )                  | ١٩٩                                     |
| ( ع )                                    |                                         |
| عامر بن عبد الوهاب الطاطري ( السلطان )   | ٦٣٣/٦٣٢/٦٣١                             |
| عباس بن علي الرسولي ( السلطان )          | ٦٣٤/٦٣٣                                 |
| العباس بن محمد ( المستعين بالله )        | ٦٣٦/٢٧٠/٢٠٧/١٥٤/١٥٢                     |
| عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله           | ٦٧                                      |
| عبد الرحمن بن خلدون                      | ٥٤٥/٥٤١/٣٩٣                             |
| عبد الرحمن السيوطي                       | ٤٠١                                     |
| عبد العزيز بن برقوق ( السلطان )          | ٥٣٠/٢٠٦/٢٠٥                             |
| عبد العزيز بن يعقوب ( المتوكل على الله ) | ٦٦٨/٦٦٧/٢٩٧/١٦٠                         |
| عبد الكريم ( الطائع لله )                | ٢٨/٢٦/١٢                                |
| عبد الله بن خاقان                        | ١٩                                      |
| عبد الله بن السري                        | ٧٥                                      |
| عبد الله بن علي بن العباس                | ٧٤/٧٣                                   |

## الصفحة

## الاسم

٨/٣/٢

عبد الله بن محمد ( السفاح )

٦٥/٦٤/٦٣/٨/٣/٢

عبد الله بن محمد ( المنصور )

١٧٦/١٣٠/١٠٦/١٠٥/١٠٤/١٠٢

عبد الله ( المستعصم بالله )

١١

عبد الله ( المستكفي بالله )

٣٢٥

عبد الله بن مسعود ( الصحابي ) رضي الله عنه

٧٦/٧٥/٧٤/٦٧/٥٢/١٧/١٦/١٥/٩

عبد الله بن هارون ( المأمون )

٦١١/٦١٠

عبد الوهاب الطاهري ( السلطان )

٧٤

عثمان الأزدي

٢١٣/٢١٢

عثمان بن جقمق

٦٤٦

عثمان قرايلوك ( الأمير )

١٣٠

العز بن عبد السلام

٥١/٤

عطاء الخراساني

٨٧

علاء الدين الخوارزمي

٢٢

علي بن بويه

٦٣٣/٦٣٢/٦٣١

علي بن داود الرسولي ( السلطان )

٦٨٢/٦٨١/٦٧٨/٦٥٣/٦٥٢

علي بن دولات التركماني ( الأمير )

٦٤٠

علي المريني ( السلطان )

٦٩

علي بن زيد

٥٥

علي بن الفضل

٥٤/٥٣

علي بن محمد ( صاحب الزنج )

٥٠٠/١٧٧

علي بن أيبك ( السلطان المنصور )

٩٤

عماد الدين الزنكي

٢٦٠/١٤٨/١٤٧

عمر بن ابراهيم ( الواثق بالله )

٥٣٧/٥٣٦

عمر البلقيني

٣٢٥

عمر بن عبد العزيز ( الخليفة )

٦٩

عيسى بن جعفر

## الاسم

## المفحة

( غ )

٥١٩/٥١٦/٥١٥/٥١٤/١٩٠

غازان بن أرغون ( القان )

( ف )

٤٧٠/٢٠٧/٢٠٦/٢٠٥/٢٠٤

فرج بن برقوق ( السلطان )

٥٤١/٥٣٦/٥٣٠

٣٦/٣٥/٣٤

الفضل بن المستظهر بالله

٢٦/٢٥/٢٤/١٢

الفضل ( المطيع لله )

٦٦

الفضل بن يحيى بن خالد

٦٣٦

فيروز شاه ( السلطان )

( ق )

٦٨٧/٦٨٥/٦٨٢

قاسم بن أحمد بن بايزيد

٢١٨/٢١٧

قانصوه الأشرفي ( السلطان )

/٦١٨/٦١٦/٦١٥/٦٠٩/٤٨٦/٤٧٦/٤٦٣/٣٢٧/٢١٩/٢١٨

قانصوه الغوري ( السلطان )

٦٨٣/٦٨٠/٦٧٦/٦٧٢/٦٥٩/٦٥٦/٦٥٥/٦٣٥/٦١٩

/٤٨٥/٤٧٥/٤٧٠/٤٦٥/٤٦٠/٤٥٨/٣٢٧/٢١٧/٢١٦/١٦٠

قايتباى المحمدي ( السلطان )

٦٧٠/٦٦٩/٦٦٦/٦٥٢/٦٥١/٦٥٠/٦٤٩/٦٤٢/٦٠٨/٦٠٧

٢٠١

قرطاي الطازي

٦٧٦/٦٧٣

قرقد بن بايزيد

٤٤٤/٢١١

قرقماس الشعباني ( الأمير )

٦٣٣

قشتمر المنصوري ( الأمير )

٥٥٤/٥٠١/٥٠٠/١٨٠/١٧٩/١٧٨/١٧٧/١٢٦/١١١

قطز بن عبد الله ( المظفر )

٥١٧/٥١٥

قفجق ( الأمير )

٥٧٦/٥٧٥/٥٤٧/٤٧٨/٣٣٢/١٨٣/١٨٢/١٨١

قلاوون الألفي

٤٦٤/١٩٢/١٩١

قوصون الناصري

## المفحة

## الاسم

## ( ك )

|             |                            |
|-------------|----------------------------|
| ١٩٢/١٩١     | كجك بن محمد ( السلطان )    |
| ٦٨٥/٦٨٤     | كرتباى ( الأمير )          |
| ١٨٧/١٨٦/١٨٥ | كتبغا المنصورى ( السلطان ) |
| ٥٠١/١١١     | كتبغا نويين                |

## ( ل )

|                 |                            |
|-----------------|----------------------------|
| ٥٤٠/٥١٥/٢٢٣/١٨٧ | لاجين المنصورى ( السلطان ) |
| ٤               | الليث بن سعد               |

## ( م )

|       |                                 |
|-------|---------------------------------|
| ٥٣/٥٢ | المازيار بن قارن                |
| ٣٢٥   | مالك بن أنس                     |
| ٦٢٣   | مالك بن شيحة ( الشريف )         |
| ٧٣    | مجزأة بن الكوشر الكلابي         |
| ٦٧    | محمد بن ابراهيم بن اسماعيل      |
| ٦٤١   | محمد بن الأحمر ( الأمير )       |
| ٣٢٦   | محمد بن ادريس ( الشافعي )       |
| ٤٤٥   | محمد بن بركات بن حسن ( الشريف ) |
| ٦٥١   | محمد بن بركات ( الشريف )        |

٥٣٧/٥٣٥/٥٣٣/٥٢٧/٢٦٣/٢٥٣/٢٠٤/٢٠٢/١٥٠/١٤٥ محمد بن أبي بكر ( المتوكل على الله )

٦٦١/٥٤٥/٥٤٠/٥٣٩/٥٣٨

|                 |                           |
|-----------------|---------------------------|
| ٥٧٥/٥١٠/٢٣١/١٨٠ | محمد بن بيبرس ( السلطان ) |
| ٦٣٦             | محمد بن تغلق              |
| ٦٧              | محمد بن جعفر بن محمد      |
| ١٩٩             | محمد بن حاجي ( السلطان )  |
| ٤٩٨             | محمد بن خوارزم شاه        |
| ٣٨٢             | محمد بن دقيق العيد        |
| ٣٨٩             | محمد الذهبي               |

| المفحة                                   | الاسم                               |
|------------------------------------------|-------------------------------------|
| ٦٤٧                                      | محمد بن ذى الغادر                   |
| ٣٨٨                                      | محمد بن سيد الناس                   |
| ٢٠٩                                      | محمد بن ططر ( السلطان )             |
| ٣٩٩                                      | محمد بن عبد الرحمن السخاوى          |
| ٦٤/٦٣                                    | محمد بن عبد الله ( النفس الزكية )   |
| ٥١/٨/٦/٥/٤/٢                             | محمد بن عبد الله ( المهدي )         |
| ٧٥                                       | محمد بن عبد ويه                     |
| ٧٨                                       | محمد بن القاسم                      |
| ١١                                       | محمد ( القاهر بالله )               |
| ٢١٧                                      | محمد بن قايتباى ( السلطان )         |
| /٤٧٣/٤٥٩/٤٥١/٢٣٩/٢٣٤/٢٣٣/١٩٨/١٨٩/١٨٧/١٨٥ | محمد بن قلاوون ( السلطان )          |
| ٦٤٠/٦٣٠/٥٨٤/٥١٦/٥١٠/٤٨٣                  |                                     |
| ٢٩٠                                      | محمد بن قيم الجوزية                 |
| ١٠٦/١٠٥/١٠٤/١٠٣                          | محمد بن محمد العلقمي ( مؤيد الدين ) |
| ٤٠/٣٩/٣٨                                 | محمد بن المستظهر بالله              |
| ٧٨/٤٦/٣١/٣٠                              | محمد بن ميكائيل بن سلجوق            |
| ٦٩٧/٦٩٥/٦٩٤/٦٩٣/٦٨٥/٦٨١/٦٣٧/٣١٠/١٦٣      | محمد بن يعقوب ( المتوكل على الله )  |
| ٧٤/٦٧/٩                                  | محمد بن هارون ( الأمير )            |
| ٦٨/٢١/١٠/٧                               | محمد بن هارون ( المعتمد بالله )     |
| ٩٤                                       | محمود زنكي                          |
| ٣٧٩                                      | محمود بن العيني                     |
| ٦٥٥                                      | مراد خان الطويل                     |
| ٦٦٣/٦٦٢/٦٦٠/٦٠١/٥٩٥                      | مراد العثماني ( السلطان )           |
| ٦٣                                       | مروان بن محمد                       |
| ٣٩/٣٨/٣٧/٣٦                              | مسعود السلجوقي                      |
| ٧٣                                       | مسلمة بن عبد الملك                  |
| ٦٠٩                                      | مظفر شاه ( السلطان )                |



| المفحة                                  | الاسم                                  |
|-----------------------------------------|----------------------------------------|
| ٧٧/٧٦                                   | المعز لد بن الله العبيدي               |
| ٦٨٤/٦٨٣                                 | مغلباي ( الأمير )                      |
| ١٢٥/٨٧/٣٢/٣١                            | ملكشاه بن محمد بن مروان                |
| ٣٧/٣٦                                   | منصور بن الفضل                         |
| ٢٠٣                                     | منطاش ( الأمير )                       |
| ٥١٦/٤١٥                                 | منكوتمر ( الأمير )                     |
| ٩٣                                      | مود ود                                 |
|                                         | موسى بن يوسف الأيوبي                   |
| ٥٥٨                                     | ميخائيل الثاني ( الامبراطور البيزنطي ) |
| ٥٣٦                                     | ميران شاه بن تيمور لنك                 |
|                                         | ( ن )                                  |
| ٧٤                                      | نصر بن شبت العقيلي                     |
| ١٠٦                                     | نصير الدين الطوسي                      |
| ٤٩/٣١                                   | نظام الملك                             |
| ٢٧٧/٢٠٧/٢٠٦                             | نوروز الحافظي                          |
|                                         | ( ه )                                  |
| ٩٩/٨٤/٦٧/٦٦/٩/٦/٥                       | هارون الرشيد                           |
| ٢٩/٢٦                                   | هبة الله الشيرازي                      |
| ٥٩٣/٥٨٠                                 | هنرى الثاني ( الملك )                  |
| ٤٩٩/١٧٧/١١٠/١٠٩/١٠٦:١٠٥/١٠٤/١٠٣/١٠١/١٠٠ | هولاكو خان                             |
| ٥٥٨/٥٠١/٥٠٠                             |                                        |
| ٥٦٦/٥٦٥/٤٩٩                             | هيثوم ( ملك أرمينيا )                  |
| ٥٧١                                     | هيو الثالث ( الملك )                   |
|                                         | ( ي )                                  |
| ٥٧/٥٦                                   | يحيى بن زكرويه                         |
| ٦٦                                      | يحيى بن عبد الله بن حسن                |
| ٦٨                                      | يحيى بن عمر بن يحيى                    |

| المفحة              | الاسم                                  |
|---------------------|----------------------------------------|
| ٥٧                  | يحي بن المهدي                          |
| ٢٠٩                 | يشبك الجكمي ( الأمير )                 |
| ٦٥٠/٦٤٩             | يشبك الدوادار                          |
| ٦٥٣/٦٥٢             | يعقوب بن حسن الطويل ( الأمير )         |
| ٣٠٢/١٦٢             | يعقوب بن عبد العزيز ( المستمسك بالله ) |
| ٦٠٦/٢١٥             | يلباي المؤيدي ( السلطان )              |
| ٢٠٢/٢٠٠/١٩٩/١٩٨/١٩٧ | يلبغا العمري ( الأمير )                |
| ٥٠٠/٩٦/٩٥/٩٤        | يوسف بن أيوب ( صلاح الدين )            |
| ١٧٦                 | يوسف الأيوبي ( السلطان الناصر )        |
| ٢١١                 | يوسف بن برسباي ( السلطان )             |
| ١٧٤                 | يوسف بن حمويه ( فخر الدين )            |
| ٦٢٩                 | يوسف الرسولي ( السلطان )               |
| ٦٣٧/٢٩٢/١٦٠/١٥٨     | يوسف بن محمد ( المستنجد بالله )        |
| ٤١/٤٠               | يوسف بن المقتفي لأمر الله              |

| الاسم                       | الصفحة |
|-----------------------------|--------|
| ( أ )                       |        |
| أسماء بنت ابراهيم           | ٤٣٣    |
| أسماء بنت أحمد              | ٤٣٣    |
| أم طالوت بنت ابراهيم        | ٤٣٣    |
| أم محمد بنت أحمد            | ٤٣٣    |
| أم محمد بنت عمر             | ٤٣٣    |
| آمنة بنت ابراهيم            | ٤٣٣    |
| آمنة بنت أحمد               | ٤٣٣    |
| ( ب )                       |        |
| بركة بنت أحمد بن عبد الرحيم | ٤٣٤    |
| ( ج )                       |        |
| جويرة بنت أحمد              | ٤٣٤    |
| جويرية بنت أحمد             | ٤٣٤    |
| جويرية بنت عبد الرحيم       | ٤٣٤    |
| ( خ )                       |        |
| خد يجة بنت عبد الرحمن       | ٤٣٤    |
| خد يجة بنت فخر الدين        | ٤٣٤    |
| ( د )                       |        |
| د نيا بنت حسن               | ٤٣٤    |
| ( ر )                       |        |
| رقية بنت محمد               | ٤٣٤    |
| رقية بنت مرشد               | ٤٣٤    |
| ( ز )                       |        |
| زينب بنت أحمد               | ٤٣٥    |
| زينب بنت سليمان             | ٤٣٥    |

## المفحة

## الاسم

٤٣٥

زينب بنت عبد الرحمن

٤٣٥

زينب بنت عبد الرحيم

٤٣٥

زينب بنت عبد الله

٤٣٥

زينب بنت يحيى

( ش )

١٧٧/١٧٦/١٧٥/١٧٤

شجرة الدر

( ص )

٤٣٦

صفية بنت أحمد

( ض )

٤٣٦

ضيقة بنت محمد

( ع )

٤٣٦

عائشة بنت ابراهيم

٤٣٦

عائشة بنت اسماعيل

( ف )

٤٣٦

فاطمة بنت ابراهيم

٤٣٦

فاطمة بنت ابراهيم

٤٣٧

فاطمة بنت أحمد

٤٣٧

فاطمة بنت أبي بكر

٤٣٧

فاطمة بنت عبد الرحمن

٤٣٦

فاطمة بنت العز

( ك )

٤٣٧

كلثم بنت محمد

٤٣٧

كمالية بنت أحمد

المفحصة

الاسم

( ن )

٤٢٧

نخوة بنت محمد

٤٢٨

نفيسة بنت ابراهيم

( و )

٤٢٧

وجيهة بنت علي

٧٢٧

وسناء بنت عبد الرحمن

-----

-----

-----

-----

-----

( فهرس الأماكن والبلدان )

| المفحة    | البلد     | المفحة     | البلد       |
|-----------|-----------|------------|-------------|
| ٥٢٣       | الرحبة    | ٧٦/٥٢      | أذربيجان    |
| ٨٣        | رقادة     | ١٠٠        | أربل        |
| ١٢٤       | الرقبة    | ٥٦٧/٤٩٩    | أرمينيا     |
| ٦٠٠       | رودس      | ١٩٢        | الاسكندرية  |
| ٩٨/٤٤     | الري      | ٤٥         | أصفهان      |
| ١٢٣/٧٥/٢١ | سامراء    | ٥٨٥        | آمد         |
| ٥٢٩/٩٨    | سمرقند    | ٥٠٧        | الأنبار     |
| ٥٦٦       | سيس       | ٥٤٦        | أنقرة       |
| ٦٠٥       | شرينة     | ٥٦٩/٩٢     | أنطاكية     |
| ٥٦٨       | الشقيف    | ٩٨         | بخارى       |
| ٥٦٧/٥٢٥   | صفد       | ٧٦/٥٣      | البصرة      |
| ٩٦        | صيدا      | ٣٩         | بغداد       |
| ٥٣٤       | طرابلس    | ٥٣٤        | بهنا        |
| ٥٠٧       | عانة      | ٤٧٠        | بيت المقدس  |
| ٥٦٤       | عثليت     | ٥٠٩        | البيرة      |
| ٢٣٢/١٨٣   | عكا       | ٩٩         | تبريز       |
| ٧         | عمورية    | ١٢٤/٤٥/٤٠  | تكريت       |
| ٥٣٤       | عينتاب    | ٥٨٢        | جزيرة أرواد |
| ١١٠       | عين جالوت | ١٧٤        | حصن كيفا    |
| ٦٤١       | غرناطة    | ١١١/١١٠    | حلب         |
| ٤٧٠       | غزة       | ٣٩         | الحلة       |
| ١٠٦       | فارس      | ٥١٩/١١٠/٩٦ | حمص         |
| ٦٦        | فخ        | ١٥٦/٩٤/٧٥  | حمص         |
| ٥٨٧/٢١٠   | قبرص      | ٧٦/٦٨      | خراسان      |
| ٨٣        | قرطبة     | ٤٥/٤٢      | خوزستان     |
| ٦٩        | قزوين     | ٤٧٠/١١٠    | دمشق        |
| ٧٤        | قنسرين    | ٣٠٨/٩٦     | دمياط       |

| المفحة  | البلد   | المفحة   | البلد      |
|---------|---------|----------|------------|
| ٤٤      | نيسابور | ١٣٤      | قوص        |
| ٦٩      | نينوى   | ٩٢       | قونية      |
| ٥٨      | هجر     | ٨٤       | القيروان   |
| ٩٨/٤٤   | همدان   | ٥٦٣      | قيسارية    |
| ٥٠٧     | هيسث    | ٧٩       | الكرخ      |
| ٣٩      | واسط    | ١٠٩      | الكرك      |
| ٥٦٨/٥٦٤ | يافسا   | ١٠٦      | كرمان      |
| ٧٥      | يمك     | ٩٩       | كنجة       |
|         |         | ٧٦/٦٨/٣٩ | الكوفة     |
|         |         | ٦٨٤      | مرج دابق   |
|         |         | ٩٢       | مرعش       |
|         |         | ٥٨٤      | ملطية      |
|         |         | ١٠١      | الموصل     |
|         |         | ٥٠٠      | ميا فارقين |



( فهرس الأشعار )

| المفحة | صدر البيت                     |
|--------|-------------------------------|
| ٧      | أترضى بأن توطأ حريمك عنوة     |
| ٣٣٨    | إذا ما ضاق صدرى لم أجِد لي    |
| ٤٦٧    | ألا هكذا تبني المدارس من بني  |
| ٣٣١    | ان المؤثر فعل من              |
| ٥٨٦    | أيامك الاسلام وابن مليكهم     |
| ٦٥     | بني عمنا لا نصر عندكم لنا     |
| ٥٧٣    | بيننا تراه في الحجاز اذا به   |
| ٤١٧    | تكررت السنون علي حتى          |
| ٦٩٢    | ختم العام بحرب وكدر           |
| ٥٠٩    | خضت الفرات بعسكر أفضى به      |
| ٦٥٧    | السيف والخنجر رباحنا          |
| ٣٤٠    | الضرب بالطار والتشبيب بالقصب  |
| ٤٦٧    | فشيدها للعلم مدرسة غدا        |
| ٦      | فمن يطلب لقاءك أو يرد         |
| ٤٦٧    | قصد الملوك حماك والخلفاء      |
| ٣٩٩    | كل البرية للمنية ما برة       |
| ٤٨٣    | كم حل في دار فبدد شمل من فيها |
| ٣٣٣    | لله في أيامنا نفحات           |
| ٥٤٦    | لما رأته أختها بالأمس قد خرجت |
| ٣٨٣    | ماذا يقول الواصفون له         |
| ٣٨٩    | ما زلت بالسمع أهواكم وما ذكرت |

## الصفحة

## صدر البيت

|     |       |                             |
|-----|-------|-----------------------------|
| ٦٥٨ | ..... | ما عيبكم هذا ولكنـه         |
| ٥٢١ | ..... | مشوا متسابقي الأعضاء فيهم   |
| ٤١٨ | ..... | مصاب لم ينفـس للخنـاق       |
| ٢٧٤ | ..... | الملك فينا ثابت الأساس      |
| ٦٩٢ | ..... | نبكي على مصـر و سكانها      |
| ٤١٤ | ..... | نبـي أحمد وكذا امامـي       |
| ٦٥٨ | ..... | نحن أناس قد غدا شأننا       |
| ٤١٦ | ..... | وعاب سماعي للحديث بعيدما    |
| ٤٢٦ | ..... | وكان من العلوم بحيث يقضى    |
|     | ..... | ولي فرس للخير بالخير ملجم   |
| ٤٧٩ | ..... | ومثذنة كالنجم تشرق في الدجى |
| ٤٢٥ | ..... | ومن يصطبر للعلم يظفر بنيـله |
| ٣٠٣ | ..... | يا أمير المؤمنين أقبل ولا   |
| ٥٧٣ | ..... | يوما بمصر ويوما بالشام      |

( ( فهرس المراجع والمصادر ) )

**اتحاف الوري بأخبار أم القرى :** عمر بن فهد بن محمد ( ت ٨٨٥ هـ ) — تحقيق : فهيم

محمد شلتوت ، مركز البحث العلمي و احياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى .

**اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا :**

أحمد بن علي المقریزی ( ت ٨٥٢ هـ ) — تحقيق جمال الدين الشيال . الناشر :

لجنة احياء التراث الاسلامي ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ .

**آثار البلاد وأخبار العباد :**

زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، ١٤٠٤ هـ ، دار بيروت للطباعة والنشر .

**أحداث التاريخ الاسلامي :**

عبد السلام الترماني ، دار طلاس ، ط ٢٠ ، ١٩٨٨ م ، دمشق .

**الأحكام السلطانية :**

محمد بن حسين الماوردي ( ت ٤٥٨ هـ ) ، صححه وعلق عليه : محمد حامد الفقي

الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ ، شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

**الأحوال السياسية والحضارية في فلسطين خلال عصر دولة المماليك الأولى ( ٦٤٨ – ٧٨٤ هـ )**

رسالة ماجستير من اعداد شكري خليل محمد مقبل ، جامعة الملك سعود ، كلية

الآداب ، قسم التاريخ .

**الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي :**

ريتشارد مورتيل ، الناشر : جامعة الملك سعود بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ

رسالة دكتوراه من كلية الآداب ، قسم التاريخ ، جامعة القاهرة ١٤٠٣ هـ .

**أخبار الأول فيمن تصرف بمصر من أرباب الدول :**

محمد عبد المعطي المنوفي ، المكتبة الملتزمية ، القاهرة ١٣١٥ هـ .

**أخبار الدول المنقطعة :**

علي بن ظافر الأزدي ( ت ٦١٣ هـ ) ، تحقيق محمد بن مسفر الزهراني ١٤٠٨ هـ .

**الأخبار الطوال :**

أحمد بن داود الدينوري ( ت ٢٨٢ هـ ) ، تحقيق عبد المنعم عامر و جمال الدين  
الشيال ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٠ م ، دار احياء الكتب العربية .

**أخبار القرامطة :**

سهيل زكّار ، دار الكوثر بالرياض ، ١٤١٠ هـ .

**أخبار مصر :**

محمد بن عبيد الله بن ميسّر ( ت ٤٢٠ هـ ) ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، وتيارى  
بيانكي ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، ١٣٩٧ هـ .

**اخيرة المعاليك :**

أحمد الرمال بن زنبيل ( ت ٩٦٠ هـ ) ، تحقيق عبد المنعم عامر .

**الأدب في العصر المملوكي :**

محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ م .

**الأدب في مصر :**

محمد عبد المنعم خفاجي ، المطبعة المنيرية ، القاهرة .

**الأزهر : تاريخه وتطوره :**

وزارة الأوقاف وشئون الأزهر بالقاهرة ، ١٣٨٣ هـ .

**الأزهر في ألف عام :**

محمد عبد المنعم خفاجي ، المطبعة المنيرية ، ١٣٧٤ هـ .

**استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ المصري الوسيط :**

علي ابراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩ م .

**الاسلام بين العلماء والحكام :**

عبد العزيز البدرى ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ، ١٣٨٥ هـ .

**الاسلام والحضارة العربية :**

محمد كردعلي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ،  
القاهرة ، ١٩٦٨ م .

**أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي :**

مأمون فريز جرّار، مكتبة الأقصى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ ، عمان ، الأردن .

**الأعلام :**

خير الدين الزركلي ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٤ م ، دار العلم للملايين ، بيروت  
لبنان .

**الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة :**

عز الدين محمد بن علي بن شداد ( ت ٦٨٤ هـ ) ، تحقيق سامي الدهان ،  
المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ١٣٧٥ هـ .

**الاعلام بأعلام بيت الله الحرام :**

قطب الدين محمد بن أحمد النهرواني الحنفي ( ت ٩٩٠ هـ ) .

**الاعلام بوقيات الأعلام :**

محمد بن أحمد الذهبي ( ت ٧٤٨ هـ ) تحقيق رياض عبد الحميد مراد ، عبد الجبار  
زكار ، مركز الماجد للثقافة والتراث ، دبي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢ ، الناشر  
دار الفكر المعاصر ، بيروت .

**اعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب :**

صلاح الدين المنجد ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨ م ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ،  
لبنان .

**اعلام السورى بمن ولي من الأتراك نائبا بد مشق الشام الكبرى :**

محمد بن طولون الصالحي الدمشقي ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دمشق ١٣٨١ هـ .

**الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملا عمن على ديار المسلمين :**

أحمد علي الحريري ، تحقيق سهيل زكار ، مكتبة دار الملاح ، دمشق ، ١٤٠١ هـ .

**أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام :**

عمر رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٩ هـ .

**الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ :**

محمد بن عبد الرحمن السخاوي ( ت ٩٠٢ هـ ) ، تحقيق محمد عثمان الخشت  
مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع ، القاهرة .

**اغاثة الأمة بكشف الغمة :**

أحمد علي المقریزی ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، جمال الدين الشيال  
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٩ هـ .

**أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي الى عام ١٩٢٢ م :**

جاك تاجر ، مكتبة كراسات التاريخ المصري ، ١٩٥١ م .

**الألقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار :**

حسن الباشا ، دار النهضة العربية ١٩٧٨ م ، القاهرة .

**الامارات الأرتقية في الجزيرة والشام ( ٤٦٥ – ٨١٢ هـ / ١٠٧٢ – ١٤٠٩ م ) :**

عماد الدين خليل ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠ هـ ، مؤسسة الرسالة .

**أمراء دمشق في الاسلام :**

صلاح الدين المفدي . تحقيق صلاح الدين المنجد ، دار الفكر للطباعة  
والنشر ، دمشق ١٩٥٥ م .

**إنباء الغمر بأنباء العمر :**

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ( ت ٨٥٢ هـ ) ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية  
بـحيد رآباد ، الهند ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٧ هـ .

**الأنباء في تاريخ الخلفاء :**

محمد بن علي بن محمد بن العمراني ( ت ٥٨٠ هـ ) ، تحقيق قاسم السامرائي  
دار العلوم للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .



**إنباء الهصر بأبناء العصر :**

علي علي بن داود الجوهري الصيرفي ، تحقيق حسب حبشي ، دار الفكر العربي  
١٩٧٠ م .

**الانتمار لواسطة عقد الأمصار :**

ابراهيم بن محمد ايدمر العلائي الشهير بابن دقماق ، المكتب التجاري للطباعة  
والنشر والتوزيع ، بيروت .

**أهل الذمة في العصور الوسطى :**

قاسم عبده قاسم ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧ م ، دار المعارف ، القاهرة .

**أوراق من حياة شيخ الاسلام ابن تيمية :**

محمد ابراهيم الشيباني ، مكتبة ابن تيمية ، الكويت ، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ .

**أوضاع الدول الاسلامية في الشرق الاسلامي :**

سعد محمد الغامدي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .

**أوضح الاشارات فيمن ولي مصر والقاهرة من الوزراء والباشاات :**

أحمد عبد الغني ، تحقيق فؤاد محمد الماوي ، ١٩٧٧ م .

**الأيوبيون والمماليك في مصر والشام :**

سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٦ م .

( ب )

**البحر الذي زخر في شرح ألفية الأثر :**

للسيوطي ( ٩١١ هـ ) ، رسالة ماجستير تحقيق أنيس أحمد طاهر الأند ونيسي ،  
اشراف الدكتور سعدى الهاشمي ، شعبة السنة بقسم الدراسات العليا بالجامعة  
الاسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤٠٦ هـ .

**البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية :**

سعاد محمد ماهر ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ م .

**بحوث في تاريخ الحضارة الاسلامية :**

عبد الرحمن زكي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٨٣ م .

**بحوث في التاريخ الاسلامي :**

• فاروق فوزى عمر ، الناشر دار القلم للطباعة ، الطبعة الأولى ١٩٧٧ م ، بيروت .

**بدائع الزهور في وقائع الدهور :**

محمد بن أحمد بن اياس الحنفي ، تحقيق محمد مصطفى ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ  
• الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

**بدر الدين العيني وأثره في علم الحديث :**

• صالح يوسف معتوق ، دار البشائر الاسلامية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ .

**البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع :**

محمد بن علي الشوكاني ( ت ١٢٥٠ هـ ) ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت  
• لبنان .

**بديعة البيان عن موت الأعيان : ( مخطوط )**

لابن ناصر الدين الدمشقي ، مكتبة المخطوطات بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة  
• برقم ( ٤٢٢ ) .

**بغداد مدينة السلام :**

• صالح أحمد العلي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٥ م .

**بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة :**

عبد الرحمن السيوطي ( ت ٩١١ هـ ) ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، المكتبة  
• العربية ، بيروت .

**بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي :**

• عمام الدين عبد الرؤوف ، الطبعة الأولى ١٩٧٥ م ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

**بلاد الحجاز في العصر الأيوبي :**

• عائشة عبد الله باقاسي ، منشورات نادي مكة الثقافي ، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ .

**بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ( ٤٦٣ – ٤٩١ هـ ) :**

• علي محمد الغامدي ، المكتبة الفيصلية .

**بلاد الهند في العمر الاسلامي :**

• عمام الدين عبد الرؤوف الفقي ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .

**بلدان الخلافة الشرقية :**

كي لسترنج • ترجمة كوركيس عواد ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ ، مؤسسة الرسالة  
بيروت • لبنان •

**بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ( ٦٢٨ – ٩٢٣ هـ ) :**

محمد عبد العال أحمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ١٩٨٠ م •

**البنية الادارية للدولة العباسية في القرن الثالث الهجري :**

عبد الكريم حتاملة ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ، الناشر جامعة اليرموك ، الأردن ،  
عمان •

( ت )

**تاريخ الأدب العربي :**

أحمد حسن الزيات ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة ٢٦ •

**تاريخ الأدب العربي :**

عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٢ م •

**تاريخ الأدب العربي في عصر الدول والامارات : مصر والشام :**

شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة •

**تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي :**

عبد العزيز السالم ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢ م ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية •

**تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي :**

حسن ابراهيم حسن ، الطبعة السابعة ، ١٩٦٥ م •

**التاريخ الاسلامي : آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية :**

ابراهيم العدوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٣٩٦ هـ •

**التاريخ الاسلامي العام :**

علي حسن ابراهيم ، مكتبة النهضة المصرية •

**التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين ، دراسات نقدية في تفسير التاريخ :**

دار اقرأ ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ م •

**تاريخ أم القرى ومكانة المرأة العلمية فيها :**

ابراهيم حمود المشيقح ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ، مطابع المنار بالقميم .

**التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية :**

علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري ( ت ٦٣٠ هـ ) ، تحقيق

عبد القادر طليعات ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، ١٣٨٢ هـ .

**تاريخ البحرية الاسلامية :**

أحمد مختار العبادي ، عبد العزيز سالم ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ م .

**تاريخ الجامع الأزهر :**

محمد عبد الله عنان ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٧٨ هـ .

**التاريخ والجغرافيا في العصور الاسلامية:**

عمر رضا كحالة ، المطبعة التعاونية بدمشق ، ١٣٩٢ هـ .

**تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك الى منتصف القرن الخامس الهجري :**

محمد جمال الدين سرور ، دار الفكر العربي ، ١٣٨٤ هـ .

**تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى :**

عبد المنعم ماجد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٨ م .

**تاريخ الحضارة والفكر الاسلامي :**

أبوزيد شلبي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٣٨٣ هـ .

**التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي :**

يوسف غوانمة ، دار الفكر للنشر ، الطبعة الثانية ١٩٨٢ م ، الأردن عمان .

**تاريخ الحكماء : اخبار العلماء بأخبار الحكماء :**

جمال الدين علي بن القفطي ، مكتبة المثنى ، بغداد .

**تاريخ ابن خلدون : ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم****من ذوى الشأن الأكبر :**

تحقيق خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكّار ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ، دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

**تاريخ الخلفاء :**

عبد الرحمن السيوطي ( ت ٩١١ هـ ) ، تحقيق محمد بن محي الدين عبد الحميد ،  
مطبعة المدني ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٣٨٣ هـ .

**تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس :**

حسين بن محمد الديار بكري ، الطبعة الأولى ١٣٠٢ هـ ، مطبعة عثمان  
عبد الرزاق ، القاهرة .

**تاريخ دمياط منذ أقدم العصور :**

نقولا يوسف ، الاتحاد القومي بدمياط .

**تاريخ دول الاسلام :**

رزق الله الصديقي ، مطبعة الهلال مصر ، القاهرة ، ١٣٢٥ هـ .

**تاريخ الدول الإسلامية :**

أحمد زيني دحلان .

**تاريخ الدولة العباسية :**

نبيلة حسن ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية .

**تاريخ الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية :**

علي حسون ، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ ، المكتب الاسلامي ، دمشق .

**تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي :**

خليل السامرائي / طارق سلطان / جزيل عبد الجبار ، دار الكتب للطباعة  
والنشر ، الموصل ١٩٨٨ م .

**تاريخ الدولة العلية العثمانية :**

محمد فريد بك المحامي ، تحقيق احسان حقي ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان  
الطبعة السادسة ، ١٤٠٨ هـ .

**تاريخ الدولة الفاطمية :**

حسن ابراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٩٨١ م .

**تاريخ سواكن والبحر الأحمر :**

محمد صالح ضرار ، الدار السودانية للكتب ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١ هـ .

**التاريخ السياسي لشرق الأردن في العصر المملوكي :**

يوسف درويش غوانمة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢ م ، دار الفكر للنشر والتوزيع  
عمان ، الأردن .

**تاريخ الشعوب الاسلامية :**

كارل بروكلمان ، ترجمة : نبيه أمين فارس ، منير البعلبكي ، الطبعة الخامسة  
١٩٦٨ م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

**تاريخ العالم الاسلامي :**

ابراهيم أحمد العدوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٤ م .

**تاريخ العالم الاسلامي الحديث والمعاصر :**

اسماعيل ياغي ، محمود شاكر ، دار المريخ ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ .

**تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار :**

عبد الرحمن الجبرتي ، دار الجيل ، بيروت .

**تاريخ العراق في العصر السلجوقي :**

حسين أمين ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٣٨٥ م .

**تاريخ العراق في العهد العثماني :**

علي شاكر علي ، مكتبة ٣٠ تموز ، نينوى ، العراق ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ م .

**تاريخ العرب العام :**

المستشرق ل . أ . سيديو ، ترجمة عادل زعيتر .

**تاريخ عصر الخلافة العباسية :**

يوسف العث ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، دار الفكر ، دمشق .

**تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى :**

سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت  
الطبعة الأولى ، ١٩٧٦ م .

**تاريخ عمارة المسجد الحرام :**

حسين عبد الله باسلامة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٠ هـ ، سلسلة الكتاب العربي  
السعودي ، دار تهامة .

## تاريخ ابن الفرات :

محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ، نشره حسن محمد الشماع ، مطبعة حـداد  
البصرة ، ١٣٨٦ هـ .

## تاريخ الفكر العربي :

عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٣ م .

## تاريخ فلاسفة الاسلام في المشرق والمغرب :

محمد لطفي جمعة ، مطبعة المعارف بمصر ، ١٣٤٥ هـ .

## تاريخ مختصر الدول :

محمد بن أحمد بن العبري ( ت ٦٨٥ هـ ) ، دار المسيرة ، بيروت .

## تاريخ مدينة جدة :

عبد القدوس الأنصاري ، دار الأصفهاني ، بجدة ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٣ هـ .

## تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي :

عبد العزيز سالم ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٦ م .

## تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامي الى هذا العصر :

جوجي زيدان ، مطبعة الهلال ، الطبعة الثالثة ، ١٩٢٥ م .

## تاريخ مكة : دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمارة :

أحمد السباعي ، مطابع دار قريش بمكة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٠ هـ .

## التاريخ المنصوري :

محمد بن علي الحموي ، نشره بطرس غرياز نيوج ، دار النشر للآداب الشرقية  
موسكو ، ١٩٦٠ م .

## تاريخ الموصل :

سعيد الديوه چي ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٤٠٢ هـ .

## تاريخ الوطن العربي والغزو المليبي :

خاشع المعاضيدى ، سوادى عيد محمد ، دريد نوري .

## تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي :

يوسف درويش غوانمة ، دار الحياة للنشر ، الأردن ، عمان ، الطبعة الأولى ١٩٨٢ م .

**التبر المسبوك في ذيل السلوك :**

محمد بن عبد الرحمن السخاوى ( ت ٩٠٢ هـ ) ، مكتبة الكليات الأزهرية .

**تتمة المختصر في أخبار البشر :**

زين الدين عمر بن الوردى ( ت ٧٤٩ هـ ) ، تحقيق أحمد البدر اوى ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٩ هـ ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .

**تجارب الأمم :**

أحمد بن محمد المعروف بمسكويه ، باعتنا ، هـ . ف . آمد روز ، شركة التمدن الصناعية ، مصر ، ١٣٣٢ هـ .

**التجارة والملاحة في البحر الأحمر في عصر المعاليك ( ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ ) :**

عبد العزيز راشد ، رسالة ماجستير مقدمة لقسم الحضارة والتاريخ بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ، ١٤٠٠ هـ .

**تحفة الأحياب وبنية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات :**

علي بن أحمد السخاوى الحنفي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ هـ ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .

**تحفة الأنام مختصر تاريخ الاسلام :**

عبد الباسط الفاخورى ( ت ١٣٢٣ هـ ) ، تحقيق نزار الفاخورى ، دار الجنان ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ .

**التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة :**

شمس الدين محمد السخاوى ( ت ٩٠٢ هـ ) ، عني بنشره أسعد طرابزونى ، ١٣٩٩ هـ .

**التحفة الملوكية في الدولة التركية :**

بيبرس المنصورى ( ت ٧٢٥ هـ ) ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ .

**تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين :**

عبد الله الشرفاوى ، المكتبة الملتزمية ، القاهرة ١٣١٥ هـ .

**تذكرة الحفاظ :**

محمد بن أحمد الذهبي ( ٧٤٨ هـ ) ، دار احياء التراث العربي .



**تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه :**

الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب ( ت ٧٧٩ ع ) ، تحقيق محمد محمد أمين ،  
مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٦ م .

**تراث القاهرة العلمي في العصر الاسلامي :**

عبد الرحمن زكي ، مكتبة الأنجلو بالقاهرة ، ١٩٦٩ م .

**تراجم القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين :**

محمد بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن أبي شامة المقدسي ( ت ٦٦٥ هـ ) ، الطبعة  
الأولى ، ١٣٦٦ هـ .

**الترك في مؤلفات الجاحظ ومكانتهم في التاريخ الاسلامي حتى أواسط القرن الثالث**

الهجري : زكريا كتاجي ، دار الثقافة ، بيروت .

**التصوف في ميزان البحث والتحقيق :**

عبد القادر حبيب الله السندي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ ، مكتبة ابن القسيم  
المدينة النبوية .

**التصوف : المنشأ والصادر :**

احسان الهي ظهير ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ ، ادارة ترجمان السنّة ،  
لاهور ، باكستان .

**التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا :**

عبد الرحمن بن خلدون ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، ١٩٧٩ م .

**التفسير والمفسرون :**

محمد حسين الذهبي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٩٦ هـ .

**تقدیس الأشخاص في الفكر الصوفي :**

محمد أحمد لوح ، اشراف صالح السحيمي ، شعبة العقيدة بالدراسات العليا  
بالجامعة الاسلامية ، بالمدينة المنورة ، ١٤١٢ هـ .

**تقويم النيل :**

أمين سامي باشا ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٣٣٤ هـ .

**التكملة لوفيات النقلة :**

عبد العظيم عبد القوى المنذرى ( ت ١٥٦ هـ ) ، تحقيق بشار عواد معروف  
مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ، ١٣٩١ هـ .

**التنبيه والاشراف :**

علي بن الحسين المسعودى ، تصحيح ومراجعة عبد الله بن اسماعيل الصاوى  
دار العاوى للطباعة والنشر والتأليف ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ .

**تهذيب الرياسة وترتيب السياسة :**

محمد بن علي القلعي ( ت ٦٣٠ هـ ) ، تحقيق ابراهيم يوسف مصطفى عجمو ،  
مكتبة المنار الزرقاء ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ .

**تيمورلنك :**

أكرم حسن العلبي ، دار المأمون للتراث ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٧ هـ ، دمشق .

**تيمورلنك قاهر العالم :**

السيد فرج . مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٧ م .

**تيمورلنك ودولة المماليك :**

أحمد عبد الكريم سليمان ، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ،  
الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ .

( ث )

**ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد :**

أحمد علبي ، دار ومكتبة الحياة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٦١ م .

( ج )

**الجامع الأزهر - نبذة في تاريخه :**

محمود أبو العينين ، مطبعة الأزهر ، ١٣٦٨ هـ .

**جامع التواريخ :**

رشيد الدين فضل الله الهمداني ، ترجمة محمد صادق نشأت ، فؤاد عبد المعطي  
الحياد ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

**الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير :**

علي بن أنجب بن الساعي الخازن ( ت ٦٧٤ هـ ) ، نشر وتعليق مصطفى جواد  
المطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد ، ١٣٥٣ هـ .

**جامع المسانيد والسنن :**

للحافظ ابن كثير ، رسالة دكتوراه من شعبة السنة بالدراسات العليا بالجامعة  
الاسلامية بالمدينة المنورة ، تحقيق صالح أحمد الوعيل ، باشراف الدكتور  
أكرم ضياء العمرى ، ١٤٠٥ هـ .

**الجهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية :**

حامد غنيم أبو سعيد ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، الطبعة  
الثانية ، ١٤٠٤ هـ .

**جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجرى :**

عبد الله سعيد محمد الغامدى ، رسالة دكتوراه من مطبوعات جامعة أم القسرى  
بمكة المكرمة ، معهد البحوث العلمية واهياء التراث الاسلامي ، ١٤١٠ هـ .

**جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور ، وأخبار الديار المصرية :**

مؤلف مجهول ، ( مخطوط ) بمكتبة عارف حكمت ، برقم ٩٠٠/٧٨ .

( ح )

**حاضر حاضر العالم الاسلامي وقضايا المعاصرة :**

جميل بن عبد الله المصرى ، دار أم القرى ، عمان ، الأردن ، الطبعة  
الثانية ، ١٤٠٩ هـ .

**حجة وقف الأشرف برسباى :**

أحمد درّاج ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

**الحدود الاسلامية البيزنطية :**

فتحي عثمان ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة .

**الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي :**

نظير حسان سعداوى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

**حركات الشيعة المتطرفين ابان العصر العباسي الأول :**

• محمد جابر عبد العال ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٧٣ هـ .

**الحركة المليبية :**

• سعيد عبد الفتاح عاشور ، الطبعة الأولى ، ١٩٧١ م ، القاهرة .

**الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول :**

• عبد اللطيف حمزة ، دار الفكر العربي ، الطبعة الثامنة ، ١٩٦٨ م .

**الحروب المليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها :**

• حسين أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .

**الحروب المليبية في المشرق والمغرب :**

• محمد العروسي المطوي ، دار الغرب الاسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠١ هـ .

**حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة :**

• عبد الرحمن السيوطي ( ت ٩١١ هـ ) ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ،

المكتبة الفيصلية ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٧ هـ .

**حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية :**

• شافع بن علي بن عباس الكاتب ، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله الخويطر .

**الحضارة العربية الاسلامية :**

• شوقي أبو خليل ، ١٩٨٧ م .

**حقيقة التصوف وموقف الصوفية من أصول العباداة :**

• صالح بن عبد الله الفوزان ، الطبعة الأولى ، دار العاصمة ، الرياض .

**حلب القديمة والحديثة :**

• عبد الفتاح رؤاس قلعجي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

**الحلة السيرة :**

• محمد بن عبد الله القضاعي ( ت ٦٥٨ هـ ) ، تحقيق حسين مؤنس ، الشركة

العربية للطباعة والنشر ، القاهرة .

**الحواضر الاسلامية الكبرى :**

• عماد الدين عبد الرؤوف ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٦ م .

**الحياة الاجتماعية في بغداد ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) :**

• رمزية الأطرقي ، مطبعة جامعة بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ م .

**الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي ( ٢٥٩ - ٥٦٧ هـ ) :**

• خاشع المعاضدي ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٥ م ، دار الحرية للطباعة ، بغداد .

**الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة :**

• محمد جمال الدين سرور ، الطبعة الخامسة ، ١٣٩٥ هـ ، دار الفكر العربي .

**حياة شيخ الاسلام ابن تيمية :**

• محمد بهجة البيطار ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ هـ ، المكتب الاسلامي ، بيروت .

**الحياة العلمية في مكة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين :**

• طرفة عبد المحسن العبيكان ، رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ بكلية الآداب

• جامعة الملك سعود بالرياض ، ١٤٠٦ هـ .

**الحياة الفكرية في القرن السابع الهجري :**

• محمد مفيد آل ياسين ، دار العربية للطباعة ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩ هـ .

( خ )

**خانقاه فرج بن برقوق وماحولها :**

• حسن عبد الوهاب ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

**خطط بغداد في العهود العباسية الأولى :**

• يعقوب ليسر . ترجمة صالح أحمد العلي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٤ م .

**الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة :**

• علي مبارك ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩ م ، مطبعة دار الكتب .

**خطط الشام :**

• محمد كرد علي ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١ هـ ، دار العلم للملايين ، بيروت .

خلاصة الذهب المسبوك :

عبد الرحمن سنيط قنيتو الأربلي ( ت ٧١٧ هـ ) ، مكتبة الكثنى ، بغداد .

الخلافة في الحضارة الاسلامية :

أحمد رمضان أحمد ، دار البيان العربي للطباعة والنشر ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ .

ابن خلدون - حياته وتراثه الفكري :

محمد عبد الله عنان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٥ هـ .

( د )

الدارس في تاريخ المدارس :

عبد القادر محمد النعيمي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

دراسات تاريخية :

عماد الدين خليل ، المكتب الاسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ .

دراسات في تاريخ الدولة العباسية :

حسن الباشا ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .

دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية :

جمال الدين الشيال ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٨٤ هـ .

دراسات في الحضارة الاسلامية :

حسن الباشا ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٥ م .

دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى :

جوزيف نسيم يوسف ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٣ م .

دراسات في تاريخ مصر الاسلامية وحضارتها :

صابر محمد دياب ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٣٩٦ هـ .

دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي :

فوزى جرجس ، مطبعة الدار المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

دراسة لسقوط ثلاثين دولة اسلامية :

عبد الحلیم عويس ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢ هـ ، دار الشروق بجده .

دراسة وثيقة للتاريخ الاسلامي ومصادره :

محمد ماهر حمادة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

الدر المنتخب في تاريخ المصريين والعرب :

أترابي أبو العز ، مطبعة التأليف بمصر ، ١٩٨٤ م .

الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية :

محمد بن محمد بن صصرى ، تحقيق وليم م . برينر ، جامعة كليفلورنيا .

الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة :

عبد القادر بن محمد الأنصارى الجزيرى ، أعده للنشر حمد الجاسر .

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة :

أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني ( ت ٨٥٢ هـ ) ، دار الجيل ، بيروت .

ابن دقيق العيد - حياته وديوانه :

علي صافي حسين ، دار المعارف بمصر .

الدليل الشافي على المنهل الصافي :

جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ( ت ٨٧٤ هـ ) ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ،

مركز البحث العلمي و احياء التراث الاسلامي ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ١٣٩٩ هـ .

الدليل الشافي على المنهل الصافي :

يوسف بن تغرى بردى ( ت ٨٧٤ هـ ) ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، مكتبة

الخانجي ، القاهرة .

دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ( ٩٠٦ - ٩٢٢ هـ ) :

أكرم حسين العلبي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ ، الشركة المتحدة للطباعة

والنشر ، دمشق .

دور الأزهر في الحياة المصرية ابان الحملة الفرنسية :

متطفى محمد رمضان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ .

الدولة الاسلامية في العصر العباسي :

حسين محمد سليمان ، عالم الكتب بالرياض ، ١٤٠٤ هـ .

الدويلات الاسلامية في المشرق :

محمد علي حيدر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٣٩٣ هـ .

الدول الاسلامية المستقلة في الشرق :

عصام الدين عبد الرؤوف ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

دولة الاسماعيليه في ايران :

محمد السعيد سليمان ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .

الدولة الخوارزمية :

نافع توفيق عبود ، مطبعة جامعة بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨ م .

الدولة الفاطمية في مصر :

محمد جمال الدين سرور ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ .

ديوان الجنيد :

عبد العزيز عبد الله السلومي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ ، مكتبة الطالب

الجامعي ، مكة المكرمة .

( ذ )

الذهب الميبوك في ذكر من حج البيت من الخلفاء والملوك :

تقي الدين أحمد المقريزي ، تحقيق جمال الدين الشيال ، الطبعة الأولى ،

١٩٥٥ م ، مكتبة الخانجي بمصر .

الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الاسلام :

بشار عواد معروف ، مطبعة عيسى البابي وشركاه ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٦ م .

ذيل تاريخ دمشق :

حمزة بن القلانسي ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨ م .



**ذيل تذكرة الحفاظ :**

• أبي المحاسن محمد بن علي الحسيني ( ت ٧٦٥ هـ ) ، دار احياء التراث العربي .

**ذيل طبقات الحفاظ :**

• جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ( ت ٩١١ هـ ) ، دار احياء التراث ، بيروت .

**الذيل على رفع الاصر ، أوبغية العلماء و الرواة :**

• محمد بن عبد الرحمن السخاوي ( ت ٩٠٢ هـ ) ، تحقيق جودة هلال ، و محمد

• محمود صبح ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

**الذيل على العبر في خبر من غير :**

• أحمد عبد الرحيم بن العراقي ( ت ٨٢٦ هـ ) ، تحقيق صالح مهدي عباس .

• مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ .

**ذيل كتاب تجارب الأمم :**

• ظهير الدين الروذراوري ، صححه ، هـ . ف . آمد روز ، شركة التمدن الصناعية .

• بمصر ، ١٣٣٤ هـ .

**ذيل مرآة الزمان :**

• موسى بن محمد اليونيني ( ت ٧٢٦ هـ ) ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية

• بحيدرآباد ، الهند ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٤ هـ .

( ر )

**رحلة ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار :**

• محمد بن عبد الله اللواتي ، ابن بطوطة ، تحقيق علي المنتصر الكتاني ، مؤسسة

• الرسالة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٥ هـ .

**رسالة ابن فضلان :**

• أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد ، تحقيق سامي الدهان ، مطبوعات المجمع

• العلمي العربي بدمشق ، ١٣٧٩ هـ .

**الرسالة القبرصية ( رسالة شيخ الاسلام ابن تيمية الى سرجواس ملك قبرص ) :**

• علق عليها علاء الدين دمج ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ ، دار ابن حزم

• بيروت .

**رسوم دار الخلافة :**

هلال بن المحسن الصابي ، ( ت ٤٤٨ هـ ) ، تحقيق ميخائيل عواد ، دار الرائد  
العربي ، لبنان ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ هـ .

**رفع الاصر عن قضاة مصر :**

أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني ( ت ٨٥٢ هـ ) ، تحقيق حامد عبد المجيد  
و محمد المهدي ، و محمد الماوي ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٥٢ م .

**الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ( ططر ) :**

محمود بن أحمد ، المعروف بالبدر العيني ( ت ٨٥٥ هـ ) ، تحقيق هانس أرست  
دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

**الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر :**

محيي الدين بن عبد الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٦ هـ .

**الروض المعطار في خبر الأقطار :**

محمد عبد المنعم الحميري ( ت ٩٠٠ هـ ) ، تحقيق احسان عباس ، الطبعة  
الثانية ، ١٩٨٤ م ، مكتبة لبنان ، بيروت .

**الروضتين في أخبار الدولتين ، النورية ، والملاحية :**

عبد الرحمن المقدسي ، المعروف بأبي شامة ، تحقيق محمد حلمي أحمد ،  
و محمد محطفي زيادة ، دار الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

**( ز )****زبدة التواريخ : أخبار الأمراء والملوك السلجوقية :**

صدر الدين علي بن ناصر الحسيني ، تحقيق محمد نور الدين ، الطبعة الأولى ،  
١٤٠٥ هـ ، دار اقرأ ، بيروت .

**زبدة الحلب من تاريخ حلب :**

عمر بن أحمد بن العديم ( ت ٦٦٠ هـ ) ، تحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي  
بدمشق ، ١٣٨١ هـ .

**زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة :**

بيبرس الدوادار ، تحقيق زبيدة محمد عطا ، شركة المدينة للطباعة والنشر .

**زبدة كشف المعالك وبيان الطرق والمساك :**

غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، تحقيق بولس / أوليس . مطبعة  
الجمهورية ، باريس ، ١٨٩٤ م .

\_\_\_\_\_ ( س ) \_\_\_\_\_

**السخاوى مؤرخا :**

عبد الله بن ناصر عبد الله الشقارى ، رسالة دكتوراه مقدمة الى قسم التاريخ  
والحفارة بكلية العلوم الاجتماعية ، بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلاميـة  
باليـاض .

**سقوط الدولة العباسية :**

سعد محمد الغامدى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ ، مؤسسة الرسالة .

**السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ونظام الوقف في عهده :**

حياة ناصر الحجى ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ .

**سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي :**

عبد الملك بن حسين العمامى ( ت ١١١١ هـ ) ، المطبعة السلفية ومكتبتها .

**سنا البرق الشامى :**

الفتح بن علي البندارى ، ( المختصر من كتاب البرق الشامى ) : للعماد الأصفهاني  
تحقيق : فتحية النبراوى ، مكتبة الخانجى ، مصر ، ١٩٧٩ م .

**السياسة الشرعية في اصلاح الراعى والرعية :**

شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ( ت ٧٢٨ هـ ) ، تحقيق محمد البنا ، ومحمد عاشور  
دار الشعب ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ .

**سياسة الفاطميين الخارجية :**

محمد جمال الدين سرور ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٩٦ هـ .

**سيدات البلاط العباسى :**

مصطفى جواد ، دار الفكر للجميع ، بيروت .

**سير أعلام النبلاء :**

محمد أحمد الذهبى ( ت ٧٤٨ هـ ) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤٠٦ هـ .

**سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي :**

محمد بن أحمد النسوي ، تحقيق حافظ أحمد حمدي ، دار الفكر العربي ، القاهرة  
١٩٥٣ م .

**سيرة ابن طولون :**

عبد الله بن محمد المديني ، تحقيق محمد كرد علي ، المكتبة العربية  
بدمشق ، ١٣٥٨ هـ .

**سيرة القاهرة :**

ستانلي لينبول . ترجمة حسن ابراهيم حسن ، وعلي ابراهيم حسن ، مكتبة  
النهضة المصرية ، ١٩٥٠ م .

**( ش )****شذوذ العقود في ذكر النقود :**

أحمد بن علي المقریزی ، تحقيق محمد السيد علي ، المكتبة الحيدريسة ،  
النجف ، الطبعة الخامسة ، ١٣٨٧ هـ .

**شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام :**

محمد بن أحمد الفاسي المكي ( ت ٨٢٢ هـ ) ، تحقيق لجنة من كبار العلماء  
والأدباء ، دار الكتب العممية ، بيروت ، الطبعة الأولى .

**شفاء القلوب في مناقب بني أيوب :**

أحمد بن ابراهيم الحنبلي ( ت ٨٧٦ هـ ) ، تحقيق ناظم رشيد ، دار الحريسة  
للطباعة ، بغداد .

**شمس العرب تسطع على الغرب :**

زيغريد هونكه . دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٢ هـ .

**الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية :**

مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي ( ت ١٠٣٣ هـ ) ، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف  
مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ هـ .

**شيخ الاسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث وعلومه :**

اعداد عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي ، اشراف الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد  
رسالة دكتوراه من شعبة السنة بالدراسات العليا بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة  
١٤٠٦ هـ .

صبح الأعشى في صناعة الانشاء :

أحمد بن علي القلقشندی ( ت ٥٨٢١ هـ ) ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف  
والترجمة والطباعة والنشر ، ١٣٨٣ هـ .

صحيح البخارى :

محمد بن اسماعيل البخارى ( ت ٢٥٦ هـ ) ، طبعة المكتبة الاسلامية باتانبول  
تركيا ، ١٩٨٢ م ، توزيع مكتبة العلم بجده .

صحيح مسلم :

مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ( ت ٢٦١ هـ ) ، مطبعة محمد علي صبيح  
وأولاده ، القاهرة ، ١٣٣٤ هـ .

صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير و سلطان : ( مخطوط ) .

مصطفى بن محمد المفوى ( ت ١٢٣٠ هـ )

صلاح الدين والمليبيون :

عبد الله سعيد محمد الغامدى ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ١٤٠٢ هـ .

الصوفية معتقدا و مسلكا :

صابر طعيمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ ، شركة العبيكان للطباعة والنشر بالرياض .

الصوفية ، نشأتها وتطورها :

محمد العبدية طارق عبد الحليم ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢ هـ ، مكتبة الكوثر .

صيد الخاطر :

عبد الرحمن بن الجوزى ، تحقيق محمد الغزالي ، دار الكتب الحديثة بمصر .

ضبط الأعلام :

أحمد تيمور باشا ، مطبعة احياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٦٦ هـ .

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع :

محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

## ( ط )

## طبقات المفسرين : ( مخطوط )

جلال الدين السيوطي ( ت ٩١١ هـ ) ، مكتبة عارف حكمت برقم ٢٥٨ / ٩٠٠ .

## طبقات المفسرين :

محمد بن علي الداوودي ( ت ٩٤٥ هـ ) ، تحقيق لجنة من العلماء ، الطبعة الأولى

١٤٠٣ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

## طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي :

عبد العزيز سالم ، مطبعة رمسيس بالاسكندرية ، ١٩٦٧ م .

## طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب :

نعيم زكي فهمي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ م .

## طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر :

عبد المنعم ماجد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨ م .

## ( ظ )

## الظاهر بيبرس :

سعيد عبد الفتاح عاشور ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة

والنشر ، مطبعة مصر ، ١٣٨٢ هـ ، القاهرة .

## الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره :

محمد جمال الدين سرور ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .

## الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية :

بسام العسلي ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩ هـ ، دار النفاثس ، بيروت .

## ظهر الاسلام :

أحمد أمين ، الطبعة الخامسة ، دار الكتاب العربي ، ١٣٩٤ هـ ، لبنان ، بيروت .

## ( ع )

## العالم الاسلامي :

عمر رضا كحالة ، المطبعة الهاشمية بدمشق . الطبعة الثانية ، ١٣٧٧ هـ .

**العالم الاسلامي في التاريخ الحديث :**

مصطفى محمد رمضان ، مطبعة الجبلاوى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٤٠٥ هـ .

**العباسيون الأوائل :**

فاروق عمر ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ، دار الارشاد للطباعة والنشر

والتوزيع ، بيروت .

**العبر في خبر من غير :**

أحمد بن محمد ، شمس الدين الذهبي ( ت ٧٤٨ هـ ) ، تحقيق محمد السعيد بسيوني

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ .

**عجائب الأقاليم السبعة :**

تأليف سهراب ، تصحيح هانس مريك ، طبع في فيينا ، ١٣٤٧ هـ .

**عجائب المقدور في نوائب تيمور :**

أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي ( ت ٨٥٤ هـ ) ، تحقيق على محمد عمير ،

مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٣٩٩ هـ .

**العدوان الصليبي على بلاد الشام :**

جوزيف نسيم يوسف ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع ، الاسكندرية

١٩٨٤ م .

**العدوان الصليبي على مصر :**

جوزيف نسيم يوسف ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١ م .

**العراضة في الحكاية السلجوقية :**

محمد بن محمد بن النظام الحسيني ( ت ٧٤٣ هـ ) ، تحقيق عبد النعيم حسنين

و حسين أمين ، مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٧٩ م .

**العرب : انتصاراتهم وأمجاد الاسلام :**

أنتوني نتينج . ترجمة راشد البراوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٤ م .

**العسجد المسبوك ، والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك :**

الأشرف الغساني ( ت ٨٠٣ هـ ) ، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم ، دار البيان

بغداد ، ١٣٩٥ هـ .

عصر امراء الأمراء في العراق ( ٢٢٤ - ٢٢٤ هـ ) :

تقي الدين عارف الدوري ، الطبعة الأولى ، مطبعة أسعد ، بغداد ، ١٣٩٥ هـ .

عصر الخليفة المقتدر بالله :

حمدان عبد المجيد الكبيسي ، مطبعة النعمان ، بغداد .

عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي :

محمد رزق سليم ، الطبعة الثانية ، ١٣٨١ هـ ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، القاهرة .

العصر العباسي الأول :

عبد العزيز سالم ، مؤسسة شباب الجامعة .

عصر المأمون :

أحمد فريد الرفاعي ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٦ هـ .

العصر المماليكي في مصر والشام :

سعيد عبد الفتاح عاشور ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥ م ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان :

بدر الدين محمود العيني ( ت ٨٥٥ هـ ) ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة

المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٨ هـ .

العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية :

علي بن الحسن الخزرجي ، تصحيح محمد بن بسيوني عسل ، مطبعة الهلال

القاهرة ، ١٣٢٩ هـ .

العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك :

علي حسين السليمان ، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

العلاقات الخارجية لدولة المماليك الأولى في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون :

عبد العزيز راشد العبيدي ، رسالة دكتوراه ، من قسم التاريخ والحضارة بكلية

العلوم الاجتماعية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ، ١٤٠٥ هـ .

العلاقات السياسية الاسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى :

فتحية النبراوي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ ، مكتبة وهبة ، القاهرة .



### العلاقات السياسية بين العماليك و المغول في الدولة المملوكية الأولى :

فايد حماد عاشور ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٥ م .

### العلاقة بين التشيع والتصوف :

فلاح اسماعيل أحمد ، رسالة دكتوراه من شعبة العقيدة بالدراسات العليا

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤١١ هـ ، بإشراف الشيخ عبد الله بن

محمد الغنيمان .

### علم التاريخ عند المسلمين :

فرانز روز نثال . ترجمة صالح أحمد العلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة

الثانية ، ١٤٠٣ هـ .

### علماء وأمرء :

وحيد عبد السلام بالي ، مكتبة الصحابة ، جده ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ .

### عيون الأنبياء في طبقات الأطباء :

موفق الدين أحمد بن القاسم السعدى الخزرجي ، المعروف بابن أبي أصيبعة .

تحقيق نزار رضا ، مكتبة الحياة ، بيروت .

### عيون التواريخ :

محمد بن شاكر الكتبي ( ت ٧٦٤ هـ ) ، تحقيق فيصل السامر ، ونبيلة عبد المنعم

داود ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٣٩٧ هـ .

### غاية النهاية في طبقات القراء :

محمد بن محمد الجزري ( ت ٨٢٣ هـ ) ، عني بنشره ج . براجستراسر ، الطبعة

الثالثة ، ١٤٠٢ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

( غ )

### غروب شمس الخلافة :

علي الخربوطلي .

### الغزو الصليبي والعالم الإسلامي :

علي عبد الحلیم محمود ، دار عكاظ للطباعة والنشر ، ١٤٠٣ هـ .

**الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي :**

محمد عبد المنعم السيد الراقد ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر  
الاسكندرية ، ١٩٦٨ م .

**غزوات الافرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين :**

تيسير موسى ، الدار العربية للكتاب .

( ف )

**الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية :**

حسن ابراهيم حسن ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٢٢ م .

**الفتح القمي في الفتح القدسي :**

محمد بن صفي الدين الأصفهاني ( ت ٥٩٧ هـ ) ، تحقيق محمد محمود صبيح ،  
الدار القومية للطباعة والنشر .

**الفتوحات الاسلامية :**

أحمد زيني دحلان ، المطبعة الأميرية بمكة ، ١٣٠٢ هـ .

**الفرج بعد الشدة :**

لأبي علي المحسن التنوخي ، دار صادر ، بيروت .

**فصول من تاريخ الحضارة الاسلامية :**

طه ندا ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٦ م .

**الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة :**

الهمام ابن ظهيرة ، تحقيق مصطفى السقا ، و كامل المهندي ، دار الكتب  
القاهرة ، ١٩٦٩ م .

**فضل الحضارة الاسلامية على العالم :**

زكريا هاشم زكريا ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة .

**الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد :**

ابن الديبع الشيباني الزبيدي ، تحقيق محمد عيسى صالحية ، الناشر المجلس  
الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ .

**الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة :**

عبد الرحمن عبد الخالق ، مكتبة ابن تيمية ، الكويت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ .

**الغنون الاسلامية :**

م . س . ديمانند . ترجمة أحمد محمد عيسى ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة  
الثالثة ، ١٩٨٢ م .

**الفهرست :**

محمد بن اسحاق الوراق ، تحقيق رضا تجدد علي ، طهران ، ١٣٩١ هـ .

**فوات الوفيات :**

محمد بن شاکر الکتبی ( ت ٧٦٤ هـ ) ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر  
بيروت ، ١٩٧٣ م .

**في طلب التواييل :**

سونيا . ي . هاو . ترجمة محمد رفعت ، ومحمود النحاس ، مكتبة نهضة مصر  
القاهرة ، ١٩٥٧ م .

**( ق )****قادة الفكر الاسلامي :**

راشد البراوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٩ م .

**القاهرة ، تاريخها وآثارها :**

عبد الرحمن زكي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ .

**قايتباي المحمودى :**

عبد الرحمن عبد التواب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ م .

**قبرص والحروب الصليبية :**

سعيد عبد الفتاح عاشور ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٧ م ، القاهرة .

**القرامطة بين المد والجزر :**

مصطفى غالب ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ م .

**قرة العيون بأخبار اليمن الميمون :**

عبد الرحمن بن علي الديبع الشيباني ، تحقيق محمد بن علي الأكوح الحوالسي  
مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٩٧ هـ .

**قضاة دمشق ، أو الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام :**

شمس الدين ، ابن طولون ( ت ٥٨٨٠ هـ ) ، تحقيق صلاح الدين المنجد ،  
من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٥٦ م ، دمشق .

**قضايا العالم الاسلامي ومشكلاته السياسية :**

محمد نصر مهنا ، وفتحية النبراوي ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، الطبعة  
الأولى ، ١٩٨٣ م .

**القضايا الكبرى في الاسلام :**

عبد المتعال الصعيدي ، المطبعة النموذجية ، القاهرة .

**قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان :**

أحمد بن علي القلقشندي ( ت ٥٨٢١ هـ ) ، تحقيق ابراهيم الابياري ، دار الكتب  
الحديثة ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٢ هـ ، القاهرة .

**القلائد الجوهريّة في تاريخ المالحيّة :**

محمد بن طولون المالحي ( ت ٩٥٣ هـ ) ، تحقيق محمد أحمد دهمان .

**قلعة صلاح الدين الأيوبي وما حولها من الآثار :**

عبد الرحمن زكي ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

**قلعة مصر :**

عبد الرحمن زكي ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ م .

**قيام الدولة الأيوبية في مصر :**

علي بيومي ، دار الفكر الحديث للطبع والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٢ م ، القاهرة .

**قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام :**

أحمد مختار العبادي ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٩ م ، دار النهضة العربية للطباعة  
والنشر ، بيروت .

## قيام دولة المعاليك الثانية :

حكيم أمين عبد السيد ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

## ابن قيم الجوزية وجهوده في الدرس اللغوي :

طاهر سليمان حمودة ، دار الجامعات المصرية ، الاسكندرية ، ١٣٩٦ هـ .

## ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها :

جمال محمد السيد عبد الحميد ، رسالة دكتوراه قدمت لشعبة السنة بقسم الدراسات العليا بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، باشراف الدكتور ربيع بن هادي مدخلي .

## القيم النقدية في الوثائق المملوكية في عصر المعاليك البحرية ( ٦٤٨ - ٧٩٢ هـ ) :

سامح عبد الرحمن فهمي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ هـ ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة .

## ( ك )

## الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث :

ميخائيل شاور بيم بك ، الطبعة الأولى ، ١٣١٥ هـ ، المطبعة الأميرية بمصر .

## كتاب الأوراق :

أبو بكر محمد بن يحيى الصولي ( ت ٢٣٥ هـ ) ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٤ هـ ، مطبعة الصاوي ، القاهرة .

## كتابة البحث العلمي ومصادر الدراسات الاسلامية :

عبد الوهاب ابراهيم أبو سليمان ، دار الشروق ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠ هـ .

## ابن كثير كمؤرخ : دراسة تحليلية لكتابه البداية والنهاية :

مسعود الرحمن خان الندوي ، مطبعة جامعة عليكرة الاسلامية بالهند ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠ م .

## كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون :

مصطفى عبد الله الحنفي ، المعروف بحاجي خليفة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ .

**الكعبة والكموة :**

أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٧ هـ ، مكة المكرمة .

**كنز الجواهر في تاريخ الأزهر :**

سليمان الحنفي الزياتي ، مطبعة دار احياء الكتب العربية .

**الكواكب الدرية في السيرة النورية :**

بدر الدين بن قاضي شهبة ، تحقيق محمود زايد ، الطبعة الأولى ، ١٩٧١ م ،

دار الكتاب الجديد ، بيروت .

**الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة :**

محمد بن أحمد الغزى ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ م

دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

**( ل )****اللآليء المصنوعة في الأحاديث الموضوعية :**

عبد الرحمن السيوطي ( ت ٩١١ هـ ) ، المكتبة التجارية الكبرى ، بمصر .

**لحظ الألفاظ بذيل طبقات الحفاظ :**

محمد بن محمد بن محمد بن فهد الهاشمي المكي ( ت ٨٧١ هـ ) ، دار احياء التراث .

**لقاء ابن خلدون وتيمور لنك :**

والتر . ج . فيشيل . ، ترجمة محمد توفيق ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

**لمحة في تاريخ الأزهر :**

علي عبد الواحد وافي ، مطبعة الفتوح ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٥ هـ .

**( م )****مآثر الانافة في معالم الخلافة :**

أحمد بن عبد الله القلقشندي ( ت ٨٢١ هـ ) ، تحقيق عبد الستار أحمد فـسـراج ،

عالم الكتب ، بيروت .

**مآذن القاهرة :**

حسين فوزي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة .

**مباحث اجتماعية في عالمي العرب والاسلام :**

عمر رضا كحالة ، مطبعة الحجاز ، دمشق ، ١٣٩٤ هـ .

**مجالس السلطان النورى : صفحات من تاريخ مصر في القرن العاشر :**

عبد الوهاب عزام ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م .

**المجاورون في مكة والمدينة في العصر المملوكي ( ٦٤٨ - ٩٢٢ هـ ) :**

منى حسن محمد آل مشارى ، رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ بكلية الآداب

جامعة الملك سعود بالرياض .

**المجتمع المصرى في عصر سلاطين المعاليك :**

سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

**مجلد تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا :**

جمال الدين الشيال ، ١٩٤٩ م .

**المجلد في تاريخ مصر الحديثة :**

جلال حقي ، المكتب الجامعى الحديث ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ م .

**المجلد في التاريخ المصرى :**

أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب ، نشر حسن ابراهيم حسن ، مطبعة مصطفى

البابى الحلبي وأولاده ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٦١ هـ .

**محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية :**

محمد الخضرى بك ، دار الفكر العربى ، القاهرة .

**محاضرات في تاريخ الدولة العباسية :**

محمد زيف الله بطاينة .

**المحمل والحج :**

يوسف أحمد ، ١٣٥٦ هـ .

**مختار الصحاح :**

محمد بن أبى بكر الرازى ( ت ٦٦٠ هـ ) ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي ، القاهرة .

**مختصر تاريخ العرب :**

سيد أمير علي ، ترجمة عفيف البعلبكي ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨١ ، دار العلم  
للملايين ، بيروت .

**مختصر منهاج السنة :**

عبد الله بن محمد الغنيمان ، الطبعة الأولى : ١٤١٠ هـ ، مطابع الجامعة  
الاسلامية بالمدينة المنورة .

**المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي ودورها في الحركة**

**الفكرية :** عبد الجليل عبد المهدي ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ١٩٨١ م .

**مدينة دمشق :**

صفوح خير ، من منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٦٩ م .

**مراسد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع :**

عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ( ت ٧٣٩ هـ ) ، تحقيق علي محمد البجاوي  
دار احياء الكتب العربية ، القاهرة .

**مرآة الجنان وعبرة اليقظان :**

عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني ( ت ٧٦٨ هـ ) ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات  
الطبعة الثانية ، ١٣٩٠ هـ ، بيروت .

**مرآة الحرمين ، الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية :**

ابراهيم رفعت باشا ، دار المعرفة ، بيروت .

**المسألة الشرقية ، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية :**

محمود ثابت الشاذلي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ، مكتبة وهبة ، القاهرة .

**مساجد القاهرة ومدارسها :**

أحمد فكري ، دار المعارف ، مصر .

**مساجد مصر :**

سعاد ماهر ، الناشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

**مسالك الأبحار في معالك الأمصار :**

ابن فضل الله العمري ، تحقيق أحمد زكي باشا ، مطبعة دار الكتب المصرية ،  
القاهرة ، ١٣٤٢ هـ .



**الممالك والممالك :**

ابراهيم بن محمد الاصطخرى ( ت ٣٥٠ هـ ) ، تحقيق محمد جابر عبد العسال  
دار القلم ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ .

**مستفاد الرحلة والاعتراب :**

القاسم بن يوسف التجيبي ( ت ٧٣٠ هـ ) ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، السدار  
العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس .

**مصادر التراث العسكرى عند العرب :**

كوركيس عواد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٤٠١ هـ .

**المصباح المضيء في خلافة المستضيء :**

عبد الرحمن بن الجوزى ، تحقيق ناجية عبد الله ابراهيم ، مطبعة الأوقاف ببغداد  
الطبعة الأولى ، ١٣٩٦ هـ .

**المصباح المنير في غريب الشرح الكبير :**

أحمد بن محمد الفيومي ( ت ٧٧٠ هـ ) ، صححه مصطفى السقا ، مطبعة مططفى  
البابي الحلبي بمصر ، القاهرة .

**مصر الاسلامية :**

محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٨ هـ .

**مصر الاسلامية ، مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية :**

ابراهيم العدوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٣٩٥ هـ .

**مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية :**

محمد عبد الله عنان ، دار الكتب المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٠ هـ .

**مصر العربية الاسلامية :**

علي الخربوطلي .

**مصر في عصر الاخشيديين :**

سيده اسماعيل كاشف ، دار النهضة العربية ، بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ م .

**مصر في عصر دولة المماليك البحريةية :**

سعيد عبد الفتاح ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٣٧٨ هـ .

**مصر في عصر الطولونيين :**

حسن أحمد محمود ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٣٧٩ هـ .

**مصر في عصر المماليك الى نهاية حكم اسماعيل :**

جورج يانج . ترجمة علي أحمد شكرى ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، ١٩٣٤ م .

**مصر في عصر الولاة :**

سيده اسماعيل كاشف ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

**مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني :**

عبد الرحمن الرافعي ، وسعيد عاشور ، دار النهضة العربية ، الطبعة الأولى ،

١٩٧٠ م ، القاهرة .

**مصر في فجر الاسلام، من الفتح العربي الى قيام الدولة الطولونية :**

سيده اسماعيل كاشف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ م ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

**مصر والشرق العربي درع الاسلام :**

ابراهيم أحمد العدوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٨٤ م .

**مصر والنيل من فجر التاريخ الى الآن :**

أمين سامي ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٨ م .

**مضمار الحقائق وسر الخلائق :**

محمد بن عمر شاهشاه الأيوبي ، تحقيق حسن حبشي ، عالم الكتب ، القاهرة .

**مطلع العصر العباسي الثاني ، الاتجاهات السياسية والحضارية في خلافة**

**المتوكل على الله ( ٢٢٢ - ٢٤٧ هـ ) :**

نادية حسني مقر ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، جده .

**المعارف :**

عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ( ت ٢٧٦ هـ ) ، دار احياء التراث الاسلامي

الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٣٩٠ هـ .

**معاهد العلم في بيت المقدس :**

كامل جميل العسلي ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ، ١٩٨١ م .

**معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي :**

زا مباور • مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة ، ١٩٥١ م .

**معجم البلدان :**

ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ( ت ٦٢٦ هـ ) ، دار احياء التراث

العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

**معجم مصنفى الكتب العربية في التاريخ والتراجم والجغرافيا والرحلات :**

عمر رضا كحالة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

**معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة :**

صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٨ هـ .

**معجم المؤلفين :**

عمر رضا كحالة ، مكتبة المثنى ، بيروت ، ١٣٧٦ هـ .

**معركة عين جالوت :**

محمد ظاهر وتر ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .

**المعز لدين الله :**

حسن ابراهيم حسن ، وطه أحمد شرف ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤ م ، مكتبة

النهضة العربية .

**معيد النعم ومبيد النقم :**

تاج الدين عبد الوهاب السبكي ( ت ٧٧١ هـ ) ، تحقيق محمد علي النجار ،

وأبوزيد شلبي ، ومحمد أبو العيون ، طبع بدار الكتاب العربي بمصر ،

القاهرة ، ١٣٦٧ هـ .

**المغسول :**

السيد الباز العريني ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

**المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس ( ٦٤٨ - ٦٧٦ هـ ) :**

أحمد عبد الكريم سليمان ، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع ،

القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ .

**المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون :**

أحمد عبد الكريم سليمان ، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة  
الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ .

**مفاكهة الخلان في حوادث الزمان :**

شمس الدين محمد بن طولون ، تحقيق محمد مصطفى ، المؤسسة المصرية العامة  
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٣٨١ هـ .

**مفرج الكروب في أخبار بني أيوب :**

جمال الدين محمد بن واصل ( ت ٦٩٢ هـ ) ، تحقيق جمال الدين الشيال ، مطبعة جامعة  
فؤاد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٣ م .

**مفكروا الاسلام :**

البارون كارادوفو . ترجمة عادل زعيتر ، الدار المتحدة للنشر ، القاهرة .

**مقاتل الطالبين :**

لأبي الفرج الأصفهاني ( ت ٣٥٦ هـ ) ، تحقيق أحمد مقر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨ هـ ،  
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان .

**المقدمة :**

العلامة ابن خلدون ( ت ٨٠٨ هـ ) ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة .

**مكة وعلاقتها الخارجية :**

أحمد عمر الزيلعي ، الناشر عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ

**الملك الأشرف خليل بن قلاوون :**

أكرم حسن العلبي ، دار المأمون للتراث ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ هـ .

**المماليك :**

السيد الباز العريني ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

**المماليك في مصر :**

أنور زقلمة ، مطبعة المجلة الجديدة ، القاهرة .

**المماليك والغرنج في القرن التاسع الهجري :**

أحمد درّاج ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

**مملكة صفد في عهد المماليك :**

طه ثلجي الطراونة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م ، دار الآفاق الجديدة

بيروت .

**مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء :**

ياسين خير الله العمري ، تحقيق رجاء محمود السامرائي ، دار الجمهورية ،

بغداد ، ١٣٨٦ هـ .

**منادمة الأطلال ومسامرة الخيال :**

عبد القادر بدران ، المكتب الاسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥ هـ .

**منتخبات التواريخ لدمشق :**

محمد أديب الحصني ، المطبعة الحديثة بدمشق ، ١٣٤٦ هـ .

**المنتظم في تاريخ الملوك والأمم :**

عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ( ت ٥٩٧ هـ ) ، تحقيق محمد عبد القادر عطما ،

و مصطفى عبد القادر عطما .

**المنتقى في أخبار مصر :**

محمد بن علي بن ميسر ( ت ٦٧٧ هـ ) ، انتقاه تقي الدين أحمد المقريزي ،

تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، ١٤٠١ هـ .

**منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية :**

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ( ت ٧٢٨ هـ ) ، دار الكتب العلمية .

**منهج أهل السنة والجماعة في نقد الرجال والكتب والطوائف :**

ربيع بن هادي مدخلي ، مكتبة التابعين ، القاهرة ، ١٤١٢ هـ .

**منهج ابن تيمية في الفقه :**

سعود صالح العطيشان ، رسالة دكتوراه من شعبة الفقه بالدراسات العليا بالجامعة

الاسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤٠٧ هـ ، باشراف الدكتور عبد العزيز القاري .

**منهج شيخ الاسلام ابن تيمية في الرد على عقائد المخالفين :**

ناجي حسن الحفيري ، رسالة ماجستير من قسم الدعوة بالمعهد العالي للدعوة  
الاسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤٠٩ هـ .

**منهج ابن القيم في الدعوة الى الله :**

أحمد عبد العزيز الخلف ، رسالة دكتوراه من قسم الدعوة بكلية الدعوة  
وأصول الدين بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤١٢ هـ ، باشرف  
فتح الرحمن عمر .

**موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد :**

أكرم ضياء العمري ، دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥ هـ .

**الموارد المالية لمصر في عصر الدولة المملوكية الأولى ( ٦٤٨ - ٧٨٤ هـ ) :**

حمود محمد علي النجيدى ، رسالة ماجستير من قسم التاريخ والحضارة بكلية العلوم  
الاجتماعية ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ، ١٤٠٥ هـ .

**مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام :**

محمد عبد الله عنان ، الطبعة الرابعة ، ١٣٨٢ هـ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة  
والنشر ، القاهرة .

**مؤرخو مصر الاسلامية ومصادر التاريخ المصرى :**

محمد عبد الله عنان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة  
الأولى ، ١٣٨٨ هـ .

**موسوعة التاريخ الاسلامي :**

محمود شاكر ، المكتب الاسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ .

**موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية :**

أحمد شلبي ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٨ م ، النهضة المصرية ، القاهرة .

**موسوعة العلوم الانسانية والعلماء المسلمين :**

لجماعة من المؤلفين ، مكتبة المعارف ، بيروت .

موقف شيخ الاسلام ابن تيمية من الرافضة في منهاج السنة :

عبد الله ابراهيم الشمان ، رسالة ماجستير من شعبة العقيدة بقسم الدراسات العليا  
بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، اشراف الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان .

( ن )

الناصر محمد بن قلاوون :

محمد عبد العزيز مرزوق ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة  
والنشر ، القاهرة .

نزهة الألباب في تاريخ مصر وشعراء العصر :

محمد حسني العامري ، مطبعة الهلال ، بالقاهرة ، ١٣١٤ هـ .

النزهة السنية في أخبار الخلفاء والملوك المصرية :

الحسن بن حسين الطولوني ( ت ٩٣٢ هـ ) ، تحقيق محمد كمال الدين علي ،  
عالم الكتب ، القاهرة .

نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر :

موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي ( ت ٧٥٩ هـ ) ، تحقيق ود راسة أحمد حطيـط ،  
الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ ، عالم الكتب ، بيروت .

نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين : ( مخطوط )

مرعي بن يوسف المقدسي الحنبلي ، مكتبة عارف حكمت ، برقم ٢٥٢ / ٩٠٠ .

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان :

علي بن داود الصيرفي ، تحقيق حسن حبشي ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٠ م .

نساء لهن في التاريخ نصيب :

علي ابراهيم حسن ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

نظام الحسبة في العراق :

رشاد عباس معتوق ، تهامة للنشر ، جده ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ .

النظام النقدي المملوكي ( ٦٤٨ - ٩٢٢ هـ ) :

حمود بن محمد بن علي النجدي ، رسالة دكتوراه من قسم التاريخ والحضارة بكلية  
العلوم الاجتماعية ، بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ، ١٤٠٨ هـ .

نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر :

عبد المنعم ماجد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٤ م .

نظم العقيان في أعيان الأعيان : ( مخطوط )

جلال الدين السيوطي ( ت ٩١١ هـ ) ، مكتبة حكمت ، برقم ٢٥٨ / ٩٠٠ .

النفقات وادارتها في الدولة العباسية :

ضيف الله يحي الزهراني ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ ، مكتبة الطالب الجامعي  
مكة المكرمة .

النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر :

نوال حمزة صيرفي ، من مطبوعات دار الملك عبد العزيز ، الرياض ، ١٤٠٣ هـ .

النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة :

محمد جمال الدين سرور ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٧٦ هـ .

النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب :

محمد جمال الدين سرور ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٦٩ هـ .

نقض المنطق :

شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ، تحقيق محمد حمزة ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة  
الطبعة الأولى ، ١٣٧٠ هـ .

نكت الهميان في نكت العميان :

خليل بن أبيك المفدى ، المطبعة الجمالية بمصر ، ١٣٢٩ هـ .

نهاية الأرب في فنون الأدب :

شمس الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ( ت ٧٣٣ هـ ) ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف  
والترجمة والطباعة والنشر ، ١٣٥٧ هـ .

نهر الذهب في تاريخ حلب :

كامل حسين الحلبي الغزى ، المطبعة المارونية ، حلب .

نوابغ الفكر الاسلامي :

أنور الجندى ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٧٩ م .



**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية :**

بهاء الدين بن شداد ( ت ٦٢٣ هـ ) ، تحقيق جمال الدين الشيال ، الطبعة الأولى ،  
١٩٦٤ م ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

**نيابة غزة في العهد المملوكي :**

محمود علي خليل عطا الله ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ ، منشورات دار الآفاق  
الجديدة ، بيروت .

---

( ه )

**هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين :**

اسماعيل باشا البغدادي ، وكالة المعارف الجليلة ، استانبول ، ١٩٥٥ م .

---

( و )

**واسط في العصر العباسي ( ٣٢٤ - ٦٥٦ هـ ) :**

عبد القادر المعاضدي ، دار الحرية ببغداد ، ١٩٨٣ م .

**الوافي بالوفيات :**

صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ( ت ٧٦٤ هـ ) ، جمعية المستشرقين الألمانية  
الطبعة الثانية ، ١٣٨١ هـ .

**وثائق الحروب الملبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي ( ٤٨٩ - ١٢٠٦ هـ / ١٠٩٦ - ١٤٠٤ م )**

محمد ماهر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢ هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

**الوثائق السياسية والادارية للعصر المملوكي ( ٦٥٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٢٨ - ١٥١٦ م ) :**

محمد ماهر حمادة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

**الوثائق السياسية والادارية للعصور العباسية المتتابعة ( ٢٤٧ - ٦٥٦ هـ ) :**

محمد ماهر حمادة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٨ هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

**الوزارة في عهد السلاجقة :**

عباس اقبال ، ترجمة وتعليق أحمد كمال الدين حلمي ، من مطبوعات جامعة  
الكويت ، ١٩٨٤ م .

**وفاء الوفاء بأخبار دار الممطفى :**

علي بن أحمد السهمودي ( ت ٩١١ هـ ) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،  
دار احياء التراث العربي ، بيروت .

**الوفيات :**

محمد بن رافع السلامي ( ت ٧٧٤ هـ ) ، تحقيق صالح مهدي عباس ، راجعه بشار  
عواد معروف ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :**

أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ( ت ٦٨١ هـ ) ، تحقيق احسان حـسـقي  
دار صادر ، بيروت .

**ولاية دمشق في عهد المماليك :**

محمد أحمد دهمان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ هـ ، دار الفكر للطباعة والتوزيع  
والنشر ، دمشق .

\_\_\_\_\_ ( ي ) \_\_\_\_\_

**اليمن في ظل الاسلام :**

عصام الدين عبد الرؤوف الفسقي ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ م ، دار الفكر العربي  
القاهرة .

\_\_\_\_\_ ( الدوريات ) \_\_\_\_\_

**الأزهر :**

الأعداد ١/١٣٧١ هـ ، ٣/١٣٩٢ هـ ، ٣/١٣٩٧ هـ ، ٤/١٣٩٨ هـ .

**الدارة :**

الاعداد ٢/١٤٠١ هـ ، ٣/١٤٠٣ هـ ، ٤/١٤٠٣ هـ ، ١/١٤٠٥ هـ ، ٤/١٤٠٥ هـ ، ٣/١٤٠٩ هـ ،  
١/١٤١٠ هـ .

**دراسات تاريخية :**

العدد ٢١ ، ٢٢ ، سنة ١٤٠٦ هـ ، ص ١٨١ .

**عالم الفكر :**

الأعداد ١/١٩٨٠ ، ١/١٩٨٣ م ، ٢/١٩٨٣ م ، ٣/١٩٨٣ ، ٤/١٩٨٥ م ، ١/١٩٨٩ م ،  
٤/١٩٨٩ م .

**عالم الكتب :**

الأعداد ٤ / محرم ١٤٠٢ هـ ص ٧٠٩ ، ١ / رجب ١٤٠٣ هـ ص ٨٩ .

**العرب :**

العدد الثاني عشر ، سنة ١٣٩٠ هـ ، ص ١٠٦٨ .

**العصور :**

المجلدات : المجلد الأول ، الجزء الثاني سنة ١٩٨٦ م ، المجلد الأول ، الجزء  
الأول سنة ١٩٨٩ م ، المجلد الخامس ، الجزء الأول سنة ١٩٩٠ م ، المجلد السادس  
الجزء الأول سنة ١٩٩١ م .

**الفيصل :**

الأعداد ٣ ، ١٣ ، ١٨ ، ٣٨ ، ٥٤ ، ٧٨ ، ٩٨ .

**المجمع العلمي العربي بدمشق :**

الأعداد : ٥/١٣٧٥ هـ ص ٢٧٠ ، ٦/١٣٧٧ هـ ص ٢٦٠ ، ٥/١٣٩١ هـ ص ٤٥٨ ،  
٤/١٤٠٥ هـ ص ١٥٣ .

**مجلة الاجتهاد :**

العدد الرابع ، سنة ١٩٨٩ م ، ص ١٦٧ .

**مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي :**

الأعداد ١/١٣٩٨ هـ ، ٣/١٤٠٠ هـ .

**المجلة التاريخية للدراسات العثمانية :**

العدد ١/١٩٩٠ م .

**مجلة الجامعة الاسلامية :**

الأعداد : ٧٥ ، ٧٦ / ١٤٠٧ هـ .

مجلة جامعة أم القرى :

الأعداد : ١٤٠٩/٢ هـ ، ١٤١١/٤ هـ .

مجلة الرسالة :

الأعداد : ٥ ، ٦ ، ٨ ، ٥١ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩

١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥١ ، ٢٢٢ ، ٣٩٦ .

المجلة العربية :

العدد ١٠٤ / ١٤٠٦ هـ ص ٩٠ .

المجلة العربية للعلوم الاسلامية بالكويت :

الأعداد ٢٢ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ .

مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت :

العدد الأول ، سنة ١٩٧٩ م ، ص ٦٤ .

مجلة كلية الآداب : جامعة الامارات العربية المتحدة :

العدد الرابع / ١٤٠٨ هـ ، ص ١٢ .

مجلة كلية الآداب : جامعة الاسكندرية :

المجلد الثامن ، سنة ١٩٥٤ م .

مجلة كلية الآداب : جامعة الملك سعود بالرياض :

العدد الأول ، ١٩٨٥ م ، ص ٢٠٨ .

مجلة كلية العلوم الاجتماعية : جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض :

العدد الثامن ، سنة ١٤٠٤ هـ ، ص ١٩ .

مجلة كلية اللغة العربية بالرياض :

العدد الثالث ، سنة ١٣٩٣ هـ ، ص ٢٣٠ .

مجلة المجمع العلمي العربي :

المجلد ٢٨ ، ١٩ شوال سنة ١٣٧٢ هـ .

مجلة مجمع اللغة العربية الأردني :

العدد ٣٨ ، سنة ١٤١٠ هـ .

مجلة الهداية :

العدد ١٥٤ ، سنة ١٤١٠ هـ ، ص ٨٢ .

المقتطف :

العدد الخامس ، سنة ١٣٦٠ هـ ، ص ٤٦٢ .

المنار :

المجلد الثامن ، ص ٤٢ - ٥٥ ، ١٥٥ - ١٥٧ .

المنهل :

الأعداد : ١٣٣/٦٠٦ هـ ص ٣٤٦ ، ١٢٣/٦٠٩ هـ ص ١٠١ .

المؤرخ العربي :

الأعداد : ١٨/١٠١ هـ ، ٢٦/١٠٩ هـ ، ٣٣/١٤١٠ هـ .

المورد :

الأعداد : ١/١٧٧١ م ، ٢/١٩٧٢ م ، ٣/١٩٧٢ م ، ٣/١٩٧٣ م ، ١/١٩٧٥ م ، ٣/١٩٧٦ م

٣/١٩٧٩ م ، ٤/١٩٧٩ م ، ٤/١٩٨٠ م ، ٢/١٩٨٠ م ، ٣/١٩٨١ م ، ٤/١٩٨١ م ، ٤/١٩٨٥ م .

( فهرس الموضوعات )

| المفحة             | الموضوع                                                   |
|--------------------|-----------------------------------------------------------|
| أ                  | المقدمة                                                   |
| و                  | سبب اختيار الموضوع                                        |
| ز                  | خطة البحث                                                 |
| ط                  | منهج كتابة البحث                                          |
| ى                  | بعض الصعوبات التي واجهتني<br>شكر و تقدير                  |
| <b>الباب الأول</b> |                                                           |
| ١                  | قيام الخلافة العباسية في مصر                              |
| ٢                  | <b>الفصل الأول : أسباب سقوط الخلافة العباسية في بغداد</b> |
| ٣                  | أولا : عصر القوة                                          |
| ١٠                 | ثانيا : عصر السيطرة على الخلافة                           |
| ١١                 | ضعف بعض الخلفاء                                           |
| ١٤                 | علوم الأوائل                                              |
| ١٧                 | ضعف الأوضاع الاقتصادية                                    |
| ٢١                 | تسلط القادة العسكريين على الخلافة                         |
| ٢١                 | القادة الأتراك                                            |
| ٢٢                 | تسلط آل بوية                                              |
| ٢٦                 | حال الخلافة في عهد البويهيين                              |
| ٢٩                 | تسلط آل سلجوق على الخلافة                                 |
| ٣٢                 | الخلاف بين السلاجقة                                       |
| ٣٤                 | عودة القوة الى الخلافة                                    |
| ٣٦                 | محاولات استعادة النفوذ العباسي                            |
| ٤٦                 | آثار التسلط السلجوقي                                      |
| ٥٠                 | الحركات الدينية المعادية للإسلام                          |
| ٥٠                 | أسباب ظهور الحركات المعادية للإسلام                       |

| المفحة | الموضوع                                  |
|--------|------------------------------------------|
| ٥١     | الحركة المقنعة                           |
| ٥٢     | الحركة البابكية                          |
| ٥٢     | حركة المازيار                            |
| ٤٣     | حركة صاحب الزنج                          |
| ٥٥     | حركات القرامطة                           |
| ٥٩     | الحركة الباطنية                          |
| ٦٢     | الآثار السيئة لتلك الحركات               |
| ٦٢     | حركات العلويين                           |
| ٧٠     | أثر حركات العلويين على الخلافة           |
| ٧١     | حركات القبائل العربية                    |
| ٧٣     | الحركات في الشام ومصر                    |
| ٧٧     | أثر القبائل العربية                      |
| ٧٨     | الطامعون في الخلافة العباسية             |
| ٨٢     | ظهور الدويلات المستقلة                   |
| ٨٤     | مواقف الدول المستقلة من الخلافة العباسية |
| ٨٦     | أثر نزاعات الدويلات على الدولة الإسلامية |
| ٩٠     | قيام الحروب الصليبية                     |
| ٩٤     | قادة الجهاد ضد الصليبيين                 |
| ٩٧     | الغزو المغولي لديار الإسلام              |
| ١٠٢    | سقوط عاصمة الخلافة العباسية              |
| ١٠٥    | عبث المغول ببغداد                        |
| ١٠٨    | العالم الإسلامي بعد سقوط بغداد           |
| ١١١    | موقعة عين جالوت                          |
| ١١٣    | الآثار الناتجة عن معركة عين جالوت        |



- ١١٥ الفصل الثاني : قيام الخلافة العباسية بمصر :
- ١١٦ المبحث الأول : مكانة الخلافة في الاسلام
- ١١٩ الحقوق الواجبة على الامام شرعا
- ١٢٢ مكانة الخلافة تاريخيا
- ١٢٣ محاولة اجتذاب الخلافة خارج بغداد
- ١٢٩ المبحث الثاني : قيام الخلافة في مصر
- ١٣١ دوافع احياء الخلافة العباسية
- ١٣٢ مكاسب السلطنة المملوكية من احياء الخلافة العباسية
- ١٣٤ الخليفة أحمد ( المستنصر بالله )
- ١٣٦ الخليفة أحمد ( الحاكم بأمر الله )
- ١٣٨ الخليفة سليمان بن أحمد ( المستكفي بالله )
- ١٤٠ الخليفة ابراهيم بن محمد ( الواثق بالله )
- ١٤١ الخليفة أحمد بن سليمان ( المستكفي بالله )
- ١٤٣ الخليفة أبو بكر بن أحمد ( المعتضد بالله )
- ١٤٥ الخليفة محمد بن أبي بكر ( المتوكل على الله )
- ١٤٧ الخليفة عمر بن ابراهيم ( الواثق بالله )
- ١٤٨ الخليفة زكريا بن ابراهيم ( المستعصم بالله )
- ١٥٠ الخليفة محمد بن أبي بكر ( المتوكل على الله ) للمرة الثانية
- ١٥٢ الخليفة العباس بن محمد ( المستعين بالله )
- ١٥٤ الخليفة داود بن محمد ( المعتضد بالله )
- ١٥٦ الخليفة سليمان بن محمد ( المستكفي بالله )
- ١٥٧ الخليفة حمزة بن محمد ( القائم بأمر الله )
- ١٥٨ الخليفة يوسف بن محمد ( المستنجد بالله )
- ١٦٠ الخليفة عبد العزيز بن يعقوب ( المتوكل على الله )
- ١٦٢ الخليفة يعقوب بن عبد العزيز ( المستمسك بالله )

| الموضوع                                             | المفحة |
|-----------------------------------------------------|--------|
| الخليفة محمد بن يعقوب ( المتوكل على الله )          | ١٦٣    |
| ألقاب الخلفاء                                       | ١٦٥    |
| قصيدة السيوطي في نظم خلفاء بني العباس في مصر        | ١٦٩    |
| <b>الفصل الثالث : السلاطين المماليك في مصر</b>      |        |
| ظهور المماليك في البلاد الاسلامية                   | ١٧٢    |
| السلطان المالح أيوب                                 | ١٧٣    |
| الفتنة بين المماليك في مصر                          | ١٧٥    |
| توسط الخليفة المستعصم بالله بين المماليك والأيوبيين | ١٧٦    |
| سلطنة المظفر قطز                                    | ١٧٧    |
| السلطان الظاهر بيبرس البندقداري                     | ١٧٩    |
| السلطان السعيد محمد بن بيبرس                        | ١٨٠    |
| السلطان العادي سلامش بن بيبرس                       | ١٨١    |
| السلطان المنصور قلاوون الألفي                       | ١٨٢    |
| السلطان الأشرف خليل بن قلاوون                       | ١٨٤    |
| السلطان الناصر محمد بن قلاوون                       | ١٨٥    |
| السلطان العادل كتبغا المنصوري                       | ١٨٦    |
| السلطان المنصور لاجين المنصوري                      | ١٨٧    |
| السلطان الناصر محمد بن قلاوون ( للمرة الثانية )     | ١٨٧    |
| السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير                      | ١٨٨    |
| السلطان الناصر محمد بن قلاوون ( للمرة الثالثة )     | ١٩٠    |
| السلطان المنصور أبو بكر بن محمد بن قلاوون           | ١٩١    |
| السلطان الأشرف كجك بن محمد بن قلاوون                | ١٩١    |
| السلطان الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون               | ١٩٣    |
| السلطان المالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون            | ١٩٣    |
| السلطان الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون              | ١٩٤    |

|     |                                       |
|-----|---------------------------------------|
| ١٩٤ | السلطان المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون |
| ١٩٥ | السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون  |
| ١٩٦ | السلطان الصالح صالح بن محمد بن قلاوون |
| ١٩٧ | السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون  |
| ١٩٩ | السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجي   |
| ٢٠٠ | السلطان الأشرف شعبان بن حسن بن محمد   |
| ٢٠١ | السلطان المنصور علي بن شعبان          |
| ٢٠١ | السلطان الصالح حاجي بن شعبان          |
| ٢٠٢ | السلطان الظاهر برقوق العثماني         |
| ٢٠٣ | السلطان الصالح حاجي بن شعبان          |
| ٢٠٤ | السلطان الظاهر برقوق العثماني         |
| ٢٠٤ | السلطان الناصر فرج بن برقوق           |
| ٢٠٥ | السلطان المنصور عبد العزيز بن برقوق   |
| ٢٠٦ | السلطان الناصر فرج بن برقوق           |
| ٢٠٧ | السلطان المؤيد شيخ المحمودى           |
| ٢٠٨ | السلطان المظفر أحمد بن شيخ            |
| ٢٠٨ | السلطان المظفر ططر الظاهري            |
| ٢٠٩ | السلطان الصالح محمد بن ططر            |
| ٢١٠ | السلطان الأشرف برسباى الدقماقي        |
| ٢١١ | السلطان العزيز يوسف بن برسباى         |
| ٢١١ | السلطان الظاهر جقمق العلائي           |
| ٢١٢ | السلطان المنصور عثمان بن جقمق         |
| ٢١٣ | السلطان الأشرف اينال العلائي          |
| ٢١٤ | السلطان المؤيد أحمد بن اينال          |
| ٢١٤ | السلطان الظاهر خشمقدم الناصري         |
| ٢١٥ | السلطان الظاهر يلباى المؤيدى          |

|     |                                  |
|-----|----------------------------------|
| ٢١٦ | السلطان الظاهر تمر بغا الظاهري   |
| ٢١٦ | السلطان الأشرف قايتباي المحمودي  |
| ٢١٧ | السلطان الناصر محمد بن قايتباي   |
| ٢١٧ | السلطان الظاهر قانصوه الأشرفي    |
| ٢١٧ | السلطان الأشرف جان بلاط الأشرفي  |
| ٢١٨ | السلطان العادل طومان باي الأشرفي |
| ٢١٨ | السلطان الأشرف قانصوه الغوري     |
| ٢١٩ | السلطان الأشرف طومان باي         |

## الباب الثاني

|     |                                         |
|-----|-----------------------------------------|
| ٢٢٠ | الأوضاع الداخلية في ظل الخلافة العباسية |
|-----|-----------------------------------------|

—————

|     |                                                                |
|-----|----------------------------------------------------------------|
| ٢٢١ | الفصل الأول : العلاقة بين الخلفاء العباسيين والسلاطين المماليك |
|-----|----------------------------------------------------------------|

|     |                                           |
|-----|-------------------------------------------|
| ٢٢٣ | ال خليفة المستنصر بالله أحمد بن محمد      |
| ٢٢٧ | ال خليفة الحاكم بأمر الله أحمد بن الحسن   |
| ٢٣٦ | ال خليفة المستكفي بالله سليمان بن أحمد    |
| ٢٤٣ | ال خليفة الواثق بالله ابراهيم بن محمد     |
| ٢٤٥ | ال خليفة الحاكم بأمر الله أحمد بن سليمان  |
| ٢٥١ | ال خليفة المعتضد بالله أبي بكر بن سليمان  |
| ٢٥٣ | ال خليفة المتوكل على الله محمد بن أبي بكر |
| ٢٦٠ | ال خليفة الواثق بالله عمر بن ابراهيم      |
| ٢٦١ | ال خليفة المستعصم بالله زكريا بن ابراهيم  |
| ٢٦٣ | ال خليفة المتوكل على الله محمد بن أبي بكر |
| ٢٧٠ | ال خليفة المستعين بالله العباس بن محمد    |
| ٢٧٧ | ال خليفة المعتضد بالله داود بن محمد       |
| ٢٨٥ | ال خليفة المستكفي بالله سليمان بن محمد    |



| الموضوع                                                           | المصفحة |
|-------------------------------------------------------------------|---------|
| الخليفة القائم بأمر الله حمزة بن محمد                             | ٢٨٦     |
| الخليفة المستنجد بالله يوسف بن محمد                               | ٢٩٢     |
| الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز بن يعقوب                      | ٢٩٧     |
| الخليفة المستمسك بالله يعقوب بن عبد العزيز                        | ٣٠٢     |
| الخليفة المتوكل على الله محمد بن يعقوب                            | ٣١٠     |
| <b>الفصل الثاني : مظاهر الحياة العامة في عصر الخلافة العباسية</b> | ٣٢٢     |
| المبحث الأول : الناحية الدينية                                    | ٣٢٤     |
| المبحث الثاني : الناحية الاجتماعية                                | ٣٤٢     |
| المبحث الثالث : الناحية الاقتصادية                                | ٣٦٤     |
| المبحث الرابع : الناحية العلمية                                   | ٣٧٧     |
| أولا : الموسوعات العلمية                                          | ٣٨١     |
| محمد بن دقيق العيد                                                | ٣٨٢     |
| أحمد بن تيمية                                                     | ٣٨٢     |
| أحمد النويري                                                      | ٣٨٧     |
| محمد بن سيد الناس                                                 | ٣٨٨     |
| محمد الذهبي                                                       | ٣٨٩     |
| محمد بن قيم الجوزية                                               | ٣٩٠     |
| اسماعيل بن كثير                                                   | ٣٩٢     |
| عبد الرحمن بن خلدون                                               | ٣٩٣     |
| أحمد المقريزي                                                     | ٣٩٥     |
| محمود بن العيني                                                   | ٣٩٧     |
| أحمد بن حجر العسقلاني                                             | ٣٩٨     |
| محمد بن عبد الرحمن السخاوي                                        | ٣٩٩     |
| عبد الرحمن السيوطي                                                | ٤٠١     |

| المفحة | الموضوع                                                |
|--------|--------------------------------------------------------|
| ٤٠٣    | ثانيا : العلماء المسلمين في بعض العلوم الاسلامية       |
| ٤٠٣    | أ - علم القراءات                                       |
| ٤٠٦    | ب - علم التفسير                                        |
| ٤٠٧    | ج - الفقه                                              |
| ٤٠٧    | الفقهاء الشافعية                                       |
| ٤٠٩    | الفقهاء الحنفية                                        |
| ٤١١    | الفقهاء المالكية                                       |
| ٤١٣    | الفقهاء الحنابلة                                       |
| ٤١٥    | د - علم الحديث                                         |
| ٤٢٠    | هـ - علم التاريخ                                       |
| ٤٢٥    | و - اللغة العربية                                      |
| ٤٢٨    | ز - الطب                                               |
| ٤٣١    | ثالثا : أثر المرأة في الناحية العلمية في هذا العصر     |
| ٤٤٠    | <b>الفصل الثالث : الاصلاحات الداخلية في ظل الخلافة</b> |
| ٤٤٢    | أ - الاهتمام بالحرمين الشريفين                         |
| ٤٥١    | كسوة الكعبة المشرفة                                    |
| ٤٥٣    | وظائف المسجد الحرام بمكة                               |
| ٤٥٧    | العناية بالمدينة النبوية                               |
| ٤٦١    | ب - الاهتمام بشئون الحج والحجاج                        |
| ٤٦٤    | ج - الاهتمام ببناء المساجد                             |
| ٤٦٦    | د - الاهتمام ببناء المدارس ودور العلم                  |
| ٤٧٣    | هـ - الاحسان للرعية                                    |
| ٤٧٨    | و - الخدمات العامة                                     |
| ٤٨٧    | ز - حفظ الأمن                                          |
| ٤٨٨    | ح - الاهتمام بالزراعة                                  |

| المفحة              | الموضوع                                                |
|---------------------|--------------------------------------------------------|
| ٤٩٥                 | ط - الثروة الحيوانية                                   |
| ٤٩٥                 | ي - الاهتمام بالمناعة                                  |
| <b>الباب الثالث</b> |                                                        |
| ٤٩٦                 | <b>العلاقات الخارجية في ظل الخلافة العباسية</b>        |
| -----               |                                                        |
| ٤٩٨                 | <b>الفصل الأول : حركة الجهاد ضد المغول</b>             |
| ٥٠١                 | حصار المغول لدمشق ٦٥٨ هـ                               |
| ٥٠٤                 | الاستعدادات لمواجهة المغول                             |
| ٥٠٦                 | جهاد المستنصر بالله للمغول                             |
| ٥٠٨                 | أطماع المغول في خلافة الحاكم بأمر الله                 |
| ٥١٤                 | الخلافة العباسية وقائد المغول غازان                    |
| ٥٢٢                 | الخلافة العباسية وأطماع خدابندا                        |
| ٥٢٦                 | الخلافة العباسية وأطماع تيمور لنك                      |
| ٥٢٣                 | تهديد تيمور لنك لأراضي الخلافة                         |
| ٥٥١                 | <b>الفصل الثاني : حركة الجهاد ضد الملبيين</b>          |
| ٥٥٢                 | أوجه الشبه والخلاف بين الخطر المغولي ، والخطر الملبيني |
| ٥٥٥                 | تنظيم الجبهة الداخلية للخلافة العباسية                 |
| ٥٦٢                 | جهاد الملبيين في خلافة المستنصر بالله                  |
| ٥٦٣                 | الجهاد في خلافة الحاكم بأمر الله                       |
| ٥٦٩                 | فتح مدينة أنطاكية                                      |
| ٥٧٨                 | تحرير مدينة عكا من الوجود الملبيني                     |
| ٥٨٤                 | الجهاد في خلافة المستكفي بالله                         |
| ٥٩١                 | خطورة جزيرة قبرص على الموانئ الإسلامية                 |
| ٥٩٦                 | فتح جزيرة قبرص في خلافة المعتمد بالله                  |
| ٦٠٠                 | غزو جزيرة رودس                                         |



| الموضوع                                                        | الصفحة |
|----------------------------------------------------------------|--------|
| التحركات البرتغالية حول السواحل الاسلامية                      | ٦٠٩    |
| تزايد الأخطار التي تحدق بالخلافة العباسية                      | ٦١٤    |
| <b>الفصل الثالث : العلاقات الخارجية في ظل الخلافة العباسية</b> |        |
| مكانة سلطنة المماليك في ظل الخلافة العباسية                    | ٦٢٢    |
| أولا : بلاد الحجاز                                             | ٦٢٣    |
| ثانيا : بلاد اليمن                                             | ٦٢٨    |
| ثالثا : بلاد الهند                                             | ٦٣٦    |
| رابعا : بلاد المغرب                                            | ٦٣٩    |
| خامسا : امارة ذي القاد ر التركمانية                            | ٦٤٥    |
| سادسا : الدولة الصفوية                                         | ٦٥٣    |
| سابعا : الدولة العثمانية                                       | ٦٦٠    |
| <b>الخاتمة</b>                                                 |        |
| <b>فهارس البحث</b>                                             |        |
| فهرس الآيات القرآنية الكريمة                                   | ٧١٤    |
| فهرس الأحاديث النبوية الشريفة                                  |        |
| فهرس الأعلام                                                   |        |
| فهرس الأماكن والبلدان                                          |        |
| فهرس الأشعار                                                   |        |
| فهرس المراجع والمصادر                                          |        |
| فهرس الموضوعات                                                 |        |

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . اللهم اختم لنا بالخير واغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين آمين . وقد قام بحمد الله تعالى وحسن توفيقه طبع هذه الرسالة العبد الفقير الى رحمة مولاه تعالى : سعيد بن عطية بسيوني - غفر الله له ولوالديه ولما حبب الرسالة للمسلمين أجمعين - بمكتبة دار البخارى للنشر والتوزيع بالجامعة الاسلامية بالمدينة النبوية .



| المصواب                                              | الخطأ                        | السطر    | المفحة |
|------------------------------------------------------|------------------------------|----------|--------|
| التفاف                                               | التفاق                       | ١٥       | و      |
| الخارجية                                             | الخارجية                     | ١٦       | ز      |
| السلاطين المماليك                                    | السلاطين والمماليك           | ٦        | ح      |
| ( نجد الخليفة ٠٠٠ )                                  | نقص عبارة                    | ٦        | ٦      |
| وتختل                                                | وتحتل                        | ١٢       | ١٠     |
| الفتن                                                | الفتن                        | ٣        | ١٨     |
| رقعة                                                 | رفعة                         | ١٤       | ٢٤     |
| تقديم                                                | تقديم                        | ٨        | ٢٥     |
| الخليفة                                              | الخليفة                      | ١٦       | ٣٢     |
| طالب                                                 | طلب                          | ١٥       | ٣٥     |
| لا تول                                               | رتول                         | ١٥       | ٣٦     |
| لا يردعها                                            | لا يروعها                    | ١٦       | ٣٩     |
| انفرد                                                | استبد                        | ١٥       | ٤٠     |
| العباسي                                              | العباسي                      | هامش (٤) | ٤١     |
| الخلافة                                              | الخليفة                      | ٣        | ٤٢     |
| رقعة                                                 | رفعة                         | ٢        | ٤٣     |
| وقد بدأ                                              | وبدأ                         | ٩        | ٤٣     |
| تتضح هذه الآثار من خلال السمات التي ظهرت في فترة ٠٠٠ | نقص                          | ٦        | ٤٦     |
| الخرمية                                              | الخرمية                      | هامش (١) | ٥٢     |
| وكتب                                                 | وكاتب                        | ٤        | ٥٧     |
| المكنى                                               | المكي                        | ٤        | ٥٨     |
| لبيت الله                                            | بيت الله                     | ١١       | ٥٨     |
| فتأثر به بعض ٠٠٠                                     | فتأثر بعض                    | ٢        | ٦٠     |
|                                                      | تصحيح ترقيم المراتب من ١ - ٧ | هامش (٣) | ٦٠     |
| أماها                                                | اماسها                       | ٧        | ٦٢     |

| المصواب                                               | الخطأ         | السطر    | الصفحة |
|-------------------------------------------------------|---------------|----------|--------|
| في تحقيق تلك الرغبة                                   | في تلك الرغبة | ١        | ٦٣     |
| الرضي من آل البيت                                     | الضي          | ١٤       | ٦٥     |
| منازل                                                 | منازل         | ٥        | ٦٩     |
| ألفي فارس                                             | ألفي فارس     | ١٤       | ٧٢     |
| (... قدرات الخلافة العباسية المالية<br>والعسكرية ...) | نقص           | ١٦       | ٧٦     |
| عنزة                                                  | عنزة          | ٧        | ٧٧     |
| تقدم                                                  | يتقدم         | ١٥       | ٧٧     |
| ( القرن الثاني الهجري ... )                           | نقص           | ٢        | ٨٢     |
| ليثبتوا                                               | ليثبتوا       | ٤        | ٨٥     |
| الاسلامي                                              | الاسلامس      |          |        |
| الأعداء                                               | الأعداء       | ١٧       | ١١٩    |
| سكان                                                  | سلطان         | ٢        | ١٢٣    |
| فحجر عليه                                             | فحجر على      | ٩        | ١٢٣    |
| منهم                                                  | مهتم          | ٧        | ١٣٠    |
| لم تطل                                                | لم تظل        | ٧        | ١٣٤    |
| صلاحه                                                 | صلاحيته       | هامش (٢) | ١٦٠    |
| من محسن                                               | في محسن       | ٢        | ١٦٤    |
| في تولي                                               | لتولي         | ١٨       | ١٦٥    |
| توران                                                 | توراه         | ٣        | ١٧٥    |
| التغلب                                                | التغليب       | ٨        | ١٨١    |
| عن                                                    | على           | ٨        | ١٨٦    |
| رفض                                                   | رفض           | ١١       | ١٩٤    |
| له                                                    | لهم           | ٣        | ١٩٥    |
| شيخون                                                 | شيخزن         | ١٤       | ١٩٧    |
| على عودة                                              | الى عودة      | ١        | ٢٠٦    |
| فبعد                                                  | فبد           | ٣        | ٢١٩    |
| ( يتولى خطبة يوم الجمعة )                             | نقص           | ٢        | ٢٢٤    |

| المفحة | السطر | الخطأ      | الصواب                                                                                                                                       |
|--------|-------|------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ٢٢٦    | ٩     | يمنعها     | يمنحها                                                                                                                                       |
| ٢٢٨    | ٣     | ما كتبه    | ما يكتبه                                                                                                                                     |
| ٢٤٦    | ١٦    | ونفاه      | ونفيه                                                                                                                                        |
| ٢٤٧    | ١٠    | الخاليفة   | الخليفة                                                                                                                                      |
| ٢٦٥    | ١١    | نقص عبارة  | ( ٠٠٠ بقتال منطاش ومن معه من الأمراء المماليك ،<br>فلما قضى على مخالفه تلتف بالخليفة والسلطان<br>وبش في وجوههم ٠٠٠٠٠ ) .                     |
| ٢٦٧    | ١٣    | يظهر من    | يظهر في                                                                                                                                      |
| ٢٦٧    | ١٤    | الحملاط    | الخلاطات                                                                                                                                     |
| ٢٧٢    | ١٨    | في أي      | من أي                                                                                                                                        |
| ٢٧٦    | ١٣    | يتأثر      | يثأر                                                                                                                                         |
| ٢٧٧    | ١٨    | نقص        | ( وطاعة مدبر مملكته )                                                                                                                        |
| ٢٨٠    | ٨     | نائب الشيخ | نائب الشام                                                                                                                                   |
| ٢٨٥    | ٩     | الاحتراف   | الاحترام                                                                                                                                     |
| ٢٨٧    | ١     | تاظتھر     | الظاهر                                                                                                                                       |
| ٢٩٥    | ٣     | ووقع       | ووقع                                                                                                                                         |
| ٣٠١    | ٦     | خلع        | طلع                                                                                                                                          |
| ٣٠٢    | ١٦    | الخليل     | خليل                                                                                                                                         |
| ٣١٣    | ٧     | جميل       | جميع                                                                                                                                         |
| ٣١٦    | ١٧    | بيدة       | بيده                                                                                                                                         |
| ٣٢٥    | ١٨    | طرقة       | طريقة                                                                                                                                        |
| ٣٢٦    | ١٢    | ظلا        | ظل                                                                                                                                           |
| ٣٢٨    | ٦     | نقص عبارة  | ( ٠٠٠ فكانوا يحلفونهم بغير الله عز وجل من عتق وطلاق<br>حيث أصبحت في نفوس أولئك السلاطين والأمراء<br>أعظم من الحلف بالله عز وجل ٠٠٠ وأوثق ) . |
| ٣٤٨    | ٨     | نقص        | ( من غير المماليك )                                                                                                                          |
| ٣٥٨    | ٣     | كل مء      | كل من                                                                                                                                        |
| ٣٥٩    | ٩     | مليس       | المليس                                                                                                                                       |

| الصفحة | السطر | الخطأ          | الصواب                               |
|--------|-------|----------------|--------------------------------------|
| ٣٦٣    | ٦     | خدع            | خدمة                                 |
| ٣٧١    | ١٦    | وتجاوزا        | وتجاوزوا                             |
| ٣٧٢    | ٢     | الوائد         | العوائد                              |
| ٣٧٢    | ٩     | بيننا          | مبيننا                               |
| ٣٧٣    | ١٠    | وحسب           | وحسبه                                |
| ٣٧٣    | ١٢    | رمي            | رى                                   |
| ٣٧٨    | ٣     | تصحيح العبارة  | ( لا يحيط أحد بحمرها لكثرتها ... ) . |
| ٣٧٨    | ٧     | بنناء          | ببناء                                |
| ٣٨٢    | ١٥    | دقة الحسن      | دقة الحسن                            |
| ٣٨٧    | ٢     | مطبقا          | مطيقا                                |
| ٣٨٩    | ١٢    | أم ملت         | ان ملت                               |
| ٣٩٤    | ٥     | الساعة         | لساعة                                |
| ٣٩٧    | ٩     | الكلك          | الكلم                                |
| ٣٩٨    | ٩     | منواضعا        | متواضعا                              |
| ٤٠٧    | ١٧    | أفاد الطلب     | أفاد الطلبة                          |
| ٤١٥    | ٢     | المذاهب        | المواهب                              |
| ٤٢٤    | ٥     | الخليفة        | الخليقة                              |
| ٤٢٤    | ٦     | النقلات        | التقلبات                             |
| ٤٢٨    | ٥     | موفى الدين     | موفق الدين                           |
| ٤٣٢    | ١١    | أو تعليم غيرها | أو تعلم غيرها                        |
| ٤٣٦    | ٥     | لكثبة          | لكثرة                                |
| ٤٣٦    | ٦     | ختمت           | ختمن                                 |
| ٤٣٧    | ١٠    | عبد الفادر     | عبد القادر                           |
| ٤٤٢    | ٤     | الدولة         | الدول                                |
| ٤٤٤    | ١٠    | الممولكي       | المملوكي                             |
| ٤٤٥    | ٤     | ضد أحد         | مع أحد                               |
| ٤٥٢    | ١٦    | لخلف           | خلف                                  |
| ٤٥٣    | ٢     | الأبنية        | الأمنية                              |

| المصواب                                                                                                            | الخطأ                  | السطر | الصفحة |
|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|------------------------|-------|--------|
| الباب                                                                                                              | البواب                 | ١     | ٤٥٦    |
| ووجد طلبية                                                                                                         | ووجد الطلبة            | ١٠    | ٤٧١    |
| فمن                                                                                                                | ممن                    | ١٥    | ٤٧١    |
| وقلت                                                                                                               | وقت                    | ٦     | ٤٧٤    |
| الاهتمام                                                                                                           | لرهتمام                | ١٥    | ٤٨٦    |
| عليها                                                                                                              | عليهم                  | ٨     | ٤٨٧    |
| توزيع                                                                                                              | توزيلا                 | ١١    | ٤٨٨    |
| ( ٠٠٠ في مقابل تقوية سلطته ٠٠٠ )                                                                                   | نقص                    | ٢     | ٤٨٩    |
| في رى                                                                                                              | من رمي                 | ٩     | ٤٩٢    |
| معه                                                                                                                | مع                     | ١     | ٤٩٧    |
| هيشوم                                                                                                              | هيتوم                  | ١٤    | ٤٩٩    |
| ( ٠٠٠ والسواعد قد شُمرت وعناية الله بالشام وأهله<br>قد حملت ، ورحمته بهم قد نزلت ، فعند ذلك نكمت<br>شياطينهم ٠٠٠ ) | نقص                    | ١٠    | ٥٠٢    |
| من الجند                                                                                                           | كن الجند               | ١٨    | ٥٠٦    |
| وأنفق عليه                                                                                                         | واتفق عليه             | ٣     | ٥٠٧    |
| خاصة بعد أن                                                                                                        | خاصة أن                | ٢     | ٥٠٩    |
| فقد                                                                                                                | منذ                    | ٤     | ٥٠٩    |
| تحتاج                                                                                                              | تحتلج                  | ١٣    | ٥٠٩    |
| علموا                                                                                                              | عملوا                  | ١٧    | ٥١٠    |
| لثلا                                                                                                               | لئة                    | ١     | ٥١١    |
| وانقسم                                                                                                             | وانفسهم                | ١٧    | ٥١١    |
| ( ٠٠٠ فلما جاء الليل لجأ المغول الى الجبال و ٠٠٠ )                                                                 | نقص                    | ٣     | ٥٢١    |
| يجيئون بهم في الجبال                                                                                               | يجيئون بهم في الجبال   | ٥     | ٥٢١    |
| وعرض على                                                                                                           | وعلى على               | ٤     | ٥٢٤    |
| الأمراء المغول                                                                                                     | الأمراء املغول         | ٥     | ٥٢٥    |
| الى مقر ملكه ببغداد                                                                                                | الى محمد مملكته ببغداد | ٩     | ٥٢٩    |
| با يزيد الأول                                                                                                      | با يزد الأول           | ١٧    | ٥٣٠    |

| المصواب                                    | الخطأ       | المفحة | السطر |
|--------------------------------------------|-------------|--------|-------|
| ( ٠٠٠ ويعد هم بحضور الخليفة العباسي ٠٠٠ )  | نقص         | ٥٣٤    | ٤     |
| وان لم                                     | وام لم      | ٥٣٤    | ٩     |
| وولت                                       | ودلت        | ٥٣٦    | ٣     |
| دمشق                                       | دمشث        | ٥٣٨    | ٩     |
| أسفر                                       | أصفر        | ٥٣٨    | ١٣    |
| التي سعى                                   | لتي سعى     | ٥٤٤    | ١١    |
| قادة مغول فارس                             | قادلا       | ٥٤٧    | ١٠    |
| الكيانات                                   | الكليات     | ٥٤٨    | ٢     |
| عد ومشارك                                  | عدد مشترك   | ٥٥٢    | ٣     |
| والمليبيون                                 | والمليبيين  | ٥٥٣    | ١٩    |
| المظفر قطز                                 | الظاهر قطز  | ٥٥٤    | ١٨    |
| لحكمه                                      | بحكمه       | ٥٥٥    | ١٧    |
| من مصر                                     | في مصر      | ٥٥٦    | ٦     |
| اذ                                         | اد          | ٥٥٧    | ١٢    |
| يوما                                       | يزما        | ٥٦٤    | ٢     |
| ففرح                                       | فلرح        | ٥٦٧    | ١٣    |
| قبض                                        | قيض         | ٥٦٨    | ٥     |
| اليه                                       | عليه        | ٥٧٦    | ١٧    |
| ( ٠٠٠ قلاوون قبل خروجه في تلك الحملة ٠٠٠ ) | نقص         | ٥٧٨    | ١٦    |
| حصونا طالما                                | حصونا لما   | ٥٨١    | ١٤    |
| قائد العساكر السلطانية                     | قائد العسكر | ٥٨٥    | ١٤    |
| في مائة                                    | من مائة     | ٥٩٢    | ٩     |
| العثماني                                   | العثامي     | ٦٠١    | ١٦    |
| مراكب                                      | مركب        | ٦٠٤    | ٣     |
| قاصد ملك قبرص                              | قاصدا       | ٦٠٦    | ٣     |
| في أهلها                                   | من أهلها    | ٦٠٦    | ٦     |
| السياسية                                   | السيتسية    | ٦٠٩    | ١٢    |

| المصواب        | الخطأ          | السطر | المفحة |
|----------------|----------------|-------|--------|
| الاصدقاء       | الاصداقاء      | ٢     | ٦٢٢    |
| ملك المغول     | بملك           | ١٥    | ٦٢٥    |
| بدأت           | قدأت           | ٢     | ٦٣٦    |
| باسم الملك     | باسم المالك    | ١١    | ٦٤٠    |
| لقتاله         | لقاله          | ١     | ٦٥٢    |
| ينشرح          | ينشرخ          | ٦     | ٦٧٥    |
| طلبنا          | طلب            | ١٣    | ٦٧٥    |
| سيتوجه         | ستوجه          | ٦     | ٦٧٨    |
| وفيه السلطان   | وفيهما السلطان | ٣     | ٦٨٥    |
| للتجار والعامه | للتجارة العامه | ٣     | ٧٠٧    |
| الماليك        | الماليه        | ١١    | ٧١٢    |